خالفه معمري

عبّان رمضان



تعريب: زينب زخروف



خالفه معمري



عبّــان رمضــان

تعريب: زينب زخروف



هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين
بمناسبة الذكرى الـ 45 لعيد الاستقلال والشباب



Titre : ABANE Ramdane
Auteur : KHALFA Mameri
Traductrice : ZAGHROUF Zineb
Editeur : Thala Editions



تمت الترجمة في المعهد العالي العربي للترجمة . جويلية 2007

طبعة ثانية خاصة بوزارة المجاهدين، 2008

رقم النشر : 136- 2008

الإيداع القانوني : 200 - 2007

ردمك : 978-9961-905-62-3

إكراما لروح التسامح الذي من دونه قد تفقد الجزائر يوما ما رجالا كثيرين من أمثال عبان رمضان بل قد تفقد حتـــى هويتها وحريتها، أكرّس هذا الكتاب.

خالفة معمري

Titre
Auteur
Traductu
Editeur

200

﴿والمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي البَأسَاءِ والضَّرَّاءِ وحِينَ البَأسِ أُولَئِكَ الذِينَ صَدَقُوا وأُولَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ﴾.

(سورة البقرة، الآية 177)

"إنما يختفي العباقرة الذين يصنعون الثورات، ولا يبقى سوى أصحاب الفكر الثانوي الذين ينتفعون منها".

شاتوبريان، "مذكرات ما بعد الموت".

"ليس هناك تاريخ حقيقي، هناك سير ذاتية"

ايمرسون

مقدمة الطبعة الثالثة

(الطبعة الفرنسية)

إن توجب إصدار الطبعة الأولى من هذا المؤلف بفرنسا في شهر جانفي من عام 1988 يحمل لوحده أكثر من دلالة على الانغلاق الذي كانت تتخبط فيه الجزائر. هل تغيرت الأمور كثيرا منذئذ ؟ ليس بالقدر الكافي. لقد ظن عدد كبير من الجزائريين بعد النكبة الاجتماعية لأكتوبر 1988 أن الأمور تغيرت بالمرة. فعرض دستور جديد في فيفري 1989 وميلاد وبروز عشرات الأحزاب السياسية وإنشاء جرائد عديدة بعث على الاعتقاد بأن الديمقراطية قد رأت النور عندنا أو أنها باتت في متناولنا. يا للوهم الكبير. وما انفكت المفاجآت تتعاقب حيث تم سرا حل المجلس الشعبي الوطني الذي كان بمثابة التعبير عن سيادة الشعب رغم أنه انتخب في ظل الحزب الواحد ليضطر بعدها رئيس الجمهورية الذي ظل متشبثا بالحكم لمدة تزيد عن ثلاث عشرة سنة على مغادرته بسرعة تحت ضغط ما أو بسبب عجزه على أداء دوره في ظرف مأساوي كان يواجه فيه المجتمع الجزائري تهديدا كامنا بالغرق والزوال. وفي أقل من ستة أشهر، اغتيل رئيس الدولة الجديد، والمريع في ذلك تلك الدوامة من العنف الرهيب التي جرفت الشعب برمته في هولها.

في هذا الوقت الذي أدون فيه أفكاري لا أحد يدري إلى أين تتجه الجزائر وهل يمكن فعلا إنقاذها من الكارثة.

يمكننا بكل تأكيد أن نأمل في نهاية قريبة لحرب لا ملامح لها، لكن هيهات أن تشفى الذاكرة الجزائرية من آلامها. فلا الزمن ولا روح التسامح بوسعهما التعويض عن الخسائر المادية و البشرية التي ألحقت بالوطن بلا مبرر.

إن أصر على التذكير بالوضع المأساوي الذي يعرفه كل واحد منا، وذلك لأننا نعايشه يوميا منذ أكثر من أربع عشرة سنة، فإنما للقول أن حرية التعبير والنشر لا تزال بعيدة المنال في مبدئها إذ أنها تلقى اعتراضا في ممارستها من خلال أشكال متعددة للمنع وعند الاقتضاء، عن طريق الضغط بل الحبس الذي قد يتعداه أحيانا للتصفية الجسدية كتلك ذهب ضحيتها العديد من مفكرينا صحافيينا.

هل ابتعدت عن التقديم المختصر للطبعة الثالثة من الكتاب؟ ما أظنني فعلت. واليوم كما الحال بالأمس لا تزال الكتابة، التي تقتضي تحررا فكريا كليا، حبيسة القيود لا سيما في كل ما يتصل بتاريخ بلادنا الساخن والشائك وبالأطراف الفاعلة لحاضرنا.

لقد قررت نشر طبعة ثالثة خصصت لسيرة عبان رمضان منذ عشر سنوات خلت (الأعمال التحضيرية بدأت عام 1982) دون أن أدخل عليها التعديلات التي تستدعيها وذلك لسببين:

أولهما هو النجاح الذي لقيه الكتاب إذ كان الإقبال عليه كبيرا من قبل الكتبيين والقراء بالرغم من ثمنه الباهظ.

فأجدني في الوقت ذاته ملزما معنويا بتلبية هذا الطلب.

أما السبب الثاني فيعود إلى المصدر الأول الذي يقوم عليه مشروعي هذا. فهو يتمثل في كيفية التعريف بأبطال حربنا التحريرية وبالأخص عبان رمضان وكيفية صد المحاولات الماكرة والخبيثة التي ترمي إلى إسقاط اسمه من ذاكرة شعبنا الجماعية والحط من مكانته ودوره.

أتساءل دوما، وبكثير من الألم، عن تلك النزعة التي تسيطر علينا، نحن الجزائريين، على المستوى الرسمي على الأقل، في تفضيل المنهزم على المنتصر.

من غير أن أعود بعيدا في التاريخ لإبراز كيف تجاهلت الجزائر الرسمية بكثير من المكر رجالا صنفوا من بين عباقرة العالم فإن الغضب والسخط يغمراني عندما أتذكر أن عبان رمضان الذي يزيد همة و شأنا كلما زاد تعرفنا عليه قد همش مطولا في الساحة السياسية الجزائرية. صحيح أن القادة الأولين لبلدنا، في خلطهم بين صغر "الأنا" الشخصية و"الذات" الجماعية لشعب صنعه التاريخ، قد ظنوا أنهم انتقموا منه. كانوا يجهلون حينئذ أن الجزائر بأكملها هي التي ضربت في كيانها وضميرها طالما انه من المستحيل تحريف التاريخ باستمرار. والشعب الذي لا يطالب باستفسارات ولا يصدر أحكاما سيدفع حتما الثمن إن عاجلا أو آجلا. من الذي يتجرأ اليوم على الإنكار أننا كلنا كجزائريين أضحينا اليوم أمام "محاسبة" التاريخ لأننا تركنا منذ الاستقلال، أشياء فظيعة تحدث باسمنا جميعا إما لجني مصلحة ما وإما بجبن فقط؟ فحذار ثم حذار من تخدير الضمائر.

كل مواطن يعيش في إطار دولة يضحى مسؤولا عما يحدث للآخرين إذا تخلى عن حقه في التعبير وعن قدرته على العمل. إنه من غير الصائب ادعاء العجز عن فعل أي شيء. كل مواطن بوسعه، من دون اللجوء إلى أقصى الوسائل، أن يصرخ استياءه ورفضه أن يكون شريكا في عملية إذلال شاملة.

سعيي لإصدار طبعة جديدة عن السيرة الذاتية لعبان رمضان يندرج ضمن هذا المنظور. فكلما قرء الكتاب، كلما تعمقت، وآمل ذلك كثيرا، فكرة المواطن حول إسهام هذا البطل الفذ.

وما توصلت الشعوب إلى تشييد أمم عظيمة وحضارات راقية إلا من خلال تمسكها بأبطالها.

هل لدينا، نحن الجزائريون، من الرجال العظماء كثرة حتى ننبذ من تاريخنا أولئك الذين نحتوا فيه أسماءهم بأحرف من ذهب؟

بعد رد اعتبار منقوص غير كامل وبعد صمت دام ثلاثين سنة هاهو ذا عبان رمضان يتعرض بمكر للانتقاد فيما أنجزه. سئل مؤرخ أمريكي مؤخرا كيف يمكن الحكم على الجنرال واستمورلاند (Westmoreland) الذي كان يقود الفرق الأمريكية بفيتنام مقارنة بأسماء كبار جنرالات الحرب العالمية الثانية فرد مازحا : الفرق كله يكمن بين الهزيمة والنصر.

لماذا لا نطبق مثل هذا الحكم السديد والمتبصر على تاريخ بلدنا؟ أيعقل أنه كان من الممكن فعلا انتزاع استقلال الجزائر في غياب حشد و تجنيد لكل القوى الوطنية ودون مؤتمر الصومام؟ بكل بساطة وكل سذاجة لا. ومن يا ترى وراء هذين الحدثين الاستثنائيين والفريدين في تاريخ بلدنا إن لم يكن عبان رمضان؟

يمكن بطبيعة الحال، التعليق والمجادلة مطولا حول جوانب عديدة ومختلفة لكن لا يمكن فعل ذلك إطلاقا بشأن تدبير وتسيير هذين الحدثين اللذين يعتبران مبادرته الخاصة.

وينبغي التذكير في هذا المقام بما يلي:

1. القوى السياسية آنذاك (1955-1956) كانت منقسمة ومتعارضة على غرار ما هي عليه اليوم. لنفرض لحظة أن هناك رجل قادر على إعادة الهدوء وتحقيق المصالحة والسلم في جزائر اليوم. ألا يصح أن نعتبره منقذا ومن واجبنا تسجيل اسمه بين مشاهير الأمة والتاريخ؟ بكل تأكيد نعم. عبان قد حقق هذه المعجزة.
2. الجبال الجزائرية كانت فور إطلاق أولى عمليات الفاتح من نوفمبر 1954 عرضة للتضييق و الارتجال و غياب تنسيق كلي.

لقد حقق عبان رمضان إنجازا آخرا من خلال تنظيم مؤتمر الصومام وبالأخص من خلال تمرير أرضية عززت الثورة الجزائرية بمبادئ ومؤسسات كانت تفتقد إليها أيما لفتقاد والتي أرست لها درب الانتصار وجعلتها لا تزول بزوال الرجال و الأحداث.

نؤكد في هذا المقام أن مؤتمر الصومام أضفى على الثورة الجزائرية نفسا جديدا فبعثها وسار بها إلى الخلاص.

أفي ذلك مبالغة؟ لا يظن ذلك إلا الذين يجهلون ثمن الحرية أو الذين لم يتمكنوا حتى من استخلاص العبر من الماضي.

إن كنت ألح كل هذا الإلحاح على هذه النقطة فلأننا، نحن الجزائريين، وعكس الشعوب الأخرى، لا ندرك جيدا أن المؤسسات، وليس رجال السياسة، هي التي تزود الأمم بالقوة وأسباب العظمة و الدوام.

هذا ما جعل من عبان رمضان رجلا عظيما وما ميزه عن باقي قادة الثورة الأخرين. كان على يقين من أن الرجال بطبعهم ميالون لحب الذات والسلطة. كان يدرك أيضا أن نفس هؤلاء الرجال ضعفاء وخطاءون ثم أنهم آئلون للفناء وأن المؤسسات لا تزول بزوال الرجال كما أنها تصمد رغم ضعفهم وأخطائهم وحتى رغم عجاج الحرب واضطراباتها. كانت نظرته صائبة. من يجهل أن لجنة التنسيق والتنفيذ والمجلس الوطني للثورة الجزائرية كانا وراء استمرار الثورة وانتصارها. عبا ن نفسه وآخرون قد أبعدوا من هذين الجهازين ولم يكن في إبعادهم أي خطر على الكفاح ولا على الهدف المتوخى.بعبارة أخرى، المؤسسات التي وضعت آنذاك لم تكن ملك لرجل و إنما ملك شعب مكافح برمته.

ولأن الجزائر المستقلة تجاهلت هذا المبدأ بالذات، فها هي اليوم تشهد أوضاعا تزداد سوءا وتدهورا لأن كل رئيس فيها جاء بدستوره بينما لم تغير الولايات المتحدة دستورها منذ عام 1787 ولا فرنسا منذ 1958.

لا دستور من بين الدساتير الثلاثـة التـي اقترحـت علـى الـشعب الجزائري، على غرار ما فعل لويس XVIII بعد عودته من المنفى، بقـي قائما بعد مغادرة صاحبه. فدستور 1963 الذي أصدره بن بلة دفـن بعـد انقلاب 1965 ودستور بومدين لسنة 1976 تعرض لاختراقات عدة فـور وفاته عام 1978. أما دستور الشاذلي بن جديد الصادر في 1989 فلم يبقى له سوى وجود وهمي بعد مغادرته في 1992 في انتظار استخلافه بدسـتور زروال الذي هو حاليا مطروح للاستفتاء.

في الحقيقة، إنما تقدر قيمة المؤسسات من خلال قدرتها علـى البقـاء والاستمرار. وهنا يكمن الفرق كله بين المؤسسات التي وضـعها عبـان رمضان خلال مؤتمر الصومام والتي بقيت رغم الحرب وتصفيته وتلـك تم ارتجالها وفرضها منذ الاستقلال وهي لا تمت لواقع الجزائر بـصلة. ولنسلم بأن الفرق شاسع هنا.

لا يهم في النهاية أن نحب شخص عبان رمضان أو لا وإنمـا يتعلـق الأمر فقط بالاعتراف بإسهامه العظيم في ثورة 1954.

أدعو الله أن يشهد لي القارئ بذلك في قرارة نفسه بعد الانتهـاء مـن قراءة الكتاب.

خالفة معمري

الجزائر، نوفمبر 1996.

مقدمة الطبعة الرابعة

(الطبعة الفرنسية)

جاءت الطبعة الرابعة من الكتاب المخصص لعبان رمضان استجابة لطلب القارئ وإرضاء لضميري.

كان القارئ وبسبب اتهامات غير معقولة زادت من حيرته وانشغاله، بحاجة ماسة إلى البحث عن أدلة وحقائق وبحاجة إلى وثائق أصلية. فالوثائق متوفرة وتحمل تاريخ 1955-1956 و1957 الأمر الذي يجعلها في منأى عن أي تحريف.

لقد حاولت الاستعانة بهذه الوثائق حتى أفحم متهمي عبان رمضان الذين يكونون قد وقعوا في الفخ الذي نصبوه بأنفسهم.

فضلا عن ذلك، فان الطبعة الثالثة التي نشرت عام 1998 قد استنفدت في مدة لا تزيد عن عامين مما جعل من إعادة نشرها أمرا حتميا وضروريا.

ففي نفس الفترة تقريبا -بين 2000 و2002- وجه رئيسا دولة سابقان اتهامات متناقضة وكاذبة حيكت في سرية تامة منذ أكثر من 40 سنة خلت.كان من الممكن لهذه الاتهامات التي تناقلتها وضخمتها قنوات تلفزيونية خدمة لنزعة العروبة التي كانت تخدم مصالحها، أن تلحق ضررا كبيرا من المستحيل تداركه بالنظر لجهل المستمعين والمتفرجين حينها لحقائق الأمور.

بدافع الحرص على موضوع بحثي، ليس إلا، ارتأيت انه من واجبي الرد كما فعلت شخصيات عديدة عرفت عبان رمضان وناضلت إلى جانبه.

أكثر من ذلك، فإن محاكاتي لهذا الأخير لمدة زادت عن عشرين سنة من خلال الأبحاث والكتابات والندوات والنقاشات وحتى من خلال الصداقة التي تولدت مع أقربائه وهذا أمر يزيدني شرفا، أصبحت نوعا ما حامي الإرث والرسالة.

تحمسي الكبير دفعني للسعي للرد بتأليف هذا الكتاب ولم أكن أدرك الصعوبات التي كانت تنتظرني.

لقد ألغى التلفزيون الجزائري مرتين برنامجا من ساعتين سجله المخرج بحضور جمهور ليمنعه بعد ذلك بحجة " اعتراض لجنة الرقابة عليه" كما أن رسالة الاحتجاج والاستنكار التي وجهت فورا لكل من مسؤول القناة ورئيس الحكومة آنذاك لم تلق أي صدى.

أكثر من ذلك كله، عرفت حصة مماثلة كنت سأخصصها لبطل آخر لحرب التحرير -العربي بن مهيدي- نفس المصير.

لم يتم الاتصال بي ثانية مع أن أبواق النظام كانت في تلك الفترة، وعلى غرار دأبها، تتبجح بحرية التعبير في الجزائر.

يا للمسخرة ويا للمأساة. أيعقل أن يمنع عبان وبن مهيدي اللذين قدما إسهاما عظيما من أجل تحرير البلاد من احتلال المكانة التي تليق بهما في التلفزيون الذي ما كان ليصبح على ما أصبح عليه إلا بفضل تضحياتهما الجسام.

إنكار للحرية كان مبعثا للسخط والاستياء ولم يتم التوقف عنده من أجل ردع أدنى رغبة في الاستمرار.

فقد رفض أربعة ناشرين من الناشرين الرئيسيين في البلاد -اثنان خاصان واثنان تابعان للدولة- وقد سبق لهم وأن نشروا بعضا من مؤلفاتي، إعادة نشر السيرة الذاتية لعبان رمضان التي ألحقت بمقدمة من أربعين صفحة بتقديم حجج عديدة ومختلفة. بعضهم كان يخشى على

منصبه والبعض الآخر كان متخوفا من أن لا يشرك، في أحسن الظروف، وهي تقديرية، في توزيع الصفقات العمومية المربحة.

قد أثير دهشة القارئ وربما قد أصدمه، لكني كنت فعلا على استعداد لتفهم ذلك المنطق الذي فرضه الزمن حتى وإن كان مشروعي ضحية له.

لقد فهمت منذ زمن بعيد أنه إذا رأت الجزائر كل أحلامها تتلاشى وأضحى أكبر عدد من سكانها وأفقرهم يعيشون بؤسا لا يطاق بالرغم من كفاحها البطولي وبالرغم من الثروات البشرية والمادية الحقيقية المتوفرة لديها فذلك لأن الحرية بشتى أشكالها لم تكتسب ولم تكرس و لم تنتزع أبدا.

أينبغي الاستسلام لليأس؟ لكل واحد أن يحدد موقفه بما يمليه عليه ضميره لكن شريطة أن يعترف، استنادا للمقولة الجزائرية القديمة "يد واحدة ما تصفق"، أن الحرية قضية الجميع وللجميع.

فيما يخصني، أطلب من القارئ أن يعود إلى مقدمة الطبعة الثالثة التي طرحت فيها نفس المشاكل وأشرت فيها إلى نفس التحذيرات لكن من دون جدوى.

لقد سجلت الجزائر تراجعا فظيعا في ظرف عشر سنوات في مجال الحريات العامة فكفى تحججا بالضمير وبالسياسة، فالأمر هنا يتعلق بمصير الجزائر الحقيقي.

خالفة معمري

الجزائر، أكتوبر 2005

إلى تعطش الجزائريين للمعرفة خاصة وقد حُرموا -ولمدة طويلة- من الإطلاع على تاريخهم العميق، الواقعي والحقيقي لبلادهم؛ وفي نهاية المطاف فإن الإقبال على كتاب حول عبان رمضان يرجع كذلك إلى القيمة الحالية والأبدية لرسالة هذا البطل. فما فحوى هذه الرسالة؟ ولعلي ألخصها في كلمتين: تجمُّع ومؤسسات. هذا التجمّع الذي كان عبان الرجل الوحيد الذي عمل على تحقيقه منذ...سنة 1930!

والله يعلم كم كانت المهمّة شاقة وعسيرة حتى ظنّ بعضهم أنها ضرب من المستحيل.

فالجزائر آنذاك، جزائر ما قبل 1954، كانت بلداً منهاراً مُنقسما ومنفجراً بصورة لا مثيل لها. بل والأدهى من ذلك أنها كانت جزائر منهارة العزيمة.

وأمام تشبُّثه بمبادئه واعتزازه بنفسه توصّل عبّان رمضان إلى تجميع "الوسطيين" و"الإصلاحيين" و"الشيوعيين" ومؤيدي العلماء المسلمين، مستندا في ذلك إلى أعسر طريق، طريق ما تبقى من "الاستقلاليين".

وأمام المشهد الممزّق لدول تفتقر إلى مؤسسات حقيقة وديمقراطية تتقاذفها نظم يغلب عليها الطابع الشخصي، تظلّ رسالة عبان رمضان أبدية. وعلى القارئ أن يُدركها!

خالفة معمري
الجزائر، جويلية 2007

شكر

ما كان لي أن أفكر أول مرة في إنجاز سيرة ذاتية لعبان رمضان لو لم أتلق التشجيع اللازم. ولا يفوتني في هذا المقام أن أزف مشاعر التقدير والعرفان للأشخاص الذين عرفوه في مرحلة ما من حياته والذين لعب البعض منهم دورا جوهريا رفقته.

رغم المساعدة القيمة التي قدمت لي من أجل إنجاز عمل بهذا القدر من الحساسية، أود التصريح بتحمل كامل المسؤولية عما أكتبه كما ألتمس عفو كل من ساعدوني إن كنت ألحقت تغييرا أم تحريفا -غير مقصود- على الأقوال التي استقيتها. لقد كان أخذ رؤوس أقلام خلال الشهادات التي كانت أحيانا طويلة وشائكة ومؤثرة الوسيلة الوحيدة التي انتهجتها. لم أفكر لحظة في اللجوء إلى استعمال المسجل الذي يبقى أفضل طريقة إلا أنني امتنعت عن ذلك لأسباب عديدة من السهل تصورها وفهمها.

وأمام استحالة ذكر كل الذين أدلوا بشهادات مباشرة أو غير مباشرة والذين خصوني بكثير من الصداقة والود وإن طغى عليهما الاندهاش والفضول، سأكتفي بالتطرق، مع الاعتذار مسبقا للآخرين، إلى أسماء لم أجد في مساعدتها الثمينة مجرد مساهمة فحسب وإنما تشجيعا معنويا ضروريا مكنني من إتمام عملي.

أذكر على رأسهم، الرئيس بن يوسف بن خدة، الرئيس السابق للحكومة المؤقتة للثورة الجزائرية الذي استضافني ست مرات. ولقاء رئيس حكومة ليس بالأمر الهين عندما نعلم أنه حمل لوحده و لمدة من الزمن صورة و أمل شعب مكافح بأكمله. لقد كان لحلمه ورصانته و تواضعه وقع كبير في نفسي وإيمانه بالحقيقة أمام التاريخ كان الإيمان ذاته.

أما سعد دحلب، فقد كانت عندي فكرة عن ذكائه ونظرتـــه الثاقبـــة إلا أنني وجدت لديه ميلا للعودة للتاريخ في عمومه لكن دون إغفال أدنـــى التفاصيل وأدقها.

رفقة بلعيد عبد السلام قمت بجولة رائعة في أعماق الحركة الوطنيـة الجزائرية. عرف عبان في سطيف عامي 1948-49 وكان حينها حـديث التخرج من الثانوية ليلقاه بعد فترة في وجدة إثر "معركة الجزائـر" المريـرة. سرعان ما أدركت، وأنا أستمع إليه يتكلم بكل هدوء وثقـة وكثيـر مـن العزة، كيف تمكنت الصناعة الجزائرية من البروز بفضل إرادة وعزم هذا الرجل. فلو طلب مني أحد يوما ما تعريف رجل الدولة لقلت له دون تردد أن يذهب لمقابلة بلعيد عبد السلام إن تسنى له ذلك والاستماع إليه.

من بين كل الزيارات التي قمت بها، كانت الزيارتان الاثنتـان اللتـان جمعتاني بالعقيد صادق (سليمان دهيلس) قد أثارتا مخاوفي وأثرتـا فـي نفسي. كان التخوف نابعا من التحذيرات العديدة التي تلقيتها والتي مفادها أن العقيد السابق للولاية الرابعة لم يكن يستقبل أحدا. لكن بفـضل ابنتـي رشيدة التي كانت تدرس بنفس المدرسة التي تراودها ابنته، تمكنت مـن تجاوز ذلك التردد وقد استقبلني وحتى أنه شرفني بحضوره إلـى بيتـي. ولعل في ذلك تكذيب لما روج عن صعوبة طباعه. ما أعمق تأثري حين وجدت نفسي قبالة من كانت زوجة عبان رمضان.

ويمكن أن أقول أنني لم أقترب من شخصه كما فعلت عندما اسـتمعت في صمت رهيب وحزن يصعب كتمانه، إلى الشخصين اللذين كانا أقرب أناس إليه. أعترف أنني، من وراء الكلمات التي كانت تتخللها ضـربات باليد على المقعد، اكتشفت في شخص دهيلس رجلا قويا ملمـا بـشؤون السياسة وأسرار ثورتنا وما كان من ذلك إلا أن زاد احترامي وتقديري للرجل.

عقيد آخر -يوسف خطيب المعروف بالعقيد حسان- أحاطني بترحاب وحفاوة تركا في نفسي عظيم الأثر. تجرأت على مخاطبته بسوق في الأبيار ولم أكن أعرفه بعد. فور إطلاعه على المشروع، راح يشجعني في مبادرتي وفور أول مكالمة، استقبلني في عيادته الكائنة بشارع ديدوش مراد ليحدثني، أصلا، عن مشوار بطل آخر من أبطال لحرب الجزائر العقيد سي محمد. ودار الحديث بطبيعة الحال حول نقاط أخرى منها على وجه الخصوص مؤتمر الصومام.

لم أجد صعوبة كبيرة في مقابلة عمر أوصديق، رائد سابق في جيش التحرير الوطني بالرغم ما بلغني عنه من صعوبة طباع.كان ملما بأدنى التفاصيل الخاصة لحركة الوطنية الجزائرية وكان من مناضلي الرعيل الأول فيها.

وددت لو استمعت إليه مطولا لما تميزت به تحاليله من عمق ودقة. كان ينبذ النجومية والشعب وحده كان جديرا في نظره بالإشادة والتنويه.

عندما توجهت عند سي أحمد بودة وأنا أحمل توصية من الرئيس بن خدة، حملتني الذكريات بعيدا لتعود بي إلى مرحلة الطفولة: وأنا في الرابع عشرة من العمر، كثيرا ما كان الحديث يدور حول هذه الشخصية الفذة في الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية. زاد إعجابي به بعدما استمعت إليه مطولا. كان يحدثني وكأني ابنه و قد ازدادت أقواله مصداقية في نظري عندما شاهدته على صورة إلى جانب عبان رمضان.

والمناضل الآخر -علال ثعالبي- ساعدني كثيرا بفضل معارفه الواسعة والقيمة التي تنم عن تفكير معمق و مستمر. بصفته مسؤولا سابقا عن منظمة جبهة التحرير الوطني في المغرب وعضوا دائما في المجلس الوطني للثورة الجزائرية فانه ساهم هو الآخر في صنع تاريخنا ولقد جعله سخاؤه يزودني بكل ما توفر لديه من معلومات رغم أنه كان بنفسه بصدد إعداد مؤلف عن مشواره.

هناك شهود كثيرون أود أن أتقدم لهم بجزيل الشكر على ما لمستهم لديهم من استعداد وحفاوة وصداقة. بعضهم سلمني صورا ووثائق ثمينة باعتبارها فريدة. والتمس منهم العذر إن ذكرتهم دونما ترتيب. ويتعلق الأمر بالسادة صالح لوانشي ولخضر رباح وعبد الرحمن كيوان ومولود قايد وشيخ خير الدين وبوعلام بورويبة والأستاذ مبروك بلحسين والأستاذ عبد الرزاق شنتوف والدكتور مولود بلوان والدكتور عبد القادر كلاش ومحمد كلاش ومختار بوشافة ورشيد علي باشا وحسن دهام ومبارك جيلاني وصالح مبروكين ومولود تواتي وحسين بلميلي وعبد الكريم حساني وأحمد فوفة وأخيرا وليسوا أقلهم أهمية، اقرب المقربين من بطلنا: حسان ابنه وعمر أخاه الأكبر وأحمد ابن عمه.

إلى كل هؤلاء الذين لم يبخلوا علي لا بوقتهم ولا بأسرارهم ولا حتى بصداقتهم، أتوجه بأسمى عبارات التقدير والعرفان.

كما أود أخيرا أن أقدم جزيل الشكر لمواطنة بوروندية السيدة باسكازي التي أرهقتها بتكليفها قراءة مخطوطاتي والعمل على رقنها مدة أشهر طويلة.

شكرا جزيلا للجميع

خالفة معمري

تقـــديـــم

"اعلم أن التشدد كثيرا ما يقف عثرة في طريقنا ، فلو وضعت حديـدا صلبا على النار لرأيته ينكسر ...

إن الذين يمكرون في الخفاء سينكشفون لا محالة، لما يعتري تصرفاتهم من اضطراب، لكن أكثر ما أبغضه هو سعي مذنب متلبس إلى تبييض جريمته".

كريون، في "أنتيغونة" للشاعر سوفوقليس.

لقد ترددت كثيرا قبل أن أدرج اسم عبان رمضان ضمن قائمة أبطـال حرب الجزائر التي أنا بصدد إنجازها. ليس لعدم وجود مكانة له فيها لكن ذلك راجع بكل بساطة إلى خوف مبهم كان يهز كياني كلما أعدت قراءة الظروف التي أحاطت بموته و خشية من فتح جرح عميق لم يلتـئم بعـد وأخيرا، لأنني أظل مقتنعا أنني لن أضيف جديدا في هـذا الـشأن. كمـا أن الحديث عنه يجرنا حتما إلى التركيز أكثر على موته منه على حياته. فجل الأشخاص الذين التمسنا شهادتهم قد أبـدوا نوعـا مـن الاخـتلاج والرعشة وكأن في المكان أذنا تسترق السمع أو يدا ستطال كل من تجرأ على ذكره. لا شك أن الثورة الجزائرية تجـر وراءهـا جثمـان عبـان رمضان. وطالما ستظل ظروف موته محاطة بالسرية التامـة و طالمـا لا يسلط عليه الضوء بشجاعة وهدوء وعلنية باعتباره حلقة أساسية لكن أليمة من تاريخنا المعاصر، سيبقى هذا الانزعاج وهذا الخوف اللاشعوري يسيطر على كل الشهود الرئيسيين الذين عرفوه.

رغم ضخامة اللغز -وحتى إن كان الكثير مما كتب عن وفاتـه(1) وكـل ما قيل في هذا الشأن متطابقا ومتقاربا- وبالرغم من الخوف الـذي لا يـزال ينتابني، فقد قررت بكل وعي أن أتجاوز ولو مؤقتا هذه المخاوف لأنني أعتقد

أنه لا يحق أن أضيف إلى موت لم ينصفه، -وهذا أقل ما يمكن قولـــه الآن- إقصاء رجل يشهد له الجميع، من خصوم، و ما أكثرهم وما أعندهم وأنصار وهم قلة قليلة، أنه كان وطنيا فذا يتميز بخصال كبيرة مكنته في بضعة أشهر من أن يصبح المسؤول الأول لجبهة التحرير الوطني ومنها للثورة.

وهكذا فان عبان رمضان يحتل في هذا المقام بالذات مكانة مرموقـــة، تلك التي تليق به والتي لا يمكنني أبدا إقصاؤه منها ذلكم أن قناعتي كبيرة بأنه يمكن الحديث عنه اليوم مـــن دون التطـــرق إلـــى وفاتـــه. فحياتـــه وإنجازاته والتزامه وإسهامه وتأثيره كلها عناصر ســـتكون لهـــا الغلبـــة على موته. أتفهم جيدا أن يبدي القارئ تحمسا لمعرفة نهاية قـــضية مـــا، خاصة إذا كانت ذا بعد وطني وتاريخي مثل التي هي موضوعنا. لكـــن مسار هذا الرجل حافل ومثالي لدرجة أنه لا يليق بنا أن نحجبه بخاتمـــة ستصبح هاجسا يلازم كل الذين يهتمون بهـــا. وليـــدرك القـــارئ أيـــضا أن الهدف لا يتمثل في جمع كل أجزاء المربكة بغاية إعادة تركيبها. يبذل المؤلف قصارى جهده بما حضر لديه من إمكانيات دون أن ينتظر تـــوفر الظروف المواتية التي قد يستحيل توفرها.

والسؤال الوحيد الذي يبقى مطروحا هو إن كانت مساهمتي في تقـــديم تعريف صادق ونزيه عن هذا الرجل مفيدة. أعلم جيدا أن عملـــي هـــذا لن يكون مستوفيا وقد يفتقر للدقة فما أقدمه هو مجرد مساهمة و بعبـــارة أخرى جزء -قد يكون بسيطا أو هاما- مـــن كـــل، لا أكثـــر. وللغيـــر أن يضيفوا أو يعرضوا ما يسعهم تقديمه لإتمام وتوضيح وتصحيح ما هو إلا مجرد محاولة أولى ولهم حتى أن يفندوها.

تلكم هي حدود المبادرة. حدودي الخاصة. ويجب أن يدركها القـــارئ تمام الإدراك.

خالفة معمري

1

الأرض والدم والطفل

على غرار الوراثة بالأرض قد تكون هناك وراثة بالدم. فليس هناك من رجل لم يتأثر، إن قليلا أو كثيرا، بالأرض التي احتضنته عند الولادة. وذلك صحيح إلى درجة أنه حيثما سار الرجل ومهما بلغ من العمر تبقى الذكريات المرتبطة بأرضه وماضيه تلاحقه. ويمكن القول أن تأثير البيئة ـبدءا بالأرض ذاتهاـ حقيقي وملموس في تكوين الطباع وربما حتى على مسيرة الإنسان. وسبق لعدد هائل من المؤلفين أن تطرقوا لهذه النقطة بجمال وقوة منذ أمد بعيد وفي مختلف أرجاء المعمورة.

والأرض التي فتحت ذراعيها لاحتضان عبان رمضان توجد وسط منطقة القبائل، على مسافة تتوسط طرفيها شرق ـغرب وحدودها شمال ـ جنوب. حتى إن اصررنا على عدم استخلاص العبرة من حكم القدر، فمن الأهمية بمكان الإشارة إليه لتحديد بطلنا في المكان. ادعوكم للاقتراب أكثر من مسقط رأسه. فالقرية التي سيخلد اسمها تدعى عزوزة وهي تقع على بعد أربعة كيلومترات من فور ناسيونال التي هي في الحقيقة الأربعاء ناث ايراثن، وهو اسمها الأصلي الذي استعادته بعد الاستقلال. وتشبه قرية عزوزة باقي قرى منطقة القبائل تقريبا التي لم تختر، وهي تعد بالمئات، الانزواء في هدوء الأودية وفضلت التربع على القمم وكأنما أوكلت لها مهمة أبدية تتمثل في الحرص باستمرار على ضمان طمأنينة الحياة فيها.

لا نصعد المرتفعات من دون أن نتحمل الصعاب. وعدد هذه الأخيرة لا يعد ولا يحصى. إن فصل الشتاء يلقي بالفتور والخمول على جميع سكان القرية. فتراها تنزوي على نفسها وتنعزل لأيام أحيانا. إن السيارة

والحافلة والشاحنة وحتى كاسح الثلج كلها وسائل حديثة جاءت لتخفف من معاناة السكان إلا أن العيش يختلف بالنسبة للذين يوجدون في مرتفع يبعد بثماني مائة متر عن أولئك الذين يعيشون في منطقة مسطحة أو على ارتفاع بضعة أمتار عن مستوى سطح البحر.

ناهيك عن الشتاء القاسي، فلننظر لتضاريسها الوعرة التي تبدو وكأنها نصبت جراء هيجان رهيب لقوى لا تقهر. إن المشهد الذي تعرضه قرية عزوزة للعيان يلمح باستمرار إلى المقاومة، مقاومة الإنسان للطبيعة بكل مكوناتها. وما أصبحت الدروب المؤدية إلى هذه القرية سهلة المسلك إلا بعد أن شقت سلطات الاستعمار الفرنسي الطرقات بها من أجل القضاء على المقاومة القبائلية. الماريشال راندون « Randon » ، المشؤوم، هو الذي أنجز عام 1857 الطريق الرابط بين تيزي وزو وفور ناسيونال.

يبقى أن شق الطريق لم يحل كل المشاكل. واليوم أيضا وعندما نلتحق بمنحدر القرية علينا التخلي عن السيارة والمشي على الأقدام عشرات الأمتار لبلوغ البيوت المعلقة على القمة. وتلكم هي الحال بالنسبة لبيت عبان رمضان وسنرى ذلك لاحقا.

إن الحياة في الجبل غالبا ما تعني الحرمان والمشقة. وعلينا أن نبذل جهدا أكبر إن أردنا الالتحاق بالحقول التي كانت تشكل على الدوام الانشغال اليومي لسكان قرية عزوزة وكذا بالنسبة لكل القرى القبائلية الأخرى. فلا يوجد قروي واحد لا تشده غيرة على حقوله وأشجاره. وينبغي التأمل في العناية والمثابرة والحرص الكبير الذي يحيط به القبائلي أرضه لتقدير تلك العلاقة الوجدانية التي تربط الرجل بأرضه. ثمة أعراف مرتبطة بالأرض. العمل في الحقل ومشاهدة نمو أشجار مثمرة وجميلة وعدم التعرض لأشجار الجيران والامتناع عن بيع الأرض تعتبر بعضا من القيم المتجذرة في الحياة الاجتماعية لمنطقة القبائل. حتى يومنا هذا

ورغم عديد التقلبات المسجلة، نادرا ما نجد شخصا يتخلى عن حقله لأن ذلك أمرا لا يعقل ومخالف تماما للعرف اللهم إلا إذا كان مضطرا بحكم المرض أو الفقر المدقع.

منطقة القبائل معروفة بزراعة التين والزيتون. وتلك هي صورتها الحقيقية حتى و إن لم يعد هذا النشاط في يومنا مصدر رزق كاف لتلبية حاجيات العائلات. وهل كان كذلك فعلا حينها؟ لا يهم طالما أن الصورة تنطبق تماما على قرية عزوزة. فحقول التين والزيتون تكاد تكون مصدر الاسترزاق الوحيد لسكان القرية. فالبعض يقطن بعيدا عن المركز مما يحمل أصحابها على تكبد مشقة كبيرة والالتحاق بها يقتضي ساعات من المشي على الأقدام. فالذهاب والإياب المتكرر كان تمرينا يوميا على درجة من العناء لكنه لم يثن من عزيمة سكان القرية لأن الأمر يتعلق في الوقت نفسه و بكل بساطة بقضية شرف وبقاء.

أضحى حديثنا اليوم أقل حسما. فملذات العيش في المدينة و"التحضر" بدأت تطغى بصفة دائمة بل وللأبد على الحياة في القرية.

فيما يخص الحقول، تعتبر عائلة عبان رمضان أوفر حظا. الثراء -شرط أن يستعمل هذا اللفظ بتحفظ، لأنه يقدر ببضع آلاف الدينارات فقط- موزع عادة بتساو نسبي عبر مختلف القرى. فهو قليل التفاوت كان يكمن في عدد الحقول التي كان يملكها القرويون والذي كان يتراوح بين حقل واحد وثلاثة حقول. والكل يبقى مرهونا طبعا بعدد ونوعية الأشجار بحيث لا يمكن الحصول على كمية معتبرة من الزيت بالرغم من الكمية الكبيرة للزيتون الذي تم جنيه. فالأصناف عديدة ومختلفة وتلك التي تعطي زيتا ذات نوعية وبوفرة تعتبر قليلة.

غير أن الثروة في بعض القرى تبقى أحيانا حكرا على بعض العائلات. ويبدو أن تلك كانت حال قرية عزوزة حيث كانت عائلة عبان

رمضان الأكثر غنى. ودائما حسب التقدير القبـائلي لمحـصول التـين والزيتون، فقد تمت الإشارة إلى رقم مذهل قارب 26000 لتر.هذا شـيء مهم للغاية لأن المحصول في مناطق أخرى وعند المواطن البسيط يعـد فقط بعشرات اللترات من الزيت وبمئات اللترات بالنسبة لقلة قليلة. لكـن نادرا ما كان يبلغ الألف. وهذا يعطي فكرة علـى ثـروة عائلـة عبـان في وقت كانت تعتبر فيه الزيت المورد الوحيد بالنـسبة للمنطقـة حتـى وإن مضى زمنا طويلا ليبلغ سعر اللتر الواحد من الزيت أزيد من دينار. ولمن يهمهم الأمر، تجدر الإشارة إلى أن القيمة التجارية للزيـت تتـراوح في يومنا (1984-1985) ما بين 15 و22 دينارا للتر الواحد. وذلك يؤكد مـا سبق ذكره أن مفهوم الثروة في الأرياف يظل شيئا دون أهمية بالمقارنـة مع العمل في مصنع ما أو كعون للدولة.

على أية حال، لا يوجد اليوم حقل واحد يوفر نفس الدخل مثلمـا هـو الأمر عندما كان العمل في الحقل يشكل مصدر العيش الوحيد والضئيل.

ومن باب المفارقة، كانت عائلة عبان رمضان مالكة أرض لكن ليست بمزارعة. فوالد عبان رمضان وعمه اللذان كانا يعيشان في كنف أسـرة واحدة لم يكونا يعملان في الحقول.

كانا يوكلان تلك المهمة لأشخاص آخرين مقابل أجرة. وهنا أيضا نجد مؤشر ثراء حسب سلم القيم السائد آنذاك إذ غالبا ما كانت العائلات الثرية تمارس نشاطا آخر بينما توكل عمل الحقول لمزارعين يتقاضـون أجـرا يوميا. لننظر بالتفصيل ما هو حال عائلة عبان رمضان.

ولد أب عبان رمضان عام 1876 تقريبا. كان يدعى محند أو فرحـات أي ابن فرحات، ربما أحد أجداده. وحسب الحالة المدنيـة، كـان اسـمه الحقيقي موحند لكن محند أو موحند يعتبران اسمين شبه ممـاثلين طالمـا أنهما مستمدين من أصل مشترك أي محمد، نبي المسلمين. وتجب الإشارة

هنا إلى أن بعض القرى كانت تعتبر محند وموحند اسمين مختلفين تماما. ونادرا ما يتم الخلط بينه وبين أخيه الأكبر المدعو رابح. كان والد عبان رمضان يمارس نشاطا مغايرا لعمل الأرض ويمكن القول أنهما كانا لا يباليان بعمل الحقول. فاهتمامهما كان منصبا على تحصيل الزيت لا غير. أما ما تبقى من محصول الفواكه عموما فكان يترك للاستهلاك العائلي والعمال.

ودون أن نعرف بالتأكيد كيف توصلا إلى ذلك، بدأ موحند ورابح عبان يمارسان تجارة غير مألوفة، بل وحتى مجهولة بالنسبة للقبائلي. أصبحا شيئا فشيئا تاجرين متنقلين، لسلع شرقية ليس على مستوى منطقة القبائل وفي فرنسا فحسب وإنما على مستوى بعض القارات. كانا يجولان بلدانا كثيرة في أوروبا كانجلترا واسبانيا زيادة على فرنسا- وكندا والولايات المتحدة والبرازيل واليابان وحتى استراليا على ما يبدو، لكننا لم نتأكد من هذه المعلومات. فيما يخص أمريكا الشمالية، يذكر ابن موحند عبان، أي أخ رمضان والوحيد الذي لا يزال على قيد الحياة، أن والده تنقل إلى أمريكا الشمالية مرتين على الأقل في عام 1908 وعام 1912.

كل شيء يحملنا على الاعتقاد أن هذه التجارة كانت مثمرة ومزدهرة بحيث كانت تقوم على أسس متينة. فكان الأخوان يملكان محل إيداع حقيقي بفرنسا الأمر الذي كان يمكنهما من التموين بانتظام وتحقيق أرباح طائلة. وزيادة على هذا النشاط ومن غير صلة تذكر، كان للأخوين قصابة بمرسيليا وكان ذلك حظا كبيرا آنذاك.

كم هو عدد الجزائريين والمواطنين من جنسيات أخرى، الذين يحلمون اليوم بزيارة أمريكا؟ يرغبون التوجه إليها لصرف أموال في غضون بضعة أيام فقط.

ما يمكن أن نقوله في أولائك الذين يقصدون تلك الوجهة بهدف كسب المال. ذلك ما فعله الأخوان عبان منذ أزيد من ثلاثة أرباع قرن.

وتجدر الإشارة هنا إلى التأثير الثقافي لمثل هذه المغامرات. فقد استفاد الأخوان عبان بقدر كبير من تلك التنقلات بحيث اكتسبا جرأة وشجاعة تلفتان الانتباه خاصة في المناطق الريفية المعروفة بسكونها وعاداتها الراسخة ولا تكاد تشهد أحداثا استثنائيا. لقد أضحت رحلاتهما حديث القرية وكانت السهرات حولها تشبه حكايات ألف ليلة وليلة. واليوم أيضا، لا يزال الناس يذكرون توصيات الأخوين عبان حول أفضل طريقة للسفر بأقل كلفة ممكنة. يحكى خاصة أن الأخوين اللذين كانا مختلفين من حيث الطباع والمزاج كانا يتشاجران أحيانا بسبب إفراط الأخ الأكبر في صرف المال. كان أصغرهما -أي والد رمضان- هو الذي يقدم النصح لأخيه الأكبر نظرا لميول هذا الأخير بعض الشيء، لحياة المرح والترف التي تميز المجتمع الأمريكي. وعكس ما هو معروف في التقاليد القبائلية، كان الأصغر هو الذي يشرف على مراقبة الأموال للحد من إنفاق الأخ الأكبر. ونلاحظ أيضا أن الأخوين سافرا معا لمدة طويلة وهذا أمر غير مألوف في مجتمعات يبقى فيها الحياء والاحتشام قيمتين راسختين من الصعب زعزعتهما. كانت هذه التنقلات بكل ما تخللها من أحداث شاذة وغريبة، بمثابة امتحان عصيب للحشمة المألوفة والسائدة في القرى.

ولأسباب يصعب تفسيرها -ربما السن- قرر الأخوان إنهاء هذه التجارة التي سمحت لهما بزيارة بلدان عديدة وحضور مشاهد متميزة وكذا التخلص من ذلك التقوقع الاجتماعي الذي يطبع منطقة القبائل للاستقرار أخيرا أي في عام 1928 في فور ناسيونال، كتاجرين لمواد البناء.

مرة أخرى، أبى الأخوان إلا أن يتركا بصمتهما الخاصة ويبرزا حسا إبداعيا متميزا بممارسة نشاط مختلف تماما عما هو مألوف في مثل تلك المناطق. ويبدو أن التجارة عرفت نموا وازدهارا مكنا عائلة عبان من تحقيق ثراء لا يطال. إلا أن الحرب العالمية الثانية فرضت واقعا

مغايرا، إذ سرعان ما
رمضان نفسها للمرة
بعد عيشة الرخاء التي
كان يتجاوز الستين ع
أزيد من مائة عام، لتو
وثلاثة أعوام. إلا أنه
تجاري في هذه السن
لا ترحم، فهي تطول
عن تأثيرها.
للمرة الأولى، لجأت
الأكبر، إلى التوجه إلى
عائلة ستعرف كسائر
أما عن والدة عبان
مرادي فاطمة، وكانت
عن الآخرين. و سنحاول
يجب علينا أن نع
10 جوان 1920 على
عام 1918 بعد زلزال
فهو يظل اليوم شاهدا
متطورة، وبتصميم هند
الأخرى. وبالرغم من
الهندسة الأوروبية، ور
بين النمطين القبائلي و

مغايرا، إذ سرعان ما انتهى ذلك النشاط المربح، ووجدت عائلة عبان رمضان نفسها للمرة الأولى في وضعية صعبة، ليس من السهل تحملها بعد عيشة الرخاء التي عرفتها. ولا يخفى علينا أن والد عبان رمضان كان يتجاوز الستين عاما في تلك الفترة إلا انه كان قوي البنية إذ عاش أزيد من مائة عام، لتوافيه المنية في شهر فيفري 1979 في سن المائة وثلاثة أعوام. إلا أنه من الصعب بالنسبة له مواجهة وضعية إفلاس تجاري في هذه السن أو حتى التفكير في ممارسة نشاط مغاير. إن الحرب لا ترحم، فهي تطول مختلف فئات المجتمع ولا نشاط يبقى في منأى عن تأثيرها.

للمرة الأولى، لجأت عائلة عبان إلى الهجرة، حيث اضطر عمار، الأخ الأكبر، إلى التوجه إلى فرنسا عام 1942 للعمل من أجل تلبية حاجيات عائلة ستعرف كسائر العائلات الأخرى الحرمان وتتعرض لتقلبات الدهر.

أما عن والدة عبان رمضان، فلا نعرف إلا الشيء القليل. كانت تلقب مرادي فاطمة، وكانت تحب رمضان، ابنها الثاني، حبا جما إلى حد تفضيله عن الآخرين. و سنحاول أن نعرف لماذا.

يجب علينا أن نعود إلى يوم ولادة الطفل. فقد ولد يوم 10 جوان 1920 على الساعة الثانية زوالا في بيت أنهي ترتيبه حديثا. شيد عام 1918 بعد زلزال ألحق أضرارا معتبرة ببنايات المنطقة. مع ذلك، فهو يظل اليوم شاهدا على رخاء ورفاهيتها إذ تم انجازه بمواد بناء متطورة، وبتصميم هندسي يميزه عن باقي منازل منطقة القبائل التقليدية الأخرى. وبالرغم من أنه كان عصريا، إلا شكله لم يكن مطابقا تماما للهندسة الأوروبية، ورغم توفره على أسباب الراحة، فانه لم يكن يوفق بين النمطين القبائلي والأوروبي.

ندخل المنزل من باب واسع، يتكون من مصراعين متساويين -وهي الميزة الأولى لكل البيوت القبائلية- لنباشر ساحة تؤدي إلى ثلاث ملحقات: على اليمين الغرفة الكبيرة -المفضلة بالنسبة لسكان منطقة القبائل- إذ تأوي كل العائلة وتعتبر المكان المواتي للمناسبات الكبرى؛ ونجد على اليسار نجد غرفة كبيرة أخرى تتسع لعدد قليل من الحيوانات؛ وأخيرا تقابلنا بناية تبدي شيئا من الجرأة من حيث التصميم والهندسة مقارنة بمنازل تلك الفترة وتلك المنطقة. ندخل البناية من باب صغير ونجد رواقا ضيقا تحده من كلا الجهتين غرف لا تتجاوز مساحتها العشرين مترا مربعا لينتهي بسلم جد ضيق يؤدي إلى طابق أول يشمل نفس عدد غرف الطابق السفلي غير أنه يتوفر على شرفة تمدنا بمنظر خلاب على جبال الجرجرة. وفي النهاية، نجد مرحاضين قد لا يتجرأ أكبر شجاع على الالتحاق بهما شتاء بسبب الرياح والبرد والثلوج.

رغم غياب بعض التسهيلات -خاصة السلم الضيق الذي يؤدي إلى الطابق الأول والذي يرغم على الإنحاء لتجنب ضرب الرأس على سقفية الطابق الأعلى- فان البيت يبدو دون أدنى شك عصريا مقارنة ببيوت تلك الفترة. واليوم أيضا، وعدا المنازل التي بنيت منذ الاستقلال، فإن المنزل الذي رأى فيه عبان رمضان النور يظهر علامات غنى كانت سببا في بنائه. مع ذلك كان لا يتسع كثيرا لاحتضان عائلة تكونت في وقت ما من عدد كبير من الأفراد. إن هذا البيت يقطنه اليوم عمار، الأخ الأكبر لرمضان، باعتزاز وافتخار لأنه بيت الوالدين والبيت الذي شهد ولادة أخ أصغر كتب له أن يصبح بطلا من أبطال هذا الوطن.

فالمنزل من حيث موقعه، يعتبر بمثابة برج القرية التي تشبه هي الأخرى من حيث التخطيط الطوبوغرافي مرتفع سان ميشال (Saint Michel) بالنسبة للذين زاروه أو شاهدوه على صور. فهي محاطة بأودية

مما يجعلنا نشعر بالفراغ كلما التحقنا بالقمة. وذلك ما يشعر به كل من يطل من شرفة منزل عائلة عبان لتأمل المناظر الخلابة التي تعرضها السلاسل الجبلية المترامية الأطراف.

ففي هذا البيت بالذات ووسط عائلة غنية و ثرية ولد وترعرع عبان رمضان. مكث به إلى غاية 1933 وهو تاريخ توجهه إلى البليدة لمزاولة دراسته الثانوية.

ولحد الآن لا يسعنا إلا أن نقول أنه نشأ كسائر أطفال القرية الذين كانوا يقضون معظم أوقاتهم بين البيت والمدرسة الكائنة في أسفل القرية بعيدا عن الحركة التي تشد أقرانه.

في المدرسة كما هي الحال في البيت، تميز رمضان منذ نعومة أظافره بمزاج أقل ما يمكن قوله، أنه كان صعبا. كان طفلا ذكيا ومجتهدا ومثابرا كما سنرى ذلك في الباب الذي يلي، طوال فترة تمدرسه، لكنه كان منذ الصغر يبدي استعدادا متميزا لكتمان السر والعزلة والعناد. إكان الابن الثالث لعائلة تعد أربعة أطفال. عمار، أكبرهم يكبره ببضع سنوات ثم بنت تدعى عيني ليأتي بعدها رمضان وأخيرا مولود. ولد طفل آخر بعد رمضان لكنه توفي صغيرا.

في هذا الوقت الذي أكتب فيه، لم يبق على قيد الحياة إلا عمار الذي قابلناه عام 1985 بعزوزة. إنه رجل متوقد الذهن وذكي للغاية رغم سن الثمانية والسبعين. كلامه جذاب عندما يتحدث هو وأبناؤه ـأحمد على وجه الخصوص- عن التجربة الثرية والمتميزة للشيخ محمد أو موحند، والده وجدهم ورحلاته عبر القارات. اليوم أيضا يقال أنه من المستحسن السفر بصكوك وهي توصية حكيمة كان يعمل ويوصي بها الشيخ موحند من أجل عدم تبذير الأموال.

الجميع يذكر أن رمضان لم يكن سهل الطباع في البيت. لم يكن قبيح التلفظ، أو عنيفا، أومشاكسا، لكن عيبه الأكبر كان عناده وإصراره على تغليب رأيه. دون تمييز وضد الجميع بما فيهم الأبوين والإخوة وأبناء العم. كانت أمه لا تحب إغاظته بل كانت تبدي ضعفا وليونة أمام طباع ابنها. كانت أما لعدة أطفال بل ولعدة ذكور ومن الصعب فهم ذلك الميل الراسخ في أذهان العائلة القبائلية في تفضيل الذكور ومن الصعب أيضا فهم الدلال الذي كان يحظى به رمضان، إلا إذا تمعنا في علم اجتماع العائلة القبائلية. صحيح أن الأم لن ترضى إغاظة ابنا صعب الطباع. وبحنان كان أقرب منه للتبجيل تحبذ الأم القبائلية مدح وتشجيع مزاج مثل هؤلاء الأطفال عوض إغاظتهم. ويمكن أن نضيف أن الخصال التي كان يتميز بها الطفل رمضان كانت كفيلة في تلك الفترة وتلك المنطقة بالذات بأن تمحي أي خطأ أو نزوة تصدر عنه: كان تلميذا ذكيا ونجيبا في المدرسة. وبالنظر للرغبة القوية التي كانت تراود كل عائلة في ان يحقق أحد أبنائها نجاحا مدرسيا -في إطار المدرسة الفرنسية بالطبع لأنها الوحيدة في القرية والوحيدة الكفيلة بضمان مستقبل مادي زاهر- لم يخطر أبدا ببال الأولياء إغاظة طفل تعلق عليه العائلة آمالا كبيرة في أن يصبح مفخرة من خلال تفوقه في المدرسة. فخورة كانت بالتأكيد أم رمضان خاصة و أن ابنها الأكبر لم يبد، ولأسباب نجهلها، نفس الاستعداد الذي كان يبديه رمضان في المدرسة حيث كان يتميز بتفوق في القسم. وربما تحصل مولود، أحد أبناء عائلة عبان، على شهادة الدراسات لكن مجيئه بعد رمضان كان سيحرمه من حظوة العائلة. لم تسمح الوسائل المحدودة بتمدرس كل الأبناء حتى وإن كانوا كلهم يبدون استعدادا وتفوقا. أكثر من إرادة الوالدين، شاء القدر أن يكون رمضان محظوظا مقارنة بإخوانه.

لا شك في أن أي عائلة وبالأخص في منطقة القبائل تكون أكثر ود ولطف وتسامح تجاه طفل متفوق في دراسته. بطبيعة الحال، ليس ثمة في الأمر تشكيك في حب الوالدين وخاصة حب الأم، لأنه معلوم عادة أنها لا تميز بين أطفالها، غير أن النتائج الحسنة التي كان يتحصل عليها رمضان زيادة على طبعه الصعب زادت قلب الأم لينا ولطفا. ولا يجب أن ننسى أن الافتخار الذي تشعر به عائلة ما، تجاه الأبناء غالبا ما يحركه شعور بالغيرة التي تعتبر عنصرا أساسيا وراسخا في حياة كل قرية قبائلية. ويمكن أن نقول: أن الطفل رمضان ساهم ربما من غير قصد نظرا لصغر سنه في هذا التنافس القبائلين الذي يخص عددا من المسائل. كم من أم قضت وقتا طويلا تشجع ابنها وتغذي حماسه لكي يكون دوما الأفضل؟ ومن المؤكد أن والدة رمضان سلكت نفس السلوك لتجعل منه، وفي آن واحد، مفخرة العائلة بالنسبة لها وبالنسبة للقرى الأخرى.

فلا السن ولا الغياب الطويل لرمضان، أثرا على تلك العاطفة المستمدة من نبع الأمومة. بالعكس ولأنها حرمت من ابنها الذي غادر البيت وهو في سن الثالثة عشر، لينتقل إلى البليدة التي كانت بعيدة جدا بالنسبة لريفية حبيسة الأعراف القاسية، ويعود إلى القرية لمدة قصيرة مثلما ما سنرى ذلك لاحقا. فكلما ابتعد عنها كلما تأجج حنينها إليه. وأكثر من ذلك، فان المحن و الصعاب التي عاشها رمضان ستؤثر أيما تأثير على إحساس الأم التي كانت صدمتها كبيرة عندما عاد لرؤيتها بعد خمس سنوات قضاها في السجن. فقد أصيبت بشلل كلي لترحل بعد سنتين من ذلك أي في سنة 1957 وهي سنة تركت أثراً كبيراً على الابن والأم على حد سواء.

يقال أن رمضان رأى أمه مرة واحدة، ولمدة ساعات قلائل فقط، بعد عودته من مؤتمر الصومام في سبتمبر من عام 1956. توقف لمدة جد قصيرة في القرية للاطلاع على حال وصحة تلك التي كانت تعاني

الأمرين بسبب غيابه، وذلك رغم الأخطار التي كانت تحدق به نظرا للمراقبة الدائمة المفروضة عليه، ونظرا للانتشار المذهل للجيش الفرنسي في المنطقة. وفي أقل من عام، لفظت أم رمضان أنفاسها الأمر الذي زاد عبان رمضان حزنا وأسى، وهو منهمك في كفاح كلفه حياته في نفس السنة.

بقي رمضان يحتفظ بذكريات مريرة تخص أرضه ووالديه وطفولته. فلا الزمن ولا الأرض ولا وضع المجتمع كان ليهيئ ظروف حياة أسهل، خالية من المخاطر. وكان ينبغي أن يكون قويا من أجل البقاء حيا في وسط طبيعي.

لقد ألف رمضان خطابا، وفكرة أساسية، كانا راسخين في أذهان سكان الأرياف، فالرجل الحقيقي يجب أن يكون قويا وشجاعا ويجب أن يبدي رجولة وروح مبادرة ومثابرة في العمل. وينبغي أن نشير هنا إلى الوتيرة التي كان يلقن بها مثل هذا الخطاب لطفل في سن رمضان لنقدر تأثير ذلك على تكوين شخصيته. ولنقل أن عبان رمضان سمع هذا الكلام مرارا من عند أمه وأبيه.

فراح عبان رمضان الذي خضع لتحضير سيكولوجي ولتأثير أعراف معمول بها، يواجه أولى الوقائع الكبيرة في حياته بدء من المدرسة حيث سنرافقه الآن.

2

من عزوزة إلى البليدة:
مشوار تلميذ موهوب

حصول عبان رمضان على مسار دراسي كامل من حوالي سنة 1928 يشكل إلى غاية 1942 حظا كبيرًا في حد ذاته وربما ذلك راجع كما رأينا إلى الثراء النسبي، الذي كانت تتمتع به العائلة، إلا انه يجب إبداء نوع من التحفظ، كلما تحدثنا عن المستوى المعيشي للسكان الجزائريين في الفترة ما بين الحربين العالميتين، أي الفترة التي قضى فيها عبان رمضان مرحلة الدراسة.

ولا حرج في تقديم بعض المراجع التي تمكننا من إدراك حالة البؤس والروع العام الذي كان يعيشها سكان المنطقة.

وهذا ما كتبه حاكم قسنطينة لأحد قادة المنطقة:

"رأيت تلاميذ صغار من الأهالي يذهبون إلى المدرسة دون أن يأكلوا شيئا لمدة 24 ساعة. كانت وجوههم شاحبة من شدة الجوع. وكان حالهم يثير الشفقة حقا. كما شاهدت صغارا فقراء بأثواب رثة لم تكن حتى لتستر جسدهم ولا عورتهم وهم يبحثون عن شيء يأكلونه للتخفيف من آلام الجوع".

كان هذا البؤس العام، نتيجة عدة عوامل منها على وجه الخصوص ضعف الراتب الذي يتقاضاه الأجراء الأهالي من بين أولئك الذين كان لهم حظ في الحصول على شغل. وفي القطاع الزراعي حيث كان يعمل أكثر من 80 بالمائة من السكان المسلمين، كان الراتب اليومي عام 1933 كما يلي:

عمال عاديون .... 8 فرنكات

عمال ماهرون .... 9 فرنكات

عمال جد ماهرون............. 10 فرنكات

نساء.......................... 5 فرنكات

أطفال.......................... 4 و5 فرنكات

أما على المستوى المدرسي، فكان الوضع العام للجزائر أكثر سوءا. ففي 1930، كانت نسبة تمدرس الأطفال المسلمين لم تكن سوى 5 بالمائة في الطور الابتدائي، وهي نسبة انتقلت من 8،8 بالمائة إلى14،6 بالمائة عام 1944 و1954.

وكتب أندري نوشي من جهته ودائماً بشأن الوضع المدرسي أنه "في عام 1944 من بين 000 250 1 طفل مسلم في سن التمدرس كان 200 110 (ذكور و إناث) يتلقون الدروس، وفي عام 1954 بلغ عدد الأطفال المتمدرسين 100 307 طفلا من بين 000 072 2 طفل ما بين الخامسة والرابعة عشر.

والوضع لم يكن بطبيعة الحال ، أحسن بكثير في أطوار التعليم الأخرى، إذ أن الإحصائيات المتوفرة لا تدلنا كثيرا. أجيرون (Ch.R .Ageron) (5) قدر عدد المسلمين في الطور الثانوي بـ 358 1 مسلما عام 1940 وبـ 260 6 عام 1954 بيد أن عددهم في التعليم العالي، كان يبلغ 89 طالبا عام 1940 و589 عام 1954 في جميع الاختصاصات.

وتعطينا هذه الإحصاءات، فكرة عن الوضع العام السائد في الجزائر في الفترة التي كان فيه صغيرنا عبان رمضان يزاول المدرسة. فقد أدرك ذلك إذ راح يبذل قصارى جهده من أجل تحقيق نجاح باهر في دراسته. وهذا لم يكن متاحا الجميع.

دخل مدرسة الأهالي الكائنة بعزوزة (قريته) بالقرب من فور ناسيونال (الأربعاء نات ايراثن) ما بين 1926 و1928 (لن نتمكن من تقديم تاريخ أدق) لكنه غادرها بكل تأكيد في شهر جوان من عام 1933 وهو يحمل شهادة نهاية الدراسة الابتدائية للأهالي. كانت شهادة ثمينة ونادرة في تلك الفترة.

وإذا تمعنا في النتائج المدرسية المتحصل عليها خلال السنوات 1931-1932- و1932-1933 أي وهو في السنة الأولى والثانية من القسم المتوسط سنكتشف فورا تلميذا مجتهدا ومنضبطا ومتفوقا في المواد وبالأخص في المواد العلمية.

ففي مادة علم العروض والرياضيات كان يحتل الرتبة الأولى والثانية في قسمه بالحصول على نقاط تتراوح ما بين 14 و18. و في مادة العلوم، فكان الأول في قسمه خلال الفصل الثالث من السنة الدراسية 1932-1933 واحتل الرتبة الثانية في الفصل الثاني من السنة الموالية بتحصيل نقطة 15 و13 على التوالي.

والمادتان اللتان كان يجد فيهما عبان رمضان بعض الصعوبات هما الكتابة والرسم وإن كانت الرتبة السادسة لسوأ رتبة احتلها، إن صح التعبير، في قسم من 18 و21 تلميذا.

وفي المعدل العام، تحصل على نقطة 18 في السيرة و17 في العمل و14 التأهيل.

وأهم من ذلك كله كانت الملاحظات التي يدلي بها معلموه. وقبل الخوض في هذا الشأن يجد التذكير أن هذه الأخيرة باتت صائبة وصحيحة بالنسبة لعدد كبير من الشخصيات التاريخية.

من النادر عموما أن يخطئ معلم في التقييم العام للتلميذ سواء تعلق الأمر بالعمل أو الطباع أو حتى بالمستقبل. لا شك أن معلمي المدرسة

ليسوا بعرافين أم أنبياء لكنهم قادرين على اكتشاف على مستوى أقسامهم التلاميذ النجباء وأولئك الذين سيكون لهم مستقبلا واعدا وقادرين على إنجاز أعمال كبيرة.

فيما يلي ما كتبه معلمو عبان رمضان في نهاية الطور الابتدائي عام 1933. الموقع الأول هو دريكس:

"تلميذ ذكي وطباع مكتمل. إرادة قوية. عمل وسيرة مرضية".

المعلم الثاني هو مراكين الذي أدلى بعدة ملاحظات:

1. "تلميذ مثابر وهادئ. نتائجه جد مرضية في الحساب لكن ضعيفة في الفرنسية. عليه بالعمل أكثر في الكتابة و القراءة".
   "تلميذ مثابر في العمل يعمل بجد وإتقان".
2. "تلميذ مجتهد ومثابر في عمله. بذل جهدا معتبرا في الفرنسية".
   "نتائج مرضية في العموم مع بذل جهد خاص في اللغة الفرنسية، ضعيف في الإنشاء".
3. "تلميذ مجتهد ومتقن. تحسن ملحوظ. عليه بالقراءة في العطلة".

حتى وإن كان ذكر هذه الملاحظات كافيا إلا أنه ينبغي التمعن فيها بدقة. فالذكاء والإرادة والجد والمثابرة والإتقان في العمل كلها كانت خصالا يشهد بها للتلميذ عبان رمضان وهو لم يتجاوز سن الثالثة عشر من طرف معلمين لم يظنوا لحظة أن "تلميذهم الصغير" سيصبح يوما من بين كبار مسئولي الثورة الجزائرية. يجب الإشارة هنا إلى أن ما يصنع عظمة المعلمين في شتى بلدان العالم وعبر مختلف مراحل التاريخ هو تفانيهم ونزاهتهم وإرادتهم في تلقين العلم والمعرفة للأجيال. ويمكن القول أيضا أن المدح أو الذم الذي يصدرونه تجاه تلميذ ما لا يدع مجالا للشك بحكم مهنتهم ومهارتهم فهم يتحلون بأخلاق عالية، تجعل منهم قدوة ومثالا.

وينبغي كذلك الإشارة إلى أمرين من خلال ملاحظات معلمي التلميذ عبان رمضان. إنه يتميز ب "طباع مكتمل" ـهذا ما سنراه لاحقاـ ثم كثيرا ما تم حثه على القراءة وهذا ما سيحتفظ به في ذاكرته.

ها قد تحصل تلميذنا الصغير على شهادة نهاية الدراسات الابتدائية وهو في الثالثة عشر من العمر، الأمر الذي يعتبر انجازا باهرا في تلك الفترة حيث كانت قلة من التلاميذ يتمكنون من إنهاء دراستهم بتفوق. كم من أولياء يرغبون اليوم ـإذا كانت هذه الشهادة معمولا بها اليومـ في أن يحصل أبناؤهم على غرار عبان رمضان على هذه الشهادة المدرسية في سن الثالثة عشر. ولا زلت أذكر أنه عشر سنوات بعد استقلال الجزائر، كانت كثير من العائلات الجزائرية، في المدن والأرياف، تحتفل ابتهاجا بهذا الفوز. ومن ذلك نستخلص الأهمية التي يكتسيها النجاح الذي حققه عبان رمضان منذ أزيد من نصف قرن. ومن المؤكد أن هذه النخبة لن تكون تتجاوز المائة في الجزائر.

ولن يكون لهذا التلميذ الصغير أن يتوقف عند هذا النجاح حتى وإن كان يضمن له في تلك الفترة مستقبلا يحسده عليه كثير من زملائه في المدرسة.

وبمغادرة القرية التي ولد فيها، كان عبان رمضان سيتجاوز أفقه ويفارق عائلته للالتحاق بمدينة كبيرة. ومن عزوزة، تلك القرية التي يسكنها مئات من الأشخاص والكائنة وسط غابة نائية في بلاد القبائل، سينتقل إلى البليدة التي كانت آنذاك مدينة يقطنها عشرات الآلاف من السكان تتسم بحضارة عصرية بالمقارنة مع عيشة القرية التقليدية. لماذا البليدة؟ لا ندري بالضبط. لم لا الجزائر، عاصمة البلاد حيث كانت تتوفر على الثانويات والكليات؟ ربما بسبب الإغراءات التي كان يجب حماية رمضان من الوقوع فيها. ولا يجب أن ننسى أنه في تلك الفترة

كانت العائلة القبائلية كباقي عائلات الأرياف، تعيش عيشة صارمة ومتقشفة. وكان الأطفال يعاملون بصرامة وشدة بما انه يراد دفعهم نحو النجاح والتفوق وباعتبار أن أفضل تعليم يعطى لهم يتم بعيدا عن تسلية الحياة العصرية.

كانت البليدة آنذاك تشتهر بأنها مدينة منغلقة ليس من السهل أن تؤثر عليها عوامل الحضارة الأوروبية. وكانت ثانوية المدينة تتمتع بسمعة جيدة، وتعرف بجد وفعالية يتجاوزان إطارها الجغرافي. وبهذه الثانوية بالذات، سيتم تسجيل التلميذ عبان رمضان وهو يبلغ 13 سنة. وكان دخول تلميذ مسلم إلى الثانوية، يعتبر بمثابة حدث عظيم من الصعب على الطفل أن يدرك الأهمية التي يحملها في طياته.

وربما ذلك راجع، لوالد عبان رمضان، الذي كان على غرار الأولياء الآخرين يرغب في أن يواصل ابنه دراساته. وأكد والد عبان رمضان، موحند عبان،، في رسالة إلى"مدير ثانوية البليدة" بتاريخ 25 سبتمبر 1933، طلب تسجيل ابنه في "قسم السابعة للدخول المدرسي المقرر للفاتح أكتوبر 1933".

إن مغادرة عزوزة والانتقال إلى البليدة، كان مغامرة، بالنسبة لعبان رمضان، الذي التحق بثانوية دوفيريي (ابن رشد حاليا) في أكتوبر من عام 1933 لمواصلة دراساته الثانوية إلى غاية 1942. وسيقضي مدة ثماني سنوات في الإقامة، الأمر الذي سيمكنه من تكريس كل وقته للدراسة. وكان الإطار جد مشجعا وكانت الثانوية رغم طابعها الصارم على غرار المؤسسات التعليمية للجمهورية الفرنسية الثالثة توفر قسطا من الراحة إذ تتوفر على جميع شروط ضمان تعليم جيد. وهي تشبه داخلا وخارجا كل المؤسسات الفرنسية من الدرجة الثانية. وواجهتها الرئيسية ليست مختلفة عن واجهة ثانوية باريس لويس لو غراند: فالجدران متينة

ومستقيمة، والنوافذ واسعة ومتحادية، ومرصنة بشبابيك حديدية، والباب متواضع الشكل يعلوه مصباحان جميلان. فكل شيء هنا يدعو إلى نسيان زهو الشارع والتفكير في الدراسة ذلك العمل الجدي الذي عاهدناه عند عبان رمضان وهو تلميذ.

وستعرف حياة عبان رمضان في البليدة انتقالا مزدوجا، أي من حياة منظمة بحكم وتيرة الريف من جهة، وبحكم الأبوة الصارمة من جهة أخرى، لحياة مدني، كما ستكون هذه مرحلة الانتقال من الطفولة إلى المراهقة.

ولا يبدو أن هذين الإنتقالين، قد حدثا في ظروف صعبة. ويمكن القول: انه إن كان الطور المتوسط قد أكد نجاح عبان رمضان الدراسي، فالأمر ليس كذلك، فيما يخص السنوات الأخيرة من دراساته الثانوية.

فكانت السنة الدراسية 1934-1935 جيدة بالنسبة للطالب في الثانوية. وكان أساتذته يجمعون على أن الأمر يتعلق ب "تلميذ نجيب" بالنسبة للسيدين باتي وكولون أستاذ التاريخ والجغرافيا والأدب على التوالي؛ وتلميذ ممتاز" بالنسبة للسيدين غوتيي وحاج صدوق ، أستاذي التاريخ، واللغة العربية، وأخيرا "تلميذ جداً ممتاز" بالنسبة للسيد نيفر أستاذ الرياضيات. لقد فاز بعدة جوائز، إذ تحصل على الجائزة الثانية في الرياضيات و اللغة العربية و جائزة في العلوم الطبيعية وجائزة ثانية في التاريخ والجغرافيا.

في الرياضيات، سيحتل المرتبة الرابعة في قسم يضم ثمان وعشرين تلميذا خلال الفصل الأول، فيما سيحتل الصدارة طوال السنة. وفي اللغة العربية سيحتل الرتبة الثالثة خلال السداسي الأول والثانية في نهاية السنة. وفي الترتيب العام نال هذا التلميذ النجيب الرتبة الثالثة وتحصل على شهادة شرفية.

ورغم النتائج الجيدة التي كان يحصل عليها إلا أن السنوات الأخيرة في الثانوية لم تكلل بنفس النجاح مع انه تمكن من احتلال الرتبة الأولى في الرياضيات خلال الفصل الثاني، من السنة الثالثة ثانوي 1941-1942 وبقيت نتائجه في هذه المادة جيدة بحيث تحصل خلال الفصول الثلاث لهذه السنة على النقاط التالية 14 و5،14و16. لكن نتائجه في باقي المواد بما فيها العربية كانت ضعيفة.وعليه، كانت ملاحظات أساتذته أقل استحسانا مثلما كان الشأن في السنوات السابقة. فيقول معيد السيد فيدال أنه يرى فيه "تلميذا نجيبا كثير الجرأة نوعا ما".

وهذا ما صدر عن مدير الثانوية في نهاية الفصل الأول من السنة الدراسية 1941–42: "تحسن ملحوظ في الرياضيات لكن لا يزال ضعيفا في مادة الفلسفة مثل السنة الماضية". وقال خلال الفصل الثاني 1941-42 أن التلميذ "بذل جهدا لكنه تحصل على نقاط دون المتوسط. كان محظوظا في الامتحان".

ماذا حدث يا ترى؟ لا شك في أن التلميذ الذي أصبح راشدا بإمكانه الحصول على نقاط حسنة خاصة في المواد العلمية حيث أبدى طيلة فترة تمدرسه استعدادا كبيرا، ويمكن بالتالي التأكيد أنه يتسم بفكر علمي أكثر منه أدبيا. وليس عبثا إن أشرنا إلى هذه الميزة التي سيكون لها كبير الأثر مستقبلا، طالما أنها ستطبع سلوك عبان رمضان وتصرفاته.

لا نستبق الأحداث، وتعالوا نواصل التمعن في تكوين شخصية رمضان. كان يعاب عليه التخاذل، وعدم الاجتهاد في العمل، ربما لأنه كان يعتمد كثيرا على مؤهلاته ومعارفه ومخزونه إن صح التعبير بدل التركيز على العمل المنهجي والمثابرة. وربما أيضا وككل طالب مرشح لشهادة الباكالوريا، كان قد حدد المواد الأساسية، وتلك التي يعتبرها ثانوية. لكن هناك شيئاً آخر: ألم يكن فكره مشغولا بأمور أخرى؟

فكان أستاذ العربية دوما يلوم عليه تأخره وكان معيده مستاء من عدم انضباطه إلى أن قال عنه "انه كثير الجرأة".

غير أن الأهم هو: أنه تحصل على شهادة الباكالوريا حتى وإن اعتبر مدير الثانوية أنه كان محظوظا. لا يهم إن كان قد أنهى دراسته بنجاح و تفوق لم يكن في تناول طلاب كثيرين.

ماذا سيفعل عبان بعد خروجه من الثانوية و بعد أن أنهى بتفوق دراساته الابتدائية و الثانوية؟ تجدر الإشارة إلى أنه في جوان من عام 1942 كان قد تجاوز سن الرشد بعام فقط. كان يبلغ من العمر 22 سنة؛ سن يرغب فيه الشباب التيقن من أمور الدنيا لتصحيح الشكوك التي طالما راودتهم. وفي 1942 كانت الحرب العالمية الثانية قد غمرت الجزائر، وكانت العاصمة تشهد غليانا سياسيا كبيرا.

وقبل أن نتبع عبان رمضان الذي يتواجد الآن في أول منعرج من حياته، سنحاول تحديد ميزات شخصيته بعد مشوار دراسي خال من الخطأ والتعثر. وكانت بعض ملاحظات أساتذته وبعض نقاط القوة والضعف التي أبداها خلال فترة تمدرسه بمثابة مؤشر ينبئ بما سيكون وبما سيفعل في المستقبل.

لنشير في البدء إلى تفضيله المواد العلمية والرياضيات على وجه الخصوص. هل يمكن إقامة علاقة بين ذوقه المدرسي وطباعه؟ وإن لم يكن هناك شيء يؤكد ذلك على وجه اليقين فهناك تشابها هائلا بل ومذهلا بين القواعد التي يخضع لها علم الرياضيات وسلوك وشخصية عبان رمضان. ليس من اختصاصنا ولا موضوع بحثنا التطرق إلى اعتبارات فلسفية فيما يخص الرياضيات وما هي القواعد التي تخضع لها. ولكن لإبراز شخصية عبان رمضان الذي سيصبح مسؤولا من الجدير، الاستناد لبعض المؤلفين المشاهير نقاطا حول الرياضيات.

لقد شكلت الرياضيات على الدوام، منذ عهد البيتاغوريين إلى يومنا هذا مرورا باينشتاين، علم معرفة الكون. ولتعريف المتداول لهذه المادة أنها علم الكميات والتقدير. وبالنسبة لديكارت، فان الرياضيات "علم النظام والتقدير وبالنسبة لليبنيتز فهي "تفكير يحول مجرد فرضية إلى حقيقة" ملموسة. وما كان لكبار الفيزيائيين أمثال كيبلير وغليلوس ونيوتن أن يصلوا إلى ما وصلوا إليه من اكتشافات وتحسين معرفتهم للكون لو لا اعتمادهم على الرياضيات. و من خلال الرياضيات نتوصل دون شك إلى الصرامة واليقين بشأن ما يحيطنا من أحداث.

ويمكن القول هنا وبالنظر للاستعداد الذي أبداه عبان رمضان أنه توصل بفضل الرياضيات إلى بلورة فكر حاسم ومنهجي هو أقرب إلى الفكر الأحادي المطلق.

لم تكن ملاحظات أساتذة الأدب أحسن من النقاط التي تحصل عليها. ويمكننا أن نقرأ ملاحظات : "لا يزال جد ضعيف" و"لم يتحسن" وضعيف".

صحيح أن مواضيع مادة الفلسفة التي كانت تدرس في تلك الفترة لم تكن جذابة إذ كانت العلاقة جد هشة بين كبار المؤلفين الكلاسيكيين للفلسفة الفرنسية والعالم الذي يعيش فيه عبان رمضان المتسم بالبؤس والغضب والحرب. فبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية برزت مواضيع فلسفية جديدة تتطابق شيئا ما مع الواقع المعاش مع أنها لم تدرج فورا في البرامج المدرسية و كأن الكل متخوف من انتشار بذرة الثورة التي كانت تحملها في طياتها.

لا ندري إن كانت لعبان رمضان قراءات أخرى خارج ساعات الدراسة. يبقى الأمر مستبعدا بالنظر للعمل الذي يجب أن يؤديه لتحضير شهادة الباكالوريا. لكن كل شيء ساهم في تكوين شخصية عبان رمضان

واكتمال طباعه كما أكد ذلك عشر سنوات من قبل، أي في عام 1932، معلم في المدرسة الابتدائية. ساهم تفضيله الفطري للرياضيات ونفوره من مادة الفلسفة بسبب غياب الواقعية ومثابرته في العمل في تقوية شخصية عبان رمضان. لا يجب أن نرى في ذلك سوء. بالعكس.

فالصرامة والتعنت والتمسك بالمبادئ فضيلة غير انه في مجال السياسة -الذي نحن بصدده- غالبا ما شكلت الليونة التي تؤدي إلى الضعف وقبول الحلول الوسطى قاعدة للنجاح. لا نستبق الأحداث وكل ما يمكن قوله هو أن عبان رمضان كان مهيئا ومسلحا لمواجهة الحياة بكل ما تفرضه من تقلبات لأنه في عام 1942 كانت الجزائر بعيدة كل البعد عن التفكير في الحرب، في حربها التحريرية.

وفي ظروف أخرى، كان باستطاعته القيام بدراسات عليا بتفوق ونجاح كبيرين كما كان الحال في الطورين الابتدائي والثانوي أو بدء حياة نشطة دون أن ننسى الزواج الذي يظل في الريف واجبا ينبغي تأديته إرضاء للوالدين وتشريفا للتقاليد المحلية.

لكن تلك الفترة كانت استثنائية. فرحى الحرب العالمية كانت تدور والجزائر، أو بالأحرى الأهالي المسلمين ، كانت تعيشها . وفي مثل هذه الظروف لم يكن سهلا بالنسبة لعبان رمضان أن يرسو على أمر محدد. فمنه والاضطراب الذي كان يخيم على السكان فرضا ضغوطا لا مفر من مواجهتها. فكانت بداية حياته تميزها تقلبات كبرى.

الحرب العالمية الثانية وروح الجيل الجديد

فيم تهم الحرب العالمية الثانية بالنسبة لموضوعنا؟ ثمة علاقات وثيقة بين موضوعنا والحرب العالمية الثانية. فلأول مرة في تاريخها، وجدت الجزائر نفسها مقحمة في حرب على نطاق عالمي، وذلك ليس فقط بسبب تجنيد رجالها الذين حاربوا على عدة جبهات ولا بسبب اقتطاع كميات من منتوجها الفلاحي، ومن أملاكها من أجل الحرب. فالأمور كانت على تلك الحال، اللهم بعض الاختلاف، خلال النزاع العالمي الأول، لكن الجديد الطارئ هذه المرة هو أن الجزائر أضحت مسرحا لعمليات الجيوش الأجنبية.

رحى الحرب كانت تدور على أرضها أيضا جاعلة إياها فاعلا وشاهدا على أمر كان يفوق للغاية تلك المجابهة الانفرادية التي فرضتها عليها فرنسا منذ أكثر من قرن.

لقد غيرت الحرب وجه العالم بشكل لم يسجل له التاريخ مثيلا أبدا. لم يسلم أي جانب من تلك الكارثة. لقد شهد العالم تقلبات جيوسياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية ومعنوية وحتى علمية فريدة. وقد ظلت تلك القوى التي أفرزها النزاع، وبعد مدة طويلة من انتهائه، تصوغ العالم وحياة الرجال فيه.

بالنسبة للجزائر، كانت طبيعة التغيرات بسيكولوجية أكثر منها مادية. فلم يسبق لسكان هذا البلد أن عايشوا مباشرة مواجهة بذلك الحجم. كل المعتقدات الراسخة دحضت حيث أن بروز أفكار جديدة وقوى جديدة وجيل سياسي جديد جاء ليبدد بقوة الإعصار كل المعتقدات التي كانوا يعيشون عليها منذ أزيد من قرن. ومن ثم تتجلى ضرورة تذكير القارئ

بأهم الأحداث التي كان لها تأثير عميق على تطور الجزائر التي أضحت مدفوعة باتجاه تحررها واستقلالها.

أمام هذا السيل المتدفق من الأحداث، تجدنا مضطرين لاختيار أكثرها دلالة بالنسبة لموضوعنا، إذ سنحدد ثلاثة أحداث كان لها تأثير عميق ومباشر بل وحاسم على ما أعقبه.

أول هذه الأحداث هزيمة فرنسا في جوان 1940 والمواجهات التي كانت ستمزق الفرنسيين فيما بينهم، ثم الإنزال الإنجليزي-الأمريكي في المغرب والجزائر الذي همش سيادة فرنسا على الجزائر، وأخيرا تأسيس " أحباب البيان والحريات" مع اندلاع أحداث 8 ماي 1945 الذي أنبأ بميلاد جبهة التحرير الوطني وثورة الفاتح نوفمبر 1954.

لنتناول كلا من هذه الأحداث الثلاث على حدة، حتى نضفي مزيدا من الوضوح على موضوعنا.

I) **هزيمة فرنسا والمواجهات بين الفرنسيين**

لم تشهد فرنسا منذ ميلادها كأمة، مثل تلك الهزيمة التي تكبدتها. بل على العكس من ذلك، فهي التي ألحقت وعلى مدى أكثر من عشرة قرون من تاريخها الهزائم لغيرها من الأمم القريبة أو البعيدة. وحتى عشية النزاع العالمي الثاني كانت لا تزال تبدو كإحدى أولى القوى العالمية الكبرى. فهي، وماريشالاتها، من قادت الحلفاء نحو النصر خلال حرب 1914-1918. وسلسلة الانتصارات التي حققتها في الماضي بمفردها أو مع حلفائها جعلت الجميع ينظر إليها كقوة لا تقهر حتى أن سقوطها في جوان 1940 بعد أقل من شهر من انطلاق الفرق المدرعة لألمانيا الهتلرية عبر حدودها كان لا يزال يبدو ككارثة لا تكاد تصدق.

لإدراك حجم الأثر السيكولوجي والمعنوي الذي يفوق الأثر المادي، يكفي تذكر بعض الأحداث التي تبين كيف هوت فرنسا سريعا إلى الحضيض:

10 ماي 1940: 16 فرقة مدرعة ومتحركة ألمانية تنطلق باتجاه الغرب نحو هولندا وبلجيكا واللوكسمبورغ رغم حياد هذه البلدان. استسلمت الفرق الهولندية في 15 ماي وتبعها الجيش البلجيكي بدوره في 17 ماي. أما مدينة سيدان في التراب الفرنسي فقد سقطت بتاريخ 14 ماي. حاول الجيش الألماني محاصرة الفرق البريطانية والمتحالفة في الشمال. وقد تمكنت هذه الأخيرة بصعوبة من الإبحار في دونكيرك باتجاه بريطانيا متخلية عن عتادها الضخم.

10 جوان 1940: الحكومة الفرنسية تغادر باريس بسرعة فائقة للجوء في مدينة تور في مرحلة أولى تلاها اللجوء لبوردو.

14 جوان 1940: الجيوش الألمانية تحتل باريس وتقوم باستعراض عسكري في الإليزي مرورا بقوس النصر. في الوقت ذاته لجأ 12 مليون فرنسي و بلجيكي إلى الجنوب الفرنسي هروباً من الاحتلال الألماني وقد بلغت الفوضى على الطرقات أوجها.

16 جوان 1940: بول رينو(Paul Reynaud) الذي كان رئيس المجلس الفرنسي (رئيس الحكومة) منذ أقل من ثلاثة أشهر (عين في 23 مارس1940) خلفا لدالاديي(Daladier)، يقدم استقالته. وقد كلف رئيس الجمهورية حينها لوبرون (Lebrun)، الماريشال بيتان (Pétain) بتشكيل الحكومة الفرنسية الجديدة.

ديغول (De Gaulle) الذي كان قد رقي لتوه في رتبة جنرال والذي تألق ضد الألمان، ولم يبق سوى عشرة أيام في منصب كاتب الدولة للدفاع في حكومة بول رينو، كتب، في إشارة لوصول الماريشال بيتان " إنه الاستسلام لا محالة" (1).

بالفعل، بعد ساعة ونصف ساعة من تشكيلها، قررت الحكومة الفرنسية التي اجتمعت في اليوم نفسه أي في 16 جوان 1940 على الساعة 23

و30 د أن تطلب الهدنة من ألمانيا و ذلك ما حدث بعد نصف ساعة بواسطة سفير أسبانيا في بوردو.

كانت فرنسا منهارة ماديا ومعنويا. لم تشهد أبدا كارثة بمثل تلك السرعة ولابمثل ذلك الحجم. وليس أحسن مرجعا لتقدير الوضع من شهادة الجنرال ديغول نفسه، والذي كان شارك في القتال برتبة ووظيفة بسيطتين ليذيع صيته فيما بعد لما أخرج بلده من الهاوية. فلنحكم من خلال هذه الأسطر المقتطفة من مذكراته:

"على غرار باقي الأمم، تظافر الخوف والمصلحة والخيبة لدى الفرنسيين ليحيطوا فرنسا بحالة إهمال عامة. وحتى لو بقي فيها ممن ظلت مشاعرهم وفية لماضيها، وحتى لو اجتهد أصحاب الحسابات على جني الربح مما تركه لها حاضرها، فلم يعد هناك ثمة رجل، مهما كانت صفته، ليتصرف و كأنه لازال يؤمن باستقلالها وكرامتها وعظمتها. لقد أضحت مستعبدة ومخزية وذليلة. وإزاء الفراغ المرعب الذي أفرزه التنصل العام بدت لي مهمتي لوهلة واضحة ومرعبة. وفي تلك اللحظات بالذات وهي أسوأ اللحظات في تاريخ فرنسا كان علي أنا شخصيا أن أكون فرنسا".

إذا كان صحيحا أن صروف الدهر تتلازم، فلقد عاشت فرنسا، ومعها كل الفرنسيين، سلسة من المحن والفضائح والانشقاقات الداخلية التي أثرت بعمق في الأمة كلها. أول نكبة ألمت بها كانت الضربة الموجهة لأسطولها الذي ظل سالمًا إلى غاية ذلك التاريخ. ففي 3 جويلية 1940 تقدمت البحرية البريطانية قبالة السواحل الجزائرية بمرسى الكبير لتنذر العمارة البحرية الفرنسية التي كانت راسية هناك بضرورة اتباعها أو اللجوء إلى مكان آخر لتنجو من قبضة الألمان.

لم يلق الإنذار الإنجليزي أي صدى، وسرعان ما تساقط وابل من النيران متسببا في إغراق العديد من السفن التي كانت مفخرة البحرية الفرنسية، مخلفا 1200 قتيل.

تعرضت البحرية الفرنسية في باقي الأماكن الأخرى للمطاردة، لحملها على الانضمام إلى الحلفاء. وحتى في انجلترا نفسها تمت مصادرة البواخر الفرنسية و في داكار تعرضت بارجة ريشوليو (Richelieu) للقصف انطلاقا من طائرة إنجليزية كانت على متن حاملة الطائرات هرميس(Hermes). وفي الإسكندرية جردت البحرية الإنجليزية سفناً حربية فرنسية أخرى من سلاحها.

مرد هذا التصرف الإنجليزي في حق البحرية الفرنسية، إلى إرادة الحكومة البريطانية، في منع ألمانيا النازية من تعزيز قدراتها الحربية من خلال حجز الوحدات الفرنسية التي كانت لتستغل حتما ضد انجلترا التي بقيت وحيدة تجابه الهجوم الألماني. فقد بات الأسطول الفرنسي يمثل رهانا هاما ومن جهتها، كانت انجلترا تود لو جاء ذلك العتاد الحربي ليعزز قدراتها، وقد كانت بحاجة ماسة لذلك. على أية حال و أمام تعذر ذلك، كان يتعين إبطال مفعوله، لأن الأمر بالنسبة لها كان مسألة حياة أو موت. وعليه حدث قصف مدفعي ضد مرسى الكبير ثم لاحقا، في نوفمبر 1942،تخريب أهم هياكل الأسطول البحري الفرنسي في تولون .وفي عملية انتحارية تكاد تكون فريدة من نوعها، تخلى هذا الأسطول عن 8 طرادات و17 مضادة للنسافات و16 نسافة و16 غواصة و7 سفن حراسة و3 خفارات وحوالي ستين ناقلة بترول وسفينة جرافة وقاطرة.

وتوالت عليها المحن، لكن فرنسا على ما يبدو، لم تبلغ الحضيض بعد، وكأن الهزيمة لم تستنفد كامل قواها، ذلكم أننا شهدنا على مدى السنوات من 1941 إلى 1943 خصومات قاتلة بين ما تبقى من حطام السلطة الفرنسية.

لنقترب أكثر مما حدث في الجزائر، وسنكتفي بالتطرق للصراعات التي قامت بين مختلف المجموعات الفرنسية خلال الإنزال الإنجليزي-الأمريكي على سواحل الشمال الإفريقي وبعده.

2) الإنزال الإنجليزي-الأمريكي في الجزائر:

بدأ التفكير في الإنزال الإنجليزي الأمريكي في الشمال الإفريقي ابتداء من أواخر ديسمبر 1941. فقد انبثق عن لقاء تشرشل (Churchill) وروزفلت (Roosvelt) بواشنطن من 22 ديسمبر 1941 إلى غاية 14 جانفي 1942، مبدأ ضرورة محاربة ألمانيا التي كانت قدراتها الحربية تفوق إمكانية اليابان، التي جرّت فجأة الولايات المتحدة الأمريكية في حرب إثر الهجوم المفاجئ على قاعدة بارل هاربور(Harbor Pearl) في 7 ديسمبر 1941.

أخذت الأحداث تتسارع لا سيما، و أن الجيش الإفريقي لرومل (Rommel) قد استقر في ليبيا. في جوان 1942 تعرض الجيش الإنجليزي هناك لهزيمة في طبرق أثرت فيه بشكل عميق، وكان عليه أن يعجِّل، مهما كلفه ذلك، بالاستقرار في الشمال الإفريقي، قبل أن يسبقه الجيش الألماني إلى هناك. مما كان سيعقد أكثر أي إنزال على الساحل الأوروبي للمتوسط الغربي، أو قد يحول دونه. عاد تشرشل لبلده حاملا القرار. وبحلول صائفة 1942، أخذت التحضيرات تجرى على قدم وساق بين الإنجليز والأمريكيين لما سمي عملية "تورش" (Torch).

حيث تم الإنزال فجر الثامن نوفمبر 1942 وكان ذلك في ظروف سيئة للغاية، لا سيما بسبب الخصومات بين الفرنسيين. لقد كان الوضع في شمال أفريقيا (الجزائر، والمغرب كانا البلدين الوحيدين المعنيين بالإنزال) مضطربا ومتداخلا لدرجة لم تجعل الأمور سهلة. ولنذكر أنّ ثلاثة تيارات كانت تتنافس حينها على السلطة.

قانونا كانت حكومة فيشي (vichy) للماريشال بيتان هي التـي كانـت تمارس مبدئيا صلاحياتها. كـان الجنـرال ويغانـد (Weygand) يقـود الوحدات الفرنسية في البلدان الثلاث ولمدة قصيرة من الـزمن .ففـور الإنزال الإنجليزي-الأمريكي طالب الألمان المارشال بيتـان باسـتدعائه، والسبب على الأرجح، لأنه لم يقاتل بالشكل اللائق ضد الإنجليز والألمان. وقد عزل هؤلاء عمدا الجنرال ديغول و قوات فرنسا الحرة التي يـشرف عليها في لندن باتت تعتمد بوجه خاص على جنرال آخر هو أندري جيرو (André Giraud) الذي كان يتمتع بسمعة أحسن كجندي والذي فـر فـي أفريل 1942 من ألمانيا حيث كان سجين حرب وبات يتطلع إلى استجماع حطام الجيش الفرنسي لخوض الحرب من جديد، ضـد ألمانيـا انطلاقـا من المنطقة الجنوبية لفرنسا التي لم تخضع للاحتلال.

الواقع أن لا جيرو، ولا ديغول لم ينجزا أمرا هاما، خلال الأيام الثلاثة التي دام فيها عمر الإنزال في الشمال الإفريقي وأساسا بالجزائر. لقد ظهر رجل ثالث ولعب الدور الرئيسي ألا وهـو الأميـرال دارلان (Darlan) وزير البحرية، وهو من المساعدين المقربين للماريشال بيتان. هل كـان موجودا في الجزائر بالصدفة أو سبق إبلاغه بلعملية تـورش؟ لا أحـد يعرف بالتحديد. قيل أن ما أبقاه في الجزائر العاصمة هو مـرض ابنـه ومهما يكن فإن الأمريكيين و الإنجليز واجهوا على مدى ثلاثة أيام -من 8 إلى 11 نوفمبر 1942 - مقاومة شرسة من طـرف القـوات الفرنـسية التي كانت لا تزال تحت قيادة حكومة الماريشال بيتـان. هـذا الأخيـر الذي كان صيته شائعا في أوساط الجماهير الأوروبية، أعلن أنه سيتصدى لأي غزو أيا كان مصدره. خلفت العملية 6000 قتيل وجريح وقد كانـت الخسائر متساوية في الجانبين. على الصعيد المادي تكبدت فرنـسا مـرة أخرى خسائر فادحة حيث خسرت في هذه المعركة باخرة طاردة واحدة

وثلاث بواخر مضادة للنسافات وسبع نسافات وعشر غواصات وعدد هائل من الوحدات الأخرى و منها البارجة جان بار (Jean Bart) التي تعرضت لأضرار جسيمة وكذا 135 طائرة مقاتلة.

ما ينبغي تسجيله بوجه خاص هو أن كل المعارك البرية والبحرية وتلك التي جرت قرب السواحل، وفي الجو كانت تتم أمام ذهول لسكان الجزائر والأوروبيين والمسلمين.

أكثر من ذلك، لقد كانت مواجهات أخرى قائمة بين الفرنسيين من أنصار حكومة فيشي ودعاة فرنسا الحرة، أي أنصار الجنرال ديغول وكانوا قلة على ما يبدو.

لم تتوقف المواجهات إلا بعد تبدل مذهل أحدثه الأميرال دارلان الذي دخلت معه السلطات الإنجليزية والأمريكية في مفاوضات، رغم أنه كان عضوا -لا يقل أهمية- في حكومة فيشي التي يشرف عليها الماريشال بيتان.

بشكل عجيب، استولى الأميرال دارلان ومن خلال اتفاق مع الإنجليز والأمريكيين على لقب محافظ سام لأفريقيا. بتلك السلطة التي بات يتمتع بها باسم الماريشال بيتان دعا الفرنسيين بتاريخ 19 نوفمبر 1942 لاستئناف القتال من أجل تحرير فرنسا. و لم تكن المهزلة لتتوقف عند ذلك الحد.! دارلان الذي كان مازال عضوا في حكومة فيشي اشرف بتاريخ 15 نوفمبر 1942 على تعيين جيرو كقائد أول للوحدات الفرنسية في شمال إفريقيا في حين أن الإنجليز والأمريكيين ساعدوه على الفرار من فرنسا عبر غواصة، تحديدا من أجل مكافحة ألمانيا من جهة والعمل على منع استسلام حكومة فيشي.

لا حاجة لنا للقول: أن لا الماريشال بيتان ولا الجنرال ديغول وجدا ضالتهما في ما كان يبدو كمؤامرة غريبة بين أميرال فرنسي مخلص لحكومته الشرعية والمحتلين الإنجليز والأمريكيين في الجزائر.

سرعان ما جاء رد هتلر. ففور الـ9 نوفمبر، أي غداة عملية تورش على الشواطئ الجزائرية والمغربية، قد اقتحم الجيش الألماني كل ما بقي شاغرا من فرنسا وأصبحت كل أراضيها خاضعة له ولم يكن الوضع الخاص لمدينة تولون ليجعلها أحسن حالا.فالأمر كان يتعلق بمجرد مكيدة من هتلر لأن المدافع الألمانية أصبحت تتربص بميناء الحرب منذ 27 نوفمبر والبقية نعرفها. وقد فضل الأسطول الفرنسي تدمير أجهزته بدلا من الاستسلام . كان الخيار الأول هو الأنسب في عملية لصون الشرف.

أما في الجزائر العاصمة، فقد ظلت المدينة مسرحا للمؤامرات والمكائد والمطامع والمواجهات التي ما فتئت تمزق الفرنسيين. وقد اغتيل فيها الأميرال دارلان على يد شاب فرنسي يعتقد أنه من أنصار ديغول وقد تم توقيفه ومحاكمته وإعدامه بتسرع كان يعكس تماما الأجواء السائدة في الأوساط الفرنسية. ولم تكن الأوضاع لتتضح حينها. فقد احتدمت النزاعات بين أنصار فرنسا الشرعية أي أنصار فيشي ومؤيدي جيرو الذي فضل لبضعة اشهر الإنجليز والأمريكيين وأخيرا دعاة فرنسا الحرة وعلى رأسهم الجنرال ديغول. وصل الجنرال ديغول للجزائر العاصمة في 30 ماي 1943 بعد أن مهد له أنصاره الطريق وبقي بها شهرا متنافسا في الأول مع جيرو من أجل الزعامة على راس فرنسا المكافحة قبل أن يبعده في أكتوبر 1943 من رئاسة اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني التي أنشئت في جوان 1943 إثر اتفاق أعرج بين الجنرالين الفرنسيين.

هكذا وإلى غاية إنزال الحلفاء في نورماندي في جوان 1944 كانت الجزائر العاصمة، منذ الإنزال الإنجليزي والأمريكي في 8 نوفمبر 1942 في الشمال الإفريقي، قاعدة للقوات المقاتلة الفرنسية من أجل تحرير فرنسا. لكن كم من مشاهد التوتر وكم من الأطماع وكم من القتلى

والجرحى وكم من حلقات الاقتتال العنيفة تسلسلت أمام مرأى الجزائريين المسلمين الذين استيقظوا فجأة مذهولين أمام الكارثة الفرنسية.

في غضون أشهر قليلة، شهد المجتمع الجزائري المسلم تحولا نفسيا عميقا. فانهيار فرنسا والمواجهات بين الفرنسيين كانا يشكلان في حد ذاتهما حدثين هامين. فلطالما سمع الجزائريون المسلمون عن فرنسا الأسطورة و فرنسا المجد والوحدة و القوة إلى درجة أنهم صدقوا، مكرهين، بأنها القوة التي لا تهزم. فالكثير من المؤلفات بما فيها الصادرة عن المسلمين قد رسمت لها صورة الأمة السامية وكأن التاريخ كان يفتقر للأمثلة عن سقوط الدول والامبراطوريات.

لا يهم الإفراط في تضخيم صيت فرنسا ومجدها. فكل نظام استعماري ميال بطبعه لنسج صورة وهمية له بين الأمم (بل الأجناس) السامية وتلك الأقل درجة، وأسوء من ذلك، تلك التي ليس لها كيان بهذه الصفة. وما هو إلا شهر أو أقل حتى أمسى كل ما كان يصنع عظمة تلك الأمة- إن كان صحيحا كلية أو جزئيا- من العدم. أكثر من ذلك فإن صدى تلك المصيبة وما تلاها من عواقب قد بلغ ربوع العالم بأسره، بل ذاع فيها وهل هناك أسوء من أن يذاع نبأ عجز أمة كانت تفترض لمدة طويلة قوية أو هكذا كان يعتقد أنها كانت.

لم يحاول الجزائريون انتهاز الفرصة لجني الفائدة من مصاب فرنسا، ولو فعلوا لما استحقوا اللوم على ذلك لما تعرضوا له منذ سنة 1830 وما زالوا يعانونه حينها من هجمات وحشية وقمع واضطهاد وسلب واستغلال. كل المؤرخين يعترفون أن القوى السياسية الجزائرية في مجملها لم تستغل مصائب فرنسا لا سيما لدى قوات المحور. ومن باب النزاهة أيضا أن نضيف بأنها إذا لم تفعل كذلك- أي أنها لم تسعى للحصول على دعم ألمانيا النازية ضد الوجود الفرنسي، فليس ذلك

بدافع الإنسانية و إنما لعقيدتها الراسخة بأن القمع الألماني لن يكون أقل سوءا من غيره من أشكال القمع. بكل بسالة وثبات، فضل الجزائريون الذين اكتسبوا نضجا سياسيا ربط مصيرهم بمجال الحرية و الديمقراطية - وإن كانت الجزائر محرومة منهما- بدلا من مجال الاستعباد وشمولية اليمين لا سيما وأنه كن معروفا تقليديا عن القوى الإنجليزية والأمريكية تفتحها لمطالب الشعوب المستعمرة ولا شك أن بريطانيا العظمى بأقل درجة من الولايات المتحدة الأمريكية. لكن لنترك صوب أعيننا أن الجميع كان يرى في أمريكا القوة العالمية الأولى التي ما كان كسب رهان الحرب ولا مرحلة ما بعد الحرب ليتسنى بدونها.

وقد كان لذلك التألق الأمريكي عميق الأثر في إثارة الوعي الجزائري. فالوجود المادي لقوات التدخل الخاصة(Gis) في الجزائر مع كل القوة الأمريكية التي كانت ترافقهم قد لعب دورا هاما في تغيير الذهنيات. ومن غير العودة إلى الماضي البعيد في مناهضة الاستعمار من طرف أمريكا التي شنت سنة 1775، في عهد الجنرال واشنطن، حربا تحريرية على انجلترا ولا إلى غاية النقاط الـ14 التي حددها الرئيس ويلسن الذي كان يعتبر أن تقرير الشعوب لمصيرها وحده كفيل بفتح الطريق لتحقيق السلام والتقدم الدوليين، تجدر الإشارة إلى أن مناهضة أمريكا للاستعمار ظلت تشكل مرجعا حتى خلال النزاع العالمي الثاني. صحيح يمكن التأسف لكون أمريكا اكتفت بالأقوال دون أن تقرنها بالأفعال لكن، على الأقل من جانب التصور السياسي، مجرد وجود أمة واحدة فقط في الغرب لا تشاطر ذلك النهم الاستعماري الذي يميز فرنسا وانجلترا كان أمرا هاما للغاية.

فتمسك الأمريكيين بمبدأ تقرير الشعوب لمصيرها كان حقيقيا، على الصعيد المعنوي على الأقل، لدرجة جعلت الوزير الأول البريطاني

تشرتشل، على الرغم من عناده وتعنته المعترف بهما، ينهزم أمام عزيمة الرئيس روزفيلت الذي توصل إلى الحفاظ على هذا المبدأ في ميثاق الأطلسي الذي صادق عليه رجلا الدولة بتاريخ 14 أوت 1941 لتنظيم مرحلة السلم التي تلت النزاع العالمي الثاني.

قد سجلت الحركة الوطنية الجزائرية تحولها الجذري على تلك الخلفية العقائدية والعسكرية والسياسية السائدة خلال الحرب العالمية الثانية.

3) تأسيس حركة أحباب البيان والحرية وانفجار 8 ماي 1945

نحن لسنا بصدد تذكير مسار تأسيس أحباب البيان والحريات ولا سرد ما وقع حقيقة في الثامن ماي 1945 خلال مظاهرات سطيف ومنطقة الشمال القسنطيني. على الرغم من أن الجماهير العريضة لا تعرف الكثير عن هاتين المرحلتين اللتين تبقيان غامضتين في ذاكرة أغلبية الشعب الجزائري فهما لا تندرجان في سياق موضوعنا. ما يهم على العكس هو كيف أنهما عجلتا ببروز ذلك الوعي السياسي أو ساهمتا في تعزيزه، إن لم تكونا بشكل قاطع وراء ذلك الوعي الجديد بالنسبة لتحرر الجزائر.

الأكيد هو أن تأسيس جمعية أحباب البيان والحرية في 14 مارس 1944 والتي جمعت لأول مرة كل تيارات الرأي الجزائرية باستثناء الشيوعيين يسجل مرحلة حاسمة في تطور الجزائر السياسي. لم يسبق أبدا أن سجل مثل ذلك الوفاق بين التشكيلات السياسية الجزائرية ولا حتى خلال المؤتمر المسلمين المنعقد في جوان 1936 الذي لم يكن سوى تجمعا جزئيا وظرفيا وعابرا وحتى أن برنامجه لم يرق لبعض المطالب السياسية.

الأمر كان مخالفا مع تأسيس أحباب البيان و الحرية في مارس 1944. فقد كانت هذه الجمعية تهدف للترويج لبرنامج وطني واضح و قوي يشكل قطيعة مع البرامج السابقة سواء تعلق الأمر ببرنامج التيار الذي كان ينشطه فرحات عباس أو برنامج تيار العلماء. فلنحكم في الأمر.

بعد محاكمة مطولة وقاسية للنظام الاستعماري الذي كانت الجزائر خاضعة له منذ 1830، وذلك على الصعيد السياسي والاقتصادي والاجتماعي من جهة وبعد الاستناد الحكيم، من جهة أخرى، لتصريحات روزفيلت المناهضة للاستعمار، أعلن البيان الذي اعتمد في 10 فيفري 1943 والذي أصبح فيما بعد برنامج جمعية أحباب البيان و الحرية مطالب الشعب الجزائري وهي:

أ) إدانة الاستعمار وإلغاؤه

ب) تطبيق كل البلدان، صغيرة كانت أو كبيرة، لحقوق الشعوب في تقرير مصيرها.

ج) تزويد الجزائر بدستور نزيه يضمن:

1) الحرية والمساواة المطلقة لكل سكانها دون تمييز عرقي أو ديني.
2) إلغاء الملكية الإقطاعية من خلال إصلاح زراعي والحق في الرفاهية لفائدة كل عمال الأراضي.
3) الاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية مثل اللغة الفرنسية.
4) حرية الصحافة والحق في تشكيل الجمعيات،
5) التعليم المجاني والإجباري لكل الأطفال من الجنسين
6) حرية المعتقد لكل السكان وتطبيق مبدأ فصل الكنيسة عن الدولة بالنسبة لكل الديانات.

د) المشاركة الفورية والفعلية لكل المسلمين الجزائريين في حكومة بلدهم.

هـ) إطلاق سراح كل المحكومين و المعتقلين السياسيين مهما كان انتماؤهم الحزبي.

لقد تم إضفاء المزيد من التوضيحات على كل هذه المطالب التي أتينا على ذكرها والتي تشكل هيكل البيان من خلال مشروع إصلاحات اعتمد في 26 ماي 1943 وسمي بعدها "تتمة للبيان" والذي سلمه فرحات عباس

والدكتور طامزالي بتاريخ 11جوان 1943 للجنرال كاترو (Catroux) الحاكم العام للجزائر حينها.

لقد كان إعلان المطالب في غاية الوضوح :" .... المندوبون الماليون العرب والقبائليون يطالبون، من جهة، بضمان سلامة التراب الجزائري ووحدته، و من جهة أخرى الاعتراف بالاستقلال السياسي للجزائر كأمة ذات سيادة مع الحق لفرنسا في التدخل و المساعدة العسكرية لحلفاء في حالة نزاع".

ومراعاة للأولويات المترتبة عن الحرب، اختزل البيان مطالب الشعب الجزائري في فئتين : المطالب التي يمكن تحقيقها على الفور (الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية وكذلك تحويل الحكومة العامة إلى حكومة جزائرية تكون متساوية الأعضاء الفرنسيين و المسلمين ليصبح الحاكم العام رئيسها برتبة سفير مفوض سام لفرنسا بالجزائر) وتلك التي تتم الاستجابة لها بعد الحرب. هذه الفئة من المطالب تتلخص وفق بنود نفس التتمة على النحو التالي:

"ترفع الجزائر كدولة جزائرية مزودة بدستور خاص تعده جمعية جزائرية تأسيسية تعين بناء على اقتراع عام يشارك فيه كل سكان الجزائر".

كان ذلك على تناقض تام مع مطالب مؤتمر جمعية العلماء المسلمين المنعقد سنة 1936 كما أنه لم يسبق للجزائريين أن ذهبوا إلى حد أبعد بمطالبهم وذلك في ظل حركة أحرزت إجماعا لم يسبق له مثيل. فباستثناء حزب الشعب الجزائري وسلفه نجم شمال إفريقيا اللذين أدرجا استقلال الجزائر فور تأسيس النجم أي سنة 1926 فإن كل تيارات الرأي الأخرى والتي لا تعد بعضها تشكيلات سياسية بأتم معنى العبارة لم تحدد أبدا لنفسها هدف المطالبة باستقلال البلد.

قد يجرنا الأمر إلى الخوض في تفاصيل مفرطة تكاد تكـون حتميـة بالنظر لموضوع المؤلف الذي بين يدينا لكن لا يسعنا إلا أن نؤكد، استنادا للعديد من الوثائق، أن الحركة التي كان ينشطها فرحات عباس ما فتئـت وإلى غاية تأسيس أحباب البيان و الحرية تطالب بإدماج الجزائر وإلحاقها بفرنسا في حين أن جمعية العلماء قد تقوقعت في موقـف ثابـت وحـذر الدفاع عن الدين الإسلامي و لغة القرآن. وفي إطارنا الحاضر ليس لنـا أن نخوض في قراءات وتأويلات لمختلف ما صدر عن جمعية العلمـاء لكن هذا لا يمنع من الملاحظة بأن بعض المواقف حتى ولـو أعيـدت إلى سياق عهدها- تبعث على الارتياب.

فلنبين على الأقل، وبغرض توضيح التحـول الحاصـل سـنة 1944 أن المؤتمر الإسلامي الذي انعقد في جوان 1936، بمبادرة مـن العلمـاء وبحضور كل الحساسيات السياسية النشطة حينها، أي مـن الـشيوعيين إلى وطنيي نجم شمال إفريقيا مرورا بفدرالية المنتخبين المسلمين لقسنطينة والاتحاد الشعبي الجزائري الذي كان يرأسه الدكتور بن جلول وفرحـات عباس قد أوصى فيما صدر عنه من توصيات في "ميثاق مطالب الـشعب الجزائري المسلم" ب"إلحاق الجزائر بفرنسا" فقط ولا غير.(3)

لقد بحثنا عبثا عن أي تميز للعلماء بالنسبة لهذا المطلب فـي الكتـاب الذي كرسه علي مراد للحركة "الإصـلاحية الإسـلامية فـي الجزائـر من 1925 إلى 1940 "، والشهادة أنه كان على درجة عالية من النزاهـة في حين أن ممثلي نجم شمال إفريقيا قد ابدوا تحفظات بشأن هذه النقطة.

إن المقاربة ولو بشكل وجيز بين برنامج أحبـاب البيـان والحريـات ومطالب المؤتمر الإسلامي الجزائري لسنة 1936 لا تتوخى مـن هـدف سوى إبراز التحول التام الذي سجل في أوسـاط الجمـاهير الجزائريـة ومختلف التشكيلات السياسية التي كانت تتطلع لقيادتها ومن ثـم، يمكننـا

الاعتبار أن ميلاد جمعية أحباب البيان سنة 1944 تمثل قطيعة مطلقة مع الماضي.

إن التفاف كل قوى الرأي الجزائرية باستثناء الشيوعيين، حول برنامج واضح ومنسجم ووطني في الأعماق، قد أحدث دفعا قويا وكرس وضع ما قبل الثورة.

منذ ذلك الوقت أضحت كل مفاهيم الربط والإدماج والدمج أو أي شكل آخر قد ينكر هوية الجزائر أو شخصيتها مرفوضة على أنها بالية. أكثر من ذلك فإن كل المعلومات الجزائرية البحتة أضحت تتجه صوب فكرة بل هدف الأمة الجزائرية التي يتعين تخليصها من الهيمنة الفرنسية.

إن التفاف الزعماء الجزائريين حول هدف استقلال الجزائر برز كتطور جديد في خضم الحرب.

كما أن هذا الالتفاف قد تحقق بشكل عفوي تقريبا من خلال هبة حرة وطوعية لكل تشكيلة دون أن تتعرض أيا منها للضغط أو التهديد. قد تسجل خلافات حول المناهج والوسائل المستعملة للتوصل لذلك لكن الشيء الأساسي هو أن كل التشكيلات الجزائرية كانت مستعدة سيكولوجيا لفكرة جزائر حرة ومستقلة ومنفصلة عن فرنسا.

لا يهم معرفة كيف تم هذا التحول.أن يكون نتاجا لانهيار فرنسا أو بوعز من الإنجليز والأمريكيين الذين أجرى معهم القادة الجزائريون اتصالات ناجعة أو أنه جاء بكل بساطة نتيجة وعي القادة نفسهم. المهم بالنسبة لموضوعنا هو أننا سجلنا ابتداء من 1944 مرحلة حاسمة من تاريخها حيث باتت التيارات الثلاثة الهامة في البلد،-حزب الشعب الجزائري وجمعية العلماء والمعتدلين- عكسا لما كانت عليه في ماض قريب، تؤيد فكرة الاستقلال والاستقلال وحده.

النتيجة الملموسة والفورية لاتفاق التيارات الثلاث تمثلت في تدفق المناضلين الهائل على جمعية أحباب البيان والحرية وقد سجلت حوالي 500000 منخرط فور تأسيس الجمعية وذلك ما يبين، ولأول مرة، أن الوحدة بين التشكيلات السياسية هي أهم عنصر للتعبئة والتجنيد. صحيح أن جماهير الشعب الجزائري طالما ظلت ممزقة بين مختلف التيارات الاجتماعية السياسية السائدة في البلد . تلك الجماهير الأمية كانت تميز بوضوح بين الجزائر وفرنسا وتدرك طبيعة الاحتلال القاسية التي كانت هذه الأخيرة تمارسه. ما لم تكن تستوعبه هو ما كان يفرق بين التشكيلات المسلمة وأكثر من ذلك فطالما بدت و كأن تلك المواجهات والمشادات تتجاذبها.وفجأة باتت التيارات الثلاث على اتفاق حول هدف الاستقلال.

لقد كان ذلك مبعث ارتياح في أوساط السكان بل كان لها بمثابة محرر من تأنيب الضمير حيال ضرورة الاختيار بين أحد التيارات الثلاث وانطلاقا من ذلك الوقت انبعث شعاع أمل جديد بأن تتوحد القوى الثلاثة وتعمل معا مناجل استقلال البلد.كان الأمل قويا وواضحا ومفاجئا لدرجة أنه كان من الصعب استيعابه ليواجهه بشكل عنيف للغاية أمل آخر هو أمل الفرنسيين.هذا الأخير تجلى بشكل فاضح لا سيما وأن ألم الهزيمة في 1940 قد حجبه لفترة من الزمن.

ذلك التناقض بين أملين -أمل الجزائريين في التحرر سريعا من قبضة فرنسا وأمل الفرنسيين باستعادة مجد أهين على مرأى المعمرين، وذلك ما زاد الأمور حدة- هو الذي يفسر بشكل أفضل انفجار 8 ماي 1945. الكل يعرف كيف تسلسلت الأحداث فيما بعد.

في يوم النصر بالذات، قمعت مظاهرة وطنية بمدينة سطيف بكل قسوة وعنف وسرعان ما تلت ذلك القمع ردّات فعل متباينة: بالنسبة للجزائريين الذين طالما حرموا من حقوقهم كانت إشارة الكفاح من أجل

الاستقلال ـوكان ذلك أقصى درجات الجهل وعدم التنظيم. وأما بالنسبة للفرنسيين فالأمر كان يتعلق باستعادة زمام الأمور والقيام، على حساب الجزائريين، بغسل عار الهزيمة التي حلت بهم ومحاولة طي صفحة المواجهات بين الفرنسيين وإثبات أن فرنسا استعادة قوتها.

وكانت المجزرة. تذرعا بمظاهرة تكون قد خلفت في الجانب الفرنسي 98 قتيلا و150 جريحا سلطت السلطات الاستعمارية قمعا " شرسا، قاسيا ولا إنسانيا " على حد تعبير شارل أندري جوليان (Charles André Julien) الذي أضاف بكل نزاهة أن سطيف شهدت "تطبيق القانون الحربي حيث كان يتم القضاء تلقائيا على كل عربي لا يحمل الساعدة القانونية. وفي الريف أطلق السنغاليون والجنود الأجانب العنان للنهب والتخريب والإحراق والاغتصاب والتقتيل. وقد قصفت الطرادة دوغواي-تروان (Duguay-Trouin) ضواحي خراطة وحطمت الطائرات 44 مشتة، وهي مجموعة سكنات تحتضن من 50 إلى 1000 ساكن.وفور انتشار خبر نهب وتخريب القرى المجاورة انتابت سكان مدينة قالمة تلك الحمى الحصارية فنصبوا الحراسة الوطنية لمساعدة الوحدات في حماية المدينة من عصابات الآلاف من الأهالي التي كانت تحيط بها.وقد تم تنظيم حملات عقابية وإعدام العشرات من الأهالي دون محاكمتهم وغالبا ما تم أخذهم بالصدفة.وعلى غرار الفاشيين (4) فقد شارك في العمليات القمعية عناصر اليسار المتطرف.

من بوسعه القول كم من قتيل وجريح خلفه ذلك الجنون القاتل؟ الأرقام المتبادلة لا يمكن أن تتطابق كما أنها لا تحمل نفس الدلالة.

فمن جانب الحكومة تم إعلان 1500 قتيل من بين الجزائريين لكن هذا العدد بالنسبة للعسكريين يتراوح بين 6000 و8000 قتيل أما الوطنيون الجزائريون فقد تحدثوا عن 40000 إلى 50000 ضحية

عن عدد الموقوفين عبر كامل البلد فقد تم الحديث عن حدود 4500 معتقل . فضلا عن هذه الإحصائيات فإن ما ينبغي تسجيله بالنسبة لموضوعنا هو الأثر العميق الذي خلفته ما سميت فيما بعد أحداث سطيف أو أحداث 8 ماي 1945.

الجزائر برمتها كانت تحت وقع الصدمة.وحتى وإن كانت المظاهرات، وما عقبها من تحامل وقمع محصورة، في بعض من مناطق الشمال القسنطيني فإن الجزائر برمتها باتت وكأنها في ثورة شاملة لاسيما وأن حزب الشعب الجزائري الذي كان ينشط في السرية قد عمل على إذكاء أجواء الثوران ويكون قد حدد في غضون بضعة أيام -وذلك ما وصف بمنتهى التهور- تاريخ تفجير الكفاح الوطني ليوم 23 ماي 1945.

لقد أضحت ذكريات تلك المجازر الوحشية راسخة في أذهان جيل جديد. جيل أدركه الرشد في ذلك العهد. ذلك الجيل الذي تفتح للسياسة على خلفية إجماعية وطنية، ما كان، بعد أن قسته محنة الشمال القسنطيني، ليقبل بوهم الشرعوية الذي طالما خدع سابقه ولا بالمواجهات السياسية التي تغفل الأمور الأساسية ولا بالانقسامات التي لا تعكس سوى النزاعات بين الأفراد. ذلك الجيل حدد نصب عينيه هدفا واحدا ووحيدا وهو الكفاح المسلح. ذلكم الجيل هو جيل مؤسسي اللجنة الثورية للوحدة والعمل ثم جبهة التحرير الوطني. إنه جيل بن مهيدي وديدوش مراد وبن بولعيد وزيغود يوسف وغيرهم.

منذ الثامن ماي 1945 تغيرت الأمور في الجزائر عما سبقها ومن هنا يمكننا الاعتبار أن جمعية أحباب البيان والحرية التي صارت جبهة وانتفاضة 8 ماي 1945 هما اللذين أنبأ بميلاد جبهة التحرير الوطني ثم بتفجير ثورة الفاتح نوفمبر 1954.

الثـــائـــر

أكثر ما تميز به عبان رمضان في نهاية مراهقته، هو تلــك الــروح المتمردة على كل شيء. لقد كان شابا يافعا حين أبدى معارضـــته لكــل السلطات الممارسة عليه، بما فيها، سلطة أبيه.لقد سمعنا أكثر من شـــاهد يقول أن الأمور لم تكن على ما يرام بين الوالد والابن. ويبدو أن في الأمــر شيء من المبالغة، فليس هناك دليلاً على توتر العلاقات بينهما وأقل منها عن شيء من العداء. لكن ما يبدو أكيدا نسبيا، هو أن الشاب عبان رمضان قد حاول مبكرا تحقيق استقلاليته اتجاه أسرته وأولها والده،باعتباره الوحيــد الذي كان يظهر بعض التشدد معه .كان يسعى لتحقيق اســتقلالية الفكــر والعمل معا، وعليه فمن المحتمل جدّا أن تكون مغادرة الطفل لبيت العائلة مبكرا للإقامة -في النظام الداخلي- في متوسطة استعمارية بالبليدة مرتبطا بهذا السعي لإثبات الذات الذي عرف به صراحة منذ المراهقـــة. فإقامـــة طويلة -من 1933 إلى 1942- بعيدا عن الأسرة والسلطة الأبويـــة كانـــت مناسبة جـــدًا لتحقيـــق تلـــك المرامـــي الاســـتقلالية، وإثبـــات الـــذات، وحتى لتغذية ذلك الميل نحو السرية والعزلة.

إن اقتناء المعرفة يوفر بعض الطمأنينة والثقة، لترسيخ ميل اســـتقلالي كان كامنا. وإن كان هذا الميل قد تجلى مرارًا وبأشـــكال مختلفـــة.فـــي المتوسطة أولا حيث أخذ عبان رمضان يمارس نشاطات خارج الإطـــار الدراسي، وخفية عن أبيه حتى أن مديرة المؤسسة استدعت الوالد لتبلغـــه أن ابنه لا يكرس نفسه تماما للدراسة وأنه منشغل بنشاطات أخرى.

لا أحد يعرف ما يشغل الشاب رمضان. لقد أصابته في الواقع ،وعلى غرار العديد ممن يكبرونه سنا وزملائه في المتوسطة، عدوى الوطنيـــة.

فالبليدة كانت آنذاك صورة عن مجتمع مصغر، تتجلى فيه التيارات السياسية الجزائرية، بحرية كاملة.

كانت العديد من الفروع، تحاكي بعضها، من حزب الشعب الجزائري إلى اتحادية المنتخبين (نزعة إصلاحية) مرورا بالعلماء المسلمين الجزائريين والحزب الشيوعي الجزائري.في نفس المؤسسة التعليمية ويبدو أن فرعًا من حزب الشعب الجزائري قد بدأ ينشط في أوساط التلاميذ. وكان الدكتور لمين دباغين أول منشطيه ثم جاء بعده المدعو لعساكر.فالمتوسطة كانت بالتالي مفعمة بتلك النزعات السياسية والنقاشات التي عززتها قراءة جريدة "الأمة"، لسان حال حزب الشعب الجزائري. ويمكن أن نعتبر بالتالي أن عبان رمضان قد اقتحم مبكرا عالم السياسية من خلال اندماجه ومشاركته المباشرة والنشيطة في النضال الوطني. وبمجرد أن وعى حقيقة الأمور، حتى انخرط في صفوف حزب الشعب الجزائري وهو أكثر الأحزاب راديكالية بوصفه الوحيد الذي أعلن صراحة، منذ تأسيس نجم شمال إفريقيا سنة 1924 وهو سليله، نضاله من أجل الاستقلال التام للجزائر.

انطلاقا من تلك الفترة، يحتمل أن تتزامن مع آخر سنوات الدراسة في المتوسطة لعبان رمضان الذي أنهى دراساته الثانوية في جوان 1942، يمكننا أن نؤرخ، بشكل معقول أنه إذا لم ينضم إلى الحركة، فقد شارك على الأقل في النشاطات الوطنية ضمن أكثر التيارات تمثيلا للكفاح من أجل استقلال البلاد.

لقد سبق وأن سجلنا، واشرنا إلى أن آخر سنوات دراسة عبان رمضان لم تكن بنفس القدر من الاجتهاد والمواظبة كما كان. والسبب على الأرجح، أن فكر التلميذ كان آنذاك مشغولا بأمور واهتمامات أخرى، والاستدعاء الموجه لوالده للفت انتباهه إلى تصرفاته ما هو إلا إثبات لما استقيناه لدى

شاهدين بأن بعض تلاميذ متوسطة البليدة كانوا يشاركون بشكل حثيث في نشاط التحسيس الوطني.

لا يبدو أن الشاب عبان رمضان الذي صار راشدا في ذلك الوقت، قد أبه لعتاب والده، ليس لأن هذا الأخير، كان كغيره من أقرانه، معارضا للنضال الوطني، بل لأنه لم يكن متفائلا. فالوالد ابن ذاك الجيل الذي وصلته شهادات أليمة عن قمع همجي لثورة المقراني سنة 1871 وما كان له أن يرى، في أحسن الأحوال سوى تهورا في كل محاولة ثورية ضد فرنسا وبخاصة لما كان لانتصارها خلال الحرب العالمية الأولى وكذا للاحتفالات المئوية من عظيم الأثر على ذهنيات العديد من الجزائريين الذين باتوا، بفضل دعاية طويلة المدى واستمالة للأذهان، على قناعة راسخة بأن فرنسا باتت تلك القوة التي لا تهزم.

ناهيك عن كل هذا وذاك، فإن قناعة رجل ريفي كوالد عبان رمضان، عايش وقائع ملموسة أن الحياد عن الطريق المستقيم يؤدي حتما إلى الهلاك.

بالنسبة لهذا الأب فإن وجود عبان رمضان بالبليدة مقرون بمزاولة دراسة ذات نوعية لا غير ولا حتى النشاط الوطني الذي كان، ينبغي التسليم بذلك، حكرا على قلة من العارفين. قد تتظاهر بل يمكن أن تكون متعاطفا مع القضية الوطنية لكن أن تصبح مناضلا نشطا ضمنها مع التخلي عن النشاط الرئيسي فتلكم الخطوة التي لا يتسنى قطعها بسرعة في بلد العمل الشاق والواقعية.

أعقبت ذلك التنبيه الأول للشاب عبان رمضان من قبل والده تنبيهات عديدة أخرى، وسرعان ما جاءت الفرصة السانحة من خلال الخروج من المتوسطة. ما العمل بشهادة بمستوى الباكالوريا؟ القرار ليس بالهين وسرعان ما شب الخلاف بين الوالد والابن. فبالنسبة لهذا الأخير ليست

شهادة الباكالوريا سوى تذكرة للانتقال للجامعة التي كانت تتوهم كل جزائري أدركها وكل عائلة كانت تحلم بأن يصبح أحد أفرادها يوما ما طبيبا أو محاميا وهما الوظيفتان اللتان كانتا تثيران تقدير المسلمين بشكل مثير.

بكل غرابة أكد لي أقارب أهل عبان رمضان أن هذا الأخير كان يريد ان يصبح رجل قانون. وما يثير دهشتي في ذلك هو أن عبان رمضان كان يظهر في المتوسطة ميلا للمواد العلمية والرياضيات أكثر من الفروع الأدبية، ونتائجه تعكس ذلك الميل.والجميع يتذكر تنبيه المعلمين له بالاهتمام باللغة الفرنسية وحثهم إياه على المطالعة. شهادة الباكالوريا في فرع الرياضيات فتحت له الأبواب واسعة لمزاولة الدراسة في الطب أو غيره من المهن التي تغلب فيها المواد العلمية. لكنه فضل -وقالها صراحة- أن يصبح رجل قانون ودافعه كان على نفس الدرجة من النبل والسذاجة: كان يريد الدفاع عن غيره فقط لا غير.كما أنه يعتقد في قرارة نفسه أنه سيواجه فرنسا وكأن الأمر كان يقتصر على مجرد مرافعة. ومن الممكن جدا أنه يكون قد فكر فيما سيجنيه من دراسات الحقوق من فائدة لصالح النضال السياسي الذي بدا وكأنه أخذ يتعود عليه.

لا تهم الأسباب والدوافع التي هي وراء اختياره. فهو لن يتحقق. ليس من أجل الحرب التي بدأت تتوسع رقعتها ويشتد وطيسها والتي سيجند لها بدوره. ليس أيضا من أجل رفض الأب ولا من أجل أي عائق آخر أمام دخوله الجامعة.لم يتحقق حلمه من أجل قلة الإمكانيات والظروف حينها كانت قاسية على الجميع، بما فيهم، أسرته التي عانت كثيرا من وقف كل النشاطات الاقتصادية. وليس هناك أصعب على أسرة تعودت العيش الميسور وسط محيط من الفقر، من أن تجد نفسها في نفس المستوى مع الآخرين. فكرامة الإنسان قد لا تتحمل ذلك حتى وإن تفنن الخيال في إخفاء الحرج أو مظاهر البؤس الذي قد نؤول إليه. فأمام عبان رمضان

أكثر من دافع لمقت هذه الحرب فهي لم تكن حربه ولم يكن يشعر إطلاقا بأنه معني بها. أبعد من ذلك فهي تحمل البؤس والشؤم للأسر. بالنسبة لأبيه وعمه كانت تمثل نهاية تجارة مزدهرة وبالنسبة لأخيه كانت حتمية الاغتراب في فرنسا لكسب القوت، وإن أمكن قوت العائلة. أما بالنسبة له فكانت عبارة عن اضمحلال حلم التزود بسلاح العلم من أجل محاربة فرنسا بشكل فعال.فلا يمكن في الوقت الذي تواجه فيه العائلة برمتها صعوبات ومشاكل وحرمانا لم تكن تعرفها من قبل، أن يواصل عبان رمضان دراسته، بالرغم من حصوله على الباكالوريا. فموقف الأب كان صارما بهذا الخصوص: من غير الممكن دفع نفقات الدراسة فحتى وإن كان يريد ذلك- وأي أب يقف بملء إرادته عائقا أمام سعادة ابنه، فهو لا يستطيع.ليست له الوسائل اللازمة.ما أقسى النطق بهذه الحقيقة وما أقسى أن يعرف ذلك غرباء عن الأسرة و ليس من سبيل لتبديل الأمور ولا حتى الشروع، نزولا عند رغبة عبان رمضان الذي استنفذ كل ما جادت به مخيلته من أفكار ليصل إلى اقتراح بيع نصيبه من أرض ورثها. مثل ذلك الاقتراح يقترن بالنسبة لرجل الجبل لقبائلي بالابتزاز، بل هو تدنيس للشرف.

كيف تسول لقبائلي نفسه أن يبيع أراضيه و لو كان لدفع نفقات دراسة ابنه. إنه انتهاك لعرض العائلة، الأرض لا تباع، لا يمكن لأحد أن يمسها. أو ليست إحدى ثلاثة مقدسات في منطقة القبائل؟ قيمتها من قيمة المرأة والبندقية وأي مساس بها يعد مساسا بشرف صاحبها الذي يحيطها بكامل عنايته. ثمة شيء آخر. كيف تسوغ لابن نفسه أن يتحدث عن نصيب في الميراث وعن أي نصيب يتحدث. في حياة الأب لا يملك الأبناء شيئا.كل البيت والأراضي وحتى الأطفال هم ملك حصري للأب. تلكم هي سلطة الأب وفي بلاد القبائل كانت تتعدى حتى القانون نفسه.بكثير

من الحسرة رفض الوالد لابنه عبان رمضان مواصلة دراسته وهكذا أصبحت الجامعة التي كانت الوسيلة لتكريس المواهب من المحظورات بالنسبة له. مصاب تألمت له الأسرة برمتها ولكن ما عساها تفعل؟ ليس من سبيل لبلوغ هذه الغاية وليس من تضحية تبذل لأن المداخيل كانت بالكاد تكفي أفراد الأسرة.

وعوض الإصرار على مواصلة الدراسة حتى التمادي إلى المطالبة ببيع الأراضي، كان حري برمضان أن يعمل لمساعدة الأسرة لكن هيهات، فهو لا يفكر في الأمر بتاتا.وحتى أن والده يذكره بذلك مرارا لغاية أن المسألة باتت مبعث خلاف بين الاثنين. فالأب كان يعتبر أن شهادة الباكالوريا كانت كافية للحصول على مركز معتبر ورمضان الذي وصل إلى هذه المرتبة يعد محظوظا والفضل في ذلك يعود إلى تضحيات أسرته بأكملها. ففي الوقت الذي كان أخوه الأكبر عمر، يستعد للغربة من أجل مساعدة الأسرة، فإن أقل ما يمكن أن يقوم به رمضان، هو العمل، لأنه ملزم أكثر من غيره بذلك إزاء كامل أعضاء أسرته.

لكنه لم يكن ينظر للأمور من هذه الزاوية.وما سلم مؤقتا من تلك المناوشات الناشئة بينه وبين والده إلا بأمر مرين: فقد بلغه أمر التجنيد. وكان عليه أن يلتحق بمركز التدريب "بفور ناسيونال" غير بعيد عن قريته. كان للنبأ عليه وقع الصاعقة. وقد اضمحلت كل آماله في الالتحاق بالجامعة وهو ابن الـ 22 ربيعا ومعها تلاشت كل أسباب الخصومة مع والده حول الموضوع. لقد تحسر لذلك الوضع الذي لم يكن له حياله حول ولا قوة، وما كان له سوى الرضوخ، وإلا فمصيره كان المحكمة العسكرية التي لم تكن لتتسامح معه في الوقت الذي كانت فيه فرنسا المستسلمة أمام القوات الهتليرية تسعى لإستجماع بعض القوى.

لقد كانت هناك الكثير من المزايدات بين دعاة تقويم فرنسا. سواء تعلق الأمر بديغول أو بجيرو الجميع كان يحاول كسب المزيد من القوات والأمر كان ضروريا لا سيما و أن الانجليز والأمريكان طلبوا من الجنرالين الفرنسيين مزيدا من الفرق العسكرية إذا كانا يريدان المشاركة في الحرب ضد المحور الايطالي الألماني. وما كان لهذه الوحدات أن ترد إلا من المستعمرات، حيث أن فرنسا ذاتها توقفت عن القتال لأن جزء منها بات محتلا وما تبقى من سلطتها على الجزء الأخر، أضحى مرتبطا بتعاون طوعي أو قسري مع ألمانيا النازية. ولم يكن أمام عبان رمضان من خيار سوى الالتحاق بالثكنة. وهذا ما فعله مضطرا مكسور الخاطر. لكنه كان في أعماقه عازما على العمل كي يسرح على الفور أو أن يستقر في حالة عصيان يومي. لا تتوفر لدينا المعلومات الدقيقة حول مرحلة تجنيده، وما يمكننا تقديمه بهذا الخصوص يقتصر على بعض المعالم وبعض الحوادث التي تعبر عن حالته النفسية حينها.

تابع عبان رمضان التدريب العسكري في منطقة الأربعاء ناث إيراثن (فور ناسيونال). لم يبق سوى بضعة أشهر لكنها كانت كافية ليبرز فيها. ويذكر، أحمد، ابن أخيه أن عمه رمضان كان يتجول في سوق المنطقة مسدلا برنوسه على زيه العسكري غير مكترث لنظرات القادمين من مختلف القرى بل تمادى في عجرفته إلى حد تقديم التحية لكولونيل فرنسي في كتيبة "فور ناسيونال" كان هناك يوم السوق. وسرعان ما أثار العريف الجريئ ثائرة رئيسه الذي قرر الحط من رتبته. حينها بدأت المواجهة.

ثم أرسل إلى قسم القناصين الجزائريين بالبليدة حيث قضى حسب البعض كامل فترة التجنيد كموظف بمكتب البريد فيما يقول البعض الأخر أنه قضى فترة قصيرة بالريف الايطالي.ولقد سعى بكل ما أوتي من قوة وحيلة لكي يطرد من الجيش ، وهناك من يقول أنه قد باع زيه العسكري

بالجزائر العاصمة حتى لا يبحر إلى الريف الإيطالي. وبعد مدة من ذلك، عيّن، لا نعرف إن كان للحظ دور في ذلك أو أن الأمر تم بدافع حمائي ما، مترجما فوريا لدى أحد زملاء الثانوية الدكتور ناهون الذي أصبح طبيبا عسكريا. لا تتوفر لدينا معلومات أخرى تخص المرحلة التي قضاها بالجيش سوى أنه سرح بعد مدة من انتهاء الحرب في حدود افريل-ماي 1946 .

في تلك الفترة استعاد الاتصال بحزب الشعب الجزائري. ولدينا تاريخ قد يكون صحيحا عن لقاء له مع أحد قادة الحزب، عمر أوصديق مساعد أحمد بودة المكلف بتنظيم الحزب. خلال تنقل له في جوان 1946 إلى "فور ناسيونال" في مهمة مراقبة في خضم الحملة الانتخابية للانتخابات التشريعية، يتذكر عمر أو صديق الذي أصبح فيما بعد قائداً لجيش التحرير الوطني في الولاية التاريخية الرابعة ثم كاتب دولة لدى الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية وأخيرا سفير الجزائر المستقلة، أنه التقى عبان رمضان للمرة الأولى حينها. وكان ذلك بطلب من حنفي فرنان، أحد المسؤولين المحليين لحزب الشعب الجزائري. صحيح أن الأسرتين أوصديق وعبان كانتا تتعارفان، لكن لم يسبق للرجلين أن التقيا من قبل. وتكون المحادثات بينهما قد دارت مدة نصف ساعة، ويكون عبان رمضان قد أكد استعداده للنضال كما انه لم يخف عن متحادثه أنه قدم طلبا للتوظيف في الإدارة. وتقرر متابعة ملفه على مستوى الفدرالية الجهوية لحزب الشعب الجزائري للمقر الذي عين فيه فيما بعد.

في الانتظار، ظل عبان رمضان بلا عمل محدد، مما كان يثير غضب والده الذي كان متلهفا ليرى ابنه يشغل منصبا في مستوى تأهيله وذلك ما كان يعني حينها الالتحاق بالإدارة الوحيدة التي توفر مثل تلك المراكز القارة والمتميزة والتي تحقق ذلك النفوذ الذي طالما تتمسك به الذهنية الريفية. وقد نشب الخلاف بين الوالد والابن حول هذا الموضوع مجددا.

يبدو، حسب العديد من الشهادات، أن عبان رمضان لم يكن متحمسا لذلك المسار الإداري مما حمل البعض على التسرع في الاستنتاج انه لم يكن يرغب إطلاقا في العمل .في ذلك العهد لم يكن هناك من سبيل لشاب جزائري يحمل شهادة الباكالوريا، الحصول على عمل قار.والإدارة كانت البوابة الوحيدة شريطة إجتياز المسابقات التي كانت انتقائية بشكل مجحف.

فمعايير الانتقاء لم تكن تقتصر على مجال المعارف بل كانت تتعداه إلى السلوك الاجتماعي والسياسي للمترشح. ولا حاجة للتذكير أن كل مترشح يشتبه مجرد اشتباه، في تعاطفه مع الحركة الوطنية ما كان ليحظى بفرصة الحصول على منصب بالإدارة العمومية وبخاصة إذا كانت تحوم حوله شكوك، بمناهضته للفرنسيين.

ولنتذكر من جهة أخرى أن الناس لم تكن تنظر بعين الرضا لمن يعمل لصالح فرنسا، لأن ذلك ما كان يعنيه العمل في الإدارة الفرنسية الوحيدة الموجودة بالجزائر، فليعلم من لا يعلم أن بتونس والمغرب كانت هناك إدارة موازية حقيقة قائمة . وفي هذا المقام يجدر التذكير أن وضع البلدان الثلاثة كان مختلفا تماما والجزائر كانت تعتبر مقاطعة فرنسية وعلى حد التعبير الاستعماري، الجزائر كانت فرنسا.

كل هذه التفاصيل، والتوضيحات، لإثبات مدى الكراهية التي كان يكنها عبان رمضان للعمل الإداري، لكن إلحاح والده، تغلب عليه، كما أن البقاء بلا شغل، لا سيما بالنسبة لحامل شهادة البكالوريا، كان سيؤدي بالرأي العام إلى الحكم عليه بالتكاسل. عدم تحمس عبان رمضان للبحث عن عمل أدى شيئا ما بوالده إلى الأخذ بزمام الأمور. وهناك من يقول أن تدخلا لآل تمزالي (على الأرجح الطبيب الذي كان عضوا منتخبا من الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري) وإيدير أيت شعلال، منتخب هو الآخر، واللذين كانا صديقين لوالد عبان رمضان، مكن من إيجاد منصب

له ككاتب، في البلدية المختلطة لشاتودون دو روميل، (شلغوم العيد حاليا)، غير بعيد عن قسنطينة.

كان منصب هام ولم يكن بلوغه بالسهل ـ في الغالب عن طريق المسابقات ـ لكن العلاقات العائلية تدخلت للمساعدة، وربما أيضا، لحمل عبان رمضان ليكون الشخصية الثانية لبلدية مختلطة هامة نسبيا.فقد كان اقرب المسؤولين من المسير الذي كان فرنسيا بالضرورة بالنظر للوضع الخاص للبلديات المختلطة التي كانت تسير من طرف موظف سام بدلا عن القاضي المنتخب. ومعروف عن مسير بلدية شاتودون ـ المدعو بوست (Boste)ـ أنه كان من الليبراليين، تناسب عن طريق الزواج مع منتخب من الإصلاحيين.وذلك ما مكن عبان رمضان من بلوغ منصب كان مخصصا عادة للمترشحين الذين يتم انتقاؤهم لاستجابتهم لتطلعات الاستعمار ومعاييره. وما كان للمنصب ولكل الامتيازات المترتبة عنه ليغيروا من كره عبان رمضان لمثل ذلك العمل.لكن كل هذه الامتيازات التي سيحظى بها والده وأصدقاؤه كانت ستقلب الكفة لصالحه . ففور وصوله إلى شاتودون، في حدود سبتمبر /أكتوبر 1946 على الأرجح، أصبح عبان رمضان يتحيّن أدنى الفرص للاتصال بحزب الشعب الجزائري ولا يبدو أن لقاءه مع عمر اوصديق قد احدث ردة فعل ما.

فكيف وصل اسمه وملفه للمنظمة الجهوية للحزب وهذا الأخير كان ينشط في سرية تامة لم تكن لتشجع قيام جهاز إداري.الوسيلة لم تكن لتهمه وهكذا عاود النشاط حثيثا لإقامة اتصالات مع الأوساط الوطنية. وكان له ذلك مع صاحب بقالة في ضواحي المدينة، فتعرف على مناضلين اثنين من حزب الشعب الجزائري و هما بلميلي الحسين وثعالبي علال اللذان أسسا في أكتوبر 1946 خلية للحزب مع عضو ثالث يدعى صخري العمري. اندمج عبان رمضان في الفريق في حدود نوفمبر 1946 إثر بعض

الاتصالات التي بادر بها.و جاءت الانتخابات التشريعية لنوفمبر 1946 لتتيح الفرصة لعبان رمضان ليقابل مناضلي الحزب.فقد شارك الاثنان في فرز الأصوات، لحساب حركة انتصار الحريات الديمقراطية الذي نشئ لتوفير التغطية الرسمية والانتخابية لحزب الشعب الجزائري السري. وقابلا هناك عبان رمضان الذي حضر عمليات الفرز بمقر البلدية مع مسير هذه الأخيرة.

ولم يكف عبان رمضان منذ ذلك اليوم بإبراز مواقفه السياسية لاسيما أمام مناضلي حزب الشعب الجزائري، فسرعان ما حققت خليتهما عملا باهرا بالنظر لأهمية أعضائها، فأحدهم كان شخصية بارزة في البلدية والاثنان الأخران كانا معلمين في مدرسة جمعية العلماء المسلمين. وكان في ريعان الشباب، ويتمتعان بثقافة مزدوجة جعلتهما على نقيض تام مع أسلافهما وحتى مع رؤسائهما الذين كانت أغلبيتهم من المحافظين لا سيما فيما يتعلق بالزي والسياسة التي كانوا يبدون كثيرا من الحذر فيها.

قمة التناقض أن المعلمين الجديدين لم يكونا ينتميان إلى جمعية العلماء المسلمين وإنما للحركة الوطنية، واستغلا وظيفتهما، غطاء لنشر البرنامج السياسي لحزب الشعب الجزائري وليس برنامج جمعية العلماء الذي كانا يعتبرانه معتدلا كثيرا وحتى انه لم يكن ملائما لتحقيق الهدف الرئيسي المتمثل في استقلال الجزائر.

حضر عبان رمضان كل المؤتمرات واللقاءات التي كانت تنظم بحجج مختلفة، وشارك في الدروس المسائية المنظمة لفائدة الكبار في المدرسة. لقد نشأت صداقة وثيقة بين أعضاء الخلية الثلاث الذين كانوا يقطنون مطعما لم يعودوا يستحسنون خدماته، فقرروا تحضير أكلهم بأنفسهم. فقد عينوا أحد حراس المدرسة طباخا وحولوا إحدى خلوات المبنى إلى مطبخ وما هي إلا سنة واحدة حتى جعلوا من المنطقة أحد معاقل أكبر حركة

وطنية.كان العمل مضنيا لأن المنطقة كانت عبارة عن قلعة يسيطر عليها تيارا العلماء والمعتدلين. وحسب الشهادات ما كان فرحات عباس الذي ذاع صيته في سطيف وفي المنطقة بأكملها، يمر إلا ويقبل عليه الرواد مرحبين ومهللين. فنشاطاته كمنتخب وكزعيم للحركة المعتدلة جعلته يزور أحيانا قسنطينة حيث كانت محطته الرئيسية شاتودون دو ريمال.

وبعد أقل من سنة من تشكيل خلية حزب الشعب الجزائري، اخذ تصرف كل التجمع السكني يتغير بشكل شبه جذري. فاللقاءات المتكررة والخلايا الجديدة التي أخذت تبرز، ونشاطات التحسيس والتوعية مكنت عناصر حزب الشعب الثلاث من تغيير الذهنيات. وقد قال احمد بودة، وهو أحد أهم الشخصيات حينها وعضو المكتب السياسي لحركة انتصار الحريات الديمقراطية أن فرحته كانت كبيرة حين وجد القاعة مليئة خلال الحملة للانتخابات البلدية لاكتوبر1947.

إن عبان رمضان وصديقيه قلبا على ما يبدو، وضعا لم يكن لصالحهم في بادئ الأمر.

لكن سرعان ما نزل عليهم غضب المسؤولين، حيث أشعر بلميلي والثعالبي بالاختيار بين جمعية العلماء، وحزب الشعب الجزائري. فالتدريس في مدرسة حرة خاضعة للعلماء المسلمين لم يكن يتوافق وإظهار الانتماء لحزب الشعب الجزائري. الشراسة والتطرف وحتى روح المغامرة المنسوبة لذلك الحزب ولكل المنتمين له، لم تكن لتليق بمقام مدرس في القطاع الديني. فقد نقل المدرسان حيث توجه ثعالبي بأمر من مديرية الحركة الدينية إلى أقصى غرب الجزائر إلى مغنية منذ جوان 1947 ليدرس بعدها في مدارس حزب الشعب الجزائري بالعاصمة والبليدة في حين عيّن بلميلي في منصب بالجزائر مما وضع حدا لتجربة أولى كانت مخالفة تماما لذهنية المحظورات السائدة آنذاك والتي تحمل كثيرا

من الدلالات عن التحزب والإقصاء الشائعين بين الحركات الوطنية الجزائرية، حيث لم يكن هناك أدنى تردد في نقل أو طرد المعلمين الأكفاء لمجرد أنهم لا يشاطرون الآراء السياسية للعلماء. وعلى غرار الحركة الإصلاحية، أو أكثر منها، فلقد كانت الأحزاب الأخرى تقصي كل من كان مغايرًا لها.

هذا ما يمكن قوله عن الأجواء السائدة حينها في أوساط الحركة الوطنية. فما كانت إحداها تتصور الكفاح إلا تحت رايتها، ولوائها، وأخطر من ذلك ما كان أي حزب ليقبل برنامج آخر، حتى ولو كان على درجة عالية من الوضوح والتناسق. كل حزب كان يعتبر أن برنامجه هو الأنسب وغيره سوى ضرب من ضروب المغامرة أو الفساد أو الجمود. في غياب التسامح كانت الحركات الوطنية تقصي بعضها البعض معرضة للخطر كفاح الشعب الجزائري، وانسجامه للخطر.

أما عبان رمضان فقد واجه بدوره الانذار الحقيقي الذي وجهه إليه مسؤوله. فسواء كان ليبيراليا أم لا، مهمته على رأس البلدية المختلطة كانت تتمثل في الحفاظ على مصالح الاستعمار ليس إلا. حتى و إن كان يتردد شيئا بواعز من ضميره، فإن الحاكم العام بسلطته القوية كان حريصا على كل شيء.ثم ماذا كان يعني بالنسبة إليه منصب الكاتب؟ أو لا يعود الفضل للتدخل هذا الأخير في حصوله على منصب مرموق ربما لم يكن يعر له كبير الأهمية لكنه كان هاما بالنسبة لوالده؟

غداة الانتخابات البلدية التي نظمت في أكتوبر 1947 والتي سجلت انتصارا باهرا لحركة انتصار الحريات الديمقراطية رغم العوائق والمؤامرات المحاكة من طرف الإدارة الاستعمارية على غرار ما تعودت القيام به، استدعى المسير عبان رمضان ليذكره بواجباته وقال له: بأنه يعلم الدور الذي لعبه في فوز حركة انتصار الحريات الديمقراطية وبشكل

عام تفانيه ونشاطاته في خدمة الحركة الوطنية وطلب منه بالتالي الاختيار بين وظيفته الإدارية وانشغالاته السياسية.

ويبدو أن جواب عبان رمضان على مسؤوله كان فوريا ووقحا نوعا ما: "بين حضرتكم وبيني ليس هناك من صلة سوى هذا القلم" ليلقي بقلمه على الأرض. وبعد أسبوع تخلى عن وظيفته وكان في ذلك التعبير الصريح عن ثورة لم يكن ليتحكم فيها خاصة اتجاه والده الذي ما فتئ يحثه على العمل.

كانت أيضا ثورة على كل ما يربطه بالنظام الاستعماري، الذي يعد الجيش والبلدية المختلطة ابلغ صورة له. بعد أن تخلص من كل التزام اتجاه والده وقطع كل صله بالمجتمع الاستعماري، غاص عبان رمضان فيما كان حينها مجرد مغامرة، لأن لا شيئ كان يضمن نتيجتها. كانت قفزة باتجاه المجهول. كان عليه الاستعداد لمواجه أسوأ الاحتمالات بدءًا بنقص المال والملجأ والجوع والبرد وأكثر من التشرد. هكذا، وابتداء من خريف 1947 دخل عبان رمضان بكامل إرادته في السرية التامة.

الســرية

لم تكن متابعة مسار النشاط السري لعبان رمضان بالمهمة السهلة.فلقد بدأ بعد أيام فقط من استقالته من البلدية المختلطة لشاتودون إثر الانتخابات البلدية التي جرت في أكتوبر 1947 منتهياً فور توقيفه وسجنه في حــدود افريل-ماي 1950، وسنحاول فيما يلي، تتبع سنتين ونصف سنة من عمر عبان رمضان، ونشاطه.

تمكننا مختلف الشهادات التي استقيناها من الأشخاص الذين عايــشوه، من تحديد شخصية عبان رمضان في الزمان والمكان .

كان حريصا على التوفيق بين مظهره الخارجي ونفــسيته ووضــعه الإجتماعي. فبات يرتدي جلابة من الوبر بنيــة اللــون، ولــم يخلعهــا حتى ساعة توقيفه، وهي الجلابة التي كان يرتديها دوماً في قريته بعزوزة حيث عاد بعد تخليه عن منصبه ليواجه غضب والده الذي ثارت ثائرتــه لما أدرك أن ابنه لم يكن مناهضا لفكرة العمل فحسب، بل كان يتعــاطى نشاطات قد تجلب له الكثير من المتاعب، التي قد لا يسلم منها أعــضاء العائلة. يحكى أن الشيخ محمد، صاحب السبعين عاما، اكتشف يوما فــي غرفه ابنه الكائنة بالطابق العلوي من المنزل المتواضع وثــائق وطنيــة. فغضب كثيراً وراح يؤنب ولده خاصة، وان منطقة القبائل باتت، منذ فوز قوائم حركة انتصار الحريات الديمقراطية في الانتخابات البلدية تخــضع لمراقبة مشددة من طرف الفرنسيين وأعوانهم. فضلا عن ذلك، فإن الوشاة ما كانوا ليحرموا أنفسهم من متعة الاضطلاع بمهــتهم القــذرة إرضــاء لصالحهم الفرنسيين من جهة، ومن أجــل إشــباع غيــرة إزاء العــائلات الميسورة والمثقفة من جهة أخرى. وعليه فإن النقاش بين الأب والابــن

لم يكن هادئا وما كان للأب إلا أن وضع الابن أمام خيارين أقل ما يمكن القول عنه أنه فكر فيهما مليا: إما أن يكف عن نشاطاته الخطيرة أو أن يغادر المنزل.

وجاء الرحيل عن البيت الذي ولد فيه، ليقطع كل صلة يربطه بالمجتمع المدني، وبحياته العادية، وحدثت القطيعة مع كل المسارات التقليدية وأصبح حرًّا طليقا معفى من كل التزام إزاء عائلته بما أنها لم تعد تتحمله ولأسباب جلية، منها أن أخلاقيات الحياة الأسرية تقتضي أن يساهم كل فرد وفق إمكانياته في نفقات الأسرة التي خانها الحظ بعد أن كان حليفها عدّة سنين. أكثر من ذلك كله، والناس سواء كانوا من المحبين أو الشامتين، يستغربون من كون أن شاب كعبان رمضان، ابن 27 ربيعا، لا يفكر جدّيا في العمل، ولا في الزواج لبناء أسرة و بلوغ مرتبة الرجل الكامل بالمعنى الذي تفرضه فيه الذهنية القروية المتشددة و كذا الأخلاقيات الأزلية السائدة آنذاك.

خلافا لكل هذا و ذاك، كان عبان رمضان يزداد تكتما وعزلة عن محيطه، وكيف كان له أن يتحدث عن مسائل داخلية في الوقت الذي لم يكن احد يعلم ما الذي كان يقوم به بالضبط. كانت هناك شكوك عززتها الإشاعات التي تمثل المصدر الإعلامي الأكثر رواجا في المجتمعات المتخلفة، بوجود ميول، واتصالات، وحتى نشاطات في الأوساط الوطنية، لكن لم يكن بوسع احد تحديد ما كان هذا النشاط بالضبط وما الذي كان يفعله.

وحتى بالنسبة إليه، لم يكن الوضع بالسهل.فعلى الرغم من مظهره الجدي وسمعته الطيبة كتلميذ متفوق، ورغم انعزاله ورغم السرية التي أحاط بها نفسه، لم يكن من السهل لفتى في سنه أن يبقى دون شغل وكيف له أن يستقر على هذا الوضع.

غادر قرية عزوزة التي لم يعد إليها إلا في حدود 1955 عند خروجه من السجن. كان يذهب هناك سرا لرؤية والدته التي طالما أبدت تفهما لآراءه.أما ملاذه فقد بات منذ ذلك الوقت على مستوى هضاب سطيف الشاسعة التي صال وجال فيها.وبها اتخذ قراره، حيث بات ينشط لنشر الفكر الوطني، وهناك تجلت صفاته كمنظم، وهي صفات لا علاقة لها مع الممارسات السابقة التي كانت خاضعة لمنطق الذاتية والإقصاء. فقد أضفت تلك الصفات العقلانية التي كان يحملها، والتي اكتسبها من مساره الدراسي، وتجربته العسكرية التي كان لها أثر كبير على الصعيد السياسي، كما أنه بات يتحكم بالكامل في وقته، الذي كرسه لنشاطاته الوطنية. فعندما تم قبوله كعضو دائم في الحزب، أصبح يعمل بكل تفان في خدمته حتى أنه عين خلفا،لرئيس الدائرة.

صالح مبروكين الذي أوقف في افريل 1948 لما كان مرشح حركة انتصار الحريات الديمقراطية في انتخابات الجمعية الجزائرية. كانت تلك أول مسؤولية تقلدها ضمن الحزب. وقد بلغها بفضل نوعية العمل الذي كان يؤديه، والنتائج التي حققها في منطقة كانت معقل حركة فرحات عباس. وقد اختار مقره العام بسطيف وذاع صيته في كامل المنطقة التي أصبحت فيما بعد مقاطعة تشمل حاليا ولايات بجاية ومسيلة وبرج بوعريريج. ليس بوسع أحد الجزم بأنه كان في الوقت نفسه مسؤولا محليا للمنظمة الخاصة وقد استقينا معلومات متناقضة بهذا الشأن. هناك من يؤكد جازما أن عبان رمضان اشرف فعلاً على المنظمة الخاصة، وهناك شهادات مكتوبة تؤكد ذلك. وأول مرجع لنا في هذا السياق هو من حسين آيت أحمد وهو من أكفأ من يتحدث عن المنظمة الخاصة حيث كان مسؤولها الثاني بعد محمد بلوزداد كما أنه كان المشرف على الانخراط

ما ينفيها. المهم أن عبان رمضان سواء كـان فـي المنظمـة الخاصـة و خارجها دونها قد استمر في ارتقاء الدرجات بفـضل نوعيـة عملـه، وقوته. لقد سجل حضوره في كل مكان حتى في القرى والمداشر النائيـة حيث كان يتنقل ليرافع لصالح القضية الوطنية. يقول شهود، انـه ذهـب حتى إلى قنزات، التي على الرغم من سكانها القلائل أنجبت منـذ بدايـة الحركة الوطنية أشجع واقـدر إطـارات مختلـف التيـارات الـسياسية الجزائرية، منهم لكحل أرزقي، أحد أوائل إطارات نجم شـمال إفريقيـا ثم أحد مؤسسي حزب الشعب الجزائري وسعيد بن عمر القنزاتـي أحـد أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كما أنها أصـبحت فيمـا بعـد من أكبر معاقل الكفاح التحرري في الـسراء والـضراء حيـث أن العقيـد عميروش قد إستمد منها عدداً كبيرا من المقاتلين الأقوياء والأكفاء، ليشن حربا قاسية لم تكن تحتكم دوما للحكمة والصواب ضد مقـاتلي المـصاليين الـذين بدورهم كانوا على قناعة راسخة بأنهم يضحون بأنفسهم في سبيل الوطن.

من خلال تنقلاته العديدة إلى قنزات لدى المدعو محند اومدور، الـذي كان المسؤول المحلي لحزب الشعب الجزائري -حركة انتصار الحريات الديمقراطية، اثبت عبان رمضان احترامه لقيم بلدنا، كما تجلـت ميزتـه كمخطط استراتيجي من خلال اعتماده على المناطق التـي كـان أهلهـا يؤيدون القضية الوطنية من دون أن يهمل المنـاطق الأخـرى. وذلـك ما تبرزه شهادة ثعالبي محمد الذي كان رئيس دائرة برج بوعرريج حين كان عبان رمضان مسؤولا عن الولاية وهو المنصب الـذي رقـي لـه في بداية سنة 1949. حيث أكد انه استقبله ورافقه عدة مرات في جولاتـه عبر مختلف المداشر وكانت مرة مع محمد بلوزداد فـي إطـار سلـسلة من الاجتماعات المخصصة لتحسيس مناضلي الحـزب ضـد انـضمام الجزائر إلى منظمة الحلف الأطلسي ولنذكر أن التوقيع على هذا الأخيـر

ما ينفيها. المهم أن عبان رمضان سواء كان في المنظمة الخاصة أو خارجها دونها قد استمر في ارتقاء الدرجات بفضل نوعية عمله، وقوته. لقد سجل حضوره في كل مكان حتى في القرى والمداشر النائية حيث كان يتنقل ليرافع لصالح القضية الوطنية. يقول شهود، انه ذهب حتى إلى قنزات، التي على الرغم من سكانها القلائل أنجبت منذ بداية الحركة الوطنية أشجع واقدر إطارات مختلف التيارات السياسية الجزائرية، منهم لكحل أرزقي، أحد أوائل إطارات نجم شمال إفريقيا ثم أحد مؤسسي حزب الشعب الجزائري وسعيد بن عمر القنزاتي أحد أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كما أنها أصبحت فيما بعد من أكبر معاقل الكفاح التحرري في السراء والضراء حيث أن العقيد عميروش قد إستمد منها عدداً كبيرا من المقاتلين الأقوياء والأكفاء، ليشن حربا قاسية لم تكن تحتكم دوما للحكمة والصواب ضد مقاتلي المصاليين الذين بدورهم كانوا على قناعة راسخة بأنهم يضحون بأنفسهم في سبيل الوطن.

من خلال تنقلاته العديدة إلى قنزات لدى المدعو محند اومدور، الذي كان المسؤول المحلي لحزب الشعب الجزائري –حركة انتصار الحريات الديمقراطية، اثبت عبان رمضان احترامه لقيم بلدنا، كما تجلت ميزته كمخطط استراتيجي من خلال اعتماده على المناطق التي كان أهلها يؤيدون القضية الوطنية من دون أن يهمل المناطق الأخرى. وذلك ما تبرزه شهادة ثعالبي محمد الذي كان رئيس دائرة برج بوعرريج حين كان عبان رمضان مسؤولا عن الولاية وهو المنصب الذي رقي له في بداية سنة 1949. حيث أكد انه استقبله ورافقه عدة مرات في جولاته عبر مختلف المداشر وكانت مرة مع محمد بلوزداد في إطار سلسلة من الاجتماعات المخصصة لتحسيس مناضلي الحزب ضد انضمام الجزائر إلى منظمة الحلف الأطلسي ولنذكر أن التوقيع على هذا الأخير

كان في افريل 1949 بواشنطن من طرف القوات الغربية وكانت فرنسا من الأعضاء المؤسسين، بل أنها كانت أحد العناصر الرئيسية للحلف الأطلسي حيث كان ترابها مقرا للقيادة العامة للمنظمة في أوروبا حتى سنة 1966.

توليه المسؤولية على مستوى الولاية يثير هو الآخر إشكالا لا سيما بالنسبة للأماكن التي مارس فيها هذه المسؤولية. لا جدل في أنه أشرف على ولاية سطيف، بعد تقسيم منطقة قسنطينة في حدود سنتي 1948 1949 وليس هناك شهادة تشكك في الأمر. لكن المعلومات المستقاة حول توليه هذه المسؤولية في عنابة أو وهران لم يتم التأكد منها. على أية حال يمكن التأكيد أن أحد أهم قياديي حزب الشعب الجزائري-حركة انتصار الحريات الديمقراطية وهو احمد بودة الذي كان عضوا في المكتب السياسي للحزب مدة طويلة ومكلفا في الوقت ذاته بتنظيمها كان جازما: إن عبان رمضان، اضطلع بمسؤوليات على رأس ولاية وهران، وما يؤكد ذلك هو: أن توقيف قائد الثورة كان سنة 1950 في غرب الوطن بعين تموشنت أو مستغانم و ليس بالشرق.

وفي غياب الوثائق التي قد لا نجدها في أي مكان، سنكتفي بذكر أن عبان رمضان كان مسؤولا عن ولاية سطيف التي تشمل أيضا وادي الصومام الذي يذكر على أنه من مناطق اختصاصه.

وثمة عنصر تجدر الإشارة إليه، لما له من دور في تصحيح الصورة التي نريدها وفية قدر الإمكان لعبان رمضان. يقول أهله -إخوته وأقاربه- انه كان يرسل لوالده إسهاما ماليا بـ 15000 فرنكا أي ما يعادل 15000 دج من النقد الحالي، إذا أردنا القيام بتعادل بين التقديم حتى وإن كانت المدة الفاصلة بين ذلك العهد وعهدنا تقارب أكثر من ربع قرن من الزمن. فهل يعقل الأمر؟ ليس من السهل الفصل خاصة في مجال تحديد الفترة

الزمنية. فمن الممكن جدا أن يكون عبان رمضان الذي لم يكن ليتقاضى أكثر من 5 إلى 6 آلاف فرنك بصفته عضو دائم في حزب الشعب الجزائري-حركة انتصار الحريات الديمقراطية قد تقاضي حوالي 15 الى 20 ألف فرنك كمسؤول ولاية مما مكنه من اقتصاد بعض الاموال و تقديم المساعدة لوالده من حين لآخر.و لنوضح في الأخير أن أجر مسؤول سام لم يكن يتعدى حينها، وفق ما قيل لنا، 30000 فرنك.وثمة رواية عن المسؤوليات التي تقلدها عبان رمضان خلال الفترة المذكورة يجدر بنا التطرق اليها و إن كانت مخالفة للسابقة.

حسب علي باشا رشيد (3) الذي عمل تحت أوامر عبان رمضان يكون هذا الأخير قد انتقل مباشرة إلى منصب مسؤول ولاية سطيف في ربيع 1948 دون المرور بمنصب رئيس دائرة. وشاهدنا الذي كان حينها رئيس دائرة بجاية يتذكر مراسم التنصيب وله في ذلك حجة دامغة.محمد بوضياف شخصيا هو من أشرف على تقديم عبان رمضان لرفاقه الجدد ولبعض المناضلين. زي عبان رمضان، الذي كانت تبدو عليه شيئا ما ملامح الفقر بعث احد الحضور على الاعتقاد بأن الأمر لا يبشر بخير فتعجب قائلا " شوفو واش بعثو لنا" (انظروا من الذي أرسلوا لنا) وما إن بلغت تلك الجملة آذان عبان رمضان حتى قال له "لا يخدعنك مظهري وسترى بأم عينيك". بالفعل لقد أدرك الجميع من أي طينة كان القائد الجديد سواء فيما تعلق بنضاله أو بصراحته.و كان لشاهدنا أن عانى بنفسه من ذلك في بيته -ساحة كليمون مارتيل ببجاية- الذي غالبا ما كان يأوي إليه عبان رمضان إذ كان هذا الأخير يقول له "كونك تقدم لي الطعام لا يعفيك من الاستماع لملاحظاتي".لكن اثنين من رفاق عبان رمضان يحتفظان لمسؤولهما بذكرى الرجل المتواضع والشجاع والمتفاني في سبيل قضيته الوطنية.

تأثر عبان رمضان خلال تلك الفترة بشخصيتين بارزتين من حزب الشعب-حركة انتصار الحريات الديمقراطية و هما الدكتور الأمين دباغين الذي كان بالنسبة للبعض، المؤسس الحقيقي لحزب الشعب الجزائري في السرية، غداة اعتقال مصالي الحاج و نفيه سنة 1939 ثم محمد بلوزداد الذي كان أول مسؤول عن المنظمة الخاصة.

فالأول الذي غضب عليه حزب الشعب الجزائري، أصبح في مكتبه بالعلمة (سانت ارنو سابقا) وكان عبان رمضان يتردد عليه لما كان في شاتودون دو ريمال أو سطيف.

أما الثاني فقد كلف بإعادة تنظيم الحزب بعد أن تم تجريده من مناضليه في 8 ماي 1945 والقيام باستقطاب المناضلين موثوق فيهم في منطقة قسنطينة لفائدة المنظمة الخاصة.و يبدو أن هذه المهمة هي التي كانت وراء ترقية القائد الجديد لولاية سطيف.

في هذا المنصب الذي خوله لأول مرة مسؤوليات هامة، ابرز صفات القائد المحنك ليس فقط بالنسبة للمنخرطين بل وكذلك على مستوى قيادة الحزب انطلاقا من مصالي نفسه.

ولننظر إلى الجانبين عن كثب. لقد شب نزاع خطير بين مناضلي نفس المجموعة من المنظمة الخاصة التي كانت تحت إمرة علي باشا رشيد. والخلاف كان قائما بين مناضلي القبائل الكبرى والصغرى، بخصوص المسألة البربرية التي هزت المنطقة والحزب، خلال السداسي الأول من 1949.وتعدى الأمر مجرد خلاف حيث كان التعصب إلى الانتماء ينتابه، وكاد يؤدي إلى تبادل الاتهامات بل حتى إلى محاكمات على النوايا. وفي أحد الأيام، اغتيل مناضل من منطقة القبائل الصغرى عندما كان يعاتب عليه تردده أو عدم تحمسه للمسألة. وإزاء خطورة الوضع

الذي كان سيؤدي إلى الاقتتال بين مناضلي نفس الحزب ونفس المجموعة، دعا مسؤول المجموعة الذي تجاوزته الأمور عبان رمضان، للفصل في المسألة.

فجمع عبان رمضان المناضلين المعنيين قرب مايو، ووجه إليهم كلاما كان بمثابة خطاب الرجل السياسي المحنك مفاده أن: "الأهم هو الكفاح المسلح والاستقلال وليس هناك من قضية تفرق صفوف المناضلين، مهما كانت أهميتها وأنه كان يمكن تسوية كل الخلافات بعد الاستقلال وليس قبل". هذا الخطاب الذي أثر في الحضور كان له أن جدد اللحمة وأعاد الانسجام في منطقة كانت على غاية من الحساسية.

ولمن يريد التعمق في الأمور فقد بات واضحا أن عبان رمضان، ومن دون أن يغفل المسائل الأخرى المطروحة كان يضع الكفاح المسلح في صلب كل النقاشات وفوق كل الاعتبارات. فقد كان محوره الاستراتيجي الذي لم يحد عنه أبدا والهدف الذي كان يوجه صوبه كامل جهوده. بالتالي أضفى عليه بعدا وطنيا في حين أخذ العديدون في منطقة القبائل وغيرها يخوضون في خصومات لا تجدي نفعا.

فلنذكر له هذه الميزة، لأنها ستلهمه في مساعيه اللاحقة كلها عندما تعلق الأمر بتوحيد كل القوى القادرة على الاندماج ضمن حركة وطنية شاملة للتعجيل باستقلال البلد.

ولم تكن صرامته تقل أهمية إزاء مسؤوليه ، ومع رفاقه والمناضلين بشكل عام. وقد اتفقت معظم الشهادات التي وردت إلينا أن عبان رمضان لم يكن راضيا على طريقة تسيير الحزب، ولم يكن راضيا كذلك عن تلك المرونة التي غالبا ما تحصر الحزب في الغموض، ولم يكن يتردد في الإفصاح عن رأيه دوما، لكن في إطار اجتماعات الحزب الرسمية. كانت هذه الاجتماعات دورية، وتضم مرة في الشهر وفي الغالب في سطيف الأعضاء الدائمين ورؤساء الدوائر، الذين كانوا تحت مسؤولية

عبان رمضان. وكان هذا الأخير ينتقد تصرفات مصالي الحاج الذي كان يعاتب عليه بعض التصرفات الفردية غير المتفقة مع النقاش والديمقراطية الذين كان يعتبرهما ضروريين، لقوة الحزب والجزائر المستقلة.

أخطر من ذلك، يبدو أن عبان رمضان تفطن مبكرًا للاتجاه غير الصائب الذي انتهجه حزب الشعب الجزائري-حركة انتصار الحريات الديمقراطية، وهو نهج الانتخابوية الشرعوية مما جعله كباقي التشكيلات الإصلاحية الجزائرية. فخلال اجتماع للجنة المركزية عقد في مارس 1950 بمزرعة صحراوي مصطفى بالاربعاء، غير بعيد عن الجزائر العاصمة، وحضره عبان رمضان ذكر لأحد مناضلي المكتب السياسي لحركة انتصار الحريات الديمقراطية أن مصالي كان متحفظا بشأن تعزيز المنظمة الخاصة و بشكل أعم اتجاه تفجير الكفاح المسلح. وخلال نفس اللقاء، لاحظ عبان رمضان أن مصالي الحاج انعزل خلال الغداء مع عدد من مقربيه حول مائدة شرفية مما بعث على الاعتقاد بوجود جماعتين على مستوى الحزب: النخبة والطبقة الدنيا أو إن أردنا مجموعة الأوروبيين والمجموعة الثانية الجزائريين المسلمين.

وقلما كان من يتجرأ ولو بصوت خافت على انتقاد تصرفات مصالي الحاج. النقاشات كانت مقنعة و لم تبرز للوجود إلا في 1954. لكن ثمة تناقض فادح كان يهدد أركان الحزب.فكيف أمكن التوفيق بين النشاطات العامة ووجود منظمة خاصة منذ فيفري 1947 بهدف تحضير مناضلين موثوقين لتفجير الكفاح المسلح في ظل الضغط وحيال مئات الملايين من المناضلين ممن يغذون الأمل الوحيد في أن يكونوا السباقين لتفجير شرارة الكفاح من أجل تحرير الوطن. بمجرد أنها لم تدرج الكفاح المسلح كهدف ينبغي تحقيقه في المدى القصير، شهدت قيادة الحزب نفور العديد من المناضلين شبه العسكريين الذين شعروا بالخيبة والخذلان بل حتى

أن ذلك التصرف عرض المنظمة الخاصة للخطر في الشكل الذي كانت عليه، لينكشف أمرها، وتفكك من طرف الشرطة الفرنسية، وذلك ما حدث إثر حادثة عادية لم يتحكم فيها المسؤولون عنها واستغلتها السلطات الاستعمارية بكثير من الفعالية.

فلننظر كيف عالجت الصحافة الاستعمارية اكتشاف المنظمة الخاصة. في عددها الصادر في 21 افريل 1950 (رقم 1475) أعلنت جريدة "ليكو دالجي" في افتتاحيتها وبالبنط العريض "بعد تحريات دقيقة تم القضاء على منظمة متمردة لحركة انتصار الحريات الديمقراطية " كما تعرضت مطولا للمسألة وفيما يلي مقتطفات من المقال:

"هذه المؤامرة المتفرعة في المقاطعات الثلاث تم اكتشافها في منطقة قسنطينة. في تبسة وفي إطار إجراء تأديبي، اختطف قياديو الحركة مناضلا مستقلاً ونقلوه للمكان الذي كان سيتم إعدامه فيه. ولقد تعرضت السيارة التي نقل على متنها المحكوم عليه لحادث مرور خطير، وتمكن المنشق عن الحركة من الفرار، وتوجه الى محافظة الشرطة حيث روى مغامرته. وكانت تلك الحادثة نقطة انطلاق القضية".

"وعلى أيه حال فقد تم توقيف العديد من المناضلين منذ 8 أفريل كما تم اكتشاف الآلاف من المنشورات، والمخططات الحربية والأقنعة وباختصار كل ما كانت تملكه المنظمة شبه العسكرية لحركة انتصار الحريات الديمقراطية في مقاطعة الجزائر(..) وهكذا تمت مصادرة عشرات الصناديق من الأسلحة الاوتوماتيكية والرشاشات والبنادق الحربية والقنابل اليدوية ومتفجرات شديت (cheddite) والبلاستيك وفتائل الألغام والخراطيش وأنواع مختلفة من المتفجرات ..(..) وقد اكتشفت السلطة كتب للتكوين الحربي باللغة الفرنسية وكل الأسلحة الواردة من مختلف البلدان وهي في الغالب من صنع أمريكي وايطالي."

وبدورها، أعلنت يومية "إيكو وهران" في عددها ليوم 10 ماي 1950 عن عمليات التوقيف التي تمت بتلمسان بعد تلك التي سجلت في عين تموشنت ومستغانم وغليزان. كما تم توقيف العديد من مناضلي الحركة في وهران وتيارت.

وأعلنت نفس الجريدة في عدديها ليومي الأحد 14 والاثنين 15 ماي 1945 توقيف القائد الوطني للمنظمة الخاصة أحمد بن بلة.

إن حرصنا على نقل ما كتبته الجرائد هو لنبين كيف أمكن لحادث بسيط أن يتسبب في وضع حدٍ للمنظمة الخاصة.

نحن لسنا بصدد إصدار أحكام أو تحديد المسؤوليات، بل بتوضيح كيف تم تأخير اندلاع الكفاح المسلح الذي كان على وشك الاندلاع لو أن قضية عبد القادر خياري -بما أن هذا المناضل من تبسة هو الذي كان وراء الخطأ المتسبب في العواقب التي نعرفها- لقيت المعاملة اللازمة، وتسوية الخلاف دون خطر على المناضلين الذين تعرضوا للتعذيب والحبس سنوات طويلة ثم على المنظمة نفسها واستقلال البلد.

فضلاً عن كونه خطأ فادحا ترتبت عنه عواقب وخيمة، لقد بين الإجراء التأديبي ضد خياري عدم تحكم قادة المنظمة الخاصة في زمام الأمور. ولا يبدو أن خياري الذي غادر المنظمة لأسباب شخصية بحتة يكون قد شكل خطرا ما على المنظمة العسكرية.

وهكذا، دفع مئات المناضلين من حزب الشعب الجزائري بل البلد برمته الثمن غاليا لمجرد استقالة مناضل. وقد عوتب فيما بعد على ابن بلة الذي كان حينها مسؤول المنظمة الخاصة والذي تعرض بعد أيام لقمع السلطات الفرنسية، انه انتهج، أو لم يعمل على منع، طرق عقابية غير مناسبة ترتبت أحدها عواقب وخيمة.

وقع عبان رمضان في قبضة إحدى حملات البوليس في أوساط حزب الشعب الجزائري. هل انتقل إلى منطقة وهران فاراً أو أنه كان بها من قبل كمسؤول في حركة انتصار الحريات الديمقراطية مثل ما أكد ذلك أحمد بودة؟ ليس بوسعنا الفصل في هذا الأمر رغم أن أخاه عمر وابن أخيه أحمد أكدا لنا ان توقيفه تم فعلا بمنطقة وهران وعلى الأرجح بعين تموشنت أو مستغانم في أواخر شهر أفريل أو بداية شهر ماي 1950.

قيل لي أن عمداء الشرطة الثلاث للجزائر، قد استنطقوه: عميد شرطة وهران حيث تم توقيفه، ثم عميد شرطة قسنطينة لأنه مارس نشاطه في المنطقة، وأخيرا في الجزائر العاصمة حيث استجوبه المدعو كوست (Costes) الذي اسند إليه ملف المنظمة الخاصة. ولسنا نعلم لِمَ يكون هذا الأخير قد سأل عبان رمضان عن تعريف النقطة في الرياضيات ليجيبه عبان انها تمثل نقطة تقاطع مستقيمين مما جعل كوست يقول إثر الاستجواب أن سجينه من طينة القادة المحنكين، وأنه سيكون ذا شأن عظيم". قبل أن يقع بين يدي كوست، استجوب عبان من طرف العميد لولنغ (Lelong) ودام الاستجواب 27 يوما كان يتعرض للتعذيب ثلاثة مرات في اليوم حسب شهادة أحد أصدقاء الفتى، دهام لحسن الذي سنتحدث عنه لاحقا في هذا الكتاب.

مرت عدة أشهر بين توقيفه ومحاكمته و لم تطرح قضية عبان رمضان أمام المحكمة الجنائية لبجاية حتى شهر فيفري 1951 وفيما يلي مقطع من مقال نشرته جريدة "لاديباش دو كونستانتين" (برقية قسنطينة) في عددها 14860 الصادر في 17 فيفري 1951 تطرقت فيه لمحاكمة عبان رمضان تحت عنوان "المحكمة الجنائية لبجاية تدين 24 مناضلا من حزب الشعب الجزائري بتهمة المساس بالأمن الداخلي للدولة".

"بعد تحقيق مطول اثبت بشكل قاطع المعطيات المتوفرة حول إدانتهم تمت محاكمة الأشخاص الموقوفين من طرف محكمة بجاية التي أصدرت الأحكام التالية:

ألام (يعني عبان رمضان) خمس سنوات سجن والمنع من الإقامة لمدة عشر سنوات والحرمان من الحقوق المدنية لمدة عشر سنوات و غرامة مالية بقيمة 500.000 فرنك".

أما باقي المحكومين في إطار نفس القضية فكانوا موزعين على ثلاثة مجموعات: المجموعة الأولى، كانت تضم علي باشا رشيد وردوش لخضر وتيتواح مخلوف وعسول العربي وعموش محند وقد حكم عليهم جميعا بالسجن مدة خمس سنوات والمنع من الإقامة مدة خمس سنوات والحرمان من الحقوق المدنية مدة خمس سنوات وغرامة مالية بقيمة 300.000 فرنك.

المجموعة الثانية -أكثر المجموعات عددا- وتضم 16 مناضلا حكم عليهم جميعا بأربع سنوات سجنا وخمس سنوات حرمان من الإقامة وحرمان من الحقوق المدنية لمدة خمس سنوات، وغرامة مالية قيمتها 200.000 فرنك.

أما المجموعة الثالثة والأخيرة فتخص مناضلين اثنين حكم عليهما بسنتين سجنا والمنع من الاقامة مدة خمس سنوات وحرمان من الحقوق المدنية لخمس سنوات وغرامة مالية بقيمة 120.000 فرنك.

الحكم في حد ذاته لا يثير أية ملاحظة ما عدا أن الأحكام كانت على مستوى الجزائر كلها، متقاربة جدًا ولا تكاد تفرق بين المسؤوليات التي اضطلع بها الموقوفين والسبب على الأرجح يعود إلى طبيعة المحاكمة.

ما فتئت قيادة حركة انتصار الحريات الديمقراطية تتحدث منذ بداية المحاكمة عن المؤامرة الاستعمارية لتفنيد فكرة المؤامرة داخلها وحتى

وجود المنظمة الخاصة. بالنسبة لحركة انتصار الحريات الديمقراطية ولسان حالها (الجزائر الحرة) فإن التوقيفات الجماعية التي قامت بها الشرطة الفرنسية في مارس وأفريل وماي 1950، إنما هي جزء من مؤامرة استعمارية يتمثل هدفها الخفي في القضاء على الحزب الوطني. وهناك من عاتب فيما بعد على قيادة الحزب نكرانها لوجود المنظمة الخاصة في محاولة منها للحفاظ على الهيكل الرسمي للحزب ذاته حتى وإن تطلب ذلك التضحية -على الصعيد السياسي على الأقل- بمئات المناضلين شبه العسكريين الذين تم توقيفهم.

وسرعان ما أخذت السلطات الاستعمارية من جهتها فور تفطنها لأمر لم تكن تتوقعه، تفكر في فرضية التمرد.ولم تعد تبدي نفس الثقة إزاء هدوء السكان الذين ذهبت لحد الادعاء أنهم باتوا اسعد حالا.

الحال أن اكتشاف المنظمة الخاصة وتفكيكها حتى وإن تعنتت حركة انتصار الحريات الديمقراطية في نكران انتسابها لها كان لصالح السلطات الاستعمارية على صعيدين : أولا كإنذار سمح للشرطة بمراقبة التحركات الوطنية وثانيا لما خلفه القمع ضمن حركة انتصار الحريات الديمقراطية التي كانت أشد الحركات الوطنية راديكالية.

سنحلل لاحقا أثر تفكيك المنظمة الخاصة في إضعاف الحركة ثم حلها. ونكتفي الآن بالتأكيد أن المناضلين الذي أوقفوا كانوا يودون المثول كمناصرين حقيقيين بدلا من أن يفرض عليهم نظام دفاع من صنع مخيلة قيادة الحزب، يقدمهم تارة على أنهم مجرد غشاشين وتارة أخرى ضحايا القمع الاستعماري.

ورغم كل الاحتياطات التي اتخذت لا جدل في أن الشرطة الفرنسية باشرت مرارا عمليات حجز أسلحة ووثائق وحتى نكتفي بما نقله لنا شهود عيان ينبغي الاستنتاج بأن هذه الإجراءات الاحترازية لم تكن كافية حيث

أن الدرك الفرنسي وجد في إحدى غابات منطقة ادكار قرب عزازقة كراس تلميذ يحتوى على معلومات تخص حرب العصابات. فضلا عن ذلك وعملا بمعلومات وفرها المعمرون الأوربيون الذين أيقظتهم طلقات نارية انبعثت خلال تدريبات عناصر المنظمة الخاصة فقد أوقف عناصر الدرك لنفس المنطقة بمايو أحد الرماة الذي استنطقه المفتش لوسون من **PRG** شرطة الاستخبارات العامة مما سمح بتقفي آثار الشبكة، وتوقيف أعضائها. وكان لتفكيك المنظمة الخاصة عميق الأثر على عناصرها الذين على حد تعبير العقيد "صوت العرب" (بوبنيدر) وبينما كانوا ينتظرون التوجه إلى الجبل وجدوا أنفسهم ، إلى جانبه في سجن بونة مع حوالي 120 من رفاقهم من المنظمة الخاصة الذين تم توقيفهم في كل من تبسة قالمة ووادي زناتي".

وجاء القمع الذي رافق اكتشاف المنظمة الخاضعة ليقضي على الحزب وطليعته في الثامن ماي 1945 وبعبارة واحدة على الشريحة الأكثر عزما من عناصره.على مدى سنتين ونصف من التحضير، بلغ العزم والتفاني والروح الوطنية الذروة واقترب الجميع من الهدف وأضحى كل واحد على أهبة الاستعداد لخوض غمار الكفاح المسلح.ولم يكن هناك ما يثني تلك العزيمة في التخلص نهائيا من الوجود الفرنسي واستعادة ما أخذ بالقوة بالقوة نفسها وجاءت حادثة تافهة لتقضي على جهود سنين وتحطم الأمل في أن الكفاح كان وشيكا.

لم يكن عبان رمضان آخر من مقت تلك الحادثة، فهو الذي كان يتألم لتقوقع قيادته في نقاش عقيم حول مشاكل زائفة. ومنذ ذلك الحين أصبح السجن والخيبة التي أخذت لديه بعدا مأسويا، هاجسه الوحيد وكانت بالنسبة إليه بداية الامتحان الصعب.

مرحلة السجن

في ربيع 1950 اهتزت الثقة والعزيمة التي طالما تحلى بهما عبان رمضان. وكان له أن يدفع ثمن استهتار سياسي كان من فعل الغير غاليا ولم يكن له فيه باع. فلم تمنعه جلابته ولا مختلف وسائل التمويه التي يستعملها للظهور بمظهر الفلاح البسيط المستسلم لقدره، من وقوعه في شباك الشرطة الفرنسية وهو في أوج مساره النضالي الذي لم تشبه شائبة.

قيل لي، ولم تتح لي فرصة التأكد من ذلك، أنه يكون خلف محمد بلوزداد عندما اضطر هذا الأخير بدافع المرض إلى الإنتقال إلى فرنسا للعلاج سنة (1949) (1). ففضلا عن مسؤولياته على رأس الولاية، يكون عبان رمضان قد اضطلع إذن بمهمة التنسيق في الشرق الجزائري في مقاطعة قسنطينة تقريبا من مايو الى بونة (عنابة) ومن بجاية إلى الصحراء.

إن وجوده على مستوى اللجنة المركزية، قبل أسابيع قليلة من توقيفه يشهد على صعود سلم المسؤوليات. وأن بلوغه هذه المرتبة من خلال الاختيار المشترك، وليس عن طريق الانتخاب ، إلى أن أصبح مرشحا لكسب مزيد من الصيت والشهرة والأهمية والإضطلاع بمهمة على الصعيد الوطني. لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن . على الرغم من حدوده الضيقة ها هو السجن يتحول إلى مجال لنضاله إذ لا يعقل أن تظل كل هذه العزيمة والإرادة والبصيرة حبيسة جدران السجن. قضاء خمس سنوات في السجن لم يكن بالأمر الهين خصوصا بالنسبة لرجل ضحى بمشواره المهني وعائلته وامتنع عن الزواج ليكرس نفسه كلية للقضية الوطنية ولتحرير الوطن.وما كان له ليقضي تلك السنوات الخمس

لاستنفاذ حكم يمثل عقوبة لانتمائه لمثل سياسي. فقد قرر مواصلة الكفاح بأشكال مختلفة وبشتى الوسائل التي كانت في متناوله وبمقدوره.

من سجنه في بجاية حيث حبس فور توقيفه، لم ترد عنه الكثير من الأخبار. لم تتم محاكمته بعد ولم يكن يستطع معرفه الحكم الذي سيصدر في حقه.و ثمة عامل تهدئة بالنسبة له حيث كان حارس السجن الذي أبدى شيئا من حسن المعاملة إزاء سجينه وإزاء رفاقه الذين أوقفوا في نفس الظروف. الحارس المدعو اتلان، وهو يهودي الأصل وكان مناضلا في صفوف الحزب الاشتراكي الفرنسي آنذاك. لم تكن تلك المعاملة الحسنة من باب التعاطف وإنما كانت نابعة من طبيعته وجزءً من فلسفته في الحياة وغالبا ما كانت مثل هذه الميزات موجودة لدى الأشخاص المنتمين للأقليات العرقية أو تلك التي تكون تعرضت للاضطهاد. فالتعاطف يكاد يكون غريزيا لديها تجاه كل المحرومين والمستضعفين الذين يجدونهم اقرب إليهم. والمدعو أتلان بالذات هو من أطلع علي باشا رشيد، الموجود بنفس السجن، على أن عبان رمضان الذي كان يقبل القفة التي كانت ترسلها له أمه والتي تجعل له فيها الشدلوح (اللحم المجفف) الذي كان يحبه كثيرا، قد رفض مقابلة والده الذي جاء لزيارته. وغالبا ما تبرز للوجود، ضمن مسار عبان رمضان، تلك الخلافات القائمة بينه وبين والده والتي احتفظ لها بذكرى أليمة وشيئاً من الضغينة التي أعرب عنها في ظروف مخالفة. حتى نطوي باب التوتر مع الوالد لنذكر أيضا أنه خلال محاكمته لدى محكمة الاستئناف بالجزائر بعد شهر من محاكمته ببجاية وجد عبان رمضان نفسه مرة اخرى وجها لوجه مع والده. ذلك الوالد الذي دفعه رجال الدرك بعنف عندما حاول الاقتراب من ابنه ليقبله. وقد ذرف دموعا غزيرة و ما أصعبه من امتحان بالنسبة لذلك الريفي، الذي اثقلت السنون كاهله والألم الذي يثيره سجن ابنه من أن يخر باكيًا

في محكمة على درجة من القسوة. فهل رق قلب عبان رمضان الذي قال لصديقه رشيد "لابد أن والدي ندم على ما فعله معي"؟.

هكذا ينتهي مسلسل الخلاف بين الوالد والابن الذي عاد إلى مواجهة مصيره وهذه المرة في سجن بربروس (سركاجي) الذي كانت الأبدان تقشعر لذكره لِمَ اقترن به من صور القمع الوحشي وأكثر منه، الموت البطيء أو العنيف.

في بربروس وجد العديد من عناصر حركة انتصار الحريات الديمقراطية سواء كانوا من المنظمة الخاصة أو لا. وهكذا ذكرت أسماء كل من ابن بلة الرئيس الذي أصبح رئيس الجمعية الوطنية واحمد زبانة أول جزائري أعدم شنقا وبن عودة الذي أصبح عقيداً في جيش التحرير الوطني و خبير عسكري في مفاوضات ايفيان ومجموعة من القبائليين الموقوفين سنة 1945 ومنهم محمد السعيد معزوزي الذي شغل عدة مرات وزيرا في الجزائر المستقلة وكثيرين غيرهم.

وبعد أن حسم الأمر، قرر استئناف الكفاح، ومضى معارضا لكل ما يمثل السلطة الفرنسية. وبدأ، لأسباب مجهولة، مناوشات شفاهية مع مدير السجن المدعو "كازانوفا" مع أن هذا الأخير لم يكن متشددا وكل ما كان يهمه هو الهدوء والسكينة في المؤسسة التي يشرف عليها.

وقد قال لعلي باشا أن عبان رمضان كان فظا معه مع أنه كان متساهلا مع هذا السجين بالذات، واعترف الشاهد أن ظروف الحبس كانت قاسية للغاية، حيث أن بعض المساجين كانوا يجردون كلية من ثيابهم ويشدون بحلقة على مستوى جدار الزنزانة كما ان النظافة و الغذاء لم تكن أحسن حالاً.

إزاء هذا الوضع شن علي باشا، الذي كان وسيطا بين سلطات السجن والمساجين أو ناطقا باسم هؤلاء، أول تمرد. لقد اتصل مع مساجين الحق العام، للحصول على تضامنهم مع المساجين السياسيين، وشبت حالات

من الفوضى، وصعد العديد من المساجين إلى الشرفات، وراحوا يرددون الأناشيد الوطنية، مما أدى بمدير السجن إلى الاستغاثة بالدرك وقد حلت فرقة من رجال الدرك واقتحمت السجن لفرض النظام لكن المواجهة استمرت بأشكال أخرى وقررت مجموعة من المساجين شن إضراب عن الطعام وحاول إقناع عبان رمضان بالانضمام اليهم لكنه تردد لأن الأمر كما قال لهم " سيكون صعبا". وتمسكت المجموعة بموقفها، ودخلت في إضراب عن الطعام وحاول طبيب السحن ، المدعو فونتونو، تبرئة ذمته حيث حذر مدير السجن من المخاطر التي يتعرض لها المساجين . وبدافع الحرص على الهدوء في مؤسسته، قرر المسؤول، التخلص من المساجين المشاغبين، وكان عبان رمضان من بينهم حيث تم نقل حوالي ستين سجيناً إلى السجن العسكري لباب الوادي الذي تحول فيما بعد إلى مقر الأمن الوطني. ولإحكام قبضتها على الحركة الاحتجاجية لجأت سلطات السجن إلى حيلة أخرى تمثلت في تفريق جماعات المساجين السياسيين وهكذا وجد عبان رمضان نفسه في سجن بجاية مع عدد من رفاقه ومنهم علي باشا رشيد، لكن لفترة وجيزة، لأنه على ما يبدو أن سجن بجاية لم يكن يحبذ مثل هؤلاء المساجين كأي مؤسسة عقابية كانت حريصة على الحفاظ على الأمن و النظام.

وبعد عقوبة دامت ثلاثة أشهر، نقل عبان رمضان إلى فرنسا في بداية سنة 1952 حيث تم جمع المساجين السياسيين وإرسالهم في باخرة إلى منطقة بوميت غير بعيد عن مرسيليا حيث مكثوا مدة 48 ساعة كانت كافية لفرزهم وتحويلهم في شكل مجموعات صغيرة باتجاه مؤسسات مختلفة.

عبان رمضان الذي ذاع صيته لدى مسؤولي المؤسسات العقابية نقل بمفرده إلى سجن اينسيشاين (Ensisheim) مقر بلدية أو رين (Haut- Rhin) بالألزاس وكان ذلك السجن معروفا بشدة مسؤوليه. أما اينسيشاين

لقد أثارت الرسالة ضجة كبيرة، واستغلها الحزب أحسن استغلال حيث كان لها الصدى المطلوب، وحققت أقصى درجة من الاستياء.

إزاء الانفعال الذي أثارته الاتهامات الواردة في الرسالة انتقلت لجنة وزارية من باريس للتحقيق. وعن سؤال لمعرفة كيف تمكن من إخراج رسالته رد عبان رمضان انه فعل ذلك بطريقة بسيطة للغاية وذلك بغية توريط مدير السجن وذلك ما حدث حيث فقد هذا الأخير منصبه هو الذي راهن على ترويض سجينه العنيد .

على الرغم من خروجه منتصرا من الخلاف القائم بينه وبين مدير السجن، كاد عبان رمضان أن يفقد حياته خلال إضراب طويل عن الطعام في السجون الفرنسية للاستفادة من الوضع السياسي لكنه في الأخير أدرك غايته. ولكن كان عليه أن يستعيد قواه التي خارت بعد امتناع عن الأكل مدة تجاوزت الشهر. وحسب أقاربه يكون قد فقد 25 كيلوغراما وهو أمر لا يكاد يصدق بالنسبة لشخص قامته بين 1,72 و1,74 متر وكان قوي البنية.

وأخطر من ذلك فقد تم تشخيص التهاب في المعدة تم استغلاله فيما بعد لتفسير نوبات غضبه وعدم تحكمه في أعصابه والواقع أنه لم يوجد سجين جزائري أبدى ما أبداه عبان رمضان من الإيمان بقضيته والثبات في كفاحه.هكذا واجه وحيدا ومنعزلا النظام العقابي الفرنسي وكان قدوة لكثيرين من بعده ممن استغلوا طريقة الإضراب عن الطعام للحصول على بعض المزايا المرتبطة بوضع السجناء السياسيين.

كيف يمكن التخلص من سجين مزعج كان عناده وحيلته وراء عزل مدير السجن وليس ثمة سبب لذكر الصدى الذي أثارته العقوبة في أوساط المهنة. منذ ذلك الحين، وحيثما انتقل عبان رمضان، كان يجد سمعته قد سبقته إلى هناك. ومن سجن الألزاس نقل إلى سجن ألبي (Albi) في الجنوب وكان اقل تشددا وقسوة. لقد نقل إلى هذا السجن سنة 1953 بوضع السجين

السياسي. وضع عزته المعاملة الحسنة من طرف المدير، الـذي جـاء بشكل طبيعي أو كرد فعل أمام سمعة السجين الجديد الذي عمل على حـسن استغلاله بمختلف الأشكال وأولها المطالعة.

قيل لنا انه يكون قرأ بين 5 و 6 آلاف كتاب و لم تتسن لنـا إمكانيـة التحقق من ذلك.لكن الأكيد أن عبان رمـضان أدمـن علـى المطالعـة في السجن. وهناك الكثير من الشهود ممن أكدوا لنا أنـه حـين عودتـه إلى عزوزة كانت أمتعته متكونة في معظمها من الكتب.ما الذي حـصل لهذه الكتب؟ حاولنا تقصي الأمر لإعداد قائمة بالعناوين لنعمق معرفتنـا شخصيته عبر قراءاته وإذا كان صحيحا أن الكثير من أقاربه رأوا فعـلا الكتب في غرفته لم يجد احد لها أثرا.

من البديهي أن الحرب التي خلفت دمارا وخرابا لم تكن لتنصف كتبـه ومن كان سيهتم بها في زمن كانت الأولوية فيه لإنقاذ النفس والأهل.هل سنذهب لحد الشهادة بأنه قد راسل ماوتسي تونغ صانع المسيرة الكبـرى والانتصار الباهر للثورة الصينية لا يمكن بطبيعة الحال التأكد من هـذه الشهادة وهناك أيضا شهادة علي باشا رشيد التي يعد التحقق منهـا اقـل صعوبة وإن لم نفعل، مفادها أن الشاعر التركي ناظم حكمت يكون قد أهـدى قصيدة لعبان رمضان. فالمطالعة لـم تكـن هوايتـه الوحيـدة فالمراسـلة هي الأخرى كانت بالنسبة إليه النشاط المفضل الذي كان يكرس له كثيرا من وقته.

وهو داخل سجنه في ألبي، بقي عبان رمضان علـى اتـصال وثيـق ومستمر بالأوساط الوطنية. سنذكر اثنين من مراسيليه. أولهمـا حنفـي فرتان أحد مسؤولي حركة انتصار الحريات الديمقراطية لمنطقـة فـور ناسيونال الذي كان غالبا ما يراسله لدرجة أنه تم إبلاغ السلطات الفرنسية المحلية عن هذه المراسلات من طرف أحد أقارب العائلة أعطانا إسـمه. وقد اعتبرت القضية على درجة من الجدية إلى حـدٍّ جعلـت القاضـي

بيرارت (Berart) من تيزي وزون بقرر ايفاد لجنة للتحقيق، في نشاطات عبان رمضان في سجن البي.

أما مراسله الثاني فهو جيلاني مبارك نائب حركة انتصار الحريات الديمقراطية في الجمعية الجزائرية. وبحسب شهادة استقيناها منه في 15 أفريل 1985 فإنه قد كتب على امتداد سنة 1954 أربع أو خمس رسائل لعبان رمضان، ليطلعه على التوترات والخلافات والخصومات القائمة على مستوى قيادة الحزب. بعد أن تعرفا على بعضهما في شاتودون دي ريمال، ظلا على اتصال وثيق خلال الأزمة التي كانت بذورها كامنة داخل تشكيلتهما السياسية. وأكد لنا جيلاني مبارك أنه تعهد بإطلاع صديقه السجين بسجن ألبي بصدق وموضوعية على كل ما كان يحدث داخل الحزب من اتجاهات ومواقف. وهو يذكر جيدا أنه تلقى نفس العدد من الرسائل من عبان رمضان الذي لم يتردد في التعبير عن سخطه ويكون قد استعمل عبارة "قبيحة" لوصف الوضع.

أن ما كشفه جيلاني مبارك هوفي رأينا على درجة من الأهمية حيث أنه يبين أن سجين ألبي كان على دراية بالخصومات التي تمزق حركة انتصار الحريات الديمقراطية. وسنرى لاحقا أن عبان رمضان أظهر معرفة تامة ودقيقة بالوضع السائد في الجزائر عشية اندلاع ثورة التحرير الوطني.

وقد حال وضعه كسجين دون القيام بأي عمل كان، وربما كان ذلك من حسن الحظ، بالنسبة إليه كما سنتحقق من ذلك لاحقا.لكي يخرج في الوقت المناسب من سجنه، كان عليه أن يتوخى الحذر والهدوء. كان أمامه كثيرا من الوقت وقد مرت فترة السجن بألبي دون أي حادث يذكر.

ألقي القبض عليه في ماي 1950 وحكم عليه بالسجن مدة خمس سنوات سجن وكان من الطبيعي إذن أن يخرج من سجنه في حدود ماي 1955 وتحسبا لإطلاق سراحه، نقل إلى سجن الجزائر في خريف 1954.

ومن جديد جاء مشكل السجن الذي سيستقبله ليطرح نفسه من جديد. ولم يكن سجن بربروس يرده فوجه إلى السجن المركزي "ميزون كاري" (Maison Carrée الحراش حاليا) حيث قضى قرابة شهرين. وفي جانفي 1955 استعاد حريته وفي الـ18 من نفس الشهر انتقل إلى مسقط رأسه.كان عليه أن يذهب حينها لأن الحرب التي اندلعت منذ أقل من شهرين استقرت في منطقة القبائل.

كيف لا يفاجئنا إطلاق سراحه الذي حدث في الوقت الذي أخذت فيه الجزائر تحترق. هل في ذلك تجسيد، وإن كان لا إراديا، للقواعد الديمقراطية الملتزمة بالقانون أو أن ذلك التصرف ينم عن ثقة مفرطة بالنفس بحكمها لم تكن فرنسا لتتوقع ثورة شاملة ضد وجودها بالجزائر؟ ليس من السهل الفصل في هذا الأمر. ولم تكن الإقامة الجبرية، حيث كان عبان رمضان مجبرا على التوقيع مرة في الأسبوع لدى الدرك في" فور نسيونل"، هي التي ستمنعه من خوض غمار الكفاح التحرري الذي طالما حلم بالمشاركة فيه دون أن تتاح له الفرصة. أما الآن وقد أصبح سيد نفسه، فقد وجد أمامه حدثا تاريخيا لا أحد كان يدرك بعده. ألا يقال أن المحن هي محك الرجال؟

أمام تمزق حركة انتصار الحريات الديمقراطية

يصعب اليوم أيضا، وبعد 31 سنة خلت، فهم سبب الأزمة التي أدت إلى تفكك حركة انتصار الحريات الديمقراطية في جويلية 1954. هناك عدة تفسيرات لكن الأسباب العميقة، والحقيقية لا تظهر بوضوح. لم تبرز الأسباب بشكل جلي أنه لم يكن هناك ما يبعث على الاعتقاد، بانفجار وشيك لأزمة كامنة في الحزب.

عند قراءة الأعداد المتوفرة بين سنتي 1953 و1954 من جريدة "الجزائر الحرة" التي كانت لسان حال الحزب، نتفاجأ بالهدوء والثقة المنبعثين عبر أعمدتها. لقد بحثنا دون جدوى عن أدنى مؤشر لأزمة تكون عناصرها قد تراكمت داخل الحزب. قد نتساءل لم كل ذلك الغلو في الحديث عن الأخبار الدولية، حتى وإن تعلق الأمر في غالب الأحيان بكفاح تحرري للشعوب المستعمرة في حين لم يرد أي خبر عن الشعب الجزائري وعن أزمة حزبه الوطني الرئيسي. كان علينا أن ننتظر الوصول إلى العدد 119 الصادر يوم الجمعة 6 أوت 1954 لنعرف أن أزمة انفجرت داخل الحزب ومعها سلسلة من القرارات التي تؤكد انقسام الحزب. فلنتريث شيئا ما. ولننظر في الحال على أي مدى قد تهم هذه الأزمة موضوعنا وإن أمكن، لم وكيف نشأت لتسبب انقسام الحزب.

إن فهم هذه الأزمة ليس مهما لكونها شكلت فترة أليمة من تاريخنا الحديث، فحسب بل هي كذلك مباشرة بالنسبة لموضوعنا، لأن الكثير من التوجهات والمواقف والأعمال المتعلقة بالثورة المسلحة مستمدة منها بل نتجت عنها.أكثر من ذلك فإن بعضا من تصرفات عبان رمضان الذي كان أحد أعضاء قيادة الثورة لا تفسر ولا يمكن فهمها، إلا إذا أعدنا

وضعها في سياق تلك الأزمة خاصة، وأنها لم تنته فور انـدلاع الكفـاح المسلح، الذي باغت اتجاهي الحركة المتناقضين : المصاليين والمركزيين .

ناهيك عن الآثار العميقة التي خلفتها فور نشوبها، فقد دامت طـويلا وأثارت فيما بعد، كما سنرى ذلك لاحقا، حيرة كبيرة في أوساط الـشعب و_أخطر من ذلك كله_ كانت وراء خيانة عظمى لأحد الاتجاهين الذي وقع في التعاون الإجرامي مع جيش الاحتلال الغاشم.

كانت أزمة فريدة، وعميقة، لدرجة أنها ظلت قائمة حتى بعد اسـتقلال البلاد حيث كانت ملامحها تبرز في اللقاءات، والأحاديـث، وبعبـارة موجزة كانت الأزمة عميقة إلى درجة أن الجزائر السياسية لم تتعاف منها نهائيا.

كيف نسجلها في ذاكرة القارئ ؟ من خلال محاولة إعطـاء روايـات مختلفة عنها. أولاها هي للمؤرخ إيف كوريير Yves Courrière الـذي تطرق إليها عبر "بذور الثورة" حيث كتب (1) نزاعا داخليا بين الـزعيم القديم مصالي ومديره ، الملازم حسين لحول" وأضاف بعيدا :" علـى هامش هذه المؤتمرات الأربعة (الجهوية التي نظمها حسين لحول في أفريـل 1959) اجتمعت اللجنة المركزية بكل هدوء وقد انبثقت عن هذا الاجتماع، لجنة مركزية جديدة برز فيها مصالي الحاج، ولكـن تـم إبعـاد أقـرب مساعديه وهما مزغنة وفيلالي من المكتب السياسي. لحد ذلك الوقـت، كانت الخلافات الداخلية تحل على المستوى الداخلي، لكن مصالي الحاج ما فتئ يبدي معارضته.

وإزاء محاولة إقصائه، أوعلى الأقل الحد من صلاحياته، التـي كـان يعتبرها مطلقة، استغاث بأكثر المخلصين له الذين كان يغريهم ويبهرهم: المناضلين. فقد طرد كل المندوبين الذين حاولوا تجنب القطيعـة داخـل الحزب، ومن بينهم ابن بولعيد الذي نقل عبارات «الزعيم": أريد الـسلطة

المطلقة وتصويت بالثقة المطلقة، وكان يصرخ : ما هذه الحملة ضد "عبادة الشخص" التي يقوم لحول وابن خدة، فلنخرج ولنرى ماذا يقول المناضلون"؟

كما نلاحظ ذلك، فالأسباب العميقة لا تظهر وصاحب المقال حصر الأزمة في خلاف بين حسين لحول ومصالي الحاج. وها هو تفسير محمد حربي قد يشدنا لكنه ليس كافيا، وليس مرضيا، حيث اعتبر أنه : "انطلاقا من اللجنة المركزية الناشئة في مارس 1951 ظهرت استراتيجيتان: استراتيجية مصالي الذي كان يستند للدعم الشعبي واستراتيجية قيادة الحركة التي كانت تبحث جاهدة على توحيد الهياكل . وباتت الجنة المركزية متجاذبة بين الإتجاهين إلى غاية المؤتمر الثاني في أفريل 1953، حيث ترددت في الانضمام للقيادة"(2).

وفي مقام آخر اختصر موقف كل اتجاه بحيث كتب يقول أن: "مصالي كان يعاتب قيادة الحزب على مبالغتها في تقدير حجم الخلافات في المعسكر الغربي وأنها تغذي أضغاث أحلام بالنسبة لمعارضة بين فرنسا والولايات المتحدة ونظرتها للتحالفات الداخلية التي تجعل الحزب في مهب الحركات الإصلاحية ورفضها كل التزام إلى جانب الشعبين التونسي والمغربي. وعلى الصعيد التنظيمي فهو يتهمها بتخريب الجهاز السري ورفضها التفكير في إعادة تشكيل المنظمة الخاصة".

أما عن اتهامات الاتجاه المضاد لمصالي فقد عبر عنها بشكل أكثر وضوحا حيث كتب نفس المؤلف: " إن قيادة الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية التي قلبتها الأحداث تسعى أساسا إلى ضمان بقائها من خلال تسيير الحزب في مارس 1952 اقترحت الدعوة لمؤتمر جامع كل اتجاهات الحركة الوطنية. الأمر الذي وافق عليه مصالي، لكن شريطة أن لا يكون هناك تعايش لأن الحدود السياسية التي تفصل بين

الاتحاد الديمقراطي من أجل البيان والعلماء والمنتخبين الإداريين ليست واضحة المعالم بعد (3)".

في هذا المقام، تغلب تقدير المؤلف على الخلافات، التي لم تظهر بعد.

وفي صفحة لاحقة يتجلى هذا التقدير بشكل أدق:" إن الهيئات القيادية للحزب، تدير ظهرها، للنهج الثوري، ليس خشية منه، وإنما لكونها تحولت إلى أماكن تجمع لعناصر برجوازية جديدة. وقد اصطدم الخط السياسي الراديكالي في مبدئه إلى معارضة الجهاز الذي يشرفون عليه".

وفي الأخير نصل إلى الاتهامات، مثلما وصفها السيد حربي :" إذا كان المركزيون يعاتبون على مصالي سعيه لتبجيل شخصه، فإن دعايتهم على المستوى الوطني، تحرص على تأكيد عدم كفاءته وثقافته الناقصة وأضاف أن " هاتين الحجتين، وإن كانتا تفتقران إلى أساس صحيح، تشكلان نداء للإطارات والمثقفين، ولا يمكننا إغفال موقف الطبقية الكامن وراء هذه الأحكام " (4).

فالعلاقة المحددة لهذه الأزمة واضحة إلا أنها تترك ذلك الانطباع العميق بأنها غير متزنة ولو اكتفينا بهذه المقتطفات، لا يسعنا إلا أن نكون مؤيدين لطرح مصالي الحاج على حساب تصور المركزيين خاصة إذا راعينا تفسيرات "البورجوازيين الجدد"، "موقف طبقي" و"مثقفين" كنقيض للبروليتاريين ولكل التأويلات التي عادة ما تلازم هذه العبارات في أذهان الناس.

علما أن كل تدخل لكاتب ما لا يخلو من الذاتية فإني لا أرى من طريقة أنسب لتقليص هذا التدخل من اللجوء للوثائق الرسمية وفي الحالة التي تهمنا الوثائق متوفرة لحسن الحظ.

إزاء تعذر الرجوع إلى غاية المؤتمر الأول لحركة انتصار الحريات الديمقراطية المنعقد في فيفري 1947، وقد يجعلنا ذلك نخرج عن إطار موضوعنا، فلنتوقف عند أشغال ونتائج المؤتمر الثاني لنفس الحزب

الذي انعقد بالجزائر العاصمة في أفريل 1953 بما أن الأزمة نشأت عن تبعاته المباشرة.

لحسن حظنا حصلنا على نشرية لم تعد تتوفر منها سوى نسخة واحدة. ما الذي تحتوي عليه يا ترى؟ ثلاثة وثائق متفاوتة الحجم. أولها عبارة عن نشرة موجهة للمناضلين، يتناول موضوع "الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي وخلاله" الثاني -وهي التي تهمنا- تطرق لأشغال المؤتمر، والوثيقة الأخيرة تتناول موضوع الهجرة الجزائرية في فرنسا، و قد طبع الكل في فرنسا سنة 1953 (5).

يحتوي الجزء المخصص للمؤتمر على خمسة وثائق ذات أهمية تاريخية قصوى لفهم تسلسل الأحداث وهي:

- خطاب الافتتاح الذي ألقاه أحمد مزغنة.
- رسالة مصالي الحاج التي قرأها مولاي مرباح.
- التقرير العام للجنة المركزية.
- اللائحة العامة.
- رسالة مصالي الحاج لرئيس حركة انتصار الحريات الديمقراطية.

على الرغم من القيمة المتفاوتة، لكل من هذه الوثائق، يبقى من الأهمية بمكان استخلاص فحوى كل منها.

ولنبدأ بكلمة افتتاح المؤتمر التي ألقاها احمد مزغنة الذي كان إلى جانب مولاي مرباح، من أشد المتحمسين لمصالي. ماذا عساه قال في تدخل وجيز للغاية ؟ (6) أنه يتعين على المؤتمر "إعداد الميثاق الذي سيكون بمثابة سلاح بالنسبة لكل مناضل" وأيضا وبشكل خاص، بعد التنويه" بالمقاوم العظيم ورمز كفاح الشعب ومؤسس حزبنا المجيد العزيز علينا مصالي الحاج" وأضاف في الأخير أن "الفوز في الانتخابات التشريعية والبلدية المنظمة في نوفمبر 1946 وأكتوبر 1947 التي كانت

بمثابة تزكية حقيقية قد هزت أركان الإمبريالية الفرنسية، وأثارت حماسا شعبيا معتبرا".

فإذا كان الأمر يتعلق بخطاب افتتاحي ظل محصورا في العموميات، فإننا لا نلاحظ فيه أية إشارة لأزمة محتملة، ولا حتى في رسالة مصالي التي قرأها الناطق باسمه، ورجل ثقته مولاي مرباح. ماذا ورد في هذه الوثيقة التي تضم 6 صفحات فقط أن " الامبريالية الفرنسية، أعدت في السر، خطة عمل تسعى من خلالها إلى إفشال ميثاق الأمم المتحدة بكل الوسائل. "وأضاف أن " هذه الخطة تم إعدادها بالجزائر، غداة الانتصار الباهر، الذي حققناه في انتخابات أكتوبر 1947 ". ما فحوى تلك الخطة؟ فلنستمع لقارئ الرسالة يقول :" إقصاؤنا من الساحة السياسية والتشكيك في منتخبينا، وطردنا من الجمعيتين الجزائرية والفرنسية وإضعاف قوتنا والتغلب علينا عن طريق القمع والتعذيب والسجن والغرامات، تلكم هي في عبارة موجزة خطة عملها".

يلاحظ القارئ أن ميصالي الحاج لا يعارض المشاركة في الانتخابات، حيث أنه يشير للانتصار الذي حققته قوائم الحزب الذي أسسه حديثا في انتخابات أكتوبر 1947 كما أنه كان يعتبر حضور منتخبي حركة انتصار الحريات الديمقراطية في مختلف الجمعيات كنشاط إيجابي، وكوسيلة كفاح.

وضمن الرسالة تحليلا للوضع الدولي، الذي شكل في الواقع معظم النص. علمنا من خلاله بحدوث تصادم بين فرنسا والولايات المتحدة وبريطانيا بل وكذلك مع ستالين زعيم الاتحاد السوفييتي. الذي كان يدعو إلى التعايش السلمي الأمر الذي دعا إليه مجددا خلفه مالينكوف. أما عن مرور هتلر الذي كان يحلم بمشروع أورإفريقي الذي كان يتطلع إليه ويطرد مسلمي شمال إفريقيا نحو الصحراء ليخلفهم في الشمال

بالأوروبيين- الألمان والإيطاليين بوجه خاص- فلسنا نرى له من بد حيث أن الزعيم النازي كان قد اختفى منذ سبع سنوات.

وبخصوص البرنامج فقد رجع مصالي مرارا إلى موضوع الانضباط وحسن التنظيم اللذين ينبغي أن يحرص عليهما الحزب. ولنتأمل عباراته: "العمل على بناء حزب قوي منظم ومنضبط السهر على تربية الشعب الجزائري لتحضيره لأداء دوره في كل الظروف ، إبراز وجود حزبنا في الداخل والخارج، لفت انتباه الرأي العام الدولي من خلال نضالنا اليومي التزود بسياسة خارجية جادة، الاستغلال الأمثل لكل الأوراق التي بحوزتنا، العمل على تحقيق تنظيم جيد بالخارج، وتنسيق هذه النشاطات، كلها مهام يتعين الاضطلاع بها للمضي قدما في كفاحنا".

ذلكم برنامج رئيس الحزب الذي نقلناه بصدق تام، وتطرقنا إليه بشكل مطول. أدرك تمام الإدراك، أنه لم يكن حكيما في ظل مجتمع استعماري إفشاء أسرار كفاح وإستراتيجيته. لكن كان لقيادات الحزب أن تتطرق في أكثر من مرة لمسائل في غاية الحساسية، مثل الكفاح المسلح وإنشاء المنظمة الخاصة، مخاطرين بذلك، بإمكانية أن يوشى بهذه الأسرار السلطات الفرنسية من طرف الأعوان الذين تكون قد سللتهم في الحزب. أن لا يقترح مصالي جديدا بشأن الكفاح المسلح للشعب الجزائري فذلك لا يعني البتة أنه تخلى عن الخيار العسكري من أجل تحرير البلاد. لن نطرح أبدا هذا الاستنتاج ولن نغامر بإصدار حكم. في حين سنكتفي بتسجيل رسالته لمحاولة فهم الأزمة التي كانت ستنفجر قريبا.

وسأتطرق في الأخير للوثيقة التي تعد أكثر أهمية بالنسبة لأي مؤتمر كان، ألا وهي اللائحة العامة.أما التقرير الواقع في خمس وستين صفحة الذي عرضته اللجنة المركزية، لإعداد حصيلة سياسة، وتسطير آفاق الكفاح، فقد استعادت اللائحة فحواه لكن بشكل مختصر.ماذا جاء فيها. نظرا لأهميتها التاريخية، لا أعتقد أنني سأبالغ إذا ذكرت مقتطفات واسعة منها.

تبدأ اللائحة بالإشارة إلى نقائص الحزب وسنقدر إن أردنا الشجاعة والوضوح وروح المسؤولية التي حددت بها هذه النقائص:

1- لم يعد الحزب لحد الساعة مذهبا، واضحا يبين طبيعة ووسائل كفاحه الحاضر والمستقبل.

2- على الصعيد الإيديولوجي لم يحدد محتوى الاستقلال في بعده السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

3- على المستوى المذهبي فهو يفتقر لمذهب خاص بالكفاح يحدد معالم وطنيتنا، وحسنا الثوري، والوسائل العامة لهذا الكفاح ويوصي بتوخي الحس المنهجي والنقدي.

4- على الصعيد الاستراتيجي لم تباشر تحاليل تحدد طبيعة الخصوم، ومدى قوتهم .

- لا توجد نظرة شاملة فيما يتعلق بالأهداف الاستراتيجية.
- عدم ترتيب الأولويات والأهداف.
- نقص الإطارات.
- موقف الحزب غير محدد بوضوح فيما يتعلق بالأقلية الفرنسية.

5- على المستوى التكتيكي:

أ. سياستنا التحالفية تحولت من التصلب إلى المرونة المفرطة.

ب. لم تسفر الانتخابات عن نتائج مرضية بسبب نقائص لدى بعض الرجال وغياب سياسة خاصة بالمنتخبين (8).

بعد تحليل على هذه الدرجة من الصرامة، قد تتخوف منه معظم التشكيلات السياسية التي قلما تقوم في معظمها بانتقاد ذاتي، استخلص مؤتمرو حركة انتصار الحريات الديمقراطية لأفريل 1953 النتائج الآتي ذكرها لتدارك النقائص المسجلة.

ولنرجع إلى النص ذاته الذي ينص على التوجيهات التالية:

على الصعيد الأيديولوجي:

فيما يتعلق بأسس الدولة الجزائرية المستقبلية، يحدد المؤتمر المبادئ الخمس التالية:

1) الديمقراطية: من الشعب وإلى الشعب كمصدر سيادة.

2) الجمهورية: كشكل حكومة.

3) التقدم الاقتصادي والعدالة الاجتماعية من خلال:

- اقتصاد وطني.
- إعادة تنظيم الفلاحة مع الإصلاح الزراعي.
- تأميم وسائل الانتاج الكبرى.
- الحرية النقابية الخ.

4) احترام المعتقدات الدينية طبقا للسنة الإسلامية.

5) الثقافة الوطنية تبقى مرتبطة بالثقافة العربية الإسلامية.

على الصعيد الاستراتيجي:

- صياغة الإستراتيجية والتوصية بها وفقا للقوى المتواجدة.

على الصعيد التكتيكي:

- تسطير ومواصلة سياسة التحالف مع الأحزاب حتى لو لم تكن تشاطرنا أفكارنا ومناهجنا.
- صياغة سياسة انتخابية."

وتنتهي اللائحة بتحديد آفاق السياسة العامة.

إذا لم يكن هناك من جديد يذكر على الصعيد الخارجي فإن المؤتمر قد سجل فشل مساعيه من أجل إنشاء اتحاد شمال إفريقي الذي مازال يقول أنه يمثل هدفه فعلى الصعيد الداخلي من الأهمية بالنسبة لما سيرد لاحقا أن نلاحظ ما يلي وحسب عبارات المؤتمر نفسه حول النقطتين التاليتين:

1) الشعب.

- اعتبارا لضرورة تأكيد تواجد الحزب في كل مكان، يتعين أن تركز سياسة تواجد الحزب في كل الأوساط الاجتماعية، لا سيما باتجاه الجماهير بغرض إشراكها في الكفاح،
- يتعين على الحزب أيضا، الاهتمام بالأوساط البورجوازية والثقافية التي لا يتحكم فيها. كما يتعين عليه التقرب اكثر من أوساط العمال الذين يبقوا معرضين لأشكال أخرى من التأثير.

2) الاتحاد (النقطة 5 في اللائحة)

"يقرر المؤتمر احترام مبدأ الوحدة الوطنية، و يوصي بتصور أشكال لتحاد ملائمة."

إن عودتنا المطولة لمصادر النقاش، في حركة انتصار الحريات الديمقراطية التي أعدها في أفريل 1953، وآفاق الكفاح التي سطرها آنذاك لا تترك مجالا للشك حول الحالة النفسية العامة التي كانت سائدة لدى هذه التشكيلة السياسية.

لمزيد من الوضوح نؤكد أنه لا المشاركة في الانتخابات التي اعتبرت "إيجابية أكثر من سلبية" و"سياسة الوحدة" لم تتعرضا للانتقاد، لأنهما كانتا -على الأقل منذ نشأة حركة انتصار الحريات الديمقراطية سنة 1946 وحتى لدى من سبقها، كنجم شمال إفريقيا حزب الشعب الجزائري- الهدفين الثابتين لأكثر تشكيلات الحركة الوطنية الجزائرية راديكالية. فمصالي الحاج ليس فقط أحد رواد وصناع هذا الخط، وإنما تم كذلك انتخابه مرة واحدة على الأقل وبشكل باهر في الجزائر العاصمة خلال انتخابات المقاطعات في أكتوبر 1938.

أما عن سياسة الاتحاد، فقد سجلت العديد من المحاولات، لنذكر أكثرها أهمية: سنة 1936 خلال المؤتمر الإسلامي وفي سنة 1944 ضمن حركة أحباب البيان وفي 1951 ضمن حزب الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية

واحترامها بحضور كل الحساسيات تارة، وبعضا منها تارة أخرى. وسنتوقف ثانية بشكل وجيز عند هذا البند.

ولننته في الحال من أشغال المؤتمر الثاني لحركة انتصار الحريات الديمقراطية بالتأكيد على عبارات التقدير، والتعاطف التي وجهها المؤتمرون لمصالي الحاج في منفاه بنيورت (Niort) في فرنسا، والذي لم يمنعه من تسجيل نشاط سياسي مكثف مع العديد من زواره.

تم وضع الهياكل المنبثقة عن المؤتمر، وفق ما نعلمه دون أحداث تذكر. وقد عين المؤتمر لجنة مكلفة باختيار أعضاء اللجنة المركزية. تضم هذه اللجنة خمسة عناصر أعضاء وهم : مصالي الحاج، ولحول حسين، وابن خدة بن يوسف ومرباح مولاي، ومزرنة أحمد . وحتى وإن استبعدنا بسبب بعده، مصالي الحاج الذي مددت عهدته على رأس الحزب، لا يمكن اعتبار هذا اللجنة معادية لمصالي باعتقاد أن لحول وبن خدة قد انفصلا عنه آنذاك _الأمر غير بديهي_. هذه اللجنة هي التي اختارت الأعضاء الثلاثين، لآخر لجنة مركزية قبل حلّها.

كيف لا نقدم قائمة أعضاء اللجنة المركزية ونحن سنسمع عنها الكثير، وإن ترك للتاريخ تسمية "المركزيين" التي ستقترن بكل الذين عارضوا رئيس الحزب لأسباب سنعمل على تحليلها لاحقا.وفيما يلي القائمة دون ترتيب مسبق لكن وفق الأسماء التي سجلناها:

أعضاء اللجنة المركزية المنبثقة عن مؤتمر حركة انتصار الحريات الديمقراطية لأفريل 1953.

1) مصالي الحاج
2) لحول حسين
3) مزرنة احمد
4) مرباح مولاي
5) بن خدة بن يوسف

6) دحلب سعد
7) بودا احمد
8) كيوان عبد الرحمان
9) لوانشي صالح
10) مهري عبد الحميد
11) محمد يزيد
12) عبد السلام بلعيد
13) عيسات ايدير
14) إبن بولعيد مصطفى
15) عبد الحميد علي
16) إبن شيخ الحسين عبدالحكيم
17) إبن حبيلس عبد المالك
18) إبن مهل محمد
19) بولحروف طيب
20) بولكروع موسى
21) دخلي محمد
22) جيلاني مبارك
23) فروخي مصطفى
24) حمود هاشمي
25) لعجوزي طاهر
26) معايزة طاهر
27) منجي زين العابدين
28) رقيمي جيلالي
29) صويلح الهواري
30) تمام عبد المالك

اجتمعت اللجنة المركزية بهذه التشكيلة، لانتخاب إبن يوسف بن خدة، بناء على اقتراح من مصالي الحاج، في منصب أمين عام للحزب. علمـا

أن المسؤول السابق في هذا المنصب كان لحول حسين، ومــع أن هنــاك من أكد لنا أن إبعاده من منصبه يعود لسنة 1951 بناء على قرار من مــصالي الحاج، كذلك لصالح إبن يوسف بن خدة.

لكن هناك شهادات تفيد بأن لحول قد ظل، بالفعل هو الأمــين العــام للحزب وإن ذلك تمّ لتمويه الشرطة.

لكن الحادثة التي كانت على ما يبدو، وراء الأزمة، هو إقصاء مزرنة ومرباح الذين يقال عنهما، عن حق أو خطأ، أنهما من أخلص مــساعدي مصالي، ولقيادة الحزب، وحتى لقريب الرئيس المدعو ممــشاوي محمــد من اللجنة المركزية.

لنتطرق بإيجاز إلى هذه القيادة التي تعد الجهاز الرئيسي للحزب ما بين دورات المؤتمر، واللجنة المركزية، التي ليست منتظمة.تضم كل من إبن خــدة ولحول وكيوان وعبد الحميد وفروخي. تتشكل الأمانة مــن الشخــصيات الثلاثة الأولى التي تم ذكرها، ولا ينبغي الخلط بين الأمانة والأمين العام إبن خدة الذي اختار أعضاء القيادة السياسية الخمــسة لأســباب متــصلة بالانسجام والفعالية. لم نتمكن من التأكد إذا كان مــصالي الحــاج أطلــع على هذا الاختيار أم لا لكن هذه الذريعة هي التي كانــت وراء سلــسلة من الإجراءات، والإجراءات المضادة التي أدت إلى تفكك الحزب.

إن الوثائق المرتبطة بهذه الأزمة، قد وردت من التيارين اللذين تبادلا الاتهامات . ولنبدأ بأول من أطلع على بوجود الأزمة خاصة، وأن الأمر يتعلق بالرئيس، أكبر شخصية في الحزب.

ولنضف قبل الخوض في هذه الأزمة، لاستكمال المناخ العام الــسائد في مؤتمر أفريل 1953، أن اللجنة المركزية على النحــو الــذي شــكلت وعرضت فيه سالفا قد كلفت سرا لجنة من خمــسة أعــضاء(مــصالي، لحول، وإبن خدة، ودكالي وإبن بولعيد) لبعث المنظمة الخاصة.

أما الأزمة في حد ذاتها فقد انفجرت في سبتمبر 1953، بعد خمسة أشهر من مؤتمر أفريل، وفي حين اجتماع اللجنة المركزية. وبحسب ما نعلم فقد أعلن الناطق باسم مصالي الحاج مباشرة، أن هذا الأخير قرر "سحب الثقة من الأمين العام" وأن مصالي يطالب بالصلاحيات الكاملة لتقويم الحزب". بما أنه لم يتسن لنا التحقق من صحة هذه الرسالة، وفي أي ظروف تم تأكيدها – رغم أن "إيف كورييل" قدم بدوره رواية مشابهة، كما رأينا لمصطفى بن بولعيد – فسنقتصر على دراسة الوثائق التي صدرت عن الجانبين.

أول وثيقة صدرت عن مصالي الحاج، يعود تاريخها إلى يوم 11 مارس 1954 وهي موجهة حسب عنوانها للمناضلين الجزائريين المقيمين بفرنسا على اختلاف وظائفهم (9). وفيما يلي العبارات التي أعلن فيها لأول مرة عن الأزمة التي كانت كامنة داخل الحزب:

"بوصفي رئيساً للحزب، ومسؤولاً أمام الله وأمامكم، وأمام ضميري، يتعين علي أن أحيطكم علما بما يلي: "دون الخوض في التفاصيل أقول لكم: أن حركتكم الوطنية تجتاز أزمة خطيرة".

"إني أناضل منذ اكثر من ثلاث سنوات في صمت، وعبر المسؤولين على حماية الحركة الوطنية من الانزلاق نحو المغامرة، والتخلي عن المبادئ الثورية"

"هكذا نشأت سياسة التساهل، منذ تلك الفترة، وقد ترسخت بيروقراطية حقة بين موظفيها، وتلفوناتها وباشواتها، و"شاوشيها" داخل الحزب".

الجواب يظهر من عنوانه. إن الأمر يتعلق بنزاع عنيف، مفتوح وما يهمنا هو البحث مرة أخرى عن الأسباب العميقة للأزمة. وتجدر الإشارة إلى الشتم والتهكم لأن مثل هذه العبارات تكشف عن معارضة تخص الأشخاص أكثر منها الأفكار أو المبادئ أو المشاكل الجوهرية.

من بين هذه العبارات، نشير إلى عتابين رئيسين وجههما مصالي الحاج "للبروقراطية" وهي العبارة التي ترمز لقيادة الحزب، واللجنة المركزية.

بالنسبة إليه " أضحى نشاط الحزب في الجزائر مقتصرًا على السياسة الانتخابية ومساوماتها بشأن المقاعد" كما أنه كان يتوقع أن "البيروقراطية ستدخل، بعد فشل سياسة الجبهة الجزائرية الذي دام قرابة ثلاث سنوات، باستهتار مقرف في مؤتمر وطني مع التخلي عن خط سيرها السياسي، ومبادئها الثورية، ودون مراعاة التجارب الوحدوية الفتية".

بكل وضوح، فإن المشاركة في الانتخابات، وسياسة التحالف مع التشكيلات الجزائرية الأخرى، قد عرضت الخط الثوري لحركة انتصار الحريات الديمقراطية للخطر. وعليه، فقد تعرضت الاثنتان للعتاب ذلكم أن، الحزب، وبسبب "البيروقراطية" قد إنحرف عن خطه الراديكالي. فبدافع الميل الشخصي أو بسبب انعكاسات النزعة الانتخابوية، والسعي للتحالف مع التشكيلات السياسية المعتدلة، سار قادة الحركة حسب مصالي بالحزب، إلى المغامرة والانحراف.

الواقع أن الأسباب الجوهرية بشأن ما ينبغي أن يكون عليه الحزب وما يجب أن يقوم به لم تعالج إلا سطحيا. فالوثيقة تشكل مرافعة ضد تصرف بعض من قادة الحزب التي أشير إليهم بأسمائهم. وقد وعد رئيس الحزب بتقديم المزيد من المعلومات، لكن أمام المؤتمر، الذي سينعقد "فور تنظيف البيت".

وتلت الاتهامات التوصيات الموجهة للمناضلين. فقد دعاهم إلى دعم "لجنة الخلاص الشعبي" التي أنشئت حسبه، بشكل عفوي في حين، أنه هو من حث عليها لقيادة "فيدرالية فرنسا في انتظار تجديد القيادة".

وختم نداءه، طالبا من كل المناضلين مساعدته في "مهمة التطهير والتقويم على مستوى الحركة الوطنية".

بشكل غريب، خضعت اللجنة المركزية المجتمعة في 28 مارس 1954 للأمر الواقع وخولت كامل الصلاحيات لرئيس الحزب، حيث رجعت إليه من اجل تنظيم المؤتمر. قد يكون مصالي الحاج قد وجد في ذلك تشجيعا بعد المجابهة الأولى وربما لا يكون كذلك، لكنه حاول تعزيز سلطته من خلال إنشاء تمثيلية مؤقتة عين فيها أحمد مزرنة ومولاي مرباح. وكان يتوخى تحقيق هدفين من ذلك: تسيير الحزب، وتنظيم مؤتمر للشرح والتوضيح.

الحاصل أن الأمر كان يتعلق بالقضاء على كل معارضي مصالي. من الممكن جدًا أن يكونوا قد أدركوا الخطر، ومن الممكن أيضا أن يكون مصالي قد تعسف في استعمال السلطة لكن الواقع أنه فور 23 ماي تراجعت اللجنة عن القرار الذي اتخذته قبل أقل من شهر لما فسحت المجال بتاريخ 28 مارس أمام الرئيس، لاتخاذ القرار بشأن المؤتمر الذي كان سيؤدي لنشوب النزاع. سواء تعلق الأمر بخطأ من اللجنة المركزية أو بغير ذلك، فقد استغل مصالي الفرصة ليحذر المناضلين والشعب في جوان 1954 من جديد وتوجيه الضربة القاضية من خلال سحب الثقة من اللجنة المركزية، بعد أن أنتقد بشدة، العديد من القادة الذين يكونون قد استسلموا للرشوة بقبول بعض الامتيازات مثل تذاكر دخول الاوبيرا أو الملاعب وقاعات السينما.أو شراء شقق(10) بأموال الحزب.

الواقع أن النزاع تحول لتصفية حسابات شخصية.

أمام هذا الوابل من الانتقادات، والاتهامات والقرارات، الشرعية أو لا. فما كان رد فعل، قيادة الحزب، وما هي روايتها عن الأزمة؟

قد نجد توضيحا في التقرير الذي عرضته اللجنة المركزية في المؤتمر المضاد الذي نظمته بالجزائر في أوت 1954.

حسب وثيقة اللجنة المركزية (11) "لقد شرع في العمل.الذي يتعين على الحزب القيام به في فرنسا بمناسبة الندوة الفدرالية المنعقدة يومي 26 و27 ديسمبر

1953" وقد ألقى بالمسؤولية الأولى على المدعو عابد، الذي ما هو سوى الاسم المستعار لفيلالي، من قدماء اللجنة المركزية الذي تم إبعاده من اللجنة المركزية المنبثقة عن مؤتمر أفريل 1953 بالجزائر. فقد اغتنم فرصة حضوره للندوة المذكورة لقراءة رسالة وجهها مصالي الحاج ليعمل على إثارة سلسلة من الحوادث، وإشاعة خبر خلاف قائم بين مصالي الحاج وقادة الحزب. وبدوره فقد روى مولاي مرباح، وهو من أنصار ميصالي، نفس الشيء لطالبين نقلا بدورهما، الرواية نفسها للمشاركين في الندوة الفدرالية.

نفس الوثيقة الصادرة عن اللجنة المركزية تلقي باللوم على نفس المدعو عابد لانتقاله إلى الجزائر بصفته مبعوثا لمصالي الحاج، للاتصال بمناضلي مقاطعات الجزائر العاصمة وقسنطينة وطلب منهم بوجه خاص "البقاء متوحدين وانتظار الأحداث الكبرى، وتعليمات مصالي الحاج".

لقد طال هذا "العمل التخريبي" الحزب كله في فرنسا والجزائر على حد سواء. وإذ فندت اللجنة المركزية كل الانتقادات التي وجهها لها مصالي الحاج فقد آل بها المآل، وليس لنا كثيرا من التفسيرات بهذا الشأن في الوثيقة المذكورة آنفا، إلى حد الرضوخ له وتبني لائحة 28 مارس 1954 التي أسندت بموجبها، وحسب اللجنة دائما، لـ"مصالي الحاج صلاحيات البحث في المسائل المطروحة في إطار قرارات المؤتمر الثاني فقط" وتتهم مصالي ووفده المؤقت (12) "بالتعسف في استعمال السلطة على الصعيدين العضوي والسياسي". والبقية نعرفها حيث بدأ في ديسمبر 1953 العد التنازلي باتجاه مواجهة شرسة.

أخذت الأمور تتسارع. فابتداء من 22 و23 ماي، بدت اللجنة المركزية وكأنها ندمت على لائحتها الصادرة في 28 مارس. حيال "تعسف مصالي الحاج في استعمال السلطة" أنشأت لجنة دائمة لتنسيق نشاطاتها الى غاية انعقاد المؤتمر. وأصبحنا أمام جهازين: الوفد المؤقت الخاضع لأوامر مصالي واللجنة الدائمة التي أحدثتها اللجنة المركزية والتي كانت معارضة.

ردّ مصالي الحاج بتاريخ 15 جوان بسحب، كما شهدنا ذلك- الثقة من اللجنة المركزية. وهاهي اللجنة المركزية تستأنف بعد أقل من 15 يومًا ما شرعت فيه يومي 22 و23 مارس (1954) في ظروف معينة لم يتم احترامها (13). لم يكن ذلك الطلب الذي اعتمد خلال نفس الدورة من اجل "استدعاء عاجل لندوة وطنية" لتنظيم مؤتمر استثنائي كان سيغير مجرى الأمور. شب النزاع، وقطعت جسور التواصل، وأعلنت الخصومات.

وسرعان ما نظم مصالي الحاج، في سرية تامة مؤتمرا جمع أنصاره. وفيما يلي العبارات المقتضبة التي أعلنت بها جريدة " الجزائر الحرة" التي كان يسيطر عليها التيار المصالي في عددها رقم 121 المؤرخ في 20 أوت 1954 نتائج المؤتمر:

"قرر المؤتمر الاستثنائي لحركة انتصار الحريات الديمقراطية المنعقد ببلجيكا أيام 14 و15 و16 جويلية 1954 بـ391 صوتا مؤيدا مقابل امتناع 12 ما يلي:

1) "حل اللجنة المركزية.

2) إقصاء، أعضاء القيادة السابقة واللجنة المركزية المنحلة مبدئيا الذين ثبتت مسؤوليتهم في الانحراف السياسي والعصيان واستعمال أموال الحزب.

3) إعادة كل ممتلكات الحزب إلى رئيس الحزب أو ممثليه.

لتنفيذ هذه القرارات، منح المؤتمر الطارئ كامل الثقة للرئيس وخوله كامل الصلاحيات.

وعليه، نصرح نحن مصالي الحاج، رئيس حركة انتصار الحريات الديمقراطية أن القادة السابقين : إبن خدة بن يوسف، لحول حسين، كيوان عبد الرحمان، عبد الحميد علي، فروخي مصطفى، محمد يزيد، لوانشي صالح وبودة أحمد مسؤولون عن الانحراف السياسي والعصيان واستعمال أموال الحزب وكذا عن عدم إعادة ممتلكات الحزب ونعلن بالتالي طردهم نهائيا من حركة انتصار الحريات الديمقراطية.

نيورت 18 أوت 1954

بعد تعيينه رئيسًا مدى الحياة من طرف المؤتمر، في ظل غمرة من الحماس، كما صدر عنه في أحد الأعداد السابقة لصحيفة "الجزائر الحرة"، حاول مصالي الذي بات يتبجح بشرعية كان يخالها من الشعب برمته، وبطريقة مطلقة، توجيه الضربة القاضية. لم يسبق أن تحداه أحد من قبل، ولذلك أراد القضاء كلية على جميع معارضيه الذين كان يعتقد أنه تخلص منهم نهائيا.و أي خطأ فادح كان ذلك، وأي توهم، بأن يعتقد أن ثقة الشعب كان مكسبا أبديا بل وكأنها باتت ملكا حصريا له. ستبين بقية الرواية ذلك الخطأ الفادح. في الحين سنكمل رسم الصورة عن الأزمة بالتذكير بالفصل الأخير، وذلك الفصل هو الذي لعبه "المركزيون".

نظم هؤلاء بدورهم، وبعد أقل من شهر من انعقاد مؤتمر المصاليين في بلجيكا، مؤتمرهم الخاص في الجزائر من 13 إلى 16 أوت 1954 وجاءت قراراتهم معاكسة تماما لتلك التي اتخذها مصالي في حقهم.

في الثالث سبتمبر 1954 أصدروا جريدة جديدة: جريدتهم الخاصة، وتخلوا عن " الجزائر الحرة" التي طالما غذت أحلام الجزائريين بالنسبة للكفاح والاستقلال. وجاء لسان حالهم الجديد بعنوان "الأمة الجزائرية". ما أغربه من استفتاح بالنسبة لصحيفة تمضي أول عدد لها على وقع عقوبات؟ هكذا نقرأ في اللائحة التي أصدرها المؤتمر والتي نقلها العدد الأول من الصحيفة:

" إن مؤتمر حركة انتصار الحريات الديمقراطية المنعقد أيام 13 و14 و15 و16 أوت 1954 بالجزائر وبعد الاستماع إلى تقرير اللجنة المركزية ومناقشته قد اتخذ القرارات التالية:

- المسائل السياسية:

1) تأكيد القرارات العامة الصادرة عن المؤتمر الثاني، والخط الذي حدده والتنديد بعمل مصالي، ومزرنة ومولاي على إجهاض هذه القرارات.

2) رفض الاتهام بالانحراف الإصلاحي والانتهازي الذي وجهه مصالي وتفنيد كل الأكاذيب الباطلة التي أشاعها أعوانه.

3) طبقا لمبدأ التعجيل بمسار الكفاح الذي قرره مؤتمرنا الثاني، وفي حال وفرت الساحة على الصعيد شمال الإفريقي والدولي، الظروف الملائمة لكفاح أكثر شدة وفعالية لبلوغ أهداف الحزب والشعب الجزائري، العمل على تهيئة الحزب لمواجهة هذا الوضع، و أداء دوره التاريخي.

-مسائل انضباطية:

1) فصل مصالي ومزرنة ومولاي عن كل المناصب والمسؤوليات التي أسندها الحزب إليهم.

2) إدانة جمعية بلجيكا الموصوفة بالمؤتمر والتي لم يعد من حق ميصالي عقدها إثر لائحة 27 جوان دون اقتراف عمل انشقاقي موصوف."

أسدل الستار واستكملت عناصر الأزمـــة. انهــارت حركـــة انتـــصار الحريات الديمقراطية بفعل ممارسات مؤسسيها ومسيريها. ولم يعد للتسمية التي باتت يتنازعها الطرفان من تغيير الأمور. ومنذ ظهور أول خلف لها ، نجم شمال إفريقيا، لم تشهد أكثر الحركات الوطنية عزما وأشدها راديكالية وتمسكا بخيار الاستقلال مثل هذه الأزمة. الغريب في الأمر هـــو أن هـــذه الأزمة لا تجد تفسيرا لها لدى الأغلبية الساحقة من المناضلين، ومازالـــت أكثر غموضا بالنسبة للشعب الجزائري. لا أحد يفهم شيئا. ذلكـــم أن الكـــل يدرك أن الاتهامات المتبادلة، إن لم تكن غير مجردة من الصحة، تبقى غير كافية، لتبرير تلك الطامة التي عصفت، في أقل من شهر، بحزب كان يبدو في غاية القوة والصلابة والنزاهة. من المؤكد أن هنـــاك أســـبابا عميقـــة أو مغايرة لتلك التي ذكرت، لكن ليس بوسعنا معرفها بالتحديد.

إن الطابع المباغت والعنيف والعميق لهذه الأزمـــة وتـــداعياتها التـــي سممت على مدى سنتين، مجرى الثورة، تقضي بـــضرورة بـــذل جهـــد إضافي لتفسير الأمور وإلا فكيف التطلع لتقديم شرح كامل ومرض لهـــا؟ لكن هذا لا يقلل من أهمية محاولة تفسير حدث غير مجرى تاريخنا.

من بركان حركة انتصار الحريات الديمقراطية
إلى اندلاع ثورة أول نوفمبر 1954

ما قيمة الاتهامات المتبادلة؟ هل يمكن بشكل عقلاني، وموضوعي اعتبار أن النزعة الانتخابوية والإصلاحية التي كان مصالي يتهم بها "المركزيين" والمحسوبية والاستبداد اللذين كان هؤلاء يردون بهما عليه هما السببان الوحيدان للأزمة؟

من خلال الانتخابوية، يتهم مصالي المركزيين بمحاولة السعي إلى شغل مقاعد سياسية في مختلف الجمعيات الفرنسية والجزائرية على حساب الكفاح الثوري. وإذا تمسكنا بالمبادئ القاعدية التي تخضع لها حركة انتصار الحريات الديمقراطية ليس من باب الحكمة مراعاة هذا الاتهام. فحركة انتصار الحريات الديمقراطية ومنذ نشأتها وتأسيسها سنة 1946 لم تكن معدة، من طرف مصالي الحاج نفسه، فقط كغطاء رسمي لحزب الشعب الجزائري الذي ظل ينشط في السرية بل لأن أول مؤتمر للحزب التي انعقد في فيفري 1947 حدد، بعد خلافات جادة، وتحذيرات من عدد كبير من المؤتمرين، المشاركة في الانتخابات كأحد أشكال التحرك. هل لنا أن نذكر أن حركة انتصار الحريات الديمقراطية، باستثناء حالة أو حالتين، لأسباب ظرفية، وتكتيكية غير استراتيجية، شاركت في كل الانتخابات. فالمعارضة إذن لا تتعلق بالمبدأ الذي فصل فيه بالمشاركة في المؤتمرين الأول والثاني على حد سواء بل قد تكون ربما عن استغلال العهدة الانتخابية بوضوح. اللوم مرتبط بالسلوك الشخصي للمنتخب وليس بانتخابه في حد ذاته. هل يكون بعض منتخبي الحركة على مر عهدتهم

قد تعودوا على ما قد يبدو لهم كشكل نبيل وراق من أشكال الكفاح السياسي؟ الأمر لا يبدو مستحيلا. لكن تجدر دراسة أداء كل منتخب، ونتائجه، والمهمة ليست بالأمر المستحيل، لكنها خارجة عن نطاق موضوعنا.وعلى أية حال سنلاحظ مثلا أن مزرنة أحد أكثر المتحمسين لزعيم حركة انتصار الحريات الديمقراطية قد ترشح للعديد من العهد الانتخابية الهامة.

ثمة جانب آخر كان يمكن أن يتهم بالنزعة الانتخابوية وحصل ذلك بالفعل. هو اعتبار أن هذه النزعة تهمش أو تحجب الكفاح الثوري. وذلك ما يتجلى من خلال النداءات العديدة الصادرة عن ميصالي الحاج. وقد يطرح السؤال بشكل أكثر ملاءمة إن توصلنا إلى إيجاد دعم له.

الحاصل أنه بإمكاننا فعلا التساؤل لماذا، بعد تصور صائب من خلال إنشاء منظمة عسكرية سنة 1947 (المنظمة الخاصة) لم تبذل حركة انتصار الحريات الديمقراطية، أو جناحها السري، حزب الشعب الجزائري، الذي اندثر بعد أن خارت قواه، مزيدا من الجهود ولم تتحل بمزيد من الانسجام من أجل التحضير لاندلاع الكفاح المسلح. دون العودة في هذا المقام إلى فترة تكون بداية الحركة التي يتبادل العديد فيها أيضا التهم بالتردد عند إنشاء المنظمة الخاصة والتكفل بالحاجيات التي كانت تعتبر أولوية نظريا والتي سرعان ما ألقيت طي النسيان ميدانيا، لا شك أن اكتشاف هذه المنظمة وحلها في مارس 1950 قد أديا بالحزب كل الحزب إلى وضعية ترقب مفرطة في الحذر. كان لتوقيف مئات المناضلين وتعذيبهم وحبسهم أثرا كابحًا دام طويلا وهو ما يفسر فقدان المنظمة الخاصة لجاذبيتها وتخلي الحزب عن أعضائها الذين تعرضوا للتوقيف والتعذيب، والسجن أو دخلوا في النشاط السري. أخطر من ذلك فإن كل الكتابات الحديثة الرامية إلى إثبات أن كل الذين قرروا تجسيد

قناعتهم الراسخة بحتمية الكفاح المسلح قد تعرضوا للتهكم والإهانة القاتلة من خلال وصفهم بالمجانين والمغامرين ونادرا ما كانت الاتهامات تلتزم حدودا، أو تتجرد من التلميح.

مختصر القول أن المنظمة الخاصة، عندما لم تجد ما يعززها، باتت نسيا منسيا حتى أنها وهنت تحت وقع القمع الاستعماري و جمود الحزب. إذا كانت النزعة الانتخابوية لا تستطيع بالتالي أن تشكل اتهاما مؤسسا بالنظر لمبادئ الحزب و لعمله الميداني فماذا عن النزعة الإصلاحية ؟

إن ما يكمن وراء هذا الاتهام الثاني، هو سياسة التحالف التي انتهجتها حركة انتصار الحريات الديمقراطية مع التشكيلات الجزائرية الأخرى والمتمثلة خلال الفترة موضوع النقاش في: الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، الذي أسسه فرحات عباس، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين والحزب الشيوعي الجزائري. للحكم على جدوى وحدة التشكيلات الجزائرية والفصل في أمكانية تحققها من الضروري التذكير بعدد من المعالم..

الاتحاد بين الأحزاب الجزائرية يعد موضوعا قديما يرجع تاريخه إلى المؤتمر الإسلامي لسنة 1936 على الأقل.ثم جاء في مارس 1944 إنشاء "أحباب البيان والحرية" وأخيرا في أوت 1951 "الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية" واحترامها. في الوقت الذي كانت الأزمة ستنفجر فيه، عملت حركة انتصار الحريات الديمقراطية على إعادة بعث شكل من أشكال الإتحاد بين مختلف التشكيلات الجزائرية. وكان ذلك موضوع دعوتها في 10 ديسمبر 1953 إلى عقد " مؤتمر وطني جزائري".

إذا كانت سياسة الاتحاد ليست أمرا مستجدا و لا معارضا للأهداف القيمة والإستراتيجية لحركة انتصار الحريات الديمقراطية وفق ما جاءت عليه ومثلما نقلناها عن لائحة مؤتمرها الثاني لأفريل 1953، أين يكمن الضرر إذن في مثل هذا الاتحاد؟

الواقع أن مسالة البرنامج هي التي تنصب في صلب النقاش وليس، مرة أخرى، مبدأ الاتحاد. المشكل يطرح نفسه بشكل مخالف بالنسبة لكل تشكيلة كفيلة بالانضمام للاتحاد. من غير أن يتسنى لنا المضي إلى عمق الأمور ودراسة البرامج -الموجودة- الخاصة بكل تشكيلة، لنذكر أبرز ما يتجلى من الفكرة التي كانت لدى حركة انتصار الحريات الديمقراطية ومناضليها عن باقي التشكيلات الجزائرية الكبرى.

إذا كان الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري لفرحات عباس قد تطور كثيرا ليقترب أكثر من حركة انتصار الحريات الديمقراطية، كما يدل على ذلك برنامجه، الذي صادق عليه مؤتمره الثالث المنعقد في سبتمبر 1951 بقسنطينة، فإننا نذكر له جملة صدرت عن زعيمه: "هكذا هو التاريخ والناس لا يسجلون إلا ما كان باستطاعتهم حفظه عن طريق الذاكرة أو الغريزة".

هكذا وبخصوص برنامجه، نصت اللائحة أن المؤتمر الوطني الثالث للاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري :

- "يجدد تمسكه بمثل التحرير الوطني المعبر عنه في البيان،
- يذكر رسميا أن الاعتراف بالشخصية الجزائرية من خلال إقامة جمهورية جزائرية ديمقراطية واجتماعية ببرلمانها وحكومتها ورايتها، يبقى الهدف الرئيسي للحزب".

كما أشاد نفس الحزب بتأسيس الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية واحترامها ودعا "كل الديمقراطيين الجزائريين" لتحقيق الوحدة الوطنية.

من الواضح أنه فيما يتعلق بالأهداف على الأقل لم تكن هناك ثمة فوارق عديدة بين حركة انتصار الحريات الديمقراطية والإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري .أما عن وسائل بلوغ هذه الغايات فمن غير المكن الجزم بدقة

بشأنها لأنها غير واضحة لدى الجانبين على حد سواء وبوجه خاص لأن المعتقد لا يمكن أن ينفصل كثيرا عن التصرف في الميدان.

أو ليست الإشارة إلى الوطن الجزائري المفقود الذي باتت بمثابة "الشهادة" بالنسبة لزعيم الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري؟ هاهي ذي أشهر عبارة يحتفظ بها التاريخ لفرحات عباس والتي قالها سنة 1936: "لن أموت في سبيل الوطن الجزائري لأن هذا الوطن لا وجود له.لم اكتشفه. سألت التاريخ وسألت الأحياء والأموات ولا أحد منهم حدثني عنه" (1) مثل هذه العبارات تجد العديد مما يشبهها في الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري.

كثير من المتشددين كانوا اليوم ليشعروا بالخجل لو تجرأوا على قراءة الأحزاب آنذاك. ونحن لسنا بصدد مناقشة هذه المسألة. يبقى أن نتطرق للعلماء وللحزب الشيوعي الجزائري. وها هو مقال موجز صدر في "الجزائر الحرة" في عدده بتاريخ 1 نوفمبر 1952 يقدم بكل وضوح معطيات المشكل. جاء في المقال ما يلي:

"في الجزائر وعلى الصعيد الوطني لا يتسنى تحقيق الاتحاد ضد الاستعمار إلا بين الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري وحركة انتصار الحريات الديمقراطية و جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بما أن هذه الجمعية وهي ذات طابع اجتماعي وثقافي خاص تعتبر أن تحقيق أهدافها مرتبط بالكفاح المسلح. تلكم كانت مكونات الجبهة في ذلك الحين".

وتساءل صاحب نفس المقال عن إمكانية قبول الحزب الشيوعي في الاتحاد، وحسب لسان حال الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية فإن هذا السؤال يحتمل فرضيتين متناقضتين. أولهما أن الحزب الشيوعي لا يكتسي طابعا وطنيا بالنظر لهدفه الرئيسي ووسيلته الخارجية: الاستقلال بالنسبة له لايمثل سوى وسيلة لإضفاء الصيغة السوفيتية على البلد، فتحالفه مع الاتحاد السوفيتي سيبقى قائما

رغم ما ستسفر عنه الأوضاع الدولية من تطورات. أما الفرضية الثانية فتقضي بأن الحزب الشيوعي يناضل حاليا ضد نفس الخصم الذي نحاربه نحن وطالما تبقى هذه التكتيكية قائمة بالنسبة له فيمكن قبوله في اتحاد.

وفي الظروف الحالية كانت الغلبة للفرضية الثانية.

من خلال مختلف المقتطفات التي ذكرناها، ليس من المعقول اتهام قيادة حركة انتصار الحريات الديمقراطية عدم معرفتها الكافية لشركائها المحتملين في ظل اتحاد ما. فالمشكل المطروح لا يتمثل في معرفة أي من التشكيلات كانت تؤثر على الأخرى، إذا كانت حركة انتصار الحريات الديمقراطية التي أصبحت إصلاحية أو على العكس إن كانت التشكيلات الأخرى التي تقربت حتما من مواقفها إما استجابة لدافع جماهيري، وإما بسبب التأثير السلبي والقمعي للاستعمار. الصحيح هو أن، الاتحاد، على اعتبار سوسيولوجية كل تشكيلة، كان ضروريا نسبيا.. هل كان الاتحاد سيعجل، أو يطور المشكل الجزائري باتجاه آخر تطور له وهو الاستقلال. أو أنه كان سيعطل تحقيق هذا الهدف أو يعرقله أو حتى يعرضه للخطر؟ من بوسعه، الجزم بما يمليه الضمير في هذه التساؤلات التي لا تكتسي طابعا رسميا والتي يتوقف عليها مصير شعب برمته؟

كل واحد حر في الإدلاء برأيه. ولنقل ببساطة أن مصير الشعوب لا يتقرر على هذا النحو. ومن غير المعقول تصور إمكانية الخروج بحل معجزة لإخراج تاريخ الشعب من المأزق بمجرد انزوائنا على أنفسنا.

ثمة شيء نريد إضافته. إذا رجعنا إلى نداء 10 ديسمبر 1953 لعقد مؤتمر وطني جزائري فهو لا يتيح مجالا للظن بأن حركة انتصار الحريات الديمقراطية قد تخلت عن أهدافها الأساسية التي أعلنتها على النحو التالي:

- "انتخاب جمعية وطنية ذات سيادة من طرف كل الجزائريين عن طريق الاقتراع العام المباشر،

- إقامة دولة جمهورية ديمقراطية واجتماعية".

لننظر الآن إذا كانت الاتهامات الموجهة إلى مصالي الحاج تقوم، بالعكس على أساس.

لنلاحظ أولا أن تقديس الشخصية والاستبداد ظاهرتان متلازمتان. ما الذي حصل؟ إن من يطالع أعداد "الجزائر الحرة" لعدة سنوات ويدرس قرب حركة انتصار الحريات الديمقراطية سيجد دون جدل تقديسا حقيقيا لشخصية مصالي الحاج .صور بأحجام خارقة للعادة تمثله في هيئات مختلفة وعبارات تكاد تكون حميمية أضحت تتكاثر من عدد لآخر.

في ماي 1954 مثلا أي في أوج الأزمة احتفل العدد 110 من الصحيفة بالذكرى الـ56 لميلاد مصالي بكثير من العظمة ولنذكر أيضا أن هذا الأخير كان انذاك رهن الإقامة الجبرية بنيورت.

حتى خارج الحزب ذاته، بل وأكثر من ذلك، فقد كانت شريحة واسعة من الشعب الجزائري تقدس مصالي الحاج. أو تكاد وهي ظاهرة هامة من الصعب جدا تفسيرها.

فصوره كانت معلقة في العديد من الأكواخ بشكل بارز وبأحجام أكبر من أية صورة تذكارية للعائلة. صوره المأخوذة عن البطاقات البريدية ومكبرة أدرجت في إطارات فاخرة تؤكد وجوده في المناطق النائية من البلاد لا سيما لدى عائلات المهاجرين. في الغالب لم تكن النساء والأطفال يعرفون صاحب الصورة المعلقة في بيوتهم عبر قبل أن تصلن أو قبل أن يولدوا.

لقد أدرك الوسط العائلي الأهمية المعتبرة لهذه الشخصية من خلال تناقل الأخبار عنه شفهيا. ويقول البعض أن شعره هو الآخر كان موضع إجلال على غرار ما يحدث عادة لدى نسائنا الريفيات اللواتي يحتفظن بجزة صغيرة من شعر أطفالهن أو لعروس كانت تقطع جزءً من شعرها كرمز لاندماجها في العائلة.

وحتى لباسه كان مبعثا لتفخيم أسطورته.فالصور كانت تظهره في غندورة أو جلابة فاخرة وعلى رأسه طربوش مغربي. بلحيته وشعره الوافرين كان يبدو وكأنه خلف لأحد الموالي أو الخميني.

ذلك الزي وذلك الهندام جعلاه يبدو في مخيلة الجماهير وكأنه زعيم ديني حقيقي، وفي الوقت ذاته، مرشدا للشعب.

لقد شهدنا، في سن الـ11 تلك النخوة و ذلك الحماس عندما أعلن عن مجيء مصالي الحاج إلى قنزات سنة 1947 حيث إنتقل آلاف الريفيين واصطفوا مدة ساعات طويلة على جانبي الطريق في انتظاره.

إن آثار العمل الممارس على الأذهان لا تنمحي إذا ما تم ذلك العمل مبكرا في ذاكرة الأطفال. فأي كشاف جزائري لم يتغن حينها بهذه الأبيات المشيدة بمصالي الحاج والتي وردت في نشيد وطني هذه فحواه:

"سل الجذور (المعرفة)
من هو ميصالي الحاج
هو الزعيم في بلدي الجزائر".

كلها مؤشرات لا يمكن أن تخطئ: فقد شغل مصالي الحاج أذهان شرائح واسعة من الشعب الجزائري، لا سيما في الأرياف، كما احتضنته الفئات المحرومة إلى درجة جعلت أحد قادة الثورة يقول فيما بعد: أن الاستمالة الذهنية كانت عميقة ومتجذرة إلى حد أن السكان أضحوا أكثر تحزبا لمصالي حتى بعد تصفية مناصريه.

لكن بوسعنا التساؤل كيف تم الوصول إلى هذا الحد.أن الحقيقة تفرض علينا أن نقول التفسير الذي قدمه أحد الأعضاء البارزين في اللجنة المركزية والذي لم يكن لمصالي ذاته بحسب رأيه دور في ذلك الإجلال الموجه لشخصه. فالوقت الذي قضاه في المنفى كان أكبر من ذلك الذي قضاه بالجزائر، فالحزب نفسه، هو الذي كان وراء تنمية هذا التقدير

الشعبي لمصالي أولا، لأن مسؤولي الحزب كانوا يكنون تقديرا صادقا لمصالي الذي كونهم جميعا، ثم لأنه كان ينبغي تعميم فكرة القائد الواحد، والراية الواحدة، والوطن الواحد في أوساط الشعب والواقع أن تلك الفكرة كانت الشعار الوطني.

فالتفاف الشعب وراء قائد واحد كان يشكل الوسيلة الأكيدة لتفادي الانشقاقات وحتى النزعة الجهوية وتنمية التعبئة لصالح هدف الاستقلال الوطني.فإذا كان إجلال شخص مصالي حقيقيا وقويا، فإنما ذلك تم لأن الأوساط القيادية في الحزب ، أكثر من الذي بات موضعه، هي التي تعمدت الأمر وحضرت له وعملت على تنميته حتى وإن أصبح زعيم الحزب غالبا ما يستغله ويتذرع به ليفرض نفسه عند الاقتضاء، مما جعل قيادة حركة انتصار الحريات الديمقراطية تدرك عندما آن الأوان أن هذا الإجلال الذي كانت وراء أكبر قسط منه، سينقلب ضدها. فلم يكن من صالح أحد، حتى ممّن استفادوا من الوضع في حينه، أن يغذي مثل تلك المشاعر. نادرا ما تغفر الشعوب لقادتها وصايتهم عليها. وفي التاريخ الحديث العديد من الأمثلة البارزة عن ذلك.

والغريب أن مصالي وعلى الرغم من ذلك الإجلال الذي كان يتمتع به، قد بقي متواضعا على أحد تعبير أحد شهودنا لمدة طويلة من الزمن. فالاجتماعات المتكررة المنعقدة في بيته خاصة حينما كان في بوزريعة، تعكس ذلك الانسجام الذي كان يسود الحزب.وغالبا ما كان يختتم تلك الاجتماعات أو الاستشارات الموجهة له بعبارة "صحة يا ولادي (شكرا يا أبنائي).

فالعلاقات بين رئيس الحزب، وغيره من القادة، كانت أشبه بعلاقة الأب بأبنائه.كانت كل المواقف والتصرفات الصادرة عن مصالي تنم عن شعور أبوي عميق.وحتى في هذه الحال، فالأب الذي لا يخفف

في الوقت المناسب من تلك القبضة العاطفية التي يمسك بها أبناءه، قد يتعرض لخيبة مريرة وذاك ما حدث مع مصالي في النهاية.

الآن وقد وصلنا إلى نهاية طرحنا للانتقادات والإتهامات التي تم تبادلها في أوج الأزمة، وخلال تفكك حركة انتصار الحريات الديمقراطية لا يمكننا الاستنتاج، بكل موضوعية، أن هذه هي الأسباب العميقة التي أدت إلى الانشقاق. فالشعور بعدم الاكتفاء والارتواء مازال ينتابنا، ويبقى السؤال عن مصدر الأزمة مطروحا. على غرار ما يحدث في كل زمان ومكان، فإن مسألة الطموح الشخصي ساهمت بقسط وافر في تدهور العلاقات بين مصالي وقيادة الحزب. وليكن واضحًا أن النزاع الرئيسي لم يكن بين مصالي والأعضاء الـ27 الآخرين في اللجنة المركزية الذين يمثلهم خمسة أعضاء من القيادة (إبن خدة، لحول، كيوان، عبد الحميد وفروخي) أو الثلاثة الأوائل منهم الذين يشكلون الأمانة أو ربما بين اثنين أقرب المقربين لمصالي وهما مزرنة ومولاي و بين باقي أعضاء الحزب. عندما نعرف أي جرح عميق تسببه طعنة في كبرياء الرجال الذين يبعدون عن الأجهزة القيادية، لا يبقى أمامنا من بد سوى أن نتقبل فكرة أن المسؤولين المذكورين و مباشرة بعد تنصيب الهياكل المنبثقة عن مؤتمر أفريل 1953 والتي لم يكونا من بينها، قد أحسا بمرارة الخيبة. ومنها إلى مواجهة مصالي بشأن ما سيحدث من خلال تضخيم الأمور، لغرض في نفس يعقوب. لم تبق سوى خطوة واحدة لم يتخطاها المسؤولان المعنيان.

ومن غير المستبعد أيضا أن مصالي الذي اعترف شخصيا، أنه ابتعد مدة طويلة عن حياة الحزب بسبب النفي المتكرر، وأنه لم يعد بالتالي، على دراية كافية بمكوناته قد تساءل إذا لم تكن الأحداث وحتى الجيل الجديد من قادة الحزب الذين اختارهم بنفسه، قد تجاوزوه. ولم يكن موقفه

غير ذلك الذي يصادر عن الزعماء العظماء، الذين نادرا ما يتقبلوا فكرة الانزواء في صمت وتسليم المشعل (عصا التناوب) لخلف آخر. بعد مسار طويل من المحن والمجد وعلى العكس من ذلك فإن أعضاء قيادة حركة انتصار الحريات الديمقراطية المنبثقة عن المؤتمر الثاني وكذا الأعضاء الـ27 في اللجنة المركزية الذين سيعارضون الثلاثة الآخرين (مصالي ومزرنة ومولاي) كان بإمكانهم السعي -وقد أرادوا ذلك فعلا وبينوه- للحفاظ على ذلك الإجلال والتقدير اللذين كان يتمتع بهما مصالي، مع إضفاء قواعد وهياكل حياة، أقل ربطا للحزب بالشخص أي أكثر ديمقراطية، وانسجاما مع رهانات الظرف وللمرحلة الجديدة في كفاح الحزب. ومهما يكن فإنه من غير المعقول تصور الأعضاء الـ27 في اللجنة المركزية لو قبلوا الحفاظ لقائد مؤثر هو مؤسس الحزب خاصة إذا بقي بعيداً عن زمام القيادة - أن يفعلوا ذلك عن طريق شخص وسيط حتى و لو كان أحسن مساعديه مثل مولاي ومزرنة.

في اعتقادنا أن مصالي ولا أعضاء الاتجاه الذي كان سيعارضه، لم يتمكنوا من اجتياز المرحلة الانتقالية الضرورية، لتجاوز المشاكل التي كان يطرحها بعض الأشخاص. وكان بإمكان الاتجاهين المتعارضين ومن غير الاغتياظ العنيف في قرارة النفس عن مصير بعض القادة السياسيين التوصل إلى تسوية مؤقتة للمشاكل السياسية، فالواقع_ وذلك ما قد حاولنا مطولا البحث عنه، لم يكن من سبب جوهري ولا حتمي يفرق قادة حركة انتصار الحريات الديمقراطية.إن بروز المشاكل المرتبطة بالأشخاص، سواء كان ذلك عن قصد أو عن غير قصد هو الذي أشعل فتيل الفرقة، إذ سرعان ما تم الانتقال من نقاش كان سياسيا في مظهره إلى تبادل الاتهامات؛ والشتائم الأمر الذي أدى بالنزاع إلى انزلاق لم يعد ممكنا التحكم فيه.

وفي الوقت الذي بلغت فيه معركة الإقصاء أوجها، وأخذت الحملات التأديبية تحضر وتشن من كل جانب من أجل السيطرة على أملاك الحزب شرعت ثلة من المناضلين ممن أدركتهم تلك الشرارة التي تصنع المنعطفات التاريخية الكبرى في مهمة تكاد تكون مستحيلة لتجاوز الأزمة ، وتفجير الكفاح المسلح.

ولم لا يكون صحيحاً القول: رب ضارة نافعة فإن ما لم يكن ممكنا تصوره، ولا إنجازه على مدى أزيد من ربع قرن من عمر الحركة الوطنية، كان سيبدو، بل سيفرض نفسه كمخرج وحيد، لتفادي فشل أكثر الحركات الوطنية الجزائرية راديكالية، بل وكذلك فشل الشعب بأكمله.

أن تكون اللجنة الثورية للوحدة والعمل، قد تأسست في مارس 1954 من طرف أعضاء من اللجنة المركزية (لحول، وعبد الحميد، ودلهي وابن بولعيد) كما أكد ذلك وكتب عنه عبد الرحمن كيوان (2) أو أعضاء قدامى في المنظمة السرية (بوضياف ومحساس وابن بولعيد) حتى إن استأثروا بمبادرة تشكيل اللجنة المركزية فذلك لا يمثل أهمية قصوى. المهم هو أنه في الوقت الذي بدأت بوادر الفرقة والانشقاق التي بتنا نعرفها تتجلى، أحدث مناضلون على قلتهم -وقد احتفظ لهم التاريخ بعظيم صنيعهم- تغييرا جذريا على كل المعطيات المختلطة التي أفرزتها الأزمة و أعادوا الشعب الجزائري في مجرى الكفاح التحرري.

وإذا كانت اللجنة الثورية للوحدة والعمل، قد تخلصت سريعا من سيطرة مؤسسيها، الحقيقيين أو المفترضين، وقررت العمل في إطار مغاير تماما وبأفاق مختلفة أليس ذلك لأن مهمتها كانت تتمثل منذ البداية في التوحيد أكثر منها في العمل؟ فالأمر كان يتعلق برأب الصدع داخل حركة انتصار الحريات الديمقراطية ليتسنى بعد ذلك دراسة كيفية بعث للكفاح المسلح والتحضير له. والحاصل أن المهمة كانت تتمثل في تكرار

سيناريو 1947 حيث كان يتعلق الأمر، بمعرفة ما إذا كان ينبغي أم لا، التحضير عسكريًا للكفاح وإنشاء المنظمة السرية تبعا لذلك، ثم سيناريو 1950 غداة تفكيك الجناح المسلح لحركة انتصار الحريات الديمقراطية لتحديد ما إذا كان ضروريا إعادة بعثها أم لا. وكل محاولة في تكرار التاريخ لا تخلو من المخاطر.

بهدي من رياح الثورة التي أخذت تهب في أوساط المناضلين الذين طالما أمنوا بالكفاح المسلح، والذين إما، باتوا فريسة الخيبة ، والاشمئزاز حيال الأزمة التي فاجأت الجميع أو أصبحوا عاجزين عن مقاومة حالة لاشعورية هوجاء أخذتهم وتدعوهم إلى الكفاح، أنشأت تلك الثلة من المناضلين مجموعة الـ21 أو الـ22 التي اجتمعت أخيرا في جوان 1954 في "كلو سالمبيي" (Clos Salembier) بالمدنية بالجزائر العاصمة وتأخذ القرار التاريخي بتفجير الكفاح المسلح. قرار كان على درجة من الأهمية والغرابة جعلت منه في حد ذاته انطلاقة للكفاح المسلح، حتى ولو تم نسيان بل إغفال التحضيرات التي تقتضيها الحرب وما أدراك ما الحرب. انبثقت عن مجموعة "كلو سالمبيي" قيادة من خمسة أعضاء لتتعزز فيما بعد بعضو سادس سيمثل منطقة القبائل. نعلم أنه بعد تحديد أهم تاريخ في حياة الجزائر الحديثة ألا وهو تاريخ الفاتح نوفمبر 1954 التي سجلت اندلاع أول طلقة في الكفاح التحرري، تقاسم الرجال الست المسؤوليات وأصبحوا بالتالي أول قادة مناطق الكفاح التالية :

- الجزائر : بيطاط رابح
- الأوراس :إبن بولعيد مصطفى
- قسنطينة : ديدوش مراد
- القبائل : كريم بلقاسم
- وهران : إبن مهيدي العربي.

أما عن بوضياف محمد فكان عليه أن يتولى الاتـصالات الخارجيـة، مع كل من أيت أحمد وابن بلة وخيضر محمد، الـذين كـانوا بالقـاهرة، والذين شكلوا القيادة الخارجية لجبهة التحرير الوطني التي تم إعداد رمزهـا بمناسبة اجتماع الأعضاء الست الذين جعلوا تاريخ الجزائر متأججا.

بعد أن تولد خلال الأزمة ودفعته تداعياتها السلبية، جاء الكفاح المسلح بدوره ليخدم تلك الأزمة بوضع حد لها، ولم يترك الغلبة لأي من فاعليها.

وقد فاجأ اندلاع ما سيسميه الجميع، خيفة أو عن جهل، أحداث ليلة 31 أكتوبر للفاتح نوفمبر 1954 سـواء سـلطات الاحـتلال الاسـتعماري، أو الأحزاب الوطنية الجزائرية.

في ظل حركة إجماعية ما كان لها إلا أن عكست الجهـل بمـا كـان سيشكل بداية حرب دامت سبع سنوات ونصف السنة، انصبت كل أجهزة، في إطار مسعى جذري، باتجاه الدعوة للهدوء والإدانة الشاملة والمبدئيـة للاستعمار الفرنسي.

الموقف الأمثل إزاء دراية ناقصة، أو كادت تكون منعدمة، بمجريات الأمور وعدم مشاركة أي منهم في تسوية القضية الجزائريـة بالـسلاح، كان يتمثل في "الانتظار لنرى ما سيحدث" أما عن التحرك فقـد اسـتلزم الأمر انتظارا طويلا.

هكذا وكما هو الدأب في المسار المطول للرجال، إن الأزمات هي التي تصنع أكبر الأحداث التاريخية الكبرى. وإنصافا لكل مـسؤولي حركـة انتصار الحريات الديمقراطية علينا أن نعترف أنه من النادر جدًا ، بل من المخالف لطبيعة الإنسان، أن يفجر ، عمدا ومع سابق إصرار، كفاح مسلح لا أحد بإمكانه تقدير مآله بالتحديد، في حين، تلوح معالم عواقبه الوخيمة في مثل هذه الحالات كيقين.

ليس من مثل معروف، ولا حتى عند جيراننا الذين غالبا ما أخذتهم نوبات عنف حاولوا تصويبها وترشيدها، قررت فيه قيادة ليلا وفجأة تفجير وابل من النار، لتغيير الوضع.فحروب التحرير على غرار كل الحروب تعكس في العادة سلسلة مطولة من الأزمات والتوترات بلغت ذروتها.

عندنا لم يكن ممكنا تفجير الحرب لا في ماي 1940 عندما استسلمت فرنسا بعد هزيمتها من طرف ألمانيا ولا في نوفمبر 1942 خلال الإنزال الإنجليزي الأمريكي بالجزائر العاصمة ولا حتى في ماي 1945 إثر مجازر سطيف وقسنطينة. لربما لوجود ميكانزمات خفية، يخضع لها التاريخ ولا يدركها البشر. اقتضى الأمر عندنا أن تحدث أزمة حركة انتصار الحريات الديمقراطية حتى ينتفض الشعب الجزائري برمته، لانتزاع حريته، والفضل في ذلك يعود للشجاعة القصوى لبعض الرجال.وهنا تكمن أهمية الأزمة: فبدونها، ومن يدري كم كان سيدوم عمر الليل الاستعماري في الجزائر؟

اعتنق عبان رمضان
والنفيس في سبيلها، وك
وعملاً. ففي 1942 وفي
بمشوار مهني ليخوض
يكثر من عمل في آن
مضى، وقد زادته سنو
سبب ممارسة السياسة تم
وما من أفق لاح أما
لى عزوزة، مسقط رأس
منه تحديدا حسب صديق
لاحتفال بالحدث. فقد ج
جبهة التحرير الوطني
مستقبل على شرف عبا
لاعذار خلاف ذلك، أولا
صدمة انفعالية عند رؤية
عيوش الطاهر في 20 ج
في سجن بربروس. كان هذا
لقد كانت عودة عبان
لحظة التهاني عندما يعود
و سرح من الجيش أو ك
من السجن.

الدخول في الثورة

اعتنق عبان رمضان الثورة الجزائرية كما يعتنق الدين. ضحى بالنفس والنفيس في سبيلها، وكرس نفسه لها بكثير من الإصرار والصرامة فكراً وعملاً. ففي 1942 وفي 1947 كان قد تخلى عن الدراسة، وضحى بمشوار مهني ليخوض غمار السياسة. فهو لم يكن ممن يتقبل الانشغال بأكثر من عمل في آن واحد؛ وباتت قناعته تتعمق أكثر من أي وقت مضى، وقد زادته سنوات السجن الخمس، الطوال والقاسية التي تكبدها، بسبب ممارسة السياسة تمسكا بتلك القناعة.

وما من أفق لاح أمامه عند خروجه من السجن من أفق الثورة. وصل إلى عزوزة، مسقط رأسه، في منتصف شهر جانفي 1955 في الـ 18 منه تحديدا حسب صديقه دهام لحسن. فهو يذكر أنه كان من المفروض الاحتفال بالحدث. فقد جاء المدعو بعبوش الطاهر، وكان مسؤولا محليا لجبهة التحرير الوطني لزيارته في 15 جانفي 1955 ليعلن له تنظيم حفل استقبال على شرف عبان رمضان عند خروجه من السجن. لكن شاءت الأقدار خلاف ذلك، أولا بسبب إصابة أم عبان رمضان بالشلل إثر صدمة انفعالية عند رؤية ابنها بعد غياب طويل، ثم بعد القبض على بعبوش الطاهر في 20 جانفي 1955 من طرف الجيش الفرنسي والزج به في سجن بربروس. كان هذا الأخير من أوائل الجزائريين الذين أعدموا بالمقصلة.

لقد كانت عودة عبان رمضان لعزوزة ملحوظة.فمن العادة أن تتلقى العائلة التهاني عندما يعود إليها أحد أبنائها سواء عاد من فرنسا كمهاجر أو سرح من الجيش أو كما هي الحال في هذا المقام، عند الخروج من السجن.

لكن العديد من الزوار الذين قصدوا منزل آل عبان هم من نوع خاص. كانوا غرباء عن المنطقة ، وسرعان ما لوحظ ذلك.

أول اتصال لعبان رمضان بالثورة يعود تاريخه إلى يوم 22 أو 23 جانفي 1955 أي بعد أقل من أسبوع من خروجه من السجن. لقد استقبل عبان شخصيين غريبين كلية عن المنطقة، أحدهما عبد الله فاضل، الذي سيكون وزيراً للشباب والرياضة مستقبلا، والآخر عراقي. والحقيقة أن الشخص العراقي، ليس سوى مغربي من منطقة الريف تلقى تكوينا في مدرسة عسكرية عراقية، وقد انضم للواء الأمير عبد الكريم الخطابي الذي منذلم ييأس منذ حربه البعيدة في منطقة الريف، من تحقيق، انطلاقا من القاهرة التي كان مقيما فيها، ثورة الشمال الإفريقي كله ضد فرنسا.

وكان القادة الجزائريون يعرفونه تمام المعرفة. وكان أول المتصلين به عبد الحميد مهري ومحمد بوضياف. أن يكون الرسولان قد حضرا سريعا لمنطقة القبائل لمقابلة عبان رمضان يعكس بشكل جلي الأهمية التي كان يتمتع بها هذا الأخير دون أن نعرف بالتحديد، من الذي كلفهما بهذه المهمة. الحاصل أن اللقاء تم عند دهام لحسن .فضلا عن هذا الأخير والموفودين الاثنين، حضر اللقاء دهام مقران، شقيق دهام لحسن، وسليمان دهيلس الذي اصبح فيما بعد قائداً للولاية الرابعة. وتأكد لنا هذا الحضور من طرف المعني نفسه مما يثبت يقينا أنه أول اتصال سياسي، لعبان رمضان.

لمزيد من السرية، فضل المشاركون في هذا اللقاء، النزول في كوخ دهام لحسن الكائن في منحدر تلة عزوزة. وبعد فترة من الزمن، ظل عبان وزائريه وحيدين في الكوخ. وعن فحوى هذا اللقاء حسب ما نقل لنا، فإنه لم يأت بجديد بالنسبة لعبان رمضان . وقال لصديقة أنه كان على دراية سابقة بكل ما قيل له وأن "معلومات فاضل كانت على ما يبدو، ناقصة".

بعد أسبوع من هذا الاتصال، حضر زائر مرموق هو أوعمران الذي أصبح عقيداً فيما بعد وتأكد . اللقاء الذي حضره سليمان دهيلس، ودهام لحسن في كوخ هذا الأخير دائما تأكد في كتابات عديدة. ها هو إيف كوريار الذي نعرف مدى حصوله على العديد من الأسرار يكتب في مجلة "هيستوريا ماغزين" (Historia magazine) :

"هناك (بعزوزة) وبأمر من بلقاسم كريم، اتصل أوعمران بعبان رمضان وهناك تمكن من إقناعه بالانضمام للثورة، والقبول بتولي مسؤوليات سامية، في منطقة الجزائر العاصمة (الولاية الرابعة)".

وسنرى لاحقا، إذا لم يكن هناك بد من الاحتياط لبعض التصريحات وتصحيح تلك الثقة التي تطبع الأمور المعروضة على أنها حقائق تاريخية.

ونكتفي الآن بالتأكيد أنه تجلى بناء على شهادتين، أن اللقاء كان أكثر توفيقا من سابقه حسب قول عبان رمضان نفسه الذي بقي على انفراد مع زائره ليس داخل الكوخ هذه المرة بل خارجه.

لم يتوقف عبان وطوال شهر فيفري وهو الخاضع للإقامة الجبرية بقرية عزوزة عن استقبال الزوار. لنذكر أيضا أنه كان عليه الانتقال مرّة في الأسبوع الى فرقة الدرك لفور ناسيونال لأداء التزاماته المترتبة عن الإقامة الجبرية المفروضة عليه.ولم يلتحق بالجزائر العاصمة، إلا في أوائل مارس 1954 على متن شاحنة للنقل العمومي. ويبدو على إثر رسالة يكون قد سلمها إليه دهام لحسن بتكليف من دريس عمار من تيزي وزو، وهي التي تكون وراء رحلته المتسرعة. ويذكر حامل الرسالة الجملة المكتوبة على الظرف وهي " المرسل: رابح، نهج مارينغو الجزائر العاصمة".

من المحتمل جداً أن المرسل هو رابح بيطاط نفسه، الذي كان آنذاك ومنذ اندلاع الكفاح، مسؤول منطقة الجزائر. فالمرسل كان حتما شخصا

هاما ويفترض أن فحوى الرسالة كان على نفس القدر من الأهمية إذا أخذنا بما قاله عبان لصديقه فور فتح الرسالة وقراءته لها: "ولو أن هذه الرسالة وقعت بين أيدي الشرطة، فإن المنظمة برمتها ستقع".

في الجزائر العاصمة وجدنا أثرا عبان رمضان لدى مناضل آخر في حزب الشعب الجزائري هو: رباح لخضر الذي يطيب لكل واحد إبراز الدور الفعال الذي لعبه من خلال نسجه على غرار العنكبوت الجادة، الشبكة المعقدة والممتنعة للعلاقات التي أقامها من صار فيما بعد رئيسه وصديقه ومستأجره.هذا الشاهد يترك انطباعا عميقا. فهو يحمل تلك البهجة و ذلك النور اللذين يتسم بهما الرجل الفعال.بكل بشاشة كان يستغرب عدم الإدلاء بالشهادة لتاريخ ثورتنا. لقد عاش مراحل سعيدة وأخرى عصيبة لاسيما في السجن الذي خرج منه متأثرا جدا. ذلك الرجل، كما قال لنا مرارا، لم يكن يعتقد أن له أي حق في الاحتفاظ بما يعرفه.على العكس من ذلك فقد كان يعتبر شهادته واجبا لما عايشه من أحداث هامة وبالنظر للمسؤولين الكبار الذين حاكاهم. وراح يسرد بكثير من العفوية والتحمس، الوقائع وكأنه يعيش مجددا وبعمق تلك الأحداث التي شهدها لدرجة أننا لم نشعر بمرور الوقت ونحن نستمع إليه.

شاهد سنلاقيه في صفحاتنا لأنه كان المرشد الوفي والموثوق لعبان رمضان في اتصالاته العديدة والمتداخلة في الجزائر العاصمة.

فهو الذي حضر لقاء تم بين عبان رمضان وكريم بلقاسم. وقد جرى اللقاء بمبادرة من هذا الأخير في بقالة بنهج بولينياك (Polignac) حاليا شارع المعدومين بالحامة، الحي الذي كان يسمى حينها "العنصر" (le Ruisseau).

استدعي شاهدنا ليقول له قائد منطقة القبائل -التي ستصبح الولاية الثالثة- انه "يتعين عليه من الآن فصاعدا التزام الهدوء".

سبب ذلك التحذير لم يكن لخطأ ارتكبه رباح لخضر، أو لأن الرجل لم يكن صالحا. ليس في الأمر شيئًا من هذا. على العكس من ذلك قلما وجد في حيه من يتسم بصفة الأب المثالي المهتم بتجارته المعتادة. والواقع أن المعني فهم الرسالة. فالمطلوب منه هو الكف ظاهريا عن نشاطاته النضالية. كان ينبغي أن يدرك أهله وسكان الحي، انه لم يعد يمارس السياسة، وأن له كثيراً من المشاغل في محله لبيع الألبان وأجهزة الراديو.وعليه ألا يلفت الانتباه إليه في أي حال من الأحوال كان ينبغي أن ينساه الجميع. وأن ينسى هو بنفسه، أنه قد يستطيع الاضطلاع بمهمة أكثر أهمية بالنسبة إليه و خاصة بالنسبة للبلاد.

كما أن عبارة المنظمة لم تعد تذكر. فرمز جبهة التحرير الوطني بالأحرى ترجمته بالعربية"الجبهة" جاء ليحجب الإشارة لحزب الشعب الجزائري ولحركة انتصار الحريات الديمقراطية. احتار رباح لخضر، وظل يتساءل طول النهار عن تلك المهمة، لأنه لم يكن يعرف أي شيء. قيل له أنه سيقابل شخصا مهما، لكنه لم يكن يعرف متى ولا كيف. وخاصة، لماذا؟ كل ما قيل له عليه واجب خدمة الزائر. ولكن سرعان ما تبددت حيرته لأن في اليوم ذاته، زاره المناضل المدعو أرزقي "الجبل" في بيته بنهج هيلين بوشي بالعناصر مرفوقا بالشخص الذي كان قد قابله من قبل، رفقة قائد منطقة القبائل السري.

الشخص المذكور هو عبان رمضان وكان يمكن تخمين الأمر. فلقد استقر في الطابق السابع من العمارة "ب" في حي هيلين بوشي في الشارع الذي يحمل نفس الاسم في قلب العناصر. الاختيار كان صائبا.حي جديد، يضم عدة عمارات، وقد يتيه حتى الساكن المعتاد أحيانا في دهاليزها العديدة والطويلة.ثمة فائدة على درجة من الأهمية لذلك الاختيار في تلك الفترة وهي أن أغلبية سكان الحي كانوا من الأوروبيين وقليل

من الجزائريين فقط كانوا يقطنون به، مما جعله يسلم نسبيا من مداهمات البوليس وتفتيش الجيش الذي أخذت دورياته الليلية المباغتة تتزايد باستمرار.

أمام مستأجره المرموق ما كان لرباح الخضر سوى التزام الصمت. كيف كان سينظم العيش مع رجل لا يعرفه، ناهيك عن كونه شخصا معتبرا أنزل لديه ليس في فيلا، يكون التنقل والعيش بها ميسورًا، وإنما في شقة لا تكاد تتعدى مساحتها عشرة أمتار مربعة ومع أسرته!

نحن هنا أمام مثل حي، عن مستوى الاخوة والتضامن الذي كان يجمع آنذاك بين مناضلي الحزب. وما قد عززت الحرب ذلك الشعور الذي كان قويا في عهد حزب الشعب الجزائري وحركة انتصار الحريات الديمقراطية. وما من شك أن، التعاطف الذي نشأ غريزيا بين المؤجر والمستأجر له دور كذلك.

لقد كان هذا الأخير على درجة من البساطة، تلين حيالها التحفظات الشديدة حيث أن هيئته العامة، كانت تثير العطف بل وحتى الشفقة لدى أشد الرجال قسوة. سترة القطيفة والسروال الذين كان يرتديهما عبان رمضان يومها، كان سيظل بهما لفترة طويلة ماعدا الأوقات النادرة التي كان يستبدلهما بالجلابة لغرض التنظيف.

كان هذا المستأجر المرموق يرتدي في بعض الأحيان قبعة، لكن ما يحتفظ به المؤجر لمستأجره عند مجيئه للإقامة لديه، ولمدة طويلة من الزمن، هو بساطته (تواضعه) .عيبه الوحيد إن صح التعبير، هو أنه كان كثير التدخين. وهو يتذكر أن سجائر مستأجره كانت من نوع "باستوس" أي من أقوى أنواع التبغ الأسود وذلك على الرغم من قرحة في المعدة أصيب بها في السجن.وكانت بساطته في المأكل بقدر بساطة هندامه. فقد كان يستطيع الاكتفاء بالرغيف والماء وذلك ما كان يميزه حسب الشاهد عن العديد من المناضلين الآخرين الذين غالبا ما كانوا

يخالون أنفسهم قادة، وكانوا ينتظرون أن تتم خدمتهم بهذه الصفة. فإذا كانت هذه الشريحة من القادة الذين يعرفهم شاهدنا "كانوا ميالين إلى النظر إلى المناضلين الآخرين، نظرة متعالية" فإن تصرف عبان رمضان كان مخالفا تماما حيث كان لطيفا ودودًا وعطوفا تجاه أولئك الذين كانوا يضطلعون بمسؤوليات محدودة.

هكذا وبعد أن استقر في أواخر شهر فيفري أو في مطلع شهر مارس في الطابق السابع لعمارة كانت بالنسبة للجزائري بمثابة ناطحة سحاب وقبالة الملعب البلدي الهام الذي أصبح فيما بعد ملعب 20 أوت ، ما الذي كان سيفعله عبان رمضان الذي بات حرًا طليقا وبالخصوص، منخرطا في ثورة لم يكن أحد يعرف معناها بالضبط، وما الذي تمثله، وأكثر من ذلك ما الذي كانت ستحققه؟

الشيء الوحيد المعروف عن تلك الثورة، هو أنها تريد القضاء على نظام استعماري مفروض ومعزز منذ أزيد من قرن من طرف إحدى أكبر القوى القديمة ساعدها في ذلك، شبكة هائلة من التحالفات تمكنت من التغلب على تلك القوة المرعبة التي كانت تمثلها ألمانيا النازية.

لم يكن عبان رمضان كما عرف عنه، وكما أثبت ذلك من غياهب السجن بالرجل الذي يلتزم سطحيا.فقد كان ينبذ اللبس، وما كان له أن يلتزم إلا في ظل الوضوح مع تحديد هدفه قبل الشروع في العمل الفعلي.

تقدمه الكتابات والشهادات، تارة كمستشار سياسي لمنطقة القبائل، وتارة كمساعد لمسؤول منطقة الجزائر العاصمة، وتارة أخرى كمجرد محرر منشورات في خدمة الغير.كل هذه التصريحات وأمام تعذر التحقق منها وإثباتها بالحاجة إلى تأويلها. ذلكم أن لا شيء يبدو لنا ابعد من طبيعة عبان رمضان وطبعه وتجربته من أن يوضع في موضع الخاضع للغير ولو كانوا رؤساءه وحتى لو كانوا المؤسسين الأوائل للكفاح المسلح.

أمن الممكن القول بأن أحدهم، دفعه للانضمام للثـورة، وهـو الـذي لم يعش إلا للثورة ومن أجلها وأنه حتى في سجنه وعزلته لـم يتوقـف عن النضال والحصول على وضع السجين السياسي الذي انتزعـه بقـوة إرادته وإصراره وإضرابه المتواصل؟.الواقع أنه، طوال الأيام التي تلـت إطلاق سراحه، كان يسعى بوجه خاص لاستكمال معلوماتـه والتفكيـر في أي مقام كان سينفع وأين وكيف كان سيواصل النضال؟ ولا ننسى أنه تقلد عدة مسؤوليات في إطار جهاز حركة انتصار الحريات الديمقراطيـة أولا كقائد ولاية ، كعضو أو لا في المنظمة الخاصة، ثم بـصفة عـضو في اللجنة المركزية وأخيرا كسجين سياسي ، لأنه كان حـسب الـشرطة الفرنسية التي لا يمكن التشكيك في ذكائها، أحد القادة الوطنيين للحركـة الوطنية. وقليلون هم المناضلون الذين أمكنهم التباهي بمثل ذلك المسار.

معنى ذلك أنه ليس من أولئك الرجال الذين يتخلفون عن الركب وأكثر من ذلك لم يكن ممن ينتظرون أن يساقوا إلى القتـال. لقـد فعـل ذلـك بشروطه. لا شك أنه يمكن الاعتماد عليه وإن الاستغناء عنه غير ممكن. والدليل على ذلك هو أن العديد من المرسلين انتقلوا عنده مـن تلقـاء أنفسهم. هل كان من المعتاد اللجوء إلى خدمات أشخاص تافهين ؟.

صحيح أنه لم يتسن له الحضور حين قـررت ثلـه مـن الـوطنيين ممن سئموا الانشقاقات بين الإخوة، شن الكفاح الصائب الوحيد، الكفـاح المسلح. ولكن عوض إضعافه، فإن بعده القسري قـد نفعـه. وبـالنظر للخصومات والإجراءات الاقصائية كان يعـد رجـلاً جديـدا ونظيفـا. لم يشارك في أي من "العمليات التطهيرية" وهو موقف حسب لـصالحه. وربما أصبح، كما سنرى ، آخر حظ بالنسبة للثورة.

رغم أنه لم يكن من الأعضاء المؤسسين للثورة ، كان يدرك أن الأمور لم تسو نهائيا وأن الكفاح في الميدان هـو الـذي سـيقوم، بأيـة حـال

من الأحوال، بانتقاء شرس. فبلوغ مستوى القائد والمسير لا يتسنى إلا بفضل تقلد الرتب في الميدان وليس عن طريق المساومة ولا الاتفاق. ولما أدرك ذلك ومارسه مدة من الزمن فقد، شرع في الكفاح. ولم يكن يعير أية أهمية للرتبة التي سينطلق منها.

كل ما كان يعرفه هو أن الجزائر العاصمة، ستتيح له الفرصة الوحيدة ليس لإبراز مؤهلاته فحسب، وإنما ليلعب لأول مرة دورا جوهريا (يناسبه). فالجزائر لم تكن مجرد مدينة أو عاصمة للبلد. لقد كانت أكثر من ذلك صورة مصغرة عن للمجتمع الجزائري برمته. كل منطقة من البلد لها أبناؤها الذين تقيم معهم علاقات وثيقة ومستمرة. ويا لها من سانحة أتيحت لذلك الرجل : لم يعد أمام الجزائر العاصمة فقط، بل كان، عبر العاصمة، حيال الجزائر برمتها.

سيستمد عبان رمضان قوته ومكانته من كل هذا ومن العمل الجبار الذي كان عليه إنجازه. ومن الوارد جدا بل من البديهي أن يكون قد اضطر، بسبب وصوله المتأخر، للتعامل مع القوى الحاضرة.وإذا كان من الممارسات العامة الخوض في نظام التبني من أجل تفسير أفضل لوضع ما أو فرض صورة رجل ما فإن تلك الممارسة لم يكن لها بد مع عبان رمضان. فماضيه يفسر مجيئه ومكانته كما أن البعد المتميز الذي يتمتع به الرجل يبررهما.إن إقامته بالجزائر العاصمة لم تكن نتاج صدفة وإنما تعد استجابة لضرورة ملحة. والدعوات المتكررة التي وجهت إليه عند خروجه من السجن استجابة بشكل لا سابق له لذلك الحس الوطني الذي ما فتئ يحدوه.

ذلك التضافر النادر بين حاجة الغير وحاجته الشخصية هو الذي دفعه لمحاربة النظام الاستعماري.

وليس من أمر قد يشجع على تحريف معطيات المسألة أو خلق أسطورة في محاولة من كتبوا عن التزامه بالثورة أن اعتبروا في ذلك منذ البداية عامل فرقة سيعكر وئاما كان ظاهريا أو نسبوا له صفة المستبد. فعبان رمضان دخل الثورة بتلك المشاعر الطاهرة التي نعرفها عنه والتي كان يكنها لرفاق السلاح، وكذلك بتلك الإرادة الفولاذية في مقاومة النظام الاستعماري. كان هدفه الوحيد هو المشاركة بنصيبه الذي يؤول إليه في كفاح الشعب الجزائري من أجل أن يحيا ويبعث من جديد .

ولم يسع أبدا لاحتلال موقع أو مكانة أو شرف وأقل من ذلك، لم يعمل على افتعال خصومات مع ذويه. فحسه النبيل كان يرى في كل محاولة لحصر الثورة في مجرد خصومة بين الأشخاص، مذلة كبيرة.

كانت فرنسا قوية، وجزائريو تلك الحقبة أشد ضعفا من أن يسمحوا لأنفسهم بانشقاق آخر. ولم يكن هناك من شيء آخر يهمه سوى استجماع ما أمكن من قوة، لمهاجمة القلعة الاستعمارية. وليس أمامنا من مثل تجمع فيه هذا القدر من الخصال من الشجاعة والذكاء والتفاني، في رجل واحد.

وانطلاقا من ذلك الفكر المنطقي المعروف عنده، شرع أولا بكل صرامة، ودون أية مجاملة في تشخيص الوضع. وهكذا وظف الذكاء لصالح العمل.

الوضع من منظور جزائري

1.عن الجانب الجزائري: القوات النابذة

عندما وصل عبان رمضان إلى الجزائر العاصمة في شهر مارس 1955 وانخرط في صفوف الثورة، لم يكن عمرها يتجاوز الأربعة أشهر. وهي فترة قصيرة جدًّا، لكنها كانت كافية لمن يتميز بقوة الملاحظة وصواب الرأي لكي يلم بكل جوانبها، ويُقييم ما أنجز، ويُحدد مواطن الضعف، والنقائص ويُسطر المراحل المقبلة بالنسبة للفرد، وهو ما يتعذر تحقيقه لتجميع آنذاك. فالسياق العام للثورة لم يكن في ذلك الوقت حافلا بالايجابيات.

إن الصدمة النفسية الناتجة عن الأعمال التي تم القيام بها ليلة 31 أكتوبر إلى الفاتح نوفمبر تمثل أحد أهم العناصر الإيجابية إذ كانت ذات بعد كبير وأحدثت أثرًا عميقا بقي استغلال كل الإمكانيات التي أتاحها. تلك الصدمة الأولى دحضت اعتقاد الذي كان يسيطر على العقول بقوة القضاء والقدر وهو أن الشعب الجزائري لقي عقابه على ذنب غير معروف لأن الكفاح المسلح ضد فرنسا الذي كان معلنا لم يفجر بعد حينها. فالتطير كان يسيطر على الأذهان بشكل غريب حينها حتى أن الغالبية ذهبت إلى الاعتقاد بأن الزلزال الذي ضرب أورليون فيل (الأصنام ثم الشلف) سنة 1954 كان عقابا من الله على ذنوب السكان الجزائريين. لن يفيد شيئا إن قلنا أننا لا نعلم باسم ماذا صدر مثل ذلك الحكم لكن من غير المنطقي أن نبقي على الغموض والإبهام. كل هذا لتوضيح الأثر النفسي لصدمة نوفمبر 1954 النفسية في القضاء على المعتقدات والجمود وتحرير قوات لا يستهان بها، ولم يبق سوى تحديدها والتكفل بها. كان ذلك الجانب الإيجابي

الذي ألقى بظله على كل الجوانب الأخرى بما فيها حروب العصابات التي كانت تسجل هنا وهناك لا سيما بمنطقتي الأوراس والقبائل.

لكن ما يهم بالنسبة لرجل تمرس في النضال وشغل منصبا قياديا هو الإلمام بمواطن الضعف بغية تداركها. والوضع هنا لم يكن يبعث على التفاؤل سواء تعلق الأمر ببعد الجبال وعزلتها أو بإشكالية دعم السكان أو بتشكيك ومخاوف بل وحتى معارضة بعض الأحزاب التقليدية، والمعارضة المأساوية التي تألق بها التيار المصالي أو في الأخير برد الفعل الاستعماري ونشر القوات الفرنسية. لقد كان الوضع يبعث فعلا على الانشغال. والمهمة كانت "جبارة" كما كان يطيب لعبان رمضان نفسه وصفها. لذا يتعين تحليل كل نقطة على حدة لتقييم الوضع السائد مع حلول شهر مارس 1955.

تراجع وانعزال المقاومين

ثمة أحداث في حياة الشعوب يصعب تفسيرها. حتى العقل والمنطق يغضان الطرف عنها. كيف تفسر اندلاع الثورة في الوقت الذي كان يعيش فيه الشعب الجزائري، وضعا معقدا، لم يسبق له مثيل في تاريخ البشرية كانت فرنسا قد انتهت من إعادة هيكلة قوتها العسكرية وبناء اقتصادها ولم تؤثر في قواتها الحيوية،لا الحرب في الفيتنام ولا الاضطرابات التي كانت تسجل بين الفينة والأخرى بالمغرب وتونس. وعن الجانب الجزائري، فإن الحزب الذي حمل طوال 30 سنة من الزمن، آمال الشعب وتطلعاته نحو الاستقلال قد حكم على نفسه بالموت بفعل خلافات عقيمة وتنافس بين أشخاص.

قلما بدا مستقبل البلاد بتلك الصورة القاتمة، والأفق المسدود مثلما كان آنذاك. لا نعلم إن كان الأمر يتعلق بحظ، أو بتهور، أو بجرأة مفرطة

فقد كان لثورة الفاتح نوفمبر أن خلطت الأوراق، وقلبت الموازين. ومع هذا فحينما نتذكر مدى تعقد الوضع آنذاك، وكيف تم الإعداد، والتحضير لاندلاع الثورة في أقل من أربعة أشهر، لا يسعنا إلا أن نتساءل إن لم يكن فشل القضاء عليها في المهد قبيل تفجيرها يشكل معجزة في حد ذاته.

لم يكن ثمة ما يحفز على تلك الوثيقة سوى إرادة وإيمان قد يسميه البعض تهورا قلة من الشباب المناضل. وخير دليل على ذلك الجواب الشافي الذي قدمه الشاب المغوار ديدوش مراد لبعض إخوانه الذين تساءلوا "بماذا سنخوض هذه الحرب" خلال اللقاء المصيري لمجموعة الـــ22 يوم 25 جويلية 1954 حين قال "خرطوشتان في بندقية تقضيان الحاجة" وإن لم تكن لدينا البندقية سنأخذها من العدو".

قد أصاب ديدوش مراد الذي كان يجيد الحكم على الأشخاص والأوضاع في غضون خمس دقائق كما يقول عنه العقيد إبن عودة الذي حضر اللقاء، حين قال: "إن فرصنا في النجاة ضئيلة جداً، لكن هناك من سيحمل المشعل بعدنا. يجب أن نعمل على تفجير الثورة وليعلم الجميع، أن بلدنا لا يغط في النوم! لا تعلقوا آمالا كبيرة على الأعمال الأولى التي سنقوم بها ضد الاستعمار، واعلموا أن بعدها البسيكولوجي سيكون بالغ الأهمية. يجب أن يقول الفرنسيون في قرارة أنفسهم لقد تجرؤوا" وهذا هو المهم! يجب إشعال الفتيل ولن نكون في حاجة إلى عدد كبير من الأسلحة. يجب أن نتسلح بالإرادة في ذلك **(1)**".

هكذا تنبأ ديدوش مراد الذي كان أول قائد منطقة (الشمال القسنطيني) دفع حياته في جانفي 1955 ثمنا ليعيش شعبه. نعم، لقد كان محقا: الجرأة هي أهم شيء! وهنا نستحضر كلمة تشرتشل المشهورة حين أراد أن يمجد معركة انجلترا العويصة التي خاضها عناصر قوات الطيران

الملكية حين فقال " لم يحدث في تاريخ البشرية أن أصبح عدد هائل من البشر، مدينا بهذا الشكل لفئة قليلة بهذا الشكل ".

لا يجب أن ننسى أنه في البداية، لم يكن أي عضو من مجموعة الـ22، ربما باستثناء بوضياف، يتميز بثقل على الصعيد الوطني. كان كل واحد منهم معروف بكونه من أفضل رجال منطقته أو لنقل أفضلهم لكن صيتهم لم يتعد حدود مناطقهم. وتلك كانت حال الرجال الست الذين أشعلوا الفتيل.

أما المقاتلون الأوائل الذين أبدوا استعدادًا لخوض المعركة، فلم يكد عددهم يتعدى الألف، وكانوا موزعين حسب محضر مؤتمر الصومام، على النحو التالي:

المنطقة الأولى (الأوراس) : 350 إلى 370 (2)

المنطقة الثانية (الشمال القسنطيني) : 100 (3)

المنطقة الثالثة (منطقة القبائل) : 450

المنطقة الرابعة (الجزائر العاصمة) : 50

المنطقة الخامسة (وهران) : 60

أما أسلحة الحرب أو الصيد، فقد كان عددها قليلاً جدا. ويظهر الجدول التالي حسب محضر مؤتمر الصومام، المعطيات بعد اندلاع ثورة الفاتح من نوفمبر 1954 أي في فترة انعقاد المؤتمر في شهر أوت 1956.

ولنقدم بعض المؤشرات التي، تظهر بعد سنتين من اندلاع الثورة، قلة الوسائل المتوفرة (4).

المنطقة	**العدد**			**الأسلحة**			
	المجاهدين	المسبلين	المناضلين	الجماعية	الفردية	الصيد	مالية
II (الشمال القسنطيني)	1 669	5 000	/	13	325	3 750	203 500 000 فرنك/ف
III (منطقة القبائل)	3 100	7 470	87 044	16	510	4 425	445 000 000 فرنك/ف
IV (الجزائر العاصمة)	1 000	2 000	40 000	5	280	1 500	200 000 000 فرنك/ف
V (وهران)	1 500	1 000	/	/	/	/	35 000 000 فرنك/ف
VI (الجنوب)	200	100	5 000	1	110	100	10 000 000 فرنك/ف

أيا كانت الزاوية التي نتأمل فيها ظروف اندلاع ثورة الفاتح نـوفمبر فإننا حالة ذهول قصوى، تشدنا، حيال ما ميز تنظيم هذه الثورة من قلـة الوسائل وانعدام النفوذ وتأثير صانعيها، وتسرع بل، وارتجال . إن الذين أشعلوا الفتيل كانوا بالرغم من كل شيء دون أدنى شك، يتوخون تحقيق نتيجتين من شأنهما تعويض المخاطر والخسائر التي لم يكن هناك مناص من حدوثها.

ومما لا شك فيه أنه تم بلوغ هدفين رئيسيين من بين كل الأهداف المتوخاة. كان لا بد من ترسيخ الروح الوطنية لدى الجزائريين بشكل أكبر، وبعث أمل الاستقلال في نفوسهم، من خلال فتح آفاق ثورة شعبية عاجلة. لم يكن هناك حل آخر في نظر من عايش، أو يتذكر كل تلك المحاولات الفاشـلة لمحاربة النظام الاستعماري، وتحرير البلاد، ولم يكن أحد من بين الرجال الـ 22 يملك الشجاعة، والقوة، والإرادة، ولا حتى الرغبة، في خـوض غمار الكفاح التقليدي مرة أخرى.

كان هناك خيار واحد: الحرب أو لا شيء آخر. فهي الوسيلة الوحيـدة الكفيلة بالحيلولة دون سلب هوية الشعب الجزائري وفصلها عـن هويـة الشعب الفرنسي.

إن الظروف التي كانت سائدة آنذاك في فرنسا و الجزائر على غـرار تلك التي ميزت اندلاع الثورة توضح جانبا كبيرا مـن نتـائج العمليـات التي تم القيام بها ليلة الأحد 31 أكتوبر إلى الاثنين 1 نوفمبر 1954.

ولنذكر مرة أخرى بأن الهدف لم يكن يتمثل في القـضاء علـى قـوة عظمى ولا في إلحاق خسائر معتبرة بها في ليلة واحدة بل فـي تـسليط الضوء على درب النجاة وإشراك كل القوى الحيوية في البلاد. وعلى هذا الصعيد كان النجاح كاملا غير منقوص. لقد انتاب الـشعب الجزائـري شعور عميق بأن شيئا ما قد تغير. لا يهم مع من، متى وكيف تـم هـذا التغيير: ما بقي راسخا في الأذهان هو أن فرنسا ونظامها الاسـتعماري

الملكية حين فقال " لم يحدث في تاريخ البشرية أن أصبح عدد هائل من البشر، مدينا بهذا الشكل لفئة قليلة بهذا الشكل ".

لا يجب أن ننسى أنه في البداية، لم يكن أي عضو من مجموعة الـ22، ربما باستثناء بوضياف، يتميز بثقل على الصعيد الوطني. كان كل واحد منهم معروف بكونه من أفضل رجال منطقته أو لنقل أفضلهم لكن صيتهم لم يتعد حدود مناطقهم. وتلك كانت حال الرجال الست الذين أشعلوا الفتيل.

أما المقاتلون الأوائل الذين أبدوا استعدادًا لخوض المعركة، فلم يكد عددهم يتعدى الألف، وكانوا موزعين حسب محضر مؤتمر الصومام، على النحو التالي:

المنطقة الأولى (الأوراس) : 350 إلى 370 (2)
المنطقة الثانية (الشمال القسنطيني) : 100 (3)
المنطقة الثالثة (منطقة القبائل) : 450
المنطقة الرابعة (الجزائر العاصمة) : 50
المنطقة الخامسة (وهران) : 60

أما أسلحة الحرب أو الصيد، فقد كان عددها قليلاً جدا. ويظهر الجدول التالي حسب محضر مؤتمر الصومام، المعطيات بعد اندلاع ثورة الفاتح من نوفمبر 1954 أي في فترة انعقاد المؤتمر في شهر أوت 1956.

ولنقدم بعض المؤشرات التي، تظهر بعد سنتين من اندلاع الثورة، قلة الوسائل المتوفرة (4).

المنطقة	العدد			الأسلحة			
	لمجاهدين	لمسبلين	لمنضلين	الجماعية	الفردية	الصيد	مالية
II (الشمال القسنطيني)	1 669	5 000	/	13	325	3 750	203 500 000 فرنك/ف
III(منطقة القبائل)	3 100	7 470	87 044	16	510	. 4 425	445 000 000 فرنك/ف
IV(الجزائر العاصمة)	1 000	2 000	40 000	5	280	1 500	200 000 000 فرنك/ف
V (وهران)	1 500	1 000	/	/	/	/	35 000 000 فرنك/ف
VI (الجنوب)	200	100	5 000	1	110	100	10 000 000 فرنك/ف

أيا كانت الزاوية التي نتأمل فيها ظروف اندلاع ثورة الفاتح نوفمبر فإننا حالة ذهول قصوى، تشدنا، حيال ما ميز تنظيم هذه الثورة من قلة الوسائل وانعدام النفوذ وتأثير صانعيها، وتسرع بل، وارتجال . إن الذين أشعلوا الفتيل كانوا بالرغم من كل شيء دون أدنى شك، يتوخون تحقيق نتيجتين من شأنهما تعويض المخاطر والخسائر التي لم يكن هناك مناص من حدوثها.

ومما لا شك فيه أنه تم بلوغ هدفين رئيسيين من بين كل الأهداف المتوخاة. كان لا بد من ترسيخ الروح الوطنية لدى الجزائريين بشكل أكبر، وبعث أمل الاستقلال في نفوسهم، من خلال فتح آفاق ثورة شعبية عاجلة. لم يكن هناك حل آخر في نظر من عايش، أو يتذكر كل تلك المحاولات الفاشلة لمحاربة النظام الاستعماري، وتحرير البلاد، ولم يكن أحد من بين الرجال الـ 22 يملك الشجاعة، والقوة، والإرادة، ولا حتى الرغبة، في خوض غمار الكفاح التقليدي مرة أخرى.

كان هناك خيار واحد: الحرب أو لا شيء آخر. فهي الوسيلة الوحيدة الكفيلة بالحيلولة دون سلب هوية الشعب الجزائري وفصلها عن هوية الشعب الفرنسي.

إن الظروف التي كانت سائدة آنذاك في فرنسا و الجزائر على غرار تلك التي ميزت اندلاع الثورة توضح جانبا كبيرا من نتائج العمليات التي تم القيام بها ليلة الأحد 31 أكتوبر إلى الاثنين 1 نوفمبر 1954.

ولنذكر مرة أخرى بأن الهدف لم يكن يتمثل في القضاء على قوة عظمى ولا في إلحاق خسائر معتبرة بها في ليلة واحدة بل في تسليط الضوء على درب النجاة وإشراك كل القوى الحيوية في البلاد. وعلى هذا الصعيد كان النجاح كاملا غير منقوص. لقد انتاب الشعب الجزائري شعور عميق بأن شيئا ما قد تغير. لا يهم مع من، متى وكيف تم هذا التغيير: ما بقي راسخا في الأذهان هو أن فرنسا ونظامها الاستعماري

شكلا هدفا مباشرا لمناضلين جزائريين كانت شجاعتهم وحدها كفيلة بأن تبعث في النفوس كل الاحترام و الإعجاب.

وعن الجانب الفرنسي، ساد شعور عام بالدهشة والذهول بعد معرفة الأخبار. وأدت خطورة الأوضاع بالحاكم العام روجي ليونار(Leonard Roger) إلى قضاء ليلة الفاتح نوفمبر دون أن يغمض له جفن في حين تم فورا إبلاغ رئيس المجلس الفرنسي بيير مانديس فرانس (Pierre Mendès France) ووزير الداخلية فرانسوا ميتيران (François Mitterand) الذي تولى لاحقا منصب رئيس الجمهورية الخامسة. و بطبيعة الحال، لم يقلقوا للهجمات الثلاثين بقدر قلقهم لحدوثها في نفس التوقيت تقريبا حوالي الساعة الواحدة صباحا في شمال الوطن على طول 1200 كم وبين 200 إلى 300 كم عمقاً.

يا لها من صدمة أيقظت نظاما ما فتئ يروج لاستقراره وهدوئه، بل وغطرسته على صفحات الجرائد! يكفي تصفح الجرائد الصادرة عشية الفاتح نوفمبر على غرار كيومية «Echo d'Alger» لإدراك مدى ثقة المستعمر بنفسه، وتجاهله عمدا لما يدور حوله من ظروف مأساوية خيّمت على غالبية حياة الشعب الجزائري إن لم نقل جله. ونتساءل إن كانت هذه الجريدة تصدر فعلا في الجزائر. فباستثناء الصفحة الرياضية الثرية التي أعلنت في ذلك الأحد 31 أكتوبر عن انفصال فريق بوفاريك لكرة القدم والتحاق النجم الأحمر (Red Star) لغيوفيل (عين البنيان) بالغالية في المرتبة الثانية يخيل للقارئ أنه يتصفح جريدة صدرت في دولة أوروبية لنشرها أخبار الغرب فقط!

لقد كان هؤلاء الرجال الذين سطروا أبرز، صفحات البطولة في تاريخ البلاد ينتظرون ببالغ الاهتمام رد فعل الأوساط الأوروبية. لكن حين نتحمل مسؤولية بهذا الحجم إزاء التاريخ وإزاء ضمائرنا، لا يهمنا شيء سوى العواقب وتسلسل الأحداث. وهنا رمت انعكاسات التسرع

والارتجال، الذي فرضته الظروف السائدة آنذاك، بكل ثقلها. فقد كان ثمن تلك العجلة باهظا. لم يكن الأمر يتعلق بالنتائج الضئيلة فذاك شيء يمكن تداركه، لكن وبعد الخطوات الأولى وجد العديد من الرجال أنفسهم أمام موقف عصيب، لم يعلموا ما بقي عليهم فعله ولا مع من أو حتى أين عليهم أن يتوجهوا بعد ذلك. وحلت مرحلة الانطواء على الذات،لا سيما بالنسبة لمسئولي الجزائر العاصمة.

كان رد فعل فرنسا كما سنرى، لاحقا سريعا و فعّالا. ففي أيام قليلة فقط تم تفكيك العديد من جماعات "الكومندوس" و توقيف أفرادها.

شهد يوم الخميس 4 نوفمبر، 130 عملية توقيف على مستوى التراب الجزائري حسب ما نقلته جريدة «l'Echo d'Alger ». و بعد يومين أعلنت نفس الجريدة عن 175 عملية توقيف والقضاء على 10 "إرهابيين" بالمقاطعات الثلاثة من بينهم بن عبد المالك رمضان أحد أعضاء مجموعة الـ22 ومسؤول هام بمنطقة وهران الذي قتل حسب نفس المصدر بغابة "لاباسيت" بالقرب من وهران. كما تم إلقاء القبض على فرق الصاعقة التي هاجمت مصنع الغاز بالحامة وراديو الجزائر (قاسي عبد الله وقاسي مختار وقاسمي عبد القادر وسقاط عبد القادر، وسقاط ابراهيم، ومرزوقي محمد.....) وكذا قائدهم الزبير بوعجاج، حسبما تناقلته صحف يومي 17 و18 نوفمبر. المؤلف الذي بين أيدينا لا يكفي لاستحضار كل المآسي والآلام التي تكبدها أولئك الرجال الذين جاهدوا بالنفس والنفيس في وقت كانت الحرب فيه غير واردة بالنسبة للجميع .

أما رابح بيطاط مسؤول منطقة الجزائر العاصمة فقد انتابه، حسب بعض الشهادات المكتوبة، شعور عميق بالخذلان غداة الفاتح نوفمبر.

ولنستمع إلى شهادة الرجل الذي استقى تلك الشهادة بعد فترة، وهو ياسف سعدي الذي كان مجهولا آنذاك ليصبح بعد سنوات قليلة أحد صانعي معركة الجزائر.الذي قال عنه بيطاط:

"من خلال عنفوان لا مثيل له كان يبعث على الاعتقاد بأنه لا يبحث سوى عن هدف واحد: التخلص من حمل أثقل كاهله. لقد أثرت فيه مدة المواجهة كثيرا. كان يحاول عبثا من خلال أفعاله وأقواله إخفاء ملل من السهل تأويله كمؤشر على فتور الهمة...(5)".

وبعد مرور أيام قليلة من ليلة الفاتح نوفمبر، لم يبق في ميدان الكفاح سوى عناصر الناحيتين **الأولى** والثالثة، (الأوراس ومنطقة القبائل) بالنظر إلى بنيتهما الجغرافية التي ساعدت على تموقع المجاهدين وبقائهم في الجبال. ومع ذلك يجب من باب الصدق الاعتراف بأن هتين المنطقتين كانتا أحسن تحضيرا للكفاح. لم يكن للوسائل التي وفرتها هاتين المنطقتين مثيلا في أي منطقة أخرى، غير أنها شهدت مشاكل خطيرة تسبب فيها اختلاف الإستراتيجيتين اللتين تبنتهما كل واحدة على حدة. ومع ضرورة التخطيط اعتمد المئات من الرجال بقيادة الرجل الفذ مصطفى بن بولعيد تقنية المواجهة في الكفاح، في حين تبنى أولئك الذين قادهم كريم بلقاسم الذكي و المراوغ طريقة الهجوم الجانبي.

وهكذا تحولت جبال الأوراس إلى عصب الكفاح المسلح، وطوال الأيام التي تلت الفاتح نوفمبر بل والمكان الوحيد على رأي الجرائد آنذاك، الذي يمكن بالفعل التحدث فيه عن الحرب. وصارت الصحف تتحدث عن عمليات هجوم متعددة.

لنستطلع معا بعض العناوين لإبراز كثافة المعارك، والتعريف بشكل أحسن بالوضع السائد آنذاك:

الخميس 4 نوفمبر: " قوات الطيران تدعم اليوم عمليات العسكر بأريس التي تعتبر المركز الرئيسي لمكافحة الإرهابيين".

الجمعة 5 نوفمبر: "في الوقت الذي يبقى فيه الوضع هادئا بالجزائر العاصمة ووهران، يواصل العساكر عملياتهم الصعبة بمنطقة الأوراس بدعم من قوات الطيران".

الجمعة 19 نوفمبر: "بالإضافة إلى المراقبة المشددة على السواحل والأجواء الجزائرية والحدود مع تونس تم منذ أمس فرض حصار على منطقة الأوراس".

الخميس 16 ديسمبر: "مشادات عنيفة جدا بين المظليين والخارجين عن القانون في غابة بني يملول (الأوراس) أسفرت عن قتل 10 متمردين و5 من المظليين".

الخميس 3 جانفي 1955: "تراجع التمرد في منطقة الأوراس لكن العمليات لم تنته بعد".

السبت 19 فيفري 1955: "سقوط 8 مظليين في كمين بجبل شرشار (الأوراس)".

بعد قراءة هذه الأسطر القليلة من بين كل ما ورد في الصحافة، ولا يمكن ذكر كل شيء لكثرته، يتبين جليا أن ما كان يتوخاه مسؤولو جيش التحرير الوطني، في البداية على الأقل، كان يمكن على مستوى منطقة الأوراس، في عزل المنطقة عن باقي أنحاء البلاد. تم عزل بعض المناطق كأريس، وفم الطوب، منذ العمليات الأولى، مما دفع بقيادة القوات الفرنسية إلى الرد بقوة وتوجيه قواتها نحو الأوراس و"تسخير كل الوسائل" من خلال اللجوء إلى المدرعات وقوات الطيران حتى وإن فندت الحكومة العامة فيما بعد التفجيرات التي تحدثت عنها الصحف الفرنسية في العديد من المرات.

وفي منطقة القبائل اكتست الإستراتيجية التي تبناهـا كـريم بلقاسـم ومساعديه بعدا آخرًا. كانت العمليات التي تم القيام بها بعد فترة "تـلاش" عمدي موجهة أساسا نحو أهداف منعزلة، اقتصادية أو غيرهـا كتـصفية عملاء فرنسا بغية كسب ثقة السكان، و تفادي المواجهة المباشرة والدامية مع القـوات الفرنسية.

قد نبدو مفرطين في تبسيط الأمور، وهو ما لا يمكن تفاديه في إطـار الموضوع الذي نحن بصدد توضيحه، لكـن لا منـاص مـن الإشـارة إلى أن تصميم الكفاح في منطقة القبائل و الأوراس يتطابق فـي العديـد من النقاط مع الثورة الشعبية التي خلدها و قننها ماوتسي تونغ الذي قـال في مؤلفه الشهير "الكتاب الأحمر" الذي ذاع صيته في الستينيات، في الجـزء VIII (6) المخصص للثورة الشعبية:

"إن قواعد أية عملية عسكرية تنبع كلها من مبدأ أساسي واحد: العمـل على المحافظة على قواتنا، والقضاء على قوات العدو".

وهذا التصور هو الذي مكن المنطقة III (منطقة القبائل) مـن الإبقـاء على قواتها سالمة مع قيامها بعمليـات تحـرش، وحـروب عـصابات، وبالرغم أيضا من انتشار القوات الفرنسية، ولنذكر في هذا الصدد بعـض ما جاء في الصحف الصادرة آنذاك:

الأحد 8 نوفمبر: "قطاع الطرق" يطلقون النار علـى شـاحنة البريـد «Camp-du-Maréchal-Dellys» ويقتلون السائق".

الثلاثاء 7 ديسمبر: "إرسال قوات إضافية إلى منطقة القبائـل لطـرد "الخارجين عن القانون". تم تنصيب كتيبة قناصين بتيزي وزو، لكثرة عدد "قطاع الطرق". مئات الرجال المسلحين ينتشرون عبر 8 جبـال حـسبما لاحظه السيد تاباني الذي احتجز "أسيرا" لمدة ساعات لدى عصابة تبـدو مهيكلة عسكريا".

الاثنين 13 ديسمبر: "عمليات إرهابية جديدة بمنطقة القبائل. تخريب السكك الحديدية بالقرب من برج منايل (الثنية)".

الأربعاء 29 ديسمبر: "في منطقة سيدي علي بوناب ضد متمردين قبائل. انطلاق منذ فجر أمس عملية «Aloès» وهي الأهم بعد عيد لا توسان (La Toussaint) (1 نوفمبر). 7 كتائب تشارك في الهجوم. القضاء على متمرد وتوقيف 10 مشتبه فيهم. الجنرال شاريير يتفقد الآلات الحربية".

بإمكاننا إحصاء هذه العمليات بشكل مطول . ولنلاحظ فيما يتعلق بالعملية الأخيرة النتائج الضئيلة والمخزية التي أحرزتها القوات الفرنسية والمتمثلة في وفاة شخص واحد بالرغم من تجنيد قوة بمثل هذا الحجم تفقدها قائد القوات الفرنسية في الجزائر بنفسه.

ومع كل ما ذكرناه يتوجب علينا من منطلق إبراز الحقيقة، التذكير بالأوقات العصيبة التي مر بها المجاهدون بالجبال في منطقتي الأوراس والقبائل، أوقات كادت أن تؤدي إلى التفكيك، وفتور الهمة، ليس بسبب تمركز القوات الفرنسية ولا وابل الرصاص الذي انهال عليهم في محاولة لتحقيق عمليات 8 ماي 1945 مرة أخرى ولكن جراء نقص التحضير العسكري، والافتقار نوعا وكما لأسلحة الحرب، وكذا لانقطاع الاتصال فيما بينهم، وبين السكان، ويجب توضيح هذه النقطة الأخيرة بإسهاب أكبر.

إشكالية دعم السكان

لم يبق في ربوع البلاد، مواطن إلا وانتابه في أعماقه شعور بالفخر والاعتزاز بالهجمات التي شنت ضد النظام الاستعماري. ومع أن العديد من المواطنين لم يكونوا على علم بتفاصيل هذه الهجمات، بل وكان أغلبهم يجد صعوبة في فهم ما يجري لكنهم لم يظهروا في أي وقت من الأوقات أدنى تحفظ. طبعا وفي مثل تلك الظروف لم يكن من الممكن التعبير

عن الفرحة في الطرقات أو القرى. إن أوقات الفرحة الكبرى لا تعـاش إلا بداخلنا أو في أوساط محدودة وليس في الإفراط حيث يذهب كل شيء هباءً منثورا.

ومما لا شك فيه هو ما تناقلته الصحف الفرنسية من مساعدة بعض المواطنين هنا وهناك للسلطات الاستعمارية. فعلى سبيل المثال ذكرت يومية «Echo d'Alger» بتاريخ 4 نوفمبر أن "فلاحين قاموا بتسليم 12 شخصا من الكومندوس" كما أكدت في عددها الصادر يوم 19 نوفمبر أن "الشعور بالثقة بدأ يحذو سكان الأوراس من جديد" وفي عددها الصادر يوم 11 جانفي 1955 أنه "تم تسليم 1000 قطعة سلاح بمنطقتي عين مليلة وخنشلة". و بالإمكان سرد العديد من الحالات الأخرى. أن تكون هذه التصريحات صحيحة أو أنها من اختلاق المستعمر لغرض في نفسه أو استجابة لوازع ضميره الذي يكون استيقظ بشكل مفاجئ اتجاه الذين استعمرهم، الجواب لا يهم كثيرا.

كلنا يعلم بدءً بالذين التحقوا بالجبال أنفسهم، أنه لم يكن للسكان أن يسلموا من الويلات، والمصائب الناجمة عن حرب استعمارية بهذا الحجم. ومن جهته كان الجيش الفرنسي يدرك أيضا أن مراقبة السكان تعد من أهم المعطيات الحاسمة في الحرب. والكل يعلم أن الخصمين ليسا في نفس الكفة ولا بنفس المستوى ولا يستعملان نفس الوسائل. ومع ذلك كانا يعلمان سواء كانا مطلعين، أو لا على كتابات ماو- أن "الحرب الثورية هي حرب الشعوب" و"لا يمكن خوضها سوى بتجنيد الشعوب والاعتماد عليها".

حاول الجيش الفرنسي جاهدا، أن يقطع حبل الرحم بين جيش التحرير الوطني وقاعدته الأساسية أو بالأحرى محيطه الذي يتمثل في المواطنين. كانت فرنسا كما وصفها الجنرال جياب (Giap) أحد الأبطال الفيتناميين في ديان بيان فو "تلميذا فاشلا لا يستوعب دروسه". فكيف نصدق أن

أولئك الذين يشهد بعبقريتهم وخبرتهم في مجال الحرب البسيكولوجية يستوقفون، في مزيج يستحيل استيعابه، العواطف والمشاعر عن طريق التهديدات حين يتوجهون إلى المواطنين بمناشير كهذه:

"نداء إلى المواطنين المسلمين.

لقد قام بعض المشاغبين من بينهم أجانب بأعمال دامية في بلادنا واستقروا أساسا بمنطقتكم. إنهم يعيشون من مواردكم الخاصة، ويسلبون أملاككم ويجبرون رجالكم على ترك ديارهم وخوض مغامرة إجرامية.

أيها المسلمون، لا تتبعوهم والتحقوا فورا بالمناطق الآمنة أنتم وعائلاتكم وأملاككم.

...أيها الرجال الذين التحقتم بهم دون تفكير إن لم ترتكبوا أية جريمة تشينكم التحقوا فورا بالمناطق الأمنة وأعيدوا أسلحتكم ولن يصيبكم أي مكروه. سيلقى هؤلاء المتمردون عقابا شديدا. وبعد ذلك سيحل السلام الفرنسي من جديد".

أتساءل إن لم يكن محررو هذا المنشور أنفسهم يضحكون اليوم، وهم يقرؤونه اللهم إلا إذا أبكاهم شعورهم، بمدى جهلهم لحقيقة أوضاع الجزائر سنة 1954.

لقد أفل الوقت الذي كان فيه الاستعمار يلجأ إلى طريقة العصا والجزرة التي تحولت إلى طريقة القنابل والنابالم. كان للمشاعر وقتها وأثرها في تأجيل الموعد الأخير، بسبب جهل عميق أو حلم مستحيل، غذتهما السلطات الاستعمارية طويلا وكذلك بسبب تيارات جزائرية واسعة. لم يبق حينئذ سوى خيار وحيد وهو الحرب من الجانب الجزائري وكذلك أيضا من الجانب الفرنسي.

كانت فرنسا ترى أن الطريقة الوحيدة لمنع المواطنين الذين كانوا يتبنون كفاح أبنائهم سرا، من تقديم مساعداتهم للمناضلين تكمن في عزلهم

عن بعضهم البعض. ولهذا لجأت طوال فترة الحرب إلى إعادة التجميع وإحاطة القرى بالأسلاك الشائكة ونشر الرعب من خلال قتل الرهائن وجعلهم "عبرة لمن يعتبر".

وبالتالي صعب على السكان تقديم دعمهم للمجاهدين والسبب الرئيسي يعود إلى الخوف الذي زرع المستعمر بذوره في أنفسهم والمراقبة المشددة المفروضة عليهم.

كما تم تسجيل بعض حالات سوء الفهم وبعض التجاوزات بين السكان والجنود لا يمكن غض الطرف عنها، حتى وإن توجب تقبلها كنتيجة حتمية للارتباك، ونظرية المانوية التي كان يروج لها عدد من المسؤولين المحليين في بعض الجبال.

وجد جنود جيش التحرير الوطني أنفسهم، أمام أمرين أحلاهما مر، فهم في حاجة ماسة إلى دعم السكان، ويخشون في الوقت ذاته الأخطار التي يسببونها لهم جراء ذلك. وقد عانى الجنود كثيراً من هذه المعضلة.

مماطلات وتشكيك الأحزاب التقليدية

كلنا يعلم أن الأحزاب التقليدية الجزائرية وجدت نفسها على الهامش عند اندلاع حرب التحرير الوطني. لم تعلم هذه الأحزاب آنذاك كيف ومتى تم الإعداد لهذه الحرب، ومن قام بها. لكن المدهش في الأمر هو رد فعلها الذي كان مبتذلاً وتقليدياً و كأن الأمر يتعلق بحدث عادي.

وقبل أن نحاول فهم هذا الإجماع في الرأي لنتصفح بعض ما تناقلته الجرائد حول ردود فعل هذه الأحزاب غداة اندلاع 1 نوفمبر نقلا عن أجهزة صحف تلك الأحزاب:

نشرت جريدة « République Algérienne » في عددها 48 الصادر يوم 12 نوفمبر 1954 "نداء التهدئة" الذي أطلقه الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري لفرحات عباس، ابتداءً من 2 نوفمبر 1954، جاء فيه أساسا:

"لقد شهد التراب الجزائري ليلة 31 أكتوبر إلى الفاتح نوفمبر أحداثا خطيرة وفور ذلك، أخذت الصحف الفرنسية وذلك دأبها تروج للضغينة والقمع. (....) إن تدخل الجيش والقمع و"عمليات التمشيط" لن تجدي نفعا لحل المشكل الجزائري. (...) إن الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري يؤكد مجددا موقفه الثابت، والمتمثل في البحث في جو يسوده التفاهم عن حل يرضي الجميع".

يجب الاعتراف بأن رئيس الحزب المعتدل كتب مقالا ذهب فيه إلى أبعد من الدعوة إلى تهدئة الأوضاع التي تبناها المكتب السياسي للحزب. لقد قال في مقاله: "إن عهد الاستعمار قد ولى". حتى إن تغيرت اللهجة، وصارت أكثر شدة وأقرب إلى مطالب الشعب فإن الوسيلة لبلوغ ذلك، هي التي بقيت على حالها تماما كما في الماضي.

أما بيان تيار الوسط لحركة انتصار الحريات الديمقراطية الصادر في العدد 10 من جريدة الأمة الجزائرية بتاريخ 5 نوفمبر فقد جاء فيه: "تطلب اللجنة المركزية لحركة انتصار الحريات الديمقراطية من كل الجزائريين التحلي بالهدوء وبرودة الأعصاب،... لن يحل المشكل الجزائري عن طريق القمع لكن من خلال الاستجابة لتطلعات الشعب الجزائري المشروعة".

وجاء نداء الحزب الشيوعي الجزائري في ذات السياق، سواء تعلق الأمر بإدانة فرنسا أو بدعم ما جرى من أحداث. نشرت جريدة «la Liberté» لسان حال الحزب في عددها الـ594 الصادر يوم 4 نوفمبر 1954 بيانا طويلا جاء فيه:

"يدعو المكتب السياسي كل المواطنين والديمقراطيين المسلمين والأوروبيين إلى الإتحاد والعمل على إلغاء الإجراءات القمعية للإدارة والمطالبة بإطلاق سراح كل التقدميين والديمقراطيين والمناضلين النقابيين الذين تم توقيفهم بشكل تعسفي، والشروع في انتهاج سياسة جديدة على قطيعة تامة بالحلول التي تلجأ للقوة وتستجيب لتطلعات الشعب الجزائري العادلة والمشروعة".

لا ندري ما الذي يثير الإعجاب في موقف الحزب الشيوعي: الاستمرار في خطابه أو قدرته على إخفاء المشكل الحقيقي.

أما التيار المصالي لحركة انتصار الحريات الديمقراطية فلم يأت بالجديد مقارنة بالتصريحات الثلاث السابقة. جاء في جريدة "الجزائر الحرة" ، لسان حال الحركة في عددها الـ132 الصادر يوم 5 نوفمبر 1954 ما يلي:

"الكل يعلم أن الأسباب العميقة تكمن من جهة في الجهل المتعمد للحقائق والذي يطرح نفس المشكل سواء في الجزائر أو تونس أو المغرب وفي سياسة القوة والقمع التي تتنافى تماما والتطلعات المشروعة لشعوب شمال إفريقيا من جهة أخرى".

"إن هذه الشعوب تتطلع إلى الحق في تقرير مصيرها وتسيير شؤونها بكل ديمقراطية وفقا لميثاق الأمم المتحدة"- لم يكن لتعنت التيار المصالي في الرجوع باستمرار إلى البلدين المجاورين للجزائر اللذين قررا العمل بصفة منفردة- ليغير شيئا من المشكل الرئيسي آنذاك والمتمثل في ضرورة تحديد المواقف إزاء الحرب التي شعل فتيلها.

يبقى موقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي لم نجده في جريدة "البصائر" لسان حال الجمعية والذي اعتمدنا في إبرازه على بعض الشهادات.

فحسب الشيخ خير الدين الذي استشرناه، لم يكن الوضع واضحا كل الوضوح خلال اجتماع العلماء يوم الفاتح نوفمبر 1954 بمعهد ابن باديس بقسنطينة. كانت آراء، ومن بينهم الشيخ العربي التبسي، ومحمد عباس وابراهيم مزهودي منقسمة إلى فئتين. كان البعض يرى أن الأمر يتعلق بحرب تحرير وطني، يجب دعمها، في حين اعتبر البعض الآخر أن الأحداث التي اكتشفوها خلال الاجتماع أو عن طريق الصحافة تعتبر "استفزازا للسلطات الاستعمارية".

وأمام ردود أفعال الأحزاب الجزائرية لا يسع الباحث إلا أن يستنتج أن اندلاع الثورة تم دون مشاركة أي من هذه الأحزاب لا من قريب ولا من بعيد و أن الثورة فاجأتهم جميعا، وأحرجتهم، وأنها لم تتلق الدعم الصريح من أي حزب لدى اندلاعها. ويظهر التحليل اللغوي للمقالات التي نشرت آنذاك إحراج قادة الأحزاب وفي بعض الحالات استنكار تحول إلى معارضة خفية أو معلنة سببها عدم إطلاعهم في الوقت المناسب، أو وضعهم أمام الأمر الواقع. كان يجب انتظار بضعة أشهر أو سنة أو سنتين لتتضح الملامح لصالح جبهة التحرير الوطني. وفي انتظار ذلك كان على الجبهة العمل بالرغم من التحفظ والتردد والمعارضة الصريحة التي أعلنها التيار المصالي، والتي يجب أن يتم تحليلها بتفصيل، بالنظر إلى المواجهات التي جمعتها بجبهة التحرير الوطني.

معارضة التيار المصالي الغريبة والمأساوية

يجب توخي الحذر ونحن ندرس مجالا طغى عليه الطابع الانفعالي مدة ثلاثين سنة من الزمن، كي يتسنى لنا فهم هذه المرحلة القصيرة من تاريخنا. ويزيد صعوبة المهمة، غياب الوثائق الأصلية المتعلقة بهذه الفترة.

لكن ما تم إثباته هو أن أحزاب الوسط وأنصار مصالي لم يشاركوا في اندلاع الثورة في ظل التشكيلات التي كانوا فيها. حتى وإن ثبتت من جهة

الرواية التي تفيد باستحداث اللجنة الثورية من أجل الوحدة والعمل بقيادة عناصر من اللجنة المركزية – بغية توحيد صفوف حركة انتصار الحريات الديمقراطية أو عزل مصالي بشكل تام. وحتى وإن أظهر من جهة أخرى بعض مفجري مؤسسي الكفاح المسلح على غرار مصطفى بن بولعيد وكريم بلقاسم في وقت من الأوقات (قبل وبعد الفاتح نوفمبر 1954) رغبة في خوض الحرب تحت لواء مصالي.

ولتوضيح الوضع آنذاك يجب تذكر، التأثير الكبير الذي كان يمارسه مصالي على الجماهير، وعلى قادة حزبه، والغموض الذي ساد جراء أزمة حركة انتصار الحريات الديمقراطية والذي خلط الأوراق بشكل جعل من المستحيل معرفة من يقف مع من. كما لا يمكن استبعاد فكرة أن يكون بعض القادة استساغوا لذة الازدواجية حتى لا يختلفون مع أحد وأن تكون علاقاتهم على ما يرام مع الجميع أو مع كل بدوره . وفي هذه النقطة بالذات لا يسعنا إلا الجزم بأن اندلاع حرب التحرير الوطني لم يكن من صنع أحزاب الوسط ولا أنصار مصالي.

لم يبق الآن سوى إظهار الآلية السياسية التي سرعان ما أفرزت مواجهة دامية على مدار سنتين كاملتين بين جبهة التحرير الوطني والتيار المصالي الذي تحول فيما بعد إلى الحركة الوطنية الجزائرية ابتداء من ديسمبر 1954.

ونعتقد أنه للوصول إلى السبب الرئيسي يجب البحث فيما يمكن تسميته بالعقدة النفسية لمصالي. وعند قراءة بعض ما كتب قائد الحركة الوطنية الجزائرية وإطارات هذا التيار على غرار الرسالة التي وجهها إليهم مصالي في أوت 1956 يظهر جليا مدى معاناة مصالي من الحقيقة التي سطعت شمسها بارزة لتحرقه في العمق والتي تؤكد أن اندلاع الكفاح المسلح تم دون مشاركته أو حتى ربما ضد إرادته.

لم يسامح مصالي أيا كان عما اعتبره "إهانة ما بعدها إهانة". كان يحقد على كل من شارك من قريب أو من بعيد في هذا الحدث العظيم الذي كان يرغب في قرارة نفسه أن يكون صانعه والذي انفلت من بين يديه. فلنتصور وقع مثل هذه المأساة في نفسية زعيم كرس حياته للكفاح من أجل استقلال البلد، فسلبه التاريخ القاسي فجأة ثمرة كفاحه. لقد هزه كبرياؤه، وذلك الأنا الأسطوري من عمق كيانه. وفي حالة كهذه يكون رد الفعل متهورا وغير منطقي لقد فقد تماما السيطرة على قراراته واستولى عليه الانفعال والغضب. لم يكن بإمكان أي شيء أو أحد الوقوف في وجهه ومنعه من نزول المنحدر الذي أدى به من الكفاح المسلح بين الإخوة إلى هاوية الخيانة التامة والفعلية. حتى الإشراف على الكفاح وتوحيد القوات اللذين عرضهما عليه بعض قادة جبهة التحرير الوطني حسب الوثائق التي نشرها محمد حربي والتي نجد نسخا منها في "أرشيف الثورة الجزائرية" لم يكونا ليمنعاه من ذلك.

بعد أن حرم المجد بعدم توليه "إشعال فتيل الحرب"، سعى مصالي بكل الوسائل للترويج لفكرة أنه هو صانع الثورة حتى وإن كان أدى به ذلك إلى أكاذيب تولى نشرها بكثير من أنصاره الأوائل المقربين منه، والتي أودت بحياة العديد من الشباب الجزائريين الشجعان والمخلصين لوطنهم ممن قتلوا ظلماً على أيدي إخوة لهم تحدوهم نفس الروح الوطنية.

سيتم لاحقا توضيح الحلقة الجهنمية للصراع بين الإخوة التي دامت أكثر من سنتين و التي خلفت المئات بل الآلاف من الضحايا.

في الحال، أي في ربيع 1955، أخذت الحرب الأهلية بين الجزائريين تستشري بنفس الشراسة التي ميزت حرب كل الجزائريين ضد النظام الاستعماري الفرنسي.

2. عن الجانب الفرنسي: "التفاوض...هو الحرب"

إن هدوء واطمئنان السلطات الفرنسية -الاستعمارية أو المحلية- كان نابعا من تجاهلها المتعمد للظروف الاجتماعية والسياسية المزرية التي كان يعيشها الجزائريون.

لقد كانت السلطات الاستعمارية المتواجدة في الجزائر تتعمد تجاهل ما كان يجري آنذاك. ليس هناك تفسير آخر للتصريحات الجريئة التي كان يتبادلها بكل سرور قادة ذلك النظام. حتى وإن ابتعدنا شيئا ما عن موضوعنا، من المفيد التذكير بالغبطة التي كانت تبديها السلطات الأكثر تمثيلا للنظام الاستعماري.

وفي ذات السياق قال رئيس الجمعية الجزائرية ريمون لاكيير (Raymond Laquière) لدى استقباله رسميا وزير الداخلية الفرنسي آنذاك فرانسوا ميتيران الذي قام بزيارة للجزائر من 16 إلى 22 أكتوبر 1954: "إن الجزائر الفرنسية تستفيق ببريق الشمس في مطلعها. يجب حمايتها من أي سحابة قد تعكر صفو إشراقتها". ويجدر بنا تذكير القارئ بأن هذه الزيارة أتت قبل اندلاع ثورة الفاتح نوفمبر 1954 بـ 15 يوما فقط.

ومن جهته رد وزير الداخلية بالرغم من اطلاعه على كل شيء بحكم منصبه: "ما هي الجمهورية الفرنسية أيها السادة ؟ "...إنها، وفقا لما جاء في دستورنا كل الأراضي التابعة للبلد الأم، إنها مقاطعات الجزائر والمقاطعات والأراضي الواقعة ما وراء البحار...

"فإن توجهنا من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب على الأراضي التابعة لجمهوريتنا المشتركة فإننا نجد العلم الوطني يرفرف فوق آلاف الكيلومترات على أوسع مساحة في العالم، كما يحلو لي أن أردد دائما، بعد تلك التي تمتد من لينينغراد إلى فلاديفوستوك و قبل تلك الممتدة من واشنطن إلى سان فرانسيسكو. أين موقع الجزائر من كل هذا؟ إنها تقع في قلب هذه المساحة الشاسعة، في مركز الجاذبية".

وعقب هذه التصريحات تم التذكير بالمثل العليا للمساواة والديمقراطية اللتين لا يخلو خطاب رسمي لفرنسا من ذكرها حتى وإن كانت لا تعتبر نفسها ملزمة بتطبيقها.

وفي الأخير كلمة مباشرة لكن تنطوي على الكثير من التضمينات قالها وزير الداخلية الفرنسي باتجاه السكان المسلمين أو الأهالي كما كانوا يسمون آنذاك: "ثم فلنفكر في هذا الحشد الذي لا يعلم شيئا بعد لكنه يعلق علينا آمالا كبيرة. صدقوني إن الأمل كالسيل الجارف الذي ينحدر من الجبل: لا شيء يوقفه. لكن بحسب موقع الحاجز يتجه السيل هنا أو هناك، لكن اعلموا أن آمال الشعب ستعيش بالرغم من كل شيء. ولهذا يتمثل واجب كل الفرنسيين المقدس أساسا في جعل الآمال البشرية تحمل اسمنا (8)".

إن الحاجز، حتى نبقى في سياق تسمية ميتيران، لم يكن في الحق المشروع الذي يميز مطالب الشعب الجزائري ولا حتى في التفاوض مع أولئك الذين قرروا بعد 12 يوما تحديد مصيرهم بأنفسهم، لكنه تمثل في سد من النار والدم أهلك أولئك الذين آملوا طويلا جدا.

وبفعل الخطابات المخدرة والمؤملة كتلك التي ذكرناها سالفا ليس من الغريب أن يكون رد فعل فرنسا الاستعمارية غداة الفاتح نوفمبر بذلك العنف سواء في الخطابات أو في الأعمال.

رد فعل الاستعمار

لتقييم رد فعل المستعمر الفرنسي، تجدر الإشارة إلى بعض عناوين الصحف الاستعمارية. من النادر أن نجد شعبا يكون لقرائه رأيا يتقارب بهذا الشكل مع الجرائد الصادرة كما كانت عليه الحال آنذاك. ومن أجل هذا فمن المجدي دراسة آثار هذا التطابق في الآراء بين الصحف الاستعمارية والشعب الأوروبي.

كان رد فعل الجرائد، غداة الفاتح نوفمبر، "la Toussaint"، تعكس نوعا من الهستيريا، أكثر منه حالة نفسية، أمام الأحداث التي اندلعت بالأمس. ومما ميز جرائد تلك الفترة العناوين والافتتاحيات التي كانت بمثابة أوامر موجهة لسلطات الاستعمار. ولنبدأ بجريدة "l'Echo d'Alger" التي كانت الأشد شراسة من بين الجرائد الاستعمارية الستة طوال حرب التحرير. فقد أعلن عنوانها الأول عن سياسة فرنسا في الجزائر من خلال مقال تحت عنوان "التدخل السريع والقوي" من توقيع مدير الجريدة "آلان دو سيرينيي" الذي كان يتميز بشخصية فذة ونفوذ كبير كتب فيه: "حيال هذا الاستفزاز الدامي الموجه دون شك للتأثير على الرأي العام العالمي، حافظ سكان المقاطعة التابعة لنا على هدوئهم وأبدوا ثقتهم في شبكات الأمن...إن المشكل يبقى كاملا وعلى الحكومة التحلي بالحزم لتسويته".

أما "Le Journal d'Alger" الذي كان يعكس آراء تيار متحرر، وإن كنا لا نعلم إذا كان يجدر بنا الحديث عن التحرر، في ظل نظام استعماري، يجرد العبارات من كل معناها، فلم يكن أقل شراسة من "l'Echo d'Alger". قراء هذا الأخير هم أساسا من أوروبيين، لأن الجزائريين كانوا يقرأون "Le Journal d'Alger" للاطلاع على الأوضاع في غياب جريدة خاصة بهم. جاء في افتتاحية الجريدة في عددها الصادر يوم الثلاثاء 2 نوفمبر نداء إلى "رد فوري" كما ورد فيها "لقد اهتزت الجزائر بالأمس. ظهر الإرهاب في الجزائر، ومن الآن فصاعدا ستصبح الأخطاء آثاما...".

ولأخيرا لم تتخلف الجريدة الأوروبية الصادرة بالجزائر "La dépêche Quotidienne" عن هذا الموكب من ردات الفعل العنيفة. فعلى الصعيد السياسي تأرجحت مواقفها بين "Le Journal d'Alger" و"L'Echo d'Alger" مع ميل أكبر لهذه الأخيرة.

كان صاحب الجريدة "لورون شيافينو" مجرد هاو ذو نفوذ يمتلك

أسطولا تجاريا يسيطر بشكل شبه تام على النقل البحري الجزائري. وهي الجريدة التي نشرت في صفحتيها الأولى والأخيرة صورا عن الهجمات التي شنت ليلة الفاتح نوفمبر.

لكن عناوين وافتتاحية العدد 1776 الصادر يوم الثلاثاء 2 نوفمبر 1954 لم تكن مخالفة للصور فقد جاء فيها: " في نفس الساعة (1h15) من ليلة الأحد إلى الاثنين تسبب الإرهابيون في العديد من النقاط على التراب الجزائري في مقتل 8 أشخاص"، ثم تم ذكر سلسلة من الهجمات. سرعة مذهلة في رد الفعل، أعلنت نفس الجريدة ودائما في الصفحة الأولى بعد العنوان بالخط العريض أنه تم إرسال "ثلاث فرق من وحدات الأمن الجمهورية (CRS) وثلاث وحدات من المظليين عبر الطائرة من طرف الوطن الأم" مساء الفاتح نوفمبر. أما الافتتاحية فقد جاء فيها ما يدل بإسهاب على ما يتم توخيه من السلطات.وتحت عنوان "اضرب على الرأس" يتساءل كاتب الافتتاحية عن مرتكبي الهجمات و دوافعهم:

"عناصر أجنبية؟

أقليات متفرقة على كامل التراب؟

مجرد إنذار؟

ربما. لكن الوقت قد حان لأخذ التهديد مأخذ الجد. لا يهم إن كان صادرا عن المغرب أو تونس أو أي بلد آخر.

...يجب ضرب هذا العدد القليل من مثيري الشغب و ضربهم على الرأس.".

ما الفرق بين "التدخل السريع والقوي" الذي دعت إليه "l'Echo d'Alger" و"رد فعل فوري" لـ"le Journal d'Alger" وأخيرا "اضرب على الرأس" لجريدة "la Dépêche Quotidienne"؟ إن رد الفعل الأوروبي كان واحدا وموحدا. ويذكرنا بشكل غير مباشر بمجازر 8 ماي 1945 بالشرق الجزائري. وظن المستعمر أن ردود أفعال متفاوتة وفورية كفيلة بإخماد

ما اعتبره قياسا حركة تشبه الحركات التي تم تسجيلها بتونس والمغرب. لكن مباغتة العمليات وتزامنها بالعديد من النقاط على التراب الجزائري خير دليل على طبيعة الأحداث.

لم يدرك أحد في الأيام الأولى بوعي تام وبدقة حجم وعمق حركة التحرير التي بدأت تلوح في الأفق لكن الأوروبيين أحسوا بأن ما جرى بالهند الصينية وما يحدث بتونس والمغرب انتقل إلى الجزائر.

لا يجب الوثوق بما تم غالبا وصفه بتدخل قوات أجنبية كما هو الحال بالنسبة لافتتاحية "la Dépêche Quotidienne". إن تلك المعلومات لم تفد في تأكيد "أمانة وصدق السكان" ولا في التقليل من حدة ما كان يلوح طيفه، لكنها دفعت بحكومة فرنسا إلى التمسك أكثر بممتلكاتها الاستعمارية لتفادي انتشار العدوى والتدخل بشكل صارم، لردع أي مساس بـ"السيادة الفرنسية".

وذكرت نفس الجرائد في السياق نفسه بعض التدخلات المصرية. وبالتالي فمنذ 4 ديسمبر 1954 جاء في جريدة "l'Echo d'Alger" أن "الأسرى الذين تم توقيفهم بالأوراس كانوا يعتقدون أن مصر قد أعلنت الحرب ضد فرنسا". كم كانت الحقيقة مختلفة آنذاك، حتى وإن صدق العديد من الجزائريين من القرى أو المدن هذه الدعاية المزدوجة المتمثلة في تدخل الجيش المصري. يا لخيبة الأمل! لأن الكل يعلم أنه لم يمت أي مصري جنديا كان أو مواطنا من أجل تحرير الجزائر.

حتى وإن كانت ردود فعل المستعمر سريعة وحاقدة وانتقامية، فإن ذلك لم يكن ليدهش أحدا. حتى وإن تم البحث عن كبش فداء في الخارج فإن ذلك لم يخدع أحدا، لكن ما خفي عن المستعمر بالفعل هو أن فرنسا لم تكن في حال يسمح لها بالرد على ذلك العدد من حركات الكفاح المشروع، ومحاربة كل الأمم التي تعشق السلام والحرية. لم تكن تملك فرنسا الوسائل المادية ولا البشرية ولا العسكرية للإبقاء على ممتلكاتها

الاستعمارية بالقوة، ولم يكن لإنشاء ما سمي بجماعات الدفاع الذاتي والميليشيات وجماعات مكافحة الإرهاب أن يغير جذريا نضج وحجم ونتيجة الثورة، لأن الأمر صار يتعلق بكفاح شعوب تشكل في منظور الحرب الثورية "جداراً حقيقيا لا يمكن لأي قوة اختراقه (9)".

رد فعل فرنسا: "التفاوض...هو الحرب"

ثمة جمل تختزل وحدها الفكر والروح السائدين في فترة ما. إن الجملة التي نطق بها فرانسوا ميتيران وزير الداخلية آنذاك والمسؤول عن المقاطعات الجزائرية الثلاث، أياما بعد اندلاع ثورة الفاتح نوفمبر لا تعبر فقط عن رأيه بل تترجم وجهة نظر كل الحكام الفرنسيين إزاء ما حدث بالجزائر. لقد أشارت بدقة نادرة إلى موقف فرنسا الموحد إزاء حرب الجزائر التي كانت في بدايتها.

أعربت تلك الجملة بحدس نادر عن برنامج كل الحكومات المتتالية لفرنسا من بداية إلى نهاية ما سموه دائما ب"أحداث الجزائر". لم يكن فرانسوا ميتيران يعلم حين قال جملته "التفاوض مع المتمردين يعني الحرب" أن قراره الحربي سيكون هو ذاته قرار كل من سيأتي بعده، مهما كان تياره السياسي، حتى بعد سقوط الجمهورية الرابعة. ومن هذا المنطلق أصبحت الجمهورية الخامسة التي برزت على أنقاض سابقتها المنتهية في خضم حرب الجزائر، الوريثة الجديرة لها.

لم يكن وزير الداخلية -الذي كان منتميا إلى حزب ينتسب إلى الديمقراطية والاشتراكية والمقاومة (UDSR) - الوحيد الذي كان يتميز بهذا النوع من الخطابات. فقد كان ذلك حال رئيس الجمعية آنذاك بيير مانديس فرانس (Pierre Mendés France). فبعد النقاش الذي جرى يوم 12 نوفمبر 1954 بالجمعية العامة قال رئيس الحكومة: "لن نساير أبدا هذا

التمرّد ولن نتفق مع المتمردين. ليس هناك تساهل حين يتعلق الأمر بالدفاع عن السلام الداخلي للأمة وسلامة الجمهورية. إن مقاطعات الجزائر تعتبر جزءا من الجمهورية وهي فرنسية منذ أمد بعيد...لا يمكن تصور انفصالها عن البلد الأم، ويجب أن يكون هذا واضحا للجميع في الجزائر، في البلد الأم وكذا في الخارج. لن تتنازل أبدا فرنسا أو البرلمان أو أية حكومة عن هذا المبدأ الأساسي (10)".

يبدو هذا الخطاب اليوم، والجزائر مستقلة، ونحن ننظر إلى الماضي خطابا مغرورا، لكن لا شيء يبرز بمثل هذه الدقة القناعة الراسخة والرغبة اللتين كانتا تحذوان رئيس الحكومة. لقد ضرب المتحدث أحسن مثل في السياسة عن ربط القول بالفعل حتى لا يصدق.

أما وزير الداخلية الذي أعقبه على منبر الجمعية العامة فقد استعمل خطابا ذهب فيه بعيدا حين قال: "...سيتم توفير كل الوسائل لنصر قوة الأمة، مهما تكن صعوبة هذه المهمة وقسوتها".

كان الوزير يدرك أبعاد خطابه:

"في غضون ثلاثة أيام، تم إرسال 16 فرقة من وحدات أمن الجمهورية (CRS) ليصبح عددها في الجزائر 20 فرقة. ثم تم إرسال فرق عديدة ومتنوعة... كل جهودنا تصب في هذا الهدف: حيث تنتشر القوات الفرنسية يتم فوراً قمع الفوضى والدفاع عن السكان (11)".

لم تكن خطابات الحكومات الفرنسية المتعلقة بالمشكل الجزائري تخلو من لفظي القوة والقمع. وللمرة الأولى اتفق اليمينيون واليساريون الفرنسيون في إصرارهم على القمع في الجزائر.

ففي المؤتمر الذي عقدته في ديسمبر 1954 إحدى أهم التشكيلات السياسية، بفرنسا وهي تشكيلة "الأحرار والفلاحين" (حزب يميني)، حول شمال إفريقيا جاء في لائحتها: "إن شمال إفريقيا امتداد لفرنسا. لا يمكن

تصور فرنسا بدونه (...). إن المؤتمر الذي اجتمع حول أهم تشكيلة سياسية يؤكد رسميا أن فرنسا رسخت في كل الميادين مكانتها في شمال إفريقيا وأنها لن تغادر (...). إن كل عمل تمردي ضد السلطات الفرنسية والسلطات التقليدية غير مقبول بالأراضي الواقعة شمال إفريقيا كما هو غير مقبول بالبلد الأم. لذا يجب قمعه دون أدنى شفقة (12)".

إن القمع القاسي أصبح بالفعل سياسة فرنسا الثابتة طوال الحرب بالجزائر. وكانت فرنسا ترى أن النصر يتم بالسلاح لذا اعتبرته المنفذ الوحيد الذي سخرت له كل قواها. وبالتالي وفي أيام قليلة تم تعزيز قوات جيش الاحتلال الفرنسي من حيث العدد والعتاد على مستوى المناطق التي تجري فيها المعارك بأحدث المعدات الحربية.

وأمام 1000 محارب من جبهة التحرير الوطني تنقص بعضهم الأسلحة وتنعدم لدى نصفهم على الأقل كانت القوات الفرنسية تتكون من حوالي 60.000 رجلا عشية الفاتح نوفمبر 1954. و بسرعة قل نظيرها اليوم نشرت فرنسا كما تم توضيحه و ليلة الفاتح نوفمبر 6 كتائب من الجنود إضافة إلى وحدات أمن الجمهورية (CRS) والمظليين.

وبعد ثلاثة أيام أعلن الحاكم العام روجي ليونار كما جاء في جريدة "L'Echo d'Alger" في عددها الصادر يوم 4 نوفمبر أن "وزير الحربية مستعد لأن يقدم لنا كل ما نحتاجه" وأضاف أن 5 كتائب الحرس و6 فرق من وحدات أمن الجمهورية و3 كتائب من المظليين جاءت لتعزز الجنود والقناصين.

وفي 8 ديسمبر 1954 تحدث فرانسوا ميتيران شخصيا أمام جمعية الوحدة الفرنسية قائلا أن "70.000 رجلا ينشطون بالجزائر".

وفي منطقة الأوراس تمت منذ الأيام الأولى من شهر نوفمبر 1954 توجيه الفرقة الـ25 من المظليين بقيادة الجنرال جيل وبإشراف العقيد دوكورنو اللذين يعتبران مقاتلين متمرسين. بهدف: القضاء على ما سمي

بالتمرد قبل أن يتوسع وينتشر ويتبناه السكان.

وفي ربيع 1955 كان بالإمكان تقييم عدد عناصر الجيش الفرنسي بالجزائر الذي بلغ 100.000 رجلا مقابل نفس عدد جيش التحرير الوطني الذي كان عليه في نوفمبر 1954.

وبالتالي فقد كانت الأمور واضحة عن الجانب الفرنسي سواء تعلق الأمر بالخطابات أم بالأعمال الواجب تبنيها: العمل على سد كل الفرص على الجزائريين لبلوغ مبتغاهم وأكثر من ذلك استغلال كل الوسائل لكي يدفعوا ثمن "جسارتهم المتهورة" غاليا، وحرمانهم من أن يراودهم حلم تحريرهم وقتاً طويلاً.

كانت تلك فرنسا التي استعملت منذ 1830 أبشع وسائل العنف لقمع كل محاولة جزائرية من شأنها هز تلك الهيمنة التي ضايقتهم وأذلتهم.

إستراتيجية ثابتة:الضرب بقوة ثم أخذ استراحة مدة أطول كما قالها بحدس نادر الجنرال دوفال جزار 8 ماي 1945 الذي حذر بلده ورؤساء عندما تنبأ: "أعطيتكم السلام لفترة 10 سنوات لكن لا تتوهموا بأكثر من ذلك... (13)".

التي تعد بملايين القتلى وضياع ثرواته من جهة، ومن جهة أخرى فرنسا وإن كانت حقا ولمدة زمنية طويلة أول قوة أوروبية بل عالمية إلا أن الانتفاضات وأعمال الشعب والثورات والائتلافات الخارجية التي أظهرت عداءها لها طيلة هذه الفترة الممتدة من غزو الجزائر العاصمة في جويلية 1830 إلى غاية القضاء على آخر ثورة جزائرية ذات بعد وطني وهي ثورة 1871، أثرت عليها وتسببت في زعزعتها وضعضعتها. إن هذا التساؤل يعتبر مقدمة حتمية لكل بحث حول هوية الشعب الجزائري العميقة خصوصا خلال تلك الحقبة الطويلة من الطمس.

ليست الغاية من القيام بهذه الرحلة في أعماق تاريخنا، حول حقبة من الزمن ما تزال حساسة جداء، التأنيب أو العتاب ولا حتى إدانة سكان ولا مسئولين ولا مناطق ولا مراحل زمنية كاملة. إنما يتعلق الأمر بمحاولة فهم حقيقي لما حدث فعلا ولماذا كل هؤلاء القتلى وهذه الدماء وهذه الأحزان والمحن والجهود الجبارة لم تمنع الجزائر من الانزلاق إلى غياهب العبودية والفقر بل وحتى إلى مسخ دام قرابة قرن من الزمن. حقا في التاريخ يكون عادة من الأسهل والمريح التوقف مليا عند الانتصار أكثر منه عند الهزيمة، ربما لأن الشعوب على غرار الرجال الذين يتعرضون لبعض من الخجل، في الكشف عن مآسيها التي تكتمها بسهولة. وهذا يبدو لنا أمرًا أكيدا، إلا أنه لو أكره أي واحد منا نفسه استخلاص العبرة من فشل ما، فانه يمنح لها في نفس الوقت تلك القوة الفريدة في عدم تكرار الفشل. وبين ثورة 1954 التي هبت من أجل استرجاع الحرية المسلوبة، وحركات المقاومة والتمرد ضد الاحتلال الفرنسي للجزائر تلغى المسافات من خلال الروابط الوجدانية بين مختلف هذه الملحمات.

إنه من غير المعقول بالنسبة لأي متبصر، والكل يعلم أن عبان رمضان كان كذلك، إلا أن يستخلص العبر من الماضي البعيد والقريب للبلاد بحيث وكما سنرى فان كل جهد موجه إلى قراءة هذا الماضي وكشف الأسباب التي أوقعت الشعب الجزائري في المحن والتي ذهبت تضحياته بفعلها أدراج الرياح لا يمكنه إلا أن يقودنا إلى "تصحيح النظرة" وعدم تكرار نفس الأخطاء وبعبارة واحدة نحو تحقيق استراتيجية مطابقة للهدف الذي سطرته ثورة نوفمبر 1954.

عند الرجوع إلى المؤلفات على اختلافها، مثل كتاب "الجزائر، الماضي والحاضر" الذي اشترك في تأليفه إيف لاكوست (Yves Lacoste) وآندري نوشي (André Nouschi) وآندري برونون (André Prenant) وكذا كتاب "الجزائر، أمة ومجتمع" لمصطفى لشرف أو سياسات استعمارية في المغرب العربي "(1) لشارل روبرت آجيرون" وحتى المنشور الذي سبق ذكره والذي نشرته الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية سنة 1953 بهدف الدعاية السياسية، يظهر لنا جليًّا تشابه الأسباب التي مكنت من غزو الجزائر واستعمارها مدّة طويلة. كل محاولة لاختزال هذه الأسباب لا تخلو من بعض المخاطر إذ أنها لم تحدد بعد بصفة كاملة ونهائية وأنها قد تشكل موضع أبحاث قيمة وضرورية.

لا نبالي إن كان جهدنا، نتاج طريقة لا تخرج عن إطار محدد ومسعى شامل يستعصي تفاد يهما. إن خصوصية النظام السياسي-الاجتماعي الذي كان سائدا في الجزائر سنة 1830 وتمركز المقاومة وعمليات النضال ومصالح الطبقات والتنافس بين الرؤساء المحليين والإستراتيجية العسكرية وحرب الإبادة التي كانت تنتهجها فرنسا والتي لم يغيرها الزمن ولا المكان وجهل الوضع السائد في فرنسا وفي أوروبا أساسا، تعتبر كلها الأسباب الرئيسية التي حالت دون تكريس الجهود الجبارة التي بذلها

الجزائريون. إن كل هذه الأسباب لجديرة بأن تجمع و تحلل عن قــرب.
وعليه سنفحص:

- النظام السياسي-الاجتماعي
- الاستراتيجية العسكرية
- جهل العوامل الخارجية

ولن يكون من باب العبث رسم صورة، و لو مختزلة، عن القوى التي زج بها في المواجهات الحاسمة بين الجزائر وفرنسا.

	الفترة	الجزائريون	الفرنسيون
السكان	1830	5 إلى 6000 000 (2)	25 إلى 30 000 000 (2)
السكان	1872	2 215 000 (2)	37 000 000
السكان	1954	9 000 000	45 000 000
الجيش	34/1830	5 000 1 رجل (4)	40 000 رجل (4)
الجيش	40/1839	9400 إلى 5 960 (5)	–
الجيش		اكثر من 50 000 مساعد	
الجيش	1842	–	78 000 رجل (6)
الجيش	47/1846	–	106 000 رجل (7)
الجيش	1872	8 8 000 بندقية استرجعت سبع منها	86 322 رجل (8)
الجيش	1954	1 010 رجل (9)	70 000 (10)

وإذا كان سهلا أن يستخلص من الجدول المذكور أعلاه كما هائلا من العبر فإننا نقتصر من جهتنا على بعض الملاحظات المرتبطة مباشرة بموضوعنا والتي لن تشكل موضع احتجاج كبير. يمكننا أن نلاحظ بادئ ذي بدء أن ميزان القوى بين الجزائر وفرنسا كان سنة 1830 أكثر توازنا مما سيكون عليه سنة 1954.

إذا بقي ميزان القوى بين السكان الجزائريين والسكان الفرنسيين على حاله -عمليا جزائري واحد مقابل خمسة فرنسيين- نجد في المقابل وفي مجال عدد الجنود أن عدد المقاتلين الذين حشدتهم الجزائر من سنة 1830 إلى سنة1847 ضد فرنسا يفوق بكثير ذلك الذي حشدته جبهة التحرير الوطني خلال اندلاع ثورة نوفمبر 1954. ولكن ثمة ما هو أكثر. ففي مجال التسلح يمكننا أن نكتب دون أن نخشى التكذيب أن حظ جيش التحرير الوطني سنة 1954 كان ليكون أكبر لو توفر على الأسلحة التي كانت بين أيدي الجزائريين سواء من سنة 1830 إلى سنة 1847 أو سنة1871 خلال ثورة المقراني. وبالفعل جاء في منشور الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية أن "الأسلحة الجزائرية كانت تنافس أسلحة الأخرين وأن قطع المدفعيات المتواجدة حاليا بعقر(Les invalides) "المعطوبين" بباريس .. كان يمكنها أن تنافس الأسلحة البروسية في تلك الفترة". يمكن أن نقرأ في الصفحة الموالية من نفس المنشور أن: "الأسطول الجزائري حقق توسعا كبيرا سنة 1802 حيث كان يتوفر على 66 سفينة مدججة كل واحدة منها ما بين 25 إلى 80 مدفعية... نعلم أنه إذا كان الدفاع ضد العدوان ضعيفا سنة 1830 فذلك لأن جزءا كبيرا من الأسطول الجزائري دمر خلال نكبة نفارين سنة 1827".

تؤكد المصادر الفرنسية تواجد ورشات الأسلحة التي أنشأها الأمير عبد القادر.

وجاء في المؤلف المشترك لكل من لا كوست ونونشي وبرونون السالف ذكره أنه في ظرف سنتين تمكن قائد الثورة الجزائرية من صناعة، بمسبكة تلمسان، زهاء 20 مدفعا(11) ".

وغير بعيد عنا، ودائما بخصوص تقييم قوة الجزائر قبل سنة 1830 كتب المؤلف الجزائري م. قاسم يقول: "بل يمكننا اعتبارها الجزائر قوة عظمى في تلك الفترة، وأنا أبرز ذلك في كتابي معتمدا على العديد من الأمثلة (12)".

وأضاف:

... "إن الأمثلة الثلاث المذكورة كافية لإظهار أن الجزائر كانت القوة العظمى لتلك الفترة.. بشكل جلي ".

الحاصل أنه على افتراض صحة هذا الطرح كانت جزائر سنة 1830 نوعا ما بنفس قوة الولايات المتحدة الأمريكية أو الاتحاد السوفييتي اليوم إذ أن عبارة القوة العظمى التي ظهرت منذ العهد النووي، لا تنطبق إلا على هاتين الأمتين، فهي لا تطلق حتى على الصين وبريطانيا وفرنسا وبدرجة أقل الهند، التي رغم امتلاكها للسلاح النووي لا يعتبرها أي مؤلف قوة عظمى. إذا زاد الشيء عن حده انقلب إلى ضده، خاصة وأنه سيكون من الصعب بمكان، إعطاء تفسير للاحتلال الفرنسي للجزائر، اعتمادا على هذه الخلفية.

نفضل من جهتنا ألا نبتعد عن المصادر التي تسعى جادة لتحدد بدقة بالغة، وبصرامة كبيرة الوضعية الحقيقية لقوة الجزائر في حدود سنة 1830.

مهما كانت حالة قواتها العسكرية، قبل الاحتلال الفرنسي، فانه لم يكن ممكنا أن تحتل وأن تسيطر عليها كل هذه المدة الطويلة لو أن الوضعية العامة للمجتمع الجزائري آنذاك -بغض النظر عن جيشها- لم تعرضها لذلك. وعليه ينبغي بعد مرور قرن ونصف القرن أن يكشف البحث، على الأقل وبالخصوص الجزائري، الأسباب التي أدت إلى سقوط

الجزائر، واستسلام الداي إضافة إلى استسلامات أخرى جاءت الواحدة تلو الأخرى وكذا إلى قهر شعب بأسره رغم مقاومة بطولية وطويلة.

يكفي ببساطة معرفة إلى أي حد، وبأي درجة من التحمس اهتم المؤرخون الفرنسيون، وبصفة عامة العديد من المؤلفين بهزيمة فرنسا في جوان 1940 كي نقدر حق تقدير، مدى الحاجة والضرورة إلى كشف نقاط ضعف بلد ما قصد توجيهه صوب طريق الإصلاح. ما المانع من إخضاع تاريخنا إلى مراجعة ضمير كهذه خاصة، وأنه ليس ثمة شخص أو تيار سياسي وقتها ترك خلفه ورثة، وإن كانوا مفترضين، ليتحملوا معنويا حقوقاً أو إرثا قد يعرض إلى المساس؟ حتى لو وجد هؤلاء يبقى ألا شيء ولا أحد يسعه أن يعيق، خاصة عندما يتعلق الأمر بتاريخ شعب كامل، أي إجراء بحث معمق حوله ناهيك عن النزاهة التي ينبغي أن يتحلى بها عمل كهذا.

من الواضح جدا أن الوضع العام للمجتمع الجزائري آنذاك ساهم بقسط وافر في تسهيل احتلال الجزائر، فجيشها أو جيوشها كانت تعكس ذلك الوضع. ويبقى أن نخضع الأمر لبحث مدقق قد يكشف و يفرض تحاليل أكثر تخصصا.

النظام السياسي-الاجتماعي للجزائر سنة 1830

إن انهيار ما كان يقوم مقام سلطات البلاد والمناطق في بضعة أيام، يبين بجلاء أن البلد بأسره لم يكن مهيئا للحرب فحسب وإنما وذلك هو الأخطر لم تكن روابط الشرعية التي كان يجب أن تقام بين هذه السلطات والسكان على أساس الاحترام المتبادل موجودة أو كانت ضعيفة جدا ومهزوزة، وإلا كيف يمكننا تصور أن داي الجزائر وبايات كل من وهران ومستغانم والتيتري استسلموا في أقل من شهر دون أن يحاول

ولا واحد منهم المقاومة أو تنظيم رد ضد المستعمر الفرنسي ، ويتفق جميع المؤرخين حول هذا العجز ولكن لنرى بأي قراءات:

يرى مصطفى لشرف أن "هذه الشخصية المرموقة، - باي وهران، الباي حسان- وهو يشعر بالعزلة في منطقته مع وحدة من الانكشاريين لم يتمكن كما فعل نظيره في قسنطينة، من تنظيم المقارنة. وعليه سارع إلى فتح المدينة للفرنسيين وأبقي في الحكوم إلى غاية فيفري 1833 /.../ وكذلك كانت الحال بالنسبة لباي مستغانم، الباي إبراهيم الذي اعترف بالسلطة الفرنسية للحفاظ على حكومته (13)".

وفي حديثه عن باي قسنطينة، كان على الكاتب الذي اعترف بمزايا هذا الأخير، مقارنة مع نظرائه من غرب الجزائر إلا أن يكتب ما يلي:

"كان الباي أحمد ومساعدوه الإقطاعيين قد فقدوا إلى حد كبير محبة الجماهير القسنطنية، الشيء الذي يفسر السهولة، وتبقى نسبية، التي تمكن بها الإمبرياليون الفرنسيون من غزو ومراقبة كل منطقة الشرق باستثناء القبائل الصغرى والمناطق الجبلية الساحلية(13)".

إن خضوع سلطات المناطق الجزائرية لجيش الاحتلال الفرنسي لم يتم في العديد من الحالات بالاحتكام إلى الأسلحة، وإنما كان استسلاما دون مقاومة من طرف أشخاص كان همهم الوحيد إنقاذ "عرشهم". والأكثر دلالة على نفسيتهم هو أن بعض السلطات المحلية لم تنتظر حتى تطلب منها فرنسا الاستسلام بل استبقت الأحداث وبادرت من تلقاء نفسها إلى فتح الأبواب أمام الاحتلال مثلما أظهره جليا مؤلفو كتاب: "الجزائر ماضيا وحاضرا".

إن التذكير بمسلسل عمليات الاستسلام ودوافعه الضمنية أو الظاهرة تكفي لوصف الحالة النفسية التي كانت عليها السلطات المحلية في تلك الفترة إزاء الغزو والاحتلال الفرنسي. إن مرجعياتنا مستندة من الكتاب السالف الذكر (14):

- 14 جوان 1830: إنزال الجيش الاستعماري الفرنسي بسيدي فرج.

- 4 جويلية 1830: الاستيلاء على الجزائر العاصمة.
- 5 جويلية 1830: استسلام الداي حسين، داي الجزائر
- 6 جويلية 1830: باي التيتري "يعلن خضوعه" مقابل تأكيد سلطته وإن كانت مؤقتة وشكلية.

جويلية 1830 (قبل يوم 22) يقتدي باي وهران يقتدي بنظيره الباي حسن، باي التيتري. لقد عرض "دفع الضريبة التي كان يدفعها من قبل إلى داي الجزائر شريطة أن يعترف بسلطته". إلا أن ذلك لم يدم طويلا. وبعد أن فقد احترام سكان منطقة وهران، الذين كانوا يلومونه على تسليم المدينة إلى القوات الفرنسية التي اعتبرته بدورها غير قادر على الوفاء لفرنسا، تم ترحيله في مارس 1831 إلى مصر، بعد أن استبدله الجنرال كلوزيل قبل شهر من ذلك، بفضل عملية دبلوماسية، كانت على قدر من التفاهة والارتياب ، بآغا يمثل شكليا باي تونس و لكنه أكثر ضعفا وخنوعا من سابقه المخلوع.

إنه لمن البديهي أن السرعة التي تمكن بها جيش الاحتلال الفرنسي من الاستيلاء على أهم المدن الساحلية للجزائر والاستسلام السريع للسلطات المحلية تبين أن السكان الجزائريين كانوا معزولين عن شؤون بلدهم وأنهم كانوا زيادة على ذلك مستغلين بقسوة سواء من طرف السلطات التركية أو من طرف أذيالها أو أذنابها الإقطاعيين الجزائريين، ذلك ما يفسر بوضوح انهيار الجزائر الرسمية شهرا واحدا بعد الإنزال الفرنسي في جوان 1830 على السواحل الجزائرية.

كلما أمعنا النظر في الأمر وكلما تعمقنا في تاريخ الوجود التركي في الجزائر، الذي دعا إليه مبدئيا الجزائريون، للتخلص من الهيمنة الأسبانية على أغلب موانئ البلاد خلال العقد الأول من القرن السادس عشر، ندرك بسهولة أنه لم تكن هناك ثمة انسجام راسخ وكامل

في وجهات النظر بين الجزائريين وحماتهم الأتراك الذين أصبحوا أسـياد البلاد ويتصرفون مثلهم مثل الأجانب الآخرين كمحتلين حقيقيين يسيطرون على حق السكان في الحياة والموت.

أمامنا مثلان لتوضيح العلاقات التي كانت قائمة بين السكان الجزائريين والسلطات التركية المكلفة بشؤون البلاد. استقينا المثل الأول من الكتـاب الذي سبق ذكره: الجزائر، ماضياً وحاضراً حيث يمكننا قراءة:

"في النهاية لم يكن الأمر يتعلق لا بإقامة أسـرة مالكـة ولا بتعزيـز السيادة العثمانية المطلقة التي ميزت تطور السلطة فـي الجزائـر بـين القرنين الـ16 والـ 19 : اللودجاك (مليشية انكشارية تركيـة أو طبقـة عسكرية) التي أدت الحاجة إليها بخير الدين إلـى الاعتـراف بالسـيادة المطلقة للباب العالي في حكومة الجزائر وهو توجه جعل من البلد ملكـا للطبقة الحاكمة (15) التي تحولت إليها اللودجاك تدريجيا (16)".

وفي خلاصة دراسة الفترة العثمانية يرى مؤلفو نفس الكتاب أن:

"الجميع كان يتقاسم نفس الإحساس بمعاداة النظام الإقطاعي التركي... حيث كان يعاب عليه التحالف مع قوى الكفار وتفضيل البيوت الأجنبيـة ورجال الأعمال اليهود على حساب الجزائريين المسلمين وفرض ضرائب على المؤمنين لم يأت بها القرآن الكريم وكذا عدم المساواة بين المسلمين خلافا لما جاء في القرآن الكريم (17)".

يمكننا أن نستخلص مايلي من مؤلف لكاتب جزائري يخص العلاقـات بين السكان المحليين، والمحتلين الأتراك:

"إن توسع دولة الجزائر لن يعني بعد الآن توسع التجـارة وتحويـل، الإنتاج في المدن وزيادته في نفس الوقت وإنما يعني فقط السعي الحثيث من طرف طبقة من المحظوظين علـى اقتطـاع أكبـر حجـم ممكـن من الضرائب واقتسامها!! فقد باتت الشرائح الواسعة، من سـكان القـرى

أو سكان المدن الذين اضطهدوا، وتم التخلي عنهم، لا تبالي بدولة لم تعد حتى تبحث على كسب ضمير المجتمع (18) ".

بناء على ذلك، ومهما كان الجانب الذي نتناول به مسألة العلاقات الجزائرية التركية يبدو أنه لن يمكننا وصفها إلا من زاوية الهيمنة وحتى الاستغلال التي أدت، جزئيا ثم كليا، بالسكان الجزائريين إلى رفض التواجد التركي في الجزائر. وبالتالي كان على الأتراك مواجهة العديد من الانتفاضات في مناطق شاسعة من البلاد بعضها منظمة ومسيرة حسب النظام الجمهوري أو النظام الملكي. والشيء الذي لا يمكن أن يضللنا حول نوعية هذه العلاقات هو أن هذه الانتفاضات، الناجحة في بعض الأحيان، كانت تلقى ردا قاسيا وقمعا شرسا من طرف الطبقة العسكرية التركية والمليشيات المحلية التي وضعها المحتل ليحكم قبضته على السكان.

لا أعتقد أنه يمكن الحديث عن طلاق بين السكان الجزائريين والسلطات التركية طالما يظهر جليا أنه لم يسجل في أي وقت من الأوقات انسجام عميق للتواجد الطويل لهذه الأخيرة ولا حتى وبدرجة أقل لطبيعة النظام أو الأنظمة التي أقامتها ولسلوكها في تسيير الشؤون العامة.

وعليه، ليس من الغريب أنه في الوقت الذي وطأت أقدام الفرنسيين أرض الجزائر، كانت مواجهة هؤلاء مع الشعب الجزائري أقل بالنظر إلى مواجهتهم مع السلطة التركية التي كانت ترتكز على طبقة عسكرية لم يكن يهمها هي الأخرى سوى الامتيازات، وما فتئت تضعف سلطة البايات لتستفيد من ذلك. وهذا ما يفسر الحاجة إلى وقت طويل بل إلى سنوات تأخذ الجزائر العميقة، جزائر الشعب الجزائري، بزمام الأمور في مواجهة الاحتلال الفرنسي وتنظم مقاومتها. ومنذ ذلك الوقت لم يكن أمام هذه الأخيرة من بد ، بالنظر إلى وضعية المجتمع الجزائري، من الارتجال الذي سيكون نقطة ضعفها الكبرى كما سنرى ذلك.

الإستراتيجية العسكرية لحركات المقاومة الجزائرية

هناك نوع من المخاطرة في محاولة الموازاة بين قواعد حرب العصابات الحديثة، وأشكال الكفاح التي لجا إليها الجزائريين في مقاومة الاحتلال الفرنسي، أو التحرر منه في مراحل عديدة. وقد نميل للتساؤل لماذا لم يتبن الجزائريون سواء سنة 1830 أو سنتي 1871 و1881، وحتى سنة 1945 تقنيات كفاح تمكنهم من الانتصار على الاحتلال الفرنسي؟

أليس ذلك ببساطة بسبب جهلهم لتقنيات حرب العصابات التي لم توسع وتعمم إلا بعد قرابة قرن من حروب التحرير الوطنية ، كما حدث في العديد من البلدان، بسبب مقاومة جيوش هتلر والجيوش اليابانية التي غزت قارات كاملة. أو تكون الظروف الاجتماعية والسياسية سبباً في ذلك لكونها لم تكن تسمح بإعداد وتنظيم كفاح شعبي مواتٍ أو بسبب تلك الفكرة التي كانت لدينا عن الكفاح، والحرب بصفة عامة والتي تعود إلى أولى المعارك التي خاضها الإسلام والتي كانت مطبوعة بروح الفروسية والإقدام التي نجدها في سلوك الأمير عبد القادر؟

إن طرح هذا التساؤل لا يستجيب للرغبة في معرفة الجواب ، الذي يكون صعبا ومعقدا وبالتأكيد ضروريًا وممكنا، وإنما لنسجل أن ثوار سنة 1954 لم يكونوا ليتجاهلوا عبر الماضي ودروسه ، لاسيما تلك المتعلقة بالإستراتيجية المنتهجة ضد القوات الاستعمارية.

الواقع أن شهادات عديدة تؤكد أن الانتفاضات السابقة التي شنها الجزائريون ضد فرنسا آ لت كلها إلى الفشل، بسبب عدم وجود إستراتيجية تناسب القوات والأسلحة الموجودة. ونعتقد من جهتنا أن الأسباب الثلاثة التي يتمحور حولها السؤال المطروح تجد مكمنها في تصرف الجزائريين خلال مختلف الانتفاضات ضد فرنسا.

قد نقر بأن حرب العصابات لم تكن تقنية حرب شائعة في القرن التاسع عشر. ولكن لا يسعنا التصديق أنه لم يكن هناك جزائري واحد كان على علم بمقاومة الأنصار الأسبان ضد جيوش نابليون الأول من سنة 1809 إلى سنة 1812.

في الواقع وبقدر ما نستطيع فك عقدة الثورات ضد فرنسا، يبدو أن تقنية حرب العصابات طبقت حتى وإن لم يكن الأمر معروفا على مستوى التحضير النظري.على الأقل، في عهد الأمير عبد القادر، كما تتبيّن من المقطع الذي ورد في إحدى رسائله الموجهة إلى الماريشال بيجو والذي يقول فيه:

"السعي إلى مواجهة القوات التي تسوقها وراءك سيكون ضربا من الجنون ولكننا سنرهقها وسنلاحقها وسندمرها تدميرًا... سنحارب عندما نرى ذلك ملائما (19) ".

سنقدر مدى وجاهة وصواب حكم الأمير عبد القادر الذي يمكن أن يعتبر عن جدارة من الرواد الأكثر تبصّرا لحرب الأنصار. ولكن ما يثير الحيرة هو أنه بالرغم من إدراكه اختلال التوازن بين قواته وقوات فرنسا، لم يلجأ في كفاحه في كل مكان وفي كل وقت إلى تلك التقنية التي كانت ستعوض ذلك الاختلال وجعل احتلال الجزائر مكلفا إن لم تتمكن من الحيلولة دونه. عندما نتذكر أن فرنسا ترددت قرابة عقد كامل بخصوص معرفة إن كان يجب عليها احتلال الجزائر أم لا، يكون التساؤل مشروعا إن كانت مقاومة أكثر شمولا وأقل ترددا كذلك من طرف الجزائريين قادرة على تجنيب الجزائر الاحتلال الطويل الذي شهدناه.

حقا أنه بالنظر إلى وضعية المجتمع الجزائري والنظام السياسي الاجتماعي الذي كان سائدا خلال الغزو الفرنسي، لم يكن بالإمكان تصور مقاومة صارمة وذات بعد وطني. لقد كان للأمير عبد القادر أن ينتظر

طويلا قبل أن يفرض وجوده في المنطقة الوهرانية وحتى على العديد من رؤساء القبائل الذين كانوا خصوما له. كان عليه محاربتهم أولا ليفرض نفسه وإن لم يمنعه ذلك من تسجيل هزائم نكراء على غرار ما حدث له في محاربته آغا لتركيا يدعى مصطفى بن إسماعيل. نلاحظ أن الكثير من التردد بل كثير من الارتباك والغموض قد انتاب قيادة المقاومة الجزائرية.

هكذا تمت الإشارة إلى أن الأمير عبد القادر رفض سنة 1835 "الالتحاق بالجهاد الذي دعاه إليه الدرقاوي حاج موسى" لكي لا ينقض معاهدة "دوميشال" (Desmichels) التي أبرمها في 26 فيفري 1834 مع الجنرال الفرنسي التي تحمل اسمه.

نجد نفس التمسك بالعهود في مواقف الأمير عبد القادر اللاحقة إزاء الفرنسيين، الشيء الذي يوحي أن لجوءه إلى تقنيات حرب العصابات لم يكن دائما ولا شاملا.

لئن كانت المباغتة والمخادعة والتحرك تشكل الأسس الرئيسية لحرب العصابات، يصعب أن نفهم كيف يمكنها التوافق مع روح الفروسية تلك التي كان يعتز بها الأمير كثيرا كما تؤكد ذلك الفقرة الموالية من الرسالة التي كتبها يوم 3 نوفمبر 1839 للماريشال فالي (Valée)، القائد الأعلى للقوات الفرنسية وفي نفس الوقت الحاكم العام للجزائر: "لقد كنا نعيش في سلام، وكانت الحدود مرسومة بشكل واضح بين بلدكم وبلدنا... لقد أعلنتم أن كل المقاطعة الواقعة بين الجزائر وقسنطينة لم تعد معنية بأي أمر يصدر مني. أنتم من بادر بالقطيعة. ولكن، وحتى لا تتهمونني بالخيانة، أحذركم أنني سوف أعاود الحرب. فكونوا إذن على استعداد، وحذروا مسافريكم وعزلكم، وبعبارة واحدة احتاطوا كما ترون(20) ".

قد يكون انضمامنا إلى الأمير عبد القادر مطلقا ولكن ليس إلى درجة عدم تسجيل طريقته الفريدة في محاولة طرد المستعمر من بلده خاصة وأن تحايل

القيادة الفرنسية ـ من أول قائد إلى آخر قائد ـ كان من المفروض أن ينبهه من التبعات الخطيرة لروح الفروسية التي لم تكن مجدية ولا حتى واردة عندما يتعلق الأمر بصد المحتل. وبالفعل لم يغير الفرنسيون طوال غزوهم للجزائر ممارساتهم التي كانت تستهدف استسلام السكان سواء من خلال إغراءات مخادعة أو بواسطة سياسة إبادة للسكان وأملاكهم.

قد يطول ذكر كل العمليات المريبة التي قادها الجنرالات الفرنسيون من أجل القضاء على المقاومة الجزائرية. لنذكر مع ذلك بعض الحالات منها: لنبدأ بالمسؤول الأول لجيش الاستعمار الفرنسي. لقد اطلع بعد شهر واحد من إنزال سيدي فرج، الجنرال دو بورمون (De Bourmont) وزيره للحرب أن تواطؤات داخل البلاد قد تعجل شيئا فشيئا ظهور الشقاق بينهم(21). لقد أدركنا أن الأمر يتعلق بإثارة انقسامات ونزاعات فيما بين الجزائريين حتى تحكم السيطرة عليهم. وعمليا، قاتل العديد من الجزائريين بعضهم البعض الأمر الذي أثار ارتياح القادة الفرنسيين الذين كانوا يؤججون الفتنة بدعم هذا الطرف على ذاك تارة لضمان القضاء على الجميع تارة أخرى.

وفيما يخص المعاهدات المبرمة سواء مع السلطات التركية خلال الأيام الأولى من الاحتلال أو فيما بعد مع الأمير عبد القادر في معاهدتي دوميشال والتافنة، لا يوجد أبلغ اعتراف يترجم الحالة النفسية الفرنسية من اعتراف الجنرال بيجو أمام غرفة النواب سنة 1838 عندما أكد أن "المعاهدات لن تربط أبدا الأمم إلا إذا كانت مطابقة لمصالحها(22)".

كل الدواعي تجعلنا نصدق هذا الأخير الذي سيعرف كأحد أبشع مستعمر للجزائر. وإذا كانت المعاهدات التي وقعها هو ومن سبقوه تخدم مصلحة فرنسا كما هو جلي فإنها لم تكن لتخدم مصلحة الجزائر في نفس الوقت. وقد بينت الأحداث ذلك جليا.

مع ذلك لم تتغير الإستراتيجية لا من جانب ولا من آخر لســوء حـظ الشعب الجزائري. وفضلت فرنسا، وليدة المسيحية ومهد حقوق الإنسان، والتي أدركتها نشوة الهيمنة بلا عناء فأعمتها، أن تغض النظر عن حرق السكان وتدمير أملاكهم وعــن سياســة التجويــع والأرض المحروقــة التي طبقتها وحداتها لتهتم فقط بذلك المجد وبالأرباح الطائلة التي كانــت ستجنيها من الجزائر. لماذا إذن تغيير إستراتيجية حققت لها نجاحا بــاهرا وإن كانت على درجة من الوحشية والــدمار؟ أمــا الجزائريــون فمــا كانوا ليستخلصوا العبر من هزائمهم ولا من مخادعة القيادات الفرنســية ولا حتى من وحشيتها. ظنا منهم أن الشجاعة تفترض مواجهة المــوت، كانوا يذهبون إلى القتال كما كان يذهب الأســلاف قبــل آلاف الســنين في صفوف مرصوصة. ذلك ما توحي به عدد مــن الأحــداث وإن كنــا نعتبرها من أكثر فصول تاريخ كفاح الشعب الجزائري بطولة.

ليس أمامنا بد من الوقوف إجلالا أمــام جــرأة وشــجاعة و بطولــة لالا فاطمة انسومر التي أرادت أن تشن يوم 22 مــارس 1871 هجومــا في أعالي "فور ناسيونال" (القبائل الكبرى) مع آلاف المسبلين مــن أجــل إبعاد القوات الفرنسية لكن لنــذكر أن تلــك الحملــة أودت بحيــاة 2280 من هؤلاء المقاتلين البواسل الذين سحقتهم، في عين المكــان، الأســلحة الثقيلة لجيش الاحتلال.

ماذا كان يأمل كذلك المقراني لما زج بـــ 150000 قبائلي في معركــة ضد فرنسا دون تحضير ولا تنسيق ولا قيادة، أو أخوه بــومزراق الــذي خلفه لما نقل الكفــاح إلــى الجنــوب الجزائــري أو حتــى بوعمامــة إلى المساحات الشاسعة والجرداء من الجنوب الــوهراني ســوى أنهــم وفي ظل الافتقار لإستراتيجية مواتية وخيار أفضل للميدان، شكلوا لقمــة سائغة لوحدات الموت الفرنسية؟

ثمة أمر مأسوي في عدم تغيير إستراتيجية الجزائريين اتجاه فرنسا من يوم احتلال الجزائر إلى عشية الفاتح من نوفمبر 1954. ينتابنا شعور عميق إزاء الذهنيات التي لم تتطور وأن هناك نوعا من الجمود في التصور من أجل مواجهة الوجود والقوة الفرنسية مواجهة الند للند. كان يمكن الاعتقاد أن تربية بعض الجزائريين وهجرة عدد كبير منهم، والتنقل عبر العالم بالنسبة للبعض ومشاركة عدد كبير منهم في الحربين العالميتين، كلها عوامل كانت دوافع أو دواعي لضرورة تغيير المنهج تجاه فرنسا. لم يحدث شيء من هذا. حتى سنة 1954، لقد كرر الجزائريون نفس الأخطاء المأسوية التي كلفتهم غاليا، ظنا منهم أن الشعب الأعزل قادر على الصمود أمام الوحدات الفرنسية التي كانت أسلحتها المتطورة تتسبب في مجازر. سنرى أن الفكر العسكري للجزائريين، إن كان بالإمكان استعمال عبارة كهذه، كاد يقع في نفس الأخطاء خلال الأشهر الأولى من ثورة 1954. ومع ذلك لا يمكن أن يلتمس لهم عذر الافتقار إلى التجارب التي كان بإمكانهم الاقتداء بها.

إن كفاح الايرلنديين ضد المملكة المتحدة، والمسيرة الكبرى لماوتسي تونغ ضد قوات تشانغ كاي شيك والقوات اليابانية وكذا المقاومة البطولية والمظفرة التي خاضها الفيتناميون ضد فرنسا احتلت طويلا صدارة الأحداث وذاع صيتها في العالم بأسره بحيث أنه لم يكن معقولا أن يجهلها الجزائريين كلهم. حقا قد يكون الفرق مأسويا بين مجرد السماع عن كفاح واستيعاب طرقه ومناهجه والقدرة على تكييفها مع قضيتنا. فلنقر إذن، من باب إنصاف التاريخ، أن المقاومات الجزائرية لم تتمكن من تبني الإستراتيجية العسكرية المناسبة من أجل القضاء على الهيمنة الفرنسية.

إن جهل الوسط الدولي والأوروبي أساسا وكذا السياق الذي كانت تنتهج فيه سياسة فرنسا سواء في الداخل أو في الخارج كان صارخا. لنرى كيف ذلك.

ثمة أمر مأسوي في عدم تغيير إستراتيجية الجزائريين اتجاه فرنسا من يوم احتلال الجزائر إلى عشية الفاتح من توفمبر 1954. ينتابنا شعور عميق إزاء الذهنيات التي لم تتطور وأن هناك نوعا من الجمود في التصور من أجل مواجهة الوجود والقوة الفرنسية مواجهة الند للند. كان يمكن الاعتقاد أن تربية بعض الجزائريين وهجرة عدد كبير منهم، والتنقل عبر العالم بالنسبة للبعض ومشاركة عدد كبير منهم في الحربين العالميتين، كلها عوامل كانت دوافع أو دواعي لضرورة تغيير المنهج تجاه فرنسا. لم يحدث شيء من هذا. حتى سنة 1954، لقد كرر الجزائريون نفس الأخطاء المأسوية التي كلفتهم غاليا، ظنا منهم أن الشعب الأعزل قادر على الصمود أمام الوحدات الفرنسية التي كانت أسلحتها المتطورة تتسبب في مجازر. سنرى أن الفكر العسكري للجزائريين، إن كان بالإمكان استعمال عبارة كهذه، كاد يقع في نفس الأخطاء خلال الأشهر الأولى من ثورة 1954. ومع ذلك لا يمكن أن يلتمس لهم عذر الافتقار إلى التجارب التي كان بإمكانهم الاقتداء بها.

إن كفاح الايرلنديين ضد المملكة المتحدة، والمسيرة الكبرى لماوتسي تونغ ضد قوات تشانغ كاي شيك والقوات اليابانية وكذا المقاومة البطولية والمظفرة التي خاضها الفيتناميون ضد فرنسا احتلت طويلا صدارة الأحداث وذاع صيتها في العالم بأسره بحيث أنه لم يكن معقولا أن يجهلها الجزائريين كلهم. حقا قد يكون الفرق مأسويا بين مجرد السماع عن كفاح واستيعاب طرقه ومناهجه والقدرة على تكييفها مع قضيتنا. فلنقر إذن، من باب إنصاف التاريخ، أن المقاومات الجزائرية لم تتمكن من تبني الإستراتيجية العسكرية المناسبة من أجل القضاء على الهيمنة الفرنسية. إن جهل الوسط الدولي والأوروبي أساسا وكذا السياق الذي كانت تنتهج فيه سياسة فرنسا سواء في الداخل أو في الخارج كان صارخا. لنرى كيف ذلك.

جهل العوامل الخارجية

الملفت للانتباه عندما نبحث في مقاومة الشعب الجزائري ضد الهيمنة الفرنسية، هو الغياب التام للبعد الخارجي للكفاح. ربما تأثرنا بالنضالات المعاصرة حيث كانت العوامل الخارجية متناسقة بشكل واسع ودائم مع الجهد الوطني الداخلي. وعلى الأرجح كذلك كانت السياسة خلال القرن التاسع عشر إقليمية حصريا في الوقت الذي توسعت فيه وامتدت تدريجيا إلى العالم بأسره طوال القرن العشرين. ولكن ليس ثمة ما يوحي أن الجزائريين حاولوا في مختلف مراحل كفاحهم إدراج نضالهم ضمن بعد إقليمي وبقدر أقل دولي. وأكثر من ذلك نلمس جهلا تاما للوسط الدولي حتى وإن كان مقتصرا على الحدود الأوروبية المتوسطية. فالحياة في فرنسا لم تكن هي الأخرى معروفة ولا حتى مأخوذة بعين الاعتبار على غرار باقي أوروبا أو العالم المتوسطي.

لا يبدو كذلك أن العلاقات مع البلدين الواقعين على حدودها، الوصاية على تونس و المملكة المغربية، كانت بوجه خاص مكثفة أو أنها استغلت لترجيح الكفة أمام قوة فرنسا أو على الأقل للوقاية من المخاطر التي تشكلها بالنسبة لها.

على العكس، يكون عبثا البحث عن رد فعل عدواني من الجارين المغاربيين للجزائر ضد احتلال فرنسا لهذه الأخيرة. وباستغراب، نلاحظ أن بعض المؤرخين سجلوا بالعكس بعض التقارب مع محتل الجزائر الذي ما لبث يغذي مطامعه الاستعمارية حيال تونس والمغرب.

بخصوص تونس، كتب أندري ريمون (André Raymond) وجون بونسي (Jean Poncet) أن "باي تونس أبرم مع الماريشال كلوزيل، حاكم الجزائر آنذاك والقائد الأعلى للقوات من جويلية 1835 إلى فيفري 1837، اتفاقا يتضمن تنصيب أميرين تونسيين في وهران، وقسنطينة بدعم من فرنسا:

ولهذا الغرض تم بتونس تحضير مجموعة من الوحدات "على الطريقة الأوروبية" مع مدربين فرنسيين(23) ". فلم تجد الجزائر دعما هاما لا من جارتها في الشرق، ولا من جارها في الغرب.

في هذا المقام كذلك هناك تصريح للكاتب جون لوي ميــاج (Jean Louis Miège) صاحب كتاب قال فيه أن: حول المغرب أن مولاي عبد الرحمان، سلطان المغرب الذي حكم من 1822 إلى 1859 " لم يحاول إعاقة استقرار القوات الفرنسية في الجزائر لكنه وجد نفسه ملزما، بعد فرار عبد القادر إلــى المغرب، بالنظر إلى مشاعر رعاياه، بتغيير سياسته ولو لفترة وجيــزة (24)". بموجب المعاهدة الفرنسية المغربية المبرمة يوم 18 مارس 1845 بعد الهزيمة التي ألحقتها قوات بيجو بالجيش المغربي في وادي إسلي في 14 أوت 1844 كانت إقامة عبد القادر وأتباعه مستحيلة في كامل التراب المغربي.

ليس ثابتا، مثلما يسجل العديد من المؤلفين، أن سبب ضرب الجــيش الفرنسي للقوات المغربية في الأراضي المغربية يعود "لمناورات" عبد القــادر بالمغرب سنة 1844 أو للدعم الملكي الذي يكون قد حظي به. فمطــامع فرنسا في المغرب كانت واردة قبل تلك المعركة. وإذا لم تحقق مآربهــا فإن ذلك يرجع بالخصوص إلى تصادمها مع أطماع أخرى لاسيما أطماع أسبانيا وانجلترا اللتان لم يكن بوســعها أن تــدخل معهمــا فــي نــزاع مباشر. ولكن يبقى مع ذلك، أن مصادر مختلفة ذكــرت دعــم المغــرب للجزائر وإن كان محتشما وقصير المدى. هل يجب أن نرى في غيــاب التضامن بين بلدان المغرب العربي الثلاث نتيجة خصام بينهــا أو مــرآة تعكس وضعية مجتمعات في ظل الأزمة أو التخوف من فقدان سيادة على غاية من الهشاشة؟ نعتقد أن كل فرضية تنطوي على شيء من الحقيقــة وأن كل هذه العوامل تضافرت لتجعل الجزائر تدفع ثمن التوغل الأول لفرنســا في شمال إفريقيا.

الحديث عن مواقف تونس والمغرب خلال احتلال الجزائر قد لا يفيد فقط في توضيح العلاقات بين البلدان الثلاث بعد نحو قرن خلال كفاحها التحرري بل إنه يدل على مكانة الأمم وألاعيبها في حدود سنة 1830.

ينبغي التسليم بأن تونس والمغرب كانا، خلافا لبلدنا، منشغلتين بما فيه الكفاية بالمخاطر التي كانت تحدق بهما لتجعلهما تدخلان ، كرهاً أو طوعا، في لعبة تحالف ومصالح، جعلتهما بادئ ذي بدء في منأى عن احتلال مبكر من طرف فرنسا ثم أعطت بعد ذلك هذا الاحتلال طبيعة قانونية مختلفة وأقل وطأة من ذلك الذي ساد في النهاية بالجزائر وأخيرا وبسبب ذلك الوضع بالذات، سمحت لهما بالمحافظة على هويتهما الوطنية وهو الأمر الذي جعل احتلالهما وتحريرهما أقل كلفة.

أعتقد، على أن يخضع الأمر لبحث موسع، أن التونسيين والمغاربة استغلوا بشكل جيد التنافس الأوروبي من أجل الاحتفاظ بسيادتهما وتأخير موعد احتلالهما أو أشبه به، وانحطاطهما على ابعد قدر ممكن. لم يسجل مثل هذا الموقف للجزائريين خلال السنوات التي سبقت سنة 1830 أو تلتها. ولما كان هذا القول في حاجة إلى دليل نعرض عليكم الشهادة التالية بخصوص تونس.

"كانت تونس مدة نصف قرن من الزمن، مركز لعبة دبلوماسية معقدة حيث كانت فرنسا تحمي الباي من السلطان وبريطانيا العظمى تعرض حمايتها ضد فرنسا وتركيا تظهر رغبة أكيدة في الإستيلاء كلية على تونس لتحسن حمايتها (23)".

ونتيجة ذلك التشابك الدبلوماسي، حسب نفس المؤلف دائما هي أن:

"بايات تونس وعلى وجه الخصوص أحمد باي (1837-1855) استغلوا هذه المعارضات لتعزيز استقلالهم الذاتي وتحويله إلى شبه استقلال".

وحاول المغرب الذي كان بنفس هشاشة تونس حاول هو الآخر، استغلال التنافس بين الأوروبيين. والدليل على ذلك أنه استطاع بفضل رد فعل

انجلترا تفادي الوقوع في نير الاحتلال الفرنسي عندما اضطر بيجو بحجة القضاء على عبد القادر إلى محاربة الجيش المغربي في عقر داره بواد إسلي، مثلما ذكرنا سالفا. وسارعت انجلترا نفسها لإنقاذ المغرب، خدمة لمصالحها الخاصة بكل تأكيد، عندما أجبرت الأسبان سنة 1862 على الجلاء عن مدينة تيطوان التي كانوا احتلوها حديثا. وبفضل لعبة تحالف ذكية- حتى وإن كانت في كل مرة تنعكس بتنا زلات من المغرب وبإضعاف متواصل لسيادته لم يقع المغرب تحت الحماية الفرنسية إلا في مارس 1912، أي بعد قرن تقريبا من احتلال الجزائر، وهذا الأمر ليس بالهين.

إن الجزائر التي لم تلق مساعدة من جيرانها أو بالأحرى لم تجد قط تلك المساعدة، إنها لم تتمكن أو لم تعرف كيف تكسب مساعدات أخرى كانت تثني فرنسا بالعدول عن احتلالها أو على الأقل تؤخره وتجعله في كل الأحوال أكثر كلفة وأقصر أمدا.رغم أن هناك عوامل خارجية في فرنسا نفسها، أو في أوروبا التي أثرت فيها الثورات والأطماع الاستعمارية، كانت في صالحها وإن كان يجب تقديرها بحذر لتفادي فخ ظاهرة عولمة مشاكل اليوم، إذ أن مشاكل تلك الفترة كانت محصورة للغاية.

لقد عرفت فرنسا وحدها، خلال الأربعين سنة من 1830 إلى 1870 التي كانت ضرورية للقضاء على المقاومة الجزائرية ولستكمال احتلال البلد، ما لا يقل عن:

- ثورتين: ثورة 1830 وثورة 1848
- انقلاب لوي نابليون بونابرت سنة 1851
- إعادة الاعتبار للإمبراطورية سنة 1852
- الحرب ضد روسيا من سنة 1854 إلى سنة 1856
- حملة ضد المكسيك (البعيد) من سنة 1863 إلى سنة 1867
- وأخيرا الحرب ضد بروسيا في جويلية 1870 التي فقدت فرنسا فيها وفي أقل من شهرين جزءا كبيرا من جيشها وسجن إمبراطورها

في سيدان كما أنها ضيعت مقاطعة بأكملها-الألزاس-واللوين- خلال توقيع معاهدة فرانكفورت في 10 ماي 1871.

طوال هذه الفترة كلها، سجلت فرنسا على الصعيد الداخلي اضطرابات اجتماعية وسياسية خطيرة في حين كان لذكريات الحروب النابليونية في الخارج تأثيرا كبيرا على ائتلاف مختلف الممالك الأوروبية: لانجلترا وبروسيا والنمسا وروسيا، التي كانت تحرص على معارضة كل مبادرة من فرنسا ورفض توسعها بضم بلجيكا واللوكسمبورغ ومنطقة الرين.

فمن البداهة إذن أن تسعى فرنسا لتعويض فشلها في أوروبا بتحويل سيطرتها إلى إفريقيا لكن ما يصعب فهمه هو عدم محاولة البلدان التي كانت ضحية التوسع الفرنسي، فيما بينها أو مع بعض القوى الأوروبية المنافسة لفرنسا، إبعاد مثل هذا الخطر. ما سبب هذا التقصير؟ يبقى هذا السؤال بالنسبة للمؤرخين والباحثين تحديا كبيرا.

فيما يخص بلدنا، نعتقد أننا أشرنا أن عدم تحضيره، الذي يعود بدرجة كبيرة إلى نوع من النفور المتبادل بين سلطة أجنبية وشعب مغلوب على أمره كلية ثم إلى كفاح متجزئ لم تكن إستراتيجيته مواتية إطلاقا وأخيرا إلى جهل العوامل الخارجية وعدم استغلالها، جعل احتلالها ممكنا ومستمرا رغم التضحيات الجسام التي قلما بذلت الشعوب مثلها عبر تاريخ البشرية الطويل والمأسوي.

لم يعد ممكنا تجاهل هذا الاستنتاج خاصة من قبل أولائك الذين كان لهم الحظ الأكبر في إقحام الشعب الجزائري سنة 1954 مرة أخرى في أصعب محنة تتمثل في خوض الحرب. هل كانوا ليفعلوا ذلك- علما بكل الجرائم الهمجية والبشعة (الإحراق والإعدام بالرصاص وقطع الرؤوس والاغتصاب وإبادة الجماهير الواسعة من شيوخ ونساء وأطفال والتدمير الشامل للمحاصيل الزراعية والأشجار والحظر الغذائي الخ...)

التي نجد لها شهادات حية في العديد من المؤلفات الفرنسية التي يعود الشرف لأصحابها في تحمل المهمة النبيلة المتمثلة في نقلها وحتى التنديد بها- لو لم يلتزموا في سرهم أنهم لن يكرروا الأخطاء الإستراتيجية والتكتيكية التي وقع فيها؟ لا نعتقد ، ومرة أخرى لا يتعلق ذلك الأمر بإلقاء اللائمة على أي من الأجيال التي سبقت جيل 1954. فالحاصل أنها دفعت جميعها، الثمن الغالي، وعانت كلها الأمرين من الهيمنة الاستعمارية التي ألحقت الإهانة والمذلة بالمواطن الجزائري. وإذا كان لا يمكن للباحث اليوم، بعد مرور كل هذا الوقت ومع كل هذه التجارب التاريخية ، أن يتكتم على نقاط ضعف وعجز المجتمع الجزائري قبل الفترة الاستعمارية وبعدها وليس ذلك للزيادة في مأساته التاريخية وإنما لاستخلاص العبرة بالنسبة للحاضر والمستقبل البعيد. وعلينا في الوقت الراهن الرجوع إلى ربيع 1955 الذي كانت كل المنافذ -مأسوية كانت أم سعيدة- ما تزال ممكنة.

عقب هذه الرحلة الاستكشافية في ماضي المقاومات الجزائرية لن يكون من باب الإتهام تصور بأن هاجس فشل أسلافهم كان ملازما لقادة الثورة الأوائل.

لم يكن مسموحا بالتفاؤل نتيجة الكفاح المسلح الذي شن، إلا إذا كان هناك تغيير شامل للإستراتيجية. والواقع أن انتصار الثورة أو فشلها كان يتعلق بهذا الأمر أساسا.

صياغة إستراتيجية

"أنتم مجرمون". عبارة يكون عبان رمضان قد قالها لكريم بلقاسم أثناء إحدى اللقاءات الأولى التي جمعتهما، بخصوص الظروف التي قرر فيها القادة التاريخيون الستة تفجير الثورة.

بعد أن سمع العديد من الناس يقولون أن الثورة لم تنظم تنظيما حسنا ولم تحضر جيّدا وإنما قررت بشكل ارتجالي، وبعد ما بلغه عن الظروف التي كانت سائدة حينها في الجبال آنذاك نقص الأسلحة، والمال، والاتصالات_ فقد تخوف من سيصبح فيما بعد، مسؤول منطقة الجزائر العاصمة، من الفراغ وغياب الإطارات. وقد أكد ذلك وكرره مرارا لعدد من رفاقه.صحيح أن المناضلين على قلتهم كانت الشجاعة والعزيمة لا تنقصهما لكن قليلا منهم فقط، كانوا يتمتعون بتكوين، ولو كان سياسيا.

فالعرض العام الذي قدم له عن الثورة كان فيه كثيرا من دوافع الخوف بالنسبة إليه. ولمجرد ربط علاقة بالماضي، قريبا كان أم بعيدا، كان بإمكان هذا التخوف أن يتحول سريعا إلى كابوس حقيقي بالنسبة لنتيجة الحرب.

لن نكف عن القول بان التوجهات الكبرى والإجراءات التي اتخذت في الأشهر الأولى من الثورة هي التي أنقذتها من الكارثة وضمنت لها النصر.

فلنتخيل برهة ما الذي كان سيحل بالثورة ، بعد اضمحلال منطقتي وهران والشمال القسنطيني مباشرة بعد نوفمبر 1954، وتفكيك منطقة الجزائر العاصمة قبيل ربيع 1955 وانطواء بل انزلاق منطقتي القبائل والأوراس- لولا وجود رجال ولو قليلين قادرين على تقييم الوضع واتخاذ الإجراءات اللازمة.

ولنقر أنه ليس من السهل في مثل هذه الحالات النظر بوضوح وبصواب للأمور بل قد نفتقد للشجاعة اللازمة لاتخاذ القرار السريع. أعلم أن ثمة خطر في محاولة إصدار أحكام نظرية عن الثورة الآن وقد انتهت وقطعت 30 سنة من الزمن. والخطر أكبر منه في محاولة إسناد الفضل في المبادرة بعمل تقويم وإنقاذ لمسؤول أو لآخر في الثورة. لكن تدنا، مضطرين، على طريقة غاليلوس نوعا ما، للقول أن هذه الثورة قد صنعها الرجال وأن بعضهم تميز أكثر من غيره.

وسيكون أكثر إجحافا من عدم الاعتراف للرجل بإنجازه واسناد الفضل لرجل آخر في عمل لم يكن له فيه باع. الحل الوحيد هو تفادي الإفراط والتفريط وإنصاف الجميع. وإذا كان لابد للحقيقة أن تظهر يوما فلا ينبغي تحريف مسارها وعدم الكشف عنها كلما أمكن ذلك.

بالنسبة للمسألة التي تشغلنا فإن تمحيص العديد من الكتابات الواردة بشأن الثورة الجزائرية ومجموعة الشهادات الصادرة عن العديد من الأشخاص من المتواضعين أو المتميزين ممن عايشوا عبان رمضان وعملوا معه تجمع على أنه، كان في تلك المرحلة الحاسمة وإلى غاية وفاته، المدبر والمخطط الكامل للثورة الجزائرية.

وسنتطرق على امتداد الكتاب الذي بين أيدينا إلى مزايا عبان رمضان وعيوبه التي سوف لن نسعى لإخفاء أي منها أو التقليل منها. إن الميزة الرئيسية التي يعترف له بها عند هذا المستوى ليست شجاعته المادية التي كان العديد من المجاهدين يشاطرونه إياها بل التصور الشامل للحرب ضد فرنسا الذي كان ينبغي شنها عليها من أجل تحرير الجزائر.

وفي الوقت الذي أخذ فيه البعض ينشغل بخصومات تافهة، والبعض الآخر يكرر ويحرك تلك الذكريات المريرة عن الانشقاقات بين مختلف فصائل الحركة الوطنية الجزائرية وفي الوقت الذي لم يكن يرى آخرون،

الجزائر إلا من خلال مناطقهم، وكثيرون لا يعرفون التخطيط للحرب ولا تنظيمها، وضع عبان رمضان صوب عينيه الأمة والشعب برمته، فراح يعمل على إخماد خصومات الماضي وحشد الهمم من أجل الغاية الوحيدة المتمثلة في انتزاع استقلال البلاد. فالحرب بالنسبة إليه كانت قضية جادة ومأسوية لن تستمر ولن تكلل بالنصر إلاّ إذا وضع للارتجال والتردد حد ، وذلك النوع وحتى نوع من التمرد لدى من استحوذوا عليها بعد العمليات الأولى المعلنة عن الكفاح المسلح.

لقد أضحت لدينا، بعد سلسلة أولى من الاتصالات المطولة والعديدة، كل دواعي الاعتقاد، إن أخذنا بأقوال بعض الأشخاص الذين شاهدوه أو لجأ عندهم في ربيع 1955 أنه توصل إلى عدد من الاستنتاجات الرئيسية التي قادته إلى وضع إستراتيجيته طوال الأشهر التي تلت إندلاع الثورة.

أول قناعة ترسخت لديه تتمثل على ما يبدو في ضرورة أن يعتنق الشعب برمته الثورة الجزائرية التي ما كان لها لتستثني أحداً من فصائلها ولا أية من شرائحها الاجتماعية. انتهى عهد الإجراءات الإقصائية التي كانت الأحزاب الوطنية القديمة تتبادلها، كما ولى عهد العتاب على الأشخاص. فالماضي هو الماضي والماضي مات كما يقول المثل العامي (اللي فات مات).كل ما يهم من الآن فصاعدا هو المستقبل. ولهذا المستقبل علينا أن نحدد أمرين هما استقلال البلد والتزام كل الذين بإمكانهم المساعدة بفعالية.لا يهم ماضيهم السياسي.كما لا تهم معتقداتهم ومطالبهم الحالية وأكثر من ذلك لا تهم جنسياتهم سواء كانوا جزائريين مسلمين أو أجانب، المهم هو أن يكون كل واحد منهم قادرا على تقديم مساهمة إيجابية في تحرير البلد.

هذا التصور يمثل قطيعة جذرية مع التصورات التي كانت لا تزال سائدة في بداية الثورة والتي تفاقمت بطريقة ما ليس فقط بفعل خصومات

ومواجهات الماضي بل وكذلك بسبب النزعات الانفعالية التي هيجت الوطنيين الجزائريين لدرجة جعلتهم ينخرطون في أحزاب متناقضة ومبعثرة.

إن فضل عبان رمضان الرجل الجديد النظيف لأن السجن كان له واقيا، وأنه لم يتورط في الاتهامات المتبادلة بين معظم القادة الوطنيين، يتمثل في أنه ألقى نظرة جديدة وواضحة على جزائر 1955 .فالأمر بالنسبة له كان يتعلق بفرنسا بكامل قوتها من جهة، ومن جهة أخرى وإنما الجزائر بشعبها الذي كان مرهقاً وخائر القوى مقارنة بالعدو الخارجي وليس الجزائريين بتناقضاتهم ومواجهاتهم الأخوية. وما من حل لتصحيح هذا الاختلال الفظيع إلا بتناسي الانشقاق والخصام والمواجهة والتناقض والإقصاء من أجل السعي لتحقيق الهدف الوحيد المتمثل في لم الشمل والوحدة والقوة والتعبئة. وهذا التصور كان يبعث على الطمأنينة والتخوف في آن واحد.فقد كان يثير قلق الذين تعودوا على التفكير بالمبدأ الراديكالي القاضي بأنك "إن لم تكن معي فأنت ضدي" وهم في الواقع مجموعة من المناضلين الذين لم يعرفوا سوى تلك الأيديولوجية الدوغماتية لحزب الشعب الجزائري الذي أصبح هو بنفسه ضحية هذه الطريقة في تكوين المناضل لجعله بمنأى عن أية أيديولوجية أخرى.وبشكل معاكس جاء خطاب عبان رمضان الواضح والمتواضع والصارم في الوقت نفسه ليثير ما هو أكثر من الفضول لدى عدد آخر من الجزائريين من إطارات ومسؤولين في الأحزاب الأخرى الذين لم يتبنوا نفس المواقف الراديكالية التي كانت تميز حزب الشعب الجزائري، والذين انتابهم شعور بالذنب أو على الأقل شيئ من الحيرة والقلق إزاء مستقبل البلد الذي كاد سيصنع بلا حضورهم بل وحتى ضدهم.

إذا كان الأولون قد فضلوا إخفاء مخاوفهم، وحتى شيئا من انتقادهم للخطاب الجديد الذي جاء به عبان رمضان، بكل تأكيد فذلك ليس بسبب

السلطة الحاضرة لمسؤول منطقة الجزائر فحسب وإنما من أجل ماضيه كمناضل وقائد لا تشوبه شائبة في حزب الشعب الجزائري- حركة انتصار الحريات الديمقراطية. فقد كان من غير اللائق تلقين الدروس لمن ضحى بنفسه في سبيل حزبه. وكانت مواقفه، وما عرف عنه من نبذ للديماغوجية، وقناعة جعلته عرضة للمؤامرات وكل ما يدنس السمعة، قد فاجأ كثيرا من المناضلين، لكن ذلك الموقف جعله في الوقت نفسه يراجع مواقفه، فهو الذي اعتاد الشهادة بحزب الشعب الجزائري- حركة انتصار الحريات الديمقراطية وحده وعلى اعتبار أن كل الأحزاب الأخرى وكأنها تعمل لحساب فرنسا.

أما الفئة الثانية فمن المبكر القول أنها تفكر في تبرئتها فهي مندهشة خاصة لكون قائد لم يعرف من حضن سوى حضن حزب الشعب الجزائري - حركة انتصار الحريات الديمقراطية له خطاب بمثل تلك الحذاقة والحصافة والحكمة.

فضلا عن ذلك فإن رجالاً دأبوا التفكير المنطقي، يكون وجودهم رفقة مسؤول في الثورة المسلحة، هدفه الإقناع لا الإكراه و المناقشة لا الخصومة والإستمالة لا النفور وأخيرا الترقية لا الإذلال إنما يكون مبعثا للإعجاب و الاطمئنان.

لقد وجدنا صدى تلك العقيدة الراسخة التي كانت تحذو عبان رمضان بضروْرة جمع أكبر قدر من الناس في ثلاث شهادات.

أولاها وردت عن رباح لخضر الشاهد الرئيسي الذي سبق ذكره والذي قال له عبان رمضان ""لا ينبغي أن تبقى حبيس تكوينك كمناضل في حزب الشعب الجزائري عليك فقط أن تنظر إذا كان شخص ما سينفع الثورة وينبغي حينها إشراكه.. يمكن توظيف أي واحد شريطة أن يكون رجلا ذا قيمة وأن يكون قادرا على تقديم شيئ إيجابي للثورة".

وثمة شهادة أخرى جديرة بأن تذكر في هذا المقام وهي لعبد الرحمن كيوان الذي كان واحداً من أواخر قادة حركة انتصار الحريات والديمقراطية عشية انحلالها.

بعد خروجه من السجن في مارس 1955، ولأنه اعتبر خطأ كأحد القادة الذين فجروا ثورة نوفمبر 1954، قابل في حدود أفريل-ماي 1955 عبان رمضان الذي كان قد تعرف عليه في حزب الشعب الجزائري والذي كان محاميه. ما حفظ به من ذكرى عن هذا اللقاء و يخص موضوعنا هو أن محدثه "لم يكن يعاتب أحداً ولم يكن يسعى لتحميل المسؤوليات (في انشقاق حركة انتصار الحريات الديمقراطية) لم يكن يتوخى الحذر، إن كل ما كان يهمه هو المستقبل".

شاهدنا الثالث وهو ليس غير فرحات عباس يتطرق للأهمية التي كان يوليها عبان رمضان لإشراك الشعب برمته في حرب التحرير الوطني. وخلال لقاء سيتم التطرق إليه بإسهاب في فصل قادم، يكون مخاطب من أصبح أول رئيس للحكومة الجزائرية المؤقتة، قد صرح جازما :"جبهة التحرير الوطني، ليست ملكا لأحد، وإنما هي ملك الشعب الذي يحارب. لم يكتسب الفريق الذي فجر الثورة أي حق في امتلاكها. فإذا لم تكن الثورة من فعل الجميع فستفشل لا محالة.."هذه الحرب التحريرية تسع الجميع"(1)

عبارات قوية تغني عن الحاجة إلى التأكيد عن بعد ذلك الخطاب في جزائر طالما اجتهد أبناؤها في قتل بعضهم البعض بدلا من العمل على توحيد الصفوف وجمع قواهم لمواجهة الاستعمار.

إذا لم يكن أول من فكر من قاده الثورة، في الحديث باسم الشعب كله، سيكون من الإجحاف عدم الإقرار بفضله، كما سنرى ذلك لاحقا، وعلى الرغم من كل التردد والارتياب ومظاهر الغيض، في أنه المبادر بالسعر لتوحيد كل القوى الوطنية الجزائرية في الكفاح.

إن التخطيط للثورة والتحضير لها ووضعها في الإطار الوطني -وما يشكل تغييرا جذريا لما عرفته المقاومة الجزائرية التي انهزمت لأن كفاحها كان مجزأ ومحدودا في الفضاء وفي الزمن- يمثل بالتأكيد إسهاما استراتيجيا جديدا في بابه وذا بعد في غاية الأهمية. لقد هزمت فرنسا الجزائر سنة 1830 وفي 1847 و1871 و1881 ثم في 1945 لأنها كانت تشن هجومات منعزلة ضد هذه المنطقة أو تلك وضد فئات متفرقة من السكان.هذه الإستراتيجية المتمثلة في السيطرة على الجزائر "قطعة قطعة" واستعباد سكانها "جماعات جماعات" .لقد بذلت قصاري جهدها من أجل تعميق ما كان يفرق الجزائريين بل حتى أنها عملت على إثارة عوامل الفرقة. كان شعارها أولا "فرق تنتصر" ثم استبدلته بـ"فرق تسد". وعندما لم يدرك الجزائريون ذلك، فقد وقعوا فريسة سهلة نسبيا لفرنسا قبل أن تطبق هذه الأخيرة نفس المنهجية لقمع كل انتفاضة.

ولنعترف -مع وضع كل الحساسيات جانبا- أن الأشهر الأولى من حرب التحرير الوطني قد اعتمدت نفس الخطة التي شهدتها المحاولات السابقة الرامية إلى التخلص من نير الاستعمار الفرنسي. فالعديد من المناطق وفئات عديدة من السكان قد بقيت بعيدة عن الكفاح وذلك راجع لضعف قناعتها أو تنظيمها أو تحضيرها.بعض المعارك التي سنتناولها لاحقا بالحديث كانت تهدف أساسا "لتحريك" المناطق أو فئات السكان التي لم تشملها الحرب وكذا لبعثرة قوى الاحتلال.

هذه الإستراتيجية الرامية لجعل الشعب كله الفاعل الرئيسي في الكفاح التحرري، تتجلى بوضوح في إعلان أول نوفمبر 1954 الذي سطر لجبهة التحرير الوطني كهدف من أهدافها هدفيها على المستوى الداخلي "جمع وتنظيم كل الطاقات السليمة للشعب الجزائري من أجل القضاء على النظام الاستعماري".

والواقع أن هذا الهدف ما فتئ يشكل الشعار السياسي للوطنيين الجزائريين لكن دون أن يتحقق وذلك ما يؤكد الفضل الكبير الذي يعود لعبان رمضان الذي وجه كامل عنايته نحو هذا الهدف وهي المهمة جعلته يعرض نفسه لمخاطر عديدة.

فإعادة وضع الشعب في موقع الفاعل المسؤول عن مستقبله من خلال تحميله مهمة كفاحه التحرري يجب أن يعتبر أنسب خيار استراتيجي

وأقواه وهو الخيار الذي سمح للثورة الجزائرية أن تتجاوز أولى وأخطر مشاكلها ثم لدحر قوة استعمارية تمكنت على مدى أزيد من قرن من الزمن من ترسيخ أقدامها في الجزائر.

خلافا لإعتقاد شائع وكان بإمكانه أن يسود آنذاك فإن إشراك الشعب في الكفاح لم يكن يعني البتة حتمية إخراجه للشوارع أو الطرقات لمواجهة جماعية لجيش الاحتلال، وكل القوات الفرنسية. فالأمر كان سيتيح فرصة سانحة لهذه الأخيرة على غرار ما حدث مرات عديدة في الماضي. عبان رمضان لتسحقه لقد كان من أولئك القلائل الذين كانوا يعلمون جيدا أن الطريقة الوحيدة للقضاء على قوة جبارة بمثل قوة فرنسا هو عدم مجابهتها أو مواجهتها مباشر وهذا كان المحور الثاني في إستراتيجية عبان : التغلب على فرنسا شيئاً فشيئاً تقريبا على الطريقة التي انتهجتها هي نفسها حيال الجزائر.

الطريقة الوحيدة بالنسبة لعبان رمضان لزعزعة الهيكل الاستعماري الصلب كانت تتمثل في الهجوم على منشآته وتدمير وتخريب إمداداته وشبكة مواصلاته، وإضعاف اقتصاده وإجبار المعمرين على الخضوع أو الانعزال وبتره من عملائه الجزائريين وإبعاد السكان عنه والتحرش باستمرار بوحداته وإحباط معنويات جيشه، وزرع الفتنة والتفرقة حتى داخل صفوفه وبعبارة موجزة، ممارسة حرب ثورية ضدها عوض الحرب التقليدية التي لا يمكن أن تهزم بواسطتها.

فقد ركز جهوده على الموقع الذي يتجلى فيه وجود ذلك الهيكل و حيث يعرض رموزه وقوته وكبرياءه: في الجزائر العاصمة.سنرى لاحقا ذلك الرهان الهائل الذي تمثله عاصمة البلد بالنسبة لفرنسا الاستعمارية وللمحاربين الجزائريين على حد سواء.

ولنكتف الآن بالنظر إلى الطريقة التي انتهجها عبان رمضان لتحديد إستراتيجيته واستكمال أسلحته من أجل مواجهة لا رحمة فيها ولا شفقة مع النظام الاستعماري.

لقد استخلص من الحرب الثورية نتيجتين، جعلهما الوسيلتين المفضلتين في كفاح كان يرى أنه يفتقر بشكل فظيع للتوازن والتكافؤ كفاح كان أشبه بالنسبة إليه مع صراع النبي داوود ضد "جالوت" الجبار.الوسيلتين هما حرب العصابات في المدينة والحرب السيكولوجية. وفي ظل الاتفاق التام مع العربي بن مهيدي، وهو بطل آخر من أبطال ثورة التحرير الوطني، راح يعمل بأقصى حد على دحض المعتقدات من خلال ضربات مذهلة بقليل من الوسائل والمجازفات كفيلة بإحداث أثر كبير على العقليات.

في حرب الأعصاب التي عشعش فيها الخوف في فكر كل مواطن، لعب المنشور دوره كاملا إلى جانب القنابل والمسدسات. والمنشور الذي حرره عبان رمضان بكل ما أوتي من فنون مخاطبة العقل ودغدغة المشاعر والجوارح بل وحتى إثارة الفضول، أصبح في حرب الجزائر سلاحا فعالا.

فلقد كان من بين أولئك، إن لم يكن أولهم، الذين تبنوا التنظيم الصارم والمتصلب من أجل مواجهة فكر صارم ومتصلب. لقد كان ماهرا في التنظيم. وأكد لنا ذلك كثير من الشهود من مختلف الآفاق مرارا وتكرارا.فلم يتوقف البتة عن انتقاد ونقص التنظيم ومحاربته بل ومحاربة الفوضى التي كانت شائعة هنا وهناك في المراحل الأولى لحرب التحرير الوطني.

بحكم تفوقه في تنظيم الكفاح ومناصرة الحرب الثورية خاصة في بعديها الحضري والبسيكولوجي ودعوته بل مبادرته بإدماج الشعب كعامل فعّال في الكفاح، لم يعد عبان رمضان غريبا عن عامل آخر لا زال مقرونا بحرب الجزائر، وقد جعل منها مدرسة ثرية بالعبر، هو التسارع المتعمد للقمع.نحن ندرك كل المخاوف المترتبة عن كتابة هذا ليس من أجل ما ترتب عن مستوى حرب الجزائر ذاتها فحسب بل وكذلك بالنسبة للحرب الثورية في مجملها.

إن كل محاولة لإدراج عامل إضافي وجديد في مبنى يحق لنا الاعتقاد بأنه محكم على مر الصراعات والسنين لا تخلو من المخاطرة. لكن إصرارنا على الاعتقاد بأن عبان رمضان هو الذي عمل بالفعل على تسارع القمع ليس لأن العديد من الشهود قد أكدوا لنا ذلك فحسب بل لأن الأمر يتطابق تماما مع الهدف الذي حددته الثورة الجزائرية. لا نخف من الكلمات: هذه الثورة وفق الطريقة التي سار بها عليها بعض القادة ومنهم أساسا عبان رمضان كانت تهدف إلى إحداث قطيعة جذرية وعنيفة بين الشعب الجزائري برمته والنظام الاستعماري. كان ينبغي قطع كل العلاقات مهما كانت خفية، بين الطرفين. لا اتفاق ولا تعايش. فالأمر يتعلق بعالمين لم يعيشا أبدا معا بل عن بعد وبشكل عمودي حيث أن أحدهما كان يسحق الآخر. وعليه لنقل بكل موضوعية أن القمع الذي غالبا ما مارسته فرنسا في ظل نظامها الاستعماري كان أذى ضروريا في نظر القادة الجزائريين، وفي نظر عبان رمضان بشكل خاص، حتى لا يبقى للجزائريين- على اختلاف ظروفهم الاجتماعية- من بد سوى الرجوع إلى جبهة التحرير الوطني ومغادرة صف فرنسا والالتحاق بالصف الذي كان يخوض حربا حتى تبعث الأمة من جديد وهو صفهم.

كل السلطات الاستعمارية ولم لا نقول، كل الأنظمة الفرنسية المتعاقبة، قد سقطت باحتضانها أو بتشجيعها التجاوزات الصادرة عن وحداتها بمساعدة أعوانها الإضافيين في الفخ المتمثل في تعميق الهوة التي أضحت صعبة الاجتياز بين الأهالي الجزائريين والنظام الاستعماري.لقد كان عبان رمضان مناصرا لمبدأ ربما نجده وحشيا لو حللنا بكل برودة وبعد مرور عشرات السنين، لكنه بدا فعالا ومجديا بوجه خاص.

في ربيع 1955 أضحت إستراتيجيته جاهزة.و هي تجسد وعيا وتصورا لم يكونا محل إجماع.بعد أن استمع للكثير من الأشخاص و الاتصال بآخرين كثيرين آخرين باتت قناعته راسخة وبات يدرك أن فرنسا مازالت قوية وأنها لن تفتقر للحلفاء ولا للدعم وأنها لن تتخلى عن الجزائر بسهولة وأنها ستبذل قصارى جدها للحفاظ عليها وأنها ستبذل كل ما في وسعها لتهزم الشعب الجزائري وتبقيه لمدة أطوال مقيدا بأغلالها. وأصبح يدرك أنها لن تتردد في استعمال وسائل الدمار الشامل (قصف جوي وبحري واستعمال قنابل النابالم) ولا في ترحيل السكان ولا في فرض الحظر والحصص الغذائية ولا حتى في نصب الحواجز المكهربة وزرع الألغام من شرق الجزائر إلى غربها ولا في اللجوء للتعذيب والأكاذيب . وأضحى عبان رمضان يدرك كل هذا تمام الإدراك. كما كان يدرك أيضا أن الجزائر ضعيفة وأن الجزائريين لازالوا منقسمين وبل متعارضين وأن الثورة انطلقت في ظروف غير ملائمة وأنها تفتقر، باستثناء الرجال الشجعان والعازمين على الانتصار أو الموت، إلى الإطارات والمال والأسلحة وأنه ليس بوسعها، في مرحلة أولى على الأقل، الا الاعتماد على نفسها وأنه لم يكن هناك من أجنبي -عربيا كان أو آخر- سيضحي بنفسه من أجلها، وكان يدرك أخيرا أن الكفاح سيكون طويلا ومريرا بل بلا رحمة كما كان يطيب له القول.

كيف نسوي ميزان قوى لم يكن لصالح الجزائر أبداً ؟ فالحرب لم تعد مواجهة بين الرجال كما كانت الحال مدة طويلة من الزمن وفـي أمـاكن أخرى لكن أيضا عندها سـنوات 1830 و1871 و1881. لقـد أضـحت المواجهة حاليا بين رجل ضعيف أعزل وآلة الحرب.مـا كـان لمقـاتلي الأمير عبد القادر والمقراني وبوعمامة مواجهة الطـائرات ولا الـرادار ولا الدبابة ولا الشحنة الكهربائية والألغام ولا أجهزة الهاتف والاتصـال ولا كان عليهم مقاومة الحرب السيكولوجية التي تـروج لهـا الجرائـد والإذاعة والتلفزيون والسـينما. وكـل هـذه الوسـائل كـان مقتصـرا على الجانب الفرنسي أما الجزائريون فكانوا محرومين منها كلية وبكـل قسوة. كم من فرق بين 1830 و1954 وكلها لغير صالح مقـاتلي ثـورة الفاتح نوفمبر كما قد يعتقد البعض.فإذا كانت فرنسا قد ضـاعفت قواتهـا وأضحت تسير على طريق العصرنة فإن الجزائر قد غاصت في الاتجاه المعاكس صوب العصور الوسيطة حتـى أنهـا فقـدت حتـى قـدرتها على معرفة من تكون وأكثر من ذلك إلى ما الذي حل بالعالم.

إذا كانت الصورة قاتمة على هذا النحو وليس لنا حاجة لزيادتها قتامة ، قد سمحت لبعض الوطنيين في تعليق الآمال وعقد العزم على النصـر فذلك لأن الجزائر كانت منهكة القوى ولأن الجزائريين كانوا مضـطرين لاختيار حل كان يستجيب لحالة يأس قصوى وما كان لهم من خيار سوى تجريب حل الحظ الأخير والوحيد إذ نحس بكثير من الحيـرة أن أغلبيـة صناع قرار الكفاح المسلح، إن لم يكونوا كلهم، قد كلوا وملوا من تأجيـل المواعيد ومن الخصومات والمواجهات و الهزائم.

عندما يجد المرء نفسه في مأزق وجلاده يطارده، فليس لـه مـن بـد إن لم يكن يفضل الموت ، من أن يواجه مطارده ويحاول، معتمدا في ذلك على تلك الطاقة الوحيدة التي يتيحها اليأس، القضاء عليه أو النجاة.

هذه كانت حال الجزائر في نوفمبر 1954 وخلال الأشهر التي تلته. الكل كان يعلم ذلك. لكن عبان رمضان كانت له تلك الملكة التي تصنع عظماء التاريخ إذ كان يعرف أنه من غير تجنيد الشعب ومن غير تطبيق الحرب الثورية وأخيرا من دون تنظيم محكم، لا شيء ولا أحد كان قادرا على هزم فرنسا ونظامها الاستعماري اللذين أضحيا في منأى عن الهزيمة بفعل عمل بسيكولوجي طويل الأمد. ولما كان يدرك ذلك تمام الإدراك فإن عبان رمضان الرجل الصارم والثابت الذي زادته السرية والسجن ومؤامرات قادة يزدرون حنكته، راح يخوض بكل استماتة معركة كان يعتقدها في قرارة نفسه وبشيء من الغرور ربما أنها كانت في حجمه. كان يتصور المعركة قائمة بينه وبين فرنسا.هو بالذات لأنه لم يكن بعيدا عن الاعتقاد بأنه من أولئك القلائل الذين يمكنهم تقمص هوية الشعب الجزائري لأنه لم يكذب عليه أبدا وكذلك لأنه ما فتئ يجتهد في خدمته. الحرب في ربيع 1955 لم تكشف اسمها بعد. إنها فترة تردد، كل شيء فيها يحتمل الحدوث وكل شيء قد يتغير ويعجّل بالحرب الحقيقية أو السلام الذي لم يكن يؤمن به سوى أقلية قليلة من الناس، حتى وإن كانوا ينشدونها من الصميم. في أثناء فترة العمل السري في الجزائر العاصمة، قرر مواصلة التفكير الطويل على غرار ما قام به خلال فترة سجنه عندما حقق مآربه بفضل عزيمته. دوره في الجزائر العاصمة كان فاصلاً وأن ما زرعه فيها قد كان حاسمًا في تحرير البلد. الكشف عنه وتبيانه يعد تضحية في سبيل الحقيقة لكنه أيضا تشريف الثورة التي لا تعظم إلا إذا كانت حقيقية.

استرجاع العاصمة

الفرصة كانت سانحة ذلك يوم الأربعاء 23 مارس 1955 لجريدة "ايكو دالجي"،(Echo d'Alger) أكثر الصحف الاستعمارية شراسة، لتطلق العنان لشماتتها. لقد كتبت تقول تحت عنوان بالبنط العريض : "القبض على أحد قادة المجلس الثوري للوحدة والعمل" ومدبر مؤامرة لاتوسان (La Toussaint) بالعاصمة، رابح بيطاط" وأرفقت المقال بصورة لقائد منطقة العاصمة. وأضافت تقول: " لقد أوقف إبن بولعيد في الحدود التونسية الليبية وهو ينتظر محاكمته في تونس (لم تكن مستقلة بعد). وبعد القبض على بيطاط لم يبق سوى كريم بلقاسم وديدوش مراد وإبن مهيدي العربي." هكذا كان تحليل اليومية.

وكان العنوان وحده يحمل دلالة عميقة عن وضع الثورة غير أنه كان بعيدا كل البعد عن الحقيقة لأن ديدوش مراد قائد منطقة شمال قسنطينة، كان قد سقط شهيدا قبل شهرين من ذلك أي في 17 جانفي 1955 خلال اشتباكات بكوندي سماندو حيث قاوم ببسالة ضد 400 من مظليي العقيد دي كورنو(Ducourneau) مع 19 من رفاقه الذين لم ينج منهم سوى خمسة ومن بينهم زيغود يوسف الذي خلفه مباشرة.

لم يبق في أواخر مارس 1955 سوى قائدين اثنين (كريم بلقاسم في منطقة القبائل وإبن مهيدي الذي ذهب إلى المغرب) من بين القادة الستة التاريخيين الذين كلفوا بمهمة عشية اندلاع الكفاح المسلح، بما فيهم بوضياف الذي كان يفترض أنه يتكفل بالتنسيق بين المناطق، لكنه لم يستطع الالتحاق بالجزائر منذ ذهابه إلى الخارج للإعلان عن ثورة الفاتح نوفمبر 1954.

كما أن الجريدة المذكورة، لم تتطرق البتة إلى وجود عبان رمضان بالعاصمة إذ لم يكن أحد يعرف بالتدقيق ما الذي كان يفعله ولا أين كان موجودا. لكن أن تسجل الثورة في أقل من خمسة أشهر من عمرها، مقتل أو توقيف أو اختفاء العديد من القادة البواسل، كان ينطوي على معان كثيرة.

إنّ توقيف بيطاط، رغم أن كل النشاطات شلت بالعاصمة مباشرة بعد الفاتح نوفمبر 1954، يبيّن بوضوح الوسائل، والمناهج التي استعملها النظام الاستعماري ليسحق في المهد الثورة التي باغتته ، وأصابته بالحيرة البداية وعدّ عدم القبض على كريم بلقاسم وعبان رمضان في نفس اليوم إلى جانب بيطاط معجزة. ولا يكاد هذا الأخير الذي وقع في كمين يصدق اليوم، بكل بساطة اطلاع مساعد (جودان) غير معروف، من أصل جزائري ومن مواليد البويرة بالمكان المحدد في منطقة القبائل والتاريخ الذي كان سيتم فيه إنزال الأسلحة.

تلك الأكذوبة لم يصدقها بيطاط فحسب بل كذلك العديد من قادة الثورة الآخرين بمن فيهم بن مهيدي وكريم بلقاسم وعبان رمضان. صحيح أنه تم التفكير في تكليف هذا الضابط الذي كان مناضلا سابقا في الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية، بمهمة قيادية في جنوب البلاد وصحيح أيضا أنه كان معروفا لدى بن بولعيد وديدوش وبن بلة الذي أكد انه قابله في تونس وأنه يحضر هذه العملية بتكليف منه.

كل التفاصيل الدقيقة التي قدمها الضابط تغلبت على الحذر المثالي الذي كان يتميز به عبان وكريم. ما من شيء مكن من الانتباه إلى أنه كان في خدمة شرطة المخابرات العامة التي تم تعديلها كلية في فيفري 1955 وتولى قيادتها المفتش غونزاليز (Gonzales). ينبغي القول أن الحصول على الأسلحة أصبح هاجسا يسيطر على قادة الثورة الذين كانوا يتعرضون

لضغوط من كل الجهات ومن وحداتهم ومن فرق الصاعقة التي ما فتئت تلقى الوعود بتزويدها بالأسلحة وقد نفذ صبرها للانتقال للعمليات الميدانية.

وكان كريم بلقاسم وعبان رمضان اللذين قابلا بدورهما الضابط رفقة قائد منطقة العاصمة قبل أيام، فضلا في آخر لحظة عدم الذهاب إلى الموعد حيث تم توقيف بيطاط، الذي كان منتظرا يوم الثلاثاء 22 مارس 1955 في حدود الساعة الـ11 صباحا في مقهى بشارع ريفيير بقلب القصبة. أما كريم بلقاسم وعبان رمضان اللذين كان يفترض بهما أن يلتقيا في نهاية الصبيحة بشقة بحي لي تاغاران (Tagarins) بالقرب من وزارة الدفاع الوطني حاليا فهما مدينان بنجاتهما يومها إلى الإنذار ألذي وجهه في الوقت المناسب ياسف سعدي وأعوانه المكلفين بالاتصال.

إن توقيف بيطاط الذي يكشف مدى غياب الربط والتنسيق بين قادة الكفاح المسلح الذين لو توفرا لكانا قد سمحا لهؤلاء بالقيام بتحقيقات مسبقة وأساسية، أنذر كل الذين لم يحتاطوا بالقدر الكافي بأن الحرب السرية ستكون في هذا النزاع وفي العاصمة أساسا شاقة وشرسة.

عبان الذي تأثر كثيرًا لإعتقال بيطاط بعد أيام من وصوله إلى العاصمة، كان في غنى عن هذا الإنذار لدرايته بأن هذه الحرب ستكون بلا رحمة.

لقد بقي المسؤول الوحيد في مدينة كل شيئ فيها معقد ومتشابك إلى درجة أن الحياة في الجبل كانت بالمقارنة أقل إزعاجا وحيرة. فعندما ندخل إلى العاصمة، كل شي فيها يبدو معقدا. فهي تمثل نموذجا مصغرا عن الجزائر كلها. فكل جالية بها، وكل دوار تقريبا له حيه وشوارعه وعاداته هناك. وكان أسهل إيجاد الطريق في أجمة أو سلسلة جبلية منه في أزقة القصبة أو متاهات البيوت القصديرية التي تحاصر العاصمة أو تتآكلها من الداخل.

الأمور كانت أوضح في المناطق الأخرى: كل قائد منطقة يعرف أتم المعرفة رفاقه في الجبل. أما هنا فمن الصعب معرفة حقيقة الأشخاص ومواقفهم. إن ضجيج العاصمة وتشكيلتها المتنوعة تجعلها صعبة الفهم بالنسبة لشخص لم يولد بها أو لم يعش فيها مدة طويلة وذلك ما يفسر الإنزعاج الذي يشعر به الرجل الريفي في العيش في مدينة يصعب حصرها. كل من دخلها من القادة فرحون لمغادرتها والعودة إلى الجبال لتنفس الهواء النقي.

وكان على عبان رمضان الذي أصبح في معزل أن يتكيف مع هذه الصعوبة الخفية. بحكم الصدفة والضرورة أضحى مرشحا لتولي مسؤولية أكبر. الحديث عن ظروف هذا الارتقاء لن ينتهي.

هل كان يريد ذلك، هل فرض نفسه أم أنه فرض. ماذا كان سيجري لو لم يتم اعتقال بيطاط؟ هل كان هناك شخص آخر يخلفه مثل سويداني بوجمعة الذي كان مساعده؟ كل هذه الأسئلة قد تخطر بالبال، لكنها لم تعد ذات أهمية الآن، حيث أن يوم اعتقال بيطاط، أصبحت العاصمة كلها تحت مسؤولية رجل فريد من نوعه. في سن الـ35 يتمتع الرجل بكامل قواه فهو لم يبق شابا يافعا تنقصه الخبرة والنضج ولم يعد مسنا يخونه العنفوان والعزم.نادرا ما كان للرجل أن يخال نفسه متصديا لمثل تلك القوى الظاهرة أو الخفية منها. ذلك أن استرجاع العاصمة لم يكن يعني مجرد إعادة البناء والتعزيز والتوحيد والتنسيق وبعث شبكة من المناضلين الذين خارت قواهم بفعل القمع الذي أعقب ليلة الفاتح نوفمبر بل كان يعني إيقاظ العاصميين من مختلف الأحياء ومن كل الطبقات وابعد منه كل الجزائريين الذين باتوا يغصون في سبات عميق بعد قرن من الهيمنة والأكاذيب والغموض والاستمالة البسيكولوجية. الأمر كان يتعلق بإطلاعهم على من يقاوم حقيقة ولماذا وبأي وسائل وحتى في سبيل

من. الأمر كان يعني كذلك تطهير مدينة كانت مهيأة للإشعاع على البلد برمته، وأن تكون قدوته وتحمل مشعل كفاحه. المغزى من ذلك كان أخيرا في ترتيب الأمور لمواجهة النظام الاستعماري والانتصار عليه. وفضلا عن ذلك فان استرجاع العاصمة كان بمثابة تحدٍ جريء وجه للقوة المحتلة التي لم تتلق سلطتها معارضة منذ أن أخترق جنودها أرض الجزائر وداسوها واحتلوها ذات يوم 4 جوان 1830.

قد نرى في ذلك ضربا من ضروب التهور والجنون أو نداء الواجب والتضحية، لكن يبقى أن عبان رمضان الذي خاض كفاحا من أجل إنقاذ شعب يبقى أمرا مذهلا عندما نقدر عن بعد ودون تحمس للمخاطر التي كان ينطوي عليها والرهان الهام الذي كان يمثله. قام بذلك منفردا في أول الأمر ثم ساعده قادة آخرون فيما بعد. بتلك البصيرة المذهلة التي كانت تميزه عرف كيف يتخذ القرارات التاريخية اللازمة في الوقت المناسب. وكان النجاح حليفه.تلك الإجراءات الأولى ، التي كانت جريئة بالفعل، لأن نتائجها لم تكن مضمونة، هي التي أضفت على الكفاح خصوصيته ووتيرته حتى يوم النصر.

نعتقد في هذا المقام دونما خوف من الوقوع في الخطأ أن أول إنجاز رائع له هو تحرير منشور كان سيوقظ ضمائر الجزائريين ويهز ثقة السلطات الاستعمارية في نفسها. ذلك المنشور المؤرخ في 1 أفريل 1955 جدير بأن ينشر مجددا في الصيغة المتوفر عليها إلى يومناهذا. هذه ترجمته (النص الأصلي باللغة الفرنسية):

جبهة التحرير الوطني،
نداء جيش التحرير الوطني،

أيها الشعب الجزائري،

إن جيش التحرير الوطني يكافح منذ خمسة أشهر من أجل استرجاع الجزائر حريتها وكرامتها وسيادتها. و بعد أن شعر الاستعمار الفرنسي أن ركائزه بدأت تتزعزع، أطلق علينا قواته البوليسية و العسكرية. ولقد استعملت هذه الأخيرة كل الوسائل القمعية الوحشية و الدنيئة (تقتيل جماعي واغتصاب وإعدام من غير محاكمة وتعذيب ...الخ) و قد جاءت قوات عسكرية هائلة من فرنسا ومن مناطق أخرى لتحارب من أجل قضية شائنة وكانت تأمل سحق من أسمتهم الحكومات الفرنسية المتعاقبة ب"الخارجين عن القانون" أو "اللصوص" أو "المتمردين" وأخيرا «المغامرين".لقد أخطأ المستعمر الفرنسي مرة أخرى لأنه تجاهل ذلك الإيمان وروح التضحية والإرادة الراسخة التي كانت تحذو خيرة أبنائك الذين عقدوا العزم على أن يعيشوا أحرارا أو يموتوا.

ففي كل الاشتباكات تقريبا انتصرت جماعاتنا المتكونة من 10 إلى 20 رجلا على وحدات الجيش الاستعماري وألحقت بها خسائر فادحة...، وبلا حياء تعمل السلطات العسكرية الفرنسية على التقليل من خسائرها وتضخيم خسائرنا لتحبط معنوياتك ولا تثير مخاوف المعمرين. فالسلطة العسكرية الفرنسية تبذل قصارى جهودها لتخفي الحقيقة عنك. هكذا عندما ينصب عناصرنا كمينا ويهاجمون مصفحة رشاشة فيلقي السائق بدافع الاندهاش والرعب بسيارته في الوادي تنسب الصحافة الاستعمارية هذا الحدث الجليد.

أيها الشعب الجزائري،

لا يخفى عليك، بعد أن حققت انتصارات عديدة، أن المهمة المتبقية جبارة ولذلك فإن جيشك، جيش التحرير الوطني يدعوك لمساعدته بكل الوسائل. وأن النجاح يتوقف على مشاركة كل الجزائريين إلى جانب القوات المحاربة التي عقدت العزم على مواصلة الكفاح إلى غاية انتصار القضية الجزائرية.

نحن نحذر من أولئك الذين يسعون إلى إبقاء الغموض.سوف ندين كل الذين يلجؤون للكذب والافتراء للتضليل عن النهج الصحيح.

محكمة جيش التحرير الوطني ستكون بلا رحمة تجاه الخونة وأعداء الوطن.

أيها الجزائريون هبوا جماعيا لتعزيز صفوف جبهة التحرير الوطني. عبروا عن وجودكم واخرجوا من صمتكم.وسعوا كل يوم مجال نشاطكم.

هكذا سيكون الوفاء لضميركم وبلدكم.

يحيا الشعب الجزائري

يحيا جيش التحرير الوطني

تحيا جبهة التحرير الوطني

لا ندري ما الذي يثير الإعجاب أكثر في هذا المنشور: الأسلوب أم دقة التحليل.

فهو من حيث كونه تجربة أولى في الكتابة، محكما. وشاملا.النداء جدير بأن يدرج من بين النداءات التاريخية المثيرة. إذا كان الفرنسيين يستشهدون بفخر وعن وجه حق بنداء 18 جوان 1940 الذي وجهه من لندن الجنرال ديغول لدعوة مواطنيه إلى مقاومة المحتل الألماني، فإن نداء الفاتح افريل 1955 الذي وجهه عبان رمضان باسم جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني لمواطنيه أيضا لدعم الكفاح ضد فرنسا لم يكن أقل تأثيرا. إن لهجته التي جمعت بين الشدة واللين، لم تخف شيئا عن الجزائريين الذين كان موجها إليهم أساسا. ولم يتردد في طلب العون والمساعدة من الشعب لعلمه بأن بسالة محاربي الجبال وشجاعتهم وصمودهم لن تجدي نفعا إذا لم تشارك الجماهير في الكفاح.

لقد كان ضمير الجزائريين هو المعنى أكثر من قلوبهم في نداء عبان رمضان. هذا هو الجديد، وهذا هو البديل ، وهذا ما شكل الفصل بين الخطاب التقليدي المعتمد أساسا على روح العطاء والعفوية التي جبل عليهما الشعب الجزائري. فالكفاح الجبار القائم كان يقتضي وعيا والتزاما تاما وطوعيا ومسؤولا..

وبلهجة أخرى مختلفة تماما خاطب أولئك، وما أكثرهم آنذاك، الذين كانوا يعملون على زرع الريبة وخلط الأوراق وأخطر منه، عرقلة الكفاح ليتحولوا إلى "خونة" أو "أعداء" للوطن.

ولنقل بادئ ذي بدء أن عبان رمضان كان يقصد طيفا موسعا من الأشخاص والأحزاب.

وتوخيا للمزيد من الوضوح وفي الوقت الذي اصدر فيه المنشور، كان يقصد فئتين أساسيتين من التيارات. التيار الأول كان يشمل كل التشكيلات التقليدية (الاتحاد الديمقراطي من أجل البيان الجزائري، وجمعية العلماء المسلمين والحزب الشيوعي الجزائري والمركزيين والمنتخبين المسلمين غير المنضوين في أحزاب...) الذين من غير أن يعارضوا صراحة الكفاح المسلح الذي فجر في غيابهم ورغما عنهم، كانوا مازالوا يبحثون عبثا عن مخرج سلمي للمشكل الجزائري. ويتعلق الأمر بمن أطلق عليهم بتعبير بسيط "دعاة القوة الثالثة."

إنه من باب الإجحاف والغلط أن نضع الأحزاب أو الشخصيات المذكورة في نفس الكفة فيما يخص القضية ألجوهرية التي تتعلق بمعرفة ما كان ينبغي فعله في ربيع سنة 1955.

لكن لا يسعنا التحكم في التاريخ. وإنما هو الذي يسجل تصرفات كل منا وعليه قد يكون الإنذار الذي وجهه عبان رمضان غير مفهوم وربما غير مبرر إذا تغاضينا عن احتمال أن مفاوضات، أو اقلها محادثات

لقد كان ضمير الجزائريين هو المعنى أكثر من قلوبهم في نداء عبان رمضان. هذا هو الجديد، وهذا هو البديل ، وهذا ما شكل الفصل بين الخطاب التقليدي المعتمد أساسا على روح العطاء والعفوية التي جبل عليهما الشعب الجزائري. فالكفاح الجبار القائم كان يقتضي وعيا والتزاما تاما وطوعيا ومسؤولا..

وبلهجة أخرى مختلفة تماما خاطب أولئك، وما أكثرهم آنذاك، الذين كانوا يعملون على زرع الريبة وخلط الأوراق وأخطر منه، عرقلة الكفاح ليتحولوا إلى "خونة" أو "أعداء" للوطن.

ولنقل بادئ ذي بدء أن عبان رمضان كان يقصد طيفا موسعا من الأشخاص والأحزاب.

وتوخيا للمزيد من الوضوح وفي الوقت الذي اصدر فيه المنشور، كان يقصد فئتين أساسيتين من التيارات. التيار الأول كان يشمل كل التشكيلات التقليدية (الاتحاد الديمقراطي من أجل البيان الجزائري، وجمعية العلماء المسلمين والحزب الشيوعي الجزائري والمركزيين والمنتخبين المسلمين غير المنضوين في أحزاب...) الذين من غير أن يعارضوا صراحة الكفاح المسلح الذي فجر في غيابهم ورغما عنهم، كانوا مازالوا يبحثون عبثا عن مخرج سلمي للمشكل الجزائري. ويتعلق الأمر بمن أطلق عليهم بتعبير بسيط "دعاة القوة الثالثة."

إنه من باب الإجحاف والغلط أن نضع الأحزاب أو الشخصيات المذكورة في نفس الكفة فيما يخص القضية الجوهرية التي تتعلق بمعرفة ما كان ينبغي فعله في ربيع سنة 1955.

لكن لا يسعنا التحكم في التاريخ. وإنما هو الذي يسجل تصرفات كل منا وعليه قد يكون الإنذار الذي وجهه عبان رمضان غير مفهوم وربما غير مبرر إذا تغاضينا عن احتمال أن مفاوضات، أو اقلها محادثات

قد جرت في الفترة التي هي موضوعنا بين سلطات الجزائر الاستعمارية وبعض الشخصيات الجزائرية. يجوز أن البعض قد أراد فعلا هذه الاتصالات فيما أن البعض الآخر لم يتمكن تفاديها لكن يبقى غير ممكن، موضوعيا أن لا نتحدث عن المواقف المعبر عنها والتي نقلت لنا إذا كنا نريد بلورة فكرة واضحة ودقيقة حول عقلية كل واحد أو نفسيته أو مقاصده في تلك الفترة.

تلك الاتصالات التي نحن بصددها كانت بفعل رجل وهو الرائد فانسان مونتاي (Vincent Monteil) المعروف بأنه من اليسار وأنه ليبرالي. ميزته كمعرب ومستشرق و ديغولي سابق أهلته ليستدعي إلى جانب جيرمان تيون (Germaine Tillon) التي أصبحت شهيرة بالاتصالات التي أقامتها مع مسؤولي القصبة بديوان جاك سوستيل الذي عين في 26 جانفي 1955 حاكما عاما جديدا للجزائر العاصمة من طرف بيار مينديس فرانس (Mendés France Pierre) الذي كان مازال رئيسا للمجلس الفرنسي وذلك لبضعة أيام فقط.

بعد يوم واحد من وصول سوستيل إلى الجزائر العاصمة، توجه مساعده إلى تونس حيث دخل فجأة إلى زنزانة إبن بولعيد الذي كان إعتقل قبل أيام وسلم لمديرية مراقبة الإقليم لتونس العاصمة قبل أن يحول إلى السجن المدني بقسنطينة حيث تمت مساعدته على الفرار.

إما أن يكون الاتصال الأول قد شجعه وإما أنه كان خبيرا في هذا المجال، فلقد قابل نهاية فيفري وبداية مارس 1955 شخصيتين معروفتين من الحركة الوطنية الجزائرية. هما عبد الرحمان كيوان وإبن يوسف بن خدة، وهما مسؤولان سابقان في حزب الشعب الجزائري وحركة انتصار الحريات الديمقراطية ثم أصبحا فيما بعد من المركزيين خلال انشقاق حزبهم و حبسا بسجن بربروس غداة الفاتح نوفمبر 1954 للاشتباه في تورطهما في تفجير الكفاح المسلح، وقد نفيا الأمر عن حق.

بطبيعة الحال، تمت الاتصالات التي أقامها مونتاي بترخيص علني من جاك سوستيل. كان الغرض من ذلك بسيطا: البحث عن سبل حل سلمي للحرب التي اندلعت وتحديد من يتم معهم تطبيق هذا الحل.

من باب مخالفة الحقيقة القول بأن الوطنيين اللذين قابلهما مونتاي يكونان قد لمحا له بأي شكل من الأشكال وبالنسبة لكل ما عرفناه، أن تكون لهما الصفة أو الرغبة في أن يكونا مصممي ذلك الحل. الحقيقة أيضا أن تصريحاتهما، كما نقلها إيف كوربير(2) دعت زائرهما المباغت إلى الاعتقاد بأن حلا في فضاء واسع غير محدد بين وضعية 1947 والاستقلال التام للجزائر مازال ممكنًا، وإلا كيف نفسر إصرار مستشار سوستيل على مضاعفة اتصالاته. ففي خضم زياراته لإبن بولعيد في تونس ولكيوان وبن خدة بسجن العاصمة أدخل العضو الجريء جدا، في ديوان الحاكم العام على هذا الأخير الذي كان موجوداً بقصر الصيف (قصر الشعب حاليا) يوم 28 مارس 1955 في حدود الـ11 ليلا تجنبا للأنظار المتطفلة وخاصة، المناهضة للاستعمار الفرنسي، أدخل ما لا يقل عن أربعة ممثلين عن التشكيلات الوطنية التقليدية وهم :

- الشيخ خير الدين، نائب رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.
- الأستاذ وقواق، مقرب من مصالي.
- الدكتور فرانسيس، مسؤول الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري والساعد الأيمن لفرحات عباس
- الحاج شرشالي، من أنصار المركزيين.

استقبل زعيم الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري فرحات عباس شخصيا فيما بعد من طرف جاك سوستيل الذي لم يضمه بعد متطرفو الجزائر إلى وهم "الجزائر فرنسية" ليجعل منه بدوره وبسرعة محور سياسته.

إذا كانت لدينا دوافع قوية للاعتقاد بأن لا أحد ممن تحدثوا مع مونتاي وسوستيل المذكورين اقتنعا بما قيل لهما بعد علمهما من ابن خدة أن هذا الأخير كان قد قال لزائره أنه "أخطأ العنوان" فذلك لا يمنع أن جبهة التحرير الوطني كانت تخشى بشكل مشروع أن تخلق السلطات الاستعمارية قوة ثالثة. لازمها ذلك الهاجس طيلة سنوات الكفاح خاصة وأن فرنسا لم تيأس أبدا، ولا حتى إثر وقف إطلاق النار الذي وقع في 19 مارس 1962، من البحث عن قوة قادرة على معارضة جبهة التحرير الوطني وخدمة، مآربها الاستعمارية عن وعي أو لا.

وبالتالي ينبغي حصر قراءة وفهم نداء الفاتح أفريل 1955 الذي وجهه عبان رمضان في ذلك السياق. سنرى لاحقا أن جبهة التحرير الوطني وجهت تحذيرا رسميا لكل من كانوا لايزالون يراودهم الحلم بأن يكونوا من رواد القوة الثالثة أو صناعها.

أكثر من خطر قوة ثالثة فرضية تعذر وجودها، فإن ما كان يشغل جبهة التحرير الوطني و نفوذ المصاليين ومكائدهم.

فالفقرة ما قبل الأخيرة من المنشور موجهة إليهم للتنديد ب"الارتباك... الكذب... والافتراء" حول الكفاح القائم ضد النظام الاستعماري وتحذيرهم من العقوبات التي يتعرضون إليها لدى محاكمتهم من طرف "محكمة جيش التحرير الوطني التي ستكون "بلا رحمة."

سنرى لاحقا العواقب المأسوية لهذا الانذار الموجه للمصاليين . ولننته في الحين من هذا المنشور لنقول أن أثره البسيكولوجي كان أعمق على السلطات الاستعمارية منه على الجزائريين أنفسهم. لأنه كان من الصعب جدا بالنسبة لهم(الجزائريين) بل من الخطر، الحصول على منشور لجبهة التحرير الوطني والاحتفاظ به. من بداهة القول أن المنشور فتح عهد الحرب السيكولوجية التي دارت بلا رحمة بين جبهة التحرير الوطني

والجيش الفرنسي ليس فقط من اجل السيطرة على الجزائريين بل وحتى، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة، من أجل كسب الراي العام الفرنسي والعالمي. لقد أضحت حرب الجزائر شاملة و شملت الجبال والمدن كما أنها أصبحت تستعمل الدعاية على الصعيدين الداخلي والخارجي.

من خلال ما تميز به أول منشور هام لجبهة التحرير الوطني من لهجة قوية و دقة في التحليل عزيمة راسخة، أدرك سوستيل، المفكر والكاتب الخطيب فضلا عن كونه عالما في الأصول العرقية واشتهاره بأبحاثه حول الحضارات الهندية المكسيكية و كذا بانتمائه لهيئة الخبراء التي التزمت تحت لواء الجنرال ديغول الذي ذهب إلى لندن لاستعادة مجد فرنسا المنهزمة، أن الأمور لن تكون سهلة كما كان يعتقد ويوهم به ويقوله لمن أراد الإصغاء له. أن يبهر الزوار والوجهاء الذين كان يستدعيهم خفية، بكلامه وذكائه ولباقته كعالم أو كعنصر مزعوم من اليسار ومن التيار الليبرالي، و لم يكن كذلك، ما كان ليغير في المعضلة الجزائرية شيئا.

فإذا كان في الجانب الفرنسي تواصل في السياسة والفاعلين، فالأمر كان خلافا في الجانب الجزائري. فمصير الشعب الجزائري لم يعد محصورا في الحرم المطهر للحكومة العامة أو الجمعية الجزائرية أو لقصر بوربون. لقد أصبح يصاغ في الفضاء الرحب للجبال وفي مخابئ المدن التي لم يعد سكانها يعيشون تحت سلطة فرنسا بل تقريبا في وطن مستقل مسبقا.

إن منشور الفاتح افريل يعلن أنه لا مجال للعودة للوراء والبحث عن حل وسط مع النظام الاستعماري والمساومة على استقلال الجزائر. الواقع، كما أكد صاحب المنشور، أن أبناء الشعب الجزائري "أقسموا على أن يعيشوا أحرارا وإما أن يموتوا."

نعرف ما يعني القسم بالنسبة للجزائري المسلم. هو الذهاب، عند الاقتضاء إلى التضحية العظمى. ربما لم يول سوستيل ولا خبيره ومستشاره في شؤون الإسلام الاهتمام اللازم لعبارة لم تكن تعني الكثير في نظرهما لكنها تنطوي على عواقب خطيرة بالنسبة لكل مسلم حقيقي. أما القيمة الأخيرة والنهائية للمنشور فتكمن في تحديده باستبصار عجيب لمعطيات المشكل الجزائري وعناصره. من جهة هناك جيش التحرير الوطني وجبهة التحرير الوطني وهدفهما بسيط جداً: استقلال الجزائر، ومن جهة أخرى فرنسا ونظامها الاستعماري اللذان يريدان إبقاء البلد حبيس قيود السيطرة والاستغلال، وأخيرا الشعب بفئاته الواسعة الذي وإن لم يعد مرتبكا بين الاثنين ، كان يعلق آمالا كبيرة في أن يصبح حرا ولكن ينتابه فزع شديد من القمع وخوف من فشل فظيع ممكن.

وفي الوقت الذي كان فيه رجال كثيرون في حيرة و ارتياب من أمرهم وفي الوقت الذي أضحى ما كان يبدو يقينا وقناعة يتحول إلى ارتباك في الأذهان، انحصر عبان رمضان في ديناميكية كانت ستقوده حتما إلى النجاح. لا شك أن منشوره كان على نفس الأهمية بالنسبة له وللآخرين ولما كان يؤمن به فإن ذلك الإيمان ما كان ليكتمل إلا إذا وصل به إلى مبتغاه. ذلك مادفعه إلى مواصلة السير تبعا لهذا المنطق مهما كلفه من ثمن والإجراءات التي تلت المنشور تحمل دلائل عديدة ومهولة.

إن قرار مقاطعة التبغ والكحول وكل الترفيهات التي كانت تعد من مظاهر الفساد، الذي صدر في جوان 1955 (3) لم يكن يساوي شيئا أمام تصفية كل ما قد يضر عن قرب أو بعد بحرب التحرير الوطني.

فسواء تعلق الأمر بوسطاء الفحشاء أو القياد أو بكل الأنذال الذين يعمرون أحياء القصبة من لصوص أو مقامرين أو طالبي اللذة، أو تعلق الأمر بالمخبرين أو النمامين وشاة الشرطة الاستعمارية أو أخيراء،

بالمصاليين. فمحاربة كل هذا العالم على هامش الثورة كانت بلا رحمة طلية سنة 1955. ينبغي الإقرار بأن ظروفا طارئة، أكثر من [illegible] متعمدة، هي التي فرضت هذه الحرب مبكرا. ومن الضرورة بمكان فتح مجال للاستطراد في هذا المقام. كثير من الكتاب -ونحن منهم عندما أكدنا ذلك في الصفحات السابقة- احتاروا مطولا أمام تأخر المدن عن الانضمام للكفاح وضربوا مثلا بالعاصمة.لم تكن عمليات الفاتح نوفمبر ضئيلة وضعيفة فحسب بل، وعلى وجه الخصوص لم تكن لها تداعيات.

فعلا وفي بضعة أيام فقط تمكنت الشرطة الاستعمارية من تفكيك الشبكات الأولى وتوقيف كل أعضائها تقريبا. وصحيح أيضا أن منطقة العاصمة كانت تفتقر، عكس منطقتي الأوراس والقبائل إلى منظمة و قيادة متمرستين على العمل السري وقادرتين على التجدد واستئناف العمليات. لكن، وحسب ما قاله لنا مختلف الشهود كانت منطقة العاصمة تتوفر على مناضلين بواسل ومستعدين للتضحية وكذلك على كل الوسائل التي تؤهلها لشن حرب عصابات محكمة في المدينة. فالتفسير الذي قدمه لنا مختار بوشافة الذي كان من جوان 1955 إلى غاية توقيفه في أوت 1956 قائد الفدائيين المسلحين بالعاصمة (4)، والرواية التي صدرت لياسف سعدي في الجزء الأول من "معركة الجزائر" يدفعاننا إلى الاعتقاد بان قيادة المنطقة العاصمية لم تتمكن لا من التحكم في الوضع ولا من صياغة إستراتيجية متوافقة مع حرب العصابات الخاصة بالمدن. فإزاء الضربات السريعة والفعالة للبوليس الاستعماري، سرعان ما غصت أول قيادة لمنطقة الجزائر العاصمة التي وصف قائدها بشيء من السخرية ب"الإرهابي المفزوع" في الخمول والجمود بل حتى أن همتها تلاشت نوعا ما و ذلك ما يفسر غياب العاصمة طيلة اشهر عديدة. ولم يفعل عبان رمضان شيئا لإخراجها من هذا الفتور.ليس لان الخوف أدركه هو الآخر

أو أن عزيمته انتقصت، بل بكل بساطة لان هـدوء العاصـمة وسـيرها العادي كانا يلائمانه لإرساء أسس تنظيم متين وفعال. كما أن تعيينه ابتداء من مارس 1955، حسب شهادة مختار بوشافة، بصفة "منـدوب وطنـي لجبهة التحرير الوطني " بعد أن كان، ـ وقد تأكد ذلك بالفعل ـ «مستشارا سياسيا لمنطقة القبائل ـ مكنه من توسيع نظرته ليتجاوز نطاق العاصـمة فيشمل الثورة بأكملها والجزائر بشساعتها. يبدو أن الأهـم بالنسـبة لـه كان تعزيز المعاقل القوية للثورة والمقصود، في تلك المرحلـة منطقتـي الأوراس وقبائل. وليس مستبعدا أيضا أن تكون عمليات التوقيف العديـدة والسريعة التي تمت في العاصمة وضواحيها قد نبهتـه لتـوخي مزيـد من الحذر والحيطة وتأخير دخول العاصمة مجال العمليات إإلى أن تتوفر فيها شروط الأمن والفعالية.

إن إستراتيجية لم تحظ بالقدر الكافي من الفهم كما أنه لم يطلـع بهـا مجموعات المحاربين الذين لم يتمكنوا مـن «كظـم غـيظهم" لتـأخرهم في الوقت الذي كانت جماعات أخرى في الجبال تخوض معركة مريـرة ضد العدو الاستعماري.

وما لا نعرفه أيضا هو أن الجماعات المقاتلة تكون قد تشكلت عفويـا بمبادرة من بعض قادة الأحياء. ويظهر ذلك بوضوح في مؤلفات ياسـف سعدي الذي، على ما يبدو، شكل جماعته الخاصة المتكونة مـن أقاربـه (حديدوش) أو أصدقائه. والأمر كذلك بالنسبة لصالح بوحـارة، مناضـل في حزب الشعب الجزائري بحي لا رودوت (La redoute) حيث تعرف على ديدوش مراد منذ الطفولة وفي المدرسة الابتدائية. الشـأن وكـذلك بالنسبة لمختار بوشافة الذي أكد لنا أنه كان يعتزم مع مصطفى فتال ابتداء من سبتمبر 1954 أي قبل شهرين تقريبا من اندلاع الكفاح على المستوى الوطنيّ ويكون قد صرفه عن الفكرة صديقه دبيح شريف الذي أصبح فيما

بعد لدى عودته من الجبال بعد وفاة ديدوش مراد أول قائد للفدائيين المسلحين بالعاصمة، لكن لمدة قصيرة : من مارس إلى جوان 1955 فقط، إذ إنكشف أمره بعد القبض على محمد بن مقدم الذي كان "محافظا سياسيا للكوموندوس" والذي ألقي القبض عليه وهو على متن سيارته .

عندما نستمع باهتمام إلى بوشافة وهو يروي الفصول التي عايشها خلال الأشهر الأولى من الكفاح المسلح، ليس لنا من بد من تفهم عدم تحمس عبان رمضان أمام كل هذه المجموعات المصغرة التي كانت تتدفق على شوارع الجزائر، دون خطة ودون قيادة و لا تنسيق.

يقول شاهد آخر عايش تلك الفترة الاستاذ شنتوف (5) أن "الانقسام بلغ حدا جعل كل قائد محلي في الجزائر يخال نفسه رئيسا لكل العاصمة وأنه (الانقسام) كاد يتحول إلى تناحر بين مجموعات "بسبب جهل الانتماء السياسي لبعضهم البعض".

لكن بالنسبة لمختار بوشافة الذي قالها بقوة وتشدد، فإن خمول الجزائر العاصمة إنما كان نتيجة نية "مكيافيلية" لكريم بلقاسم في السيطرة على العاصمة ونشر رجاله بقوة فيها.

مهما كانت النوايا المبيتة، الأكيد أنه بدون قيادة حازمة ومسؤولة، لم يكن متيسرا تفسير قيام مقاتلي الجزائر العاصمة الأشاوس بإدراج نضالهم وتضحياتهم في معركة خانها البعد الوطني و بالتالي ما كانت لتؤدي إلا إلى الشطط والانحرافات وأخيرا إلى الهزيمة على غرار ثورات الماضي التي وإن كانت بطولية فقد ظلت مشتتة وفوضوية نوعا ما.

كل الكتابات والشهادات الحية تبرز بوضوح أن الأمر الذي طرح مشكلا في تلك الفترة طوال سنة 1955-هو أولا ارتياب عبان رمضان في أمر مقاتلين اثنين وهما بوشافة وياسف ثم بعد ذلك غياب الاتصالات، معهم، كانت لتؤدي إلى دراسة انشغالات كل منهم.

ليس مستحيلا أن تكون سلسلة التوقيفات بما في ذلك توقيف بيطاط في مارس 1955 وياسف سعدي في ماي 1955، ثم إطلاق سراحه المفاجئ في جوان 1955 قد أثارت قلق عبان رمضان إلى درجة جعلته يتفادى كل اتصال مباشر. أما بشأن ما يبدو أنه كان حيطة من مختار بوشافة فالظاهر أنها تنم عن تلهف هذا الأخير إلى الانتقال إلى العمل الميداني وخدمة الثورة، في حين أن عبان رمضان كان يبحث في المقابل على أن يجعل من الجزائر العاصمة قاعدة خلفية ومعقلا يزود الجبال بالقوة. الواقع أن سوء الفهم نجم عن تلك الديناميكية الوطنية التي كانت تحذو مختار بوشافة والتي تكون قد دفعته إلى أن يتعرض بالسوء، بمقهى طنجة الشهير بالعاصمة، إلى عمارة رشيد الذي كان في تلك الفترة يأوي عبان رمضان ووسيطا له في نفس الوقت. و يكفي الاستماع إلى رئيس كومندوس الجزائر العاصمة ليتسنى تقدير مدى الأثر الذي تركه استدعاؤه من طرف جماعة أوعمران في بالسطرو(Palestro) بتوصية أو أمر من عبان رمضان لاستجواب من لقب فيما بعد بسي مختار. قال لي أنه قرأ يوم 31 جويلية 1955، في كوخ بالقرب من بالسطرو الرسالة التي كتبها عبان رمضان بشأنه والتي حفظ منها ما يلي تقريبا:

"أحيطكم علما أن شخصا يدعى مختار من الجزائر العاصمة يزعم أنه على اتصال مع "بوراس" (يفهم بوقروي، (بالقبائلية، ملاحظة المترجم) الاسم المستعار الذي أعطي لأوعمران). إن الشجاعة والجرأة اللتين يتحلى بهما هذا الرجل لا يمكن إلا أن تكونا لجاسوس. يستدعى على الفور ويستنطق."

وبعد أن تم نقله إلى بالسطرو من طرف علي تيميزرت، عون اتصال أوفد إلى الجزائر العاصمة لاقتياده، احتفظ مختار بوشفة بذكرى مريرة عن هذا الموعد الذي يعتقد أنه دبر لتصفيته، وذلك ما كتبه البعض دون

تردد. إلا أن الرد عن سؤالنا لمعرفة ماإذا ما كانت عبارة "تصفية" قد وردت في الرسالة المزعومة لعبان رمضان كان بالنفي. لكن بالنسبة للمعني بالأمر فإن عبارة "استنطاق" لم تكن تعني في ذلك الوقت إلا التصفية الجسدية.

وأضاف ليعزز قناعته أن محاصرة الكوخ الذي توجه إليه بجوار "بالسطرو" ليلتقي رئيس المقاتلين في الجبال لم يكن يستهدف شيئا آخر. ولم يكن الرشاش المعلق على سارية الكوخ إلا خديعة محكمة دبرت لكشف النوايا الحقيقية للشخص المستدعى.

فلو استعملها لكان حكم على نفسه بالإعدام ولو تجاهلها فإن ذلك يدل على أن نواياه سليمة. ذلك ما حدث فعلا. فبمجرد أن رأى بوشافة صاح أوعمران باتجاهه يقول وكانما كان يريد إثارة حيرته: "آه! هذا أنت يا مختار."

إن الرجلين يعرفان بعضهما البعض ولكن لم يكن يخطر ببال رئيس المقاومة في بداية الأمر أن مختار الذي طلب منه استدعاءه كان من معارفه. يبدو أن ذلك ما أنقذ بوشافة من تصفية كان يظنها أكيدة لا محالة. إن تذكير هذا الفصل الذي نقلت أحداثه بإسهاب وبتصريحات كان يجب حسب ما بدا لنا أخذها بحذر، لا يهدف إلى الجزم حول معرفة ما إذا كان عبان رمضان يريد تصفية رئيس كومندوس الجزائر أو كان يريد ببساطة التأكد من هذا الشخص وتحذيره إن اقتضى الأمر ذلك بقدر ما يطلع عن الحذر الكبير الذي كان يلازم "المندوب الوطني لجبهة التحرير الوطني" إلا أن صار طبيعة ثانية له.

يبدو أن بوشافة و ياسف عانيا كثيرا من هذه الحيطة وهو ما يفسر ذلك الميل الذي يميز اليوم، و بعد ثلاثين سنة خلت عن الأحداث التي نحاول تحليلها بدقة، رجلي كومندوس العمليات للجزائر العاصمة ليس فقط لانتقاد دور عبان رمضان وعمله، وهذا من حقهما، بل وكذلك للتقليل من شأنه و كأن القيادة السياسية التي طبع بها أولا تنظيم الجزائر العاصمة ثم الثورة كاملة لم تكن تتسم بالصواب والفعالية الكفيلين بإنقاذ هذه الثورة من الانزواء والتشتت وأخيرا، الاختناق.

إنه يحق لنا التساؤل ما إذا كان ياسف سعدي الذي تحمل مع رجال ميدان بواسل، (لا سيما علي "لابوانت" الذي خلدت مآثره اسمه في العاصمة بكثير من الشجاعة والجرأة مشعل الكفاح بعد الانحلال المباغت للجنة التنسيق والتنفيذ بالجزائر العاصمة في فيفري 1957 إلى غاية توقيفه بعد أقل من ستة أشهر، لم يبالغ حين كتب عن عبان رمضان ما يلي:

"لم يكن يفهم (وهو يتحدث عن صهره احديدوش الذي كان يسعى لإعادة إدماجه في الكفاح المسلح بعد خروجه من السجن) لماذا قاوم عبان رمضان رغبة مقابلتي.

كما أني سخطت بدوري لموقف فصل فيه بهذه السرعة. لقد كان لعبان رمضان الغضوب بعض الطباع التي جبل عليها و أبرزها الارتياب. وتصرفاته كادت لتثني العديد من المتطوعين عن الالتحاق بصفوفنا."

وأضاف لتوضيح موقف عبان رمضان:

"في نهاية المطاف كنت أمني نفسي بالاعتقاد أن البلبلة التي كان البوليس سيعمل على زرعها ضد هياكلنا ورجالنا قد نجحت في تنمية هذا التعنت لديه، ناهيك على أن هموم الحياة السرية قد كانت تثير حساسيته بعمق" وخلص إلى القول حول هذه النقطة: "وعلى أية حال كان من باب الحكمة أن يتمالك نفسه مستقبلا" أما ياسف سعدي، فرأى أنه يكون من المفيد كما أشار إليه من بعد ذلك "تكليفه (احديدوش) بالقول لعبان، أنه (الضمير يعود على ياسف) سيصرف من الآن فصاعدا وفق ما تقتضيه متطلبات الكفاح. ولست أدري في أي صيغة تم إطلاعه عن هذه القطيعة مع الوصاية..(6).

ما لم يكن يخفى دون شك على ياسف سعدي هو أن إطلاق سراحه من طرف القاضي بيرار (Bérard) قد أثار على الفور العديد من

التساؤلات وأنه ما كان للمسؤولين الهامين الثلاثة لمنطقة الجزائر حينها ـكريم، أوعمران وعبان- إلا مضاعفة الحيطة والحذر، حرصا منهم، ليس فقط، على الإفلات من كل الكمائن التي ما فتئت الشرطة الاستعمارية تنصبها بل كان ذلك أيضا من باب العزم على عدم تعريض الثورة لأي خطر. أكثر من ذلك و حسب ما قيل لنا، فقد تم فعلا التفكير لفترة من الزمن في تصفية ياسف سعدي. كل شيء يكون قد انطلق من رسالة تمكن رابح بيطاط من تمريرها من سجن بربروس بواسطة المحامي عمر بن تومي ويكون قد طلب من فتال وبوشافة اللذين التقى بهما اوعمران في سبتمبر 1955 "القضاء" على ياسف. ويكون بوشافة الذي كان لا يزال يذكر ما حدث معه شخصيا قد أجاب بما يلي: "لم أقتله؟ لست متيقنا من خيانته. أنا لست قاتلا. اقتله أنت"

نختم هذا الفصل بالتوضيح أن كريم بلقاسم، حسب ما أكده أحد شهودنا، "لم يسامح ياسف سعدي إلا في شهر فيفري على وجه التقريب". وقد استأنف النضال بفضل استعداده التام ووجود رجال ميدان إلى جانبه. ولم يتول قيادة منطقة الجزائر إلا بعد وفاة بن مهيدي الذي اغتيل في مارس 1957 ولبضعة أشهر فقط بحيث تم توقيفه في مخبئه بالقصبة يوم 24 سبتمبر 1957. أما عبان رمضان فقد يكون قد صرح "لن أثق في ياسف سعدي حتى ولو كان ميتا ومدفونا". هذه تصريحات تنطوي على معان كثيرة وربما لم تكن موزونة وقد لا يمكن التحكم فيها.

ما عسانا نقول عن هذا التداخل في الانتقادات وحتى الاتهامات؟ هل يتعلق الأمر بتظافر أحداث حقيقية طالما حال دون بروزها الصمت الذي أثقل ثورتنا أم أننا نشهد على العكس فيضا من الروايات المتناقضة نوعا ما بحيث يمكن تعديل دور الفاعلين الرئيسيين حسب الشخص الذي يصفه؟ فالباحث يجد دائما صعوبات في تجميع المعلومات اللازمة للتحقق

من صحة الأحداث التاريخية وفي دراسة الوثائق الأصلية ليبني عليها رأيه وضمان نزاهته ككاتب.

الأكيد هو انه حيال استعداد جماعات تكونت تلقائيا وعلى عجل ودون تشديد على الانسجام والانضباط فقد كان من الصعب للغاية ومن باب المجازفة تنظيم منطقة الجزائر وأكثر من ذلك تشكيل تنظيم قادر على التخطيط والعمل مع ضمان فرص النجاح.

إذا أضفنا إلى ذلك الحماسة والشخصية القوية اللتين كان يتمتع بهما كل من بوشافة وياسف يمكننا إذن فهم تحفظات عبان رمضان رغم أنها كانت مضرة.

لا بد من الاعتراف أنه على غرار العديد من المؤلفين -أمثال إيف كوريار، و م. لبجاوي، وفرحات عباس، ومحمد حربي- لذكر أهمهم حسب صدور أعمالهم- أن عبان رمضان كان عظيما لأنه نجح في تهدئة وتعبئة وتنظيم وتوجيه ذلك الكم العظيم من الوطنيين الذين كان من الصعب، بالنظر لتحمسهم وطاقتهم وتلهفهم، أقلمتهم مع قواعد حرب قاسية، حرب أضحت أكثر قسوة لما كان ينظر إليها على أنها تحمل الفرصة الأخيرة للشعب الجزائري.

مهما بلغت العلاقات بين عبان رمضان وقائدي فدائيي منطقة الجزائر من توتر، يجدر بنا أن نذكر بأنه لم يكن لهما صلاحيات أخرى وأن مكانتهما في سلم المسؤوليات كانت محددة بالتأكيد. الظروف المحيطة بالحرب في المدن وفرت لها نوعا من الاستقلالية في التحرك في إطار العملية الشاملة الرامية لتحطيم النظام الاستعماري وكل ما يدعمه ويعمل على استمراره. في هذا المضمار كان لهما و لرفقاهما، لا يجدر التقليل بدورهم ولا بدور كل الذين كانوا موجهين لاستخدام المسدس أو القنبلة

أخذ المبادرات مثل تلك المتعلقة مثلا بالقضاء على مخبري البوليس الفرنسي أو مهاجمة بعض المنشآت والمؤسسات العمومية ليبرهنوا على وجود الثورة.

لكن ما لا يمكن المجادلة فيه أبدًا هو أن القيادة العامة للثورة، في الجزائر العاصمة خاصة، كانت بين أيدي عبان رمضان. قد يتساءل البعض ممن كان يستمد السلطة التي كان يعترف له بها. بصرف النظر عن أن جبال منطقتي القبائل والجزائر كانت تمثل بالنسبة له، المنفذ الأخير، كم كان قويا ومخيفا في نفس الوقت عندما نستحضر أجواء تلك الفترة، فقد كان يتمتع بكل التقدير الجدير بقائد مثله.

وكان لفدائيي منطقة الجزائر حرية محدودة في التحرك بحيث كانت قرارات العمليات الكبرى تتخذ من دونهم. وعلى افتراض أنهم حاولوا أو تمكنوا من التحرر من وصاية قيادة الثورة، فإنه لم يكن لديم الإمكانيات المادية والبشرية ولا بخاصة تلك النظرة الشاملة والكاملة للأمور التي كانت تمكنهم من الاستغناء عن القيادة العليا والوحيدة القادرة على فك الخيوط المتشابكة للثورة وحشد الذكاء والقوة اللازمين لقيادة أكيدة وناجحة للثورة.

ثمة حقيقية تأكدت لدرجة أن القرار بالنسبة للمصاليين لم يكن عند مستوى كريم بلقاسم وعبان رمضان بعد مفاوضات مطولة. دائما حسب مختار بوشافة، فقد جرت الاتصالات من شهر جانفي إلى غاية شهر مارس 1955 بين كريم، بيطاط وعبان، على انفراد أو جماعيا مع مصاليين أمثال مصطفى نيغرو وزيتوني مختار وخليفة بن عمر ومحمد خيضر (ينبغي التمييز بينه وبين عضو الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني والذي أصبح غداة الاستقلال الأمين العام الأول لجبهة التحرير الوطني) بغية التوصل إلى اتفاق بين الحركة الوطنية الجزائرية و جبهة التحرير الوطني. يكون المصاليون، على ما يبدو قد استنتجوا، عن خطأ، أنه إذا كانت جبهة التحرير الوطني تسعى إلى توحيد صفوف المناضلين

المنحدرين من حزب واحد فلأن قادتها كانوا في حيرة من أمرهم وأن كفاحهم أخذ يفقد توازنه. حتى وانه يكون قد اقترح على المصاليين قيادة جماعية أو أن يختاروا الإشراف على الجناح السياسي أو الجناح العسكري للثورة.

لم يكن لدى المصاليين ما يعرضونه على قادة جبهة التحرير الوطني سوى "الاعتراف كتابيا بأن مصالي هو الذي فجر الثورة" وذلك ما كان ينم عن جهل سياسي غريب وخطأ أسفر عن عواقب وخيمة.

ولم يدع كريم بلقاسم إلى التصدي للمصاليين إلا في 10 أكتوبر 1955 خلال اجتماع في يسر لتحديد كيفية الاحتفال بالذكرى الأولى لاندلاع الكفاح الذي شن في الفاتح نوفمبر 1954. لقد كانت له بالتأكيد دوافع للتخوف من تعزز هؤلاء في دوار ريش بالبويرة وكذلك في العاصمة حيث فرض ريحاني، أمين خزينة المصاليين الضريبة الإجبارية على تجار من الميزاب . وعليه صدر الحكم بالإعدام في حق المصاليين من محاربي الجبل أو جماعات الموت في المدن. كانت حربا شرسة وبلا رحمة كما هي الحال دائما بشأن التناحر بين الأشقاء.وهكذا شهدت الجزائر حربا بين الاشقاء لم تكن سوى حربا أهلية بين خيرة أبنائها. لسوء الحظ فقد قامت تلك الحرب تلقائيا وبكل شراسة إلى أن تم استئصال كل ما يمت للمصالية بصلة أو كل ما يذكّر بها.

لا جدوى من الإضافة أن بعض المناطق (البويرة، غنزة، ملوزة) سجلت تجاوزات عديدة وغير مبررة مما أثار قلقا كبيرا لدى المناضلين الصادقين وذوي النية الحسنة و كذلك لدى الجماهير التي أضحت مفزوعة إزاء ذلك العنف الإجرامي، لكنها في الوقت ذاته أثارت غبطة كبيرة في أوساط الجيش الفرنسي الذي بات يتفرج في فترات مثلا على الاقتتال الرهيب الذي جرى في مرمى أنظاره عن بعد كيلومترين في جبل تية.

وعلى غرار بعض المناطق، عرفت العاصمة نفس المعاناة. معركة شرسة شبت بين مجموعات جبهة التحرير الوطني ومجموعات الحركة الوطنية الجزائرية.

ما عسانا نفكر في ذلك الانحراف القاتل لنجنب شعبنا آلاما لا تطاق، كونه صدر عن أبناء الشعب الواحد وتم تبادله فيما بينهم. لا شك أن كل ثورة تعرف تناحراً وتجاوزات خطيرة يصعب قبولها. أكان من الممكن تفادي ذلك التناحر بين الأشقاء ؟ لا احد يمكنه الجزم بذلك.

لكن ما يتعين ذكره هو أنه لو لا حماقة المناضلين الذين طالما تعرضوا لاستمالة بفعل دعاية انصبت نحو تبجيل الشخص إلى درجة إقرانه بالألوهية، لما دخلت جبهة التحرير الوطني والحركة الوطنية الجزائرية وبمثل هذا التعنت والإصرار في صراع مضر بين الأشقاء.

من المؤكد تقريبا أن انزلاقات عديدة سجلت بالعاصمة كما في باقي مناطق البلد وأن المسؤولين الذين لجؤوا إلى حكم السلاح لفض النزاع بين جبهة التحرير الوطني والحركة الوطنية الجزائرية بعد أن حذروا مرارا أنصار هذه الأخيرة (7) ما كانوا ليتصوروا إلى أي مدى سيكون هذا القرار الاخير مدمرا وأن آثاره لن تنمحي بمرور الزمن.

لقد نسب لعبان رمضان قوله إزاء عناد المصاليين أنهم "كلما قتلناهم، كلما زادوا تمسكا بالمصالية". ويعكس ذلك مدى عمق المشاعر الوطنية لهؤلاء لأن مصالي كان دائما يقدم لهم كمثل حي عن الوطنية. وإن كانت محاربة أنصار الحركة الوطنية الجزائرية مقلقة إلى حد بعيد فلقد تم خوضها في خضم تطهير عام أرادت جبهة التحرير الوطني فرضه في أول الأمر في العاصمة ثم في كل المناطق الأخرى. منطقها في ذلك كان شديد البساطة: لأنها كانت الوحيدة وراء تفجير الثورة وكان عليها أن تبقى الممثل الوحيد الشرعي للشعب الجزائري. وما كان لشيء

أن يعرقل سباقها للانتصار على النظام الاستعماري. لا يمكن أن يكون هناك سوى سلطتين اثنتين:سلطتها وسلطة فرنسا. وكان لابد أن تخرج إحداهما منتصرة من حرب شاملة لا رحمة فيها. ولا يجب ان يكون هناك مترددون ولا سلطات أخرى موازية قد تصرف الشعب عن واجبه الوحيد: الكفاح ضد فرنسا من أجل تحرره.

ذلك المنطق القاسي أدى بجماعاتها المسلحة إلى محاربة كل ما قد يمس بالتزام الجزائريين إذ تم القضاء على "القوادين" واللصوص والمنحرفين والمخبرين من كل نوع، من طرف رجال بقيادة بوشافة وياسف. وبعد تطهيرها وإحكام السيطرة عليها لعبت العاصمة دورا جوهريا في الثورة ليس بتحولها إلى المحور المركزي للجبال فحسب بل وكذلك لأنها أصبحت محرك الحرب الدائرة داخل البلد. فسواء بمناسبة حركات الإضراب أو مظاهرات الجماهير التي أصبحت قدوة خطيرة في مجالها، تحولت الجزائر العاصمة، المدينة الشهيرة وكذلك المدينة الشهيدة للبلد وربما تجلى إسهامها أكثر في تشكيلها للإطار للمحادثات العديدة والمفاوضات والاتصالات التي أدت إلى وحدة، لم تشهد مثيلا، لكل القوى الوطنية للبلد توخيا للهدف الوحيد المتمثل في إنعاشه وتحريره.

وإن كان مستأثرا بعمليات التطهير التي قادها بلا هوادة مقاتلو العاصمة الأبرار فقد بدا عبان رمضان أكثر من أي وقت مضى في مستوى مهامه، وحيث فشل سابقيه قرابة الثلاثين سنة ، أي في توحيد كل التشكيلات الوطنية الجزائرية ورص صفوفها حول الكفاح التحرري. ولنا في هذا المقام أن نقر بأن المهمة لم تكن بالهينة كما سنرى ذلك وأن بعدها كان عميقا بل حاسما من اجل انتصار الثورة.

موحد القوى الوطنية

لم يكن جمع القوى الوطنية في بوتقة الكفاح التحريري بالأمر السهل لأنه جاء في سياق أزمة لم يسبق لها مثيل، وتعذّر حلها لما اتسمت به من تمزق وتناحر بين مختلف التشكيلات السياسية. وما يزال الاختلاف قائما. وما يزال إلى اليوم الكثير من الجزائريين الشاهدين على تلك الحقبة والمهتمين بمصير بلدهم يعترفون، بصعوبة، الانضمام الفردي، لإطارات، ومناضلي التشكيلات التقليدية الجزائرية إلى جبهة التحرير الوطني إبان فترة الحرب.

وبالاستناد إلى أقوالهم، فقد حولت الثورة عن مجراها الطبيعي من طرف عناصر معتدلة لم تؤمن بها ولم تشارك في تفجيرها، بل وحتى أنها حاربتها بطريقة غير مباشرة وعملت على تأخيرها أو إضعاف حجتها من خلال جعل السلطات الاستعمارية تؤمن بإمكانية وجود حل "القوة الثالثة".

الواقع أن البعض عملوا بكل ما أوتوا به من قوة لفرض البديل، لكنهم سرعان ما انتبهوا إلى الفراغ الذي أحاط بهم، وإلى انضمام الشعب وبعض مناضليهم إلى جبهة التحرير الوطني، وحينها فقط تداركوا الوضع وحاولوا بدورهم الالتحاق بصفوف الثورة.

التحاق هذه العناصر المعتدلة بالثورة جاء متأخرا وما فتئ يثير الشكوك بالنسبة لأولئك الذين لم يخفوا معارضتهم للتجمع الحاصل.

وهي معارضة تحولت لدى البعض إلى عداء خفي عندما عيّن زعماء التشكيلات المعتدلة في مناصب مسؤولية ضمن جهاز الثورة أو أدركوها بأنفسهم. ذلك ما زاد الطين بلة أن فتح أبواب الثورة أمامهم لم يكن بالأمر الهين في حد ذاته، لكن أن يصبحوا قادة في نفس مستوى وحتى

في مستوى أعلى من أولئك الذين كان لهم شرف إشعال فتيل الكفاح التحرري، كان يمثل شكلاً من أشكال الخيانة لهذه الثورة. وذهب الأمر بقلة قليلة إلى الاعتقاد بأنه كان من الممكن جدا جعل الجزائر المستقلة في منآى عن كثير من الانحرافات لو ان الثورة حافظت على الروح الأصلية والخالصة التي شهدت ميلادها من دون أن يعرف بالتحديد إلى ما كانوا يلمحون اللهم إلا إذا كانوا فعلا يرون في الثورة عملا تنعكس فيه تلك القيم النبيلة التي كانوا يؤمنون بها بلا أدنى تمييز.

إنا لمنجذبون بفكرة الانضمام لهذا المنطق المتماسك والمطابق للحقيقة التاريخية حتى وإن كنا نستعمل هذه العبارة بكثير من التخوف والحذر! فالنقاش جدير بأن يفتح لأننا سنرى أنه عوتب على عبان رمضان أنه كان صانع تلك الوحدة وذلك ما تؤكده كل الشهادات. بم يتعلق الأمر بالضبط؟ لننظر أولا إلى ما تقوله النصوص التاريخية وقبلها، ذلك النداء إلى الوحدة الذي وجهه المؤتمر الثاني لحركة انتصار الحريات الديمقراطية المنعقد في 1953، أي قبل موضوعنا بكثير، وكذلك مهمة هذا الحزب و تفجير الكفاح المسلح. وجه النداء يوم 10 ديسمبر 1953. الغريب في الأمر أن هذا النداء نفسه نشر ثانية في العدد الخامس من جريدة *الأمة الجزائرية* "لسان حال المركزيين" يوم 5 نوفمبر 1954 في حين أعلن هؤلاء في نفس العدد عن أحداث أول نوفمبر 1954 التي أبعدوا عنها لغاية جهلهم بها. قبل انقسام حركة انتصار الحريات الديمقراطية، نجد في الأشهر الأولى من سنة 1954 مجموعة من المقالات في صحيفة *"الجزائر الحرة" بقلم* كيوان ودحلب وبن خدة دعوا من خلالها الأحزاب إلى التوحد. بالتالي، كانت فكرة الوحدة لا تزال واردة قبيل أشهر من اندلاع الحرب.

كان بوسعنا الاعتقاد أن فكرة الوحدة كانت ستجهض مع اندلاع الكفاح. لكن ما حدث كان مغايرا. إن بيان التاريخي لأول نوفمبر 1954 التاريخي أحيا الفكرة من جديد، مانحا إياها زخما أكبر إذ أكد:

"تظهر حركتنا التجديدية تحت تسمية "جبهة التحرير الوطني" وقد تخلصت من جميع المخاطر المحتملة، وهي تفتح أبوابها لجميع المواطنين الجزائريين من جميع الطبقات الاجتماعية وجميع الأحزاب والحركات الجزائرية للانضمام إلى الكفاح التحريري دون أدنى اعتبار آخر".

نلاحظ من قراءة هذه الفقرة، أن كل شرائح الشعب الجزائري وأن كل جزائري مهما كانت ظروفه الاجتماعية وكل حزب جزائري معنيون بواجب المشاركة في الكفاح التحريري. إذا كان حقاً أن من محمد بوضياف وديدوش مراد هما اللذان قاما بصياغة هذا البيان، فلدينا كل الأسباب للإعتقاد بأن مناضلين على أهميتهما ونضجهما، وتبصرهما وحسهما السياسي وقدرتهما على استشراف المستقبل قد أخذا بعين الاعتبار كل الانعكاسات الناجمة عن الالتزامات التي جعلا الثورة تأخذها رسميا. هذا ما يتجلى بالفعل عبر بيان أول نوفمبر الذي خاطب كل الجزائريين لم يقص أحدا وإذا تمعّنا فيه، فلن نجد فيه أي حكم اجتماعي واقتصادي ولا حتى فلسفي قد يقصي أو يمنع أحدا من الانضمام. بطريقة محكمة وعلى درجة من الذكاء، محا محررو البيان كل ما من شأنه إبعاد أكبر عدد من الجزائريين من الانضمام إلى الثورة. على عكس البرامج السياسية للأحزاب التقليدية، فإن بيان أول نوفمبر لم يشر إلى النظام الاقتصادي الذي سيعتمد في جزائر الغد ، ولم يذكر أي إصلاح زراعي ولم يتطرق إلى السياسة الخارجية للبلد كما انه لم يشر إلى مؤسساتها السياسية. ونراهن أن ذلك لا يتعلق بنسيان غير مقصود أو بضيق وقت أو بغياب قناعات حول النقاط الأساسية المذكورة آنفا بل يتعلق بكل بساطة بإستراتيجية للمدى البعيد تمنح لنفسها مجال عمل أوسع وتريد أن تكون على مستوى الجزائر قاطبة ومع كل الجزائريين إن أمكن.

"تظهر حركتنا التجديدية تحت تسمية "جبهة التحرير الوطني" وقد تخلصت من جميع المخاطر المحتملة، وهي تفتح أبوابها لجميع المواطنين الجزائريين من جميع الطبقات الاجتماعية وجميع الأحزاب والحركات الجزائرية للانضمام إلى الكفاح التحريري دون أدنى اعتبار آخر".

نلاحظ من قراءة هذه الفقرة، أن كل شرائح الشعب الجزائري وأن كل جزائري مهما كانت ظروفه الاجتماعية وكل حزب جزائري معنيون بواجب المشاركة في الكفاح التحريري. إذا كان حقا أن من محمد بوضياف وديدوش مراد هما اللذان قاما بصياغة هذا البيان، فلدينا كل الأسباب للإعتقاد بأن مناضلين على أهميتهما ونضجهما، وتبصرهما وحسهما السياسي وقدرتهما على استشراف المستقبل قد أخذا بعين الاعتبار كل الانعكاسات الناجمة عن الالتزامات التي جعلا الثورة تأخذها رسميا. هذا ما يتجلى بالفعل عبر بيان أول نوفمبر الذي خاطب كل الجزائريين لم يقص أحدا وإذا تمعنا فيه، فلن نجد فيه أي حكم اجتماعي واقتصادي ولا حتى فلسفي قد يقصي أو يمنع أحدا من الانضمام. بطريقة محكمة وعلى درجة من الذكاء، محا محررو البيان كل ما من شأنه إبعاد أكبر عدد من الجزائريين من الانضمام إلى الثورة. على عكس البرامج السياسية للأحزاب التقليدية، فإن بيان أول نوفمبر لم يشر إلى النظام الاقتصادي الذي سيعتمد في جزائر الغد ، ولم يذكر أي إصلاح زراعي ولم يتطرق إلى السياسة الخارجية للبلد كما انه لم يشر إلى مؤسساتها السياسية. ونراهن أن ذلك لا يتعلق بنسيان غير مقصود أو بضيق وقت أو بغياب قناعات حول النقاط الأساسية المذكورة آنفا بل يتعلق بكل بساطة بإستراتيجية للمدى البعيد تمنح لنفسها مجال عمل أوسع وتريد أن تكون على مستوى الجزائر قاطبة ومع كل الجزائريين إن أمكن.

"تظهر حركتنا التجديدية تحت تسمية "جبهة التحرير الوطني" وقد تخلصت من جميع المخاطر المحتملة، وهي تفتح أبوابها لجميع المواطنين الجزائريين من جميع الطبقات الاجتماعية وجميع الأحزاب والحركات الجزائرية للانضمام إلى الكفاح التحريري دون أدنى اعتبار آخر".

نلاحظ من قراءة هذه الفقرة، أن كل شرائح الشعب الجزائري وأن كل جزائري مهما كانت ظروفه الاجتماعية وكل حزب جزائري معنيون بواجب المشاركة في الكفاح التحريري. إذا كان حقاً أن من محمد بوضياف وديدوش مراد هما اللذان قاما بصياغة هذا البيان، فلدينا كل الأسباب للإعتقاد بأن مناضلين على أهميتهما ونضجهما، وتبصرهما وحسهما السياسي وقدرتهما على استشراف المستقبل قد أخذا بعين الاعتبار كل الانعكاسات الناجمة عن الالتزامات التي جعلا الثورة تأخذها رسميا. هذا ما يتجلى بالفعل عبر بيان أول نوفمبر الذي خاطب كل الجزائريين لم يقص أحدا وإذا تمعنا فيه، فلن نجد فيه أي حكم اجتماعي واقتصادي ولا حتى فلسفي قد يقصي أو يمنع أحدا من الانضمام. بطريقة محكمة وعلى درجة من الذكاء، محا محررو البيان كل ما من شأنه إبعاد أكبر عدد من الجزائريين من الانضمام إلى الثورة. على عكس البرامج السياسية للأحزاب التقليدية، فإن بيان أول نوفمبر لم يشر إلى النظام الاقتصادي الذي سيعتمد في جزائر الغد ، ولم يذكر أي إصلاح زراعي ولم يتطرق إلى السياسة الخارجية للبلد كما انه لم يشر إلى مؤسساتها السياسية. ونراهن أن ذلك لا يتعلق بنسيان غير مقصود أو بضيق وقت أو بغياب قناعات حول النقاط الأساسية المذكورة آنفا بل يتعلق بكل بساطة بإستراتيجية للمدى البعيد تمنح لنفسها مجال عمل أوسع وتريد أن تكون على مستوى الجزائر قاطبة ومع كل الجزائريين إن أمكن.

القول إذن، بأن انضمام العناصر المعتدلة إلى جبهة التحرير الوطني معاكس، أو قد يكون كذلك، لروح الثورة في الشكل الذي أرادها بها صناعها الأوائل ، يبدو لنا غير مطابق لحقيقة الثورة، وبالتالي لفحوى بيان أول نوفمبر 1954. وقد أكدت لنا مختلف المصادر، أن بعضا من كبار الوطنيين على غرار قادة الولاية الثانية للشمال القسنطيني، الذين كثيرا ما تردد مثلهم، قد اندهشوا -هذا أقل ما يمكن قوله- لاعتلاء بعض العناصر الشهيرة بانتمائها للتيار المعتدل أو كان يفترض ويقال عنها كذلك، مناصب مسؤولة، ووصولها إلى برلمان الثورة الجزائرية. لم يكن هؤلاء الوطنيون يرغبون غلق أبواب الثورة في وجه هذه الفئة من الجزائريين على أن ينحصر دورهم فيها في وظائف غير إستراتيجية كأن - وقد أكدت الشهادات ذلك- يضطلعوا بمهام السفراء والمبعوثين والمستشارين لجبهة التحرير الوطني ومنعهم من كل مسؤولية هامة.

وعلى افتراض تأييدنا لهذا الطرح بدون التساؤل باسم ماذا أو باسم من تم الإعلان عن إقصاء بعض الجزائريين، فإنه يبقى من الصعب تقبل الكيفية التي تم بها هذا الاختيار أو ذاك التصنيف بين من هم ثوريون والذين هم غير ذلك. وكأنما حكم على الإنسان ألا يتغير وألا يتمكن من التأقلم مع الأوضاع المستجدة ليقدم إسهاما قيما للعمل الجماعي. ليفهم القارئ بوضوح أننا لا نسعى سوى إلى فهم آلية التفكير التي رفضت كليا أو جزئيا تجمع القوى الجزائرية في سبيل نفس الكفاح. إن عدم تقلص الاختلافات العميقة من حيث القناعات الاجتماعية و السياسية السائدة في تلك الفترة ولا حتى بعدا إثر التجمع، وارد جدا بل أنه أكيد. كيف يمكن القضاء على كل الحساسيات السياسية للمحافظة على واحدة فقط -أي الأكثر تغلبا- دون الوقوع في شكل من أشكال من الاستبداد؟ في هذا المقام يبقى سؤال مطروحا: هل كان بالنسبة لتلك الفترة ثمة تعارض شديد بين

إبداء قناعات اجتماعية-سياسية وإرادة الكفاح من أجل تحرير البلد؟ إن تصديق ذلك يقترن بالتسليم بأن التوافق السياسي و تطابق وجهات النظر حول جزائر الغد كان ضمن مؤسسي الكفاح المسلح تاما ولا تشوبه شائبة وفي الأمر إهانة لروح الاستقلال والمسؤولية والوعي التي كانت قاسما مشتركا بين كل من كان لهم شرف المشاركة في تفجير ثورة الفاتح نوفمبر.

الواقع أن هذه الثورة العظيمة كشفت أن وراء الكفاح الشرس ضد النظام الاستعماري كانت تقف طموحات، خفية أو ظاهرة، تتصادم من أجل الزعامة على الثورة والوصول إلى السلطة أثناء الكفاح وبعده. لا توجد ثورة لم تشهد قيام تحالفات بين القوى والشخصيات بصفة مستمرة. فلم الاعتقاد بأن الثورة الجزائرية تختلف كما لو تعلق الأمر بقصة أبطالها ملائكة وأن الشياطين انقرضوا فجأة من الأرض الجزائرية.

فإذا أردنا المضي إلى أقصى ما يمكن فهذا النقاش الجوهري الذي لم يخرج بعد من نوع من الحياء، إن لم يكن نوعا من النفاق الشديد، فثمة سؤال واحد يجدر طرحه وهو يتعلق بمعرفة ما إذا كان الكفاح التحريري سيبلغ هدفه بدون انضمام القوى المعروفة بالمعتدلة حتى وإن كان قد بدأ ضدها لأنه اندلع -وهذا صحيح- رغما عنها؟

فالمسألة ليست نظرية فحسب، نحن نعرف أن آلاف الجزائريين ربما كانوا من بين الوطنيين الأكثر إخلاصا، ماتوا في ظروف قاسية أثناء الاقتتال بين الإخوة: بين عناصر الحركة الوطنية الجزائرية وعناصر جبهة التحرير الوطني. هل كان ينبغي أن يضاف إلى الاقتتال الشديد بين الإخوة من نفس الحزب الأصلي مجازر أخرى بين جبهة التحرير الوطني والتشكيلات التقليدية الأخرى؟ نعترض ولنا بعض الحق ونقول أن لا واحدة من هذه التشكيلات أبدت -ربما لم يكن بوسعها- نفس العزيمة التي كانت تحدو الحركة الوطنية الجزائرية. يمكن التسليم بذلك لأول

وهلة، غير أنه لا ينبغي أن ننسى أن تهديدات وجهت لبعض الزعماء المعتدلين، ونقل إلينا أن بعض المسؤولين في الجبال فكروا، في وقت ما، في القضاء على فرحات عباس لنكتفي بذكر هذا الزعيم المعتدل المعروف. وهذا باعتراف فرحات عباس نفسه الذي كتب: *"اخبرني بن طوبال انه فكر في قتلي لأنه سمع انني اجمع التبرعات في سطيف لصالح الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري(1)".*

لا نذهب بمخيلتنا إلى أقصى الحدود. إن الاقتتال الدموي بين جبهة التحرير الوطني والحركة الوطنية الجزائرية موجود ليؤكد أن كل شيء ممكن فمن الذي كان سينتصر؟ بالتأكيد، ليس الشعب الجزائري الذي عانى في كل مقوماته. الثناء قليل مقابل ما قدمه عبان رمضان لوطنه حين أنقذه من اقتتال كاد أن يخلف أضرارا وخيمة لا تعد ولا تحصى لو فسح المجال لمعارك أخرى، مثل تلك التي أعلنتها العناصر المصالية، ضد زعماء التشكيلات المعتدلة أو أنصارها. إن ما حققه عبان رمضان يجسد ذلك الحس السياسي المميز الذي كان يتمتع به. تجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن موقفه الخاص بتوحيد القوى ـهذا المسعى الفريد من نوعهـ هو مؤشر معبر عن نبذه أو بعده عن الاستبداد الذي وصف به. قبل أن ننظر إلى كل الحذاقة وبعد نظر، والتواضع الذي تميز بهم عبان رمضان في أدائه لمهمة التوحيد المعقدة والدقيقة، لأنه كان عليه الانتصار على ثلاثين سنة تقريبا من حرب باردة بين أحزاب تنتمي إلى شعب واحد ولاسيما على بعض التحفظات السيكولوجية، لنتوقف قليلا عند التوجيهات التي نسبت إليه والتي قدمها في جوان 1955 لمناضلي حزب جبهة التحرير(2).

من المفيد تقديم كل الجزء المتعلق بهذا الفصل، أي مايلي:

"يجب على المناضلين مواصلة فضح المصاليين الذين يستمرون في بث الفوضى والغموض وكذا المركزيين الذين ة يتفرجون بنذال على كفاحنا إذ لم يقوموا بالقدح فيه بعيدا عن الأضواء.

نحيط المناضلين علما بالنقطة التالية: إن جبهة التحرير الوطني ليست صورة جديدة لحركة انتصار الحريات الديمقراطية، فجبهة التحرير الوطني هي التجمع لكل الطاقات السليمة للشعب الجزائري. حركة انتصار الحريات الديمقراطية كانت تظن أن تحرير الجزائر سيكون عمل الحزب. لم تصب. جبهة التحرير الوطني من جهتها تؤكد أن تحرير الجزائر سيكون عمل كل الجزائريين و ليس عمل جزء من الشعب الجزائري مهما كانت أهميته. لذا فإن جبهة التحرير الوطني تأخذ دائما بعين الاعتبار في كفاحها كل القوى المناهضة للاستعمار حتى التي لا تزال تفلت من مراقبتها.

ثمة إشاعات تروج، وهي تتأكد يوما بعد يوم، بشأن محادثات سرية بين كل من سوستال وعباس والقائد مونتي (رئيس الديوان العسكري للحاكم) وكيوان ومبعوث وزارة الداخلية مصالي.

فالإدارة الاستعمارية وإذ تعمل يوما بعد يوم على جلب فرق الدعم من أجل القضاء على عملنا المسلح، فهي تبحث من الآن على منفذ. في أيام قليلة ستقول للاستعمار الضخم بما أن الطريقة القائمة على القوة لم تكن مجدية فعلينا تجربة المرونة. فهي تأمل من خلال عباس وكيوان ومصالي وقف نشاط جيش التحرير الوطني مقابل بعض الإصلاحات السياسية ويا له من خطأ فادح .

إن فجيش التحرير الوطني لا يعترف لأي كان بحق التكلم باسم الشعب، فقادة حزب جبهة التحرير الوطني سواء كانوا داخل الجزائر أو خارجها وحدهم من يمكنهم التكلم باسم الجيش وما على الذين يريدون

أن يكون لهم هذا الشرف إلا أن يشمروا على سواعدهم ويشاركوا في الكفاح. ذلكم هو الشرط الوحيد الذي قد يجعل الجيش يصغي لهم".

نحن هنا أمام أسلوب عبان رمضان الذي أخذنا نألفه فهو واضح وصارم. التنبيهات التي توجه بها إلى كثير من الناس، وربما من بينهم بعض قادة جبهة التحرير الوطني، طرحت بعض المسائل التي لا ينبغي إغفالها.

لم نستغرب لهجته المتشددة والألفاظ القاسية التي استعملها إزاء كل من المصاليين والمركزيين المعرضين إلى نفس السخرية والإهانة، بقدر ما عجبنا للفسحة التي تركها مفتوحة للتشكيلات المعتدلة. هل كان على قناعة حينها بأن الهوة بين قدامى حركة انتصار الحريات الديمقراطية -إن كانوا مصاليين أو مركزيين- لا يمكن تداركها، وأنه بالمقابل كان ممكنا تطويع التشكيلات المعتدلة. هذا جد ممكن. على كل حال، و لما كان خبيرا متمرسا فقد وجه التهديد إلى زملائه القدامى التابعين لحركة انتصار الحريات الديمقراطية أكثر منه إلى عناصر التشكيلات الأخرى. مرد ذلك قد يعود إلى ما يعرفه عن الأوائل من تصلب و كذا للكم الهائل من أنصارهم.

لكن ما يدعو كذلك إلى التعجب في هذه التوجيهات هو غياب التعصب. لقد كان بعيد الرؤية ويتطلع إلى كامل القوى التي ينبغي تجنيدها. من خلال دحضه لطرح حركة انتصار الحريات الديمقراطية التي كانت تظن أنه بإمكانها تحرير الجزائر وحدها، فإن تنبيه عبان رمضان كان يقصد التشكيلات المعتدلة التي حرص على طمأنتها و، الوقت نفسه، إلى قادة جبهة التحرير الوطني المنحدرين من حركة انتصار الحريات الديمقراطية الذين كانوا لا يزالون متمسكين بمعتقداتهم القديمة. كلام جديد قد يستسيغه لبعض وقد يزعج الآخرين الذين ظلوا متمسكين بقناعاتهم الخاطئة والبالية. لكن يبقى مستبعدا أن تكون فيه مجاملة إزاء التشكيلات

المعتدلة التي يحذرها من عدم جدوى اتصالاتهم مع السلطات الاستعمارية وتفاهتها. عند هذا المستوى برز مشكل، فعندما صدرت تلك التوجيهات -أي في جوان 1955- كان قد سبق لعبان رمضان أن قام بعدة اتصالات مثمرة مع عدد كبير من قادة التشكيلات المعتدلة. هل كان يخشى حينها أن يكون رهن لعبة مزدوجة لبعض الشخصيات المحنكة في مجال الاتصالات السياسية الحساسة و القادرة على إحداث انقلابات مذهلة سبق أن شهدها التاريخ الوطني، أم أنه أردا وضع حد للمساومات والتعجيل بانضمام الجميع إلى جبهة التحرير الوطني؟

لقد تحققنا من أنه في الوقت الذي صدرت فيه التوجيهات في جوان 1955 كان عبان رمضان لم يقابل بعد أهم قدامى القادة المركزيين مثل ابن خدة وكيوان، اللذين لم يخرجا من سجن بربروس إلى جانب المسؤولين المصاليين إلا في ماي 1955 وفي 13 ماي بالضبط بالنسبة للرئيس الثاني المقبل للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية. يتذكر هذا الأخير أنه لم ير عبان رمضان إلا في سبتمبر 1955. غير أنه من المؤكد أن اللقاء مع فرحات عباس قد تم قبل إصدار هذه التوجيهات لأن الزعيم السابق للوحدة الديمقراطية للبيان الجزائري صرح بأنه التقى به رفقة أوعمران يوم 26 ماي 1955 على الساعة التاسعة مساءا في مسكنه الكائن بشارع الدكتور ترولار بالجزائر العاصمة (3).

إن العودة إلى تلك اللقاءات في سياقها الزمني، تمكن من فهم لماذا بدا عبان شديدا خاصة إزاء المركزيين الذين يتهمهم بالجبن. أما فيما يخص المصاليين فكان يبدو أنه حدد رأيه نهائيا. فإذا كان صحيحا أنه حضر في فيفري- مارس 1955 للاتصالات غير المثمرة التي جرت بالجزائر العاصمة، فإن قرار محاربتهم وإضعافهم بكل الوسائل لم يكن قد أتخذ بعد. وللتذكير، اتخذ القرار المذكور في 10 أكتوبر 1955 خلال اجتماع

نظمه كريم بلقاسم في يسّر. وعليه فإذا كان عبان رمضان لم يرَ المركزيين بعد حين أصدر هذه التوجيهات، فلم يكن يعرف عقليتهم بعد، إلا ما نقل إليه حول انقسام حركة انتصار الحريات الديمقراطية وكذا حول المحادثات الطوعية أو المفروضة التي جرت بين البعض منهم وبين رئيس ديوان الحاكم العام سوستيل.

لم يتبدد الحذر الذي كان يتبناه إزاء رجال السياسة، الذين يقال عنهم "سياسيين" استهزاء لدى الجزائري، إلى قابل عدة قادة، ممن يعرفون بانتمائهم للتيار المعتدل، بما فيهم المركزيين، وتحدث معهم مطولا.

يجدر التنويه في الختام بذلك الحس الاستشرافي الذي جعل عبان رمضان يتخيل سيناريو المحادثات التي ستتم آجلا أم عاجلا مع فرنسا.

لقد أعلن قبل سنوات عديدة أن *"جيش التحرير الوطني لا يعترف لأي أحد بحق التكلم باسمه، ويمكن لقادة جبهة التحرير الوطني وحدهم...التحدث باسم الجيش"*. وهكذا وضع حدا لكل محاولة من قبل أي مفاوض غير مؤهل ووضع المبدأ الذي تم الحفاظ عليه بعناية قصوى والذي تكون بموجبه جبهة التحرير الوطني هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الجزائري، وتكون على هذا الأساس المفاوض الوحيد مع فرنسا في حال أرادت هذه الأخيرة إنهاء الحرب.

ما كان يهم عبان رمضان حينها، هو جمع كل قوى هذا الشعب تحت قيادة جبهة التحرير الوطني. وظهر ذلك بشكل جلي لأن وحدة الشعب الجزائري هي التي شكلت أداة انتصاره. هذه هي العبرة التي ينبغي استخلاصها من النصر الذي أحرزه الجزائريون على أنفسهم أولا وهذا ربما لأول مرة في تاريخنا. لذا ينبغي التطرق قدر المستطاع إلى المآسي التي أحاطت بتلك الاتصالات. وهذا يبرز أيضا الدور المميز الذي لعبه عبان رمضان الذي كان كما سنرى، المحرك

الأساسي لتجمع كل القوى الوطنية رغم كل العقبات بما في ذلك تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية نفسها..

الاتصال مع قادة الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري وانضمامهم إلى جبهة التحرير الوطني:

قد لا يدرك القارئ، غير المطلع على مجريات الأمور، الأثر الكبير الذي أحدثه انضمام أعضاء من الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري إلى جبهة التحرير الوطني إن لم نذكر ولو باختصار هذه التشكيلة وغيرها. فما الذي كانت تشكله، وماذا قد تمثله كتشكيلة قائمة بذاتها أو كسليلة تيار سياسي ما.

إن الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري مرتبط باسم فرحات عباس إلى درجة أن معرفتنا به شخصيا، تفوق معرفتنا بتشكيلته. إن التركيز على الشخصية لا يمثل ظاهرة حديثة. فجذورها كانت ضاربة في عمق الجزائر، شأنها شأن العديد من بلدان العالم الثالث، وما ينطبق على الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري ينطبق على التشكيلات الأخرى باستثناء الحزب الشيوعي الجزائري. إن حزب الشعب الجزائري وحركة انتصار الحريات الديمقراطية هما هذا بالنسبة للإنسان العادي مصالي. واقترن اسم العلماء بشخص ابن باديس ومن هذا المنطلق برزت عندنا نزعة قديمة تتمثل في الحديث عن الأشخاص أكثر من الأحزاب والنظر للمواقف الشخصية لهؤلاء أكثر من برامجهم. كيف يمكننا التخلص من مثل هذه النزعة؟

ونقول فيما يتعلق بالاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري على وجه الخصوص، أنه سليل تيار تعود جذوره إلى السنوات الأولى من عمر الحركة الوطنية الجزائرية التي يعود تاريخها إلى العشرينيات وقد ارتكز برنامجها السياسي أساسا على امتداد تقريبا ربع قرن على ربط مصير

الجزائر بفرنسا وإدماج الجزائريين (كان يقال آنذاك المسلمين) في الفرنسيين. هكذا شكلت لفظتا "إدماج واندماج" المبدأين الرئيسيين لعقيدة وبرنامج عمل التيار السياسي الذي أدى إلى ميلاد الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري.

طالما وجه اللوم إلى فرحات عباس وربما سيلام إلى الأبد على المواقف ذات الصدى الكبير التي ضمنها كتابه الأول *"الشاب الجزائري"*، *"Le jeune Algérien"*، الذي صدر سنة 1931 ولاسيما العبارة المأخوذة من مقال مطول نشر في 23 فيفري 1936 في جريدة *(الوفاق) L'entente*. إن تقديم استشهادات معزولة عن النص الأصلي والسياق العام يضفي عليها نوعا من الاعتباط. وبعد التسليم بهذا، يصعب تجاهل هذه المقولة الشهيرة التي تتناسب جيدا مع شخصية فرحات عباس. قبل إبداء الرأي حول عمق تفكير معقد لا مناص والذي لا يمكننا اختزاله في بعض العبارات،علينا تقديم مقتطفات من هذا المقال الطويل الذي يعكس بصفة واضحة الفلسفة السياسية العامة للكاتب في الوقت الذي كان يتحدث فيه أي سنة 1936.

منطلقا من فكرة سخية جد شخصية دافع عنها بكثير من التحمس والحمية وهي أن المسلم الجزائري لا يمكن أن يحرم من لغته ودينه، الخاصيتين الملازمتين لشخصيته واللتين ينبغي حمايتهما والحفاظ عليهما وتعزيزهما دون منعه من *"أن يكون فرنسيا وطنيا صاحب سواعد قوية وذكاء حاد وقلب صادق وواعيا بالتضامن الوطني"*، يلخص فرحات عباس موقفه السياسي آنذاك في هذه العبارات التي لازمته عبر الأجيال:

"إذا كان العلماء عنصريين إسلاميين فنحن الأصدقاء السياسيين للدكتور بن جلول سنكون وطنيين. ليس الاتهام جديدا... رأيي معروف: الوطنية هي ذلك الإحساس الذي يدفع شعبا للعيش داخل حدوده الإقليمية، وهو

الإحساس الذي قامت عليه شبكة أمم. لو اكتشفت الأمة الجزائرية لكنت وطنيا و ما خجلت كما يخجل من ارتكاب جريمة. إن الرجال الذين ماتوا من أجل هدف وطني يكرمون ويحترمون يوميا. ولا تساوي حياتي أكثر من حياتهم، غير أنني لن أموت من اجل الوطن الجزائري لأنه لا وجود لهذا الأخير. لم أجده. سألت التاريخ، سألت الأحياء والأموات، زرت المقابر: لا أحد أجابني، ما من شك أني وجدت + الإمبراطورية العربية والإمبراطورية الإسلامية اللتان تشرفان الإسلام وعرقنا، لكن هاتين الإمبراطوريتين انقرضتا.. فأزحنا إذن ونهائيا السحابات والخرافات وربطنا إلى الأبد مستقبلنا بمستقبل ما ستنجزه فرنسا في هذا البلد... زد على ذلك، لا أحد يؤمن جديا بوطنيتنا. المقصود من وراء هذه العبارة إنما هو انعتاقنا الاقتصادي والسياسي.. فمن دون انعتاق الأهالي لا وجود لجزائر فرنسية دائمة...(4)"

وهكذا منطلقا من رغبة، وكم هي نبيلة، للدفاع عن العلماء (ابن باديس خاصة) الذين اتهموا جورا بالتعصب، أطلق فرحات عباس العنان لفكره وعبر عن رأيه بحدة. ينبغي الاعتراف بأن التعبير عن مثل هذا الرأي يحتاج إلى شجاعة. و زعيم الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري لم يكن يفتقر قط للشجاعة السياسية لا إزاء أصدقائه ولا أعدائه.

ومن غير الصائب الاعتقاد أن فرحات عباس كان الوحيد الذي اتخذ مواقف لا يزال التاريخ يلومه عليها بقسوة. هناك شيء من الإجحاف في أن نقدم اليوم البعض على أنهم من محبي فرنسا المصرين والبعض الآخر على أنهم وطنيين متحمسين. فبإمكان كل ذي فكر فضولي ومتزن، أن يكتشف إن أراد إلى أي مدى كانت بعض كتابات العلماء الجزائريين مثيرة للحيرة ولينظر إلى ما ورد بهذا الخصوص في جريدتي المنتقد والشهاب اللتين كانتا لسان حال جمعيتهما لسنين طويلة.

وبالنسبة لفرحات عباس فهو لم يخف أبدا أنه كان مناصرا متحمسا لفكرة الإدماج والاندماج. وبنفس تلك القناعة غير فجأة موقفه ذات يوم خلال الحرب العالمية الثانية حين أدرك فيه أن فرنسا التي غالبا ما تحكمت فيها نزعتها الاستعمارية لم تكن ترغب البتة ولم تكن حتى لتسير في الاتجاه الذي طالما نشده. ومن غير أن يتحول إلى مناصر للعمل الثوري ما فتئ التزامه لصالح تأسيس جمهورية جزائرية مستقلة مشاركة مع فرنسا يتزايد يوما بعد يوم في كل المحافل السياسية.

فمنذ تأسيسه في أفريل 1946 احتفاء بالفترة التي تأسس فيها البيان ومن تحمل إرثه السياسي، لقي الاتحاد الديمقراطي من اجل البيان استصغاء كبيرا لدى النخبة الجزائرية لاسيما في أوساط الأعمال الحرة حيث استقطب قادتها الرئيسيين من أمثال المحاميين علي بومنجل وقدور ساطور أو الطبيبين أحمد فرانسيس وسعدان.على الصعيد الانتخابي فقد كان النصر حليفه على غرار جوان 1946 بمناسبة الانتخابات في الجمعية التأسيسية الفرنسية حيث حصد 458946 صوتا من الأصوات المعبر عنها والمقدرة بـ633349 صوت. صحيح أن الانتخابات جرت في غياب الشعب كان حينها محاصرا الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية التي لم تكن تأسست بعد.

ومهما كانت شهرة الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري وبرنامجه الموجه بحزم صوب استقلال الجزائر فلقد ظل في نظر الرأي العام ضحية المواقف الاندماجية التي ناضل من اجلها سابقيه وفي الوقت ذاته سجين دعاية حزب الشعب الجزائري-حركة انتصار الحريات الديمقراطية، الذي يقدمها على أنها تيار معتدل مصلح وليس تيارا ثوريا مثله.

ما يهم في نظر تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية ليست الصورة التي يرى بها تيار ما، تياراً آخر وإنما الشهرة والبرنامج الذي يقدمه كل منهما.ولا يسعنا في هذا الصدد نكران أن الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري حظي بالاثنين معا ابتداء من اليوم الذي أحدث فيه القطيعة مع الإرث الروحي السابق للبيان وناضل فيه، عن طريق الانتخابات التي كانت فعلا الطريقة الوحيدة للنضال حينها، من أجل جمهورية جزائرية. وصحيح ايضا أن الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري وقادته ولاسيما فرحات عباس -أولهم- لم يقطعوا أبدا الاتصال مع السلطات الفرنسية لدرجة جعلت ذلك الشعور بأنهم ليسوا الوطنيين الحقيقيين يسيطر على الأذهان حتى عندما كانوا يتخذون مواقف وطنية شجاعة. ذلك ما يضفي بعض المصداقية على التصريحات الضمنية لزعيم الحركة حين كتب سنة 1936: "لا أحد يؤمن بجد بوطنيتنا". والحال أن ثمة معتقدات راسخة لا يمكن استئصالها. وربما كان من سوء حظ فرحات عباس وأصدقائه أن شريحة واسعة من الرأي العام الجزائري كانت ستشك على الدوام في وطنيتهم. ومنها تبرز الشجاعة التي تحلى بها كل من عبان رمضان وفرحات عباس من أجل مواجهة رأي مقولب مسبقا نادرا ما تتسنى محاربته.وعليه كانا جديرين بكل استحقاق للجهود التي ما فتئا يبذلانها من أجل التفاهم وفي سبيل نفس القضية خاصة أنه سبق لعبان رمضان ، وقد رأينا ذلك، وأن قاوم، في شلغوم العيد وكان شابا حديث العهد بحزب الشعب الجزائري تلك الشهرة التي كان يحظى بها فرحات عباس.

حدث أول اتصال بين الرجلين بمبادرة من زعيم الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري. كان ذلك في 26 ماي 1955 على الساعة التاسعة ليلا بمنزل هذا الأخير بشارع الدكتور ترولار بالجزائر العاصمة. والشهادة

الوحيدة المتوفرة لدينا صادرة عن المعني بالأمر. وكانت نتائج ذلك الاتصال الأول معتبرة: وقد وهب فرحات عباس بعد فترة قصيرة من الزمن للزعيم الثوري مبلغ 2000.000 فرنك وحقيبة من الأدوية ولم يكن ذلك وقتها شيئا قليلاً.

أما بالنسبة لعبان رمضان فما كان يهمه بوجه خاص هو "الالتحاق بالركب" وذلك ما حدث فعلا مع فرحات عباس والذي اصبح، دون إلزام وبشكل طوعي تقريبا، في خدمة جبهة التحرير الوطني في مهمة مؤقتة واستطلاعية على الأقل.

تلت الاتصال الأول اتصالات أخرى أهما ذلك الاتصال الذي حدث في 8 ديسمبر 1955 بمنزل الدكتور أحمد فرانسيس بالقبة. والأمر بات حينها متعلقا بأمور أكثر أهمية.

تلك المرة كان اللقاء بمبادرة من عبان رمضان الذي ، بعد تفكير عميق، اعد خطة. حيث أن الهدف الذي أضحى يتوخاه كان ينحصر في الوصول إلى الاستقالة الجماعية لكل المنتخبين الجزائريين من الهيئات الفرنسية والتي كانت ستجعل الأمور تتضح.إذ كان ذلك سيحرم فرنسا من الدفع بأن لها مسلميها لاسيما إذا كان الأمر يخص منتخبين بمثل صيت فرحات عباس، لتستعملهم بغرض معارضة غيرهم من المسلمين أو بالأحرى أولئك الذين كانت تعتبرهم " متمردين" و"خارجين عن القانون" بل وحتى "لصوصا".فكان على كل واحد أن يختار صفه. إذ ما عاد ممكنا القول بأننا جزائريين ونظل نعمل بالموازة ضمن النظام الاستعماري الفرنسي فذلك كان سيضفي عليه مظهرا شرعيا.

وقد استغل عبان رمضان وضعا تبلور بشكل عميق منذ لقائه الأول بفرحات عباس. وقد كان وراء ذلك حدثان مفاجئان: أولا هجوم 20 أوت 1955 الذي شنه زيغود يوسف في الشمال القسنطيني الذي كان يشرف عليه ثم،

وكنتيجة مباشرة للقمع الذي تلى العملية، التحمس الناتج عن تسجيل ذلك الشعور بالغضب الذي أخذ يسيطر على معظم منتخبي الهيئة الثانية.

سنرى لاحقا موقف عبان رمضان مما سمي "أحداث 20 أوت 1955". ولنرى في الوقت الحالي كيف عمل على استغلال ثورة المنتخبين ليحولها إلى قطيعة تامة مع النظام الاستعماري. إن الشخص الذي كان في صلب الثورة هو الدكتور ابن جلول الذي كان حينها نائبا ومستشارا عاما بقسنطينة. لقد كان من أشد المنتخبين تحمسا للاندماج فقد كان الزعيم الروحي لتيار الإدماج حيث انه أسس سنة 1926 فدرالية المنتخبين. ومن ذلك التيار بالذات انحدر فرحات عباس ليؤسس سنة 1946 الاتحاد الوطني للبيان الجزائري. لقد تعرض الدكتور بن جلول لصدمة عنيفة إثر وفاة شقيقه، الذي كان نتاجا هو الآخر للنظام الاستعماري ـ مع أن هذا لم يمنعه من إعدامه إثر أحداث 20 أوت 1955 بوادي زناتي حيث كان يمارس نشاطه كصيدلي- وبحكم النفوذ الذي كان يتمتع به في منطقة الشمال القسنطيني، قد أعطى إشارة انطلاق الثورة. وبعد اجتماع أول للمنتخبين في الشمال القسنطيني توسعت الحركة الى منتخبي منطقتي الجزائر العاصمة ووهران.

إثر الاجتماع الذي انعقد بتاريخ 26 سبتمبر1955 بالجزائر العاصمة في قاعة من "لوكارتيي لاتين" (الحي اللاتيني) حاليا المطعم الجامعي لنهج عميروش، تم التصويت على لائحة هامة سجلها التاريخ بعبارة "لائحة الـ61 " -كونها اعتمدت من طرف 61 من أصل 90 منتخبا. الصدمة كانت عنيفة وربما من حيث مغزاها السياسي بأكثر قدر منه من أجل محتواها.فكيف تجرأ منتخبون لم تتحرر بعد أسماؤهم ولا نضالهم من سياسة الإدماج على التنديد بالنظام الاستعماري؟ خاصة وأن سياسة الإدماج والاندماج ظهرت مجددا بعد تعديلات طفيفة للغاية تحت إشراف

الحاكم سوستيل(Soustelle) الذي كان ينظر إليها بطريقة خاصـــة وكـــان يعتقد أنه أكتشف العلاج للحرب القائمة. كان الأثر عميقا وبـــنفس القـــدر لدى الجزائريين والأوروبيين. شيئا ما قد تغير. طالما كـــان المســـلمون المثقفون والمتفتحون على القيم الغربية وخاصة لـــذلك المنطـــق الـــذي كان يعتبر حكرا عليهم، يقولون بأنهم من أنصـــار الإدمـــاج والانـــدماج فإن هذه السياسة ناجعة وما كان لها بالتأكيد إلا أن تأتي بثمارها شـــريطة أن تؤمن بها السلطة الاستعمارية بدورها وتعمل على تنفيـــذها. وفجـــأة أصبح آباؤها الروحيون لا يؤمنون بها بل أضحوا يحاجونها ويرفضونها مع فرنسا نفسها.كان ذلك فوق ما يطيقه الاستعمار وأعلى رموزه المتمثل في الحاكم العام. رفض الإدماج هو رفض فرنسا وذلك ما يشـــكل أكبـــر إهانة اتجاه من لا يتبجحون بوطنيتهم إلا إذا كانوا على يقين مـــن أنهـــم لا يتعرضون لخطر.فلنرجع إلى المفهوم ذاته لأنه يمثل حقا تاريخا هامـــا في تغير الرأي الجزائري لصالح الثورة وضد النظام الاستعماري. بعـــد أن نددوا وأدانوا القمع الذي سلط على " سكان بلا عزة" أعرب المنتخبون عن عزيمة لم يعهدوها ذي قبل. لنحكم في الأمر:

"بعد تحليل الأسباب العميقة للاضطرابات الراهنة أكدوا رســـميا أنهـــا ذات طابع سياسي في جوهرها وسجلوا بالتالي أن سياسة الإدماج التـــي لم تطبق أبدا بصدق بالرغم من مطالبة منتخبي الهيئة الثانية المتكـــررة، قد أضحت اليوم بالية وباتت الأغلبية الساحقة للسكان الجزائـــريين تؤيـــد حاليا الفكرة الوطنية الجزائرية.

وبوصفهم المترجمين الصادقين لهذه الإرادة فإن المنتخبين المـــوقعين أسفله يعتبرون أنه من واجبهم تركيز جهودهم نحو تحقيق هذا الهدف".

لهذا الغرض، أسندوا لكل البرلمانيين مهمة الدفاع عن هـــذه السياســـة لدى كل الهيئات البرلمانية والحكومية التي كـــان علـــيهم أن يـــذكروها

بمسؤولياتها كما قرروا إنشاء لجنة دائمة لتنسيق عمل المنتخبين على كل المستويات وكلفوها بمهمة "متابعة تطور الوضع السياسي". وهناك من المتشددين من سيعتبرون أن "لائحة الـ61" غير كافية أمام الحرب القائمة والقمع المسلط على الشعب الجزائري. فهي كانت تنطوي على مجرد "فكرة وطنية" لا اشيء فيها عن الاستقلال وبعمل برماني وليس بعمل مباشر على جانب الذين كانوا يقاتلون في سبيل تحرير البلد.

مع ذلك ما أكثر من مزقتهم قسوة الخيار بين فرنسا التي طالما غذت أحلامهم وبلدهم الذي بدأ يثبت وجوده في خضم الألم والدموع والدم.

ما أكثر من مزقتهم فكرة الخيار بين ماض كله ثقة وحاضر ملؤه المخاوف ومستقبل مجهول.و مع ذلك فإن اللائحة كانت تسجل مرحلة حاسمة وخطوة عملاقة بالمقارنة مع المواقف السابقة. فقد هزت أكثر المعتقدات تجذرا وحكمت بالموت عل كل فكرة داعية للإدماج.لا ريب في أن المنتخبين لم ينقلبوا كلية إلى جانب جبهة التحرير الوطني فثمة صلة خفية ظلت تربطهم فرنسا لكن المهم هو أنهم تجرأوا على التنديد بالقمع وإدانة النظام الاستعماري والإدماج. الوقت كان سيتكفل بتحقيق الباقي، تم "الالتحاق بركب جبهة التحرير الوطني" وما بقي لعبان رمضان ـ الذي كان يحسن قراءة الرسائل السياسية سوى أن يدفع الأمور قليلا إلى الأمام حتى يتسنى له جني ثمار انضمام كان له عظيم الأثر البسيكولوجي.

وقد قابل مجددا فرحات عباس، الذي كان أكثر المتخبين تميزا، في فيفري 1956 بعد زمن قصير من استخلاف جاك سوستيل بروبير لاكوست (Robert Lacoste) الذي كان أكثر تطرفا من سلفه وتمت المقابلة بمنزل الأمين خان، وزير الأشغال العمومية في الجزائر المستقلة، قرب مستشفى (سولال Solal) حاليا، العيادة المركزية بنهج باستور بالجزائر العاصمة. حينها لم يعد بوسع عبان، الذي كانت تستعجله الكثير

من الاستحقاقات ولا عباس الذي اطلعت السلطات الفرنسية على اتصالاته المختلفة جبهة التحرير الوطني، تأجيل المسألة الجوهرية: هل قادة الاتحاد الديمقراطي من أجل البيان على استعداد أم لا للانضمام لجبهة التحرير الوطني؟ لقد كانت الصيغة التي أعدها عبان رمضان ونفذها بسيطة لكن على درجة كبيرة من الأهمية. كان ينبغي أن يتم الانضمام فرديا كما كان يتعين حل الأجهزة القديمة.فالخيار كان إما لصالح الجبهة أو ضدها.الرسالة كانت واضحة. وكل الذين لم يعوها في الحال ندموا فيما بعد، بل فمهم من دفع الثمن غاليا.

ثمة حدس جعل فرحات عباس الذي كان متمرسا في السياسة ومن أمهر ممتهنيها، يدرك أنه أمام أكبر موعد له مع التاريخ.

فكيف كان له أن يتخلف عن ذلك الموعد هو الذي طالما عانى من المجد والنفوذ الذين كانا لمصالي وربما عن غير استحقاق. هاهو ذا التاريخ اليوم يدين الأخير ليفتح أمامه هو (عبان) آفاقا لم يكن يحلم بها.

وما كان لتأنيب الضمير في آخر لحظة أن يغير شيئا كان قضاء وقدرا. وردا عن تخوفه من أن يتهم رفقة أصدقائه بالالتحاق بركب الجبهة بعد أن أخذ سيره قال له عبان رمضان بكل ذكاء: "جبهة لتحرير الوطني ليست ملكا لأحد وإنما هي للشعب المقاتل. الفريق الذي فجر الثورة لم يكتسب أي حق لتملكها وإذا لم تكن الثورة من عمل الجميع فإنها حتما ستبوء بالفشل سأحذر بن بلة. لا يحق لأحد الحكم عليكم.حرب التحرير تسع الجميع."

ما أحرص عليه هو انتماؤكم لجبهة التحرير الوطني. يجب أن يلتف الشعب حول جبهة التحرير الوطني. وانضمامكم لجبهة التحرير الوطني سيعطي دفعا للقوى الشعبية" (5).

لقد كان عبان رمضان فعلا مدهشا وكان جوابه رائعا لدرجة أنه استحق أن يدفع به كل مرة وكثيرا ما تكرر الأمر. ينسى فيها أن الشعب هو كل شيء وأن الأفراد لا يساوون شيئا.

قبل مغادرة الجزائر في أوائل شهر أفريل 1956 وفي توديعه لنضال سياسي امتد أكثر من ربع قرن إلى جانب فرنسا لصالح خوض غمار حرب ضدها لم يكن يقدر حجمها وكذا نتائجها، قابل فرحات عباس مرة أخرى عبان رمضان الذي كان أكثر تبصرا من ذي قبل والذي قال له ما يلي: "...لا ينبغي السماح لأحد يربط شخصه بالثورة أو بتشخيصها. يجب أن تبقى الثورة حصريا من إنجاز الشعب صاحب السيادة وإلا فسينتقل هذا الشعب من "استعمار" إلى "استعمار آخر"، من استعباد إلى استعباد آخر."(6).

عندما اقتلع جدوره من مسقط رأسه ليقاتل إلى جانب جبهة التحرير الوطني فقد اقتلع فرحات عباس آخر صفحة من سياسة الإدماج، لقد مزق الكتاب كله. وإذا اقتضى الأمر صورة إضافية عن ذلك فينبغي البحث عنه في حل الجمعية الجزائرية الذي اثبت نهاية هذه السياسة تلك الجمعية التي طالما تمردت على كل فكرة عدالة وطالما بدت واثقة لحد الغرور في سياسة التصلب والقمع.

وبرحيل فرحات عباس انطوى عهد كامل. وبكثير من الفخر نسب الفضل في انضمامه لجبهة التحرير الوطني لعبان رمضان الذي قال عنه فيما بعد "أنه أصبح من أعز أصدقائه" (7).

الاتصال بالمركزيين وانضمامهم لجبهة التحرير الوطني

بالنسبة لهذه المسألة ليست الأمور بالبساطة التي قد نتصورها.

في الاتحاد الديمقراطي من أجل البيان لقد كان الأمر واضحا: ثمة فارق كبير كان يفصلهم عن جبهة التحرير الوطني والمناضلين لم يكونوا من نفس الجانب ولأنها نهلت من منابع مختلفة فإن الحساسيات باتت حتما

مختلفة. ومع المركزيين تعقدت الأمور لأنهم كانوا منحدرين من نفس الأسرة السياسية. وما أكثر دواعي التخوف من التعصب والشروخ وعندما كانت تحدث، كم كان يطول ويصعب التئام الجراح التي تسببها.فما الذي حصل بين عبان رمضان والمركزيين؟ لا يبدو أن الحذر الناجم عن عدم مشاركة -بل رفض- هؤلاء المشاركة في تفجير الكفاح المسلح قد تبدد عشية الاتصالات بينهم وبين عبان رمضان. فإذا كان عبان رمضان، من جهته يعتقد أن المعتدلين في حزب الشعب الجزائري -على الأرجح في تلميح لأغلبية المركزيين- لن يدجموا في جبهة التحرير الوطني فإن المركزيين كانوا بدورهم يعتبرون أن الثورة تفتقر إلى برنامج وإلى قيادة.

لم يتسن تبديد الحذر إلا بعد لقاءات عديدة ومطولة. وتمكننا بموجب أربع شهادات إلى إعادة بناء مجرى تلك الاتصالات التي قامت بين عبان رمضان والمركزيين. ليس بوسعنا الجزم في أي وقت بالذات تمت الاتصالات الأولى نظرا لتباعد التواريخ المذكورة في الشهادات.

ما نعرفه يقينا هو أن المركزيين الذين تم توقيفهم غداة تفجير ثورة الفاتح نوفمبر 1954 قد أطلق سراحهم في حدود منتصف شهر ماي من سنة 1955 في نفس الوقت مع المصاليين بعدما تبين للسلطات لاستعمارية أنهم لم يكونوا وراء العمليات. ومن غير المستبعد ايضا أن فكرة استعمالهم بعد إطلاق سراحهم قد راودت تلك السلطات.

ومهما يكن فقد تقابلوا في ربيع 1955 وتكررت لقاءاتهم. وأكثر من ذكرت أسماؤهم هم بن خدة وبودة وكيوان و تمام و علي عبد الحميد ولوانشي. ولما رفضوا البقاء" مكتوفي الأيدي" كما قال لنا أحدهم، فقد فكروا في تشكيل حزب سياسي بالاتفاق مع جبهة التحرير الوطني.

ويبدو أن التفكير وكذلك المشروع قد كان مستوفيا حيث أن التشكيلة كانت ستحمل إسم " التجمع الديمقراطي الجزائري" وكان يفترض

أن تجمع كل التيارات التقليدية مثل الاتحاد الديمقراطي من أجـل البيـان والحزب الشيوعي الجزائري والعلماء كما تقـرر، مـن جهـة أخـرى، الاتصال بجبهة التحرير الوطني. كذا تمكن ابن يوسف بن خدة و صـالح لوانشي في حدود جويلية-أوت 1955 من مقابلة بن بلة بسان ريمو (San Remo) [مدينة إيطالية لا تبعد كثيرا عن الحدود الفرنسية]. تم ذلك بكـل بساطة من خلال اتصال هاتفي بالقاهرة حيث يبدو أن خيضر هو الـذي، بعد أن تم الاتصال به، قد أطلع مسؤول الوفد الخارجي الذي كان موجودا في تلك النواحي.ذلك ما يبين أن الوسائل البسيطة كثيرا ما تكون الأكثـر نجاعة حتى في خضم الثورة.

لم يسفر ذلك الاتصال الأول عن أي قرار إذ اكتفى إبن بلـة بتوجيـه هذين المركزيين نحو عبان رمضان الذي كان بالجزائر العاصمة. وقد أكد هذا الخبر مصدران . وهذا ما جعل أحد الشـهود يقـول أن " بـن بلـة كان يعتبر عبان رمضان مسؤولاً عن الداخل". أما الشاهد الثاني فقد كان يجهل حتى وجود عبان رمضان بالجزائر، هذا الأخير لم يكتف بعد كأحد القادة الثوريين في الداخل.

أول من اكتشف أمره من المركزيين هو أحمد بودة من خلال كمـين سلمي نصبه له رباح لخضر مؤجر القائد الثوري والمناضـل المتفـاني السالف الذكر. بتوجيه من عبان رمضان الذي أعلمه بوجوده في نفس حي هيلين بوشي حيث يقيم هو الآخر، أخذ يتربص بجاره وفور مشاهدته يوما ما من أيام مارس-أفريل 1955 (هذا التاريخ يفتقر للصحة بالنسـبة لنـا: اللقاء قد تم بعد بضعة أشهر منه) اقسم عليه بأن يتنـاول الغـداء عنـده في الطابق السابع من العمارة ب في نفس الحي. وكان من غير اللائـق بالنسبة لمسلم ملتزم من أمثال أحمد بودة، وكان منافيا للـدين وللأخـوة الإسلامية، أن يحنث مسلما آخر. وحصل أن الجارين فـي الحـي كانـا

يتعارفان ويتحبان كثيرا لكونهما مناضلين قديمين في حزب الشعب الجزائري. ابلغ أحمد بودة الذي يقطن في العمارة "ف" من نفس الحي ابنته أنه سيذهب إلى بيت صديق له غير بعيد. ولما وصل إلى شقة رباح لخضر التقى وجها لوجه بعبان رمضان الذي كان جالسا بقاعة الأكل. قال لنا أحمد بودة (8) أن الحديث الذي بدأ في حدود الساعة الثامنة مساء قد استمر لغاية الفجر. بالنسبة له فقد تحول المسؤول السابق لدائرة حزب الشعب الجزائري الذي تعرف عليه بشلغوم العيد في حدود سنة 1947 إلى شخص متميز ومثقف وكامل الشخصية.دار الحديث حول مواضيع مختلفة ومنها يكون عبان رمضان قد عرف على ما يبدو بالتحضير للتجمع الديمقراطي الجزائري. وقد أبدى كثيرا من القسوة اتجاه المركزيين الذين قال عنهم أنهم تحولوا لمعتدلين في الوقت الذي "أصبح فيه أشخاص، لم يكونوا مناضلين البتة، ثوريين بأتم معنى الكلمة." ثم وجه عتابا للقيادة الخارجية لجبهة التحرير الوطني التي لم تكن ترسل الأسلحة.في إشارة هي على الأرجح لأعضاء تلك القيادة استغرب أنهم" لم يوفدوا أحدا إلى الجزائر العاصمة لتقديم التفسيرات" وأضاف أنه" عليهم أن لا يقدموا الوعود إذا كانوا لا يستطيعون الوفاء بها" اللهم إلا "إذا كانوا يخافون فرنسا أو يخشوون أن يتم توقيفهم عند مجيئهم للجزائر". بودة لم يكن يشاطر عبان رمضان نفس التشدد وقال له ذلك موصيا إياه بالصبر والثقة مما أدى إلى التخفيف من ضغينة مسؤول جهة التحرير الوطني.

هل يمكن أن نستخلص من ذلك أن أول لقاء بين عبان وبودة هو الذي أطلق مسار اندماج المركزيين في جبهة التحرير الوطني؟ الأمر يبدو أكيدا لا سيما وأن بودة قد لقي اقتراحا بالذهاب إلى الخارج مع بعض أعضاء اللجنة المركزية القدامى. هناك من يقول أيضا -وذلك ما أكدته لي

مصادر عدة- أن مسؤول جبهة التحرير الوطني يكون في بداية الأمر قبل فكرة إنشاء التجمع الديمقراطي الجزائري الذي كان سيشكل "غطاء سياسيا" لجبهة التحرر الوطني ولكنه تراجع بعد برهة من الزمن إما إثر تشاور مع غيره من قادة جبهة التحرير الوطني وإما بعد تفكير شخصي.

صحيح أنه في تلك الفترة -في حدود صائفة 1955 - لم يكن المركزيون يعرفون تحديدا ما كان ينبغي فعله. وسبب الحيرة كان غياب الاتصالات على أعلى المستويات مع قادة الثورة الذين كانوا لا يعرفون جميع أسمائهم أو أدوارهم ولا مكانتهم.

لقد كانت هناك العديد من دواعي الارتباك حيال ثورة لم يكن من السهل استيعابها حتى بالنسبة لمن صقلتهم السرية ومناورات حزب الشعب الجزائري. بل حتى أن الحيرة كانت بادية عليهم وفي صفوفهم بالذات. وخلال أحد الاجتماعات التي غالبا ما كانت تنعقد عند بودة بالعناصر -الحامة حاليا- برز عبر المحادثات والفرضيات اتجاهان: الاتجاه الذي كان يدافع عنه إبن خدة من خلال حثه على حل اللجنة المركزية - قيادة بلا فرق- على حد تعبير شاهد مرموق واتجاه كيوان الذي كان إلى جانب تأييده للكفاح المسلح يعتبر الإبقاء على اللجنة المركزية مسألة ضرورية مبدئيا. انعقد ذلك الاجتماع في سبتمبر 1955 بحضور ابن يوسف بن خدة وعيسات إيدير وصالح لوانشي والطاهر لعجوزي وعبد الحميد مهري (حضوره لم يؤكد) وعبد المالك تمام وعبد الرحمن كيوان وأحمد بودة بحي هيلين بوشي لكن تلك المرة بمنزل جار لرباح لخضر في نفس الطابق.

نادرا ما تتحقق مقولة "رب صدفة خير من ألف ميعاد" اللهم إلا إذا كان مؤجر عبان رمضان المتفاني والذي كان على درجة من التبصر والحذاقة قد أعد العدة لكل شيئ. فالواقع أنه خلال ذهابه وإيابه بين الشقتين بحجة خدمة ضيوفه المرموقين لم يفقد مضيف المركزيين

شيئا مما كان مهما في حديثهم لفائدة مسؤول جبهة التحرير الوطني في الجزائر العاصمة. عندما أضحى يعرف مواقف كل منهم وحتى بغير علم منهم أبدى مرونة خاصة اتجاههم وراح يسوي، حالة بحالة، أوضاع كل من قابلهم. ولنلاحظ أن اللقاءات التي تمت معه قد جرت بشكل انفرادي و لم تكن جماعية البتة.

وانطلاقا من شهر أكتوبر 1955 قبل بودة الذهاب إلى الخارج. وأصبح أحد سفراء جبة التحرير الوطني الأوائل في الشرق الأوسط. أما لوانشي فقد أوكلت إليه في ديسمبر 1955 مهمة إعادة تنظيم ما أصبح فيما بعد فدرالية جبهة التحرير الوطني. وبقي فيمن بقي، كل من كيوان وبن خدة وهما شخصيتان بارزتان في آخر لجنة مركزية لحركة انتصار الحريات الديمقراطية حيث أن أحدهما كان يشكل رفقة لحول أمانة الحزب وكان ثانيهما أمينه العام.

لم تسو وضعية كيوان بسرعة وقد قيل الكثير بهذا الخصوص.لا يسعنا في هذا المقام نقل سوى ما تسنى لنا استقاؤه من عناصر. ليس مستحيلا أن يكون بعض المناضلين قد فكروا في تصفيته مثلما حدث مع كثيرين على غرار فرحات عباس مثلما رأينا أعلاه. لكن عبان رمضان يكون قد قال بخصوصه" أفضل أن يكون عندي مناضل في القاهرة بدلا من جثة في الجزائر العاصمة". على أية حال فالمعني بالأمر نفسه والذي قابلناه مطولا يحتفظ بأفضل الذكريات لقائد جبهة التحرير الوطني في الجزائر.(9) فبالنسبة له، «لم يكن الرجل شجاعا فحسب ولكن ذكاءه وتبصره جعلاه يظهر بمظهر المتمكن .الواقع أنه كان ديمقراطيا بأتم معنى العبارة وكان يحسن كسب ثقة مخاطبيه". فلقد بدا له "كالقائد الحقيقي لجبهة التحرير الوطني من غير أن يقدم على شيئ لإثارة ذلك الانطباع".

تقابل الرجلان خمس أو ست مرات من ربيع 1955 إلى مارس 1956 وقد جرى اللقاء الأخير بينهما بمنزل كيوان بديار المحصول قبيل التحاق هذا الأخير بدوره وبأمر من عبان رمضان بالوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني بالقاهرة.

أما مصير إبن خدة فقد كان مغايرا: أن مثل فريد فعلا في الجزائر أن يتحول الأمين العام الأكثر شعبية للحزب الاشتراكي إلى مناضل بسيط مكلف بالبحث عن الملاجئ والمخابئ والأسلحة واللباس والأدوية. وقد قال لنا أحد رفاقه أنه أنجز عملا جبارا. ولما كان الرجل بأصله فإن الوطني الحق غالبا ما يتفوق في اجتياز المحن وابن خدة كان من أخلص الوطنيين في هذا البلد.كان متواضعا لحد التفاني وكل شيئ في تصرفاته كان يميزه عن صورة الزعيم السياسي التقليدي الذي غالبا ما كان سعيه محركا بدافع الطموح أكثر منه بدافع القناعة وكثيرا ما يفوق حرصه على الظهور تمسكه بالخدمة والذي ينشط في سياق المناورة السياسية أكثر منها في مجال العمل العميق. وعليه تعين الاقتراب من بن خدة لنسجل كيف أن الرجل الذي ظل عزيزا كبيرا رغم المحن، كان محل ثقة واحترام(10). كل تصرفاته، من كلامه إلى مظهره، تنم عن التواضع. ولما أحيل إلى أسفل درجات السلم لم يترك ايا من مهاراته إلا وجعلها في خدمة الثورة.لقد كرس نفسه لخدمة الثورة بمحض إرادته بل حتى أنه أبدى شيئا من التسرع في بذل خدماته. وإلى غاية نهاية ديسمبر 1955 ظل يعمل بالتنسيق مع جبهة التحرير الوطني للبليدة التي كان يشرف عليها مناضل كبير يدعى مامي محمد. وبعد توقيف هذا الأخير اضطر بن خدة العمل في السرية على غرار ما كان مألوفا حينها عندما يتم القبض على أحد المسؤولين للحيلولة دون أن يلقى من يعرفهم نفس المصير. وقد ظل على اتصال وثيق بعبان رمضان بواسطة عون اتصال

كان يدعى أكلي صاحب مطعم بنهج ميسونيي (حاليا فرحات بوسعد) والذي نوه بإخلاصه وتفانيه. كان الرجلان يعرفان بعضهما منذ دراستهما المتوسطة في البليدة وذلك ما جعلهما يكملان وينسقان نشاطهما بإتقان تام وقد تولدت بينهما صداقة وتقدير رغم ما تعرض له كليهما من محن فيما بعد.أن يكون عبان الهدف ويدفع بن خدة الثمن هو الآخر كما سنلاحظ ذلك غداة التعديل الجاري على مستوى لجنة التنسيق والتنفيذ في أوت 1957. في الحال كان بوسع الاثنين التمتع بلقائهما وحتى الارتياح للنتائج التي تحققت في ظرف قصير من الزمن.

ما لم تدركه المفاوضات بشأن اللجنة الثورية للوحدة و العمل من وحدة بين المركزيين و"العمليين" –الذين يقترحون العمل المسلح الفوري وبوضياف على رأسهم في ربيع 1954– قد انتزعه عبان رمضان في خريف 1955. فتحطيم حركة انتصار الحرية والديمقراطية عن طريق حل لجنتها المركزية في حدود سبتمبر 1955 (نقول: حزب المركزيين) شكل نصرا لقائد جبهة التحرير الوطني بالجزائر العاصمة والأمين العام للحزب الذي اقترح هذا الحل معا.

من خلال الاندماج الفردي، كل في منصب درسه عبان رمضان بعناية شديدة، لم يقتصر دور المركزيين في تزويد جبهة التحرير الوطني بالخبرة والإطارات السياسية التي كانت تفتقر إليها ولكنهم ساهموا أيضا في جعل الجميع ينسى ذلك الخلاف القائم بينهم وبين "العمليين" بخصوص تفجير الكفاح مع تطهير الوضع السياسي على الصعيد الوطني وتوضيحه.لا شك في أن اللقاءات بين المركزيين وصناع الفاتح نوفمبر 1954 لم تسو كلية النزاع السيكولوجي الذي زادت من حدته الاتهامات أو محاكمات النوايا ولاشك أيضا أن وصول المركزيين بقوة كان من دواعي التخوف، لا سيما لدى القادة "التاريخيين" من أن "تسرق" منهم

ومن أن يسلبوا زمام القيادة لكن ذلك لم يمنع من اجتياز خطوة كبيرة. فناهيك عن الخصومات الفردية التي لا يخلو منها أي عمل بشري، ففي نهاية المطاف كان لتأييد المركزيين لجبهة التحرير الوطني بل التحاقهم السريع بها على درجة عالية من الفائدة للثورة وفي مسار بن خدة تجسيد لذلك.

بفضل ماضيه ومزاياه الشخصية تخطى كل العراقيل التي اعترضته في الأشهر السابقة واكتسب بداية من جانفي 1956 إلى جانب عبان رمضان دورا رياديا في تنظيم الكفاح. ولقد كانت ثمرة جهوده أن عين في أول لجنة للتنسيق والتنفيذ وإقصاؤه من هذا الجهاز في أوت 1957 كان مؤقتا حيث عاد إليه بعد اقل من ثلاثة أشهر كرئيس للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية أي في أعلى مناصب الثورة، على الأقل إسميا. وستتاح لنا فرصة العودة إلى هذا الموضوع لكن اسمه أضحى منذ ذلك التاريخ مقرونا بشكل وثيق باسم عبان رمضان الذي بفضل انتصاره المزدوج على الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري وعلى المركزيين راح يواصل انطلاقته بكل عزم.

الاتصال بالعلماء وانضمامهم لجبهة التحرير الوطني

لن تذعن اليوم للإتجاه القاضي بتوزيع التكريم للجميع دون تمييز. بخصوص العلماء فليس هناك ما هو أكثر مخالفة لمذهبهم ولنهجهم من الانحراف الأخلاقي. فالمهمة التي سطروها لأنفسهم منذ نشأة جمعيتهم كانت على درجة من النبل والسمو تغنيها عن كل فضل لم يسعوا إليه ولا لأحكام تابعة كانت ستمثل نكرانا لحساسيتهم.

فهناك شهادات عديدة وصحيحة صدرت عن أعضائها تثبت بما لا يترك مجالا للشك أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ظلت زمنا طويلا بلا لون سياسي (11). وفضلا عن الدفاع عن اللغة العربية والإسلام اللذين يمثلان في حد ذاتهما غايتين ساميتين جديرتين بكل

احترام فقد كان العلماء يسعون للحفاظ على الشخصية الجزائرية.و لا شك أيضا أنهم شرعوا بالتدريج ابتداء من سنة 1936 في مراجعة مواقفهم السابقة ليتعدوا إطار الدين واللغة من أجل الخوض بحذر وتبصر في المجال السياسي البحت. لكن هذا التطور الذي نجده أيضا لدى التشكيلات المعتدلة الأخرى لا يلغي البتة الكتابات الأولى للقادة الرئيسيين أو أجهزة الجمعية بل لا يسمح على الإطلاق، اللهم الا إذا كان في الأمر مغالاة أو تحيز عمدي، اعتبار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كرائد ولا كفاعل معتبر في الثورة الجزائرية. فحتى بعد اندلاع هذه الثورة مرت عدة أشهر قبل أن تصدر رد فعل العلماء الايجابي اتجاه الثورة. لقد محمد حربي (12) مثلا أن رئيس الجمعية الشيخ البشير الإبراهيمي الذي كان مقيما في المشرق منذ 1951 لم يرض باتخاذ موقف مؤيد للكفاح الذي شرعت فيه جبهة التحرير الوطني مما سبب له بعض المشاكل مع نظام عبد الناصر. ونعلم أيضا أن الشيخ نور الدين كان من بين قادة الجمعية الذين اجتمعوا بالحاكم سوستيل في مارس 1955 والأمر كان ينطوي حتما على دلالة سياسية.

لكن هناك من قادة العلماء من ابدوا موقفهم المؤيد للكفاح المسلح، سرا في مرحلة أولى قبل أن يجهروا بموقفهم المؤيد فيما بعد. ومنهم الشيخ العربي التبسي الذي كلفه ذلك حياته سنة 1956 عندما اختطفه الفرنسيون.

وعلى الرغم من أننا تلقينا شهادات متناقضة إلا أننا نميل للاعتقاد بأن المعني كانت له اتصالات مبكرة مع قادة جبهة التحرير الوطني وذلك ما يتجلى من شهادة (13) علال الثعالبي، وهو مناضل قديم في حزب الشعب الجزائري والذي عرف عبان رمضان في شاتودون دو روميل (شلغوم العيد) في 1947-48 و الذي شغل عدة مناصب ضمن جبهة التحرير الوطني مما أهله ليعين في المجلس الوطني للثورة

الجزائرية من 1956 إلى غاية 1962. بعد أن كان عـون اتصـال بـين بن مهيدي وبيطاط أصبح يؤدي نفس المهام لدى عبان رمضان الذي ذهب لمقابلته في افريل 1955. وهو الذي نقل أن انضمام الشيخ العربي التبسي لجبهة التحرير الوطني قد تمت الإشارة إليه في رسالة كتبها عبان لكريم بلقاسم. و اطلعت نفس الرسالة هذا الأخير بسفر الدكتور موتـو (الاسـم المستعار للأمين دباغين) للإشراف على القيادة الخارجية لجبهة التحريـر الوطني التي كانت تتلقى انتقادات بعدم تعجيلها بإرسال الأسلحة. عن تلك المرحلة بالذات يحتفظ الثعالبي بانطباع عميق أثاره لديه رفيقـة القـديم في حزب الشعب الجزائري بشلغوم العيد. وأضاف "كنـت أهابـه، لقـد أضحى عظيما". أما الشهادة الأخرى التي تثبت لقاء عبان رمضان الشيخ العربي التبسي فقد استقيناها لدى بن يوسف بن خدة الذي أكد أنه حضـر لقاء-على الأرجح بين سبتمبر وديسمبر 1955- حضره فضلا عن رئـيس الجمعية بالنيابة كل من الشيخ خير الدين وسلطاني وعباس تركي بفـيلا هذا الأخير في الأبيار.

على نقيض هذا الرأي يؤكد الشيخ خير الدين أن (14) العربي التبسي لم يقابل قائد جبهة التحرير الوطني في الجزائر فيما أنه، هـو بوصـفه مسؤول جمعية العلماء، قد استقبله رفقة ابن خدة في بداية 1956 في شقة بديار المحصول بالجزائر العاصمة بعد أن اشترط على قريبه شراء حبل، على ما يبدو ليتمكن من تهريب ضيفين عبر النافذة باتجاه غابة الأقـواس الشاسعة . هناك قال له عبان رمضان إثر محادثات مطولة:"أنت تعـرف الكثير من الأشياء .ولحسن الحظ لم تقتل لأنهم كانوا يريدون ذلك". وهناك أيضا اقترح على الزعيم الديني التوجه إلى المغرب وذلك ما فعلـه بعـد أن "طلب مهلة أربعة أيام لتسوية مشاكل أسرتي الكبيرة ومشاكل الجمعية".

لا يهم إن كانت الاتصالات التي نقلت لنا أعلاه قد تمت على الشكل الذي عرضت فيه علينا. ما يهم بالعكس هو أنه فور السابع جانفي 1956 سجلت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين موقفها الرسمي لصالح الكفاح المسلح إثر انعقاد جمعيتها العامة بالجزائر.

وبأسلوبها الخاص صادقت الجمعية تحت توقيع رئيسها (العربي التبسي) وأمينها العام (توفيق المدني) على بيان أكدت فيه :"لن تتحقق تسوية القضية الجزائرية بصفة نهائية وسلمية من دون الاعتراف رسميا وصراحة بالوجود الحر للأمة الجزائرية وكذا بشخصيتها الخاصة وحكومتها الوطنية وجمعيتها التشريعية ذات السيادة وذلك في ظل احترام مصالح الجميع والحفاظ على حقوق كل واحد".

وفي الختام حثت الجمعية "الشعب على البقاء على الطريق المستقيم والثبات ومواصلة فعل الخير ورص الصفوف و نبذ فتن الماضي حتى يتوصل شعبنا قريبا من خلال كفاحه المثالي إلى هذا المستوى من العظمة والاستحقاق التي تليق بتاريخه ثم استندت إلى قوله تعالى ﴿وقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الآية 105 من سورة التوبة.

نفهم بالتالي أن جمعية العلماء باتت على وئام تام مع جبهة التحرير الوطني وأنها دعت الشعب الجزائري أو أنصارها إلى المشاركة في الكفاح اللهم إلا إذا كانت قد أدركت على غرار التيارات الأخرى، أن أتباعها قد انطلقوا إلى ساحة القتال.

الاتصالات مع الحزب الشيوعي الجزائري

يحتل الحزب الشيوعي الجزائري مكانة منفردة على الساحة السياسية الجزائرية والسبب الأول يكمن في تشكيلته حيث أنه الحزب الوحيد الذي

يضم الجزائريين المسلمين والأوروبيين على حد سواء.هذه التشكيلة المزدوجة أثرت بشكل عميق على انسجامه وكذا على برنامجه السياسي.

هناك أيضا انتسابه: لقد كان لمدة طويلة فرعا من الحزب الشيوعي الفرنسي وعليه فإن تحقيق استقلاليته سنة 1936 لم تكن لتغير الأمور، فهو ليس مستقلا إلا في المفهوم الذي يكتسب فيه فرع ما استقلاليته بالنسبة للحزب الأم ومعنى ذلك أنه ما كان ليدرج نشاطه اليومي والتكتيكي خارج توجهات "الأخ (الحزب) الكبير".

في مؤخرة الأسباب تأتي الأيديولوجية التي تحمل الأحزاب الشيوعية ـ حيثما وجدت ـ على إدراج مساعيها وكفاحها في إطار دولي أكثر منه وطنيا.

هذه الميزات الثلاث حالت دون فهم الحزب الشيوعي لمغزى كفاح الشعب الجزائري والمشاركة فيه بشكل فعال وهام. وسرعان ما أضحى متأرجحا بين قادة الفكر الماركسي اللينيني ومناضلي القاعدة الذين لا يستوعبون السياسة إلا في بعدها الجزائري.

سنرى ذلك بشكل مفصل لاحقا، فهناك العديد من الشيوعيين الجزائريين الذين انضموا إلى جبهة التحرير الوطني دون انتظار أوامر أو إذن حزبهم ـالتي طال انتظارهاـ في حين أن القادة، خاصة منهم ذوي الأصل الجزائري، كانوا من كبار الغائبين عن الكفاح التحرري.

مع ذلك فقد سجلت محاولات في ماي-جوان 1956 حتى يتحقق مع الحزب الشيوعي الجزائري ما تم بنجاح تام مع التشكيلات الأخرى.

بلغنا من مصدر جيد أن عبان رمضان الذي يكون قد قابل مع ابن خدة، قائدين من الحزب الشيوعي الجزائري ـايت مدير هجرس وبشير حاج عليـ يكون أيضا قد فكر في إيفاد الأول إلى موسكو والثاني إلى القاهرة لتعزيز التمثيلية الخارجية لجبهة التحرير الوطني.لكن يجب التسليم بأن مبدأ أحادية الكتلة والفكر الدغماتي اللذين كانا يشكلان

الأحزاب الشيوعية خاصة في ذلك العهد قد تغلبا على الإرادة في المشاركة في كفاح التحرير الوطني.

رسميا فإن رفض قادة الحزب الشيوعي الجزائري حل حزبهم هو الذي كان وراء فشل المحادثات مع جبهة التحرير الوطني وهذا ما يبرز بوضوح في رسالتين وجهتهما اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الجزائري في 12 جويلية و16 أوت 1956 لقيادة جبهة التحرير الوطني. الواقع أن كلا الحزبين لم يتغلبا عل ارتيابهما اتجاه الآخر و لم يخلصا إلى العمل معا. حقيقة تجلت في أتم معانيها حتى أن "مقاتلي التحرير" وهي التشكيلة العسكرية التي أنشأها الحزب الشيوعي الجزائري ليخوض كفاحه الخاص والذين انضموا فرديا إلى صفوف جيش التحرير الوطني أو جماعات الصاعقة الحضرية ابتداء من جويلية 1956 قد فرضت عليهم مراقبة مشددة حتى لا يصاب عناصر جيش التحرير الوطني و جبهة التحرير الوطني بالعدوى الإيديولوجية. لكن هذا لم يحل دون إسهام بع المناضلين الشيوعيين، من جزائرين وأوروبيين، إسهاما مثاليا في سبيل تحرير الوطن وسنرى ذلك لاحقا.

هذه المشاركة وإن كانت رمزية ومحصورة في مناضلي القاعدة أعطت في الختام للكفاح الوطني الجزائري بعده الشعبي الأوسع والأعمق. وإذا كان عبان رمضان جديرا بمجد ما فهو يتمثل بالتأكيد في كونه توصل في أقل من سنة إلى توحيد صفوف كل القوى الوطنية في ظل الكفاح ولقد ذهب إلى ابعد من ذلك حيث أنه أجرى اتصالات ، تأكدت نجاعتها فيما بعد، مع العديد من الشخصيات المستقلة في مختلف الأوساط الأوروبية كما أنه اهتم عن كثب بالمنظمات الجماهرية التي ساهم في إنشائها أو تطويرها في إطار جهوده الرامية لحشد أقصى القوى من أجل تحرير الوطن.

محرك المنظمات الجماهيرية

سيكون من المبالغة أن تنسب كل شيء إلى عبان رمضان، كما أنه ليس من الإنصاف عدم الاعتراف بدوره في شتى المجالات. وليس تكوينه وثقافته السياسية وحدهما جعلاه يهتم بكل شيء بل استعداد كذلك، والأكثر من ذلك، ميله الطبيعي والتلقائي إلى ممارسة القيادة. لا أعلم إن كان هناك استعداد بيولوجي أو جيني لممارسة القيادة، لكن لا نزاع في أن العديد من الرفاق يشهدون له بهذه النزعة الطبيعية التي ربما ما انفك يعززها.

لا ينبغي أن ننسى، أن العاصمة كانت الفضاء الأنسب للاتصالات مع باقي المناطق لم تكن تدرك الثورة بعد وقد كانت خفية وكان النشاط في سرية تامة.

وما اقتضته الظروف أن يكون على رأس عاصمة البلد؛ بفضل دعم الجبال القبائلية التي تعد قاعدته الخلفية وفي ظل غياب، وفي غياب أي شخص كان بإمكانه الوصول إلى القمة، أقام عبان رمضان شبكة مكنته من التحكم في زمام الأمور كلها قبل أن يحكم قبضته على التراب الوطني كله وعلى مناطق أخرى لاسيما فرنسا.

إن الرواية التي نسعى لتقديمها عما أنجزه، قد تولد لدى القارئ صورة، قد تكون مفروضة، عن آلية محكمة التنظيم، تكاد تكون خالية من العيوب وحيث لم يترك أدنى مجال للصدفة، والتلقائية والبراغماتية ولا حتى للارتجال. ولعلنا تأثرنا بالوصف الذي قدم لنا عما أنجزه، حيث أضحينا نخاله موجودا في كل مكان مبديا رأيه حول كل الأمور وقادرا على أخذ القرارات والفصل بسرعة وبسيادة تامة. لا ننكر هذا الخطر الذي تنطوي عليه كل محاولة تلقائية.

لكن لابد من الاعتراف بأهمية العمل الذي أنجزه عبان رمضان، وحده أولا ثم بمعية فريق أضفى عليه بن خدة روح المواظبة والتدقيق التي كان يتمتع بها كرجل مؤمن بقضيته.فقد جمع كل التشكيلات السياسية المعتدلة للبلد حول جبهة التحرير الوطني في الوقت الذي كان يبدو بلوغ مثل هذا الهدف مستحيلا من قبل أن تفسير كل هذه الانضمامات بالخذلان من السياسة الفرنسية والخوف والضغوط أو حتى بالصدمة التي تلت أحداث 20 أوت 1955 في الشمال القسنطيني يبقى غير كاف. لماذا الإصرار على التصديق بأن العناصر السلبية و حدها تكون قد أدت بكل هؤلاء الرجال والقادة على اختلاف مشاربهم السياسية والذين لا تنقصهم الشجاعة ولا الفطنة ولا البصيرة، إلى التخلي عن تشكيلاتهم والانضمام إلى جبهة التحرير الوطني؟ ثمة عامل يتجاوز، على ما يبدو لي، كل العوامل الأخرى، وهو: أن هؤلاء الذين ما كانوا لينضموا لجبهة التحرير، إلاّ عندما أدركوا أن الثورة بدأت تترسخ وتتوسع، وأيقنوا بحدسهم أو بما كان يحركهم من حسابات أو قناعة عميقة، بأن جزائر الغد كانت تتشكل انذاك وأنه كان من الأفضل لهم المساهمة في ذلك العمل بدلا من يُقصوا منه نهائيا لاسيما وأن هذه الثورة لم تكن تنطوي على دواعي القلق بالنسبة إليهم.

عبان كان خير من يحسن أسلوب التطمين الوقت المناسب ومع الشخص المناسب، وفي الجزائر العاصمة، كان يمثل الثورة نوعا ما لما تميز به من خصال ومؤهلات على الصعيدين الإنساني والسياسي. كان يحسن، كما قال لنا أحد الشهود، "كسب ثقة مخاطبيه. لم يكن يوجه اللوم لأحد ولم يطالب أحدا بالتخلي عن معتقداته بل كان يدعو الجميع إلى الاكتفاء [بالمشاركة] في الكفاح الوطني من أجل تحرير البلد". فلا عجب إذن أن يتقرب الكثير منه، أولا من أجل التعرف عليه، ثم لأنهم انجذبوا

إليه لقدرته على الإقناع وطريقته في فتح الأبواب للمشاركة في الكفاح حسب قدرات كل شخص شريطة أن يقبل أو أن يطلب العمل من أجل القضية الوطنية.

وجاء إهتمامه بالمنظمات الجماعية التي نحن بصدد الحديث عنها استجابة لطلب و ليس لأنه كان عليه التدخل شخصيا.

I. تأسيس الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين UGEMA

تأسس الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين UGEMA بتاريخ 13 جويلية 1955 خلال مؤتمر تأسيسي عقد في فرنسا. لكنه لم ينشأ من العدم بل جاءت نشأته في إطار تقليد طلابي يستمد مصدره البعيد من جمعية الطلبة المسلمين للجزائر التي نشأت، حسب عمار نارون، بعض الوقت قبل سنة 1926 وهي السنة التي كان فيها فرحات عباس طالبا في الصيدلة بجامعة الجزائر (1). وتوسعت جمعية الجزائر العاصمة بعد ذلك، لتؤسس جمعية الطلبة المسلمين لإفريقيا الشمالية. وبالرغم من قدمه، ينبغي النظر على تأثير النضال الطلابي في مجال تحريك الضمائر على أنه محدود للغاية بسبب قلة عدد الطلبة أولا. حيث لا ينبغي أن ننسى، فيما يخص الجزائر، أن عدد الطلبة المسجلين بكل الكليات عشية الاستقلال لم يكن يتعدى 800 طالب في كل الاختصاصات. وصحيح أن قلة عدد الطلبة الجامعيين أدى بالجمعية إلى قبول طلبة الثانويات في صفوفها. معنى ذلك أن العدد الضئيل للطلبة الموزعين عبر الجامعات الفرنسية العديدة وجامعة الجزائر الوحيدة، لم يكن ليشجع النشاط السياسي -الذي لم يكن يستهوي جميع الطلبة- الذي لم يتعد كونه مجرد شهادة ضد الاستعمار وضد أساليبه وسلبياته. إن حرب التحرير هي التي أضفت على الحركة توسعا لا علاقة له بعدد مناضليها وزودتها بمجال نشاط حول أهداف محددة.

وأمام الكفاح على الصعيد الوطني، لم يكن بمقدور الطلبة الجزائريين الحفاظ على التنظيم الذي كان سائدا آنذاك وفقا لفروع مستقلة وغير متصلة ببعضها وجاءت مبادرة الاتحاد لتشكيل جمعية ذات بعد وطني من صفوفهم وليس من جبهة التحرير الوطني. هكذا نشأت فكرة جمع كل الطلبة الجزائريين حيثما وجدوا. وقد ترأس فرع الجزائر العاصمة -الذي كان يضم أكبر عدد- بلعيد عبد السلام الذي ظهر فيما بعد كأب للصناعة في الجزائر من خلال بقائه أكثر من عشر سنوات بوزارة الصناعة والطاقة.

كان طالبا في السنة الأولى من العلوم الطبية بالجزائر العاصمة ولكن كان لصفته كعضو باللجنة المركزية الأخيرة لحركة انتصار الحريات الديمقراطية (1935)، ميزة قلما اتسم بها الجزائريون وعلى درجة من الأهمية في ذلك العهد، هي التي مكنته من الوصول إلى الإشراف على طلبة الجزائر. وكان دوره حاسما في إنشاء - وإن اعترضته بعض الصعوبات- الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين UGEMA.

وقد سبق مؤتمر جويلية 1955، عمل تحضيري طويل و شاق. لقد تعثر الطلاب المجتمعون في ندوة خلال أفريل 1955 بباريس حول تسمية جمعيتهم الناشئة. وأن الاختلاف كان في جوهره حول التسمية.

كان الطلاب يتساءلون حول ما إذا كان عليهم أن يتصفوا بالطلبة الجزائريين فقط أو بالطلبة المسلمين الجزائريين؟ النقاش كان في غاية الأهمية لأنه كان يحمل في طياته بالنسبة للجزائر ذلك النزاع الأبدي في أرض الإسلام حول العلاقة بين السياسة والدين. من غير الصائب اعتبار أن الطلبة الشيوعيين وحدهم كانوا ضد الإشارة إلى الإسلام. فهناك طلبة آخرون، ليس التقدميين فحسب بل أولئك الذين كانوا يعتبرون أن لائكية الدول الغربية هي أحد أقوى عوامل تنميتها، كانوا يفضلون الاكتفاء بصفة الوطنية للطلبة، لاسيما وأن دخول الدين حتى على شكل

تسمية في الجمعية من شأنه أن يؤدي إلى فقدان عدة مساندين وكذلك تؤدي الأمر على المدى الطويل إلى تسميم كل النقاشات وتقويض المنظمة ذاتها. كالعادة، فاز الأكثر عزيمة. والحقيقة أنه بالنسبة لتلك الفترة وإلى غاية استقلال الجزائر، لم تكن تستعمل كثيرا تسمية "جزائري" لتحديد الشخص المولود في هذا البلد على خلاف الفرنسي أو الأوروبي بصفة عامة. وكانت كلمة "مسلم" تعني أصل الجزائري أكثر من الانتماء الديني.

أفضت الندوة التحضيرية لأفريل 1955 إلى لجنة دائمة لتحضير المؤتمر الذي ترأسه من كان سيصبح دكتورا في المستقبل ألا وهو بلهوان (الرئيس الحالي للهلال الأحمر الجزائري) الذي اختار مساعدين: محمد الصديق بن يحيى، طالب في الحقوق بالجزائر العاصمة لتمثيل رفقائه المتواجدين بالجزائر، وشريف منتوري، طالب في الطب بليون باسم رفاقه الدارسين في فرنسا. وأجرى بلعوان رفقة رضا مالك، طالب في الآداب، جولة طويلة في فرنسا لتحسيس الطلبة الجزائريين.

عشية المؤتمر، طرح المشكل العويص المتعلق برئاسة الجمعية. وقال لنا الدكتور بلهوان (2) بهذا الخصوص أنه حين قابل بشارع بانويو (Panoyaux) بالمقاطعة العشرين بباريس عبد السلام بلعيد، وجد أنه من الطبيعي أن يقترح على هذا الأخير أن يكون الرئيس الأول للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين فأجابه رئيس فرع الجزائر العاصمة: "ولم لا تكون أنت الرئيس؟". هكذا وبعد أن أضحى الصديقان يتقاذفان المسؤولية فيما بينهما اقترح بلهوان أحمد طالب. بالتالي أصبح انتخاب هذا الأخير كأول رئيس للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين أمرا مفروغا منه. لكنه لم يدم في هذا المنصب مدة طويلة، لأن بلهوان حل محله في مارس 1956، ليستخلف بدوره في نهاية ديسمبر 1957، بطبيب آخر هو الدكتور مسعود آيت شعلال الذي بقي إلى غاية حل الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين في 28 جانفي 1958.

بعد أشهر قليلة، استطاع الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين الانضمام إلى الكفاح الوطني من خلال تقديم إسهام الطلبة الذي لم يكن يقتصر على الاحتجاج، وإنما تعداه ليجسد التضحية في أسمى معانيها. استجاب الكثير من الشباب الذين كانوا في بداية مشوارهم الدراسي، إلى نداء الواجب وانضموا إلى إخوانهم في كفاح المدن والجبال. ولم ينتظر بعضهم وهم أقلية، الإضراب عن الدروس ليحددوا مواقفهم، أي إلى جانب أولئك الذين يحاربون من أجل عزة وكرامة شعبهم وطنهم.

لكن الإضراب الذي شن في جانفي 1956 وتداعياته الايجابية على الكفاح، هو الذي ظل، من بين كل نشاطات الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، مقرونا بإسهام الطلبة في كفاح التحرير الوطني. كان نداء ينم عن قلق كبير وتحمس للكفاح وهو جدير بأن يذكر. لم يكن الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين ليرضى بمجرد الإضراب عن الدروس وكان الوحيد الذي قام به الطلبة في يوم 20 جانفي 1956، كما أن عمليات الاغتيال التي طالت أعضاءه قد أثارت حفيظته وجاء انشغاله إزاء مآسي الشعب لينمي صرخة ضمير ما كان له أن يقاومها. كل هذه العوامل أدت بالاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين إلى توجيه النداء التالي للطلبة الجزائريين:

"*...هل ذهب الإنذار الموجه من خلال إضرابنا الرائع يوم 20 جانفي 1956 سدى؟*

شهادتنا لا تجعل منا جثثا أفضل! فما الذي ستجدينا به شهاداتنا في الوقت الذي يكافح فيه شعبنا ببطولة وتغتصب فيه أمهاتنا وزوجاتنا وأخواتنا ويسقط فيه أبناؤنا وشيوخنا تحت قصف القذائف وقنابل النابالم؟ ونحن "إطارات الغد" ماذا يريدوننا أن نؤطر؟ تأطير من؟...الأنقاض والأشلاء...إن سلبيتنا إزاء الحرب الدائرة على مرآنا تجعلنا متواطئين مع الاتهامات الحقيرة التي توجه لجيشنا الوطني المجيد. إن السكينة المصطنعة التي أردناها لأنفسنا لم تعد ترضي ضمائرنا.

إن واجبنا يدعونا إلى مشاركة المعاناة اليومية إلى جانب أولئك الـذين يكافحون و يموتون في مواجهة العدو.

سنشن إضرابا فوريا عن الدروس والامتحانات وذلك لمدة غير محدودة.

يجب مغادرة مقاعد الدراسة للالتحاق بالجبال.

يجب الالتحاق جماعات بجيش التحرير الوطني و هيئته السياسية جبهة التحرير الوطني.

أيها الطلاب والمثقفون الجزائريون، بحق العالم الذي ينظر إلينا والأمة التي تنادينا والمصير البطولي لبلدنا، هل سنكون من الجاحدين ؟"

لقد سجل التاريخ ذلك الإضراب في حد ذاته كأنبل وسام تضحية تقلده الطلبة الجزائريون وإذا كان يحق لكل هيئة التـشرف بمـا تفخـر بـه من إنجازات، فإنه يحق للطلاب وبلا منازع الافتخار بأنهم حققـوا ذلـك النصر المبين على أنفسهم أولا ثم على النظام الاستعماري برمته.

كان النداء الموجه للطلبة مؤثرا بالفعل، لكنه لم يحل كـل المـشاكل. التخلي عن المقاعد الجامعية في حد ذاته كان تمزقـا حتـى وإن كانـت كل أنواع المعاناة بما فيهـا المـوت والتعـذيب الـذي تكبـده العديـد من الجزائريين تفوقه بكثير. الالتحاق بالجبال لم يكن يتوقف على الطالب مهما كانت شجاعته وعزيمته. وحتى النصيحة المقدمة لطلبـة الجزائـر العاصمة بالالتحاق بمناطقهم الأصلية ما كانت لتـساعد علـى الالتحـاق بالجبال. فليس كل من يريد الالتحاق بالجبال أو كان قـادرا علـى ذلـك بمدرك لتلك الغاية. كان ينبغي إيجاد المنفذ إليها وكـذا هيئـة الاسـتقبال الكفيلة بتكليف كل أحد بمهمة قدر استطاعته. ولئن تسنى لبعض الطلاب تحقيق المستحيل والالتحاق بجيش التحرير الوطني، لاسيما في المنطقتين الرابعة والثالثة، فينبغي الاعتراف بأن عددهم كان حـسب شـاهد هـو في وضع يؤهله لتأكيد ذلك. كان ضئيلا لا يرقى البتة لعدد الطلبة الذين شنوا الإضراب.

دخل الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين UGEMA ضمن منطق تجاوز بكثير صلاحياته وإمكانياته، ليتقرب من جبهة التحرير الوطني للتحكم أكثر في الحركة التي شنها. لكن مرة أخرى، أين كان سيجد جبهة التحرير الوطني؟ ومن تكون جبهة التحرير الوطني إن لم تكن عبان رمضان بالجزائر العاصمة. لقد قصد الاتحاد عبان في ماي 1956 لما كلف(الفاعل يعود على الاتحاد)، من باريس، بلعيد عبد السلام بمقابلته. قابل مبعوث الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين UGEMA ابن خدة بدلا من مسؤول جبهة التحرير الوطني للجزائر العاصمة و ذلك بقرار من هذا الأخير. وعقب اللقاء، غادر وبحوزته رسالة من مسؤول جبهة التحرير الوطني تضمنت توصيتين موجهتين إلى الاتحاد: " العمل على تفاقم الأوضاع" و"ترقية المستوى الثقافي للثورة".

سرعان ما تصرف عبان، ووجهت تعليمات للجبال من أجل استقبال الطلاب المضربين ـمن ذكور وإناث- وتكليفهم بمهام الإعلام والأمانة والعلاج حيث يمكنهم المساعدة. لقد أبلى العديد من الطلاب الشباب بلاء حسنا وقدموا أسمى مثل عن التضحية بسقوطهم في ميدان الشرف.

بعد مدة، أكد لنا بلهوان دائما بصفته رئيس الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين UGEMA أنه التقى عبان رمضان في جويلية 1957 بتيطوان بالمغرب. ووجده "صريحا ومباشرا ومتفتحا ومحبا للجزائر ولكنه وجده كذلك "متسلطا". الغرض من اللقاء كان ليطلب منه وقف إضراب الطلاب بعد أن حقق هذا الأخير نجاحا باهرا وبلغ كامل أهدافه. بعد أن طلب عبان مهلة للتفكير، عاد في اليوم الموالي وبحوزته رسالة تحمل توقيع كريم بلقاسم تقضي بتوقيف الإضراب.

كان يؤيد شخصيا هذا الإجراء لقناعته بأنه لم يعد هناك بد من اختبار الطلبة الذين بينوا أنهم، بقدر الفئات الأخرى من المجتمع، على درجة

عالية من الحس الوطني وروح التضحية. توجب حينها فتح آفاق أخرى أمامهم: مع مواصلة الكفاح تحت أشكاله المختلفة، كان على الطلبة تحضير أنفسهم لجزائر الغد. لاحت في الأفق بوادر نزاع بين من كانت بيدهم سلطة قوية إن لم تكن استبدادية وبين الذين كانوا يمنون أنفسهم بأمل ألاّ تقع الجزائر في عبودية أخرى ربما أسوأ من الأولى لو حصل أن سلطها جزائريون على جزائريين آخرين. قال لنا أحد الشهود -عضو بسلك المحاماة بالجزائر العاصمة حاليا- بأن ثمة توافق نشأ تلقائيا بين عبان رمضان وفئة الطلبة والمثقفين. وجده هؤلاء فيه، أكثر من أي قائد آخر من قادة الثورة، على درجة عالية من التفتح والاستعداد وسعة الصدر .كلها صفات كانت تستجيب لتطلعاتهم. في إدراك رضى الطلبة والمثقفين المعروف عنهم عدم الانسياق بسهولة وراء الكلمات أو الأشخاص، إحدى الميزات العظيمة التي اتسم بها عبان رمضان بطبعه المعقد ومتعدد الجوانب في الوقت ذاته .

لا يسعنا شرح ذلك التعلق المتبادل إلا من خلال مشاطرة بعض القناعات القوية والعميقة التي تصب كلها في احترام الشعب صاحب السيادة. إذا كانت هذه الفكرة قد فقدت معناها لدى الكثير بسبب خلل يمكن تحديده وشرحه جيدا، فلا ينبغي اعتبار أن وطنيين عظماء لم يؤمنوا بها آنذاك أو أنهم لم يبذلوا ما في وسعهم لتتكفل بها الثورة على أن تقوم بذلك الجزائر المستقلة فيما بعد. لا شك في أن عبان رمضان كان من بين هؤلاء العظماء كما بين ذلك بنفسه من خلال إنشاء المركزية النقابية واستمراره في الاهتمام بها والتضامن معها.

II. إنشاء الاتحاد العام للعمال الجزائريين UGTA

في حقيقة الأمر، لم يكن إنشاء مركزية نقابية وطنية من أولويات حزب جبهة التحرير الوطني في الأشهر الأولى للثورة. لم يكن لجهل منها

بأهمية مثل هذه المنظمة وصداها ولا، لأنها كانت تقلل من إسهام العامل الجزائري في تحرير بلده ولكن بكل بساطة لأن التموقع في الجبال وتموينها بوسائل القتال كان الانشغال الأكبر والملح.

لقد عمل قادة الثورة بكل ما جادت به مخيلاتهم، وصوبوا جهودهم في كل الاتجاهات من أجل التخفيف من حدة مشكل ما انفك يثبط عزيمة المحاربين. رغم الانذارات العديدة التي بلغتهم، لم يرد قادة جبهة التحرير الوطني، لا سيما في الجزائر العاصمة، أو لم يستطيعوا، الانشغال عن مهمتهم الرئيسية للاهتمام بإنشاء منظمة عمالية. فثمة ظروف خارجة عن نطاقها أدت بجبهة التحرير الوطني إلى التعجيل بتأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين UGTA. في الحقيقة، كان الأمر يتعلق بالنسبة لجبهة التحرير الوطني بسباق بسرعة ضد القوتين الوحيدتين (الحزب الشيوعي الجزائري والحركة الوطنية الجزائرية) اللتين كانتا تنافسانها بشدة القيادة العامة للثورة. منافساها اللذان كانا يتمتعان بكثير من المؤهلات لدى الوسط العمالي أدركا، بل سبقاها في التحرك لضمان التأييد الاستراتيجي للعمال. وأصبح العمال رهانا أساسيا في مواجهة كانت عنيفة وعلنية مع الحركة الوطنية الجزائرية و خفية مع الحزب الشيوعي الجزائري. ذلك، أولا، لأنهم (الضمير يعود على العمال)، كانوا أكثر ثقافة ووعيا سياسيا من غيرهم من الطبقات الشعبية الأخرى و، ثانيا، بسبب المكسب السياسي الداخلي والخارجي الذي كان سيجلبه انضمامهم لأحد المتنافسين الثلاثة.

كانت جبهة التحرير الوطني أقلَّ الثلاثة تحضيرا لاستيعاب تلك الزعامة من أجل السبب المذكور آنفا ولكن أيضا لافتقارها لتجربة الميدانية عكس الحزب الشيوعي الجزائري والحركة الوطنية الجزائرية. حتى يتسنى فهم الوضع جيدا، لابد من العودة وبشكل مقتضب إلى الوراء.

ابتداء من مؤتمرها الأول سنة 1947، تزودت حركة انتصار الحريات الديمقراطية بلجنة نقابية أوكلت إدارتها إلى عيسات إيدير بمساعدة إطارات نقابية وهم في نفس الوقت مناضلين وطنيين سنجدهم بعد ذلك عند تأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين على غرار رابح جرمان وبوعلام بوروبية وعطاء الله وبن عيسى وبشيري وغيرهم. وكان الأمر -كما أخبرنا بوعلام بوروبية- يقضي ب "البقاء في الكونفدرالية العامة للعمل (المركزية النقابية الفرنسية ذات الانتماء الشيوعي التي تغطي فرنسا و الجزائر في آن واحد) ومتابعة نضال هذه المركزية ومؤتمرات من دون التسرع في اتخاذ المواقف حتى لا يلفت الانتباه إليهم (3)". ولم تكن حركة انتصار الحريات الديمقراطية الوحيدة التي تتمتع بإستراتيجية بحيث كانت الكونفدرالية العامة للعمل هي الأخرى تحمل إستراتيجية خاصة بها: "منح قاعدة ثانوية الأهمية للإطارات الجزائرية لتحكم السيطرة عليهم". تواصل هذا الوضع المتميز بخلاف ودي إلى غاية سنة 1953. في مؤتمرها الثاني المنعقد بالجزائر العاصمة، طلبت حركة انتصار الحريات الديمقراطية إنشاء مركزية نقابية، غير أن عوامل الخلاف الذي كان يلوح في الأفق حالت دون ميلاد المركزية لاسيما بسبب الانشقاق الذي شهده الحزب. الأمر كان مبعثا لارتياح الكونفدرالية العامة للعمل والحزب الشيوعي الجزائري اللذين انتابهما تخوف كبير لأن السيطرة على العمال الجزائريين من طرف نقابة وطنية كان سيشكل ضربة قاضية لهما. تحسبا لعاصفة استشعرتها، أنشأت الكونفدرالية العامة للعمل في جوان 1954 الاتحاد العام للنقابات الجزائرية UGSA. الحفرة كانت بارزة فلم يقع فيها أحد. لم يكن للمركزية الجديدة من صلة بالجزائر إلا اسمها، بحيث كانت تحت إشراف الأوروبيين والأوامر كانت ترد عليها من الكونفدرالية العامة للعمل. بالتالي لم يتغير أي شيء.

ابتداء من مؤتمرها الأول سنة 1947، تزودت حركة انتصار الحريات الديمقراطية بلجنة نقابية أوكلت إدارتها إلى عيسات إيدير بمساعدة إطارات نقابية وهم في نفس الوقت مناضلين وطنيين سنجدهم بعد ذلك عند تأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين على غرار رابح جرمان وبوعلام بوروبية وعطاء الله وبن عيسى وبشيري وغيرهم. وكان الأمر -كما أخبرنا بوعلام بوروبية- يقضي ب "البقاء في الكونفدرالية العامة للعمل (المركزية النقابية الفرنسية ذات الانتماء الشيوعي التي تغطي فرنسا و الجزائر في آن واحد) ومتابعة نضال هذه المركزية ومؤتمرات من دون التسرع في اتخاذ المواقف حتى لا يلفت الانتباه إليهم (3)". ولم تكن حركة انتصار الحريات الديمقراطية الوحيدة التي تتمتع بإستراتيجية بحيث كانت الكونفدرالية العامة للعمل هي الأخرى تحمل إستراتجية خاصة بها: "منح قاعدة ثانوية الأهمية للإطارات الجزائرية لتحكم السيطرة عليهم". تواصل هذا الوضع المتميز بخلاف ودي إلى غاية سنة 1953. في مؤتمرها الثاني المنعقد بالجزائر العاصمة، طلبت حركة انتصار الحريات الديمقراطية إنشاء مركزية نقابية، غير أن عوامل الخلاف الذي كان يلوح في الأفق حالت دون ميلاد المركزية لاسيما بسبب الانشقاق الذي شهده الحزب. الأمر كان مبعثا لارتياح الكونفدرالية العامة للعمل والحزب الشيوعي الجزائري اللذين انتابهما تخوف كبير لأن السيطرة على العمال الجزائريين من طرف نقابة وطنية كان سيشكل ضربة قاضية لهما. تحسبا لعاصفة استشعرتها، أنشأت الكونفدرالية العامة للعمل في جوان 1954 الاتحاد العام للنقابات الجزائرية UGSA. الحفرة كانت بارزة فلم يقع فيها أحد. لم يكن للمركزية الجديدة من صلة بالجزائر إلا اسمها، بحيث كانت تحت إشراف الأوروبيين والأوامر كانت ترد عليها من الكونفدرالية العامة للعمل. بالتالي لم يتغير أي شيء.

كان تفجير الكفاح المسلح لليلة الفاتح من نوفمبر 1954 مفاجئا بالنسبة للجميع من نقابيين و"ساسة". اختارت اللجنة النقابية جبهة التحرير الوطني وهذا ما أكده لنا أحد الشهود ولكن مشكلة النقابة بقيت كاملة. من ثم ضاعف المصاليون ضغطهم على زملائهم لحملهم على إتخاذ قرارهم. وما انفكت الاتصالات تتم بين، من جهة، جرمان وبن عيسى وبوروبية كلهم من أنصار جبهة التحرير الوطني وبين كفاش العيد ورمضاني محمد من أنصار الحركة الوطنية الجزائرية من جهة أخرى.

وتحت الضغط لإبداء الرأي، توجه أنصار جبهة التحرير الوطني إلى عبان وبن خدة في بداية صائفة 1955. لكن هيهات. الجواب الوحيد الذي قدم لهم كان مطالبتهم بالانتظار مدة قبل حصولهم على الرد. قيل لهم "انتظروا" و ذلك لأن جبهة التحرير الوطني -وافهموا من هذا عبان- كانت منشغلة بمشاكل الحرب. في ديسمبر 1955، انتقل وفد عن الأعضاء القدامى للجنة النقابية التابعة لحركة انتصار الحريات الديمقراطية إلى بروكسل بغرض الاتصال بالكونفدرالية الدولية للنقابات الحرة ويقال لها نقابة "العالم الحر" خلافا للفدرالية النقابية العالمية FSM القريبة من "العالم الاشتراكي". كانت الحركة الوطنية الجزائرية مستعجلة لإتمام الأمر. أكثر من ذلك، كانت على استعداد لتقديم 6.000.000 فرنكا من أجل إنشاء المركزية. ولما تم الاتصال بهم في جانفي 1956، أراد قادة الكونفدرالية الدولية للنقابات الحرة ربح الوقت. كانوا يفكرون -كما هو جار في الغرب- بأن ترشيح الجزائريين لن يخلو من الصبغة الشيوعية وكان من الأفضل الانتظار والنظر كما هو وارد في عبارة "wait and see" التي يحبذها "الانجلوساكسون"، أرباب المركزية التي يوجد مقرها ببروكسل. ليس مستحيلا أيضا أنه تم إطلاع قادة الكونفدرالية الدولية للنقابات الحرة بالخلافات التي كانت تهز أركان الحركة الوطنية

الجزائرية. فلِمَ العجلة للرد في وقت لازال فيه كل شيء غامضا بالنسبة لهم؟ موقف تخلصوا منه بجواب كان جديرا بأفضل الدبلوماسيات: "أسسوا نقابتكم وعودوا إلينا لنرى عندئذ ماذا بإمكاننا أن نفعله". واللبيب بالإشارة يفهم. الحركة الوطنية الجزائرية أضحت على غير عادتها في عجلة من أمرها للتحكم في زمام الثورة وتدارك ما فاتها من وقت حتى لا تضيع الموعد مع العمال كما سبق وأن تخلفت عن موعد اندلاع الكفاح فأسست بمفردها وبدون انتظار نقابتها الخاصة.

ظهرت هذه الأخيرة إلى الوجود في 16 فيفري 1956 وأطلق عليها اسم الاتحاد النقابي للعمال الجزائريين USTA. كانت أول مرة بوغتت فيها جبهة التحرير الوطني لتهزم في السباق من أجل كسب العمال. كان لأول انتصار للحركة الوطنية الجزائرية أن يفرزعدة عواقب لولا التحرك لجبهة التحرير الوطني. من هنا تتجلى بصيرة وكفاءة عظماء التاريخ: الإمعان في التفكير ثم اتخاذ قرار وفق الظروف. في مقام كان البعض سيقضي فيه ليال كاملة وينظموا سلسلة من الاجتماعات والمشاورات، جاء تحرك عبان، الذي أدرك تأخره، للتو. ويا له من تحرك! بمجرد إخباره، في الوقت الذي لم يكن ميلاد الاتحاد النقابي للعمال الجزائريين قد خرج بعد من رحمه العائلي، "شوهد عبان بدون سيارة سيتروان الشهيرة للدكتور شولي" الذي سنتطرق فيما بعد إلى دوره الرائع والشجاع في الكفاح من أجل التحرير، حيث حل ذات 18 فيفري 1956 رفقة ابن خدة ببيت بوعلام بورويبة الذي كان يقطن ب 5 شارع دولينيي بسانت أوجين (بولوغين حاليا بالقرب من الملعب). والأهم من ذلك هو أن قائد جبهة التحرير الوطني هو الذي بادر بالاجتماع. قام به عن طريق أحد كبار النقابيين الجزائريين درارني محمد، موظف بالبريد وجار بوروبية.

بمجرد أن وصل عنده طلب منه زائراه الليليين إحضار عيسات إيدير. ذلك ما قام به بامتطائه دراجة نارية أوصلته إلى شارع سرفنتيس ببلكور في الجهة الأخرى من المدينة. فور اجتماعهم، عكف المسؤولون الأربعة في غرفة نوم مضيفهم على دراسة التقرير الذي أعده النقابيان الاثنان. تواصل الاجتماع إلى غاية الساعة الحادية عشر ليلا. لا تردد مع مستقبل ثورة. تم الاتفاق بسرعة واتخذت قرارات فورية و هامة:

1) ستسمى المركزية بالاتحاد العام للعمال الجزائريين (UGTA).

2) سيكون لسان حالها *العامل الجزائري*.

3) تتضمن أمانتها الوطنية خمسة قادة: عيسات إيدير (الذي كان يعمل بالورشات الصناعية للطيران بالدار البيضاء، جرمان العامل بميناء الجزائر، بوعلام بورويبة العامل بالسكك الحديدية، ابن عيسى من القطاع الاستشفائي والخامس علي يحيى مجيد الذي اقترحه جرمان وهو إطار بالميناء مثله. تتكون اللجنة التنفيذية التي شكلت فيما بعد من 21 عضوا.

4) تم منح قرض بقيمة 1.000.000 فرنكا للمركزية التي نشأت لتوها شريطة أن تسدده وهذا ما قامت به بعد وقت قصير.

5) مهمة الاتحاد العام للعمال الجزائريين: فضلا عن الدفاع عن مصالح العمال، القيام بكل ما من شأنه مساعدة الثورة من حيث المال و السلاح والعتاد.

هكذا، بعد أقل من يومين من ميلاد المركزية المصالية، أطلق عبان رمضان رفقة بن خدة مركزية جبهة التحرير الوطني. وكان تاريخ ميلادها يوم 24 فيفري 1956 بمجرد إيداع قانونها الأساسي لدى محافظة الجزائر (حاليا الولاية). نظم لقاء ثالث للتنسيق في أفريل 1956 بمنزل عمارة رشيد الكائن بشارع تيليملي (شارع صالح بوعكوير حاليا) حيث كان قائد جبهة التحرير الوطني يتردد كثيرا. لما أصبحت المركزية مساعدة جبهة التحرير الوطني، اعتمدت نفس الإستراتيجية. لم يعد هناك

مكان لمنظمات أخرى و لم يعد بوسع أية منظمة أخرى التكلم باسم العمال الجزائريين. منذ البداية جعلت التمثيل حكرا عليها، على الأقل من حيث المبدأ. في الحقيقة، الجميع أدرك الأمر و أولهم السلطات الاستعمارية التي قضت على مديريتها الأولى و ألقت القبض على أعضاء الأمانة الوطنية الخمسة في 24 ماي 1956 أي بعد ثلاثة أشهر بالضبط من إنشائه. إثر ذلك اختفى أثر لعيسات إيدير إلى الأبد و يكون قد اغتيل بالتأكيد عام 1958. حلت مديرية أخرى محل الأولى إلى أن زج بها هي الأخرى في السجون والمعتقلات الفرنسية. في غضون ثلاثة أشهر، تعاقبت على رأس الاتحاد العام للعمال الجزائريين عن خمس مديريات. لكن هيهات أن تثبط عزيمة العمال الذين أضحوا يعرفون من هم المكافحون الحقيقيون. في انتخابات صائفة 1956، حصل الاتحاد العام للعمال الجزائريين على 70 بالمائة من الأصوات ضمن الإدارة الولائية للنقل لمدينة الجزائر. ولم يتمكن الحزب الشيوعي الجزائري ولا الاتحاد النقابي للعمال الجزائريين من النهوض إثر الفوز الذي حققته مركزية جبهة التحرير الوطني. ولأن الفوز يجلب الفوز، توجه (الاتحاد العام للعمال الجزائريين) إلى الكونفدرالية الدولية للنقابات الحرة التي وافقت على انضمامه إليها في جويلية 1956. ولما كان قادة المركزية بروكسل آنذاك وعلى رأسهم أمينها العام أولدنبروك واقعيين فقد أدركوا في أي جانب كانت التمثيلية الحقيقية لأن لا الاتحاد النقابي للعمال الجزائريين ـ الذي كان هو الآخر مرشحا لنفس المقعد ـ ولا القوة العاملة ـ النقابة الفرنسية القريبة من الحزب الاشتراكي الفرنسي آنذاك ـ وفرا انتقاداتهما إزاء الاتحاد العام للعمال الجزائريين. فالتصويت الجماعي لعمال ترام الجزائر والذي كان يعكس تماما التأييد الواسع الذي كانت تتمتع به مركزية جبهة التحرير الوطني، جعل كل منافسة لها مضنية.

لم تنظر الكونفدراليات الدولية بعين الرضا لانضمام الاتحاد العام للعمال الجزائريين إلى الكونفدرالية الدولية للنقابات الحرة وحتى داخل جبهة التحرير الوطني تعالت بعض الانتقادات. إلى يومنا هذا لا تزال بعض الكتابات تنم عن تأسف كبير إزاء ذلك الانضمام. السؤال المطروح في الواقع كان يتعلق بمعرفة كيف فضلت حركة تدعي أنها تقدمية اللجوء إلى الكونفدرالية الدولية للنقابات الحرة بدلا من الفدرالية النقابية العالمية؟ جاءنا الجواب من بوعلام بورويبة ولدينا كل الدوافع لنعتقد بأن القرار لم يكن متهورا. اعتبر قادة جبهة التحرير الوطني للجزائر العاصمة، ربما عن صواب أو خطأ، أن دعم الفدرالية النقابية العالمية ولم يكن مكتسبا كلية فقد كان على الأقل متوقعا لارتباطه الوثيق بمساندة الدول الاشتراكية للثورة الجزائرية. وحتى إذا كانت الأمور في السياسة لا تأخذ دوما مجراها الطبيعي فلقد كان الحصول على الدعم لدى قوى الشرق أرجح منه لدى قوى الغرب. على أساس هذه المسلمة، كانت جبهة التحرير الوطني ستربح كل شيء ولم تكن لتخسر أي شيء بتوجهها نحو الكونفدرالية الدولية للنقابات الحرة لاسيما وأن النقابة التونسية (UGTT) والنقابة المغربية (UMT) كانتا قد حصلتا على انضمامهما وكان بالإمكان، على الأقل من هذه الناحية الاعتماد على مساعدتهما التي لم تتخلف. بالإضافة و باسم حلم الجبهة المغاربية، وإن لم يتحقق، كان وجود البلدان الشمال الإفريقية الثلاثة معا، على الأقل على المستوى النقابي، سيجدي نفعا كبيرا. وما ذلك سوى جانب واحد من المسألة. إن ما جعل جبهة التحرير الوطني تقرر انضمام الاتحاد العام للعمال الجزائريين للكونفدرالية الدولية للنقابات الحرة في الحقيقة يتمثل أولا الوقوف في وجه النقابات الفرنسية القوية ثم، وبخاصة، لإيجاد الدعم لدى الأنجليز والأمريكيين الذين كانوا وحدهم قادرين على ممارسة تأثير أو ضغط هام

على فرنسا. عند هذا المستوى نكون قد بلغنا لب المشكل لأن كل واحد يعرف مسبقا بأن السلاح وحده لا يمكنه صنع القرار. وكان الأمر يتطلب قلب الرأي العام لصالح قضية الشعب الجزائري.

ومن كان باستطاعته التأثير على قرارات فرنسا أكثر من الأمريكان الأقوياء؟ فضلا عن ذلك كانت هناك التقاليد التقدمية نسبيا والمناهضة للاستعمار للنقابة الأمريكية الأقل شدة والأقل تصبغا بالنزعة "الأطلسية" من الأحزاب السياسية. إذن مرة أخرى، أصابت جبهة التحرير الوطني لما نالت للاتحاد العام للعمال الجزائريين مقعدا بالكونفدرالية الدولية للنقابات الحرة ربما على حساب بعض المثل العليا والمبادئ، لكن الأولوية حينها كانت للفعالية. وظهرت هذه الفعالية بسرعة بحيث صوتت الكونفدرالية الدولية للنقابات الحرة خلال مؤتمرها الخامس على اللائحة التالية:

"المؤتمر

...يؤكد مجددا قناعته بانه لا يمكن إيجاد حل للمشكل الجزائري من خلال القوة ولكن عن طريق مفاوضات تتم مباشرة بين ممثلي الشعب الجزائري المؤهلين...

...وينبغي أن تتم هذه المفاوضات على أساس اعتراف فرنسا بالأمة الجزائرية و حق شعبها في تقرير مصيره من جهة، وعلى تأكيد الجزائريين على إرادة احترام حريات ومصالح سكان الجزائر قاطبة في إطار الصداقة الفرنسية-الجزائرية من جهة أخرى (4)".

لاشك أن هذه اللائحة لا ترقى لمستوى المشروع الأصلي الذي عرضته المجموعة الإفريقية-الأسيوية للكنفدرالية الدولية للنقابات الحرة الذي ذكر اسم جبهة التحرير الوطني الممثل المؤهل للشعب الجزائري مع ذلك كانت تفوق ما يمكن أن تتقبله فرنسا التي وجهت لها أصابع الاتهام ضمن العالم الغربي.

ما انفكت فرنسا تصعد الضغط. جاء رد فعل السلطات الفرنسية بسرعة كبيرة ضد ما كانت تعتبره تدخلا للكونفدرالية الدولية للنقابات الحرة في النزاع الجزائري. وفي هذا الإطار منع أحد زعماء الكونفدرالية الدولية للنقابات الحرة إيروينغ بروان من دخول الجزائر في ماي 1956 من قبل روبر لاكوست الذي كان قد عين حديثا في نصب وزير مقيم.

كان لاكوست يرى أن نقابة الزعيم الأمريكي أخطأت لما طلبت بإطلاق سراح النقابيين الجزائريين المعتقلين ولما اهتمت عن قرب بقضايا الجزائر. أما فيما يخص القوة العاملة وهي نقابة فرنسية منضوية تحت الكونفدرالية الدولية للنقابات الحرة فقد اعتبرت أن في قرار قبول عضوية الاتحاد العام للعمال الجزائريين "خطأ تاريخيا".

بالنسبة لجبهة التحرير الوطني، الانتصار فاق كل توقعاتها وقد سجل نقطة قاضية على خصميها الأكثر خطورة في السباق من أجل التحكم في عالم الشغل: الحركة الوطنية الجزائرية والحزب الشيوعي الجزائري. في الوقت ذاته، سجلت نقطة أخرى إذ تغلبت على هيمنة فرنسا حتى داخل معسكرها! ففي أقل من ستة أشهر، أصبح الاتحاد العام للعمال الجزائريين الممثل الوحيد للعمال الجزائريين، في كل الظروف بسرائها وضرائها. لقد بات صاحب القوة الوحيدة المنظمة للبلد. و لعب بهذا الحكم دورا هاما في تطوير الثورة كما كان الشأن فيما بعد في الجزائر المستقلة.

III. إنشاء الاتحاد العام للتجار الجزائريين UGCA

لا تكاد تسمية الاتحاد العام للتجار الجزائريين (ا.ع.ت.ج) (UGCA) توحي اليوم بشيء كبير بالنسبة لمعظم الجزائريين وبعضهم لا يكادون يذكرونها. وعلى خلاف الاتحاد العام للعمال الجزائريين، فإن تسمية (ا.ع.ت.ج) اضمحلت و كأن المنظمة كانت مجرد أداة ثانوية في الحرب.

غير أن الاتحاد العام للتجار الجزائريين شارك مشاركة واسعة في الثورة. إن مساهمته رغم أنها نادرا ما أبرزت بل أهملت حتى، كانت على درجة من الأهمية وإنه لمن الإجحاف التقليل من شأنها أو إغفالها. التجار الجزائريون لا يرمزون للسلك الذي ساهم في ملء صناديق جبهة التحرير الوطني فحسب وإنما، وأكثر منه، يركزون إلى تلك الأماكن المضيافة التي احتضنت اللقاءات وشهدت تبادل أمور لم تكن مقتصرة على أخبار الحرب. كم من أغراض ومنشورات وأموال وأسلحة تم وضعها أو استبدالها وكم من قنابل صنعت وكم من مواد غذائية وغيرها قدمت لفائدة المحاربين والفقراء.

التاجر الجزائري هو رمز حامل الرسائل الكتوم والفعال في اتصالات الحرب بين الجبال والمدن، بين القادة والمحاربين، بين هؤلاء وأسرهم الخ. التاجر الجزائري كان أيضا الفريسة السهلة لغضب الكولون الذي ما انفك ينقض عليه ويشتمه ويعتدي عليه ويسرقه ويخرب محله ويغتاله عندما يجده في طريقه بعد أن يكون تعرض بدوره لتداعيات الحرب.

التاجر الجزائري هو في الأخير من قدم أكبر مساهمة في الإضرابات العديدة التي شنتها جبهة التحرير الوطني من أجل دعم الكفاح المسلح. فإن غلق المحلات التجارية يفوق عمل إضراب فهو التعبير عن قوة بدلالتين: دعم الكفاح التحرري ورفض النظام الاستعماري. ولابد من معايشة تلك الفترة حتى نستوعب إلى أي مدى كان في غلق محل لغرض الإضراب تشجيعا للجزائري من جهة وإحباطا للسلطة والجيش الاستعماريين من جهة أخرى. السلطة والجيش الاستعماري لم يطيقا غلق المحلات التجارية واعتبروا في ذلك تحديا لقوتهما المتعجرفة. لذلك جاء ردهما بقوة قد لا يمكن تصورها اليوم. وليس من صورة أكثر تعبيرا عن الغضب الشرس الذي انتاب الجيش ـ الذي ينبغي أن تقاس قوته

بتجلده. من تلك التي نشرتها *l'echo d'Alger* *(صدى الجزائر)* يوم الثلاثاء 29 جانفي 1957 التي روت كيف اقتلعت الستائر الحديدية للمحلات المضربة. ليس أمام القارىء بد من أن يصدق نفس الجريدة المتطرفة عندما تكتب تحت عناوين فرعية بالبنط العريض أن "عدة محلات افتتحت بالقوة" وأن "بعض الأشخاص قاموا بعمليات نهب لا تغتفر..." . لكنها تحاشت الحقيقة كثيرا. نادرا ما رمز تأجج غضب إلى احتضار نظام استعماري وإلى الحق المشروع لشعب يمضي نحو النصر في آن واحد. فالتاجر الجزائري كان دائما معرضا لتلك الردات التلقائية للمعمر والجندي الفرنسيين. لقد كانت مساهمته على مستوى المقاومة الخفية والعلنية مبعثا للتقدير.

لقد لعبت شخصيتان دورا حاسما في تحسيس التجار الجزائريين لصالح الكفاح المسلح وهما: محمد لبجاوي وعلي عباس-تركي. كانا تاجرين كبيرين بل كانا أكثر من ذلك. لا ندري كيف استطاع الأول التوفيق بين محله للأدوات الشرقية الكائن بين باب عزون وشارتر (شارع عمار القامة حاليا) ونشاطه المكثف في أوساط المثقفين. فضلا عن ذلك كان يساريا مما زاد شخصيته تميزا. نشاطه الأساسي كان قائما على التجارة وعادة ما تتنافى التجارة مع اليسار والأفكار التقدمية عامة.

ظن البعض حينها أن لبجاوي كان شيوعيا ليس لأنه كان مناضلا في الحزب ولكن ربما بسبب علاقاته حيث كثيرا ما كان يشاهد إلى جانب عمر أوزقان الذي كانت تربطه به علاقة عائلية والذي كان على سبيل التذكير أمين الحزب الشيوعي الجزائري سنة 1943 وأبعد منه خمس سنوات من بعد. و شارك إلى جانب أوزقان في تفكير ضمن خلية تابعة لجبهة التحرير الوطني تحت إشراف احديدوش بائع الخضر بالقصبة والذي كان بمثابة الوسيط الفعال بين عبان رمضان ومختلف مسؤولي منطقة الجزائر العاصمة.

نشاطه المتنوع أهله ليتقلد وظائف عليا. أولا كعضو في أول مجلس وطني للثورة الجزائرية المنبثق عن مؤتمر الصومام وبعد ذلك كقائد لفدرالية فرنسا التابعة لجبهة التحرير الوطني مع نهاية 1956 ولكن لبضعة أشهر فقط حيث قبض عليه في 28 فيفري 1957.

أما فيما يتعلق بعباس-تركي محمد واعلي، فكان ابن المدية وبالرغم من انه كان تاجر جملة كبير في المواد المعروفة بالاستعمارية (السكر، البن، الصابون والزيت والشاي الخ) وكذا في الجلود بشارع شارتر قبالة صديقة لبجاوي، كان يتردد باستمرار على الأوساط الدينية حتى قيل إنه كان عضوا في جمعية العلماء. وهذا ما أكدته مختلف الاجتماعات المنعقدة في مسكنه الجميل قبالة ملعب الأبيار بين قائد جبهة التحرير الوطني للجزائر العاصمة وعدد كبير من المسؤولين الدينيين على غرار الشيخ التبسي والشيخ خير الدين.

لم يدخر عباس-تركي وقتا ولا مالا ولا أملاكا ولا علاقات ليتمكن من أداء دور حاسم في إنشاء الاتحاد العام للتجار الجزائريين.

عقد هذا الأخير مؤتمره الأول يومي 13 و14 سبتمبر 1956 ورشح على رأسه تاجر الجملة لشارع شارتر(Rue de Chartres). فور إنشائه، برز الاتحاد العام للتجار الجزائريين، قويا وفعالا. في الفاتح نوفمبر 1956، في الذكرى الثانية لاندلاع الثورة، دعا إلى إضراب عام على مستوى التراب الوطني بأكمله ولم يكن النجاح الذي أحرزه هذا الاتحاد الفتي منتظرا. كلفته أول تظاهرة تضامنية مع جبهة التحرير الوطني رد فعل عنيف من طرف السلطة الاستعمارية التي عاقبت آلاف التجار بغلق إداري يتراوح بين شهر وشهرين كما تم توقيف عدة قادة في الاتحاد وسجنهم بالبرواقية.

المشاركة في تأليف نشيد الجزائر "قسما"

نستبعد أن يكون نشيد "قسما" قد ألف في ماي 1955 كما أكد لنا لبجاوي (1) ذلكم، بكل بساطة أن الإفراج عن ابن خدة الذي يقترن اسمه بتأليف النشيد، لم يتم إلا في منتصف شهر ماي 1955 ولأن أول لقاء له مع عبان رمضان منذ سنة 1950 لم يحدث إلا في حدود سبتمبر 1955.

في حدود جانفي 1956 عاش في السرية وبالتالي لم يكن من الممكن أن يؤلف النشيد الوطني في بداية لقائه مع قائد جبهة التحرير الوطني للجزائر العاصمة، وعليه، نعتبر أن الفترة التي ألف فيها النشيد الذي أصبح النشيد الوطني الجزائري تنحصر بين سبتمبر 1955 وربيع 1956، وعلى الأرجح في ربيع 1956 .

تعود فكرة تأليف نشيد وطني لمن أصبح الرئيس الثاني للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية(2). فلقد تحدث في الموضوع إلى عبان رمضان الذي رحب بالفكرة وأطلع بها رباح لخضر الذي كان يلجأ لديه. بلغنا أن التعليمات في الموضوع كانت جد صارمة وواضحة وتوصي بضرورة تفادي ذكر أي اسم لشخصية ما في النشيد حيث كانت ذكرى الأناشيد الوطنية (فداء الجزائر) التي أهديت لمصالي لتمجيده وتقديسه حية في الأذهان فالأمر كان يتعلق بتفادي الوقوع في مثل تلك العداوات الجماعية. فقد ولى ذلك العهد الذي يستحوذ فيه رجل واحد، عن طريق ملازميه أو بفعل اندفاعه، على فضل شعب بأكمله إلى درجة حجبه، كما ولى عهد الإعلانات والدعاية. فالجزائر أصبحت تخوض الكفاح وكانت ماضية لا محالة نحو استقلالها وبالتالي الجزائر وحدها بكفاحها ومكافحيها كانت جديرة بأن تمجد. وما كان ينبغي أن ينحصر النشيد

الوطني في مجرد نص ظرفي، بل هو شهادة للتاريخ وللأجيال الصاعدة ونص للثورة من أجل الكرامة والحرية التي يخوضها شعب بأكمله. فالنشيد من أجل الجزائر يجب أن يرمز للكفاح في سبيل تخليص شعب برمته من معاناته و من أجل تحقيق الاستقلال والتقدم.

إنطلق رباح لخضر المتشبع برسالة قائده وصديقه، في البحث عن الشاعر الكفيل بتخليد القيم التي كان الشعب يكافح من أجلها. الواقع أن الجزائر، للأسف، كانت تفتقر لفطاحل الشعراء لكنه كان هناك من حاول تأليف ذلك النوع من النصوص، لكن هيهات. يتعلق الأمر بمفدي زكريا الذي ولد في منطقة الميزاب الشهيرة والتي توارث أبناؤها على ممر الأجيال شيم الصدق والإيمان والتأمل. قلما تميزت مناطق بلدنا بروح السيطرة على الذات التي تطبع منطقة الميزاب. كما أن القوة الداخلية التي تضفي على مواليد المنطقة تلك السكينة العظيمة في كل الظروف إنما تعد تجسيدا لعقيدة ظلت طاهرة بالرغم على مر الأزمنة والمحن. في العديد من الجوانب وجد الشعب الجزائري -والذي تعد منطقة الميزاب جزء لا يتجزأ منه- نفسه في وضعية تاريخية مماثلة حيث كان عليه أن يواجه محاولة القضاء عليه. فالصلابة والتشبث الذي عرف به إخواننا في الميزاب حيال قسوة الطبيعة وتغلبهم على الرياح والرمال والأحكام المسبقة ومختلف الصعاب لم تكن بعيدة عن الجهود التي يبذلها المجاهدون من أجل البقاء والانتصار على العدو. لا غرابة إذن أن يولد أحد خيرة شعراء الثورة من رحم تلك المنطقة فيمثلها بتلك البلاغة والصدق.

قال لنا رباح لخضر أنه قابل صدفة رفقة قائد المركزيين السابق -الذي أصبح عضوا كامل العضوية في جبهة التحرير الوطني- الشاعر الميزابي بالجزائر العاصمة وبالضبط في نهج إيزلي (شارع العربي

بن مهيدي حاليا) المحاذي لشارع الدباغين (Les tanneurs). دخل ثلاثهم مقهى قريبا من هناك. فحدث رباح لخضر مفدي زكريا عن المشروع دون أن يذكر له إسم المبادر به. جاء رده واضحا و فوريا ومفاجئا. رفض مفدي زكريا الخوض في مثل ذلك الإنجاز في الوقت الذي كان فيه أهل منطقته يواجهون المخاطر بل يغتالون بلا مبرر من طرف أعوان يقولون أنهم تابعون للحركة الوطنية. الرد وجيه وإن كان مثيرا للدهشة والاستغراب. الرجلان -الأول من البليدة والثاني من الجزائر العاصمة- كانا يدركان أن سكان منطقة الميزاب، تعرضوا فعلا لإجراءات أقل ما يقال عنها أنها سخيفة وغير مبررة، إجراءات إجرامية إلى حد القتل راح ضحيتها سكان الميزاب. باسم ماذا؟ باسم من؟ قليل من كان يميز بين الأمور.

كان سكان الميزاب خاضعين لعمليتين، أولا: الإكتتاب الإجباري للتجار الميزابيين. من فرض الاكتتاب ولفائدة من؟ تحدثت العديد من المصادر عن الحركة الوطنية الجزائرية ولكن ليس هناك ما يمنعنا من الاعتقاد بوجود مبادرات محلية أو فردية إتخذتها جهات أخرى و ليس بالضرورة تلك التي كانت تعلن انتماءها لجبهة التحرير الوطني. يجدر التذكير أن الغموض كان في تلك الفترة وإلى غاية 1956، سيد الموقف في كثير من الأذهان وخاصة في الجزائر العاصمة وضواحيها حول أصحاب الثورة الحقيقيين. الغموض تستر على الكثير من النوايا وأدى إلى تجاوزات كبيرة دفع التجار الميزابيون ثمنها غاليا خاصة وأن هؤلاء التجار، بفضل الصلابة التي يوصفون بها و كيفيات التدبير التي كانت سرية للغاية والتي كان الجميع يدرك مدى نجاعتها، كانوا يبعثون على الظن بأنهم أثرياء وأغنى من باقي التجار الجزائريين الذين كانوا يقتاتون في دكاكينهم الفارغة نتيجة رفض التعاون مع غيرهم في مجال التموين والخدمات مما كان سيوفر لهم أفضل المنتوجات بأفضل الأسعار.

ذلك الفارق في الظروف والمكانة بين نمطي سير التجار الجزائـــريين هو الذي أفرزغيرة عمياء وحقيقية حتى وإن كان مثل ذلك الشعور، لحسن الحظ،، غير شائع إزاء الميـــزابيين. وقـــد ســـاعد الغمـــوض الـــسياسي على ترويج الإشاعات بمقاطعة تجارة منطقة الميزاب. وكانـــت النتيجـــة وخيمة لأن الكثير من الجزائريين الذين كانوامقيدين بـــالتعليم والدعايـــة الاستعمارية، كانوا يعتقدون بحسن نيـــة، أن ســـكان منطقـــة الميـــزاب لم يكونوا جزائريين أو على الأقل لم يكونوا جزائريين كباقي الجزائريين. كان ذلك كافيا لكي تتحول تلك الدعاية التي تولدت عن المنافسة السياسية التي زادتها المنافسة التجارية حدة، إلى مقاطعة حقيقية ورفض تام لهـــذه المنطقة الرائعة والمحترمة بما كانت تتحلى به من شجاعة ونزاهة وحسن البلاء التابعين من عمق الجزائر والتي لا تقل وطنيتها عن وطنية باقي الجزائريين.

لم يكن مخاطبا الشاعر الميزابي الحريصان علـــى الوحـــدة الوطنيـــة في حاجة إلى الكثير من الجهد للتنديد بالممارسات التـــي راح ضـــحيتها تجار منطقته ولإثبات براءة جبهة التحرير الوطني بعد أن وعدا باتخـــاذ إجراءات فورية ومناسبة لتطهير الوضع.

إنه أمر لم يكن ليطاق خاصة بالنسبة لعبـــان رمـــضان الـــذي جعـــل من تجمع كل القوى الوطنية و وحدة الشعب الجزائري ضرورة مطلقـــة وحتمية لانتصار الثورة، أكثر من ظـــروف كفاحـــه ونـــضاله وحياتـــه. كيف كان يمكن لعبان رمضان الذي أكد في منـــشوره الأول أن "النجـــاح يتوقف على مساعدة جميع الجزائريين ..." والذي تنبأ أمام فرحات عباس كما رأينا ذلك من قبل، بأن "الثورة إن لم تكن بمشاركة الجميـــع ســـتبوء حتما بالفشل" أن يتحمل عزل منطقة بأكملها نتيجة تـــصرف إجرامـــي؟ فكان رده في مستوى الخطر غير اللازم الذي تتعرض له الثـــورة بفعـــل المناورات الدنيئة والخفية والمصالح الشخصية والقذرة.

بفضل المنشور الذي وزع بالجزائر العاصمة والبليدة، لم يبق من حركة مقاطعة الميزابيين سوى ذكرى مريرة يجدر الاعتبار بها ولا ينبغي تكرارها بأية حال من الأحوال بغرض المساس أو "التلاعب" بوحدة شعب بأكمله.

بعد أن تأكد من حسن نية محاوريه اللذين تحدثا عن إمكانية لقاء قريب مع مسؤول سام في جبهة التحرير الوطني، شرع من أصبح فيما بعد أبو النشيد الوطني، في نسج نصه.

لما شعر مفدي زكريا بالإطمئنان وبعد أن تخلص من القلق الذي كان ينتابه وينتاب تجارة أهل بلده، وعد بالشروع فيما طلب منه في الغد وما كان لمؤمن مثله أن يخلف وعده. تقدم رباح لخضر في اليوم والساعة المحددين إلى شارع بلاندون، رقم 02 حيث قضى مفدي زكريا الليل في تأليف النص الذي أصبح نشيد الثورة وبعدها نشيد الجزائر المستقلة. بعد أن سلم النص وجد فيه عبان رمضان بعض من أفكاره مثل القسم الذي ورد في منشوره الأول حين قال فيه أن خيرة أبناء الشعب الجزائري "يقسمون بالعيش أحرار أو أن يموتوا دون ذلك ".

ليس غريبا في أرض الإسلام أن يحمل النشيد الوطني عنوان "قسما"، فهو يعكس مدى إيمان المكافحين وعزمهم على تحرير الجزائر بالرغم من صعوبة التعبير على ذلك نظرا لما يميز اللغة العربية، التي كتب فيها النشيد من ثراء وتميز مفرداتها وتشعبها أحيانا وجنوح الشاعر للصور التي تعمد فيها الحذف. مع ذلك يبقى من الأهمية بمكان التعرف على مغزاه العام من خلال نص النشيد:

"قسما بالنازلات الماحقات (إشارة إلى القنابل والصواريخ والنابالم المتساقطة من السماء)

والدماء الزكيات الطاهرات (للشهداء)

والبنود اللامعات الخافقات

في الجبال الشامخات الشاهقات

نحن ثرنا فحياة أو ممات

وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا، فاشهدوا، فاشهدوا

نحن جند في سبيل الحق قمنا

وإلى استقلالنا بالحرب قمنا

لم يكن يصغ لنا لما نطقنا

فاتخذنا رنة البارود وزنا

وعزفنا نغمة الرشاش لحنا

وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا، فاشهدوا، فاشهدوا

يا فرنسا قد مضى وقت العتاب

وطويناه كما يطوى الكتاب

يا فرنسا إن ذا يوم الحساب

فاستعدي و خذي منا الجواب

إن في ثورتنا فصل الخطاب

وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا، فاشهدوا، فاشهدوا

نحن من أبطالنا ندفع جندا
وعلى أشلائنا نصنع مجدا
وعلى أرواحنا نصعد خلدا
وعلى هاماتنا نرفع بندا
جبهة التحرير أعطيناك عهدا
وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر
فاشهدوا، فاشهدوا، فاشهدوا
صرخة الأوطان من ساح الفدا
فاسمعوها واستجيبوا للندا
واكتبوها بدماء الشهدا
واقرؤوها لبني الجيل غدا
قد مددنا لك يا مجد يدا
وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر
فاشهدوا، فاشهدوا فاشهدوا."

من باب الغرابة أن هذا النشيد كما وصلنا لا يتضمن أي مرجعية واضحة لا للشعب ولا للدين ولا حتى لجيش التحرير. ومن المؤكد أن بعض الكلمات تستنتج حسب المعنى الوارد في النص إلا أنه يبقى منْ المستغرب أن صاحب النص لم يفكر في كتابتها أو يكون قد ارتأى ضرورة عدم كتابتها.

فيما يتعلق بالدين الأمر يفسر بشدة الحذر الذي يحيط جميع كتابات حرب الجزائر والحرص على الحفاظ على طابع حرب التحرير الوطني لحرب الجزائر وتفادي التنديد بها ـ لكن ذلك ما حصل- على أنها مظاهرة للأصولية الدينية. الإيمان الراسخ لدى عدد كبير من المكافحين لم يمنع

أن بعضا من القادة كانوا يعتقدون أن تجنيد كل القوى الوطنية ودعم جزء وافر من الرأي العام العالمي لن يتحققا إلا بعيدا عن كل خلط بين الدين والكفاح السياسي. فالجزائر المكافحة كانت تريد- كما كرره النشيد الوطني بإلحاح شديد- إشهاد العالم برمته على مدى شرعية كفاحها وبالتالي كان من الضروري عدم الخلط بأية حال من الأحوال بين الدين والسياسة حتى لا تتعرض الثورة لصعوبات أخرى تكون أكثر خطرا.

النشيد الوطني كما تم تصوره، كان يستجيب لضروريات تلك الفترة وقد أثار تلحينه مشاكل خطيرة على نشره بطريقة تليق بطبيعة ووتيرة الكفاح وعلى تسجيله كذلك. ظهرت هناك محاولات ولكنها كانت فاشلة ويقال أنه سبق وأن لحن النشيد بطريقة بطيئة ومختلفة تماما عن الطريقة التي تم إختيارها فيما بعد حيث قال لنا بعض السجناء أنهم غنوا هذا النشيد بلحن مختلف للغاية. طلب من الموسيقيين والمغنيين الجزائريين الذين كانوا في تلك الفترة غير متعودين على المجموعات الصوتية ولا على الأنغام العسكرية، وقد نجحوا بعد جهد واستعمال الحيلة، في تلحين وتسجيل أول طبعة غناها بداية المساجين في السجون وفي بثها على أمواج الإذاعات العربية منها "صوت العرب" الشهيرة من القاهرة.

لا نعرف بالضبط كيف تم التخلي عن الطبعة الموسيقية الأولى لِيحل محلها تلحين الموسيقار المصري محمد فوزي.

لعل هناك من سيقول أن النشيد الجزائري ليس جزائريا مائة بالمائة لأنه من تلحين أجنبي وذلك ما أثار في بداية الاستقلال مشكلا حول تأليف نشيد وطني جزائري محض. ذلك كان صحيحا بالفعل بحيث نصت المادة 75 من أول دستور جزائري صدر في 10 سبتمبر سنة 1963 على أن "قسما هو النشيد الوطني مؤقتا" على أن يصدر لاحقا قانون غير دستوري يحدد النشيد الوطني. ونظمت مسابقة لتزويد الجزائربنشيد وطني لكن انقلاب

سنة 1965 على أول نظام دستوري جزائري حجب الموضوع حيث برزت أولويات تغلبت على ذلك الانشغال الذي بدا غير مهم بل غير ضروري. كاد الجميع تقريبا ينسى بعد قرابة ربع قرن من الزمن أن الجزائر لم تتحصل بعد على نشيد وطني نهائي وأنها تعيش على وقع نشيد مؤقت. ولم تكذب ذلك المادة 04 من الدستور الجزائري الثاني الصادر في 22 نوفمبر 1976 الذي لا يزال ساري المفعول حتى الآن بل جاء بكل بساطة في عبارة تخفي قليلا الطابع المؤقت للنشيد الوطني أن النشيد الوطني و"مميزات خاتم الدولة والعلم يحددهما القانون".

نحن نعلم أنه لم يصدر إلى يومنا هذا أي قانون بشأن النشيد الوطني وقد كتبت الصحافة الوطنية الصادرة في نوفمبر 1985 أن ذلك سيتم خلال الدورة الأخيرة للمجلس الوطني الشعبي لنفس السنة(4).

لا ينبغي الخوض في الأحكام المسبقة حول ما سجله منتخبو الأمة ويبدو مع ذلك أن "قسما" الذي كثيرا ما أثار حماس المكافحين وهز قلوب ملايين الجزائريين والذي بات يؤدى خلال كل حفل رسمي للجزائر المستقلة قد كرس قانونيا نشيدا وطنيا للجزائر دون أي تغيير على مستوى اللحن ولكن مع حذف أحد المقاطع بصفة نهائية ويتعلق الأمر بالمقطع الذي يشير إلى فرنسا. الواقع أن هذا الحذف دخل في الممارسات الجارية حيث أن نظرة على الطبعة التي وزعها الحزب خلال دوراته الوطنية الأخيرة تفيدنا بأن المقطع الموجه لفرنسا قد إختفى تماما. هل علينا أن نتأسف لذلك أو لنا بالعكس أن نسر له؟ كل حر في حكمه. فإذا تمسكنا بالطابع الخالد لنشيد ما قد نرى أنه ليس هناك ما يبرر ذلك الحذف لأنه بأية حال سينظر لاحتلال فرنسا للجزائر بعد قرون من الزمن على أنه مجرد حدث عابر لا أكثر ولا أقل.

بالنسبة للمصدر الموسيقي للنشيد الوطني سيأتي يوم يؤسف فيه لعدم استبدال النشيد بآخر

بمساعدة ملحنين وطنيين وذلك أقل ما يتعين فعله عندما يتعلق الأمر برمز على هذه الأهمية من رموز الأمة.

صحيح أن عشرين سنة من عمل الذاكرة والممارسة كانت كفيلة بترسيخ هذا اللحن إلى درجة تبعث على الاعتقاد بأنه جزائري الأصل. يبقى أن الأمور المستعارة في تاريخ الشعوب ورموزها تصطدم في النهاية مع الأصالة و يستحسن أن أخذ ذلك في الحسبان أو تصحيح مميزات عبقرية كل شعب بأسرع ما يمكن.

قد نسلم بأن تأليف نشيد وطني ليس بالأمر الهين في تصور كل شعب لهويته الحقيقية لكن ينبغي تفادي الوقوع في الخطأ. ففي موضوع النشيد، كان أصحاب الفكرة يسعون خاصة إلى ترسيخ الوحدة العميقة للشعب الجزائري في الكفاح وبالتالي يجب أن يكون "قسما" شاهدا على ذلك ولا ننسى أن شريحة من الشعب الجزائري شعرت عند تأليف النشيد الوطني الجزائري أنه أكثر جزائرية في حين سعت مناورات إجرامية وجنونية إلى صرفه عن ذلك الاعتقاد.

هكذا رسخ ميلاد "قسما" وحدة الشعب الجزائري و ليس هناك أفضل مبرر منه عليها لا في الماضي ولا في المستقبل.

في خضم تأليف نشيد الثورة مكن عبان رمضان لجبهة التحرير الوطني تأييدا أكبر، بل مشاركة حقيقية لسكان منطقة بني ميزاب في الكفاح التحريري. لم يكتف مفدي زكريا بمنح بلده النشيد الذي كان سيصبح نشيدها الوطني فحسب بل أن الفضل يرجع له في أن قابلت شخصيات من أصحاب النفوذ في منطقة الميزاب أمثال الشيخ بيوض عبان رمضان

وتقدم للثورة مساعدة أعطت لهذه المنطقة، شأنها في ذلـك شـأن بـاقي المناطق، شهادتها التاريخية في المشاركة في تحرير البلاد.

ومن خلال هذا الفصل المزدوج المتعلق بتأليف قـسما واسـترجاع سكان منطقة الميزاب التي أسيئ إليها بغير حق في البداية والتي كدنا أن نسلبها فضلها في الثورة -بغض النظر عن النتائج التاريخية التـي لا تحمد عقباها- يكون عبان رمضان قد برهن مرة أخرى أنـه بـلا منازع، صانع وحدة الشعب.

صانع مؤتمر الصومام

لا يهم أن إعتبر الشاهد أ. ثعالبي (5) أن عبان رمضان ليس أول من بادر بفكرة عقد مؤتمر للثورة الجزائرية. في حين تنسب كل المصادر المكتوبة المعروفة إلى يومنا ،هذه الفكرة وإليه. ما يهم أكثر هو أن مساهمته في التحضير لمؤتمر الصومام وتنظيمه وسيره ومحادثاته وتنفيذ قراراته كانت برأي الجميع في غاية الأهمية. وكانت له أكثر من أي قائد ثوري آخر، دوافعه الخاصة للحرص على عقد ذلك المؤتمر والسهر على حسن سيره.

ما كان له أن يلوم القدر الذي حال دون أن يكون واحداً من بين مَنْ فجروا شرارة نوفمبر، بسبب قضاء عقوبة سياسية طويلة في السجون الفرنسية، بدافع من عزة النفس- ذلك الاحساس غالبا ما يلازم أولئك المرشحين للخلود- ولكن لأن ذلك المناضل الباسل والعنيد في أكثر التيارات الوطنية راديكالية قد ضحى بكل شيء من أجل التعجيل بتفجير الكفاح المسلح والمشاركة فيه. لكن القدر شاء خلاف ذلك. فهل ينبغي بالتالي تفسير عقد مؤتمر الصومام على أنه تنافس على السلطة؟ بعض المؤلفين يؤكدون ذلك ومنهم السيد حربي الذي كتب: "أن رهان مؤتمر الصومام، ناهيك عن برنامجه، كان على ما يبدو يتمثل في الإشراف على قيادة الحركة" (5).

من دون السعي للتقليل من حدة التنافس الذي ما فتئ يجر الرجال إلى حد الاقتتال، نميل إلى الاعتقاد بأن محاولة تفسير الأحداث من هذه الزاوية فقط تنطوي على شيء من الإفراط، لأن ذلك يعني إخفاء أو تبرير الخلافات الحتمية حول طبيعة المشاكل وترتيبها والحلول

التي تتطلبها. تلك الخلافات كانت عديدة وعميقة بين القادة على اختلاف تشكيلاتهم وانتماءاتهم لكنها لم تكن تشكل بالنسبة لهم جوهر الموضوع. يكفي قبول فكرة على الزعامة كانت قائمة منذ بداية الثورة الجزائرية إلى نهايتها بين معظم المترشحين لها وما التحالفات التي كانت تعقد بين الفينة والأخرى، إلا تأكيداً لهذه الملاحظة. كل الخصومات الشخصية قائمة على خلفية اختلافات جوهرية وصحيح أن هذه الأخيرة كانت تخفي بدورها خصومات شخصية.المهم في التمكن من تحديد خط فاصل وعدم الخوض في شرح ضيق للخلافات الشخصية، وغالبا ما هي الحال بالنسبة للمؤلفات التي تناولت الثورة الجزائرية لدرجة تتيح الحق لأي ملاحظ غير مطلع للتساؤل: كيف تسنى لهذه الثورة أن تنتصر والخلافات الشخصية كانت حقيقية وعديدة ومستمرة؟ الأمر وارد لا جدال فيه، لكنها لم تكن أبدا حكرا على الثورة الجزائرية ولم تكن مستأثرة بالثورة إلى درجة أنها كانت ستمنعها من مواصلة سيرها وبلوغ غايتها الرئيسية في تحرير البلد.إنه من الغلو أن يبعث بعض المؤلفين على الاعتقاد بأن حرب التحرير كانت فضاء حصريا للخلافات بين العرب والقبائليين أو بين قادة مختلف المناطق. في هذا المقام أيضًا وإذا كان لا ينبغي التقليل من أهمية خصومات حقيقية، فكيف بمحاولة إخفائها، فإنه لا ينبغي أيضا السعي إلى تفسير الأحداث وعلاقات القوة من خلال صياغة مفاهيم وحتى شعارات ستكتسي ديناميكيتها الخاصة وتعمل بشكل خطير على تغليط التحليل الهادئ والموضوعي. الحقيقة أن النزاعات الداخلية داخل المناطق كان أكثرها بين الأشخاص.

على سبيل المثال ودون السعي أيضا للخوض في هذا الباب، كل الشهود التي استمعنا إليهم أكدوا ذلك الانسجام الذي كان يميز العلاقة

بين عبان رمضان والعربي بن مهيدي في حين أن هذا الأخير سجل خلافات شديدة مع ابن بلة، وأن عبان رمضان نفسه ما فتئ يصطدم بكريم بلقاسم.وما حدث في منطقة الأوراس عند وفاة مصطفى بن بولعيد والتناحر على خلافته يبرز كل الحذر والتبصر اللذين يتعين توخيهما عند تناول النزاعات التي اعترت الثورة الجزائرية.

إن مسألة الزعامة تكون قد طرحت. يمكننا التسليم بذلك حتى ولو ـ كما قال لنا أحد الشهود ـ أن قلة من القادة كانوا يرون أنفسهم أنهم سيصمدون أمام القمع اليومي الذي كانت تسلطه عليهم القوات الفرنسية. البقاء على قيد الحياة يوما بعد يوم، كان ضربا من ضروب المعجزة بالنسبة إليهم، لأنهم لم يكونوا يعرفوا متى ستنطلق مطاردة جماعات الموت الفرنسية ضد كل المقاتلين الجزائريين والقادة منهم بشكل خاص، فالزعامة كانت إذن كانت آخر شيء كانوا سيشغلون بالهم بها. كما أن الزعامة في تلك المرحلة بالذات لم تكن في متناول كل من يريدها. كان الوصول إليها يقتضي التحلي بكثير من الشجاعة "وبشيء من الجنون" ، كما كان يقول عبان رمضان، من أجل مواصلة الكفاح وبخاصة، مطالبة القيادة بالنظر للمخاطر القصوى التي كانت مرتبطة بتلك المهمة. كل محاولة نسب سعي ما للنجومية أو حتى الرغبة في الحكم تمثل إهانة في حق المقاتلين لأن إيمانهم بالكفاح وتفانيهم كانا حقيقيين بالنظر إلى واقع الكفاح المرير.

وراء الاستدعاء إلى مؤتمر الصومام كان هناك أكثر، بل عكس، الاعتبارات الشخصية، حتى وإن كان لا ينبغي، ونحن مستعدون للتسليم بذلك، استبعادها كلية.وستزداد قناعتنا بالأمر عندما سنتناول بالتفصيل أهداف هذا المؤتمر وسيره.

I. دوافع المؤتمر وأهدافه

قبل أن يفترق القادة ذات يوم أحد 24 أكتوبر 1954 بعد قرروا أن يوم تفجير الثورة الجزائرية سيكون يوم الاثنين الفاتح نوفمبر 1954 عند منتصف الليل -أي بعد أسبوع بالتمام من هذا اللقاء الأخير- ضرب القادة التاريخيون الستة (ابن بولعيد، وابن مهيدي، وبيطاط، وبوضياف، وديدوش، وكريم) الذين فجروا شرارة التحرير الوطني، موعدا بعد ثلاثة أشهر من ذلك بالجزائر العاصمة لتقييم الوضع.

كانوا يعتقدون أنهم بهذه الطريقة وفي ذلك المكان سيتمكنون بسهولة من إطلاع بعضهم البعض والتشاور ومراقبة مجرى الحرب رغم الا أحد، كان يدرك بوضوح المنحى الذي ستأخذه الأحداث. فالواقع أنه لم يلتقوا، لا بعد ثلاثة أشهر من لقائهم الأخير كما اتفقوا على ذلك، بل ولم يلتق البعض منهم أبداً حيث لم يكونوا يدركون -على الأرجح- أن الحروب قادرة على إسقاط أدق التوقعات. وما أنقذ حرب الجزائر من خطر الخمود، على الأقل خلال الأشهر الأولى من عمرها، هو تلك الاستقلالية وروح المبادرة التي تفطن القادة الستة التاريخيون إليها وتركوها لمسؤولي مناطق القتال الخمس. ذلك أن أي قرار آخر ما كان ليتحقق ميدانيا. لكن لما كان صحيحا أن لكل عملة وجهان فإن ترك حرية قيادة العمليات للقيادات المحلية كان ينطوي على أخطار وخيمة أولها وأكثرها بروزا هو غياب وحدة القيادة والإستراتيجية وفي غياب المعالجة السريعة، كان سيؤدي ذلك إلى نفس الهزائم التي تكبدناها خلال الثورات السابقة ضد الاحتلال الفرنسي.

إن حصر الكفاح في بعض المناطق المنعزلة من الوطن كانت فرصة سانحة للجيش الفرنسي مكنته من تركيز جميع وسائله لقمعه. وبالمقابل لم تتمكن المناطق المقاتلة القليلة من مد يد العون إلى بعضها البعض ولا تنسيق عملياتها ولا حتى الاستفادة من التجارب الحربية لكل

منها.وأكثر من ذلك فإن الاستشهاد المبكر للقائدين البارزين ديدوش مراد بالنسبة للمنطقة الثانية في الشمال القسنطيني ومصطفى بن بولعيد بالنسبة للمنطقة الأولى في الأوراس زاد الوضع تفاقما في المنطقتين الجبليتين وهما منطقتان إستراتجيتان حيويتان ذاتي القيمة الإستراتيجية- الحيوية بالنسبة للمحاربين الجزائريين. وفضلا عن ذلك فإذا كانت مسألة استخلاف القائد الأول الذي استشهد في ميدان الشرف في جانفي 1955 لم تطرح مشكلا ماعدا ما ارتبط بالإحباط المعنوي الذي خيم على رفاقه، فلقد كانت الأمور على عكس ذلك بالنسبة لخلافة قائد منطقة الأوراس.

فعد أن القي على مصطفى بن بولعيد القبض للمرّة الأولى في فيفري 1955 على الحدود التونسية-الليبية، ظل بالسجن إلى غاية نوفمبر 1955 وبعد ثلاثة أشهر من فراره توفي في ظروف لم يسلط عليها الضوء كلية(7) بعد أن استأنف القتال على رأس منطقته ومع رفاقه. فقد استسلم أتباعه لحرب قاسية من اجل خلافته، ولم يكن ذلك مناسباً للحفاظ على الانسجام في المنطقة ولا للتصدي لهجومات الجيش الفرنسي.

ونستخلص منه أنه حتى على مستوى الكفاح ذاته لم يكن الوضع يبعث على الارتياح.فبعد العمليات الأولى التي كان مداها بسيكولوجيا أكثر منه عسكريا وجد المحاربون في الجبل أنفسهم حيال فراغ استراتيجي يستحيل تداركه في غياب تصور شامل للأمور وبقدر أشد، بسبب النقص الفادح في الوسائل المادية. فالحيرة والارتباك كانا يسيطران على كل محارب أمام التساؤل عن مآل هذا الكفاح. بمن كانوا سيتمسكون أو إلى من يرجعون لإيجاد حل لقلقهم ومنفذ لرغبتهم الجامحة في التحرك؟ هل كانوا بحاجة إلى دليل أو إلى قائد وطني؟ لا هذا ولا ذاك كانا موجودين.فإلى وثيقة رسمية أو إلى كتيب قتال؟ ولا هذان كانا متوفرين. فلنتذكر أن تفجير حرب الجزائر قد تم التحضير له، حتى لا نقول ارتجل، في ظروف سيئة

للغاية.فقبل ثلاثة أشهر من انطلاق العمليات كان الوضع يتسم بغموض تام في الذهنيات وحتى في القلوب حيث كانت الناس لا تزال تتساءل بعد من هم "الميصاليون"؟ ومن هم "المركزيون"؟.

لم يسفر تأسيس جبهة التحرير الوطني عن تحضير ولا عن مباحثات مطولة بين مؤسسيها الستة وإعلان 31 أكتوبر 1954 المدعو أيضا إعلان الفاتح نوفمبر 1954 هو الذي كان بمثابة عقد ميلادها الحقيقي في شكل تصريح لا يتعدى الصفحتين تضمن تشخيصا قاسيا عن الوضع السائد في البلد ونص بشكل حازم وقاطع بأن الغاية الوحيدة لجبهة التحرير الوطني الناشئة هي " الاستقلال الوطني" ولا شيء آخر, أو تقريبا لا شيء، عن جزائر الغد ولا عن قيادة الثورة ولا عن محتواها ولا مبادئها.

الحقيقة أن الأمور ما كانت لتكون مغايرة. فالمجال لم يكن للنقاشات ولا لكشف إستراتيجية لم تتضح معالمها بعد، ولم تصاغ حتى. الواقع أن ذلك أحسن ما حصل. فإعلان مطول يكون تطرق بوضوح للمشاكل المرتبطة بالإستراتيجية والتحالفات والبرنامج الخاص بجزائر المستقبل التي لم يكن أحد يعلم متى وكيف كانت ستنشأ، كان سيقلل من حظوظ تحقيق التفاف وطني شامل وتأييد دولي واسع قدر المستطاع لصالح استقلال البلد.

بطبيعة الحال ليس ذلك الإعلان، الذي كان غير معروف بالشكل اللائق والذي لم يوزع بالقدر الكافي، من كان سيشكل المرجع الذي استمد منه محاربو الجبل الأوائل خط سيرهم على الفور والذي كان يتمثل في الصمود أمام رد فعل فرنسا الفوري والعنيف. وإذا كانت جبهة التحرير الوطني قد جاءت نتيجة تصور سريع وإن اكتسى طابعا رسميا عبر إعلان الفاتح نوفمبر، فقد نشأ جيش التحرير الوطني في الميدان

وجاء سابقا لعقد ميلاده. لا يشترط أن يكون لك اسم أو أن يتبناك احد لتحيا وتقاتل. تلكم كانت الحال بالنسبة للجنود الأوائل، الذين لم يكترثوا كثيرا للراية التي كانوا سيقاتلون تحتها على افتراض أن الأمر كان ضروريا بالنسبة إليهم. بعضهم كانوا في الجبال منذ سنوات عديدة. في غياب الاتصالات بين المناطق وفي غياب التنسيق على المستوى الوطني ولا حتى على المستوى الجهوي ومن دون مساعدات خارجية وداخلية أحيانا وفي بعض المناطق، عانى جنود الرعيل الأول ظروفا قاسية للغاية على الصعيدين المادي والمعنوي أفرزها الحرمان والتساؤلات اليومية. فسلسلة التوقيفات التي باشرتها الشرطة الفرنسية وسقوط العديد من القادة البواسل والشجعان في ميدان القتال، كان لها أثرا وخيما على الجنود وعلى القادة الناجين.ذلك الشعور بالإحباط والتخوف قد أصابا السكان. بكل تأكيد كان هناك في كل مرة رجال حلوا محل المسؤولين الذين سقطوا في ميدان الشرف أو الموقوفين. لكن الميل العام كان للانتظار في شكل من الانزواء في مخابئ الجبال.

إن مبادرة القادة المحليين بتدارك غياب التوجيهات من قيادة وطنية نشأت في تلك الظروف.ربما كان من الأفضل إبقاء الشعلة الثورية مهما كلف الثمن من خلال تصور أعمال من أجل إذكائها، وحتى وإن كانت الأعمال رمزية، بدلا من انتظار التعليمات والتوجيهات أو الوسائل التي بات إدراكها مشكوك فيه.بدافع الظروف، بات كل مسؤول محلي يشعر أو يعتبر نفسه مفوضا بصلاحية قيادة الثورة ليس قدر استطاعته بل أحيانا وفق رغبته ومنها برزت أخطاء التقدير والتجاوزات المسيئة للانسجام الوطني وحتى لفعالية الكفاح.كل هذه النقائص التي يمكن نسبتها على الأرجح للتحضير المتسرع و الشاق للكفاح، لا ينبغي أن تنسينا أن عزيمة وإيمان المحاربين الأوائل في حرب التحرير الوطني وحدهما

مكنا من تجاوز الصعاب الفظيعة والمتعددة الأشكال للأشهر الأولى بل وحتى من التغلب عليها. فبدون إيمانهم الراسخ بتحرير البلد ومن دون تلك المعاناة التي لا تكاد تصدق اليوم، كانت الثورة الجزائرية ستتحول إلى محاولة يائسة أخرى ضمن قائمة الثورات العديدة التي سبقتها. لكن العزيمة والأيمان على قوتهما كانتا بحاجة إلى ما يحافظ عليهما وينظمهما ويوجههما نحو الغاية النهائية وإلا فكانا سيتبددان مع مر الزمن على أن تنتعشا بعد.بالنسبة لحرب الجزائر كان الأمر يتعلق يوميا بضرورة تنظيمها وتأطيرها وقيادتها كحرب وطنية وليس كانتفاضة محلية سريعا ما يتم قمعها. هذا المطلب وحده كان يقتضي عقد مؤتمر ومنه فقط كان سيتسنى لثورة 1954 أن تتميز عن الثورات السابقة وأن تضفي بعدا وطنيا على الكفاح بتزويده بأحسن الشروط، إن لم تكن الوحيدة، الكفيلة بتحقيق النصر على خصم بمثل تلك القوة وذلك التنظيم. ولأنه أدرك ذلك وجسده خاصة، بمفرده أو مع غيره من القادة، فقد أضحى عبان رمضان جديراً بأن يخلد اسمه بين عظماء الرجال في تاريخ الجزائر.

II. التحضير للمؤتمر: الفاعلون الأساسيون وسير أشغاله

يكاد يستحيل إعطاء التاريخ الصحيح الذي اتخذ فيه قرار عقد مؤتمر للثورة. فعلى غرار كبريات الأحداث التاريخية، من المرجح أن تكون الفكرة قد تبلورت ونضجت تدريجيا.لكن في المقابل بوسعنا تحديد الفترة التي أخذت الفكرة تتبلور فيها وتتخذ معالم واضحة. لقد أشار الشهود الذين استمعنا إليهم في غالب الأحيان دون توضيح إلى الأشهر الأولى من سنة 1956. ويستندون في ذلك إلى وجود قبل ذلك "لجنة للدراسات" يشرف عليها حديدوش، وهو بائع خضر متفان في سبيل القضية الوطنية، وتضم في تشكيلتها عمار اوزقان الأمين العام السابق للحزب الشيوعي

الجزائري، محمد لبجاوي، الذي أصبح مسؤول فدرالية فرنسا لجبهة التحرير الوطني، الأستاذ عبد الرزاق شنتوف الذي أصبح مدير ديوان لخضر بن طوبال، ثم عضو جبهة التحرير الوطني في الحكومة المؤقتة بالصخرة السوداء (بومرداس) وأخيرا موساوي الذي أصبح أول سفير للجزائر بفرنسا.

من المرجح أن تكون فكرة استدعاء مؤتمر قد تحولت إلى هدف على المدى القصير ضمن هذه اللجنة. ولتحديد مهمتهم والابتعاد عن النقاشات المتعصبة والمضطربة، اتفق أعضاؤها الذين قابلهم عبان رمضان وأصبح يشرف، بمبادرة من عمار اوزقان، على مشروع وضع كتيب لحساب المحافظ السياسي للجيش.

نستخلص من هذا ، مدى حرص المسؤول السابق للحزب الشيوعي الجزائري على التكوين السياسي للمحاربين وهو منهج ثبتت فعاليته في الجيش السوفييتي. تلك الأداة الأيديولوجية والحربية كانت تمثل حاجة ماسة بالنسبة للجنود الذين كانوا في الجبال. لكن على مر الاجتماعات التي كانت تعقد تارة عند عمار أوزقان في قلب القصبة، أو عند الأستاذ شنتوف بمقرّ سكناه الواقع برقم 1 نهج مارينغو، أو حتى عند نفيسة حمود ابنة مفتي الجزائر السابق الذي كان يأوي عبان رمضان ـ في شقة قبالة سوق لالير- تحول مشروع كتيب المحافظ السياسي شيئا فشيئا إلى ما عرف فيما بعد بأرضية مؤتمر الصومام.

يبدو أن الوثيقة كانت في مجملها من تحرير عمار أوزقان لكن المعلومات التي استقيناها لدى الأستاذ شنتوف، ولم نتحقق منها، تبعث على الاعتقاد بأمكانية الاعتراف بانتساب مختلف أجزاء الأرضية إلى هؤلاء:

1. عبان رمضان الذي حرر بمفرده بالجزائر العاصمة أو خلال المؤتمر، مقدمة الأرضية التي تتطرق لتلك القفزة الهائلة التي حققتها الثورة

الجزائرية وحيث يتحدث عن المقاومة المسلحة وعن "جيش التحرير الوطني الذي يناضل من أجل قضية عادلة" وعن جبهة التحرير الوطني التي تعد "منظمة سياسية فعالة".

- يكون عبان رمضان قد حرر الأجزاء التي تحمل العناوين التالية :
- انهزام المصالية
- غياب الشيوعية
- الاستراتيجية الامبريالية الفرنسية
- حركة الفلاحين
- حركة العمال
- حركة الشباب.

2. عبد المالك تمام، وزير المالية في الجزائر المستقلة، يكون أخذ على عاتقه الجزء المتعلق ب:
- أهداف الحزب.
- وقف إطلاق النار.
- المفاوضات من اجل السلام.

3. الأستاذ عبد الرزاق شنتوف يكون قد أعد النقاط التالية:
- المثقفون والمهن الحرة.
- التجار والحرفيون.
- الحركة النسوية.
- نشاط جبة التحرير الوطني في فرنسا.

ندرك مجازفتنا بوضع هذا التوزيع، لكننا قمنا به على أساس معلومات استقيناها من مصادر جيدة وإن لم يتسن لنا التحقق منها. ما هــو أكيــد

أن عمار أوزقان قد أخذ على عاتقه أكبر جزء في تحرير وصياغة ما أصبح يشكل أرضية الصومام مع هذا التحديد : سمحت محادثات على مستوى اللجنة لكل الأعضاء بالإسهام في إثراء المشروع والمصادقة عليه بعد أن أصبح مشتركا بينهم . وهكذا مثلا كثيرا ما استدعي عمار أوزقان ليصحح أو يتخلى عن التصريح المنسوب إليه والذي مفاده أن حزب الشعب الجزائري حركة انتصار الحرية والديمقراطية والاتحاد الديمقراطي من أجل البيان يكونا قد "اقترفا جرائم في حين لم تصدر عن الحزب الشيوعي الجزائري سوى أخطاء في التقدير" في قيادة الحركة الوطنية الجزائرية.

هل يمكننا الاعتبار أن قادة ثوريين آخرين قد شاركوا في تحرير أو في صياغة أرضية الصومام ؟ لا يمكننا الجزم بذلك.لكن يبدو بناء على شهادة مصدر أكيد أن العربي بن مهيدي يكون قد أجرى محادثات مطولة على انفراد مع عبان رمضان ليس فقط حول قيادة الثورة في مجملها، لكن كذلك بشأن التحضير لأرضية ولمؤتمر الصومام. لكن كما تأكدنا منه، لم يشرع الثنائي عبان وبن مهيدي في العمل إلا انطلاقا من جوان 1956 لأن تلك الفترة هي التي شهدت استقبال قائد المنطقة الخامسة القادم من منطقة وهران إلى الجزائر العاصمة،على متن القطار، من طرف ابن يوسف بن خدة ضمن له البيت الآمن في مخبأ. وكانت معظم اللقاءات بين قائدي الحرب قد تمت بمنزل رشيد عمارة الكائن بنهج تيليملي (حاليا نهج صالح بوعكوير) بالجزائر العاصمة.

ماذا عن قادة المناطق الأخرى؟، من المرجح أن عبان رمضان قد تبادل وجهات النظر مع كريم بلقاسم خاصة وأن هذا الأخير كان ميالا بطبعه إلى العمل والقيادة الميدانية أكثر منه إلى صياغه استراتيجية شاملة.في المقابل يكاد يكون أكيدا أن زيغود يوسف مسؤول المنطقة الثانية

في الشمال القسنطيني لم يكن له أي اتصال مع عبــان رمــضان بــشأن مشروع ميثاق الصومام ويمكننا التأكيد أنه خلافا لما كتــب حــول هــذه المسألة فإن موضوع المهمة التي أوكلها عبــان رمــضان فــي فيفــري أو مارس 1956 إلى زيغود يوسف بناء على توصية منَ ابن يوسف بن خــدة لم تكن لها صلة مباشرة بمؤتمر الصومام الذي حسب ما يبدو لم يكن مبرمجا آنذاك بكامل الثقة والوضوح.

وقد قال لنا الموفد نفسه (8) أن هدف مهمتــه كــان يتمثــل أساســا في الاطلاع لحساب موكله، على الوضع السائد ليس في المنطقة الثانيــة (منطقة زيغود يوسف) وإنما في المنطقة الأولى التي كان يعتقد أنها تحت إشراف مصطفى بن بوالعيد. أول انشغال لعبان رمضان، كما قــال لنــا من أصبح وزير العلاقات الخارجية في الحكومــة المؤقتــة للجمهوريــة الجزائرية، كان حينها في معرفة ما الذي كان يحدث في المنطقة الأولــى وما الذي حل بها. هل كانت لها اتصالات مع القاهرة وماذا كان بإمكــان جبهة التحرير الوطني القيام به، من الجزائــر العاصــمة، مــن أجلهــا؟ بعبارات أخرى كان مسؤول منطقة الجزائر العاصمة يريد بلورة فكــرة واضحة عما كان جاريا في المنطقة الأولى حتى يتمكن من تحليل دقيــق للوضع في البلد.

وحسب نفس الشهادة فإن الانشغال الذي حدد المهمة كان محدوداً فكان يتمثل في تمكين الجزائر العاصمة، التي كانت تــضطلع بمهمــة التنــسيق، من ضمان الاتصال والتنسيق الضروريين بين مختلف منــاطق القتــال. وفي طريقه إلى الأوراس توقف سعد دحلب في المنطقة الثانية بين ميلــة وقسنطينة ليس لمقابلة زيغود يوسف ، فتلك لم تكن مهمته، وإنما للبحــث عن الصلة و المساعدة بغرض الاتصال بقائــد الأوراس. وقــد انتظــر خمسة عشر يوما، لم تخل من التــساؤلات العميقــة والقلــق والحيــرة، عن أسباب ذلك الانتظار.

وأطلع أخيرا بكثير من الاحتراز أن القائد الذي كلف بالذهاب إليه يكون قد توفي. وما كان الإعلان عن وفاة قائد بارز مثل مصطفي بن بولعيد بالأمر الهين. نادرا ما يستطيع الناس نقل نبأ فاجعة بذلك الحجم. وذلك ما يفسر انتظار سعد دحلب في المنطقة الثانية وتردد قادة هذه الأخيرة وترددهم على إبلاغه بالمصاب الجلل. رغم أن قادة المنطقة الثانية كانوا متأكدين بالتقريب من وفاة قائد منطقة الأوراس إلا أنهم كانوا يجهلون الظروف المحيطة بموته.هكذا لم يتمم سعد دحلب مهمته. واقترح عليه البقاء بالمنطقة الثانية أو العودة إلى الجزائر العاصمة. وقد قال لمحدثه أن واجبه كان يملي عليه إبلاغ من كلفه بالمهمة في الشمال القسنطيني وكان يجد نفسه ملزما بالعودة للجزائر. وقد احتفظ بذكرى مؤثرة للقائه المطول بزيغود يوسف الذي يعتبره قائداً عظيماً.

كان رزينا ومتبصرا وكان بإمكانه البقاء ساعات طويلة ـ وغالبا مافعل ذلك ـ يفكر منعزلا. قال لنا سعد دحلب أنه لم يكن يخلد للنوم قبل رفاقه كما أنه كان يستيقظ قبلهم.

إن التقرير الذي قدمه سعد دحلب لعبان رمضان جعل هذا المسؤول المتبصر يقدر أهمية المهمة التي ينبغي إنجازها حق قدرها. فأمام رحيل الرجال والعزلة الخانقة والمثبطة التي كانت تتخبط فيها أغلبية المناطق لم يكن هناك سوى حل واحد ممكن وهو تحضير ووضع هياكل قادرة على الصمود أمام ضربات القدر والعدو التي كانت ستتلقاها الثورة الجزائرية. البقاء كان الانشغال الشاغل لتلك الفترة. وجاء حدث آخر جعل عبان رمضان يتحرك سريعا وبكثير من الجرأة من أجل إنقاذ الثورة الجزائرية من خطر الاختناق.ذلك الحدث يتمثل في عودة العربي بن مهيدي من القاهرة حيث ذهب في ماي 1956 لجلب السلاح وتنظيم وصوله للمحاربين في الجبال.

إن خيبة قائد المنطقة الخامسة كانت معروفة، لأن مصادر مختلفة نقلتها. فقد حدثنا ثلاثة شهود عرفوه جيدا عن إنزعاجه وغضبه لكونه استسلم عند عودته للجزائر لفكرة أن إبن بلة الذي كاد يتشاجر معه لم يكن الرجل المناسب وما كان ينبغي انتظار شيء منه خاصة في مجال التسليح من جهة، ومن جهة أخرى أن مصر عبد الناصر كانت أكثر اهتماما بل أنها كانت منشغلة تماما، بمصالحها الخاصة أكثر من اهتمامها بمصالح ثورة أخرى، حتى الجزائرية في حين أن دعاية نظمت بمهارة جعلت منها منقذة المقهورين. وحتى اليوم لا زال من الصعب رغم الشهادات والوثائق المسلم بها معارضة هذه الخدعة.

كان هذا كافيا ليجعل عبان رمضان يستشرف ما كان ينبغي فعله وقد قرر التحرك.

إن تطابق الآراء بينه وبين قائد منطقة وهران البارز، ونبذهما المشترك لكل من يسعون للنجومية خاصة تحت لواء وحماية قوة أجنبية، وكذا روحهما الوطنية وتعطشهما للعمل والقضاء على النظام الاستعماري، قد ساهما في توثيق صداقتهما وتضامنهما اللذين كانا وراء نجاح مؤتمر الصومام وفي الوقت نفسه، إنقاذ الثورة الجزائرية.

لقد قال لي كثير من الشهود الذين شاهدوهما يعملان معا أنهما كانا متكاملين. أما أنا فقد حملتني دراسة مسارهما واستراتيجيتهما على الاعتقاد بأنهما كانا توأمين ومتشابهين في السياسة. فمن وحدتهما السياسية والإستراتيجية نشأت القوة المنظمة التي قادت الثورة الجزائرية إلى النصر وقد سجلت تلك الوحدة في أرضية مؤتمر الصومام.

لم يكن من باب الصدفة أن ينعقد مؤتمر الصومام حيث انعقد أي في قلب منطقة القبائل في جبال الجرجرة بالمكان المسمى إغبال على بعد 10 كيلومترات غرب أقبو. لاشك أن تلك المنطقة كانت محمية بطبيعها

وبكثافة الغابات التي تحيط بها مما يجعل دخولها صعبا ولا شك أيضا أنها كانت تحت القبضة الحديدية لعميروش ووحداته وهو ما شجع على عقده هناك. لكن ليس مستحيلا أيضا أن معرفة عبان رمضان للمنطقة قد كان لها اثر كبير في اختيار هذا الموقع التاريخي. فلنتذكر أنه حين كان مسؤولا عن ولاية سطيف في عهد حزب الشعب الجزائري السري كان يعرف وادي الصومام الموجود في مقاطعته جيّداً. وفضلا عن ذلك كله، فإن اختيارها بحكم موقعها كمنطقة بوسط البلاد تتوسط تقريبا المنطقتين البعيدتين- المنطقة الأولى والمنطقة الثانية- كان سيجنب المشاركين قطع مسافة طويلة وسط ذلك العدد من المخاطر.

هذه الميزات مجتمعة هي التي سمحت لأول مؤتمر للثورة الجزائرية بأن ينعقد من 20 أوت إلى 10 سبتمبر 1956 في ظروف أمنية وهادئة ساهمت بقدر وافٍ في نجاحه، وفي القرارات التاريخية التي أصدرها. كما أن الفضل في تحقيق تلك النتائج يعود بقسط وافر لنوعية المشاركين بل وكذلك وبشكل خاص لعددهم الضئيل. لا يمكن الفصل بدقة في عددهم. إيف كورييز يقول أنهم كانوا ستة عشر موزعين على النحو التالي:

القبائل أو المنطقة الثالثة: كريم بلقاسم -محمدي السعيد- عميروش قاسي.

الشمال القسنطيني أو المنطقة الثانية:

- زيغود يوسف.
- لخضر بن طوبال.
- مصطفى بن عودة.
- علي كافي.
- حسين رويبة.
- ابراهيم مزهودي.

منطقة الجزائر أو المنطقة الرابعة :

- أوعمران.
- دهيلس سليمان (صادق).
- بوجرة محمد.
- علي ملاح (سي الشريف).

منطقة وهران أو المنطقة الخامسة:

- العربي بن مهيدي

الجزائر : عبان رمضان.

وقد استند مؤلفون آخرون، ومنهم محمد حربي إلى هذه الرواية. لكن محضر مؤتمر الصومام لا يشير سوى إلى ستة أعضاء حاضرين(10):

- ابن مهيدي ممثلا عن منطقة وهران، رئيسا للجلسة.
- عبان ، ممثل جبهة التحرير الوطني ، كاتبا للجلسة.
- أوعمران ممثلا للجزائر.
- كريم، ممثلاً للقبائل.
- ابن طوبال، مساعد زيغود.
- زيغود ، ممثلا للشمال القسنطيني.

وتضمن نفس المحضر على صعيد التمثيل، البيانات التالية والتي تخص الأعضاء الغائبين:

- ابن بولعيد، ممثلاً للأوراس- النمامشة.
- سي شريف، ممثل الجنوب (التمس له العذر بعد أن قدم تقريره للإجتماع).

لو اقتصرنا على المحضر الذي يعد الرواية الرسمية الوحيدة لأشغال المؤتمر -ولا نعتقد أن الأمر كان مخالفا- فإننا مضطرين لإبداء سلسلة من الملاحظات بدءً بالعدد الضئيل للمشاركين. إن ستة مشاركين في المؤتمر يمثلون عددا ضئيلا بالفعل. هي مجرد صدفة أكثر منها سرد تلقائي لحدث تاريخي على غاية الأهمية، قد يقال أن تفجير الكفاح المسلح قد قرره عدد مماثل من الفاعلين. الأسباب كثيرة لتفسير، وليس لتبرير، مثل هذا الوضع.من الأرجح أنه لدوافع سياسية ، تتوخى الفعالية لا الأمن، يكون المبادرون بالمؤتمر قد أرادوا تقليص عدد المشاركين إلى أقصاه. أي موقف آخر يكون قد يسفر عن مساومات أو تقديرات كان ليبدد كل حظوظ نجاح اللقاء. و لنذكر أن عناصر المناطق القتالية الست كانوا مشتتين لدرجة كانت ستجعل مجازفة تحديد أي معيار للتمثيل وفضلا عن ذلك فإن فلم تكن أيا من المناطق تتوفر على عناصر قارة بالقدر الكافي لتتبنى معيارا انتقائيا فكيف بتنظيم انتخابات. فمشاركة ممثل واحد عن كل منطقة، باستثناء منطقة الشمال القسنطيني، هي التي سادت على ما يبدو كمعيار. على افتراض هذه القاعدة فإن الممثل المعين ما كان ليكون غير المسؤول الأول عن المنطقة أي القائد بنفسه.

في المقابل يبقى من الصعب تفسير كيف تم تمثيل المنطقة الثانية في المؤتمر من طرف زيغود وابن طوبال الذي لم يكن سوى مساعدا من بين آخرين. كل ما يمكننا فعله هو افتراض أن هذا الخيار يكون سمح لعبان رمضان بكسب قادة هذه المنطقة، بما أن قادة المناطق الثالثة والرابعة والخامسة كانوا في صفه.لنوضح أن كل شيئ كان يبعث على الاعتقاد بأنه حتى قبل التوجه إلى المؤتمر، مع بن مهيدي، كان عبان رمضان قد كسب تأييد هذا الأخير. كل الذين عايشوهما قبيل انعقاد موعد الصومام سجلوا الوئام التام بل التفاهم والود اللذين كانا يجمع بين القائدين.

سواء كان عدد المشاركين في مؤتمر الصومام ستة أو ستة عشرة سيكون من باب الإجحاف منازعتهم في صفتهم التمثيلية لمنطقتهم القتالية أن المنطقة الوحيدة التي كان بوسعها الاحتجاج على نتائج المؤتمر هي منطقة الأوراس لأنها كانت غائبة. لكن يتفق الجميع التسليم بأنها الوحيدة الملامة على ذلك، وأنه لم يكن، حسب علمنا، ثمة عائق خارجي حال دون مشاركتها. فإذا لم تشارك فلأن الأمور لم تكن على ما يرام في صفوفها، ولأن موت قائدها مصطفى بن بولعيد، في ظروف غامضة، يوم 27 مارس 1956 قد ولد فراغا على الخلافة لم يتم تداركه بسرعة وخلف تناحرا أليما بين الأشقاء. وسنرى أيضا أن الوضع الحساس في تلك المنطقة كان موضع اهتمام خاص من طرف المؤتمرين وأن القرارات التقويمية الجامعة التي تبنوها هي التي مكنت من إعادة ترتيب المسؤوليات ومواصلة الكفاح.

لقد كتب عن المشاركة في المؤتمر العديد من المؤلفين ومنهم إيف كوريير ومحمد حربي من أجل إقرار فرضية الإقصاء العمدي بل والماكر لبن بلة من طرف عبان رمضان. هكذا يساهم المؤلفون في صنع الأساطير. فلنحاول النظر للأمور بترو.

بأية صفة سيشارك ابن بلة سيشارك في مؤتمر الصومام؟ إذا كان باسم الوفد الخارجي، فهو لم يكن العضو الوحيد، حيث كان هناك بوضياف وخيضر وايت أحمد وحتى لمين دباغين الذي أوفد من الجزائر في حدود أفريل 1955 لتعزيز أو قيادة الوفد الخارجي الذي كان يعتبر ضعيفا أو ناقصا في المسألة الحيوية لإرسال الأسلحة للجبال. بوسعنا القول أيضا أن فدرالية فرسا لجبهة التحرير الوطني على غرار الوفد الخارجي لم تشارك في مؤتمر الصومام وبسعنا التسليم بذلك بأن قادتها لم تكن لهم الشهرة ولا الصفة التاريخية التي تم إقرارها للأعضاء الأربعة أو الخمسة

للوفد الخارجي المذكور أعلاه. لكن وزن المهاجرين كان هاما للغاية ليس فقط بسبب الرهان القائم بسببهم بين جبهة التحرير الوطني والحركة الوطنية الجزائرية بل و بخاصة من أجل الوسائل المالية المعتبرة التي زودوا بها الثورة قبل أن يصبحوا بدورهم وبسرعة قوة مقاتلة في فرنسا على صعيد العمليات والعمل البسيكولوجي وكذا الدعاية الوطنية.

لا شك أنه قيل أن فدرالية فرنسا لجبهة التحرير الوطني قد أعدت تقريرها الخاص لصالح المؤتمرين في الصومام والأمر كان سواء بالنسبة للوفد الخارجي التي جمع تظلماته العربي بن مهيدي خلال إقامته بالقاهرة في ماي 1956. فمن باب الإنصاف التسليم بأن المشاركة المادية في مثل هذه المؤتمرات تعني أكثر وأفضل من مجرد إيداع تقرير والحضور المادي وحده كان كفيلا بإتاحة إسهام فعال في النقاشات والمحادثات والقرارات.

لقد قيل وكتب في مواقع أخرى أن كل مناطق القتال لم تمثل جميعها في المؤتمر.لدينا ما يتعلق بالمنطقة الأولى التي تغيبت فعلا عن مؤتمر الصومام لكن من الصعب اعتبار، كما يلمح إليه بن بلة، أن المنطقة الخامسة أي وهران لم تمثل فيه حيث كتب :

".. المؤتمر الذي جمع بالتحديد هذه الولايات (اللفظة التي استخلفت لفظة منطقة بعد مؤتمر الصومام) 2،3، 4 و5، ولما أقصينا دون أي ذنب اقترفناه.. اعتبر أنكم تقدمون لنا أحسن دليل على عدم تمثيلية المؤتمر." (11)

نلاحظ من هذا الاستشهاد أن عضو الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني لا يشير البتة إلى هذا الأخير وإنما يشير إلى غياب المنطقتين الأولى والخامسة. هل يعترف شخصيا أن حضور الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني كان قد لا يتوفر على نفس الصفات والحقوق التي تتمتع بها مناطق القتال للمشاركة في المؤتمر أو أن الأمر يتعلق فقط بالتنديد بعدم مشاركته بالتعرض إلى منظمي موعد الصومام حول ما يعتبره غياب المنطقة الخامسة أساسا؟.

على الرغم من أن طرح ابن بلة حول عدم تمثيل منطقة وهران ما كان إلا تمويها لعدم مشاركته، ينبغي التسليم بأنه أثار فيما بعد ردود فعل عديدة لدى قادة هذه المنطقة. لا نظن أنه يمكننا منطقيا مجادلة أن بن مهيدي، في وقت مؤتمر الصومام، كان فعلا قائد منطقة وهران. لاشك أن لا هو ولا خليفتيه المباشرين (بوصوف ثم بومدين) كانا من أبناء المنطقة. فمثلما لم نجادل بشأن ديدوش مراد ، المولود بالجزائر العاصمة كما الفنا هو مولود (في الحقيقة في منطقة القبائل) كمسؤول أول ـمحترم- على الشمال القسنطيني يسعنا مجادلة العربي بن مهيدي المولود بعين مليلة قرب قسنطينة، أنه عين في فجر الثورة كقائد أول على منطقة وهران. وحضوره في الصومام يعود لهذه الصفة وبهذه الصفة أيضا أعد هو ذاته التقرير حول الوضع في تلك المنطقة.

إذا لم تمثل منطقة وهران في المؤتمر بقادة آخرين فذلك راجع لكون المناطق الأخرى (باستثناء المنطقة الثانية(لم يكن لها إلا ممثل واحد وكذلك لدافع قاهر أخر استقيناه لدى شاهد هام جدا. هو عبد الكريم حساني الذي كان رفيق الصبا للعربي بن مهيدي ومحاربا في المنطقة الخامسة بالتأكيد ومستقبلا صهر القائد الأول لمنطقة وهران. حسب هذا الشاهد فإن ابن مهيدي هو من طلب شخصيا (12) من مساعديه (بوصوف وبومدين) عدم مرافقته لمؤتمر الصومام لأنه كان عليهما أن يتسلما شحنة هامة من الأسلحة كانت ستصل قرب الحدود المغربية عبر باخرة "أثوس" التي أبحرت من مصر والتي لم تصل أبدا إلى وجهتها لأن رباب البحرية الحربية الفرنسية حجزوها في 16 أكتوبر 1956 عندما كانت تستعد للالتحاق بالسواحل المغربية.

وعليه فإنه يبدو لنا أن حضور العربي بن مهيدي الذي لا يسع أحدا محاجته في صفته كقائد للمنطقة ينقض الطرح القاضي بأن منطقة وهران

لم تمثل في مؤتمر الصومام. كما أن هذا الطرح لا يخفي جيدا النية العميقة -ربما المشروعة- لمروجها الأول. الواقع أن ذلك الطرح غير المؤسس كان ينطوي على سخط رجل كان يعتقد -عن خطأ أو عن صواب- أنه كان محل إقصاء متعمد. فماهي الحقيقة بالذات؟ إن المؤلفات التي ذكرناها آنفا والشهادات التي حظينا بها تبعثنا على الاعتقاد بأن حضور ابن بلة في مؤتمر الصومام كان غير مرغوب فيه. ليس فقط من طرف عبان رمضان بل وكذلك من طرف العربي بن مهيدي العربي الذي، حسب علال ثعالبي، احتفظ بذكرى مريرة لشجاره بالقاهرة مع ابن بلة قبل أشهر.

لنذهب بعيداً، إلى أبع حتى نطوي صفحة الشجار الذي أثاره ابن بلة ليس بخصوص عدم تمثيلية مؤتمر الصومام -الذي لم يثر في الواقع احتجاجا جدّيا- وإنما بخصوص عدم مشاركته الشخصية. قيل أن عبان رمضان يكون قد وعده في الأول بزورق ليقوده من الساحل الإيطالي إلى الساحل الجزائري ثم أنه، بعد تقدير للخطر الناجم عن تلك المغامرة، طلب منه التوجه إلى ليبيا والتقدم إلى الحدود الجزائرية حيث كان سيجد المساعدة للالتحاق بالمؤتمرين. لا يسعنا أن نعاتب على المؤلفين ميلهم إلى التلاعب بالألفاظ بخصوص هذا الفصل فالأمر بالنسبة لنا يبين أنه لو كان ابن بلة يريد الذهاب إلى المؤتمر فقد كان بوسعه فعل ذلك لأنه كان يعرف البلد جيدا وأنه كان على الأرجح بإمكانه طلب المساعدة بالنظر لماضيه ولخبرته.

وخلاصة القول ما الذي كان يحول دون حضوره المؤتمر ولماذا لم يفعل ذلك بملء إرادته وبوسائله الخاصة؟

أن تكون النتائج مخالفة، كثيرون هم من كانوا يتخوفون من ذلك.

ما يجعل هذا الشجار مسخرة هو أن المؤتمر كان سيسمح بإنقاذ الثورة من الاختناق والخروج بها منظمة ومعززة ومهيكلة كإنجاز شعب كامل

وأمة جمعاء تم تحسيسهما حتى ينبعثا من جديد.و أن يجادل قائد أو أكثرحول نتائج المؤتمر بطريقة لا تخفي مشاعرهم الحقيقية -وربما نواياهم الخفية- لدليل آخر على البعد التاريخي لحدث فريد ميز المسيرة الطويلة للشعب الجزائري نحو حريته.

بخصوص أشغال المؤتمر في حد ذاتها، فقد بلغنا من مصادر غير مباشرة لكن مقربة من الفاعلين الرئيسيين، أنها تمت في ظروف جيدة، ولم يعكر شيء ما هدوءها. ولا حتى تمركز القوات الفرنسية في المنطقة بعد أن أخذت علما بالأحداث من خلال حادث بسيط عندما تاه بالقرب منها بغل كان يحمل كل الوثائق المتعلقة بالمؤتمر ولا غياب قائدي المنطقتين **1** و**2** . فقد تواصلت الأشغال على مدى عشرين يوما وتوجت بالمصادقة على سلسلة من القرارات والوثائق التي زودت الثورة الجزائرية بمؤهلات النصر فحسب وبل وكذلك بطابع تاريخي خاص.

لنتوقف الآن برهة من الزمن، عند عدد من المسائل التي تطرق لها المؤتمر والتي لم تسجل في محضره. فلقد نقلها شهود و هي ترمي أحيانا إلى إخفاء أهم ما ورد في المؤتمر.هذه المسائل تعلقت بوجه خاص بانتفاضة الـ20 أوت 1955 في الشمال القسنطيني و"الليلة الحمراء" للصومام وحول كمين ساكامودي (Sakamody).

لننظر بإيجاز إلى ما أسفرت عنه هذه المسائل من تأويلات مختلفة.

أول المسائل وهي التي لاتزال ومن بعيد تثير إلى يومنا هذا آراء متناقضة تماما.وسنترك جانبا تلك الفظاظة التي كثيرا ما تلازم النقاشات حول هذه المسالة.فغالبا، ما تحدث هذه الأمور مع الأسف كلما تم التطرق إلى المسائل الهامة وكأنه كان لزاما أن تفرض النزعة الإجماعية والامتثالية نفسها في كل ظرف وفي كل زمن ومكان عندنا. بحسب ما قيل لنا فإنه لا يبدو أن مؤتمري الصومام قد ناقشوا بنفس الحدة والإسهاب المسألتين التاليتين على عكس ما كتب.

ما الأمر؟ ينسب لعبان رمضان وكذا للعربي بن مهيدي أنهمـا أبـديا تحفظات بشأن عملية 20 أوت 1955 حيث عمل قادة المنطقة 2 على تعبئة سكان سكيكدة وضاحيتها ليلقوا بهم عزلا تقريبا ضد المعمرين وممتلكاتهم وقد انتهت العملية بمجزرة حقيقية.

حيث قتل مقابل 70 أوربيا 12000 شخص عـن الجانـب الجزائـري وذلك راجع إلى الرد المتفاوت والمشترك للمعمرين والعسكريين الفرنسيين الذين لم يبقوا على أحد(13) ويكون التحفظ الذي أبداه كل من رئيس المؤتمر وكاتبه العام اتجاه المسؤولين عن العملية قد تمحور حول ثلاثة نقاط:

- دفع سكان عزل إلى القتال، هو تعريضهم للخطر من غير أن تكون النتاج في مستوى تضحياتهم.
- على الصعيد السيكولوجي، فإن هذه العملية التي تتعرض للسكان المدنيين من الجانبين، لا تخدم الثورة التي حكم عليها مسبقا وعن خطـأ بأنها مغامرة متعصبة.
- الطابع المنفرد والمتميز للعملية جعلها تفقد العديد من المؤهلات العسكرية والسيكولوجية والسياسية التي كان بوسعها تحقيقها لـو أنـه تم تصورها وبلورتها وتنفيذها ثم في سياق أوسع.

بطبيعة الحال لا يشاطر منفذو عمليـة 20 أوت 1955 هـذا التأويـل الذي يقدم أحيانا كانتقاد صارم لتصرفهم. والواقع أنه ينم عن تقييم شجاع وحازم لمسيرة الثورة في كامل أبعادها. وأعطى بدورهم منفـذو عمليـة سكيكدة تفسيرهم الخاص. ولنستمع إلى أحدهم.

بالنسبة للأخضر بن طوبال الذي كان أحد مساعدي زيغود يوسف قائد المنطقة الثانية"، كان ينبغي الخيار بين الموت البطيء اختناقا أو كـسر القيود التي تكبلنا مهما كلف الثمن" (14). وبوضوح أكثـر فقـد تجلـى من استجواب من أصبح خليفة زيغود يوسف على رأس الولايـة الثانيـة

أن خمسة عوامل على الأقل ـ ثلاثة داخلية واثنان مرتبطان بتطور الوضع في تونس والمغرب. قد أثرت بعمق في قرار تفجير عملية 20 أوت 1955.

على الصعيد الداخلي كان هناك الرهان الرئيسي الذي كان السكان يمثلونه. نقل صاحب الاستجواب عمن كان قائده حينها أن " الثورة لا تلقى المساعدة اللازمة من السكان ويجب أن يتحول التعاطف الذي يظهرونه لنا إلى التزام حتمي لصالح الثورة. التآخي بين السكان الجزائريين والأوروبيين لا يمثل مجرد خدعة بل هو كذلك عامل تثبيط للهمم، يجب أن يزول الغموض". والحل كان موجودا : خلق هوة عميقة بين السكان، بالدم عند الاقتضاء، مما سيحمل الجالية الجزائرية إلى الانضمام إلى كل المحاربين وإلى المشاركة الفعلية والمباشرة في الكفاح.

لقد كانت عملية 20 أوت 1955 تهدف أيضا إلى تخفيف الخناق المفروض على منطقة الأوراس، بإرغام الجيش الفرنسي على فك قبضته وتحويل قواته إلى مناطق قتال أخرى. وذكر صاحب الاستجواب أن زيغود يوسف عانى كثيرا وتأثر لنداء النجدة الذي وجهه إليه محاربو الأوراس.

وفي الأخير، هناك هدف ثالث وهو بسيكولوجي وكان يتوخى توجيه ضربة قوية تهز المترددين بل وحتى أولئك الذين لم ييأسوا من فرض الحل المدعو بحل القوة الثالثة بما يعني بوضوح الوئام بين التشكيلات المعتدلة ومنتخبيها وفرنسا. لقد ذكرنا آنفا أن اتصالات تمت في أفريل 1955 بين مختلف المسؤولين الوطنيين الجزائريين والحاكم العام جاك سوستيل.

على الصعيد الخارجي كانت عملية 20 أوت 1955 تهدف من جهة للتذكير بالنزاع الجزائري واحتدامه، في حين أن تونس نالت استقلالها الداخلي بمناسبة خطاب منديس فرانس بقرطاجة في جويلية 1955 وكذلك للتعبير عن دعم الثورة الجزائرية للوطنيين المغاربة الذين حرموا من ملكهم محمد الخامس الذي نفي إلى فرنسا.

ومهما يكن فإن القرار الذي اتخذه زيغود يوسف ورفاقه بشن عملية واسعة ولو بإمكانيات سخيفة، ما كان ليخلو من المبررات سواء كانت هذه الأخيرة قد أدركت في حينها أو حددت فيما بعد. ويبقى ـ باعتراف المسؤولين عن هذه العمليةـ أنها " كلفت غاليا" على حد تعبير لخضر بن طوبال في الحديث المذكور.

السؤال الذي يمكن طرحه يتعلق بمعرفة ما إذا تم فعلا استخلاص العبرة من أحداث 8 ماي 1945. لقد بدا لنا أن الفرق النوعي بين المدبرين العسكريين لثورة الفاتح نوفمبر 1954 وأسلافهم في المقاومات أو الانتفاضات السابقة يكمن تحديدا في عدم تكرار أخطاء الماضي وأنهم لم يعرضوا البتة الجماهير الجزائرية للرد العنيف للقوات الفرنسية ذلك أن التضحية بالجماهير لم تكن بأية حال الوسيلة التي تحقق النصر لحرب الأنصار. وعلاوة على أنه لا ينبغي لقائد حربي أن يكون يقدر بجدية الوسائل المتوفرة لديه، لا سيما البشرية منها.

ما عسانا نقول في تفسير علي كافي، وهو شاهدنا الثاني وفاعل هام في عملية 20 أوت 1955 ؟ في حديث صدر في نفس العدد 1036 من جريدة "ألجيري أكتواليتي" (Algérie Actualité) حين اعتبر أن الفضل في هذه العملية يتمثل في أنها مكنت، من جهة، من استعادة الاتصالات مع الولايات الأخرى ومن جهة أخرى، من جهة، ومكنت من جهة أخرى من إدراج "القضية الجزائرية" في الأمم المتحدة بعد شهر من ذلك. قد تكون هذه الرواية مقبولة ونزيهة أكثر لو أن صاحبها أفصح عن اسم الشخص الذي كلف المبعوثين الثلاثة ـعمارة رشيد وسعد دحلب وإبراهيم مزهودي ـ بأداء المهام التي يشير إليها. فالسكوت عن اسم مكلفهم وهو عبان رمضان، لا يمثل الطريق الأنسب لسرد التاريخ الحقيقي.

أما عن إدراج "القضية الجزائرية" في الأمم المتحدة فمن غير الصحيح بل من باب المغالاة إسناد الفضل فيها لعملية 20 أوت 1955. إن طلب إدراجها في جدول أعمال الأمم المتحدة من طرف 14 دولة أفرو-أسيوية يعود إلى 26 جويلية 1955 (وثائق رسمية للأمم المتحدة 2924، ملحق 1 الدورة العاشرة). حتى أنه لا يمكن الحديث عن "إدراج" بأتم معنى العبارة فالأمر كان يتعلق بمجرد نقاش شكلي وإن لم يكن يخلو من الأهمية. فبمجرد الحسم في هذا النقاش، صوتت الجمعية العامة للأمم المتحدة على اللائحة (X 909) التي أوضحت فيها أنها " قررت عدم مواصلة دراسة النقطة المسجلة في جدول أعمالها بعنوان "القضية الجزائرية" وبالتالي فهي لم تعد معنية بهذه النقطة من جدول أعمال دورتها العاشرة" (15).

ويكمن المشكل الذي نواجهه لدى تقييم هجومات 20 أوت 1955 في تحديد فائدتها وأيضا في الظروف التي نفذت فيها هذه الهجومات والثمن الذي دفعه سكان الشمال القسنطيني. ويواجه النقاش اليوم أيضا حاجز التأويلات المختلفة التي تخلو من الرصانة والصدق والأمانة الضرورية لأي تحليل تاريخي. مع أن الأمر في مؤتمر الصومام كان يتعلق باستخلاص العبر من تلك الأحداث للتنبؤ بشكل أحسن بمجرى الثورة الجزائرية دون أن يمنعنا ذلك من إلقاء اللوم على أي كان حتى زيغود يوسف الذي كان وضعه كقائد يتمتع باحترام رفاقه. فقد كان "السيد النبيل" الذي لم يتوان في الاعتراف بالنقائص التي قد ترافق أي عمل يقوم به البشر بما فيهم هو.

وتم التطرق في ذات السياق إلى العمليتين الأخريين: عملية "الليلة الحمراء" للصومام وكمين ساكامودي. وتواجهنا هنا أيضا صعوبة تقييم العمليتين لحساسية الاعتبارات الأخلاقية التي تنتشر في ظل كل منهما، حيث تجاوزت الاعتبارات حدود النتائج العسكرية.

إن "الليلة الحمراء" للصومام تمثلت في قيام الجماعات التابعة لعميروش بتصفية عدد من سكان قرية ايون داقن الواقعة ببجاية. الحجج التي تم تقديمها لتبرير العملية بكل بساطة هي أن سكان القرية استجابوا لأوامر المسمى أورابح لصالح فرنسا وشكلوا تحت لوائه وحدة للحركة. إن تصرفا كهذا كان على درجة عالية من الخطورة ليس فقط بالنسبة لسلطة قادة جيش التحرير الوطني بل أنه كان يشكل حقا خطرا مميتا.

لم يبق أمام عميروش سوى إزالة هذا الخطر وبأية وسيلة! أصبحت عمليات الذبح طابعه الخاص، لا يهم إن كان ذلك بالذات ما أراده أم كان نتيجة تسلسل جهنمي لعمليات كانت كل واحدة أعنف وأشد وحشية من سابقتها.

مرة أخرى فإن من يذكر عنهما أنهما (أي عبان رمضان وابن مهيدي) تطرقا لهذه المسألة في مؤتمر الصومام لم يرغبا في الإدانة أو إلقاء اللوم وإنما أرادا فقط التنبيه للانعكاسات السلبية والخطيرة التي قد تنجر عن تسيير للحرب بمثل هذه الطرق.

لا يمكن تقييم عملية ما من خلال نتائجها الفورية والمحلية فقط بل يجب الأخذ بعين الاعتبار الوسائل التي تم اللجوء إليها والانعكاسات العديدة والمفاجئة التي قد تخلفها على المدى البعيد والتي قد تجاوز المنطقة التي شهدت الأحداث. ليس هناك أحسن من يلخص، بتلك القوة، وذلك المدلول التحفظات والمعارضة التي أبداها البعض إزاء العمليات العنيفة التي لجأ إليها عميروش كالرد العفوي الذي جاء على لسان شيخ من قرية بالقبائل الذي لم يتردد حين قال لمن أصبح بعد ذلك قائدا للولاية الثالثة:"بالنظر إلى وتيرة التصفيات التي تقوم بها فلن يبقى قريبا هنا إلا أنت والله".

أما العملية الثالثة التي تم انتقادها في مؤتمر الصومام فتتمثل في تلك العملية التي قام بها رجال كوموندوس علي خوجة في شهر فيفري ضد حافلة لنقل المسافرين وسيارتين على مستوى الممر الجبلي لساكامودي. وأصبح ذلك الرجل الفار من الجيش الفرنسي والذي أصبح ضابطاً برتبة ملازم أول من بين الذين يشهد لهم بالجرأة والبسالة بالمنطقة الرابعة. أسفر الكمين عن مقتل 8 أشخاص من بينهم امرأة وطفلة مما جعل التأثر يبلغ ذروته بأوروبا خاصة بسبب الضحيتين الأخيرتين. واستغل المستعمر أيما استغلال "وحشية الجريمة" متناسيا حتما أن القنابل والنابالم التي استعملتهما القوات الفرنسية لا تفرق بدورها بين ضحاياها. لقد قامت قبيل تلك العملية بتدمير وحرق قرى بأكملها. طبعا لا يمكن لجريمة يتم اقترافها ضد ضحية بريئة أن تكون مبررا لجريمة أخرى من نفس النوع فقط من أجل الثأر. ليس هنا ك ثمة حرب نقية ولا حتى تلك التي دارت رحاها بالجزائر. لذا لم تكن محاولات المجتمعين بمؤتمر الصومام إلا لتزيدهم شرفا على شرف حين أرادوا تفادي الأسوأ أي الامتناع عن الثأر من أي كان، نساءً وأطفالاً وشيوخاً. لم يتم انتقاد الكمين فقط بدافع أخلاقي، وهو ليس بالأمر الهين في حرب يقتل فيها الجميع دون تمييز، بل وكذلك جانب الفعالية العسكرية والبسيكولوجية.

ما انفكت جبهة التحرير الوطني تنادي وتعمل على تفكيك النظام الاستعماري فقط دون الاعتداء على السكان المدنيين بالرغم من أن القوات الفرنسية استهدفت أساسا منذ البداية السكان المسلمين. كانت تلك القوات تجد صعوبة كبيرة في مراقبة الرجال الذين التحقوا بالجبال لسخطهم على الممارسات المميتة للجيش الفرنسي. من الصعب كتم الغضب والغيظ حين يتم إلحاق الأذى بذوينا بتلك القسوة ودون تمييز. لكن وبالنسبة للمجتمعين بمؤتمر الصومام الذين كانوا يفكرون بهدوء لم تكن تلك

العمليات "مجدية" لأنها لم تكد تحدث أي أثر على الصعيد العسكري غير أن أثرها البسيكولوجي كان يتمثل في الرغبة في التقليل من شأن كفاح الشعب الجزائري. ولهذا لم يبق أمامهم سوى إرسال توصيات للقادة المحليين كي لا يهملوا هذا البعد وكي يتحلوا ببصيرة أنفذ لدى اختيارهم لخططهم والأعمال الواجب القيام بها.

وعموما وإن كانت دراسة العمليات الثلاث التي تطرقنا إليها لم تنبع إلا من باب مسؤولية عالية أبداها الذين تطرقوا إليها بمؤتمر الصومام لتفادي انسياق حرب التحرير نحو إفراط من شأنه أن يضر بها أكثر مما يخدمها فإنه من النادر أن نجد رجالاً تقبلوا الاعتراف علناً بالنقائص والتجاوزات التي انتابت أعمالهم بها حتى وإن كانوا على قناعة وبعد كل عملية بأنه كان يجدر بهم التصرف بشكل مغاير.

لقد تحجج بعض المؤلفين بالنقاشات التي سادت حول هذه المسائل الثلاث بمؤتمر الصومام كي يسجلوا أدنى الانتقادات الموجهة لعبان رمضان. لا تتوفر لدينا أية شهادة مباشرة تؤكد إن كان عبان رمضان قد تجرع بمفرده (مع العلم أن ابن مهيدي اغتيل بعد أقل من ستة أشهر من انتهاء أشغال المؤتمر) كل الحقد و العداوة اللذين صدرا عن مسؤولي المناطق التي شهدت العمليات الثلاث. ولنذكر فقط لتوضيح تسلسل الأحداث المتشابكة، بأن من بين الحاضرين في مؤتمر الصومام ثلاثة قادة فقط شعروا بأنهم معنيين مباشرة باختلاف الرؤى حول تلك العمليات الثلاث: كريم بلقاسم قائد المنطقة الثالثة التي شهدت "الليلة الحمراء" للصومام تحت قيادة عميروش ولخضر بن طوبال مساعد زيغود يوسف الذي شارك مباشرة في اندلاع ومجرى هجومات 20 أوت 1955 بالشمال القسنطيني وأخيرا أوعمران باعتباره رئيس المنطقة الرابعة التي شهدت تنظيم وتنفيذ كمين ساكامودي. لم يكن بوسع أي من القادة المعنيين

الانفصال عن المسؤولين عنهم ولا عن الطريقة التي جرت بها العمليات الثلاث مهما كانت حالاتهم النفسية هذا في حالة ما إذا مروا بحالات نفسية. ولنذكر أيضا بأن القادة الثلاثة شغلوا مناصب عليا إلى نهاية حرب الجزائر.

وكي نختم هذه النقطة التي لم تشكل، حسب كل الشهادات، أهم جزء من أشغال مؤتمر الصومام لا يمكننا أن نتغاضى عن الصلة التي أبرزها إيف كوريير في مجلة "هيستوريا ماغازين" بين العلاقات الشخصية التي سادت مؤتمر الصومام. ففي عددها الـ218 أفادت المجلة بأن "ابن طوبال لم يخف عن المقربين منه بأنه كان يشعر ببعض النفور اتجاه عبان. وعلى الصعيد الشخصي فإنه يعتبره متسلطا جدا و"مزعجا" وهو الإحساس الذي انتاب أيضا عميروش الذي أطلع كريم بلقاسم على هذا". وأضافت المجلة أن "زيغود يوسف الذي يعتبر رجلا متبصرا ومتحفظا رفض المشاركة في الانتقادات التلقائية التي أبداها مساعده اتجاه عبان غير أنه وافقه من الجانب السياسي".

إذا كانت التصريحات التي نقلتها المجلة صحيحة ونعتقد أنها استقتها من مصادر موثوقة بالنظر إلى المساعدة التي قدمها العديد من المسؤولين الجزائريين لإيف كوريير. فلا يسعنا إلا أن نقلق للآثار التي خلفتها تلك المشاعر. أما الآن، لنركز على النتائج التي ذكرهت قليل من الرجال بمؤتمر الصومام. وبالنسبة لحكم التاريخ فما يهم هو النتائج التي هي أكثر بكثير من العداوات الشخصية التي خلفت بعض الانشقاقات في الصفوف. وليس هناك ما يبرز هذه النتائج أحسن من الوثائق الرسمية التي حررت بشأنها.

البعد التاريخي لمؤتمر الصومام

لا يمكننا، من زاوية التاريخ الشامل، الحكم على مؤتمر الصومام فقط من خلال الأشخاص الذين شاركوا أو لم يشاركوا فيه ولا بالنظر إلى الجماعات التي تكونت أو لم تتكون فيه ولا حتى من خلال الإيديولوجيات التي كانت تتقاسم العالم آنذاك وإنما بالنظر فقط إلى التساؤل المزدوج المتمثل في معرفة كيف استجاب مؤتمر الصومام للحاجيات الماسة والعاجلة للثورة أولا ثم كيف تمكن من رسم معالم جزائر الغد؟ بعبارة أخرى هل ضمن مؤتمر الصومام إنتصار الثورة وكيف ترك أثره على تاريخ الجزائر المستقلة؟

1) البعد المباشر لمؤتمر الصومام

في البداية، سطر منظمو مؤتمر الصومام، جماعيا، هدفين أساسيين:

- تعزيز الثورة المسلحة.
- تزويد الثورة بقيادة وطنية .

1- تعزيز الثورة المسلحة

"كلنا من أجل جبهة الثورة المسلحة" . كان هذا النداء الذي إختتم به عبان رمضان إفتتاحية العدد الثالث من يومية "المجاهد" في سبتمبر 1956 (تقريبا) والذي تناول لأول مرة مسألة أشغال مؤتمر الصومام، كان وحده معبرا للغاية ويعني الكثير حول النفسية التي سادت اللقاء بل، وبخاصة، حول القرارات التي إتخذت خلال اللقاء:

كتب عبان رمضان يقول: "ها هو باب جديد من الثورة الجزائرية يفتح وستتسع رقعة كفاحنا الآن وقد أصبح جيش التحرير الوطني جيشا حقيقيا

يتمتع بشخصية قائمة وبقيادة سامية وحيدة يتواجد مقرها في مكان ما في الجزائر وبزي عسكري ونياشين ورتب ...الخ. وأعيد تنظيم مصالحه (الاتصالات والاستعلامات والمحافظات السياسية ...(1))".

هل من المبالغة القول أن الأمر يتعلق بميلاد حقيقي لجيش التحرير الوطني؟ يجب فهمنا جيدا. فالأمر لا يتعلق بتشييد مقام على شرف مؤتمر الصومام ولا بالبحث عن تمجيده بالقول بأن كل ما جرى نابع منه ولا حتى بالقول أن مؤتمر الصومام كان من بداية الثورة الجزائرية إلى نهايتها، ذروتها. الأمر مغاير تماما وإنما يجب فقط إعطاء كل ذي حق حقه". لا يمكن أيضا أن ننكر بأن لقاء الصومام التاريخي هو الذي رقى المجموعات الصغيرة التابعة لجيش التحرير الوطني إلى مصف جيش مهيكل ومنظم تسيره قواعد تستلهم مصدرها من كل جيوش العالم. فلنرجع الى محضر المؤتمر لكي ندرك أهمية القرارات التي تخصه.

-التقسيم الاقليمي:

مؤتمر الصومام هو الذي قام بالتقسيم الاقليمي للجزائر بإحداث ست (06) ولايات -وليس مناطق- بقيت حتى الاستقلال. ويكتسي هذا التقسيم أهمية بالغة باعتباره وضع حدًا للاحتجاجات التي كانت قائمة قبل ذلك بين مختلف المناطق. كما كان له الفضل الكبير في إعداد خريطة عسكرية حقيقية للجزائر من خلال رسم معالم كل ولاية مع توضيحات جغرافية دقيقة شأنها في ذلك شأن أكبر قيادات الأركان. فلنحكم من خلال ما يلي:

الولاية الأولى: أوراس النمامشة: تحددها قائمة للمدن أو النقاط الجغرافية.

الولاية الثانية: الشمال القسنطيني: تحددها أيضا قائمة للمدن أو النقاط الجغرافية.

الولاية الثالثة: منطقة القبائل: تحدد معالمها قائمة للمدن أو النقاط الجغرافية.

الولاية الرابعة: منطقة الجزائر(مع التوضيح بأن مدينة الجزائر والبلديات المجاورة لحسين داي والقبة والأبيار وبوزريعة وبئر مراد

رايس وسانت أوجان غير تابعة للمنطقة رقم 04 (الولاية الرابعة) وتشكل منظمة مستقلة ستعرف فيما بعد بالمنطقة المستقلة للجزائر.

الولاية الخامسة: منطقة الغرب: حدودها: عمالة وهران.

الولاية السادسة: الجنوب الجزائري: حدودها: بيردو وبوغار والبرواقية .وبئر غبالو وعين بسام ومن الجوانب الأخرى الصحراء الجزائرية (العاصمة).

كما يوضح المحضر أن مدينة سطيف "تابعة للولاية الثالثة (منطقة القبائل) ولكن تنظيم مدينة سطيف سيسعى لتقديم خدمة للمنطقتين الأولى والثانية.

وتشمل الولاية بدورها مناطق مقسمة هي الأخرى إلى نواح مقسمة بدورها إلى قطاعات. وينبغي أن يتوفر كل هيكل إقليمي على مركز قيادة خاص به.

2. تنظيم جيش التحرير الوطني

لم يكن التقسيم الاقليمي وحده يحظى باهتمام المؤتمرين. فالمكافحين مقسمين الى خمس وحدات: وتتكون نصف المجموعة التي هي أصغر وحدة من 04 مكافحين تحت قيادة عريف وتتكون المجموعة من 11 مكافحا من بينهم رقيب وعريفين. وتضم الفصيلة 35 رجلاً يضاف إليهم رئيس الفصيلة ونائبه. وتأتي بعد ذلك تشكيلتان بعدد كبير من الأعضاء: السرية التي يصل عدد أعضائها إلى 110 أفراد والكتيبة التي تضم 350 مكافحاً: أي ما يعادل ثلاث سريات يضاف إليها عشرون إطارا.

إن كل المشاكل ذات الصلة بتسيير هذا النوع من الجيوش، كانت موضع إهتمام كبير وتمت تسويتها بدقة. وكذلك الشأن بالنسبة للتحولات التي تخص كل الدرجات والرتب التي تم تأسيسها بالإضافة إلى تلك التي كانت موجودة في منطقة القبائل، في كل الولايات، وحتى الرواتب والمنح العائلية التي قررت لفائدة المكافحين وعائلاتهم. كما كانت

التعيينات والعقوبات من صلاحيات لجنة التنسيق والتنفيذ (لجبهة التحرير الوطني) بالنسبة للضباط الذين لا تتعدى رتبتهم العليا رتبة عقيد الى غاية إستقلال البلاد (وحتى بعد أزيد من عشرين سنة) وكذا من صلاحيات قائد الولاية بالنسبة لضباط الصف وأخيرا من صلاحيات قائد الناحية بالنسبة للعريف.

من بين القرارات الأخرى بالغة الأهمية في مجال القيادة والتي لا تزال حتى اليوم مستعملة على مستوى المصطلح أكثر مما هي مهمة على مستوى تطبيق الثورة الجزائرية عبارة القيادة الجماعية. فهي قائمة على أساس المبدأ القاضي بضرورة " الاحترام الصارم للأجهزة المتداولة تجاهها".

قرارات أخرى تخص جيش التحرير الوطني:

أ- أولوية الجانب السياسي على الجانب العسكري: كثيرا ما أسيء فهم هذا المبدأ من خلال التأويلات العديدة والمغرضة وحسب ما قيل لنا، فإن هذا المبدأ لم يكن بجديد لأن جذوره مستمدة من عهد المنظمة الخاصة حيث تم التسليم، بلا جدل على ما يبدو، أن الاعتبارات السياسية كانت تطغى على الاعتبارات العسكرية، وبعبارة أخرى، أن الأجهزة التي تسمى بالسياسية تتمتع بالأولوية على حساب الأجهزة العسكرية في حالة الفصل في قضية مهمة.

فالتأويل الاكثر خطورة أدى بالعديد من القادة، ربما عن حسن نية، إلى الإعتقاد بأن هناك تمييز بين المسؤول السياسي والمسؤول العسكري وأنه بالتالي أصبح للأول الأولوية على الثاني أو أنه يرأسه. لا ندري كيف تجذّر هذا اللبس في كثير من الأذهان. صحيح أن محضر مؤتمر الصومام لم يكن مستوفيا بخصوص هذه النقطة وعلى عكس نقاطا أخرى، فلم يكن مفصلا وبما ذلك ما أدى إلى ضرب الثورة اللهم إلا إذا كانت الانتقادات اللادغة المتبادلة والمنصبة على القادة الذين كانوا يعيشون

في الخارج ومع قروب إستقلال البلاد، قد جعلت حاملي السلاح يشعرون بأنهم أقوى فسعوا بالتالي لتحويل فحوى التقرير لصالحهم.

قد يبدو لنا المبدأ على صيغته التي عرض فيها في مؤتمر الصومام سليما، بالرغم من أننا نرى أن صياغته كانت وجيزة نوعا ما، إلا أنه ما فتئ يشكل نقطة خلاف بين حاملي السلاح والذين كانوا مجردين منه. وسرعان ما تبين في الواقع أن الجانب السياسي ليس هو الذي يمسك بزمام الأمور وإنما على العكس من ذلك. أن تسيء إلينا هذه الملاحظة أو أن نجدها حتمية أملتها ظروف الحرب، الحق المهضوم أولا من طرف المستعمر حيث لم يكن شكل الإنشغال الرئيسي، لا يغير شيئا في الوضع. لنقبل إذن رغم ذلك بأن مؤتمر الصومام لم يتوان في سن أكثر القواعد وجاهة وإنصافا والمصادقة عليها وبأن التجسيد المخالف على أرض الواقع لا ينقص شيئا من القيمة المعنوية لتلك القواعد.

ب- أولوية الجانب الداخلي على الجانب الخارجي: في هذا المقام أيضا كان لنقص التفسير وربما حتى لغياب الإجماع، أن هنا المبدأ المطروح أثار بروز مشاكل خطيرة أكثر من المبدأ السابق. صحيح أنه أكثر غموضا بالنظر للصياغة ولتداعياته المختلفة. وإذا كان جليا أن الرجل السياسي يتميز على الرجل العسكري أو بعبارة أخرى -من أجل طرح أنسب للنقاش وإستعادة المعنى الاول والأساسي للمبدأ- أن الأولوية للجهاز السياسي على الجهاز العسكري، فإن الأخذ بمقياس الجانب الداخلي والجانب الخارجي لا يفسر أبدا تشابك الأوضاع. "سياسيون" وعسكريون" كانوا داخل التراب الوطني وخارجه . الواقع أنه لعل منظمي مؤتمر الصومام كانوا يريدون طرح القاعدة القاضية بفرض المقتضيات المرتبطة بالوضع الداخلي على أولئك الذين قد يبرزون على الساحة الخارجية.

كما نستبعد التفسير -الذي يتنافى وروح أجهزة الثورة وكفاءاتها- الذي ظهر هنا وهناك وفي بعض الاحيان، من بعض القادة والذي مفاده أن قيادة الثورة تعود الى الذين يخوضون الكفاح بالداخل، بما في ذلك وعند الاقتضاء في حالة بروز خلافات مع الإدارة أو الأجهزة المتواجدة في الخارج. في البداية، لم نكن نرغب في فتح المواجهة بين عبان رمضان وبن بلة للخوض في نقاش شخصي بل وحتى -في حدود نهاية سنة 1958- بين عقداء الداخلية بالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية والقيادة العسكرية الخارجية التي أصبحت فيما بعد قيادة الأركان.

ما كان لمبدأ أولوية الجانب الداخلي على الجانب الخارجي إلا أن يؤول إلى الاضمحلال التدريجي والتام. أولا نتيجة الغموض الذي ظل يميزه منذ المصادقة عليه، خاصة منذ مارس 1957 حيث اضطر الجهاز التنفيذي للثورة (لجنة التنسيق والتنفيذ التي نصبها مؤتمر الصومام)، في خضم "معركة الجزائر" إلى مغادرة العاصمة الجزائرية والتراب الجزائري حتى لا يعرف نفس المصير الذي عرفه أحد قادته الخمسة وهو العربي بن مهيدي الذي أوقف ثم أغتيل من قبل القوات الفرنسية.

فإضافة مبدأ "القيادة الجماعية" للمبدأ المنصوص لم تكن لتجعله أكثر وضوحا وما كانت لتشجع على قبوله. من الواضح أنه بقدر ما فرض مبدأ أولوية الجانب السياسي على الجانب العسكري بقوة بقدر ما زاد مبدأ أولوية الجانب الداخلي على الجانب الخارجي-حتى وإن تم تصحيحه أو التخفيف من حدته مع مبدأ القيادة المشتركة- في تعزيز الغموض وحتى الشكوك إذا ما أخذنا في الحسبان عدم تطبيق المبدأ الأول.

كما ينبغي الإشارة إلى قرارات أخرى للمؤتمر بالنظر إلى وقعها المباشر:

يتعلق القرار الأول باستئناف "مبادرة العمليات العسكرية بأي شكل من الأشكال..." ذلك ما أوضحه عبان رمضان في الافتتاحية التي رجعنا إليها حين كتبنا أن "كفاحنا سيشهد وتيرة جديدة". فعمليات إعادة تنظيم جيش التحرير الوطني والتقسيم الإقليمي وإنشاء قيادة موحدة لم تكن تعني سوى تعزيز الكفاح المسلح من خلال حمل المقاومين على الهجوم. وحسب شهادة عقيد في جيش التحرير الوطني، فإن المراحل القوية في تاريخ جيش التحرير الوطني كانت ابتداء من مؤتمر الصومام، وإن "سنوات المجد" لهذا الجيش منحصرة بين سنتي 1956 و1958 .

قد جعل مؤتمر الصومام من أول نوفمبر يوما يحتفل به ليصبح فيما بعد يوم العيد الوطني للجزائر كما وضع مبدأ الإضراب العام كوسيلة كفاح وأبقى على مقاطعة المدارس الفرنسية.

القرار الثاني الذي أسال كثيرا من الحبر والدماء يتمثل في استتباب سلطة الثورة في منطقة الأوراس حيث جعل موت مصطفى بن بولعيد، المنطقة تغوص في دوامة من العصيان والمنافسة بين المترشحين للخلافة. واضطلع عميروش الذي كان محاطا بلجنة تتكون من العديد من مواليد المنطقة، بمهمة رئاسة المؤتمر.

أما القرار الثالث والأخير الذي لم يتم التطرق إليه إلا نادرا بالرغم من أهميته، فهو القرار الذي ساهم في إحلال العدالة عسكرية داخل جيش التحرير الوطني. فهذا القرار جدير بأن يعرف به بشكل أحسن لأنه يبرز تمسك المؤتمرين بروح العدالة. فالقرار يتمحور حول أربعة عناصر كانت تمثل الرد الشجاع لواقع معاش في بعض الفترات وإن أثارت جروحا يتعذر التئامها.

يتمثل العنصر الاول للصرح القضائي في إنشاء المحاكم. وورد في محضر مؤتمر الصمام أنه "لم يعد لأي ضابط كان، مهما كانت رتبته،

الحق في إصدار حكم الإعدام". فمحاكمة المدنيين والعسكريين ستصدر فقط من المحاكم المخولة وحدها لإصدار الأحكام. فلنتذكر جيدا بأن هذا الحكم من نتائج مؤتمر الصومام لأنه يكتسي أهمية بالغة إذا ما حاولنا يوما، إكراما لعظمة ثورتنا، تسليط الضوء على ما حدث لعبان رمضان. لكن القرار في حينه ذا بعد عميق ليس لكونه وضع حدا لعمليات إعدام بلا محاكمة -مع العلم أنه لا يمكننا إثبات ذلك- بل لأنه أسترعى للنظام أولئك الذين كانوا ينصبون أنفسهم قضاة دون تقديم أدنى الضمانات.

ذلك أن تشكيل المحاكم، أو منع عمليات الإعدام المنعزلة، أرفقته إجراءات رحب بها السكان الذين أرعبتهم بعض الاغتيالات. يتعلق الأمر خاصة بالذبح- الذي بات بموجب الحكم الصادر عن المؤتمر "ممنوعا منعا باتا في المستقبل" والاعدام رميا بالرصاص، بالنسبة لمن حكم عليهم بالاعدام، الذي حل محل الذبح الذي كان شائعا في منطقة القبائل. كل النعوت لا تكفي لإدانة ذلك الأسلوب الذي أدى بالكثير من القرويين الذين هم قدوة في النضال في الحركة الوطنية إلى إدارة ظهورهم لثورة التحرير الوطني وحتى أنه أدى بالبعض، -يجب أن تكون لدينا شجاعة الاعتراف بذلك- إلى اللجوء إلى الجيش الفرنسي بحثا عن الحماية وهروبا من قطع رقابهم.

لأن في أبدا مؤتمر الصومام قدره من الإعتراف بفضائله بخصوص هذه النقطة ونقاط أخرى حيث أنه صوب جهوده نحو أنسنة الحرب إذ أكد " "حق المتهم في اختيار دفاعه" وأن "التنكيل ممنوع قطعا، مهما كانت الأسباب". روح عالية من المسؤولية تقاسمها الكثير من القادة العظماء أمثال زيغود يوسف الذي قال عنه أحد رفقائه أنه كان شهما ورحيما وكريما إلى درجة أنه كان يعفو حتى على الجرائم الثابتة على مرتكبها الذي كان يعتزم التكفير عنها. لكن صحيح أيضا أن كثير

من قادة الحرب وخاصة في منطقة القبائل من كان يرى أن الرعب وحده كفيل بتحسيس السكان أو المترددين. ثمة خطوة واحدة كانت تفصلهم عن ذلك الفكر المانوي المتطرف الذي كانوا لا يرون فيه سوى "الوطنيين أو الخونة" وسرعان ما اجتازوها لسوء حظ المنطقة التي تعرض العديد من أبنائها لميتة جائرة بقدر ما كانت فظيعة.

وفي سعيه لأنسنة قواعد تدبير شؤون الحرب ، لم يقتصر مؤتمر الصومام فقط على المتهمين الجزائريين، مدنيين كانوا أم أعضاء القوات المحاربة، بل ارتقى بحلمه إلى درجات أعلى حيث منح أسرى الحرب قانونا مطابقا لاتفاقيات جنيف قبل أن تفعل فرنسا ذلك، في حين لم تتردد السلطات الاستعمارية في اللجوء إلى المشنقة الرهيبة التي قطعت رؤوس عشرات المحاربين.

هكذا، وبشأن أسرى الحرب، أكد مؤتمر الصومام في نتائجه أنه "يمنع منعا باتا إعدام أسرى الحرب". وأنشأ على مستوى كل ولاية مصلحة خاصة للتكفل بهم وكذا من أجل "تعميم الطابع العادل لثورتنا". على الرغم من بعد النظر وروح المسؤولية اللذين طبعا اتخاذ القرارات السالفة الذكر، سواء كانت ذات صلة بتعزيز الثورة المسلحة أو بانسنة تلك الثورة، فلربما لم تكن لتغير وجه الحرب ومجراها لو لم يكفل المؤتمر للثورة الجزائرية تلك القفزة النوعية التي ميزتها عن كل المحاولات السابقة الرامية للتخلص من الهيمنة الفرنسية. نقصد هنا تشكيل مؤتمر الصومام أجهزة لقيادة الثورة.

3. أجهزة قيادة الثورة

كل الذين كتبوا عن فن الحرب يجمعون على أنها لا تقتصر على حشد القوى بمختلف أشكالها بل تتعداه إلى تنظيمها وتشكيلها وربما، وبخاصة، قيادتها. في الجزائر التي شكلت قطيعة مع الثورات السابقة ضد الوجود الفرنسي، فإن الكفاح الشعبي لم يعد خاضعاً لقائد واحد مهما كان باسلا

وشجاعاً وإنما للأجهزة القيادية، وتلكم هي القفزة النوعية التي كرست الانتقال من قيادة خاضعة لرجل واحد الى قيادة تتكون من أجهزة يشرف عليها قادة عديدون.

الفضل في بلوغ تلك القفزة النوعية يرجع لمؤتمر الصومام الذي عزم ـطوعا أو بدافع المنافسات القائمة ـ على تزويد الثورة بقيادة جماعية بدلا من حصر مصيرها بيد رجل واحد قد يختفي في أي لحظة.

تم تصور الجهازين اللذين وضعهما مؤتمر الصومام بطريقة كفيلة بالتوفيق بين الطابع الجماعي والفعالية بالاضافة الى تمثيل أوسع للحساسيات الجزائرية مع منح الأولوية للجناح الأكثر رادكالية. لقد أثارت تشكيلتهما وصلاحياتهما ـولا تزال تثير ـ جدلا كبيرا لدرجة أننا إرتأينا ضرورة تقديمهما. فلم ينج الجهازان من الانتقادات ولا حتى من التهكم.

أ.المجلس الوطني للثورة الجزائرية

كان المجلس الوطني للثورة الجزائرية يتكون من 34 عضوا 17 دائما و17 إضافيا.

فيما يلي قائمة هؤلاء الأعضاء كما أوردتها جريدة "المجاهد" الصادرة ـربما ـ في نوفمبر 1956:

الأعضاء الدائمون:

1) حسين آيت أحمد
2) عبان رمضان
3) عباس فرحات
4) بوضياف محمد
5) مصطفى بن بولعيد
6) بلقاسم
7) أحمد بن بلة

الأعضاء الإضافيون:

1) عيسى
2) لخضر بن طوبال
3) عبد الحفيظ بوصوف
4) محمد بن يحيى
5) سليمان دهيلاس
6) أحمد فرانسيس
7) محمد السعيد

8) العربي بن مهيدي	8) إبراهيم مزهودي
9) رابح بيطاط	9) مولود
10) خيدر محمد	10) علي ملاح
11) كريم بلقاسم	11) مراد
12) الأمين دباغين محمد	12) أحمد محساس
13) مقران	13) مهري عبد الحميد
14) أوعمران عمار	14) السعيد
15) توفيق المدني	15) الصادق
16) يزيد أمحمد	16) الطيب الثعالبي
17) زيغود يوسف	17) الزوبير

اتبعت قائمة هؤلاء بالتوضيحات التالية: "الأخوان ابن بولعيد مصطفى وزيغود يوسف سقطا في ميدان الشرف" و"الأخ ابن مهيدي العربي أغتيل علي يد الجيش الاستعماري لماسو(Massu)" و"الإخوة بلقاسم ومقران وعيسى ومولود ومراد والسعيد والصادق والزبير مجهولون لدى مصالح الشرطة(4)".

تعرض المجلس الوطني للثورة الجزائرية في تشكيلته الأولى لانتقادات كثيرة وهناك اليوم من لا يزال يذكر بهذه الانتقادات الشديدة وبتهكم. لقد عيب على المشرفين على تشكيل المجلس أمران إثنان.

الواقع أن عبان رمضان هو المقصود الرئيسي بهذا الانتقاد حتى وإن كان للأعضاء الأربعة الآخرين الذين شاركوا في مؤتمر الصومام مسؤولية في تشكيلة المجلس. يتمحور الإنتقاد الأول حول وجود عناصر يقال أنها معتدلة على أساس التشكيلات التي انحدروا منها وتتعارض مع الصناع الحقيقيين لانتفاضة الفاتح نوفمبر 1954 دون أي تمييز بين "المركزيين" وعناصر معتدلة أخرى شملها نفس الرفض. فالذين نددوا

بوجودهم داخل المجلس الوطني للثورة الجزائرية أبدوا كثيرا من التحفظات حين انضمامهم غالى جبهة التحرير الوطني وكان انضمام نفس هذه العناصر إلى الجهاز الأعلى للثورة أمرا لا يطيقونه فأشاروا إلى الخطر الذي قد تمثله هذه العناصر كما فعل ذلك ابن بلة أمام الملأ وبكل شدة حيث كتب في رسالة موجهة الى الهيئة التنفيذية لجبهة التحرير الوطني:

"...كانت هذه القرارات (القرارات العامة لمؤتمر الصومام) مرفوقة بقرارات أخرى تكرس وجود عناصر داخل أجهزة قيادية للجبهة وهي عناصر على ضلالة حقيقية بالنسبة للمبادئ المقدسة لثورتنا وإذا ما لم نحتط لهم، وأنا أعي ما أقول، سيعملون على قطع عنقها (الثورة) إلى الأبد (5)".

فأحمد بن بلة لم يكن الوحيد الذي يفكر بهذه الطريقة ويرى البعض في هذا التنديد إرادة صناع الثورة في الاحتفاظ بالسيادة على مستوى مراقبة الثورة ورغبتهم في تفادي أن يجتني هؤلاء الذين كانوا يتهمونهم علنا بالإنتهازيين، ثمار النصر.

يخص العتاب الثاني وهو تكملة للأول، إنزال المكافحين الحقيقيين إلى رتبة أعضاء إضافيين في المجلس الوطني للثورة الجزائرية. فالرافضون لمؤتمر الصومام عارضوا بشدة إدماج العناصر المعتدلة في صفوف الثورة وبلوغهم مراتب سامية مقارنة مع أولئك الذين يشرفون على شؤون الجبال كما أنهم نددوا بالمساواة بين "المركزيين" أمثال ابن خدة ويزيد و"المعتدلين" أمثال فرحات عباس وتوفيق المدني الذين تحصلوا على صفة الديمومة في المجلس الوطني للثورة الجزائرية مقابل مسؤولي الجبال الذين هم ابن طوبال نائب قائد الولاية الثانية وبوصوف قائد كامل العضوية للولاية الخامسة وأخيرا محمدي السعيد قائد مرسم للولاية الثالثة الذين عينوا أعضاء إضافيين فقط في الجهاز الأعلى للثورة.

يبدو الانتقاد للوهلة الأولى، وجيها وله ما يبرره. هل أن مؤتمري الصومام الخمسة -من بينهم 3 عقداء مرسمين ويمارس البعض منهم قيادة مباشرة- افتقروا للحس السيكولوجي ليتصرفوا بهذه الطريقة من خلال ترسيمهم في سلم ثانوي قادة عسكريين يتحملون العبء الكامل للحرب لفائدة عناصر مدنيين، محل جدل، احتلوا الصف الأول؟

الانسياق وراء هذا الاحتمال قد ينم برأينا عن سوء معرفة لمستوى الوعي وخاصة الدوافع العميقة للمؤتمرين الخمس. فيجب إعادة وضع تشكيلة اللجنة الوطنية الأولى للثورة الجزائرية في سياق ذلك الوقت وخاصة بالنظر إلى التحديات التي كان يتوجب على الثورة الجزائرية مواجهتها.

لا ينبغي أن ننسى بالفعل أن مؤتمر الصومام كان نتيجة وثمرة مسار طويل ومضن بقيادة عبان رمضان أساسا الذي دفع ثمن ذلك، لأنه جمع كل القوى الحية للبلاد. فإذا رأى البعض ان التشكيلات المعتدلة التي ينتمي اليها "المركزيون" أمثال ابن خدة ودحلب ويزيد وتمام وعيسات إدير وغيرهم والمعتدلين أمثال فرحات عباس وأحمد فرانسيس والعلماء أمثال توفيق المدني ومزهودي إبراهيم لا ينتمون إلى القوى الحية للأمة، فكل حسب ضميره لكن هذا لم يمنع من وجود قادة آخرين بجبهة التحرير الوطني، لا يليق التشكيك في كفاحهم و لا في تشددهم مع فرنسا، قد اعتبروا -وشهد لهم التاريخ بسداد الرؤية- أنه كان من باب التوهم تصور "القضاء على النظام الاستعماري من دون تحقيق أكبر قدر ممكن من وحدة الصف الجزائري . عبان رمضان، صاحب الفضل في لم الشمل، كان منطقيا أكثر من أي قائد آخر في جبهة التحرير الوطني وكان على قناعة راسخة بأنه ليس من سبيل للخلاص غير ذلك السبيل.

ذلك ما يفسر دخول المركزيين والمعتدلين في الدواليب الرئيسية لجبهة التحرير الوطني كتكريس لسنتين من الجهود إذا اقتصرنا النظر على وقت الثورة وحده.

قال أحد الشهود أن جمع هذا أو ذاك في المجلس الوطني للثورة الجزائرية لم يكن في ذاته مهماً بقدر ما كان يهم ما يوجد وراء ذلك الشخص وما يمثله وما قد يقدمه. فلنذكر على سبيل المثال توفيق المدني لتوضيح ما يعنيه اسمه في نظر العديد من الجزائريين الذين شاطروا وجهات نظر جمعية العلماء المسلمين الذي كان من مؤسسيها الرئيسيين.

لا ينبغي أن ننسى أيضا أن المجلس الوطني للثورة الجزائرية، بصورته وتشكيلته، كان يسعى ليكون المرآة العاكسة لتمثيل الأمة الجزائرية كلها أي أنه كان بمثابة برلمان للثورة الجزائرية بالنسبة للبعض. وفي هذا الصدد كان عليه بالضرورة أن يضم كل الحساسيات التي تقاسمت الفكرة وانضمام الجزائريين، بعيدا عن ضرورة التوحيد من أجل مواجهة القوة الاستعمارية العظمى.

الانتقادات التي كانت موجهة لعبان رمضان إنما تعكس الدور الحاسم الذي لعبه هذا الاخير في التحضير لمؤتمر الصومام ونتائجه. قد يكون للانتقاد الذي وجه لعبان رمضان نوعا من المصداقية بالنظر الى تشكيلة الجهاز الثاني المنبثق عن جلسات مؤتمر الصومام.

ب) لجنة التنسيق والتنفيذ

يطلق على لجنة التنسيق والتنفيذ تسمية الهيئة التنفيذية لجبهة التحرير الوطني. لم تقدم الطبعة الرابعة الخاصة ليومية "لمجاهد" الصادرة في نوفمبر 1956 والتي أصبحت إبتداء من العدد الموالي، الجهاز الوحيد للثورة، تشكيلة لجنة التنسيق والتنفيذ. وقد إكتفى محضر المؤتمر الذي نشر في يومية "المجاهد" لأول مرة، بالإشارة إلى ما يلي:

"تتشكل لجنة التنسيق والتنفيذ من خمسة عناصر لم يعلن عن أسمائهم. وقد أختيروا من بين أعضاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية الموجودين بالجزائر حيث يتواجد مقرهم العام في مكان ما في الجبل".

وبعد فترة من الزمن تم الاعلان عن أسماء الاعضاء الخمس وهم:

- العربي بن مهيدي
- عبان رمضان
- يوسف بن خدة
- كريم بلقاسم
- سعد دحلب.

برزت بهذا الخصوص انتقادات كانت لاذعة أحيانا بشأن تشكيلة لجنة التنسيق والتنفيذ.

فقد ركز البعض على انتصار (جناح) كريم بلقاسم- عبان رمضان حتى وإن استدعى الأمر مواجهتهما في نفس المؤلفات. أما من كانوا أكثر معارضة فقد حاولوا المقارنة بين الجناح القبائلي الذي يتشكل من القائدين المذكورين والجناح العربي الذي يكون رئيساه أحمد بن بلة ومحمد بوضياف وكأن الأمر يتعلق بانسجام تام بين كل من هذه الشخصيات التي تم عزلها اعتباطيا داخل أجنحة تم تخيلها تلبية لرغبة ما في التميز.

من كان يجهل أنه ما من قواسم مشتركة كانت تجمع كريم بلقاسم وعبان رمضان من جهة وأحمد بن بلة ومحمد بوضياف من جهة أخرى؟ بطبيعة الحال أن الغاية تبرر الوسيلة عندما يتعلق الأمر بضرب سمعة القادة الذين فاجأوا الجميع بإنجاح المؤتمر الوحيد في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، خاصة بالنسبة لأولئك الذين لم يتمكنوا من المشاركة فيه لأسباب شخصية و لظروف خاصة. يقولون أن عبان رمضان هو الذي تسبب في انحراف المؤتمر ونحن لا نعرف عن أي انحراف

يتكلمون، وفي هذه الاتهامات إعتراف ضمني بأن دوره كان حاسما في جميع مراحل المؤتمر. فمن باب الإنصاف أن نعترف له بفضائل هذا اللقاء الذي يعتبره غالبية الجزائريين اليوم من بين الأحداث الحاسمة في انتصارهم وانتفاضتهم (إلى جانب أول نوفمبر 1954 ومظاهرات 11 ديسمبر 1961).

الواقع أن ما أثار الغضب والاتهامات ليست النتائج السياسية لمؤتمر الصومام ولا حتى البرنامج الذي تبناه وإنما هو، في اعتقادنا، اختيار الرجال. الحقيقة أن هذه الخلافات ليست لا جديدة ولا خاصة بالوجه الجيوسياسي الجزائري . فغالبا ما سادت النقاش السياسي وعملت على تحريفه.

ربما ساهمت تشكيلة لجنة التنسيق والتنفيذ بقدر أكبر من المجلس الوطني للثورة الجزائرية الذي كان مرآة المجتمع السياسي الجزائري، في احتدام الانتقادات. قد نقبل بوجود عناصر مركزيين ومعتدلين ضمن ما سمي ببرلمان الثورة، فبالإمكان عزلهم عند الاقتضاء بالنظر للأغلبية الكبرى المنبثقة من جبهة التحرير الوطني، وربما هناك من فكر بأن صلاحيات تلك الهيئة ستكون محدودة كونها لا تجتمع الا مرة واحدة في السنة وأنها ستغوص في متاهات النقاشات غير المتناهية. لكن وجود المركزيين الذين وجه لهم الاتهام بالعمل على عرقلة إندلاع الثورة بل ومكافحتها، ضمن جهاز يسهر يوميا على قيادة الثورة أمر لا يطاق خاصة وأن هذا الجهاز استأثر بسلطات مفرطة حيث خول لنفسه "صلاحيات مراقبة نشاطات هيئتنا داخل البلاد وخارجها". وكأن ذلك لم يكن واضحا بالقدر الكافي. أضاف محضر مؤتمر الصومام أن "أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ يتمتعون بصلاحيات مراقبة الهيئات السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية ... كل ثلاثة أشهر". على الصعيد العملي، كان ذلك يعني أن قدماء المركزيين الذين أصبحوا أعضاء في لجنة التنفيذ والتنسيق أضحوا مخولين بمراقبة مفجري الثورة المسلحة

ذاتهم. الأمر لم يكن ليطاق خاصة من قبل الذين اعتبروا -ولم يخفوا ذلك- أنه من حق "القادة التاريخيين أن تكون لهم الأولوية على الجميع (خاصة أمام الذين التحقوا بالثورة فيما بعد) وأن مقاليد قيادة الثورة لا يجب أن تبقى سوى بين أيديهم".

من غير الصائب الاعتقاد أن المركزيين والمعتدلين (الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، والعلماء) وحدهم المقصودين بمثل ذلك الإقصاء. فمن الواضح والجلي أن المقصود الاول هو عبان رمضان بغرض كبح عنانه إن لم يكن للتخلص منه. فكثير من المسؤولين رأووا في ترقيته المراتب شيئا من الاندفاع . ووجدوه مكتسحا بمحاولته الإشراف على كل شيء وعلى الجميع. في الحين لم يكن المعني بصفة مباشرة وواضحة. وأمام تعذر مهاجمته بصفة مباشرة، كان ابن بلة وعدد من قادة الجبال يلومنه لضم ابن خدة و دحلب لصفوف لجنة التنسيق والتنفيذ. وقد يكون الانتقاد في محله لو تم إبراز ، بغرض توكيده، علاقات الصداقات التي كانت تربط بينه وبين ابن خدة ودحلب منذ دراساته بثانوية دوفييري بالبليدة .

ماذا عن هذا الانتقاد؟ تمكننا العديد من المقاربات من إنصافه كما أن كثيرا من الكتابات والشهادات تلتقي في كثير من النقاط : لقد رفض زيغود يوسف وكان من أبرز قادة الولاية الثانية، الانضمام إلى لجنة التنسيق والتنفيذ، مفضلا البقاء على رأس منطقته ومحاربيه عوض التخلي عنهم والذهاب إلى الجزائر العاصمة. ثم أن عبان رمضان الذي يعاب عليه بالرغم من أنه كان داهية في فن المراوغة لم تكن له في الواقع السلطة المطلقة على مستوى قرارات مؤتمر الصومام، وعلمنا من مختلف المصادر أنه ما كا ن منه إلا أن اقترح إسمي المركزيين الإثنين السابقيين ليصبحا عضوين في لجنة التنسيق والتنفيذ وأن هذا الإقتراح كان مدعما من طرف بن مهيدي وكريم بلقاسم كما أن زيغود يوسف وافق عليه.

ليس محظورا أن نعتقد أن هدف أعضاء مؤتمر الصومام من ضم ابن خدة ودحلب إلى صفوف لجنة التنسيق والتنفيذ كان توطيد المصالحة بين "الإخوة الأعداء" القدامى الذين إنبثقوا من نفس الحزب ومنه، إستعادة جميع إطارات حزب الشعب الجزائري والحركة من أجل إنتصار الحريات الديمقراطية. وهذا الطرح يبدو واردا خاصة وأن العضوين المركزيين السابقين قد "أبليا بلاء حسنا" في الجزائر العاصمة وغيرها منذ أن إلتحقا بجبهة التحرير الوطني.

اتضح في النهاية أن الانتقاد الموجه لعبان رمضان لم يكن له أي مبرر باعتبار أنه أعيد انتخاب ابن خدة بعد أقل من ثلاث سنوات ليصبح الرئيس الثاني للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في الوقت الذي كان فيه جثمان من كان يؤيده و يدافع عنه، يتعفن في مكان ما تحت الأرض أو في عرض المياه المغربية.

فمهما كان الجانب الذي ننظر من خلاله الى أشغال مؤتمر الصومام فإننا لا نجد سوى الانتقادات التي لا قيمة لها وسرعان ما تفطن لها أصحاب الحكمة الذين خططوا للمؤتمر وسهروا على إنجاح الثورة الجزائرية. كما تبدو الانتقادات حول إختيار الاشخاص هشة حين نتمعن في محتوى مؤتمر الصومام ومغزاه.

2) مغزى مؤتمر الصومام على المدى البعيد

محتوى الثورة وآفاق الجزائر المستقلة

لم يكتف مؤتمر الصومام بالإهتمام بالمهام المباشرة والفورية مهما كانت أهميتها، ولئن فعل لظل حقيقا بمكانة متميزة في تاريخ الجزائر.

فلقد ذهب إلى أبعد من ذلك بكثير حيث اضطلع بكل مسؤولية بالمهام التي لم يقم بها مفجرو أول نوفمبر، لضيق وقت أو فقط لتفادي الوقوع

في خلافات مذهبية أو جوهرية. والجزائر المستقلة لا تزال تنهل من المبادئ التي أعدها المؤتمر بقوة منذ ثلاثين سنة ونراهن بأن الأجيال ستعمل على ديمومتها نظرا للطابع الدائم لقيمه العزيزة على الشعب الجزائري.

ميثاق الصومام كرس معالم جزائر اليوم والغد. سواء تعلق الأمر بطابعها الشعبي أو الاجتماعي أو التقدمي أو بسياستها الخارجية المستقلة وغير المنحازة، فكلها معالم نصت عليها أرضية الصومام في أحكامها التي ليست بعيدة البتة عن أحكام أحدث مواثيق الجزائر.

بعد تحليل دقيق للنظام الاستعماري ولوضعية الجزائر والقوات التي تنشط في العالم، توصل المؤتمرون بالإجماع إلى نتيجة صارمة وأساسية تقضي بضرورة أن تكون الثورة الجزائرية ثورة شعبية وإجتماعية وتوحيدية، ووطنية لا مكان فيها للتحزب.

لننظر للمنهج الذي إتبعه المؤتمرون بخصوص كل من هذه النتائج وعلى الاقتراحات التي تم الاتفاق عليه.

الثورة الجزائرية ثورة شعبية

كان الطابع الشعبي للثورة الجزائرية جليا وواضحا في مختلف مراحلها. كان ظاهرة عميقة لا تقتصر على الجانب الظاهري الذي نلمسه بمناسبة مختلف المواجهات مع القوات الاستعمارية بل أنه كان يسري كالدم في شرايين الثورة من خلال سيطرته على روح قيادتها. فذلك الطابع الشعبي لا يفسر فقط بالانضمام الجماعي والقوي للسكان المتذمرين من النظام الاستعماري والمتطلعين للعيش في ظل الكرامة والحرية كما لا يمكن تفسير تلك الظاهرة بضرورة تخلص الثورة من الهيمنة الفرنسية من خلال ضربها بقوة الشعب الجزائري وإنما يفسر بالأصول الشعبية للقيادة السياسية والعسكرية للثورة الجزائرية. مع مرور الزمن نكتشف أن

الهيئات القيادية للثورة الجزائرية قد نجحت في جلب عناصر مؤهلة من طبقة برجوازية وبغض النظر عن أنهم كانوا أقلية، من الواضح أنهم حتى وإن تقلدوا أعلى مستويات المسؤولية، لا يمثلون إلا الجانب الظاهر للسلطة و مما لا ريب فيه أن السلطة كانت بين أيدي القياديين المنحدرين من الطبقات الشعبية. كما ينبغي إثبات أن كل عنصر برجوازي كان يسعى بالضرورة لضرب مصالح الطبقات الشعبية فلا تصرفات قادة التشكيلات المعتدلة التي عادة ما تنعت بالبرجوازية ولا برامجها السياسية تؤكد الصفة التي ينعت بها الرجل البرجوازي الذي لا يطيق الطبقات الاجتماعية المحرومة.

على أية حال كانت الثورة الجزائرية ثورة شعبية ليس فقط في تشكيلتها البشرية من القاعدة الى القمة بل وحتى على مستوى فلسفة عملها كما تشهد على ذلك العديد من فقرات أرضية الصومام.

فلم تكتف هذه الأخيرة بالتأكيد بأن "الدليل موجود على أن (الثورة الجزائرية) ثورة حقيقية منظمة ووطنية وشعبية". فهي تقدم مراجع يقوم عليها مثل هذا الحكم.

وبخصوص توظيف جيش التحرير الوطني، لم يبالغ المؤتمرون حين كتبوا أن "الاحتياطات البشرية لجيش التحرير الوطني لا تنفذ"، مضيفين أن جيش التحرير الوطني غالبا ما كان يضطر لرفض تجنيد الجزائريين الشباب والشيوخ من المدن والقرى المتحمسين للفوز بشرف التجنيد في صفوف "جيشهم" ومن المسلم به كما أكد ذلك المشاركون في مؤتمر الصومام أن جيش التحرير الوطني "يحظى تماما بحب الشعب الجزائري وبمساندته المتحمسة وتضامنه الفعلي، المعنوي والمادي التام والمطلق".

إن الذين يتذكرون هذه المرحلة بوسعهم أن يشهدوا أن جيش التحرير الوطني كاد يبجل تبجيلا. فالأصل المتواضع والشعبي لجنوده معزز بالسلوك المثالي لمن كانوا يتقربون على الدوام من السكان لمشاطرتهم مآسيهم وآلامهم ليعدونهم بالنهاية الوشيكة لكابوسهم ساهم في جعل الجيش يحظى برصيد معتبر من التقدير والمحبة. مرد كل ذلك التمسك بالجيش هو أولا المعاناة وظروف العيش المزرية والصعبة ثم الآمال التي أضحى السكان المكبلين بأغلال الألم والبؤس الاستعماري يعلقونها عليه.

اهتم مؤتمرو الصومام كثيرا بتلك الروابط الحميمية والغريزية التي كانت تربط السكان بمحاربيهم، إلى درجة أنهم عملوا على أن تركز توصياتهم على حماية البعد الشعبي للثورة الجزائرية وتعزيزه، على أنه السبيل الوحيد لقهر قوة لم تؤل جهدا من جهتها لسحق الثورة مرة أخرى.

من المهام الأخرى الملقاة على عاتق جبهة التحرير الوطني ضرورة "تحويل الهيجان الشعبي الى طاقة خلاقة". فقد اعتبر المشاركون في مؤتمر الصومام أنه "يجب أن تكون جبهة التحرير الوطني قادرة على استغلال كل الوسائل العظيمة التي تثير الحماس القومي للأمة إذ لا ينبغي أن تصبح تلك القوة الجامحة المتولدة عن الغضب الشعبي هباء منثورا".

هكذا برز الطابع الشعبي للثورة الجزائرية جليا منذ الأيام الأولى من ميلادها وكان ذلك الزخم يزداد تجذرا وتوسعا كلما زاد رد فعل القمع الفرنسي شراسة وعمى. فإرادة الشعب الجزائري برمته هي التي قهرت القوة الهائلة لفرنسا. القوات الفرنسية التي سخرت كل قواتها تمكنت من قنبلة الشعب الجزائري وتعذيبه وقتله لكنها لم تمت فيه حب الوطن ولم تثنه البتة عن عهد قطعه على نفسه من أجل تحريره.

كل ذلك يعني أن الطابع الشعبي للثورة الجزائرية الذي بدونه ما كانت لترى النور، يشكل قاعدتها الأساسية ومن ذلك الطابع الشعبي اتسمت تلك الثورة بميزاتها الأساسية.

الثورة الجزائرية هي ثورة اجتماعية

إذا كان صحيحا أن الطابع الاجتماعي للثورة الجزائرية تولد من طابعها الشعبي القاعدي فصحيح أيضا أن الوضع المزري الذي حصر فيه النظام الفرنسي غالبية الشعب الجزائري كان له وقع نفسي معتبر.

فميزات النظام الاستعماري الجلية كانت اللامساواة والقمع. فالتبجح بالرفاه الذي كان يعيش فيها الأوروبيون، المرتبطون بالنظام الاستعماري مقابل الحرمان الذي كان واضحا على الجزائري المسلم كان فاضحا وكان سيؤدي لا محالة الى نبذ ورفض كل نظام لا يقوم على العدالة في جزائر ثورية ومستقلة. يمكن القول أيضا أن قيم المساواة كامنة في المجتمع الجزائري. سواء كانت مصادره مستمدة من الدين الإسلامي، أو تكون فرضتها ظروف المعيشة المزرية لغالبية السكان فذلك لا يشكل عنصرا أساسيا. مما لا شك فيه أن المساواة الاجتماعية التي فرضها الفقر العام تجذرت في ضمائر الجماهير إلى درجة أنها أصبحت طبعا ثانيا مع مر الزمن والمشقات. المساواة التي كانت غريزة لدى الشعب الجزائري هي التي صقلت الذهنية الجماعية للشعب الذي لم يعرف نظاما آخر. التباهي بالثراء لدى الرجل الأوروبي ما كان ليثني الجزائري عما كان يراه متوافقا ومجتمعه ونمط معيشته ودينه. يجب القول ايضا أن قلة قليلة من الجزائريين كانوا يميزون بين الأوروبيين أنفسهم. الأوروبي في مخيلاتهم بالضرورة غني أو على الاقل مقارنة به هو الساكن الأصلي، الذي لم يكن يصدق بوجود أوروبي فقير الى درجة أسفرت

عن معادلة على درجة من البساطة مفادها أن الأوروبيين متساوون في ثرائهم والجزائريون المسلمون سواسية في فقرهم.

الحال أن الوضع الاجتماعي للجزائريين، عند إعداد أرضية الصومام، كان موحدا في الفقر والفاقة إلى درجة أنه لم يكن من بد أمام الثورة القائمة من إدارج ثورة اجتماعية في جزائر الغد ضمن برنامجها.كان ذلك يعني بطبيعة الحال تحسين الظروف المعيشية للسكان مع الفكرة الضمنية التي مفادها أن ذلك لن يتم إلاّ في كنف العدالة والمساواة الاجتماعية. ثمة إشارات كثيرة وواضحة في الوثيقة التي صادق عليها المؤتمر تتعلق بالتكفل بالضروريات الاجتماعية للشعب الجزائري كما تقترحه الفقرة التالية:

"إن الثورة الجزائرية تريد الحصول على الاستقلال الوطني من أجل إقامة جمهورية ديمقراطية واجتماعية تضمن عدالة حقيقية بين جميع مواطني الأمة بدون تمييز".

نلاحظ بالمناسبة إلى أي درجة تجلت الخاصيات الرئيسية للجزائر المستقلة منذ السنوات الأولى للثورة التحريرية وخاصة مع مؤتمر الصومام. لقد تبين وتأكد خاصة منذ بداية الكفاح أن نهوض الدولة الجزائرية لم يكن غاية في حد ذاتها بل كان ليتجلى "في شكل جمهورية ديمقراطية واجتماعية و ليس في شكل نظام حكم ملكي أو ديني قد ولى"، وفي ذلك إعلان عن برنامج اجتماعي وتقدمي.

وبخصوص الطبقات العديدة، كان مؤتمرو الصومام الذين طبعوا النظام الاجتماعي للجزائر المستقلة، في غاية الوضوح والدقة في قراراتهم حيث عالجوا أولا موضوع الفلاحين الذين كانوا يمثلون أوسع التشكيلات وأكثرها مقاومة في جيش التحرير الوطني والذين كانوا يمثلون بالنسبة إليه قوام دوامه وتجدده، من خلال إقامة علاقة بنوة بين جبهة التحرير الوطني والفلاحين :

"تأكد الحس السياسي لجبهة التحرير الوطني بشكل جلي من خلال الانضمام الجماعي للفلاحين الذين كان الاستقلال الوطني مقرونا بالنسبة لهم بالإصلاح الزراعي الذي كان سيمكنهم من امتلاك الأراضي وخدمتها وجني ثمارها".

كما وكل المؤتمرون لجبهة التحرير الوطني مهمة "الاعتماد بشكل خاص على الطبقات الاجتماعية الأكثر عددا وفقرا وثورية ألا وهم الفلاحون وعمال الأرض" إذ اعتبروا، عن صواب، في صفحات أخرى أن "جماهير الفلاحين على قناعة راسخة بأن تطلعهم للأرض ما كان ليتحقق من دون النصر والاستقلال الوطني".

تنبغي الإشارة في هذا المقام إلى أي درجة أراد المؤتمرون توخي الواقعية حتى وإن البعض يستغربون ذلك. فهم لم يكتفوا بالمطالبة باستقلال البلد وبإبراز ما سيحققه من تحسين مصير السكان. فالأمر لم يكن يتعلق فقط، من خلال هذه التوجيهات، بمساومة انضمام الطبقات المحرومة والفلاحين بالدرجة الأولى إلى تحرير البلد وإنما بالإفصاح عن قناعتهم العميقة وعزمهم ـ لو أطال الله أعمارهم" بأن جزائر المستقبل لن تكون شيئاً آخر سوى موطن الرفاهية و العدالة الاجتماعية للجميع انطلاقا من أولئك الذين كانوا في أشدّ الحاجة إليها.

عندما نعلم كل ما تمثله الأرض بالنسبة للفلاح ندرك أن الثورة الجزائرية التي اندلعت وارتوت من دماء الفلاحين لن يسعها إلاّ أن تسجل في برنامجها الاستجابة لحقه المشروع: الأرض والكرامة، وفي هذا المجال كما هي الشأن في مجالات أخرى فقد استلهمت الجزائر المستقلة مصادرها الأساسية من الميثاق الأول لثورتها التحريرية.

أما بخصوص الحركة العمالية فقد أبدى مؤتمرو الصومام نوعا من الإجحاف نماه غياب الثقة حيث لم يكن للحركة نصيب من الاهتمام الواضح اللهمّ إلا إذا كانت إنتقاداتهم للحزب الشيوعي الجزائري

الذي تبنى طرح مؤسسه الذي أصبح يسمى فيما بعد "الأخ الكبير" الفرنسي، هي التي جعلتهم يغفلون مستقبل العالم العمالي. صحيح أيضا أن الطبقة العاملة الجزائرية لم تكن آنذاك تشكل شريحة واسعة من الطبقة الشغيلة للبلد.

لعله من الصحيح أيضا أن المنظمين الرئيسيين لمؤتمر الصومام لم يكونوا في تلك الفترة على إلمام شخصي وكاف بالعالم العمالي وذلك ما يفسر ذلك الانطباع بأنهم لم يكونوا يرون من خلال العالم العمالي سوى الحزب الشيوعي الجزائري وكذلك حذرهم الكبير فيما يخص العلاقات التي يتعين على جبهة التحرير الوطني أن تقيمه معه. فحين أكد محرر وأرضية الصومام أنه "يتعين على مناضلي جبهة التحرير الوطني أن يكونوا من العناصر الأكثر تفانيا ونشاطا وأن يحرصوا اشد الحرص على إحترام القواعد الديمقراطية حسب التقاليد المعمول بها في الحركة العمالية الحرة"، فقد كشفوا مدى حيرتهم إزاء الحركة العمالية بل وأيضا نوعا من الارتياب بخصوص إمكانية التحكم فيه كما فعلوا مع الطبقات الاجتماعية الأخرى بدء بطبقة الفلاحين التي تعد من أهم الطبقات.

قد نستغرب، عبر جملة، الحذر الذي أبدته جبهة التحرير الوطني إزاء العمال وذلك لم يكن مألوفا لديها فيما يخص شركاءها أو مسانديها العديدين. كما كان على مناضلي جبهة التحرير الوطني "تفادي التبسيطية: كان عليهم مراعاة كل حالة ملموسة وتكييف الأعمال، مع الظروف الخاصة والذاتية لكل طبقة و فئة."

من المؤكد أنه يمكن نسب مثل هذه التوصيات لمحررها المفترض وهو عمر أوزقان الذي ، كما نعلم، لا يجهل شيئا عن تقاليد عالم الشغل كونه ينحدر من صفوف الحزب الشيوعي الجزائري. لكن مسؤولية هذه التوصيات التي تعد جزءً لا يتجزأ من أرضية الصومام كانت تقع كذلك

وبشكل خاص على عاتق المخططين للمؤتمر أكثر من محررها الأول الذي لم يكن ضمن المؤتمرين.

فالحذر الواضح وغير المألوف الذي أبداه مؤتمرو الصومام إزاء عالم الشغل لا يعني أبدا أن هذا الأخير كان يعيش على هامش الثورة أو أن شيئا ما من الطابع الاجتماعي للثورة قد انتقص جراء ذلك. ينبغي البحث عن مفسرات ذلك الموقف على الأرجح في ذلك الوضع المميز الذي ساد التحضير لمؤتمر الصومام. الاتحاد العام للعمال الجزائريين نشأ حديثا ولم يكن ذلك لاستباق الحكم فيما يخص التحكم السريع و التام في الحركة العمالية خاصة إذا أضفنا لها المهاجرين الذين كانوا جد متأثرين بالحركة المصالية.

كما أنه وارد للغاية أن مؤتمري الصومام لم يتمكنوا من الذهاب بعيدا في استشرافهم المستقبل للكشف عن الوجه الاقتصادي للجزائر المستقلة. فلنفترض أن الطابع الغالب لهذه الأخيرة سيكون الطابع الفلاحي. على أية حال، التطورات المخصصة للحركة العمالية لم تنقص أبدا من الطابع الاجتماعي للثورة الجزائرية كما كان يراه ويريده مؤتمر الصومام.

الثورة الجزائرية ثورة لا مكان للتحزب فيها

كان ينظر لكفاح الشعب الجزائري من أجل تحريره الوطني، على مدى حرب الجزائر، أحيانا وكأنه حربا صليبية بين الإسلام والمسيحية وكأنه "همجية عربية" ضد الغرب المتحضر أو حتى كهجوم على الشيوعية السوفييتية من "العالم الحر". وبخصوص هذين النقطتين، سنتطرق فيما بعد إلى الطابع الوطني للثورة الجزائرية. أما الآن فسنكتفي بدحض الدعاية الفرنسية بخصوص التطرف الديني الذي نسب لكفاح الشعب الجزائري بالرجوع طبعا إلى الوثيقة الأساسية للثورة الجزائرية التي صادق عليها مؤتمر الصومام.

لقد كان الفضل والشرف لمؤتمري الصومام في إحباط الكمائن التي نصبتها الدعاية الاستعمارية لضرب ثورة التحرير الوطني للشعب الجزائري.

كانت هذه الدعاية تسعى إلى بلوغ هدفين هما: عزل الثورة الجزائرية على الصعيد الخارجي، بتجريدها الى أبعد حدّ من التعاطف مع إدراج الحرب التي كانت تشنها فرنسا في سياق إستراتيجية جيوسياسية للغرب المسيحي والتحرري ضد المشرق المتعصب والبربري، وعلى الصعيد الداخلي تفادي أن تنحاز أي شريحة من السكان الفرنسيين (في فرنسا وفي الجزائر) أو تهتم بشرعية الكفاح الجزائري ولم تتردد هذه الدعاية لتحقيق مآربها في إختلاق شعارات كهذه "الحقيبة أو النعش" أو من خلال شن عمليات إستفزازية لبث الذعر في الأوروبيين.

فلولا الرد الفوري والحميد لقادة جبهة التحرير الوطني لتوصلت تلك هذه الدعاية للتأثير على النفسية البسيطة للأوروبيين المقيمين في الجزائر ولزادت في تعقيد العمل الدولي للثورة الجزائرية.

الشدة والوضوح اللذان ميزا مواقف جبهة التحرير الوطني بخصوص الاتهامات الموجهة لكفاح الشعب الجزائري بالتطرف والعنصرية، مثيران للانتباه. فكانت المراجع عديدة و قوية في ذات الوقت في وثيقة مؤتمر الصومام بهذا الشأن.

في تحليل قلما اتسم غيره بمثل ذلك الوضوح ، وضع المؤتمرون النقاط على الحروف الى درجة ان من الشهود من لا يزال حتى اليوم يعرب عن إنبهاره بالجرأة والشجاعة التي كان يتميز بها هؤلاء المؤتمرون الذين أكدوا منذ البداية أن ثورة الشعب الجزائري كانت "ثورة وطنية للقضاء على النظام الفوضوي للاستعمار ولم تكن حربا دينية".

لقد تجلت صرامتهم أكثر في التقرير الذي كتبوا فيه أن "الثورة الجزائرية لم تكن تهدف الى "رمي" الجزائريين من أصل فرنسي

"في عرض البحر" بل إلى تحطيم نير الاستعمار غير الإنساني" وأن "الثورة الجزائرية ليست حربا أهلية ولا حربا دينية". وكأن الأمور لم تكن على قدر كاف من الوضوح إذ أعطى محررو أرضية الصومام المعنى الحقيقي لكفاح الشعب الجزائري من خلال ما جاء في الوثيقة: "ما أخبث بيدول ولاكوست وسوستال والكردنال فيلتان وما أذلهم في محاولتهم تغليط الرأي العام الفرنسي والأجنبي من خلال التعريف بالمقاومة الجزائرية على أنها حركة دينية متطرفة في خدمة الحركة الإسلامية." كما جاء في التقرير أن "الخط الفاصل للثورة لا يمر بين المجموعات الدينية التي تسكن الجزائر بل بين أنصار الحرية والعدالة والكرامة الإنسانية من جهة والمستعمرين ومن يدعمهم مهما كانت ديانتهم أو ظروفهم الاجتماعية." (...) "ألم يكن أفضل دليل لذلك العقاب الأقصى الذي سلط على الخونة المحتفلين بالقداس حتى في حرم المساجد؟"

من الصعب أن نكون بمثل ذلك الوضوح وأن نتحمل تلك المسؤولية المعنوية. فلمن يمكننا أن ننسب ما يعتبره البعض وضوحا سياسيا عميقا للغاية في حين يقول البعض الآخر أن مؤتمري الصومام بالغوا فيما وصفوه بسياسة متساهلة وخالية من الواقعية إزاء الجاليات الأوروبية واليهودية؟ هل كان الأمر يتعلق فقط بضرب الدعاية الكاذبة والوحشية للمستعمرين أم بأمر آخر يتجلى من القناعة الشخصية وليس من رد فعل تكتيكي وظرفي للمؤتمرين؟

يمكننا أن نؤكد، مع تقديم الأدلة، بأن جميع مؤتمري الصومام أو أغلبهم كانوا على قناعة صادقة وعميقة بمواقفهم ليس فقط لأسباب سياسية بل لأن تلك كانت قناعاتهم المعنوية العميقة التي لا تخضع للأحداث الظرفية.

قد يستغرق إستعراض القناعات المعنوية لكل منهم وقتا طويلا. لكننا نعرف بكل تأكيد أن ابن مهيدي العربي وزيغود يوسف كانا متمسكين جدا بالإسلام وأنه ليس هناك ما يمس قناعتهما كمؤمنين أكثر من اللا تسامح إزاء إخوانهم ومعتنقي الديانات الأخرى. لا ننسى أن ابن مهيدي عاش في وسط ديني وأنه تلقى تعليمه الأول في زاوية والده الشيخ عبد الرحمان. قد يستغل البعض هذا المرجع ليجعلوا من ابن مهيدي من الأنصار المتعصبين للإسلام. إذا كان ذلك يعني انضمام كلي لتعاليم القرآن فإن ذلك صحيح للغاية -فيما يتعلق به- لكن إذا كنا نفسر إسلامه على أنه أمر حصري إزاء الديانات الأخرى، فإن ذلك سيكون بعيدا كل البعد عن إسلام متسامح ومتفتح على العالم في بعده الكبير وعن رجل بمثل قيمة ابن مهيدي الذي أكد لنا جميع رفاقه روح التفتح والحكمة التي كان يتحلى بهما إلى درجة أنه سمي بالحكيم.

أما بالنسبة لعبان رمضان الذي يعد عنصرا أساسيا في المؤتمر، فكان بعيدا نوعا ما عن الدين كما يقول عدد من الشهود حيث قال أحدهم بكل شدة واطمئنان أنه كان ملحدا أي أنه لم يكن للدين عليه تأثيركبير. كان يضع كفاحه في السياق السياسي ويرى أن الجانب الديني يبقى من القناعات الشخصية المنيعة. فهذا يدل على أنه كان يرى في اللا تسامح إزاء السكان المسيحيين واليهود على أساس إعتقادهم فقط خطأ لا يغتفر.

وبالتالي بدا واضحا أن الثورة الجزائرية، منذ البداية -بداية 1956- وحتى قبل إندلاع "معركة الجزائر"، قد نبذت روح التطرف والجهوية في وثبتها ضد النظام الاستعماري. وما يراه البعض، ولا يسعنا إلا إتباعهم في رأيهم، كسياسة تنازل بل وحتى تواطؤ على المستوى السياسي وعلى المستوى الأخلاقي اتجاه الأوروبيين الليبراليين والأقلية اليهودية بالجزائر، ليس على العكس سوى سموا للفكر وبعدا للنظر

إلى الكفاح والى العالم قلما تم بلوغهما. وإذا حكمنا على هذا النقاش من جانب الفعالية فقط على حساب الإخلاقيات التي طالما تحجبها طباع ميالة للاكتئاب، فسنكتشف أن توقعات مؤتمري الصومام كانت في محلها وأنهم كانوا على صواب وزادوا في عظمة الثورة الجزائرية من خلال سد الأبواب في وجه كل المغامرات الجهوية والعنصرية. فالضعف المادي للجزائريين زاد من عظمة السمو الأخلاقي والعقائدي لقادتهم.

حتى لو تركنا جانبا، الجانب الديني يبقى أن تحليلهم للوضع في مؤتمر الصومام والتوصيات التي خرجوا بها كانت كلها وجيهة وذات بعد لا يمكن إنتقاده أو إنكاره اليوم والجزائر أصبحت تنعم بالرفاهية، المعنوية على الأقل، التي أتاحها الاستقلال. نذكر هنا ببعض هذه التوصيات منها اولا التنبيه الذي يكتسي قيمة البرنامج : ان جبهة التحرير الوطني "لن تترك العدو المستعمر يعتمد على كل الأقليات العرقية في الجزائر ولا أن يقيم ضدنا الرأي العام في فرنسا ويحرمنا من المساندة الدولية" لأن ذلك، حسب جبهة التحرير الوطني، سيكون خطأ لا يغتفر إن وضعنا في "نفس الكفة" كل الجزائريين من أصل أوروبي أو يهودي".

كما أعربت جبهة التحرير الوطني عن ارتياحها للدرس الذي إستوعبته المقاومة الجزائرية التي "لحسن الحظ لم ترتكب أخطاء رئيسية كفيلة بأن تبرر نقد الصحافة الاستعمارية والأثر السيكولوجي للجيش الاستعماري الذي أثبتت أكاذيبه الصارخة بشهادات صحافيين فرنسيين وأجانب."

إنّ جبهة التحرير الوطني لم تكتف بإبعاد التحزب والتطرف والعنصرية من أرضيتها السياسية والعقائدية مؤكدة أنها "أجهضت المحاولات الاستفزازية العديدة التي أعدها مختصون من الحكومة العامة"... وأنها قامت بإخماد وإفشال "إضراب التجار اليهود الذي كان سيأتي بعد الذي شنه التجار الميزابيون، حتى قبل أن يشن".

عند قراءة مثل هذا المواقف الواضحة والصارمة قد يتساءل البعض ـاليوم وقد أصبح التطرف زاحفاـ إن لم يكن قادة جبهة التحرير الوطني مغفلين. فذلك يعني التقليل من وطنيتهم التي لا غبار عليها ومن إسلامهم الطاهر والمخلص ومن نظرتهم السياسية التي لا تنال منها لا الأحداث الظرفية ولا علاقات الود العابرة. كانوا يدركون أكثر من غيرهم أنه لا يمكن "التمسك بوهم الانتصار التام لقضية التحرير الوطني على (الأوروبيين)". لكن المهم بالنسبة لهم هو ، كما كتبوا، "التوصل الى عزل العدو المستعمر الذي يضطهد الشعب الجزائري".

يجدر الإقرار في هذا المقام أنهم كانوا على صواب. فوجود أوروبيين أصليين خاصة في الجزائر يرون في كفاح الشعب الجزائري قضية عادلة ويحتاجون بالتالي إلى كل الاحترام والمساعدة يكفي لتبرير موقف مؤتمري الصومام بل أكثر من ذلك، فالتاريخ يسجل من الآن فصاعدا، شهادات حية و نشطة وليست شهادات رمزية أدلى بها بعض الأوروبيين في تحرير الجزائر. فكيف يمكن أن ننكر مثلا شجاعة الدكتور شولي واستعداده وتفانيه وكيف لنا أن ننكر المواقف العلنية للأسقف دوفال الذي جازف بحياته وكاد حتى أن يصرف المسيحيين عن دينهم الذي يمثل بالنسبة له أكثر من حياته. كلها مواقف كانت ستتجاوز وتتعالى عن كل المعتقدات لتسمو بالأخوة الإنسانية إلى أرقى درجاتها؟ كيف لنا أيضا أن ننسى أن بعض الأوروبيين، على قلتهم ، قبلوا الموت، في سبيل قناعاتهم طبعا، ولكن أيضا لتحيا الجزائر؟ كذلك كان الشأن بالنسبة لكل من فارنان إيفتان وموريس أودان ودانيال مين ودانيال تيمسيت والقائمة طويلة. كيف لنا أن ننسى بأن آلاف الأوروبيين في الجزائر وفرنسا لم يدخروا جهدا في سبيل مساعدة الثورة الجزائرية بأموالهم وأقلامهم وصرخاتهم وغضبهم ومظاهراتهم و حتى بإلتزاماتهم الجسدية في العديد من الظروف؟ لم يكن

كل ذلك ممكنا إلا بفضل بعد نظر قادة جبهة التحرير الوطني الذين اهتدوا منذ البداية إلى تجنب كل خلط من خلال تشجيع وطلب كل أولئك الذين لا يربطون حرية الرجال وكرامتهم بمعتقداتهم الدينية ولا بأصولهم العرقية. ونعم الأصل أصل أولئك الرجال الذين، وهم في خضم الأزمة والتمزقات المعنوية والجسدية بل وفي أوج الهيجان الجنوني، لم يخرجوا أبدا عن جادة الصواب ولم يتجردوا أبدا من ضمائرهم حتى وإن كان ذلك على حساب وطنهم لكي يشهدوا بأن الإنسان لا يكون إنسانا إلا عندما يحترم أخاه الإنسان.

الثورة الجزائرية هي ثورة وطنية

لم تكتف الدعاية الاستعمارية الفرنسية بالترويج بأن الكفاح التحرري للجزائريين كان حربا صليبية لكل المجموعات المسلمة "المتعصبة والعنصرية" ضد كل الغرب المتفتح والإنساني بهدف ضرب كفاحها وكسب الرأي العام والحكومات الغربية. كما رفعت الدعاية الاستعمارية شبح الشيوعية السوفييتية الذي يريد، حسب نفس الدعاية، الزّحف إلى أوروبا -وهي فريسته المفضلة- من خلال ضربها من الجنوب الذي يعتبر "البطن اللين" كما كان يقول تشرتشل.

يجب الاعتراف بأن تلك الدعاية حققت مآربها لأننا كنا في خضم الحرب الباردة حيث كانت "السذاجة" السياسية تجرف كل من يقف في طريقها. ذلك في الوقت الذي كان فيه كاتب الدولة الأمريكي الكبير (وزير الشؤون الخارجية) فوستر دالاس يرى أن "كل من هو ليس معنا فهو ضدنا." كون هذه العبارة المانوية لم تعد ترعب اليوم العديد من العقول لا ينبغي أن يمنعنا من أن نعترف لها على الاقل بالوقع الكبير الذي كانت تثيره آنذاك. فصحيح أن الشيوعية السوفييتنية والقومية العربية كانتا تمثلان في فترة حرب الجزائر، الكابوس المرعب لأوروبا

التي خرجت حديثا من الكابوس النازي. ظهر الحلف الأطلسي في سنة 1949 لحماية أعضائه مما كان يعتبره الطموح السوفييتي لبسط إمبراطوريته الى مشارف المحيط الأطلسي من خلال نشر وحداته الكبيرة والعديدة عبر ربوع أوروبا.

أما القومية العربية، فقد كانت من اختلاق القوات الاستعمارية (فرنسا وبريطانيا) لتكريس هيمنتها أكثر مما كانت حقيقة إن مساهمة هذه القومية العربية المزعومة في تحرير أي بلد يبقى مشكوك فيها.

أمام ذلك الفيض من الافتراءات والأكاذيب المتسترة تحت الغطاء الديني والتي تعززت بفعل الدعاية الإعلامية واستمالة الرأي العام، عرفت جبهة التحرير الوطني منذ بداية الثورة الجزائرية كيف تركز أساسا على جانب تحرير شعب مضطهد من طرف نظام إستعماري. ولنلاحظ هنا ـكان ذلك التصور الاسمى لمؤتمري الصومامـ أن موقفها كان موجها في نفس الوقت إلى فرنسا والبلدان التي يفترض أنها حليفة الثورة الجزائرية ومساندة لها وصديقتها.

فهنا يكمن المغزى الكامل لهذه الثورة التي سمت الى أعلى المراتب وشهدت ميلاد ما سمي فيما بعد بسياسة عدم إنحياز الجزائر.

في خضم تلك الحقبة التي كانت الثورة الجزائرية تواجه فيها وحيدة قوة عظمى منضوية في شبكة التحالفات التي كانت تخنق العالم، أخذت مواقف مندوبي الصومام شكلا خاصا:

"للثورة الجزائرية هي بالرغم من أكاذيب الدعاية الاستعمارية، كفاح وطني تكتسي قاعدته بلا جدل طابعا وطنيا وسياسيا واجتماعيا. فهي ليست تابعة لا للقاهرة ولا للندن ولا لموسكو ولا لواشنطن."

فإذا كان المرجع الى القاهرة وموسكو موجها للراي العام الغربي بما في ذلك الرأي العام الفرنسي بالطبع، في المقابل، كان الهدف

من عبارة عدم الانحياز لكل من لندن وواشنطن، وكانت استباقية، لتفادي إثارة مخاوف شريحة من الرأي العام الفرنسي التي كانت دوما مناهضة للأنجلوساكسونيين الذين يقال أنهم يريدون تضبيع فرنسا والاستحواذ على ممتلكاتها.

قد يعجب الكثير ممن كانوا يعتقدون في تلك الفترة أن الثورة الجزائرية كانت تحظى بمساندة مصر جمال عبد الناصر والاتحاد السوفييتي، من تلك النظرة المساوية بين العواصم الأربع المذكورة.

لأول مرة كشفت جبهة التحرير الوطني بكثير من الصراحة والواقعية، عن حقيقة علاقاتها مع العاصمتين حيث رسخت الدعاية الفرنسية في كثير من الأذهان حتى الجزائرية منها بأن العاصمتين كانتا تشكلان مصدر تموين "التمرد" الجزائري وملاذه الأمن الوحيد.

حين نتصفح أرضية الصومام ندرك أن ذلك ليس صحيحا. ما كنا نعرفه تقريبا هو أن الثورة الجزائرية لم تكن فعلا تنتمي إلى أي من العاصمتين المذكورتين بالرغم من المحاولات العديدة وغير المباشرة للنظام المصري خاصة محاولة ممارسة نوع من الوصاية وحتى التحكم بمساعدة بعض الجزائريين. وما كنا نجهله هو أن مصر كانت تقدم مساعدة شحيحة وفي نفس الوقت الشيء القليل الذي كانت تقدمه إنما كان يخدم مصالحها الخاصة ودبلوماسيتها.

فالوضع الذي كان سائدا آنذاك جعل المشاركين في مؤتمر الصومام بجميع حساسياتهم لا يترددون في التأكيد بأن" نقص التحمس (للقضية الجزائرية) كان نتيجة موقف البلدان العربية عموما ومصر خصوصا حيث كانت مساندتهم للشعب الجزائري محدودة وتمليها تقلبات دبلوماسيتها."

إنه من الخطأ الاعتقاد بأن مثل هذا الاتهام خاطئ أو مبالغ فيه. فكان بحوزة المؤتمرين أدلة مباشرة وغير قابلة للشك بخصوص ضعف

المساندة المصرية وازدواجيتها. بالفعل لم يكن من باب الصدفة أن توقف برنامج "صوت العرب" الشهير لإذاعة القاهرة الذي كان يمنح للثورة الجزائر، بعد صعوبات مضنية، نصف ساعة من البث، فجأة في ربيع سنة 1956 إذ كان وزير الخارجية الفرنسي آنذاك كريستيان بينو الذي التقى بالرئيس ناصر في مارس 1956 في القاهرة، قد تمكن من إقناعه بإخماد"صوت العرب" والتوقف عن نشر صوت جبهة التحرير الوطني مقابل شراء فرنسا للقطن المصري. وحسب السيد محمد حربي الذي لا يمكن اتهامه بالتحيز، فقد تحصل الوزير الفرنسي على أكثر من ذلك بكثير حيث كتب: "خرجت المباحثات بين ناصر وبينو في مارس 1956 بتوقيف تسليم الأسلحة والبرامج الإذاعية في إتجاه الجزائر(6)." وللأسف كان ذلك الموقف الثابت لمصر ولبلدان عربية أخرى. كان ذلك أمر مرّا بالنظر لما فعلته الجزائر مع هذا البلد في فترة مواجهاته مع إسرائيل. فلنكتف بتسجيل ذلك على مستوى محكمة التاريخ لإبراز الفرق بين تعامل البلدين بالنسبة لالتزاماتهما مع بعضهما البعض.

نتناول في البداية الحديث الذي خص به الرئيس الجزائري آنذاك هواري بومدين، صحيفة "النهار" اللبنانية ثم تصريحات ضابط سوري في أسبوعية "أفريك-أزي" . وكتبت المجلة الفرنسية "مغرب- مشرق" بشأن المساهمة الجزائرية حرب أكتوبر 1973 بين إسرائيل ومصر:

"الشكوك تخيم على عدد العسكريين الذين أرسلوا الى مصر وسوريا حيث قدم البعض عدد 25000 رجلا. وحسب ما نعرفه حول المساهمة المادية للجزائر فقد قدرت الإمدادات بحوالي:

- ستين طائرة.
- مئات الدبابات و السيارات المدرعة (ربما ألف).

– مليوني (02) طنا من البترول لمصر ومليون (01) طنا لسوريا، بين 100 و200 مليون دولارا أمريكيا من الأسلحة التي إشترتها من الاتحاد السوفييتي(7)".

وعن سؤال حول ضخامة هذه المساعدة، يكون الرئيس الجزائري قد أجاب: "لقد قطعت من لحمي..."

وحري القول من "لحم الشعب الجزائري".

وعلينا أن نحكم كما نريد على إلتزامات البلدين. يبقى أن الجزائر نزفت كثيرا قبل أن تحصل على مساعدة رمزية من البلدان العربية، وعلى رأسها مصر، بالرغم من ثرائها. يكفي أن نضيف بأن ولا بلد واحد من بلدان العربية تجرأ وقطع علاقاته بفرنسا التي كان جيشها يحاول تحطيم الثورة الجزائرية والأخطر من ذلك أن البعض تواطأ معها لخدمة مصالحه الوطنية. وكان ينبغي، بعيدا عن كل إنفعال، أن تعرف هذه الحقيقة خاصة من طرف المتشبعين بشعور وحدة المصير. ماذا كان سيقوله ذوو الإحساس المرهف لو أن الجزائر ـعلى سبيل الافتراض- وجهت دعوة لأحد ممثلي دولة إسرائيل للزيارتها في خضم حرب "ستة أيام" أو "أكتوبر 1973" للتحادث مع قادتها كما فعل ناصر وآخرون مع ممثلي فرنسا طوال حرب الجزائر؟

الفضل، كل الفضل، في جزائر اليوم والغد، يعود لمؤتمر الصومام الذي جنّب الجزائر الخضوع لأي وصاية كانت، إن كانت صادرة عن القوات القريبة أو البعيدة. فلنصرخ عاليا أمام العالم أجمع بأن "الثورة الجزائرية" لم تكن تابعة لا للقاهرة ولا للندن ولا لموسكو ولا لواشنطن في حين كانت تبحث يائسة عن المساعدة للخروج من خطر الموت الذي كانت القوات الفرنسية تسعى إليها. فهذا الكلام ليس أبدا من باب المغالاة ولا من باب نكران الصداقة وإنما لإبراز الحقيقة حتى نكون

جديرين بالحرية. يجب أن نتذكر بأن تلك الفترة بالذات وذاك المبدأ الخالد شكلا منبع عدم الإنحياز الحقيقي الذي ما فتئ يحذو السياسة الخارجية للجزائر المستقلة.

الإمعان في قراءة أرضية الصومام، يجعلنا نعجب لتلك التي كانت تحدو المؤتمرين في إبعاد الثورة الجزائرية عن جميع أشكال الإستلاب والتبعية. ونادرا ما كانت الأمور بهذا الوضوح حين يتعلق الأمر بعلاقات هذه الثورة مع العالم الخارجي إلى درجة أننا قد نصاب بالملل من ذلك، فهناك من أصيب بالملل مما وصف بتصلب قادة الصومام. وقد يرى البعض في بعض الفقرات شيئا من التعجرف بل نوعا من جنون العظمة بالنظر إلى ظروف تلك الفترة.

بعد إبعاد فكرة التبعية أراد المؤتمرون التعامل مع بعض البلدان ندا للند حين كتبوا:

"يجب أن نسهر دوما على حماية إستقلال الثورة الجزائرية."

يا له من تصور مذهل. نعم فالثورة الجزائرية ستسهر بيقضة تامة على الحماية الكاملة لتوجيهاته و قراراته. فكيف إذن لا نرى -بعيدا عن تلك المحظورات الخاصة بالانسان- في مؤتمر الصومام أحد أعظم أحداث تاريخ الجزائر. لقد قدم مؤتمر الصومام الذي هو رمز وحدة الشعب الجزائري، لثورة التحرير الوطني أدوات تتجاوز الرجال والظروف لتصقل نصرها وخطط لجزائر أبدية غيورة على حريتها ومتمسكة بقوة بالعدالة الاجتماعية وروح الأخوة لديها والتضامن مع الشعوب المضطهدة. ليس هناك ما هو أفضل من رفع العبارة التالية فوق بناياتنا للتذكير بالأهمية الخاصة لمؤتمر الصومام :"الوطن يعترف بفضائل مؤتمر الصومام".

الجزائر الحمراء، عاصمة الثورة

"من يقود الجزائر العاصمة يقود الثورة"، ذلك ما قاله مختار بوشافة، أحد قادة مجموعات "الكومندوس" لعاصمة البلاد. نحن لا نعتقد أنه أخطأ، فعلى مدى حرب الجزائر، كانت العاصمة الجزائرية تلعب دورا رئيسيا في أغلبية الأحداث فيما يخص تطور سياسة فرنسا والثورة بالنسبة للجزائر. فالأحداث التي جرت فيها والتي أثرت بقوة وبصفة حاسمة في توجيه الحرب، لا تحصى ولا تعدّ.

فالفضل في أن تصبح عاصمة للثورة لا يعود فقط لكونها أقامت لأول مرة هيئة تنفيذية وطنية جزائرية تتكفل بقيادة الشعب في حربه التحريرية، وإنما أيضا لمشاركة سكانها في مكافحة النظام الاستعماري الفرنسي. كل الأضواء كانت ولمدة طويلة مسلطة عليها إلى درجة أنها أصبحت منارة البلاد وسطرت النهج الواجب إتباعه. فالجزائر العاصمة هي التي تكبدت أبشع الآلام من بين مدن البلاد الكبرى. وكانت دائما أول من ردّ على القمع الأعمى للسلطات الاستعمارية وعلى الهجومات الإرهابية لمجموعات اليمين الفرنسية فكانت القدوة الحسنة.

حين أقام أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ الخمسة بالجزائر العاصمة فذلك لم يكن من باب الحذر أو الجبن. صحيح أن الجزائر العاصمة لم تكن تشتعل نارا ولا دما عند عودة عبان رمضان وبن مهيدي العربي وكريم بلقاسم من الصومام بالرغم من أن فتيل الإرهاب الحضري بدأ يظهر فيها بقوة. فكان يمكن الاختباء فيها والتنقل دون التعرض لخطر القبض في أي لحظة وفي كل الأحياء. فكان أقل خطرا على أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ أن يقيموا مقرهم العام في أحد جبال الجزائر حيث

لن تتمكن القوات الفرنسية من العثور عليهم ولا حتى من القضاء عليهم بكل سهولة وبدون أن تتكبد أي خسائر.

إن اختيار الجزائر العاصمة كمقر لهم إنما كان لإعطاء رمز السيادة الوطنية الذي كان دوما يتصدر دوافع الثورة الجزائرية، خاصة انطلاقا من مؤتمر الصومام. فكان الجميع يرى أن الجزائر خرجت من هذا المؤتمر بأدوات سيادتها: جيش وطني وعدالة ودعم وجمعية منبثقة عن اللجنة الوطنية للثورة الجزائرية وحكومة أو هيئة تنفيذية مصغرة ممثلة في لجنة التنسيق والتنفيذ.

فكانت هذه اللجنة تتصرف في جميع المجالات كحكومة الثورة بل كحكومة البلد من خلال البحث دوما عن تطبيق القرارات التي خرج بها مؤتمر الصومام وغالبا ما كان ذلك في دوّامة من الصعوبات والمخاطر وذلك بكل قوة وإيمان لا يزال يحيّر اليوم أكثر من ذي قبل. وبطبيعة الحال وكالمعتاد، هناك من حاول فتح المواجهة بين أعضاء اللجنة وأعضاء آخرين للثورة الجزائرية حيث لجؤوا -من أجل ذلك- إلى الجهوية والقبلية حتى وإن تحتم الأمر فتح المواجهة بين أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ فيما بينهم دون الاكتراث للتناقض الفاضح في تحاليلهم السابقة. نحن لا نعتقد أن ثمة حكومة في العالم تكاد تخلو من الخلافات والاختلافات وحتى من التناقضات. ذلك لا يعني أنه يجب تفسيرها أو تحويلها إلى نوع من الجهوية أو العرقية.

على العكس من ذلك، بحسب الرئيس بن خدة وسعد دحلب وهما العضوان الوحيدان من لجنة التنسيق والتنفيذ اللذان لا يزالان على قيد الحياة، فقد عملت اللجنة في جو من الانسجام التام أو على الأقل بروح من المسؤولية والاحترام الحقيقي والمثالي. نحن نعلم أن عدد العقليات داخل لجنة التنسيق والتنفيذ كان بقدر عدد الشخصيات والأعضاء. وقيل

لنا أن عبان رمضان كان ملحدا في حين كان ابن مهيدي متشبعا بقوة بعظمة الإسلام. وبهذا الخصوص يمكننا القول أن ابن خدة كان أكثر تقربا من ابن مهيدي منه من عبان رمضان وليس هناك من يكذبنا بهذا الخصوص. وكان كريم بلقاسم ميالا للقوى المادية أكثر من ميله للهياكل الغيبية، كان يعيش الحاضر القريب ولا يفكر في المستقبل البعيد. أما سعد دحلب، فيكفي الإستماع إليه لنكتشف بسرعة الى أي درجة كان فكره يتنافى مع تبني أية عقيدة. ولد في الجنوب الجزائري حيث لا يوجد حاجز يمنع النظر وكان فكره واسع بشساعة الفضاءات الواسعة. لم يكن يكترث للتفاصيل.

بعد تعرفنا على جو العمل الذي كان يسود لجنة التنسيق والتنفيذ، تبين أنه لم تكن هناك مشاكل خطيرة أو خلافات جوهرية بين أعضائها. وكرر لنا أحدهم مرارا أن "لجنة التنسيق والتنفيذ كانت متجانسة" وأنه لم يكن فيها "لا مشاكل الحضور ولا مشاكل الأشخاص" لأن، كما أضاف المتحدث بهذا الخصوص، لما كان كل عضو يعود إلى "مغارته" بعد كل إجتماع، لم يكن يدري إن كان "سيخرج منها" حيا.

وأكد أحد الأعضاء أن كل القرارات الهامة كانت صادرة عن الأعضاء الخمس وتمت الإشارة هنا إلى موضوع إضراب الثمانية أيام الذي نخصص له الفصل المقبل، والرسائل الهامة التي أرسلت إلى الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني وتعيينات قادة الولايات _بما فيها ولاية بن طوبال لخضر الذي أصبح فيما بعد أحد الأعضاء التسعة للجنة التنسيق والتنفيذ الثانية والذي تقلد مع كريم بلقاسم مهمة قيادة الثورة.

يبقى أن نشير الى أن عبان رمضان، مع إحترام إطار القيادة الجماعية، "تفوق على أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ الآخرين" كما قال أحدهم. و نفس التصريح نجده في شهادة أخرى بعبارات مختلفة.

فحتى وإن وجدنا ذلك "أمرا طبيعيا " أو اعتبرنا أنه استجابة لمبدأ "روح المبادرة" ، ليس هناك ما أهو أكثر دلالة على روح السلطة التي كان يمارسها عبان رمضان إذ يقول أحد رفاقه أنه لم يكن يأخذ بمفرده القرارات في مجملها وإنما بعض المبادرات عند تطبيقها" فيما يؤكد رفيق آخر أنه كان يضطلع "بدور المنسق مع الخارج وفدرالية فرنسا لجبهة التحرير الوطني وقادة الولايات". ذلك ما يوضح مدى تأثيرعبان رمضان على الثورة ودواليبها. كما جاءت شهادة أخرى لمختار بوشافة تؤكد ذلك إذ قال أن "مؤتمر الصومام هو الذي عين عبان رمضان قائدا لجبهة التحرير الوطني". و مما لا ريب فيه أن عبان رمضان كان، مهما توخينا من حذر من أجل الحكم على مسؤوليته الدقيقة، متفوقا على غيره من قادة الثورة. كل الشهادات المباشرة أو غير المباشرة تتفق على أن عبان رمضان كان يتبوأ المكانة الأولى ولا يهم إن كانت على مستوى التطبيق وليس على مستوى النصوص.

صحيح أنه باستثناء مرجع واحد أو اثنين ورد فيهما أن عبان رمضان كان "ممثلاً لجبهة التحرير الوطني" (المرجع: محضر مؤتمر الصومام) أي أن عبان رمضان كان ممثلاً للثورة في حين لم يكن الأخرون يمثلون سوى ولاية واحدة (منطقة كفاح)، فإن النصوص الرسمية الأخرى لم تشر الى أي تفوق لعبان رمضان على باقي مسؤولي كفاح التحرير الوطني. فأهمية الدور الذي لعبه في "التنسيق" و"متابعة القرارات" والتي تؤكدها كل الشهادات تبرز البعد الإستثنائي لشخص عبان رمضان الذي نجح، بطريقة إرادية أو بحكم الأحداث، في أن يصبح ميدانيا الشخص الرئيسي والمهيمن في الثورة الجزائرية.

وقد تعززت سلطته بعد مؤتمر الصومام حتى وإن حرص المؤتمرون، من خلال النصوص، على تفادي العودة إلى عبادة الشخصية وعلى أن يوكلوا

مهمة مصير الثورة ليس لشخص واحد أو لقائد واحد وإنما لقيادة جماعية ممثلة في جهازين متطابقين (لجنة التنسيق والتنفيذ واللجنة الوطنية للثورة الجزائرية).

ومهما كانت قوة إرادة الرجال في تحديد سلطة أحدهم فإن التاريخ غني بالأمثلة التي تبين أن قيمة كل شخص بالاضافة الى الظروف وربما حتى الحظ، هي التي تميز بينهم في الأخير.

بالنسبة للثورة الجزائرية، كان عبان رمضان من أهم عناصرها. فكل الظروف كانت لصالح شخصه الذي كان يتسم، بشهادة الرفاق والخصوم، بالعزم وقوة القرار. ففي تلك الفترة الحاسمة من سنة 1956، كان ينبغي التحلي بكثير من العزم لأن الصراع من أجل بلوغ الهدف كان يتعزز ويتأكد من كل جانب.

لقد كانت فرنسا هي البادئة. فمنذ 12مارس 1956 تحصلت حكومة غي مولي (Guy Molet) على السلطات الخاصة بعد التصويت بالأغلبية الساحقة (455 صوتاً مؤيدا مقابل 76 صوتا ضد) الذي مكنه من الحصول "في الجزائر على السلطات الأكثر توسعا لإتخاذ كل الإجراءات الاستثنائية التي تفرضها الظروف من أجل إستتباب الأمن وحماية الأشخاص والممتلكات والاقليم". تلك هي الفقرة المهمة (المادة 5) في القانون حول السلطات الخاصة(1). تجدر الإشارة هنا إلى أن حتى منتخبي الحزب الشيوعي الذين أعربوا عن معاداتهم للثورة الجزائرية، صوتوا على القانون. فمن الصعب فهم ذلك الفكر الجدلي لدى أحزاب اليسار الفرنسي التي غالبا ما تفعل بالضبط عكس من تقول. فالنواب الـــ76 الذين صوتوا ضد هذا القانون –خاصة مجموعة بوجاد الزائلة– لم يكونوا ضد الثورة وإنما كانوا على عكس ذلك يطالبون بإجراءات أقوى بكثير. هكذا تم عن الجانب الفرنسي، حشد القوات لمضاعفة جهود الحرب في الجزائر. وأفضت هذه الجهود إلى رفع عدد العسكريين من 80000 رجلا

في ماي 1955 الى 225000 في بداية سنة 1956 وأخيرا إلى 400000 رجلا في جويلية من نفس السنة(2). فلأول مرة منذ الحرب العالمية الثانية تستدعي فرنسا جنود الاحتياط (3).

لم تبق جبهة التحرير الوطني مكتوفة الأيدي إذ لاحظنا من قبل أن حشد القوات الوطنية تحت قيادة عبان رمضان تم بنجاح غير منتظر من طرف جبهة التحرير الوطني بل أنه فاجأ حتى الجانب الفرنسي الذي لم يفهم الكثير من هيمنته الطويلة على الشعب الجزائري. وأمام التشييد المعتبر للجيش الفرنسي لم تبق جبهة التحرير الوطني في الميدان إلاّ قواتها الخاصة وكأن الأمر كان يتعلق بوضع جيش مقابل جيش آخر لأنه كان يجب تقليص ـعسكرياـ قوات الحركة الوطنية الجزائرية وكذا بعض العناصر المشتتة للحزب الشيوعي الجزائري من باب الردع وليس من باب الإقناع.

ما يهمنا هنا هو ليس تقليص وتشتيت الجبال الزائلة للحزب الشيوعي الجزائري في منطقة الونشريس بقدر ما هو دمج "الناجين من الجبال الحمراء" أو من "كومندوس الحزب الشيوعي الجزائري" كما سماهم مختار بوشافة. فالحديث مع هذا الأخير مهم باعتباره لعب دورا مباشرا في استقبال العناصر الشيوعية داخل جبهة التحرير الوطني. ويعود تاريخ التبليغ عن وجود عناصر مسلحة من الحزب الشيوعي الجزائري تتحرك في الجزائر العاصمة إلى مارس 1956.

فكانت عملية رمي قنبلة يدوية على محافظة شرطة بحي لارودوت بالجزائر العاصمة ـعلما أن جبهة التحرير الوطني لم تأمر بذلكـ هي التي أدت إلى فتح التحقيق. فألقى رجال جبهة التحرير الوطني القبض على أحد إخوة عكاش الذي كان الأمين الوطني للحزب الشيوعي الجزائري حيث إعترف لهم بوجود عناصر شيوعية تريد أن تنشط في الجزائر العاصمة. وبدافع الخوف "أرغمت" هذه العناصر قيادة الحزب

الشيوعي الجزائري على التفاوض مع جبهة التحرير الوطني. والبقية نعرفها حيث رفض الحزب الشيوعي الجزائري الحل لكنه قبل الإندماج الفردي لعناصره في جبهة التحرير الوطني.

وكان لبوشافة الحرية التامة في دمج المجموعات الحضرية الشيوعية المتواجدة في الجزائر العاصمة.وهكذا وفي حدود جويلية 1956 إلتقى بقروج المدعو سي السعيد وهو أحد مسؤولي هذه المجموعات. تم اللقاء في شقة البروفيسور بيران في الطابق التاسع بعمارة كائنة بحي تيليملي (صالح بوعكوير حاليا). وبعد أن نطق قائدا الكومندوس بكلمة السر "صديق بوجي" دخلا في صلب الموضوع لمعرفة أسماء وعدد العناصر التي سيتم دمجها. وعلم بوشافة بوجود أربع شبكات تتكون كل منها من عشرة أعضاء لتغطية أحياء الأبيار وباب الوادي وبستان صالمبيي (المدنية) ولارودوت (المرادية). وهناك شبكة خامسة متخصصة في صنع القنابل اليدوية تحت قيادة روجي تيمسيت.

وبخصوص الإندماج، قال (4) لنا بوشافة أنه كان يفضل عدم دمج العناصر الشيوعية في كومندوس حتى لا تطاله "العدوى". فلم يكن قادة مجموعات الكومندوس وحدهم يخشون العدوى الإديولوجية لعناصر جبهة التحرير الوطني من طرف عناصر الحزب الشيوعي. وقد لمسنا هذه التخوفات لدى شهود مهمين دون أن نعرف كيف ولدت هذه التخوفات. ولم تكن هناك على ما يبدو توجيهات عامة من جبهة التحرير الوطني للوقاية من مثل هذه العدوى. فلم يكن عبان رمضان الذي بادر بالاتصالات السياسية مع الدكتور هجرس، مسؤول الحزب الشيوعي الجزائري، من الرافضين للإيديولوجية الشيوعية إذ قال لنا بعض الشهود الذين إلتقينا بهم أنه كانت لديه قناعات ماركسية بل تدعو الى الماركسية. فكان لائكيا بالنسبة للبعض وماركسيا للبعض الآخر بل وهناك من قال أنه

كان ملحداً. ما يمكننا القول: وليس لدينا أدلة مكتوبة:أن عبان رمضان لم يكن آنذاك يعير أي الإهتمام لأي شيء آخر غير الكفاح الوطني. صحيح أننا نستطيع الخروج ببعض الإستنتاجات من مواقفه لمحاولة "تصنيفه" إديولوجيًا. لكننا نعتقد أنه من التعسف وليس من الأمانة أن ننسب له بصفة نهائية وقطعية إحدى هذه الإيديولوجيات. فكل ما كان يهمه هو العمل على تعزيز الكفاح لتحرير البلاد.

فإذا كانت اليوم بعض التصنيفات قائمة فإن ذلك لا يعني أبداً أنه لم يكن لعبان رمضان آنذاك قناعاته الخاصة، لكن الذهاب الى حد وصفه باللائكي أو الماركسي أو معاديا للدين، فذلك خطأ كبير وعدم الأمانة. فحين كان يتكلم عن ذلك فمن باب الإهتمام الظرفي. لم يكن هناك ما يشغله عن الكفاح من أجل إستقلال البلاد. ولهذا السبب بالذات يجب إلا نلصق به تهمة التخوف من الشيوعيين. بل كانت شخصيته قوية و قناعته عميقة وراسخة في الكفاح الذي كان يخوضه، مما يجعله يحتاط لكل ما يراه ضعفا. صحيح أن المناضل الشيوعي آنذاك كان إيديولوجيا أكثر تكوينا من غالبية أعضاء جبهة التحرير الوطني لكن كلمة نظام الاستقلال كانت كافية لتقليص كل الكلمات الأخرى. على أي حال، كان من بين قادة جبهة التحرير الوطني من كانوا حذرين، ربما بصفة مبالغ فيها، مما أدى الى تفادي إمتصاص قادة الكومندوس الذين كانوا يراقبونهم لعناصر الحزب الشيوعي الجزائري. وقد إحتفظ هؤلاء، حسب بوشافة، بهياكلهم التي كانت مهمتها منحصرة في الاستعلامات و البحث عن الأسلحة والملاجئ والتوظيف. وقد تلقوا الأمر بعدم القيام بأي عمل قبل أن يصدر الأمر من جبهة التحرير الوطني.

في صائفة سنة 1956 كان الأمر واضحا في الجزائر العاصمة إذ كان هناك جبهة التحرير الوطني التي كانت سيطرتها تامة على المدينة

من جهة و السلطات الفرنسية من جهة أخرى. فبالنسبة لهذه الأخيرة إنقلب الوضع على عكس ما جرى لجبهة التحرير الوطني بحيث كلما بسطت جبهة التحرير مراقبتها للسكان كلما تكونت داخل الاستعمار والنظام الاستعماري جماعات صغيرة وقوات تتحرك حسب ما تراه في صالحها أو رؤيتها للمصالح الحقيقية لفرنسا: وكان لذلك تأثيران: أولا خلق تصرفات قتالية من قبل المجموعات المتطرفة ثم فيما بعد ضرب السلطة المركزية للعاصمة بصفة تدريجية.

ومما لا ريب فيه أن التاريخ سجل أبشع مراحل حرب الجزائر عند استعمال المشنقة لإعدام مناضلي جبهة التحرير الوطني وذلك نتيجة الضغوط التي كانت تمارسها هذه العناصر المتطرفة. كان أحمد زبانا وعبد القادر فراج أول من أعدما شنقا من طرف فرنسا لأنهما أرادا تحرير بلادهما.

في نهاية سنة 1957 (5) بلغ عدد المعدومين شنقا 111 شخصا. فلا نوعية المكافحين الأوائل الذين شنقوا ولا حتى عجز البعض منهم بل ولا حتى تدخل السلطات الدينية بالجزائر العاصمة -ابتداء من الأسقف دوفال- لم تتمكن من تليين القلب الجامد للحاكم العام لاكوست الذي رفض العفو وشن آلة الإرهاب الجهنمية.

ونؤكد هنا أنه لم يسجل قبل ذلك أي عمل إرهابي متعمد في حرب الجزائر خاصة إزاء السكان المدنيين. ومما لا شك فيه أن هناك مخبرين وجلادين ومساندين للنظام الاستعماري من أعدموا من طرف جبهة التحرير الوطني وأكيد أيضا أن هناك مدنيين أبرياء دفعوا حياتهم خلال الكمائن التي نصبتها عناصر جيش التحرير الوطني. أكيد أن هناك أخطاء إرتكبت هنا وهناك من طرف المسؤولين المحليين للثورة وأن كان هناك ضحايا مدنيين لكن المؤكد أنه لا قيادة الثورة ولا أي مسؤول هام من فكر في اللجوء إلى الإرهاب الجماعي والأعمى.

وعلمنا من مختار بوشافة، أول مسؤول لمجموعات الصاعقة (الكومندوس) لجبهة التحرير الوطني في الجزائر العاصمة أنه لم يفكر يوما في وضع قنابل في الأماكن العمومية أو في إطلاق الرصاص بدون تمييز على المدنيين الفرنسيين (6). كما أطنب ياسف سعدي الذي كان هو أيضا مسؤول مجموعات الكومندوس لجبهة التحرير الوطني بالعاصمة والذي بقي من فيفري 1957 (القبض على العربي بن مهيدي) إلى غاية القبض عليه في 24 سبتمبر من نفس السنة، المسؤول السياسي-العسكري الوحيد لجبهة التحرير الوطني في العاصمة حيث قال: إن قرار السلطات الإستعمارية بضرب عرض الحائط كل الاتفاقيات الإنسانية وبعدم الإكتراث لأي إلتماس أو إلحاح من السلطات الدينية للديانات الأربعة الممثلة في الجزائر، هو الذي جعل جبهة التحرير الوطني على أعلى مستوى وبإجماع تقرر الرد على عمليات الشنق.

وكان بوشافة أول من تلقى الأمر بالتحرك وإطلاق النار على كل أوروبي باستثناء النساء والأطفال والشيوخ .وباستثناء هذه الفئة كان اللآخرون خاضعين لحكم قائد المجموعات المسلحة ويعود له القرار في إختيار أهدافه للإنتقام لمناضلي جبهة التحرير الوطني الذين أعدموا في سجن بربروس. وفي اليوم التالي في 20 جوان 1956 تلقى ياسف سعدي نفس التعليمات حتى يتحرك هو أيضا فورا لدى رجاله وحتى تدرك السلطات الفرنسية حجم قرارها الاعمى واللاإنساني. وسرعان ما ظهرت النتيجة حيث لم يكن رجال بوشافة وياسف في حاجة إلى أكثر من إغتيال إخوانهم بواسطة آلة بقذارة المشنقة للرد بكل هذه السرعة.

كما دفع العديد من الضحايا الأوروبيين حياتهم أمام ضلال السلطة الاستعمارية. ومنذ ذلك اليوم أخذت حرب الجزائر منعرجا وبعدا آخر حيث ولد الإرهاب الذي كان يستحيل توقيفه قبل نهاية النزاع، فإذا

كان السكان يتذكرون هذه الحرب بفظاعة فذلك بسبب تفشي هذا الإرهاب الذي سيتسع بسرعة ليطال مجموع المدن الجزائرية ويصبح وسيلة كفاح تساند و أحيانا تحل محل كفاح الجيشين المتجابهين.

وكأن استعمال المشنقة ضد المكافحين الذين كان من المفروض أن يستفيدوا من حماية الاتفاقيات الدولية حول قانون الحرب، لم يكن مثيرا بالقدر الكافي، قامت الأوساط الفرنسية المتطرفة التي لقيت تشجيع السلطة الاستعمارية التي خضعت لمطالبها، بشن عمليات استفزاز أكثر شناعة و قتالية. فبعد أقل من سنتين من إعدام زبانة وفراج، وضعت مجموعة من الأوروبيين ليلة 9 إلى 10 أوت 1956 قنبلة وزنها 30 كلغ في قلب قصبة الجزائر في شارع تابس رقم 09. ولمن يعرف مدى ضيق وهشاشة عمارات القصبة، يمكنه بكل سهولة تصور نتائج هذا العمل الإجرامي. فكثيراً من منازل القصبة التي غالبا ما تكون متراصة بعضها ببعض والتي تكتظ بالسكان في هذا الحي الأكثر كثافة سكانية في العاصمة وربما في العالم، كانت تسقط وحدها بدون قنابل حيث كان فصل الشتاء يحصد العديد من المنكوبين.

في تلك الليلة، كان الأوروبيون المتطرفون لديهم ما يفتخرون به. فكانوا يتلاعبون بكل سهولة بقوات الأمن اللهم إلا إذا كانت هذه الأخيرة تغض بصرها على مغامراتهم أو فقط لأنهم كانوا يقدمون لها المساعدة، إذ تحصلوا عن الإذن بقنبلة أربعة أحياء، فكان المشهد مرعبا ولا يطاق: حيث تم انتشال ما بين 50 إلى 70 ضحية من تحت الأنقاض، وفور وقوع الانفجار هلع سكان القصبة الذين يتعارفون جميعاً ويعيشون معزولين– حيث كان حيهم دائما يشكل مدينة في قلب مدينة مكتفين بالمواد الغذائية الرئيسية التي كانت لديهم– فلم يكونوا في حاجة إلى التساؤل حول مكان الانفجار. فالحرب التي يعيشونها وخاصة الحرب داخل المدن أكسبت الجزائريين "حسا" و"حدسا" أكيدان. فهم يعلمون بالفطرة من هو معهم، ومن هو ضدهم.

المهم الآن هو انتشال الموتى والجرحى إذ كان كل فرد يبحث يائساً عن ذويه، لكن سرعان ما تحول العذاب إلى غضب وسخط.

فكل الذين تعرضوا ـ وهم كثر ـ لمثل هذه الأعمال تنتابهم رغبة الانتقام لذويهم . ففي هذه اللحظة يصعب لأي كان ممن تعرض لهذا الرعب التحكم في أعصابه. فلولا الخوف من عناصر جبهة التحرير الوطني المتوغلين وسط الجماهير والمعروفين لديها، لتهجّم هؤلاء على المدينة الأوروبية.

فلم يسمع النداء الى الهدوء إلا لأن قادة كومندوس جبهة التحرير الوطني أقسموا أنهم سيحلون محل العائلات المتضررة وسينتقمون لموتاهم. وفي خلال شهرين انطلقت آلة الإرهاب الحضري وليس هناك ما يوقفها الى غاية نهاية الحرب. فكانت هذه الآلة شرسة وأصبحت أحيانا للأسف الوسيلة المفضلة للكفاح. فلنلاحظ مع ذلك أنه بالرغم من فضاعة عملية تدمير القصبة وغضب السكان الأعمى الذي تلا العملية، لم يكن هناك رد فعل فوري لجبهة التحرير الوطني وذلك للتأكيد بأن العمل الإرهابي الجماعي لم يكن من تخطيط الجبهة وأن العملية باعتبارها خطيرة وخاصة، لا تصدر إلا بعد مداولات حقيقية.

وللتذكير ففي الوقت الذي قصفت فيه قنبلة المتطرفين منازل القصبة كان قادة جبهة التحرير الوطني في مكان بعيد في طريقهم إلى مؤتمر الصومام وإنه لم يبق في العاصمة سوى ابن خدة وسعيد دحلب ولعله لم يكن بوسع أحدهما إتخاذ قرار شن عمل إرهابي جماعي بهذا الحجم خاصة وأن الرجلين لم يكونا مرسمين في مهمتهما كمسؤولين وطنيين لجبهة التحرير الوطني. فكان ينبغي إنتظار إختيارهم في مؤتمر الصومام ولم يتم ذلك إلا بعد شهر.

ولم يتخذ قرار الرد على العمل الإرهابي للمجموعات المتطرفة الفرنسية إلا بعد عودة المؤتمرين إلى الجزائر. وكما كان الشأن غالباً،

حرر منشور، ربما في شهر سبتمبر، لإعلان رد فعل جبهة التحرير الوطني على القنبلة التي أطلقت في شارع تابس ونظرا لأهمية هذا المنشور، هذا نصه الكامل:

"أسفر الإعتداء الشنيع بالبلاستيك الذي ضرب مؤخرا حي القصبة، عن إنهيار مجموعة سكنية بأكملها مخلفا 50 قتيلا من بينهم عدد من النساء والأطفال. لقد نددنا آنذاك بهذه المؤامرة التي نظمتها مجموعة فرنسية بالرغم من البيان الكاذب لمصالح السيد روبار لاكوست الذي أكد أن "الحادث كان ناتجا عن إنفجار في مخزن لذخيرة المتمردين".

بالفعل، صدر بعد ذلك بقليل منشور عن "لجنة الأربعين" ليؤكد أن ما حدث للقصبة كان بفعلها هي وأنه يجب أن يشكل "تحذيرا" : فلكل "فرنسي يقتل سيقابله إغتيال 100جزائري". فبإمكاننا اليوم -بفضل مصالحنا الاستعلامية- أن نكشف بعض التفاصيل حول النشاطات الفتاكة لهذه الجماعة من قطاع الطرق".

لم تكن روح "مجموعة الأربعين" سوى من إمضاء أشياري الذي حكمت عليه جبهة التحرير بالإعدام والذي نجا منذ أشهر من عملية قامت بها مجموعة كومندوس جيش التحرير الوطني بالجزائر العاصمة ضده.

وفيما يلي أسماء رجال الشرطة الذين كانت قيادة أركان "لجنة الأربعين" تتشكل منهم:

1) المحافظ تروجا من الاستعلامات العامة، رئيس قسم المخدرات والقائد الرئيسي "للجنة الـــ40 "
2) محافظ الشرطة للمقاطعة الثانية لاقاف.
3) ضابط الأمن بلوسون من المحافظة المركزية.
4) ضابط الشرطة القضائية للمقاطعة الثانية دوشون.
5) لوشال، مفتش بالمحافظة المركزية ومختص في إستعمال البلاستيك.

ويشكل هؤلاء الموظفون الخمسة قيادة أركان "الـــ40" التي تأسست بموافقة روبار لاكوست. نقدم هذه المعلومات للراي العام الجزائري والعالمي الذي سيحكم على الوسائل التي يلجأ إليها اليوم الحكام الفرنسيون. كان لاكوست قد وعد عند وصوله في فيفري الماضي "بقلب البخار في خلال خمسة أشهر". فهو اليوم يقدر حجم وخطورة فشله وذلك نحن نجدد التأكيد بأن : لا لاكوست ولا أتباعه سيستطيعون كسر الوثبة التحررية للشعب الجزائري.

فالثورة الجزائرية متواصلة وليس هناك من يقف في طريقها فهي ستسحق كل من يحاول إيقاف مجراها الذي له إتجاه واحده (7)."

وأخذ هذا التحذير معنى خاصا غداة مؤتمر الصومام. فهو باستثناء الأوروبيين الإرهابيين، موجه إلى كل من يحاول ضرب كفاح الشعب الجزائري.

وأول ما كان على لجنة التنسيق والتنفيذ أن تفعله فور إقامتها بالجزائر العاصمة الرد أولا على تصعيد العنف لدى الأوروبيين وإلا لفقدت مصداقيتها في نظر الكثير من الجزائريين. وفي نفس الوقت ستثبت مدى إنسجام وقوة الثورة التي تعززت إثر مؤتمر الصومام . ويقال أن العربي بن مهيدي وعبان رمضان وحدهما هما اللذان كانا على يقين بأن العمل العنيف في المدن وحده قادر على الإطاحة بالنظام الإستعماري.

فالمراجع التي تؤكد أن قائدي جبهة التحرير الوطني هما اللذان دعيا إلى اللجوء إلى "الدم" و"الاعتداءات" في المدن كثيرة. وعلمنا مباشرة من العقيد دهليس الذي كان قائد الولاية الرابعة أن عبان رمضان أكد له ما يلي: "بإمكانك أن تقتل مجموعة في الجبل دون أن يحدث شيئا. ما يهم هو الجزائر العاصمة(8)". وعلم أنه قال في مناسبة أخرى أن : "قتل رجل واحد في الجزائر العاصمة أفضل من قتل عشرة رجال في الجبل" وأن "حرب العصابات لن تتقدم في منطقة القبائل إلا حين تتحرك الجماهير في العاصمة (9)".

وكل التصريحات تتقاطع حول مطلب واحد وهو: تحريك الجماهير في المدن وضرب العدو داخل التجمعات السكنية. ولكن لم يرد في أي مرجع أن عبان رمضان والعربي بن مهيدي قالا أنه يجب مهاجمة المدنيين وخاصة بدون تمييز. ولعلّ عمليات إعدام مكافحي جبهة التحرير الوطني شنقا وإعتداء المتطرفين على شارع تابس الذي إستهدف بدون تمييز المدنيين الجزائريين وهم نائمين في بيوتهم المتواضعة هي التي جعلت لجنة التنسيق والتنفيذ وعلى رأسها عبان رمضان والعربي بن مهيدي تأمر بشن أعمال إرهابية جماعية في المدن بدليل أن الاعتداءات الإرهابية الأولى التي نفذتها جبهة التحرير الوطني في الأماكن العمومية لم تسجل قبل 30 سبتمبر 1956، أي بعد خمسين يوما من إنفجار القصبة من جهة وبعد مؤتمر الصومام وإقامة لجنة التنسيق والتنفيذ بالجزائر العاصمة من جهة أخرى.

كانت أول مبادرة لهذه اللجنة إرسال التوجيهات لياسف سعدي الذي أصبح القائد الوحيد لجماعات الكومندوس التابعة للجبهة بالجزائر العاصمة بعد القبض على مختار بوشافة في 08 اوت 1956 حيث كلف بن خدة بهذه المهمة باسم عبان رمضان الذي كان دائما يشعر بالإرتياب تجاه ياسف سعدي. كما سنوضح أنه كان للعربي بن مهيدي الكلمة الأخيرة في التنظيم السياسي والعسكري للعاصمة وكان في ذات الوقت مكلفا بالعلاقات مع الولاية الخامسة الذي كان يقودها في البداية. وفي هذه النقطة سنوضح أنه هو من أعطى الإشارة الخضراء لشن عمليات في الجزائر العاصمة.

كما كانت لجنة التنسيق والتنفيذ ترسل أحيانا توجيهاتها بواسطة المدعو الهاشمي حمود المولود في برج منايل والملقب بسي الحسين إذ أثنى على تواضعه أحد الشهود وعلى الروح الوطنية التي كان يتميز بها بالإضافة الى العمل الصعب والمعتبر الذي قام به. مات تحت التعذيب

في فيفري 1957. كان الوحيد، رفقة نسيمة حبلال، الذي كان يسمح له بدخول المقر التنفيذي لجبهة التحرير الوطني الذي كان متواجدا في منزل عمارة رشيد بشارع تيليملي.

وتفيد العديد من المؤشرات بأن قرار اللجوء الى الإرهاب الجماعي لم يكن قرارا فرديا ولا متسرعا أو طائشا. فمن المؤكد أنه هناك من أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ من حذر من عواقب مثل هذا القرار: كان عبان رمضان يقول بهذا الخصوص أن القوات الاستعمارية ومجموعات المتطرفين التي تتسامح معها وتتستر عليها وتحميها هي التي جعلت من هذه الدوامة الجهنمية أمرا حتميا.

فمن المستحيل عدم الرد على أعمالهما الإجرامية باللجوء إلى نفس العمليات كي تمس السكان الأوروبيين أيضا. فكان لعمليات وضع القنابل الأولى في الأماكن العمومية بالجزائرالعاصمة (ميلك بار والكافيتيريا وموريتانيا) وقعا كبيرا. فاختيار الأماكن التي يتردد عليها خاصة الطلبة والشباب الأوروبيون الذين كانوا دائما على أهبة الإستعداد للتهجم على الجزائريين إلى جانب تزامن الانفجارات والضحايا التي خلفتها هذه الأخيرة كلها تؤكد بوضوح عزم جبهة التحرير الوطني الجديد. فلن يشعر السكان الأوروبيون بعد ذلك أبدا بالأمان فهم أيضا معرضون للخطر دون تمييز لا لسنهم ولا لجنسهم ولا لظروفهم. لن تكون الحرب بعد الآن مواجهة بين القوات العسكرية وإنما كفاحا شاملا يمس حتى السكان. وربما أصبح قادة جبهة التحرير الوطني من خلال اعتداءات 30 سبتمبر 1956 يدركون حجم ووقع الإرهاب. فأصبح السكان الأوروبيون يعيشون في حالة رعب لأنهم أصبحوا لأول مرة مستهدفين بصفة متعمدة. وهكذا لن يبارحهم الشعور بالرعب والقلق أبدا.أما عن الجانب الجزائري، فكان هناك شعور بالإرتياح، فأحيانا يكون بؤس الآخرين يكسب الفرد القوة

على تحمل بؤسه الخاص وكان للسكان الجزائريين نصيبا وافرا في ذلك فهم لا يزالون يدفعون ثمن حرب الجزائر بل أكثر من ذلك فهم على يقين بأن ما ينتظرهم في المستقبل سيكون أمر وأدهى. لكن الجزائريين الذين يعني لهم روح الشرف التضحية بالنفس، رحبوا بكل اعتزاز برد فعل جبهة التحرير الوطني بالرغم من أنهم كانوا يخشون العواقب.

كما كان للمشاركة المباشرة للشابات الجزائريات في هذه الاعتداءات مغزى عميقا إذ ستخلد أسماء ظريف الزهرة وجميلة بوحيرد ولخضاري سامية وغيرهن، النصيب الحقيقي والعظيم لمشاركة المرأة الجزائرية في تحرير بلادها. فأصبح في الجزائر العاصمة وغيرها عدد النساء اللائي حملن قفات الأسلحة وأخفين في صدورهن الرسائل والمناشير وحتى الأسلحة لا يحصى ولا يعدّ ولا عدد النساء اللائي شاركن في الجبال بعدة أشكال في الكفاح من أجل أن تحيا الجزائر المكبلة.

وكان لاعتداءات الجزائر العاصمة أثر عبر كل مناطق البلاد بل حتى مناطق العالم مع العلم أنه كان مبالغ فيها كالمعتاد. وهكذا تأكدت التصريحات المنسوبة لعبان رمضان حيث أصبح الإرهاب بفضل إرادة لاكوست وأتباعه أو لا شعورهم، وسيلة كفاح أسهل ولكنها أفظع من غيرها.

فأعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ الذين أمروا بتنفيذ استعمالها ردا على القمع الاستعماري الجامح لم يفكروا أبدا في توقيف استعمال هذه الوسيلة ولا حتى في التخفيف من حدتها وذلك يعكس حجم المجرى الجديد لحرب الجزائر الذي لم يعد يمكن التحكم فيه. وتجاوزت هذه الحرب كل الحدود وكأن السكان الجزائريين والأوروبيين يكفرون عن ذنوبهم العديدة.

أصبحت حرب الجزائر خارجة عن كل تحكم. ففي الوقت الذي كان فيه الإرهاب الحضري يضرب بقوته أكدت السلطات الفرنسية

في الجزائر مدى عدم احترامها للقانون وحتى للسلطة المركزية لبلادها. فحين قررت هذه السلطات في الجزائر وبدون موافقة لا حكومة لاكوست الذي كان في فرنسا ولا حتى موافقة حكومة باريس، تحويل طائرة وضعها الملك الحسن الثاني في 22 أكتوبر 1956 وتحت تصرف ضيوفه وكانت تقل القادة الخمس للوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني، تكون بذلك قد قامت بأول عملية قرصنة جوية باسم فرنسا(10).

إنها غريبة تلك الحماقة التي ارتكبتها السلطات الاستعمارية التي كانت تعتقد أنها أعطت بذلك ضربة قوية بل قاضية للثورة الجزائرية وهي في الواقع ضربة إضافية لحكومة باريس (بعد الاعتداء الذي وقع في 6 فيفري 1956 ضد رئيس الحكومة الفرنسي أثناء زيارته إلى الجزائر العاصمة). وكتبت نشرية "لاني بوليتيك" (السنة السياسية) الجدية و المعدة بطريقة "علمية" تحت رعاية رئيس المؤسسة الوطنية للعلوم السياسية في عددها الصادر في سنة 1956 بشأن اختطاف قادة جبهة التحرير الوطني أن ذلك "أهم نقطة تسجل ضد التمرد منذ بداية العمليات"(11)، فذلك يبين مدى جهل الأغلبية الساحقة للفرنسيين للواقع الجزائري وللكفاح الذي تخوضه الجزائر لأننا نعرف اليوم أن إختطاف إين بلة الذي قدمته الدعاية المصرية والفرنسية كلّ حسب مصالحها، على أنه قائد الثورة الجزائرية، قد عزز قيادة هذه الأخيرة ولم يضعفها.

كانت السلطات الفرنسية تعرف أو أنه كان يجب عليها أن تعرف ـ لكونها وجدت عند ابن بلة عند إختطافه، رسالة (12) تقول بوضوح بأن العلاقة بين بن بلة وعبان رمضان الذي سميّ بـ"حسان"، لم تكن على ما يرام- بأن المنافسة بل النفور القائم بين الرجلين لم يكن بالجديد بل كان قائما قبل إندلاع الثورة حيث قال لنا أحد الشهود بأن عبان رمضان لم يغفر أبدا لبن بلة كونه خطط لفراره وفرار محساس من سجن البليدة في سنة 1950 بصفته قائد المنظمة السرية تاركا عبان في السجن

لمدة طويلة(13). وأكد لنا الكثير من الشهود بأن الرجلين لم يكونا صديقين حميمين. فالطموح الكبير لبن بلة وطبعه المتشكك والنجومية التي كان الكثير ينسبها له، كلها شجعت على فتح المواجهة مع قادة آخرين للثورة وصلت إلى حد الضرب في القاهرة في ربيع السنة السابقة مع "الحكيم" إبن مهيدي.

ومن جهته، لم يغفر بن بلة لعبان رمضان إرساله الدكتور موتو (لمين دباغين) في حدود أفريل 1955 إلى الخارج ليترأس القيادة الخارجية لجبهة التحرير الوطني، مما جعل منه (من ابن بلة) مجرد عضو وليس قائداً لها. كما لم يغفر له إقصاؤه من مؤتمر الصومام وتأكيد الدور الريادي لعبان رمضان على رأس أجهزة الثورة. وما يؤكد ذلك، جواب عبان لقايد مولود الذي سأله ما سيفعله بعد إختطاف ابن بلة بقوله: "الحرب متواصلة. فلا تهتم بغير ذلك(14)".

والحرب متواصلة بأكثر قوة وصلابة من ذي قبل حيث أصبحت لجنة التنسيق و التنفيذ بعد إقامتها بالعاصمة، أقوى قبل اختطاف ابن بلة الذي كان قد تلقى غداة مؤتمر الصومام تحذيرا بأن عليه في الواقع احترام القرارات والأهداف والسلطة التي أختيرت واتخذت. ما كان لأحد أن يعرف كيف سينتهي الخلاف القائم بين الرجلين لولا فرنسا التي، بتصرفات جنرالاتها الاستعماريين، قدمت للثورة الجزائرية خدمة لا تقدر بثمن عبر تصرفات جنرالاتها الاستعماريين.

لقد بلغت وحدة الشعب ومكافحي جبهة التحرير الوطني ذروتها والتفت حول قيادة الثورة التي كانت في أشد الحاجة إليها، بالنظر إلى الحجم الذي كان سيأخذه الكفاح. وزاد قمع السلطات الفرنسية في تعزيز الحركة حيث أصبح بعض الجزائريين، حسب بعض الشهود، "داخل صفوف جبهة التحرير الوطني رغم أنفهم" كما تحصل أخصائيو الحرب النفسية الفرنسيين على عكس ما كانوا ينتظرونه من نتائج. فالقمع الجماعي

والأعمى لا يؤدي بالجزائريين إلى تحمل النظام الاستعماري بل بالعكس إلى الوقوف في صف كل من يكافح من أجل الإطاحة به.

وشهدت سنة 1956 تصعيدا للمجابهات أسفرت عن الفصل تماما بين السكان الجزائريين والفرنسيين.

فلم يكن لإغتيال رئيس الفيدرالية المشتركة لرؤساء بلديات الجزائر (أميدي فروجي) في 24 ديسمبر 1956 الذي كان مناهضا لكل إصلاح، ليسد الفجوة وحمام الدم الذي يفصل بينهما. فكانت جبهة التحرير الوطني بضرب مبادئ الجزائر الفرنسية، تدرك أنها ستحدث رد فعل أوروبي عنيف. وذلك ما حدث في نفس اليوم حين راح العديد من الجزائريين ضحية الهيجان الاستعماري الذي تهجم على كل ما هو مسلم. فلولا الحزن الذي طال الكثير من العائلات التي طعنت في أعز ما لديها، لقلنا أن هيجان المتطرفين بتورط الجيش الاستعماري كان من فعل جبهة التحرير الوطني ولجنة التنسيق والتنفيذ خاصة لأن هذه الأخيرة على يقين بأن الانتفاضة الشاملة وطويلة الأمد هي وحدها الكفيلة بالقضاء على الهيمنة الفرنسية. فهي تفكر في ذلك باستمرار وتبحث في تحضيرها وقيادتها.

فالوضع المتأزم في الجزائر لم يكن وحده يقلق لجنة التنسيق والتنفيذ. فتقسيم المهام بين أعضائها الخمس مكنها من إنجاز عمل معتبر في التنظيم والتحسيس. فقد انتهى زمن العمل الفردي حيث كان أفضل مسؤول يفقد قواته ولا يستطيع الإضلاع بمهمته. كانت تنظم إجتماعات يومية في بيت عمارة رشيد بالجزائر العاصمة الواقع قرب وحدة عسكرية للحراسة في حي يقطنه مسؤولون سامون مدنيون وعسكريون بالنظام الاستعماري. ولم يلفت تردد أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ أي إنتباه ربما بسبب أزياء التنكر التي كانوا يرتادونها بالإضافة الى جرأتهم ورباطة جاشهم. ولم يكن يؤذن بالدخول إلا لنسيمة حبلال التي كانت أمينة سر

(كاتبة) واتصال، ولحمود الهاشمي الذي كان صلة الوصل الدائم مع مجموعات التدخل. ومن المفارقة أن أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ كانوا يشعرون بالأمان خلال اجتماعاتهم أكثر مما كانوا يشعرون به حين يعود كل واحد "الى مغاراته" التي قد تتغير من حين لآخر بالرغم من أنها مجهولة حتى من طرف أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ أنفسهم. فكان على كل عضو أن يختار ملجأه الخاص. وأحيانا يتوجه بعضهم وخاصة ابن خدة إلى الوكالات العقارية وخاصة وكالة زاناتاكساي وهي أهم وكالة ليستأجر شققا بأسماء مستعارة كملاجئ لزملائه. فأصبح عبان رمضان خبيرا في فن تضليل مطارديه بلعبة الغميضة هذه التي تهدف إلى تضليل القوات الاستعمارية المهووسة باختطاف مسؤولي جبهة التحرير الوطني إعتقادا منها بأنها ستضع هكذا حدا للحرب. فكان أكثر من غيّر ملجأه حيث رآه شهود يسكن في كل من الحراش والقبة والرويسو (الحامة) وأعالي القصبة والأبيار وبيلكور وديار المحصول وأخيرا في أعالي مصطفى.

وفي هذا الملجأ الأخير وقع عبان رمضان العنيد في حب فتاة. فمهما كانت الظروف وقوة الطبع لدى الإنسان فالطبيعة هي نفسها في كل مكان وزمان. ومهما تسترنا وراء الاحتشام والعفة فغالبا ما تتفوق الغريزة. فالطبيعة لم تفقد يوما حقوقها. فلا مفرّ من الرجوع إلى المرأة التي استسلم لها عبان رمضان بعد تردد طويل. وبعد أن خفق قلبه لفتايات أخريات من محيطه وهو هارب لكن التي تمكنت منه هي فتاة شبه مثالية اسمها عزّة ولدت في 16 سبتمبر 1928 بالجزائر العاصمة. كان والدها -بوزكري- منحدرا على ما يبدو من عائلة مغربية مقيمة بالجزائر منذ زمن بعيد على غرار المكثير من العائلات خاصة في منطقة وهران. أما والدتها فكانت جزائرية الأصل.

وما يفسر "الضعف" الإنساني لعبان رمضان هو ما تبقى اليوم لهذه السيدة من جمال ورشاقة. تم زفافهما في 05 جانفي 1956 بقراءة الفاتحة وبحضور شهود كما تقتضيه الشريعة الإسلامية. ولم يسجل عقد الزواج إلا بعد الاستقلال لأنه لا يمكن لرجل كعبان رمضان الذي كان خطيرا ومحل بحث ومن أنصار مقاطعة الإدارة الاستعمارية، أن يخترق مثل هذه التعليمات.

بعد سنة -جانفي او فيفري1957- من الزواج، أنجب عبان رمضان ولدا سمي حسان، لكنه نادرا ما كانت تتاح له فرصة التمتع بهذا الحدث العظيم في خضم كل تلك الفظائع والأحزان والأرواح التي كانت الحرب تحصدها.

كانت المهمة من أصعب ما يكون إذ كان عليه أن يواجه الوضع مع أصدقائه من لجنة التنسيق والتنفيذ خاصة وأن الانتقادات كانت تتهاطل عليه إلى جانب الانشقاقات. فالجانب الإيجابي في الغموض في المسؤوليات السابقة لمؤتمر الصومام هو أنه لم يكن الاتهام يوجه لشخص محدد إذ كان يصعب توجيه أصابع الإتهام للمسؤول الوحيد عن النقائص. وبعد تعيين أسماء أعضاء القيادة -لا يهم إذا قبلها الأخرون أم لا- أصبحت كل التهم منسوبة لها زد على ذلك أنه من بين كل الأعضاء لا يظهر سوى إسم عبان رمضان، مما جعله المستهدف الوحيد.

فلم يكن عبان رمضان من الذين يتهربون من مسؤولياتهم ولا من الذين يتحملون كل شيء إذ كان يتصرف أمام الملأ بدون تستر وأحيانا إلى أبعد ما يقتضيه تقاسم المسؤوليات داخل لجنة التنسيق والتنفيذ. وذلك ما تؤكده شهادات كل من ابن خدة ودحلب حين قالا عنه أنه كان "يتحلى بروح المبادرة والقرار وكان له دور المنسق"، ونستنتج من ذلك أن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة للآخرين.

فالمخطوطات القليلة والأصلية التي بحوزتنا والتي سنرفقها بالملحق تكملة "لأرشيف الثورة الجزائرية" واضحة ولا غبار عليها إذ تقدم توضيحات حقيقية وقاطعة حول الدور الريادي الذي كان يلعبه عبان رمضان على مستوى قيادة الثورة وهناك ثلاثة رسائل تسلط الضوء على سلطته حتى وإن كانت تلك السلطة تمارس في إطار ولحساب لجنة التنسيق والتنفيذ. فالرسالة الأولى مؤرخة في 21 نوفمبر 1956 بعد مؤتمر الصومام بقليل كانت موجهة "لإخوة تونس" باسم لجنة التنسيق والتنفيذ بتوقيع رمضان، أي عبان وحده.

كانت الرسالة شديدة اللهجة حيث جاء فيها: "لقد أخطرنا الولاية الثانية (الشمال القسنطيني) لترسل لكم 50 مليون فرنك فرنسي لشراء الأسلحة" وفي نفس الرسالة ورد العتاب التالي" لماذا لا تطلبون الاموال من الإخوة بالقاهرة؟" ربما للقيادة الخارجية لجبهة التحرير الوطني.

كما علم في نفس الرسالة أن "ابن طوبال الذي عين مؤخرا قائدا للولاية الثانية خلفا لزيغود يوسف (الذي قتل في الكفاح في 23 سبتمبر 1956) أخطر بأن سي ابراهيم وابن عودة هما منتدبين بصفة مؤقتة إلى تونس". وفي تلك الفترة وبعد اختطاف فرنسا لقادة جبهة التحرير الوطني الخمس شرعت لجنة التنسيق والتنفيذ في ترتب أمور جبهة التحرير الوطني وتعزيز القيادة الخارجية بتعيين أعضاء جدد وجاء في بعض الرسائل التي بحوزتنا هذه الفقرة التي سنقرؤها، أن الأمر كان يتعلق بالانشغال الرئيسي لتلك الفترة:

"بالنسبة للجنة تونس، فهي تتكون مرة أخرى من محساس وسي إبراهيم (مزهودي) وابن عودة وقايد. ستكون هذه اللجنة تابعة للجزائر العاصمة و ليس للقاهرة، وسيتم إخطار الدكتور لمين، رئيس وفد جبهة التحرير الوطني بالقاهرة.

في حالة عدم اعتراف أحد أو بعض الإخوة بسلطة لجنة التنسيق والتنفيذ يجب إخطارنا بذلك لنتخذ الإجراءات اللازمة".

نكتشف من خلال هذه الرسالة أولا انشغال الساعة لدى لجنة التنسيق والتنفيذ ـالتموين بالأسلحة ووضع أجهزة متناسقة و منضبطةـ وثانيا حماس عبان رمضان إذ لاحظنا أنه حتى لمّا يتكلم باسم لجنة التنسيق والتنفيذ ("إخطارنا") كان يستعمل أسلوبه الخاص القاطع والآمر(سنتخذ الإجراءات اللازمة). كما لاحظنا الاستعمال المتكرر لفعل إخطار وذلك يعني ببساطة أن لجنة التنسيق و التنفيذ قد اتخذت القرار وأن الجهاز أو الشخص الموجه له يطلع عليه لا أكثر، أي أن ذلك يعني الأمر الواقع.

صحيح أن عملية إختطاف ابن بلة لم تحل مشاكل القيادة ونحن نعرف أن هذا الأخير كان يعتمد كثيرا على محساس صديقه القديم ورفيقه في المنظمة السرية للتشكيك في القرارات المتخذة في مؤتمر الصومام وخاصة لعرقلة بروز عبان رمضان الذي كان يعتبر، عن حق أو على باطل، أخطر منافس لقائد المنظمة السرية الأسبق الذي يريد من خلال هذا الموقع أن يبدو كالقائد الوحيد لجبهة التحرير الوطني. وهذا واقع طرحه محساس على لجنة التنسيق والتنفيذ ومن خلالها على عبان رمضان الذي يشكل مشكلا حقيقيا وخطيرا. وكان محاطا بغموض نسبي وسوء التنظيم في منطقة الأوراس، لجأ إلى الاعتماد على بعض عناصر هذه المنطقة القوية للحصول على ضمانات واكتساب ورقات مربحة وموقف قوي لضرب سلطة لجنة التنسيق والتنفيذ أو للتفاوض معها ندا للند.

ذلك يعني أننا لا نعرف جيدا عبان رمضان. فعدم تقلد هذا الأخير لمسؤولية وطنية في عهد الحركة من أجل إنتصار الحريات الديمقراطية وجناحها العسكري وعدم مشاركته في إندلاع الثورة، جعل الكثير من الإطارات الوطنية القدامى يتعجبون لوصوله الى قيادة جبهة التحرير

الوطني بل هناك من رفض ذلك أمثال محساس. ورد عبان رمضان بسرعة وبشدة على أول معارضة له بصفة علنية.

في 25 ديسمبر 1956 وقع عبان رمضان هذه المرة مع زملائه الأربعة بلجنة التنسيق والتنفيذ رسالة موجهة مباشرة للأمين العام للدستور الجديد، أحمد تليلي، ورد فيها أن "محساس يزرع في الاوساط التونسية نوع من الغموض" (الذي) "إن لم يختف قد يؤدي إلى تضليلكم". وتضيف الرسالة "إننا نريد إطلاعكم بأن لجنة التنسيق والتنفيذ التي إنتخبها المؤتمر الوطني في 20 أوت 1956 قد عينت الدكتور لمين محمد قائدا لوفد جبهة التحرير الوطني والعقيد أوعمران نائبا له مكلفا خاصة بالجانب اللوجستيكي".

وتضيف الرسالة أن"صلاحيات التكلم باسم لجنة التنسيق والتنفيذ موكلة فقط للقائدين بن مصطفى ابن عودة المدعو "مراد" وابراهيم مزهودي في انتظار وصول أوعمران إلى تونس والدكتور لمين اللذين عيّنا لكي يسهّل التونسيون مهمتهم. كما كان الطلب الذي وجه للامين العام للدستور الجديد واضحاً جداً إذ أضاف "يرجى إطلاع حكومتكم على فحوى الرسالة".

كانت الرسالة من توقيع جماعي حسب الترتيب التالي: ابن مهيدي، محمد حربي، كريم بلقاسم، السعيد، ابن خدة بن يوسف، عبان رمضان وهم الأعضاء الخمسة للجنة التنسيق والتنفيذ.

لم تدم مقاومة محساس إلا قليلا وكادت تحدث مجابهة مفتوحة على لجنة التنسيق والتنفيذ وتفتح حماما من الدماء لولا تشدد وصلابة وبرودة دم رجال أوعمران الذين سرعان ما أوقفوا محساس ورفاقه في قلب العاصمة التونسية. ولم ينجو محساس الا بفضل تواطؤ بعض المحليين الذين مكنوه من مغادرة مكان إعتقاله واللجوء إلى الخارج حيث الأجواء أقل تهديدا. وكان لهذه المجابهة المباشرة والمسلحة الأولى، آثار عميقة. فلم ينس ابن بلة هذا ومن الغريب أنه كلما عززت لجنة التنسيق

والتنفيذ سلطتها كجهاز قيادي منبثق عن المؤتمر الوطني للصومام. كلما صرخ الغاضبون في وجه عبان رمضان. وأن قوة لجنة التنسيق والتنفيذ، وبالتالي قوة الثورة، كانت تعتبر وتفهم على أنها قوته هو و بالتالي يرون في ذلك قوة خطيرة على كل من كان يسعى للقيادة. فعيب على الإنسان أن يرى فقط مصلحته الشخصية ويعمى على المصلحة الجماعية. وكلف ذلك العيب غاليا ليس فقط الكثير من الرجال بل وحتى الثورة بأكملها وبالتالي الجزائر المستقلة. والواقع أن المشاكل لا تحصى ولا تعد مقابل قوة فرنسا والجرح العميق الذي خلفه الاستعمار في الأذهان والقلوب ومقابل الطموح الى بعث شعب بأكمله وأمة مغمورة في غياهب الظلامية. ففي الوقت الذي يعتقد فيه الإنسان أنه أحسن التصرف تتهاطل عليه كل الانتقادات وأحيانا الأحقاد. ألم يكن عبان رمضان من ذلك الصنف من الرجال؟ ورد ذلك في الرسالة الثالثة التي نقدمها وهي مؤرخة في 22 جانفي 1957. جاء في الرسالة المكتوبة باسم لجنة التنسيق والتنفيذ والواردة من الجزائر، حسب التوضيح لتضليل الشرطة في حالة العثور عليها، وهي من توقيع عبان رمضان وحده وتكشف عن الكثير من الأمور الهامة، أولها أن "مبروك (الاسم المستعار لبوسوف) قائد ولاية وهران... معنا" أي مع لجنة التنسيق والتنفيذ وليس على ما يبدو مع "الأربعة للصحة" (آيت احمد وابن بلة وبوضياف وخيضر) ثم أن حالة محساس، كما كتب في الرسالة، لم تحل بعد بصفة نهائية(15) بما أنه طلب من الإخوة بتونس الذين وجهت إليهم الرسالة "التعاون ...بصفة مؤقتة" معه "لإدخال الأسلحة " وهو الشغل الشاغل وإذن فان الدكتور لمين لا يزال يحتفظ بمنصبه من" طرفنا"، - أي ربما لجنة التنسيق والتنفيذ- بصفته قائد الوفد الخارجي "بالرغم من رفض الأعضاء الأربعة للصحة"، كما ورد. وتتجلى أكثر فأكثر أن سوء التفاهم قائم بين قادة جبهة التحرير المسجونين وأعضاء لجنة

التنسيق والتنفيذ بالجزائر العاصمة إلا إذا كان ذلك مفتعلا لإخفاء المنافسة الشرسة القائمة بين بن بلة و عبان رمضان. ونحن نميل أكثر لهذا الطرح الذي بدأ يتأكد مع تطور الأحداث. والأمر الأخير والمهم في الرسالة هو أن عبان رمضان أخبرنا أن "عميروش إنضم وأعاد تنظيم منطقة الأوراس". نتذكر بالفعل بأن من بين القرارات المتخذة في الصومام إرسال العقيدين زيغود يوسف وعميروش إلى المنطقة الأولى -التي أصبحت الولاية الأولى- من أجل حل المشاكل الشائكة والخلافات القائمة فيها نتيجة خلافة مصطفى بن بولعيد. نعرف أيضا أن زيغود لن يتمكن من الاضطلاع بالمسؤولية. فسقوطه في ميدان الشرف مباشرة بعد مؤتمر الصومام سيحرم الثورة من أحد قادتها الأكثر حكمة وشهامة خاصة في الوقت الذي ظهرت فيه الكثير من الصعوبات. فكان عميروش إذن هو الذي تمكن من حل مشاكل الأوراس إذ كان مغوارا ومتصلبا وبدون شفقة أيضا. وفي قضية الأوراس برزت لديه قدرات ومهارات دبلوماسية حيث نجح في حل المشاكل التي دفع من أجلها قادة قبله بأرواحهم والتي تعذر على آخرين حلها، بل أكثر من ذلك، ذهب عميروش إلى تونس وأخذ معه قادة الأوراس والنمامشة الرئيسيين لعقد ندوة تصالح ولإعادة تنظيم الولاية الأولى كما رفض بل ربما تفادى الوقوع في كمين حين عرض عليه قيادة هذه الولاية لأن القبول بذلك الدور يعني مهمة الانتحار.

خاصة وأن شيطان الجهوية إستغل بطريقة دنيئة لأغراض شخصية "تحريض" الأوراس على منطقة القبائل. ويبقى أن مهمة المصالحة التي قادها عميروش عرفت نجاحا تاما قدم خدمة لمكافحي الأوراس وسكانها النبلاء وللثورة الجزائرية بأكملها. كما كان ذلك بالضرورة نجاحا لعبان رمضان الذي أثبت أنه يتمتع ببعد وطني لأنه لم يكن يهتم بإبراز

هذا القائد أو ذاك ليكسبه إلى جانبه حيث تسرّعنا في الحكم عليه حين اعتقدنا أنه كان يريد إستخلاف مصطفى بن بولعيد في منصبه بأخيه عمر، وذلك بالضبط ما كان يريد تفاديه حيث طلب في نفس الرسالة "أن لا يفعل سي إبراهيم (مزهودي من مواليد الأوراس وعضو في القيادة الخارجية بتونس) شيئا بهذا الخصوص وخاصة أن لا يشرك لجنة التنسيق والتنفيذ من خلال وعد عمر بن بولعيد بقيادة الولاية الأولى". وأضاف قائلا للإخوة في تونس أنه ينبغي "إنتظار عميروش الذي سيشرح لكم كل شيء".

وهكذا أخذت لجنة التنسيق والتنفيذ بزمام الأمور بالفعل وبرز نجم عبان حيث كان يسجل النجاح تلو الآخر من خلال عمله المنظم والمسؤول لتنفيذ قرارات الصومام بالحرف الواحد. فمن الذي يستطيع إيقاف نجاحه الذي لا يقاوم؟ فهناك من حاول واستعد لذلك بخلق تحالفات غريبة وغير متجانسة على الإطلاق. لكن قوة العدو المستعمر كانت وحدها قادرة على النيل منه وكسر وثبته، مما أدى إلى تراجعه وفيما بعد إلى إقصائه النهائي.

أسباب إضراب الثمانية أيام وأبعادها

لم تكن سنة 1957 أقل عنفا وخطرا من سابقتها، حيث شهدت عمليات الإعدام شنقا، وكانت الاعتداءات تنفذ الواحدة تلو الأخرى وحصدت أرواح الأبرياء أكثر من ذي قبل. فبالإضافة الى المواجهة التي كانت قائمة بين جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني من جهة والنظام الاستعماري والجيش الفرنسي من جهة أخرى، فتحت المواجهة بين السكان الجزائريين والفرنسيين. وتأكدت لدينا ملاحظة أحد الشهود الذي قال أن فرنسا وقعت في كمين القمع، مما جعل كل الجزائريين ينضمون إلى جبهة التحرير الوطني. وذلك لم يكن مفاجئا بالنسبة لجبهة التحرير الوطني حين نعلم أن سعي جبهة التحرير الوطني وإرادتها وعزمها ومشروعها كان يتمثل في إبعاد كل الشعب الجزائري عن فرنسا وجعله يقاوم هيمنتها.

وفي مطلع السنة الجديدة، إرتأت لجنة التنسيق والتنفيذ التي عززت وجودها في بضعة أشهر كصاحبة القرار عن الجانب الجزائري حتى وإن كان الحظ وأخطاء الحكم والأعمال الإرتدادية التي ارتكبتها السلطات الاستعمارية قد ساعدتها على ذلك. أن الوقت قد حان لتوجه ضربة قاضية للوجود الفرنسي في الجزائر، إذ أن ذكرى ديان بيان فو التي دقت ناقوس نهاية إحتلال فرنسا للهند الصينية، لم تمح تماما من الأذهان وخاصة من أذهان بعض أعضاء جبهة التحرير الوطني وعلى رأسهم ابن مهيدي وعبان رمضان. فابن مهيدي الذي كان قد جس نبض إنتفاضة ماي 1945 في منطقة قسنطينة يبقى متمسكا بتحريك الجماهير ضد النظام الاستعماري. فإن لم يكن عبان رمضان يرحب كثيرا بالفكرة، يمكن

الاعتقاد بأنه كان قد بالغ في تقديره للقوات الثورية خاصة بعد مؤتمر الصومام، من جهة ولضعف بل تفكيك قوة فرنسا من جهة أخرى. فظهر الشعور بالنصر وتجسد وتعزز ذلك الشعور بعد الوحدة والإنسجام اللذين حققهما مؤتمر الصومام.

قال لنا (1) عبد الكريم حساني وهو صهر ابن مهيدي، أن فكرة تنظيم انتفاضة شعبية جماهيرية لم تبارح أبدا ذهن ابن مهيدي ولعله كان يفكر فيها حتى حين كان قائدا للناحية الوهرانية. ف"إغماء" هذه الناحية غداة أول نوفمبر 1954 وذهابه إلى القاهرة في ربيع سنة 1955 بحثا عن الأسلحة التي تم حجزها أثناء تفتيش سفينة أثوس من طرف البحرية الفرنسية في أكتوبر 1956، كلها عناصر من شأنها تصديق مثل هذه الفكرة. وأطنب محمد حربي من جهته في الحديث في نفس الموضوع حيث قال أن "عبان وابن مهيدي كانا يؤمنان بأن ساعة النصر قريبة"، مضيفا أن "ابن مهيدي يكون قد حدد لبن طوبال، حسب هذا الأخير، موعدا في الجزائر العاصمة للاحتفال بالنصر هناك في بداية سنة 1957"(2).

في بداية 1957 كانت الفرصة ليس للاحتفال بالنصر بل على الأقل لتحريض السكان على الانتفاضة لتحقيق ذلك. فمناقشات الامم المتحدة حول القضية الجزائرية كانت السبب أو المبرر في ذلك.

كانت فكرة الإضراب تراود بن مهيدي باستمرار حيث أكد لنا العديد من الشهود أنهم رأوه يكلم زملاءه في لجنة التنسيق والتنفيذ في الموضوع وقد لفتت هذه الفكرة التي لم تكن جديدة، إنتباههم لأن تاريخ حرب التحرير الوطني سجل العديد من الإضرابات. وقد تم الإتفاق بالإجماع والنقطة الوحيدة التي نوقشت كانت مدة هذا الإضراب.

اقترح ابن مهيدي شهرا من الإضراب لشل حركة البلاد ولكي يشمل الإضراب كل مناطق الوطن على الأقل بصفة تدريجية إذ أنه لا يمكن أن يبدأ في كل مكان في نفس الوقت. لم يحدث أبدا أن شنّ شعبا بأكمله إضرابا لمدة شهر كامل. فالأمر فيه مبالغة وضرب من الخيال. كان أعضاء اللجنة الأربعة يدركون حجم عواقب مثل هذا القرار لكنهم متفقين على أن الإضراب يجب أن يكون طويلا بالقدر الكافي حتى تتمكن جميع شرائح المجتمع من المشاركة فيه. فيوم واحد من الإضراب غير كاف لبلوغ الهدف المنشود: شل حركة البلاد بصفة تامة وإبراز القوة والوحدة ضد النظام الاستعماري الذي سيتكبد أضرارا جسيمة من ذلك الإضراب وفي الأخير اتفقت اللجنة بالإجماع على مدة ثمانية أيام دون تحديد التاريخ كونه يتوقف على نقاش الأمم المتحدة حول القضية الجزائرية. وبعد التوصل إلى اتفاق بدأ التحضير والتنظيم للإضراب حيث حررت توجيهات من توقيع جبهة التحرير الوطني ولنا الحق في الاعتقاد بأنها حررت من طرف عبان رمضان. على أي حال، أكد لنا أحد الشهود أن عبان رمضان هو الذي أرسل التوجيهات إلى مسؤولي جبهة التحرير الوطني في تونس. وتقدم الوثيقة التي بحوزتنا والتي سنرفقها بالملحق، توضيحات لم تنشر من قبل وتتناقض مع بعض التحاليل التي خصصت لإضراب الثمانية أيام. تمحور مدخل التوجيهات حول أربعة أهداف:

1. "الإثبات بصفة أقوى انضمام الشعب الجزائري كله إلى جبهة التحرير الوطني التي هي ممثله الوحيد."
2. "من خلال هذا التأكيد، إعطاء سلطة صريحة لمندوبينا بمنظمة الأمم المتحدة بهدف إقناع دبلوماسيي البلدان الأجنبية القلائل الذين لا يزالون مترددين أو لديهم بعض الأوهام حول السياسة الليبرالية لفرنسا.

فنحن نجهل دوافع تفاؤل عبان الذي أكد أن القليل من الدبلوماسيين يوافقون أو يتعاطفون مع السياسة الليبرالية لفرنسا. فقضية جبهة التحرير الوطني لم تكن تحظى بكثير من التعاطف أو بالمساعدة الفعلية على مستوى الأمم المتحدة وبالتالي كان عليها أن تخوض كفاحا مريرا حتى يتعزز التيار المساند لأطروحاتها(3).

3. إشراك طبقات اجتماعية جديدة في الثورة النشطة بتحويل كراهيتهم للاستعمار التي لم تتجاوز مستوى الشعور، إلى أعمال ملموسة وعنيفة".

لا يمكننا أن نتهم محرر هذه السطور بأنه لم يكن موضوعيا. فالعلاقات بين الجزائريين والفرنسيين كانت بالفعل معقدة للغاية إلى درجة أنه كان أحيانا يصعب فهمها. فالكراهية و روح التعاون قد يتعايشان دون أن نلاحظ ذلك بوضوح وجلاء. فقد أصاب سعد دحلب المعروف بنباهته حين لاحظ أنه في مجال العلاقات الشخصية(4) "لم يحدث شيئا في الجزائر العاصمة بل كان هناك بين الجزائريين والفرنسيين نوع من التعاون". وأضاف بكل وجاهة أن "التاجر والشاوش وفاطمة(اسم يطلق على الخادمة المسلمة لدى الأوروبيين) والمحامي إلخ...كلهم كانوا يعملون في الإطار الفرنسي". وهنا يكمن الهدف الثالث من الإضراب لأن "مثل هذا الجو، كما جاء في مدخل الوثيقة، سيشجع ويضاعف قدراتنا الثورية".

4. هنا يكمن التكرار الأول والحقيقي للتجربة اللازمة للإنتفاضة العامة".

ونكتشف من خلال هذا الهدف الرابع والأخير من الإضراب الرغبة بل القوة الكامنة لعبان وابن مهيدي في اللجوء يوما ـ وخير البر عاجله- إلى الخروج الجماهير الجزائرية لاحتلال كل ميدان الثورة وأخيرا ضرب النظام الاستعماري. وأكد لنا العقيد دهيلس الذي رأى عبان رمضان مباشرة بعد هذا الإضراب الطويل أن هذا الأخير لم يكن يخفي أمله

بل قناعته بأن ما سيحدث بعد ذلك التاريخ بكثير -11 ديسمبر 1961 بالجزائر العاصمة- سيكون نتاجا لإضراب الثمانية أيام. وكان المخططون للإضراب في السرّ يراودهم أمل خروج السكان وخاصة العاصميين إلى الشارع لإعلان مساندتهم لجبهة التحرير الوطني والتظاهر ضد الاحتلال الفرنسي. على أي حال، فإن فكرة وإرادة تحقيق إنتفاضة عامة للتعجيل بنهاية الحرب لم تفارق أبدا الانشغال الرئيسي والمشترك لعبان وابن مهيدي.

لم تكن التوجيهات التي أعطتها لجنة التنسيق والتنفيذ لتسيير الإضراب، تنحصر في الأهداف الأربعة المسطرة حيث خصص لها باب واسع يتناول الإجراءات العملية التي ستتخذ وذلك يدل مرة أخرى على مدى عظمة المسؤولية والوضوح التي كان يتحلى بها الأعضاء الخمس. فقد أعجبنا بدقة تفاصيل بعض التوصيات التي تبين مدى تحمس محرري الوثيقة وإنسانيتهم. كما لاحظنا باهتمام حرصهم الرئيسي على فعل كل ما يمكن للتخفيف من الضغوطات والحرمان الكبير الذي يثقل كاهل الطبقات الأكثر حرمانا وقد إتخذت في هذا الشأن ما لا يقل عن عشرة إجراءات لقيادة وإنجاح الإضراب الطويل الذي لا يزال يثير التوتر. وفيما يلي هذه الإجراءات كما وردت في التوجيهات:

أ- فور تلقي هذه التوجيهات، يجب إنشاء لجنة للإضراب في كل ولاية تتشكل من ثلاثة أو أربعة مسؤولين (من بينهم طالب سابق لتحرير المناشير).

ب-تشكيل لجان فرعية للإضراب في كل ناحية ومنطقة.

ت-إيلاء إهتمام خاص لتنظيم الإضراب في المدن التالية (ورد ذكر أهم مدن البلاد وعددها 26 مدينة).

ث-تشكيل لجان الإضراب في كل حي من المدن. وتشكيل لجان إضراب العمال في أهم الأسلاك مثل عمال الموانئ والنقل

(الحافلات والشاحنات) وعمال المناجم والإذاعة والبريد والمواصلات والبلديات وأسواق الجملة والمسالخ ...إلخ

ج- سيتم إعفاء مسؤولي الإضراب من مسؤوليتهم (بصفة مؤقتة) لتمكينهم من التفرغ لتحضير الإضراب.

ح- تحويل المدن المذكورة أعلاه إلى أحياء ميتة وتنظيم فروع (أعمال؟) للكومندوس في الأحياء الأوروبية.

خ- تنظيم كمائن في الطرق والاعتداء على كل سيارة مدنية أو عسكرية تمر من هناك.

د- دعوة السكان للتزود بالمواد الغذائية لمدة ثمانية أيام (خاصة علب الحليب للأطفال والمرضى).

ذ- يؤذن لمسؤولي لجان الإضراب بإقتطاع الأموال من صناديق جبهة التحرير الوطني لمساعدة العائلات المحتاجة غير القادرة على تسديد فاتورة المواد الغذائية لمدة ثمانية أيام.

ر- عمليات تخريب و كومندوس عبر كامل التراب الوطني."

فالتوجيهات لا تخص فقط التراب الوطني، فالمطلوب من العسكريين الجزائريين إخطار بل وخاصة تحسيس كل الأوساط التي يتواجدون فيها خاصة في تونس والمغرب وفرنسا وحتى في البلدان الآفرو-آسيوية.

فيما يخص التراب الوطني، من الواضح أن المخططين للإضراب -على عكس ما ورد حتى الآن- كانوا يريدون شن ضربات عنيفة وحتى دامية مع النظام الاستعماري. وتقرر نصب كمائن وأعمال كومندوس في كل مكان وحتى في المدن نفسها حتى وإن كان هناك تناقض مع الإجراء الذي يوصي بتحويلها إلى "أحياء ميتة". وبالفعل يصعب التصور كيف "سيلازم" السكان بيوتهم إذا كان سيتم شن عمليات كومندوس "في الأحياء الأوروبية". وقد أثبتت التجربة بوضوح أنه

لا يمكن للكومندوس تنفيذ عمليات ناجحة وتفادى رد فعل فجائي للقوات الاستعمارية إلا بالتوغل وسط السكان.

وبعد الإشارة إلى هذا التناقض، يبقى أن لجنة التنسيق والتنفيذ حرصت على تحضير وإنجاح مواجهة تكون في مستوى شعب بأكمله ضد الاحتلال الفرنسي للجزائر وبما أنه لم يكن من الممكن إخفاء التحضير لمثل هذه المواجهة، قامت جبهة التحرير الوطني بعمليات تحسيس وتجنيد لم يسبق لها نظير في اتجاه سكان المدن. ففي الجزائر العاصمة كانت الأحياء تشبه المناطق المحررة حيث يعمل أعوان جبهة التحرير الوطني أمام الملأ تقريبا لبلوغ كل الشوارع والأماكن العمومية. وهكذا ولدت وثبة تضامنية واسعة في أوساط السكان لمساعدة الشرائح التي هي في أمس الحاجة الى المساعدة. ولعلّ القوات الاستعمارية دخلت اللعبة حين شنت هي الأخرى حرب الإتصال إذ كان العساكر الذين تكتظبهم العاصمة أقل تهديدا من ذي قبل. ولعلهم إكتشفوا فجاة السلاح النفسي أو لعلهم لم يدركوا بعد مدى حجم وعمق الحركة. ففي الأيام القليلة التي سبقت الإضراب رفعوا مكبرات الصوت وهم يجوبون شوارع العاصمة لتوجيه نداءات كاذبة وغير مجدية. فما الفائدة مثلا من رفع شعارات تتهم جبهة التحرير الوطني "بالشيوعية" حين نعرف أن 99 بالمائة من السكان الذين رفعت في وجوههم هذه الشعارات يجهلون معنى الشيوعية، وشعارات أخرى تتهم جبهة التحرير بأنها تريد "تجويع" أو "إخضاع" السكان إلى البؤس والمجاعة وتتدعي بأن فرنسا وجيشها تسعى إلى تحقيق رفاهية السكان؟ أيعني ذلك السذاجة أو فقط الجهل؟ فالذين يعتقدون أنهم خبراء في الحرب النفسية لا يمكنهم أن يتصوروا إلى أي درجة خدموا جبهة التحرير الوطني لأن النداءات التي رفعت بواسطة مكبرات الصوت في اتجاه السكان الذين كانوا قبل ذلك الوقت

ضحايا القمع البغيض والمنتظم والجماعي، على العكس ما كان منتظرا، كسبت جبهة التحرير الوطني المزيد من المصداقية. فكان محتوى الرسالة وإلحاحها في صالح جبهة التحرير خاصة.

وبانتهاج سياسة الحرب النفسية هذه تكون السلطات الاستعمارية قد استعملت وسائل غير معتادة ومعتبرة لإفشال الإضراب. ففور عودة السلطات الاستعمارية من حملة السويس حيث أرسلت لمعاقبة ناصر ليس بسبب تأميم القناة لكن على ما يبدو، باعتباره ساند بل كان العنصر الفاعل في الثورة الجزائرية، وجدت نخبة الجيش الفرنسي نفسها هذه المرة مرسلة إلى الجزائر العاصمة. وحين نرى فيالق الوحدة العاشرة للمظليين تقفز من شاحناتها في زيها المبرقش بلون الأخضر كاكي كلون زي الجندي العادي، والرشاشة المصوبة لإطلاق النار، نتساءل من كان مستهدفا من طرف هؤلاء المظليين ـ الذين اختيروا من بين الشباب ـ هل كانوا يقصدون النساء والأطفال الذين كانوا يقتاتون في الأحياء الفقيرة للقصبة وبيلكور أو الأحياء القصديرية التي تنخر قلب العاصمة وضواحيها؟ بالفعل لقد رأينا في الباب السابق أنه للرد على الاغتيالات الشرعية التي أمر بها الوزير المقيم لاكوست وعلى الهيجان الإرهابي للأوساط المتطرفة الأوروبية، لم يكن بوسع جبهة التحرير الوطني أن تفعل شيئا ـ حتى لا يتخلى عنها السكان والجنود ـ سوى أن تبين أنها هي أيضا قادرة على استهداف المدنيين الأوروبيين وصنع القنابل ووضعها متى وحيثما تريد. لكن محاصرة كل الأحياء المسلمة من طرف جنود النخبة وإعلان حالة الحصار ليلا نهارا كلها تكشف عن مدى حجم الإرادة السرية للسلطات الاستعمارية في ترهيب السكان وقهرهم. وبهذه الطريقة فقط يمكن عزل العناصر النشطة لجبهة التحرير الوطني وهم قلائل في العاصمة. واستغلت القوات الفرنسية هذا "الاكتشاف" لاستعماله بصفة

مستمرة وواسعة. ففور تقلد ماسو مهاماً مدنية وعسكرية في 07 جانفي 1957 أرسل الجنرال ماسو الذي كان بالأمس يقاوم النازية التي إحتلت باريس. أرسل فيالقه إلى الأحياء المسلمة بالعاصمة وهمّه الوحيد القبض على أكبر عدد ممكن من الأشخاص للتأكد من عزل أكبر عدد ممكن من مناضلي جبهة التحرير الوطني. فليس هناك ما سيحدّ سلطات جنود النخبة هؤلاء فالشرعية الإستعمارية موجودة بين أيديهم بما أن السلطة المدنية ـ أو ما بقي منها ـ تخلت نفسيا عن حقوقها وبالتالي لم تعد قادرة على مواجهة الوضع. والعساكر يعرفون ذلك واستغلوا الوضع لضرب بل لاحتقار الموظفين الاستعماريين القلائل الذين يحاولون إيقاف المد المتصاعد للقوات العسكرية، إيمانا منهم بالشرعية والكرامة. وقد إستولت القوات العسكرية على المدينة وفعلت فيها كل ما طاب لها حيث كانت عمليات التفتيش جارية ليلا نهارا مع العلم أنها كانت تفضل العمليات الليلية حيث يزيد هلع السكان ويتضاعف قمع الجنود وعدد الاعتقالات. ففي خلال أيام معدودة تغير وجه الجزائر والجزائريين حيث أصبحت الوجوه شاحبة والنظرات حاقدة واستولى الخوف على الجميع دون تمييز بين رتبهم أو وظائفهم أو سنهم أو جنسهم. فالكل كان خاضعاً لعمليات التمشيط المنتظمة التي كان يأمر بها الجنرال ماسو جنوده: النساء والشابات وحتى الأوروبيات ومن بين الجنود من لم يكن يجيد كلمة واحدة باللغة الفرنسية حيث كان أغلبهم من جنود اللفيف الأجنبي الأول للمظليين التابع للعقيد جون بيار.

نحن نعلم أن هؤلاء الجنود يتطوعون في الجيش ليس حبا فيه وإنما هروبا من متابعات الشرطة لارتكابهم جنحا في بلدانهم الأصلية أو لأنهم غير قادرين على الاندماج في المجتمع، فيوفر لهم اللفيف الأجنبي الملجأ والأمان في جو شديد الانضباط أكثر من أي مكان آخر

مقابل أعمال جبارة وغير إنسانية، فهم لا يعرفون لا الخوف ولا المشاعر. فـ"القبعات الخضراء" هي التي غالبا ما كانت تشهر خناجرها المعلقة باسمرار في أحزمتها لترويع سكان العاصمة. فكانت في غالبية الأحيان تتكلم بلغات أجنبية وغير مفهومة، مما يزيد في الرعب منها.

فكلما إقترب موعد "يوم الإضراب" كلما إزداد الوضع تأزما في العاصمة حيث تملك المعسكرين عزما قاهرا. فبالرغم من وجود قوات عسكرية ضخمة وحصار الأحياء المسلمة وعمليات التوقيف الجماعية والتعذيب المنتظم الذي ظهر بوسائل مجهولة قبل ذلك اليوم (مولدات كهربائية لتعذيب الخاضعين للتعذيب والذين يتم ربط أعضائهم التناسلية بخيوط ونفخ بطونهم بالماء وقلع أظافرهم...إلخ)، تمكنت جبهة التحرير الوطني،كما أعلنت ذلك، من تنفيذ عدة عمليات كومندوس. فقبل يومين فقط من الإضراب تم ضرب مقهيين جديدين تتوافد عليهما النخبة والشبيبة الأوروبية. فبعد مقهى ميلك بار ولاكافيتيريا، تم قنبلة كل من لوكوكاردي ولوتوماتيك، مما خلف أربعة قتلى و خمسين جريحا. وذلك زاد في شراسة الوضع المتأزم حيث شعر المظليون أن التحدي موجه إليهم وتملك الأوروبيون غضب جنوني حيث طلبوا بإلحاح من جنودهم المفضلين والمدللين الرد بشراسة أكثر.

فكان العقيد بيجار الذي يقود الفيلق الثالث للمظليين الاستعماريين أكثر العقداء شغفا للقيام بذلك حيث أنه لم يتقبل وهو "المقاتل" المشهور، إعتقاله من طرف الفيتناميين في ديان بيان فو قبل أقل من ثلاثة أشهر من ذلك. فمن الصعب نسيان مثل تلك الهزيمة التي تضني الذاكرة وتثير الأحقاد كما هو الشأن بالنسبة لقائد الفيلق الثالث للمظليين الاستعماريين الذي كان همه الوحيد ـ لكي يشفي غليله ـ هو "رفع السلاح" حيث أمر بيجار باعتقال أكبر عدد ممكن من الجزائريين بـأمل العثور على "عناصر

مهمة" إذ اعتمد، أكثر من غيره، طريقة التفتيش الليلي والزج بآلاف الجزائريين في "مراكز الانتقاء".

وهكذا لم يكن لنوعية القوات الفرنسية المنتشرة في العاصمة بأعداد مذهلة لتثبط عزم لجنة التنسيق والتنفيذ على إظهار لفرنسا وللعالم برمته مدى بعد وعمق كفاح الشعب الجزائري. وكان الجنرال ماسو من جهته يشعر أنه مستهدف شخصيا بهذه "المجابهة" مع أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ الرئيسيين. فالكفاح أصبح بين القادة حيث أصبحت سمعة كل منهم مهددة. فمن يا ترى سيفوز؟ أهو ماسو الذي يحظى بدعم وحدة المظليين العاشرة الشهيرة والأكثر تدريبا في الجيش الفرنسي في الجزائر، أم لجنة التنسيق والتنفيذ؟ لا أحد يريد التفكير في ذلك. فالإضراب سيتم بالرغم من الغارات الضخمة التي شنت والتي بدأت تضعف شبكات جبهة التحرير الوطني والتهديدات المتتالية لماسو الذي وعد بتحطيم الإضراب.

ولتفادي فشله، راح ماسو إلى حد خطف العديد من العمال من طرف جنوده وحملهم بالقوة إلى مقرات عملهم. فأين ومتى تمكنت عملية كهذه من بلوغ القلوب والنفسيات؟ لقد سبق للجزائر أن إستسلمت للقوة لكنها لم تتخل أبدا عن حبها للوطن. وجاء الإضراب في 22 جانفي 1957 وجاءت الجملة المصيرية لعبان رمضان الذي بعث بها في ظرف عادي الى رشيد منصوري إلى العنوان التالي 29 شارع قسنطينة بتونس وتم تمريرها بكل بساطة عبر مراكز البريد الفرنسية التي أصبحت بذلك من أعوان جبهة التحرير الوطني حيث تعلم الرسالة "مسؤولي تونس" بأن: "إضراب الثمانية أيام سيبدأ يوم 28 جانفي 1957 على الساعة الصفر".

وبعد عبارة "أخويا" المعتادة لدى مناضلي جبهة التحرير الوطني، وقع عبان رمضان الرسالة بأحد أسمائه المستعارة: أحمد. وهكذا جاء الأمر بالإضراب بعد تحديد تاريخه. فلن يمكن التراجع بعد الآن. فالأمر كطلقة

مدفع لا يمكن صدها خاصة من طرف عبان رمضان الذي ذكر في منشور وصل إلى تونس يوم 26 جانفي 1957 وسيرفق بالملحق، بالرهانات المعتبرة للإضراب. أشار أولا إلى "قلق السلطات الفرنسية" والى تهديدات الجنرال ماسو "بتخريب محلات المضربين" في حين كانت الإدارة الفرنسية تنوي "طرد الموظفين" وذلك، حسب قائد جبهة التحرير الوطني، أحسن دليل على مدى الذهول الذي كان يخيم على الصفوف الاستعمارية"، مما يستلزم العمل على أن "يشكل الإضراب نجاحا تاما" خاصة وأن عبان رمضان قال مخاطبا الشعب الجزائري أن "أنظار العالم كلها موجهة إليك... ومرة أخرى فإنك ستبيّن إرادتك الراسخة في القضاء على الاستعمار".

وأضاف عبان رمضان متوجها لكل فئة إجتماعية بقوله "أن التجار سيغلقون محلاتهم دون الإكتراث لتهديدات الجنرال ماسو بل يجب الاستخفاف بها. والعمال سيهجرون الورشات والمصانع والموظفون سيتخلون عن مكاتبهم وسيتوقف كل العمال عن عملهم" حتى يثبت "الشعب الجزائري للعالم كله خلال ثمانية أيام من الإضراب، وحدته وراء جبهة التحرير الوطني.

- من أجل تصفية النظام الاستعماري،
- من أجل تحرير الوطن الجزائري،
- من أجل إقامة جمهورية جزائرية ديمقراطية وإجتماعية".

وختم المنشور بالعبارة المؤثرة والمعتادة: "تحيا الجزائر حرة ومستقلة".

فكما كان مقررا، بدأ الإضراب يوم الإثنين وهو أول أيام الأسبوع في فترة الاستعمار. كان الإضراب شاملا ومذهلا. كانت شوارع العاصمة فارغة وكل المحلات مغلقة ولم يعد هناك وجود للأطفال والنساء الملحفات اللواتي كنّ يميزن شوارع العاصمة فكانت الإرادة فولاذية لجعل كل هذه الأعداد

من الناس تلتزم بيتها. فأصبحت الجزائر العاصمة مدينة ميتة كما أرادتها جبهة التحرير الوطني وطالبت بذلك. فقد إعترف جميع الملاحظين وحتى الصحافة الاستعمارية بأن النجاح النفسي كان تاما: كان كل الجزائريون وراء جبهة التحرير الوطني على الأقل خلال اليوم الأول من الإضراب لأن الجنرال ماسو رد بشدة كما أعلن من قبل و لم يسبق لشدة رد فعله مثيل في الجزائر حيث أعطت صحيفة "ليكو دالجي" التابعة للأوساط الأوروبية الأكثر تطرفا، تفاصيل القمع المستعمل ...

في اليوم الثاني من الإضراب، - يوم الثلاثاء 29 فيفيري (جانفي؟) 1957- نشرت اليومية في صفحاتها الأولى صورا تبين مدى قوة حركة الإضراب والوسائل المستعملة لضربها. وتظهر إحدى الصور كيف إقتلعت "سيارة مدرعة" تابعة للجيش الفرنسي، ستار محل ألبان مسلم بواسطة السلاسل. وأضافت يومية "ليكو دالجي" أن "العديد من التجار إضطروا لفتح محلاتهم بالقوة". فمن الجنون والهستيريا أن تصل القوة الى حد ضرب البقالات بالمدافع كما حدث في إحدى الضيعات في ضواحي العاصمة. فكان عدد المحلات التي فتحت بقوة الرشاش وعمليات التخريب التي نقلتها "ليكو دالجي" لا تحصى ولا تعدّ. أما بالنسبة للعمال، فكانوا يؤخذون بالقوة إلى مقرات العمل.

كان التنسيق بين أرباب العمل والجيش تاما. فكان سهلا على العساكر الذين تحصلوا على عناوين العمال، إستدعاء العمال الذين كان حضورهم إلى العمل ضروريا لتفادي شل المدينة كلها. وفي الليل كثفت "القبعات الحمراء" و"القبعات الخضراء" نشاطاتها الليلية للقبض على أكبر عدد ممكن من الرجال. فمن المستحيل ألا نعثر وسط كل هذه الحشود البشرية المحشورة داخل المعسكرات المحاطة بالأسلاك الشائكة، على بعض العناصر النشطة في صفوف جبهة التحرير الوطني. ويجب الإعتراف

بأن مثل هذا التصرف كان مفيداً. فالهلع إستبد بالجميع. "فالأقنعة الرأس" التي كانت غريبة على الجزائريين ظهرت إلى الوجود. وكان أشخاص يرتدون فوق رؤوسهم هذه الأقنعة التي لا تظهر سوى عيونهم، وينتقلون من بيت إلى بيت، بحثا عن أشخاص مشبوهين. وغالبا ما كان هذا المشهد المرعب يحدث مع قروب الليل. فكانت كل عائلة تشد أنفاسها نتيجة القلق الذي يصيبها عند إحتمال زيارة أحد هؤلاء الأشباح لها. ولما أصبح الرعب لا يطاق كان كل معذب يتعجل التخلص منه حتى لو إقتضى الأمر إفشاء أسماء المشبوهين، المهم هو عدم الوقوع بين أيدي جلاديهم الذين يستعجلون استعمال آلة التعذيب بالكهرباء. فألقي القبض على آلاف الأشخاص الذين إختارهم القدر لاستخلاف المعذبين الذين لم يعودوا يتحملون ذلك وفقدوا صوابهم وحياتهم.

وأمام هذه الوحشية والهمجية -والعبارات هنا ليس مبالغ فيها- دفعت الفئة المسلمة مرة أخرى غاليا ثمن تعطشها للحرية و الكرامة فأصيبت في جسدها واضطرت على التنازل ولكن ليس على الرضوخ. فقد زادها فخرا اثباتها للعالم بأسره وللمستعمر خاصة بأنها تتمسك كلية وبكل وعي بالكفاح من أجل الاستقلال الذي تخوضه باسمها جبهة التحرير الوطني.

وإذا كان العديد من المضربين اضطروا مع مرور الأيام - متغيرات حسب القطاعات والأماكن- على التنازل فقد واصل الكثير منهم حتى النهاية ليتموا بذلك ثمانية أيام كاملة من الإضراب.

إن ذكرى هذه الحركة وأبعادها التي لم يشهد لها مثيل تملي ضرورة محاولة تقييم نتائجها. فمن جانب الاستعمار تمكن الجيش الفرنسي بالفعل من كسر الحركة بعد ساعات أو أيام فقط باستعماله أبشع الطرق والوسائل التي لا يتخيلها العقل البشري. فقد تمكنت سلطات الاحتلال من كسر الإضراب حيثما شاءت. فقامت بفتح المحلات وأجبرت الموظفين على استئناف عملهم واقتيد العمال بالقوة إلى قطاعات الاقتصاد الحيوية.

ومهما كانت قساوة الطرق المستعملة، فليس هذا هو الجانب الذي ضربت فيه سلطات الاحتلال بقوة، بل كان تفكيك خلايا جبهة التحرير الوطني خصوصا بالجزائر العاصمة هو الذي استقطب أنظار الرأي العام العالمي. فتعرض العديد من المناضلين والقادة للتوقيف ليتم تعذيبهم وحتى قتلهم خلال هذه الفترة الوجيزة.

فقد كانوا فريسة سهلة إلى درجة أن نداء الإضراب تحول إلى عملية سجن إرادية قام بها سكان العاصمة في غيتوهاتهم. فلم يتم القيام بأية عملية فدائية خلال الإضراب ولم يكن ذلك بسبب إستراتيجية جبهة التحرير الوطني كما تم تداوله خطأ ولكن بكل بساطة استحال القيام بأية عملية من هذا النوع وكان ذلك مصدر فخر لجنود ماسو. أما عن جانب جبهة التحرير الوطني، فيجب تقييم الإضراب على صعيد أوسع وغير فوري حيث ظلت جبهة التحرير الوطني تدرج نضال الشعب الجزائري ضمن آفاق تسجل على المدى البعيد. فمقتضياتها ليست نفسها مقتضيات الاحتلال المتمثلة في تسيير دواليب الدولة الأساسية. فالذي كان يهم الجبهة هو تجنيد الشعب بأسره ورائها ولفت أنظار الرأي العام العالمي حول عدالة وعمق نضالها.

وأخيرا انتزاعها استقلال الجزائر مهما طال الزمن: وكان ذلك هو هدفها الوحيد. إن كل الشهود ممن عايشوا الحدث حاسمون في تأكيدهم بأن "الإضراب كان ايجابيا حتى ولو كان ثمنه عاليا" وهذا ما أكده سعد دحلب الذي تعد شهاداته قيمة جداً أولا، لأنه كان من مدبري الإضراب بصفته عضوا في لجنة التنسيق والتنفيذ، وثانيا لأنه كان موجوداً بالعاصمة وأخيرا لأنه يملك تلك القدرة على وضع الأحداث في سياقها التاريخي وليس بشكل منفرد أو في سياقها الفوري. لقد أكد وكم كان محقا في ذلك أن هذا الإضراب كان بمثابة "كمين ضد التواجد

الفرنسي" لأن فرنسا، كما قال، "جعلت من عملائها أعداء" (5). فلا أحد ممن كانوا يكن لفرنسا صداقة، نال رضاها، حيث وضعت كل الجزائريين في صف واحد، معتبرة أياهم أعداء لتواجدها وكانت تعاملهم على هذا الأساس. وكان الخطأ الوحيد الذي ارتكبته جبهة التحرير الوطني، حسب تصريح وزير الشؤون الخارجية بالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، هو تحديد تاريخ 28 جانفي الذي يصادف نهاية الشهر حيث اتخذت عدة إجراءات ضد العمال تمثلت في فقدانهم كامل أجورهم أو لجزء منها حسب الفترة المحددة في مختلف القطاعات.

وذهب الرئيس بن خدة بعيدا في تقييمه لإضراب الثمانية أيام (6) حيث اعتبر أن هذا الإضراب وحده جدير بأن "يؤلف بشأنه كتاب" وأكد من يشهد له برجاحة عقل، وسداد في التقييم أن هذا الإضراب يسجل ضمن العمليات النادرة "ذات البعد الوطني" التي شهدها الشعب الجزائري خاصة في السنوات الثماني الأخيرة من حرب التحرير الوطني. فبن خدة ليس من أولئك الذين "لم يروا سوى الجانب السلبي لهذا الإضراب" الذي حقق في رأيه جوانب ايجابية هامة خص منها بالذكر:

- "أدرك العالم بأن الشعب الجزائري كان يريد استقلاله
- اتضح بأن جبهة التحرير الوطني تعد المخاطب الوحيد لفرنسا
- أصبحت الحركة الوطنية الجزائرية بفرنسا إلى جانب جبهة التحرير الوطني لان المصاليين اقترحوا يوما واحدا من الإضراب وانتهى ذلك بكشف أمرهم.
- تعززت وحدة الشعب الجزائري في محنته وصموده للقمع الذي كان يرتكب بدون أي تمييز ضد المثقف والعامل والبطال.

وفي هذه النقطة، يضيف الرئيس الأسبق للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، "أخطأ البعض في تقديم حرب الجزائر على أنها مجرد حرب

قامت بها الفئات المحرومة وغابت عنها الطبقة البورجوازية". فقد زاد هذا الإضراب من قوة جبهة التحرير الوطني لأنه، كما أوضح الرئيس بن خدة بإحقاق، عندما بحث "ديغول مدة ثلاثة سنوات بعد ذلك عن قوته الثالثة (و) لم يجد شيئا، لأن ماسو كان قد كسر خلال الإضراب كل القوى الوسيطة".

وإلى هذا التقييم المزدوج لإضراب الثمانية ايام من طرف المبادرين به أنفسهم الذين ظلوا يلعبون دورا أساسيا في سير الثورة إلى غاية تحقيق النصر التام في جويلية 1962، نضيف تقييما ثالثا وأخيرا ننقله عن عبان رمضان الذي أوصل إلى تونس وثيقة هامة لم يسبق وان تم إصدارها مؤرخة في 24 أفريل 1957 والتي نجدها في المرفق. فأهمية الوثيقة تكمن في أنها حررت بتمعن كبير بعدما جرت كل الأحداث التي لها صلة بالإضراب. فيمكننا القول بأنها خلاصة لكل نتائج هذا الإضراب تم تحليلها من طرف عقل مدبر كان في كامل قواه.

بالنسبة لعبان، "واصلت الثورة الجزائرية أولا تقدمها بدون أي ضعف نحو النصر الأكيد". يمكننا عدم مشاطرة محرر الوثيقة في جزمه هذا ولكنه لا يمكننا أن ننفي عنه شجاعته ورجاحة عقله وبعد نظره المثالية. فقد أكد هو الآخر أن إضراب الثمانية أيام العام "حقق كلية هدفه المتمثل في تزكية جبهة التحرير الوطني". ويشدد المتحدث هنا على هذه الكلمات الثلاث الأخيرة وكأن الأمر يتعلق في نظره بالهدف الأساسي للإضراب.

وهو بالطبع محق في ذلك لأنه لم يسبق منذ اندلاع ثورة التحرير وأن عبر الشعب الجزائري بهذه القوة وهذا الوضوح عن تأييده لجبهة التحرير الوطني كهذه المرة. فقد تجند الشعب كله وراء الجبهة. وأمام هذا العزم في الإجماع لم يرعبان سوى "الهمجية" في "تجاوزات جنود ماسو".

فحكمه على رد فعل سلطات الاحتلال والجيش الفرنسي يبقى غير قابل للطعن وتشبيهه غير مبالغ فيه على الإطلاق عندما يؤكد أنه "رغم إبادة اورادور سيرغلان بفيينا كان الألمان أكثر إنصافا عندما لاحقوا المقاومين الفرنسيين". ولا يهمنا أمر من تجعله أخلاقه يعتقد بأن مثل هذه التصرفات لا تأتي في مخيلة الجنود الفرنسيين.

فبإمكان النازيين ارتكاب جرائم بشعة ولكن ليس جنود مهد "الكنيسة" وبلد "حقوق الإنسان". فأي صحوة مباغتة وخيالية هذه التي هزت هؤلاء الفرنسيين الذين طالما عانوا أنفسهم من عمليات التنكيل النازية ليدركوا بين عشية وضحاها بأن جيشهم متهم بأبشع أعمال التعذيب والانحطاط الإنساني الشنيع باسم وطنهم المشترك وبالتالي باسمهم الخاص كونهم مقاومين قدامى. كل هذه الأعمال تم كتمانها تحت غطاء قداسة أسرار الدولة التي قامت باسمها الحكومة الاشتراكية بإخفاء هذه الممارسات على الرأي العام.

ويمكننا القول انه لمن حسن الحظ أن عبان لا يعد ذلك الأخلاقي المبالغ وإلا كان ذلك سيذكي الألم ويثير الغضب الذي يأخذ به كلما تذكر فظاعة معاملة السكان من طرف عناصر فرقة المظليين العاشرة.

فكان عليه أن يتجرع ألمه، وأن لا ينسى أبدا إلا مجال للرحمة في هذه الحرب الشعبية. وهو يؤكد دائما في الوثيقة التي أوصلها إلى تونس أن: "الشعب الجزائري لن يستسلم للخوف والملل وسيظل وراء جبهة التحرير الوطني لمواصلة نضاله الحازم من اجل استقلال هذا البلد الشهيد". وكأنه أراد أن يزيد موقفه شجاعة راح يستدل بالبيت الشعري التالي: إن الضربة تكسر الزجاج ولكنها تصقل الفولاذ.

فهل كانت شخصية عبان من فولاذ؟ يجدر بنا تصديق ذلك لأنه مع كل ما رآه من دموع ودماء وأموات بقيت قواه كاملة ولا شيء في كتاباته

يعكس نوعا من الملل أو أي نية في الاستسلام من طرفه. فمصدر الطمأنينة التي كان يظهرها ينم عن ثقته بذاته التي كانت تنبع من أعماقه.

وبعد أن قال بأن "الثورة الجزائرية واصلت تقدمها دون أي ضعف نحو النصر الأكيد" ها هو يبرر هذه الثقة العميقة بتأكيده بأن "الوحدة الوطنية والقومية والثورية ضد الاحتلال تعززت". فمن الخطأ الإعتقاد بأن عبان كان يتناقض إذ لم يكن للتناقض مجال في وضعية بلغت ذروتها. لم يسبق للجزائر العاصمة وان انتابها كل هذا الخوف والألم ولكم هي صائبة وحقيقية ملاحظة عبان عندما يقول أن "عملاء الاحتلال الأكثر "وفاء" و"عهدا" ينحدرون من تلك السلالة الدنيئة التي تنكرت للجنسية الجزائرية". عندما يبلغنا احد الشهود بأن قائد جبهة التحرير الوطني كان "محرك القمع" فان حكمه هذا ليس بدافع من الحس بلذة الألم (المازوشية) ولكنه يصف حقيقة تكشف أن القمع الذي مارسته سلطات الاحتلال بصفة عشوائية ضد كل الشعب الجزائري كان أفضل دافع للكفاح ضد الاحتلال الفرنسي. ولسنا نحن هنا بعيدين عن عبارة "كمين ضد التواجد الفرنسي" التي استعملها سعد دحلب ليقيم في كلمة واحدة معنى إضراب الثمانية أيام وأبعاده.

فقد كان إضرابا مقصودا ومنظما من طرف لجنة التنسيق والتنفيذ وخاصة من طرف عبان رمضان الذي جعل من جبهة التحرير الوطني الممثل الوحيد للشعب الجزائري. فقد جرمعه كالعاصفة في مهبها الالتزامات المترددة والمواقف المزدوجة لكثير من الجزائريين في الكفاح حتى الموت الذي شن ضد نظام الاحتلال. فمن دون عنف جعل الإضراب الجزائريين يتوحدون وراء نداء جبهة التحرير الوطني ضد التواجد الفرنسي بالجزائر. مما يفسر رد فعل الجيش الفرنسي المنفعل والعنيف والجماعي ضد كل الجزائريين الذين عاملهم بنفس الاحتقار وسلط عليهم نفس العذاب.

أخيرا كان عبان الذي يدرك ما تخفيه قلوب أبناء شعبه ويجيد تقييم موازين القوى متيقنا في اعتقاده بأن "هزيمة الاحتلال كانت حتمية". بكل بساطة لان "اي حل عسكري للحرب الجزائرية" يعتبر "مستحيلا" لدى كل الأوساط الفرنسية. فكم كان محكما تقييمه هذا لوضع الكفاح أسابيع فقط بعد نهاية إضراب الثمانية أيام. فبينما كان يرى العديد من الناس حتى المحنكين منهم في أمور الحرب أن ذلك كان هزيمة نكراء تكبدتها جبهة التحرير الوطني راح عبان يغوص في أعماق الشعب الجزائري ليتمعن جذوره وقوته وقد لقي في ذلك أكثر من دافع ليغذي أمله في النصر الأكيد بعدما كاد أن يؤمن بان الوضع أصبح ميؤوسا منه. وما زاد البطل تبصرا وبعدا في النظر وابلغه قمة الرصانة هو عندما طالب تقريبا في شكل وصية بعدم التخلي عن الجهود مهما كلف الثمن. فياله من رجل عظيم ذلك الذي كان الانهيار يأخذ به وهو لا يزال يطلب من شعبه بذل المزيد من الجهود والتضحيات. فلنستمع إليه مرّة أخيرة في كتاباته التي لا زلنا نحتفظ بها.

"يجب على كل جزائري وجزائرية إدراك بأننا مطالبون حتى آخر دقيقة (أكدها بنفسه) بتطوير طاقات كفاحنا المسلح في كل مكان وبشتى الأشكال وأن نضرب العدو المحتل في كل نقاط ضعفه وأن لا نتخلى عن الطاقات النفسية والسياسية للشعب الجزائري حتى نحقق الاستقلال".

فالقول بان عبارات كهذه كانت تهدف لتهدئة النفس وطمأنتها جراء "الخسائر" التي خلفها إضراب الثمانية أيام راجع إلى جهل شخصية قائد جبهة التحرير الوطني. فلا شيء كان ليثبط عزيمته في مواصلة الكفاح حتى النهاية لا الهزائم العابرة والحتمية ولا حتى الخسائر مهما كانت جسامتها. ففي حديثه وكذلك في تصرفاته كان عبان يبدو من أولئك الذين "يستمرون حتى النهاية". فقد كان يدرك وهو يقول ذلك بان النصر حتمي وأن ثمنه

سيكون عاليا جداً. وقد أكد أكثر من مرة أنه لا مكان للمشاعر في حرب كانت جد فظيعة. فالكثير من المعاناة والآلام والأموات وأخيرا من الكراهية تراكمت طيلة سنوات بالجزائر حتى تكون الحرب بدون عواطف ودون تجاوزات مأساوية.

فعندما نكون بهذا القدر من اليقين كما تظهره مواقف عبان الثابتة، تحسب الخسائر والهزائم في إطار الثمن الذي يدفع لتحقيق النصر. فالنصر هو الأمر الوحيد الذي يهم مهما كلف ذلك من ثمن. خاصة وأن هذا الثمن لا يعدو شيئا أمام ما تكبده الشعب الجزائري منذ ذلك الخلل التاريخي الذي جعله تحت وطأة الاحتلال الأجنبي. والثمن هذا سيكون أغلى وأعلى إذا استمر لسوء الحظ في تضييع الوقت. وهنا بالذات يكمن العامل البسيكولوجي الذي يظهر الفرق بين أولئك الذين تسحقهم الهزيمة وتثبط عزيمتهم والذين تزيدهم عزما وترفعهم إلى أعلى درجات الكفاح.

ويقدم واقع فرنسا سنة 1940 الدليل القاطع على ذلك. فلو لا هزيمة الجيش الفرنسي والاستسلام الذي تلاه، ربما لم نكن أبدا لنسمع عن الجنرال ديغول الذي أصبح منقذ بلده. فمهما كان اختلاف الوضع بالجزائر العاصمة في شهري جانفي - فيفري 1957 فانه يكشف أن في الوقت الذي عم فيه اليأس والانهيار لم يظهر على عبان يوما أثرا من آثار الضعف ولا احد من رفقائه تكلم يوما عن إحساس كهذا. وينبع ذلك دون شك من ثقة الرجل وإيمانه كل الإيمان بان إرادة الشعب الجزائري لا تهزم. فيمكن في نظره أن نثني هذا الشعب ولكن لا يمكن أبدا كسره أو قهره وكان ذلك حقيقة لا يمكن إنكارها. فبمجرد انتهاء إضراب الثمانية أيام وبالرغم من موكب الحزن والمآسي التي رافقته وتفكيك شبكات جبهة التحرير الوطني عادت العمليات الفدائية لتظهر من جديد. وفي الوقت الذي كان الجنرال ماسو المشرف أنذاك على حفظ الأمن بالعاصمة يعتقد

بأنه قضى نهائيا على منظمة جبهة التحرير الوطني جاء انفجار قنبلتين يوم 10 فيفري 1957 ليذكره بأنه لم يتفوق على ما سيسجله التاريخ في "معركة الجزائر العاصمة" التي لم تنته بعد وإلى حد أبعد معركة الجزائر بأكملها.

فقد سجلت فتاتان لا يتجاوز عمرهما 16 و17 سنـة اسميهما في التاريخ حيث أكدتا أنه رغم تطويق الجيش الفرنسي للجزائر للعاصمة إلا أن سكانها لم يقولوا كلمتهم الأخيرة بعد، ولم يتخلوا عن حقهم في الحرية. باية حسين (16 سنة) وجوهر أخرور (17 سنة) تنتقمان لوحشية "القبعات الخضر" و"الحمر" التابعة لماسو بوضع قنبلتين بملعبين ـاكبر ملعب في الجزائر (الملعب البلدي للعاصمة) وملعب الابيار خلفتا 10 قتلى وحوالي 50 جريحا. فاين نصر ماسو من هذا؟ إذ وفي أشد مراحل معركة الجزائر" أظهرت له فتاتان أن الشعب الجزائري لا يقهر وان "مناضليه" عقدوا العزم على الحياة أو الموت لتحيا الجزائر.

ففي هذا الكفاح المرير الذي شاركت فيه من الجانب الجزائري كل روح طاهرة مثل الفتاتين، فقدت الجزائر رجالا ونساء بهروا العالم وحتى العدو ببسالتهم حتى وان كان في ذلك طريقة غريبة في الإعجاب بشخص نقوم باغتياله إلا إذا كان ذلك بمعاتبة من الضمير وتأنيب منه يصعب كتمانهما إلى الأبد. فحتى بعد موته ظل العربي بن مهيدي، ذلك القائد العظيم والمحبوب في صفوف الثورة والعضو الفعال والمؤثر في لجنة التنسيق والتنفيذ، يستوقف جلاديه والعدو المحتل بشأن الأعمال التي اقترفوها. وأكثر من ذلك فقد أدركت فرنسا للمرة الأولى بالتأكيد في المواجهة العنيفة بين القائد السابق لناحية الغرب والعقيد بيجار أنها عاجزة عن هزم الثورة الجزائرية.

ويرمز إبن مهيدي بوجه المضيء الذي ترتسم فيه ابتسامة رقيقة، وتعلوه نظرة ثاقبة، إلى عزم شعب برمته على انتزاع استقلاله. فكم كانت

تبدو تافهة وساخرة تلك الأغلال التي كانت تكبل يديه أمام شعب كامل لم يمنعه تقييد دام أكثر من قرن من تعزيز قوته وعزمه أكثر من أي وقت مضى على كسر قيوده وقهر نظام الاحتلال. أكيد أن إلقاء القبض على العربي بن مهيدي يوم 23 فيفري 1957 في شقة بنهج كلود ديبوسي وسط حي أوروبي من أحياء العاصمة كان نتيجة مباشرة لإضراب الثمانية أيام. فبغية الإفلات من الشبكة التي نصبها جنود الجنرال ماسو حول القصبة، غير ابن مهيدي ملجأه المفضل ليتوجه إلى حي أوروبي مع العلم أنه منذ بداية المعركة الصعبة حول الإضراب لم يسلم أي حي من أحياء العاصمة من عمليات تفتيش المظليين . فبعد توقيف عدد من الأوروبيين ممن جعلهم حبهم الكبير للحرية يتفهمون كفاح الجزائريين ويساعدونهم في خوضه، تزايدت شكوك سلطات الاحتلال في إمكانية اختباء قادة جبهة التحرير الوطني عندهم او في احيائهم. ولا يستبعد أيضا ان يكون جنود بيجار قد تلقوا معلومات عن ذلك حيث تمكنوا عشية القاء القبض على ابن مهيدي، كما جاء في جريدة "ليكو دالجي" الصادرة يوم الجمعة امارس 1957، من توقيف "امرأة شابة تدعى هبرال نسيمة (وهي في الأصل نسيمة هبلال التي كانت همزة وصل هامة في لجنة التنسيق والتنفيذ) ثم الشاب عبد المجيد بن شبكو". وفور ذلك "كما أضافت ليكو دالجي، حجز المحققون مبلغ 50 مليون فرنك فرنسي والقوا القبض على... العربي بن مهيدي" الذي كان يود ان يجعل من الجزائر العاصمة ديان بيان فو جديدة.

وهنا القلب يزداد حسرة والعين تذرف دموعا بمجرد التفكير في هذه الخسارة التي لا تعوض بالنسبة للثورة الجزائرية. اغتياله، أقل من 15 يوما بعد توقيفه، حرم كل الشعب الجزائري من أحد أبطاله الأكثر بسالة ويبقى مهما طال الزمن أفظع وأبشع جريمة يقوم بها جنود فرنسا ضد قائد ثوري بعد أن تم إلقاء القبض عليه وسجنه. وليس بإمكاننا أن نكرس في إطار

هذا الكتاب المكانة المعتبرة التي سيظل يحتلها العربي بن مهيدي في حياة الشعب الجزائري. ولكن نقول بكل بساطة كم كان الأمر مخذلا ومهينا بالنسبة لجريدة كانت الناطق الرسمي لقوات الاحتلال والجلادين عندما كتبت في عددها الصادر يوم الأربعاء 6 مارس 1957 أن "العربي بن مهيدي، عضو اللجنة التنفيذية لجبهة التحرير الوطني انتحر شنقا..." فليست هذه الجملة التي نسبت له "راقبوني جيدا سأغتنم أول فرصة للفرار". والتي نقلتها نفس الجريدة مع صورة البطل التي أصبحت مشهورة، هي التي تنفي أو حتى تنقص من مسؤولية السلطات الفرنسية الكاملة في القيام مع سبق الإصرار بتصفية أحد أكبر قادة الشعب الجزائري.

فيوم تكشف حقيقة موت تحمل كل أدلتها علامات الاغتيال، يجب أن يقدم الحبل الذي يحمله احد ضباط المظليين على الصورة الوحيدة لإلقاء القبض على بن مهيدي، كحجة قاطعة على أن الأمر يتعلق بتصفية اريد عبثا وبحماقة تقديمها على أنها انتحار. ونقول كخاتمة انه لو سعت سلطات الاحتلال يوما إلى فهم الشعب الجزائري ومعرفته، لكانت تدرك دون أية صعوبة بان الانتحار لا يخطر أبدا في مخيلة رجل مثل بن مهيدي الذي يعد نتاجا خالصا لديننا الإسلامي. فقد نشأ بن مهيدي متدينا وظل ينهل ويرتوي علما من مدرسة أبيه الشيخ عبد الرحمن ويستلهم منها في القيام بأعماله الثورية. فباغتيال العربي بن مهيدي بلغت الآلام أبعادا مأسوية ولكن في نفس الوقت كرست أعلى وأسمى قيم التضحية الوطنية.

فعندما يقبل قائد من طراز وطبيعة العربي بن مهيدي على الموت، لا شيء حينئذ يمكنه أن يصد إرادة شعب في اتخاذه مثالا ونموذجا لتحقيق حريته. فرغم أنها كانت وستظل جد مؤلمة بالنسبة لشعب بأكمله شكلت موت بن مهيدي دليلا قاطعا بأن إضراب الثمانية أيام كانت عملية بطولية ضرورية وايجابية في مسار الكفاح من اجل استقلال الجزائر.

وقد جاء توقيف ابن مهيدي وخاصة تصفيته ليزيد ذعرا كل رفاقه والذين كانوا يعرفونه وحتى لدى الأعضاء الأربع الآخرين للجنة التنسيق والتنفيذ. فمهما كانت إرادة المقاومة والصبر في مثل هذه الحالات لا يمكن أبدا أن نبقى عديمي الشعور أمام قطاعة فقدان رفيق وصديق ومسؤول محبوب ومحترم مثل بن مهيدي.

فلم يكن أعضاء اللجنة التنفيذية والتنسيقية ينتظرون يوما من الاحتلال أن تأخذه الرأفة أو يكون متسامحا ولكن لم يظنوه أبدا قادرا على القيام دون تأنيب الضمير بتصفية سجين كان يعرف بأنه من اكبر قادة الثورة.

وها هم أدركوا بعدها انه لا توجد أية اتفاقية حول حقوق الإنسان تحد من فظاعة جيش الاحتلال وسعيه مهما كلف الثمن إلى تصفية جبهة التحرير الوطني بداية من قادتها ما أمكن لهم ذلك. وكانت عملية القرصنة الجوية للطائرة التي استأجرها ملك المغرب أحسن

دليل على ذلك. فقد تجرأ الجيش الفرنسي هذه المرة الذهاب إلى ابعد من ذلك حيث قرر عدم تقديم أي قائد سجين حيا للسطات المدنية. وقد بلغت الحرب أقصى درجة من الفظاعة وأدرك أعضاء اللجنة ذلك جيدا.

ولكن هل يجعلنا هذا نعتقد بان تصفية ابن مهيدي هي التي دفعت بهم إلى مغادرة الجزائر العاصمة ؟ لقد أكد العديد ذلك وهناك من كتبه. ولكن لم نحصل على أي تأكيد في هذا الإطار. فقد بدا وأن مغادرة لجنة التنسيق والتنفيذ العاصمة كانت مخططة ومبرمجة قبل إلقاء القبض على ابن مهيدي حيث أصبح من الصعب ضمان الأمن لأعضاء اللجنة التنفيذية للجبهة منذ اقتحام الفرقة العاشرة للمظليين كل أحياء العاصمة وتنصيبها وحدات بالقصبة لمراقبة كل التحركات. ورغم أن مغادرة أعضاء اللجنة للعاصمة كانت مبرمجة ومنتظرة إلا أن الدلالة الكبيرة والنتائج الهامة التي كانت تحملها جعلتها تؤجل.

فقد كانت تثير إلى حد بعيد حيرة ذلك الذي جعل من ضرورة تغليب الداخل على الخارج فكرته الأساسية وإستراتجيته الأكثر إقناعا لخصومه الذين كانوا تقريبا كلهم خارج التراب الوطني. ومهما طالت فترة مكوث عبان بالجزائر، فانه كان يرتكز على مبدأ يتقاسمه ويقبل به الكثير وأهم من ذلك بالنسبة إليه فقد كان يحظى بدعم المجاهدين. حيث بدأ يتضح وبنوع من الذهول أن البندقية أصبحت تسيطر على السياسي وان العكس اقل حقيقة وسيظل كذلك. فلا يبدو أن قضية مغادرة العاصمة والتراب الوطني خضعت لمناقشة جادة وان كان ذلك فمتى بالتحديد أمكن مناقشتها.

فيمكن أن تكون عمليات القمع التي سلطت على العاصمة وتشديد الخناق على قادة الثورة الرئيسيين بعد توقيف عدد من مساعديهم هي التي جعلت أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ يتخذون في عجالة القرار الذي نعرفه.

غير انه لا ترجح صحة أن يكون الأعضاء الأربع الآخرون للجنة الذين كانوا لا يزالون أحرارا -إذا أمكن الحديث عن الحرية بالنسبة لأشخاص يفرون يوميا من ملاحقة قوات هائلة لا تتردد في استعمال أي وسيلة لبلوغ أهدافها- قد غادروا الجزائر العاصمة في نفس اليوم الذي تم فيه إلقاء القبض على بن مهيدي. أي يوم 23 فيفري في حدود الساعة الخامسة مساء كما تم تأكيد ذلك. فقد علمنا من الرئيس ابن خدة وكذلك من سعد دحلب أن مغادرة العاصمة لم تأت إلا بعد حوالي أسبوع من علمهم بتوقيف رفيقهم. ويمكن منطقيا تحديدها دون تسرع ولا تردد بين نهاية فيفري وبداية مارس 1957. ولكن هذه المغادرة أخذت دلالة انسحاب ما أثقل نتائجه وذلك ليس فقط بالنظر إلى البعد الذي يحمله وجود هيئة قيادية للثورة بالتراب الوطني ولكن أيضا كان لهذا الوجود الفضل في تنفيذ العمليات وكان المسؤولون المحليون على مستوى الولاية يرون فيه مصدر توجيه وتعليمات لتولي قيادتهم الخاصة. فمن خلال لجنة

التنسيق والتنفيذ كان الخارج والداخل يتفقان إلى حد ما ولولاها لكان الحبل الرابط بين المجالين اللذين تحركت فيها الثورة الجزائرية قد انقطع.

فأبعاد الثوار عن مركز القرار الذي يرمز إلى شرعية الثورة جاء ليزيد من صعوباتهم في ربط وتنسيق الكفاح. وكانت هنا بداية لا تفاهم وحتى عدائية ما فتئت تتفاقم بين قوات الداخل وتلك التي تشكلت عسكريا من الجهة الأخرى للحدود الشرقية والغربية للجزائر.

وهكذا فان مغادرة لجنة التنسيق والتنفيذ العاصمة، سواء تمت طوعا أو كرها يجب أن تسجل ضمن النتائج المباشرة والفورية لإضراب الثمانية أيام. وقد ربط مدبراها الرئيسيان، مصيرهما بها. حيث فارق الأول حياته في العاصمة نفسها ليترك الآخر قلبه متعلقا بها ويتوفى بعدها بأقل من سنة بالمغرب. ولكن مهما كانت صعوبة وشدة تلك الأوقات حيث انهارت كل الثقة على مستوى العاصمة، فان عبان رمضان لم يكن من أولئك الذين يترددون أو يستسلمون للارتياب. فكل من اقترب منه في تلك الفترة العصيبة من نهاية فيفري 1957 يؤكد انه ظل يحافظ على هدوئه التام. وحتى وان كان هذا الهدوء يخفي جراحا عميقة في عزته إلا أنه كان يردد دوما بأن "الكفاح سيستمر".

دروب الاختلاف

يصعب مغادرة العاصمة. مدينة الجزائر تحضنك وتداعبك بين أمواج حوضها مثل الشيء الثمين الذي نخفيه عن العيون ونحافظ عليه داخل أم أعيننا. الجزائر العاصمة مدينة معطاءة حتى ولو لونت بالدماء وأحاطتها الآلام. يعجبنا المقام فيها دون ما سبب بين ورغم جراحها. لا يروقنا تركها حيث يغمرنا الشعور بأننا تركنا وراءنا بعضا منا. ومهما كانت حدة الشعور الذي انتاب عبان رمضان أو ذلك الذي أراد إظهاره فمن الأكيد أنه شعر باليأس والضيق حين ترك القاعدة التي انطلق منها إلى قمة السلطة وأصبح المجهول أفقه.

أول محطة له كانت "الشريعة". هي عبارة عن ميدان التزحلق على الثلج تعلو مدينة البلدية غير البعيدة عن الجزائر العاصمة. هذه المحطة تقع بالضبط خلف محطة "بعطة" أين سيلتحق عبان بالعقيد الصادق (دهيلس) قائد الولاية الرابعة. وقد التحق بمركز القيادة هذا الأعضاء الثلاثة الأخرين في لجنة التنسيق والتنفيذ الذين نجوا بمغادرة الجزائر العاصمة أسبوعا تقريبا بعد القبض على بن مهيدي. وقد أخبرنا قائد منطقة الجزائر العاصمة أن ضيوفه حلوا الواحد بعد الأخر بفرق ساعة حتى يفلتوا من رقابة الجيش الفرنسي وبوجه خاص من شبكة المراقبة المكثفة التي وضعها. أما شهادة سعد دحلب فلم تختلف كثيرا عن هذه. حيث أنه كان هو وابن خدة على موعد في مقبرة البلدية الموجودة أسفل الجبل ومنها صعدا معا إلى نقطة التجمع.

كان موعد الأحياء هذا عند الأموات نوعا من التنبؤ. أيمكن التصديق بأن فور وصولهما إلى المخبأ الذي كان محروسا بشدة من طرف جنود دهيلس الأشداء طرح من جديد، مشكل مغادرة التراب الوطني أم لا؟

إلا إذا طرح للمرة الأولى. وهذا ما نظنه. لأن من أصبح فيما بعد وزيراً لخارجية الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ذكر لنا بدقة(1) بأنه كان هو وابن خدة يودان البقاء بينما كان عبان وكريم موافقان على الذهاب. كان إبن "الشلالة" لا يرى مانعا من العودة إلى الجنوب الجزائري للالتحاق بصفوف مقاتلي الولاية السادسة. فكان يرى أن"الخروج كارثة" بينما كان الرئيس الأسبق لمنطقة القبائل ضد ترك أي كان وراءه، انطلاقا من قناعة راسخة أو لأسباب تكتيكية، لأنه كان يعتبر أنه يجب على أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ الناجين " البقاء متحدين". وهي أطروحة أكدها لنا العقيد السابق للولاية الرابعة على الأقل فيما يخص صديقه القديم والذي ضل كذلك إلى وفاته. فكان يرى بأن إختار أحسن جنوده وزودهم ببعض الأسلحة الثقيلة التي كانت بحوزته كي يضمن لضيوفه الأمان الذي يستطيعون فيه مواصلة قيادة الثورة.

وعندما نصح صديقه عبان بعدم الذهاب إلى الخارج وشرح له الموقف كان رد هذا الأخير حادّا: "الثورة الجزائرية كبرت ويجب أن نكبر معها". لكن مهما كانت هذه العبارة بليغة وجميلة وحاملة لأسمى المعاني، ما كان لدهيلس الصلب الذي تغذى وتشبع بالعقل والرصانة الأصيلين إلا أن يلاحظ،، ويقول لنا بخصوص عبان أنه " قصّر عمره". وهكذا اتخذ قراره وهو أن "يكبر مع الثورة الجزائرية". ولم يكن عبان الذي تغمره الثقة بالنفس إلى حد المبالغة، حسب البعض، يتصور الصعاب والمكائد التي كانت تنتظره على طول الطريق الجديد الذي سيسلكه. ففور خروجه من حصن الجزائر العاصمة أصبح في غير مأمن وهو الشيء الذي سرعان ما يكتشفه. كان عبان ضحية لهجته الحادة مثل السيف بل الجازمة تجاه الكثير من القادة أولهم من كان نوعا ما السبب في انضمامه إلى الثورة ثم ترقيته ضمنها لأنه لا يمكن أن نفهم ما جرى لعبان خاصة

بعد خروجه من العاصمة دون التطرق مطولا لعلاقاته مع كريم. أنه الممر الإجباري الذي يجب المرور منه لأي محاولة لفك رموز المأساة الأكثر ألما، وضجرًا للثورة الجزائرية. وهنا لا يسع المؤلف سوى أن يترك جانبا أحكامه المسبقة وميوله وحتى نقاط ضعفه، ليستلهم من أعماقه هذه الموهبة الربانية التي تسمى صرامة أخلاقية ونزاهة أو بكل بساطة الإيمان الموجود لدى كل إنسان والذي يجب في يوم ما العمل به. وإذا كان علينا اختيار هذا الوقت بالذات فمن البديهي أننا لم نكن بحاجة مثلما نحن اليوم لصرامة بل لإتقان قد يؤدي غيابه بالمبادرة المتخذة إلى فقدان الفائدة المرجوة وبالتالي إلى إضفاء أحزانا أخرى على المأساة التي تعتبر كبيرة جدا.

ماذا حدث بالضبط بين عبان وكريم وهي الحلقة الأولى التي نشأت منها بذور الخلاف والتي مافتئت تتغذى منها إلى غاية حدوث ما لم تحمد عقباه؟ لا يوجد كاتب أهتم بالحرب الجزائرية إلا وأصطدم بالعلاقات العنيفة جدا التي كانت موجودة بين قائدي جبهة التحرير الوطني. إننا كنا أنفسنا مندهشين لتكرار الظاهرة هذه في كل لقاءاتنا مع الشهود الرئيسيين الذين رافقوا أحدهما أو الاثنين معا.

من الغريب أنه لم يرد في أي مرجع أن الخلاف بين الرجلين يرجع، على ما يبدو، إلى الأشهر الأولى من الحرب حتى قبل أن يتبوأ عبان رمضان هذه المكانة ويلعب دور الرجل الأول لجبهة التحرير الوطني، وهو ما ذكره كل الملاحظون واجمعوا عليه خاصة ابتداء من سنة 1956. وحسب العقيد دهيلس يرجع الخلاف الأول إلى نوفمبر 1955 وهو التاريخ الذي توجه فيه عبان إلى برج منايل (قرية كبيرة تقع بين الجزائر العاصمة وتيزي وزو) لـ"يواجه" كريم وأوعمران اللذان يبدو أنهما هدداه فتحداهما بقوله: "أقتلاني إن كنتما رجالا". لا يمكن تفسير

هذه المواجهة الأولى المعروفة بين قادة القبائل الثلاثة فقط بـ "تشعب" شخصية عبان رمضان الذي أصبح له نفوذ يسمح له بـ "الاعتماد على قدراته" بل بالانقلاب ضدهما إن دعت الضرورة ذلك وهذا أقل من سنة هما يعتبره الكثير من الملاحظين، رعايتهما له في الثورة حتى وإن كانت هذه الأطروحة قد تمت مراجعتها أو التقليل من أهميتها كما لاحظنا.

إننا نرى أن تصرف عبان تجاه رفقائه خاصة أقواهم -في الوقت الحالي- لا يفسر بوضعه الراهن والمستقبلي بل بتكوين شخصيته. ومن بين كل الشهود الذين استمعنا إليهم يبدو أن عمر أوصديق هو الذي كشف حقا سر شخصية عبان رمضان. فهذا القائد السابق في جيش التحرير الوطني (2) يرى أن المناضل القديم لحزب الشعب الجزائري -حركة انتصار الحريات الديمقراطية الذي تعرف عن قرب على عدة شخصيات وعايش الكثير من الأوضاع، والشخص الذي أصبح فيما بعد الشخصية الأولى لجبهة التحرير الوطني لم يكن يتصور، "علاقات ذات نوعية إلا مع المثقفين". كان يصنف الناس، كما ورد إلينا، إلى "أمخاخ" و"عضلات"، كما أسماهم.

وأضاف شاهدنا أنه قال ذات يوم لمبروك بلحسين وهو محامي شاب كان يود الالتحاق بالجبل أن الجبل يصلح لأصحاب العضلات" وكان يعني بوضوح على ما يبدو أن المثقفين لا يستطيعون الصعود إليه". ودائما حسب عمر أوصديق كان عبان " يتصور علاقاته على مستويين :من جهة مع المثقفين الجديرين بالنقاش معه ومن جهة أخرى مع كل الآخرين الذين لا يحق لهم التدخل في الإستراتيجية والسياسة وعليهم الاكتفاء بالتنفيذ فقط". وهذا ما يفسر، حسب الشاهد، سر إرسال (عبان) الدكتور الأمين دباغين، في ربيع 1955، للإشراف على ابن بلة وخيضر في القاهرة. كيف توصل عبان إلى هذا التصنيف الذي يضع المثقفين في خانة "الأصل

الآري" عكس كل الأخرين غير المتعلمين؟ يقتضي الأمر ربما العودة إلى فترة حصول عبان على شهادة البكالوريا في الرياضيات خلال الحرب العالمية الثانية وهو الشيء الذي منحه مستوى يفوق مستوى كل الفئات الأخرى بدون منازع. وبعد سنوات أي في حوالي عام 1949، يتذكر بلعيد عبد السلام، الذي كان في ذلك الوقت طالبا في الثانوية، المكانة المرموقة التي كان يتمتع بها قائد حركة انتصار الحريات الديمقراطية هذا في منطقة سطيف بسبب هذه الشهادة بالتحديد التي كانت شيئا نادر يحسد عليه وهو ما كان يميزه عن القادة الوطنيين الآخرين الذين كان مستواهم الدراسي بسيطا أو منعدما. ومن ثمة لا يستبعد أن يكون عبان انتابه مركب التفوق تجاه غير المتعلمين. حتى وإن كان الكثير من الشهود الآخرين مثل رباح لخضر أشاروا إلى تواضع ولباقة عبان رمضان مع مناضلي القاعدة و بصفة عامة مع كل المستضعفين وهذا ليس متناقضا بالضرورة. فيجب اعتبار إذن أن عبان لا يبدو قاسيا وعنيفا إلا مع القادة الذين بلغوا هذا المستوى بينما ينقصهم في نظره البعد الهام المتمثل في التعلم والمعرفة. وهنا يكمن تعقد شخصية بطلنا.

يمكن أن تشكل تصريحات عمر أوصديق الشخصية وقد أكد هذه الشهادات في مجملها الأستاذ بلحسين نفسه (3). فعندما للمرة الثانية مع رئيس جبهة التحرير الوطني في 1 أو 2 أفريل 1956 بالجزائر العاصمة حدثه عن رغبته في الالتحاق بجيش التحرير الوطني: فقيل له: "إننا بحاجة لمشاة لا لأى كامين". لكنه أوصاه مع ذلك عند مروره بباريس أن يلتقي صالح لوانشي المسمى "موسيو جان" (السيد جان) وذلك عبر وساطة الأستاذ ستيب. نشير هنا إلى أن عبان شكر في سياق هذا الحديث، كريم الذي، كما قال، "حقق تقدما كبيرا وأصبح منظما جيداً". هذا ونعتقد أنه لرصد العلاقة بين رئيسي جبهة التحرير الوطني لا يجب

التوقف عند الصورة العادية لمعارضة صلبة بين قائدين يحدوهما نفس الطموح وهو أن يصبح كل منهما القائد الأول والوحيد للثورة. يجب التعمق في التحليل والتساؤل عما إذا كانت التقاليد المحلية، في هذه الحالة بالذات، قد لعبت دورا لصالح عبان وهو الشيء الذي يكون قد هيج توجهه المهيمن ؟ هناك أولا فارق السن بين الرجلين. بالتأكيد هو ضئيل لا يتجاوز سنتين. كان عبان أكبر من كريم. فقد ولد في 1920 بينما ولد كريم في 1922. الفرق ضئيل لكنه كاف لمنح عبان ميزة السن على كريم. وهذا له أهمية كبيرة في منطقة القبائل و ربما في كل المناطق الجزائرية الأخرى. يجب العيش منذ الصغر في القرى القبائلية لمعرفة السلطة شبه الدكتاتورية والاستبدادية القائمة على السن حيث أن كل شخص توجب عليه طاعة من هو أكبره منه سنا. فمن المألوف جدا خاصة قبل الحرب مشاهدة الأشخاص المسنين يستعملون العصا لإبعاد الشبان وتأديبهم.

صحيح أن فرق السن بين عبان وكريم ليس كبيرا إلى درجة تبرير تصرفه معه. لكن مهما كان هذا الفرق ضئيلا يجب في الحسبان لتفسير هذا التصرف. لكن مهما كانت جوانب القضية التي نتطرق إليها ومهما اعتبرنا أهمية التقاليد لإدراجها في مسعى الشرح والتفسير لا يسعنا إلا الرجوع والعودة إلى هذا "الطبع الصادق" الذي اكتشفه المعلم في التلميذ عبان وهو لا يزال في الثالثة عشرة من عمره. ولا يسعنا إلا قبول بخشونة طبع كهذا لم يستهدف كريم بلقاسم وحده لأنه كان الشخص الذي يعرقل تقدم عبان أو كان أقوى وأخطر منافسه. لكن في ذلك الوقت كان هو المستهدف بصورة خاصة بالحمم اللفظية المتدفقة من عبان.

وقد قيل وكتب أيضا (4) أن عميروش الذي لم يكن بعد مسؤولا عن الولاية الثالثة وكان تحت سلطة كريم فكر في تصفية منظم مؤتمر الصومام حين عقد اللقاء في منطقته ذلك أنه كان منزعجا من النزعة

التوسعية وأوامر عبان الذي كان يريد التكفل بكل شيء وبكـل النـاس. وهذا ما يثبت أن العلاقات بين عبان وكريم كانت دوما مشحونة بمختلف عناصر التوتر والاتهام والتهديد. إن الخروج من العاصمة التي كان الرجلان يعيشان فيها في خطر دائم زاد من حدة التوتر خاصة وأن أفق الزعامـة بدت لكل منهما واضحة وممكنة أكثر من ذي قبل لأنهمـا أصـبحا أقـل التزاما وعرضة للخطر. وقد انفجر الخلاف وهما لا يزالان فـي مخبـأ بعطة حيث كانا ضيفا العقيد دهيلس وهو خلاف أكـد تـأزم العلاقـات التي تربطهما وأنبأ بقدوم أيام صعبة. وكان موضوع الخـلاف وضـعية الولاية السادسة. فعندما أراد كريم أن يقول رأيه عارضه عبان صارخا في وجهه :" لماذا تتحدث عن أشياء لا تخصك، أنـت لا تفهـم شـيئا". ولم يراع حتى عمر أوصديق الذي لم يخف حيرته أمام هذه التصريحات لأنه يعتبر كريم بلقاسم "رئيسا كبيرا" حتى ولو كـان طموحـه لا يقـل عن طموح الآخرين. و قال له عبان:"بإمكانك أنـت اسـتئناف الطريـق ومواصلة عملك المعتاد أما دهيلس فسيبقى هنا".

جرى هذا بحضور ثلاثة أعضاء آخرين في لجنة التنـسيق والتنفيـذ وإطارات الولاية الرابعة. وقد عاد هؤلاء على عجل من حيـث جـاؤوا فتوجه بعضهم إلى منطقة وهران، والبعض الأخر إلى منطقـة القبائـل لتفادي التمشيط الذي كان يقوم به الجيش الفرنسي خلال إضراب الثمانية أيام وبعده. ولا يمكن اعتبار أن عبان كان مخ أوصـديق رغـم علمـه بأنه أحد أقدم مناضلي حزب الشعب الجزائري وأنه هو الذي راعاه عنـد انخراطه في الحزب الوطني، حسب هذا الأخير كما جاء في الفصل الخامس.

لم يكن عبان جارحا فقط من خلال اللهجة والكلمات التـي يـستعملها فهوايته المفضلة هي التوبيخ العلني مما يزيد فـي مهانـة الأشـخاص المقصودين. وهنا لا يجب أن ننسى بأن التأثر في الوسط القبائلي كبيـر

جداً زيادة عن "النيف" الذي هو بمثابة دفاع عن الشرف وهو ما يزيد الطين بلة. وهنا يمكن تصور التأثر الداخلي البالغ لكل من كريم وأوصديق وهما لا يردان عن تطاول لسان هذا الصادرة عن كل مَنْ كان، بصورة أو بأخرى، في حمايتهما. لكن لا يوجد أصعب من كظم الغيظ لأنه ينفجر كالبركان آجلا أم عاجلا! .

من الطبيعي أن بعد مظاهر التوبيخ العلني هذا بدأ الإبتعاد بين عبان وكريم وانقطع الاتصال بينهما. ما فائدة اللقاء إذا كان ذلك يؤدي إلى التناحر؟ إن الظروف التي تلت فرضت هدنة فيما أصبح مواجهة مباشرة وشبه دائمة بين عضوي لجنة التنسيق والتنفيذ حيث ذهب كل منهما إلى الخارج: حيث توجه عبان رفقة سعد دحلب إلى الغرب بهدف الالتحاق بالمغرب بينما توجه كريم وبن خدة إلى تونس مرورا بالقبائل ومنطقة قسنطينة. وتجدر الملاحظة هنا إلى أن السهولة ليست حليفة عبان، حتى وإن كان طريق الشرق محفوفا أيضا بالأخطار بسبب الوجود المكثف للجيش الفرنسي. وأن الطريق من الغرب مكشوف ولا يتوفر على مخابئ كثيرة حتى وإن كان في نفس الوقت لا توجد قوات كبيرة للعدو.

وسواء رجع ذلك للقدر أو لإرادة عبان القوية: فإن الطريق الذي سلكه عبان ساهم في حفر قبره، لأن في ذلك الوقت كان الذهاب إلى المغرب ليس كالذهاب إلى تونس. فإذا كان مسؤول في جبهة التحرير الوطني يشعر و كأنه بين أهله في تونس ويتحرك دون خطر كبير، لم يكن الوضع مماثلا في المملكة المغربية . فحتى وإن لم تكن هذه الأخيرة أرض العدو، يشعر المرء بأنه في أرض عدائية ليس بالطبع بسبب السلطة الشرعية للبلاد لكن بسبب السلطة القائمة بذاتها والموازية التي نصبت نفسها وهي سلطة عبد الحفيظ بوصوف الذي كان السيد، بدون منازع،

على ناحية وهران التي يقودها خلفا لبن مهيدي وكذلك على المغرب وبصفة خاصة على الحدود مع الجزائر حيث استطاع أن يكوّن منظمة فعالة في خدمته قولا وفعلا.

أدرك عبان قبل أن يصل إلى المغرب الطابع الخصوصي جدا للولاية الخامسة. فقد قيل مرارا وتكرارا أنها الولاية الوحيدة التي كان يقودها ولمدة طويلة مسؤولون لا ينتمون للمنطقة. فلا بن مهيدي المسؤول الأول لهذه المنطقة ولا بوصوف الذي خلفه ولا بومدين العقيد الثالث الذي قاد منطقة وهران مولودين فيها بل لم يكونوا حتى الأبناء المتبنيين لها، لأنهم جاؤوا إليها فيما بعد. فبفضل طريقة اختيار الزملاء التي نجدها سوى في الواقع والشائعه مع ذلك في أكامن أخرى فلتت القيادة ولمدة طويلة من أبناء المنطقة، مما ترك لدى الكثير منهم شيئاً من المرارة. وبحلول الخلافة الرابعة فقط أسندت القيادة للعقيد لطفي المولود بتلمسان. ومع هذا لا يجب استنتاج، حسب العديد من الشهود، أن السلطة المزدوجة لبوصوف وبومدبن كانت أقل قوة على كل المنطقة. فقد كانت لكل واحد منهما، حتى عن بعد، قبضة محكمة عليها.

ولدى وصوله، بعد مسيرة طويلة دامت شهرا قطعها في أغلب الأحيان على ظهر بغل أو جمل، أصطدم عبان ببوصوف الذي لم يكن يقبل الانتقادات هو الذي ساد إلى حد الآن بصفة كاملة على كل منطقة وهران ويقود في المغرب رجاله ومنظمته بيد من حديد. حتى أن أشد خصومه يشيرون إلى الفعالية الرهيبة للآلة التي وضعها في التراب المغربي. فلا يوجد جزائري يدخل التراب المغربي أو يغادره دون أن يخضع لمراقبة وتحقيق في هويته ومتابعة من طرف رجال بوصوف. كانت توجد في الموانئ والمطارات فرق مراقبة حقيقة موازية لفرق البلد المضيف. وأصبحت هذه الفرق، راضية كانت أم مرفقة، ضحية انتقال السلطة

لصالح تنظيم جبهة التحرير الوطني الذي هو في الواقع تنظيم رجل يعنى بكل الأمور المتعلقة بالمواطنين الجزائريين. لقد أدى هذا التنظيم الموجه لمحاربة النظام الاستعماري الفرنسي بدون شك خدمات كبيـرة للثـورة. لم يكن فعالا و نشيطا في التزويد بالأسلحة وتوظيف المقاتلين وتدريبهم فحسب بل سجل ضربات جريئة ضد مصالح المخابرات الفرنسية كمـا نجح في تتبع اتصالات العدو 24 ساعة على 24 سـاعة دون الاكتـراث لأرق الرجال. لا زال البعض منهم يتذكر بذهول كيـف كـانوا تقريبـا يحبسون لمدة شهور في القبو والمخازن أو المزارع التي كانت تمتلكهـا جبهة التحرير الوطني في المغرب ويمنعون خلالها منعا باتا من الخروج أو الاتصال بالخارج.

وبالموازاة مع تحريك آلة الحرب هذه ضد فرنـسا انحرفـت بعـض دواليبها نحو التجسس المحكم على كل من هو خارج عن ولاء بوصوف بما في ذلك، وعلى وجه الخصوص، قادة الثورة الآخرين حيثما كانوا.

وعلى الرغم من أنه كان على علم بكل هذا كانت دهشة عبان كبيـرة جداً أمام ما اكتشفه وخاصة الاستعمال الذي قام به صاحب هذا التنظـيم. ففي بداية أفريل 1957 وربما بضعة أيام بعد وصوله إلى المغرب التقـى عبان صدفة في وجدة ببلعيد عبد الـسلام. فهمـا شخـصيتان قـديمتان تتبادلان الاحترام والصداقة ويستعملان نفس الشبكة لفك رموز التـاريخ وتحليل مجرى الأحداث إلا أن تلتقيان في جو حميمـي وسـط ضـجيج الحرب. وباديء ذي بدء قال عبان لبلعيد " لقد قـرأت مقالاتـك لأننـي لم أكن أخرج. إنك خارج الموضوع. فأنت تفكر كثيرا أنا لا أفكر كثيـرا لأن منطقيا كل شيء ضدنا. لذا لا يجب التفكير. أنا أرى أنه يجب القيام بعمل جذري". (5)

الحديث الذي روي لنا كان يدور حول القطيعة الثقافية مع فرنسا. لا يجب أن ننسى أن بلعيد عبد السلام الذي كان يرأس فرع الجزائر العاصمة للطلبة الجزائريين والذي لعب ، حسب الدكتور بلهوان، دورا حاسما في إنشاء الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين في جويلية 1955 (6)، كان مكلفا من طرف هذا الأخير بالالتقاء بعبان في الجزائر العاصمة في ماي 1956. ونعلم أيضا أن مبعوث الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين الذي اختبأ عند قس الجزائر دوفال لم يستطع الإلتقاء به لكنه نجح في معالجة موضوع مهمته مع ابن يوسف بن خدة حول مواصلة إضراب الطلبة أم لا والذي أبلغه تعليمات عبان رمضان.

وبعد حوالى سنة استأنف الرجلان وهذه المرة في وجدة مناقشة مسألة خوض كفاح جذري وشامل ضد فرنسا. لكنه على ما يبدو لا المكان ولا الزمان كانا مناسبان لمثل هذه المناقشات. فكانت هناك أشياء أكثر أولوية. فعبان الذي كان من شيمه السخاء والكرم مثله مثل العظماء، أخرج من جيبه بعض النقود وقدمها لعبد السلام. 25000 فرنك في ذلك الوقت. صحيح أنها كانت قليلة لكن كافية لسد الحاجيات الآنية. أفترق الرجلان ووعد عبان الاتصال به. لكنه أضاف وكأنه نسي أن يسأله أمرا هاما:" صحيح أنه يوجد جواسيس؟" لنراهن أن المستهدفين ليسوا الأعوان الفرنسيين" . لم يكن رئيس جبهة التحرير الوطني ساذجا لحد الجهل أن القوة الاستعمارية القديمة لا تزال موجودة بقوة في المغرب.

لم تكن المعلومات التي جمعها عبان رمضان خلال عبوره منطقة وهران حيث تمكن رفقة سعد دحلب من تعيين الولاية الخامسة بالاستماع والتحدث مع عدة إطارات، لتسهل لقاءه مع بوصوف. كان أقل بكثير مما شاهد وسمع يثير غضبه. سلمه إطار شاب لجبهة التحرير الوطني تقريرا مكتوبا بآلة رقن في أربع صفحات حول "أنماط التسيير السيدة" للولاية

الخامسة التي كان يقودها بوصوف. صاحب هذا التقرير سيحبس فيما بعد لمدة ستة أشهر في أقصى ظروف السجن لكونه اتصل مباشرة مع عبان الذي وبفضل سرعة البداهة التي يتمتع بها، كان قد كون فكرته. فهو بطبعه لا يخفي شعوره ولا يسلك الطرق الملتوية للإدلاء برأيه. وفور لقائه مع "صاحب" منطقة وهران ومنطقة المغرب أبلغه بالمشاهد غير السارة التي لاحظها وهو يعبر الولاية الخامسة. فطرح وضع بومدين. لم يفهم عبان كيف وصل هذا الأخير بهذه السرعة إلى مرتبة قائد، بينما إطار في الولاية الرابعة له نفس المستوى، لا يزال نقيبا. وكانت خلاصة الأمر سريعة: طلب تنزيل رتبة مَنْ أحرز فيما بعد تقدما فائقا وذكيا ليصبح خلال سنوات قليلة قائداً لجيش الحدود في انتظار قيادة الجيش كله مما سيفتح له الطريق فيما بعد لتولي رئاسة الجمهورية. وهنا تظهر صرامة ومنطق الرياضي. فهو لم يكن يرى مبررا لوجود فرق بين عنصرين لهما نفس المؤهلات. وبالتأكيد لم يكن عبان يجهل أنه تم تفضيل بومدين على لطفي في قيادة ولاية وهران ولم يكن لطفي، حسب معلوماتنا، تنقصه الشجاعة والخبرة ولا حتى الثقافة. فقد ترك المدرسة في سن مبكر في تلمسان حيث تحصل على تكوين مزدوج جيد مما كان يجعله على الأقل في هذه المرتبة، ويتفوق على أن منافسه الذي تم تفضيله عليه رغم ذلك. وليس غريبا أن تكون ثمة عناصر تقديرية أخرى قد دخلت في الحسبان بالنسبة لهذا الاختيار. فنظام التعيين من طرف الزملاء الساري في كل الولايات يخضع في الحقيقة وعلى وجه الخصوص لاعتبارات شخصية. فكان معروفا لدى الجميع أن بومدين كان قريبا من بوصوف أكثر مما كان لطفي. ومن عجائب التاريخ فإن ترقية من أصبح فيما بعد قائد أركان جيش التحرير الوطني تمت بفضل ابن بلة الذي كان من سجنه بفرنسا على اتصال دائم ببوصوف.

وحسب بعض المصادر، كان أيضا وراء التحاقــه بجـيش التحريــر الوطني. إلتقاء الرجلين في القاهرة في الوقت الذي كان فيه أحدهما رئيس البعثة الخارجية لجبهة التحرير الوطني والآخر طالبا في الأزهــر وبقيــا على اتصـال طول الوقت الذي كانت تتطلبه مصلحة كل واحــد منهمــا. ونعلم ما حدث فيما بعد ...يوم 19 جوان 1965.

لم يكن وضع بومدين الوحيد الذي أثار غضب عبان رمضان. فقد علم هذا الأخير خلال تواجده بالمغرب أن "الولايــة الخامــسة تملــك أكثــر من مليار فرنك بينما لم تكن الولايتين الرابعة والثالثة تملكان شيئا" حسب فرحــات عباس (7) . "عندما حدث بوصوف عن ذلك لائما إياه ـ وهنا نذكر نفــس المصدر ـ أبدى تعنتا. ولم يفهم أن هذه الأموال للجزائر كلها وليس لولايته فقط".

لكن مما زاد الأزمة حدة وتوترا بين الرجلين هو عندما علــم عبــان أن بوصوف على اتصال وثيق مع بن بلة عمل بالمثل الذي يقول "صديق عدوي عدو وعدو عدوي صديق" لم يتقبل عبان أبدا نزعة رئيس المنظمة الخاصة إلى البــروز أو إلــى تــزعم الثــورة. فــالرجلان يختلفــان كل الاختلاف. لا شيء يقربهما لا تكوينهما ولا طبعهما. وتلفــظ عبــان بألفاظ قاسية إزاء ابن بلة ذاهبا إلى وصفه بالخائن (8) وهذا قبل اعتقال هذا الأخير بكثير. إن صلته الوثيقة بمــصر فــي عهــد عبــد الناصــر وبمخابراته الخاصة، كانت دائما تبعث في نفسه الشكوك على الأقل لكونه فضل أهدافه الخاصة على حساب أهداف القيادة الجماعية للثورة.

ومهما كانت شكوك عبان قوية تجاه بوصوف بسبب علاقاته مع رئيس المنظمة الخاصة السابق فإن طباع الرجلين اللذين تشدهما نزعة التــسلط أدت بهما إلى التناحر. فلا أحد منهما يستطيع التعامل بمرونــة وهــدوء. وإذا كان سيد الولاية الخامسة الذي كان يسود بدون منازع على منطقــة

المغرب، استطاع لفترة كظم غيضه فهذا لكي لا يواجه مباشرة وقبل الأوان رجلا كان في ذلك الوقت يمثل وحده مؤسسة فعلية ضمن الثورة.

كان يعلم أنه لن يستطيع التعامل معه الند للند في تلك الفترة، لكنه كان ينتظر الوقت المناسب، وكانت المعركة فيما بعد، أشد ضراوة لكن في صمت. قبل بوصوف بكل نبل بل ذهب إلى حد أن اقترح على عبان تفتيش منشآت الاتصالات التي كان فخوراً بها. هذا زاد من سعة الهوة بينهما بإلحاق الإهانة بمن كان، في هذه الوضعية، يخضع لأوامر الأخر. كان عبان يتمتع بـ "ميزة الرئيس" باعتراف رفقائه. ولم يكن بحاجة لإظهارها. وقد تفطن لذلك الشبان المكلفين بالاتصالات التابعة لجبهة التحرير الوطني. فعند رؤية مسؤولهم مرفوقا بهذا الشخص المجهول الذي جاء يزورهم، هم المحبوسون في هذا القبو وكانت تظهر عليهم علامات اليأس والاحتياج. لم يصعب عليهم اكتشاف من هو السيد الحقيقي. ويقول أحد الشهود في هذا الشأن أن هذا المنظر كان له أثر بالغ على شعور بوصوف الذي كان إلى ذلك الوقت شامخا وكامل السلطة إن لم نقل التسلط.

هذه الملاحظات تؤثر على الإنسان أكثر من كم هائل من الانتقادات. كان يمكن لعبان ألا يتفوه بانتقاداته، لكنه كان من هؤلاء الرجال الذين لا يكظمون الغيظ. كان يقول ما يفكر فيه وكانت أحيانا عباراته تتجاوز فكرته مستعملا لهجة شديدة وقاسية. يمكن أن نغفر ذلك للبعض لأنه يحدث وأن تتجاوز الكلمات ما يعنيه الإنسان حقيقة. لكن لا يغفر لهذا المسؤول المعروف ببلاغته وحدة فكره. ألا يجب على مسؤول بهذه الدرجة أن يكون معتدلا وحذقا في أقواله؟ لكن هذه لم تكن صفات عبان. نتذكر أن حتى مع مصالي الذي كان بمثابة إله تجرأ عبان على انتقاد تصرفاته وحتى طريقة تسيير الحزب بالرغم من أن عبان

لم يكن في ذلك الوقت بالمكانة التي هو عليها الآن. كل مساره تميز بلغة شديدة صلبة وعنيفة تصدر كطلقات الرصاص . وعندما وصل إلى أعلى هرم السلطة كان يسهل عليه يواجه أكثر بما يدور في ذهنه ضد كل واحد خاصة عندما يريد تأنيبه لكن بصدق و دون عداوة لأنه كان يعترف لـه بالنزاهة التي كانت تحمله على عدم إخفاء أفكاره وأحكامه. فما كان يعتبـره هو واجباً كان الآخرون ينظرون إليه عجرفة وتسلطا حتى ولو كان خالياً من كل مكر أو سوء نية. لكن كانت أقواله تؤلم وتسبب جروحاً لا تلتـئم خاصة و أنها كانت تخدش كرامة من تـستهدفهم. وهكـذا لـم يتـردد في وصف بوصوف بـ"الصعلوك" ، كما أكده لنا أحـد الـشهود رفيـع المستوى. وهذا، كالعادة دون تردد وعلانية وبحضور المعني نفسه.

كيف يمكن فهم تصرف كهذا؟ كان الكثير ، بدءً بفرحات عباس، يرون أن هذا راجع لالتهاب الغدة الدرقية وقرحة المعـدة ممَّـا يجعلـه دائمـا في ثوران يلقي حممه على من حوله. صحيح أن هذه الأمراض لا تبعث على الهدوء وروح التواصل والرزانة. لكن من الخطأ اعتبار كل مرضى القرحة محكوم عليهم بالطبع المندفع والعدائي الذي لا يمكـن احتـواؤه. وهذا صحيح بالفعل حتى بالنسبة لعبان الذي لم يكن العديد مـن رفقائـه يعتبرونه في ثوران دائم بل كان يستطيع أن يكون لبقا ولطيفا وحتى سخيا إلى أبعد الدرجات. فالتفسير الوحيد الذي نراه معقولا لموضوع الغـضب وميل عبان للنقد الحاد لا يعود ربما لـ"طبع المسؤول" الذي يعـرف بـه فقط لكن أيضا إلى ما كان يعتقد أنه المصلحة العليا للثورة التي لا تتوافق مع أية مصلحة أخرى من أي شخص مهما تبوأ مكانة عالية في السلم. فقد كانت تطبعه قناعة راسخة وعميقة بأن ذلـك فـي مـصلحة الثـورة وأن الانتقادات التي يوجهها على كل صعيد صائبة. كان يرى أنه صائب ولا يفهم كيف لا يكون الأمر كذلك بالنسبة للآخرين- تقريبا كلهم- أمـام

هذه الحقيقة الثاقبة. وبما أنه لا يفهم ذلك فهو يرفضه ويندد به بقوة وحتى بكل عنف. ربما كان هذا عيبه الكبير. أن يكون على حق تقريبا في كل القضايا التي يتناولها، هذا ما سيعترف به في وقت أو في آخر الكثير من المسؤولين بما فيهم خصومه ومعارضيه. لكن ما لم يكن يقبل منه هو اللهجة العنيفة هذه خاصة من شخص نعلم، مع الأسف، أنه على حق. من لم يؤلمه رؤية عبان بذلك الذكاء والثقافة يقود بقوة وحزم الإستراتيجية السياسية الكبيرة بينما كانت الأغلبية تغرق في قضايا تافهة وترتبك في مسائل ضيقة. كان عبان يتمتع ببعد الرؤية ويتطلع إلى آفاق رحبة وهي ميزة التعالي التي تحدث شروخا في العقول الضيقة وإذا ما أضيفت إلى عنف اللهجة فهي تدوس مثل الجرّافة التي تمر على أكوام التراب.

وحتى ولو كانت لديه أسبابا تجعله قاسيا على قادة الثورة الآخرين لم يكن عبان، هو الآخر، مثالي. فكيف يمكن لبوصوف الغيور على سلطته، ألا يرى مساسا بكرامته عندما يعلم أن الذي جاء يتفقد لا يتردد في تجاهل سلطته والتحدث مباشرة مع مساعديه؟ وقد فعل ذلك على الأقل مع ثعالبي علال الذي كان مسؤول التنظيم في المغرب والذي اعترف بنفسه بذلك. لم يكن لهذه الممارسات أن تخلف نتائج خطيرة لو أن قادة جبهة التحرير الوطني في ذلك الوقت كانوا يبحثون بصورة حثيثة عن ائتلافات. وبعبارة أخرى كان الذي يستطيع كسب علاقات أكثر أو زبائن، إن صح القول، هو الذي يظهر بوسائل وقوات أكبر يوم المواجهة التي تندرج في منطق السباق إلى السلطة. يحتفظ تعالبي علال بعد لقائه بعبان في حوالي جوان 1957 بمنطقة الناظور بذكرى رجل ذو "لهجة مستبدة ومقززة" (9).

وهكذا خلف مرور عبان بولاية وهران والمغرب في طريقه إلى تونس بعد خروج أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ الأربعة الناجين من الجزائر

العاصمة أثارا سلبية بالنسبة إليه. صحيح أنه خرج هو ورفيقه سعد دحلب بفكرة مباشرة ووافية عن الحياة في الجبل وبصفة عامة عن وضع الثورة، لكنه زرع أيضا النقد والتصريحات الجارحة التي زادت من حدة التوترات والانقسامات لتؤول في الأخير إلى المأساة.

غادر عبان المغرب وفي ذهنه صورة حالكة نوعا ما عن الوضع. فلم يعد يتقبل وهو الرجل النزيه والقوي أن تصبح صفوف الثورة بأكملها تنخرها والغيرة والتوترات والاضطهاد التي تؤدي إلى فوضى تهدد علانية وبتشكل خطير جهود تحرير البلاد. كان متيقنا تماما بأن المرض عميق وقد بلغ مستويات خطيرة على المدى القريب والبعيد. كان يشعر بتنامي النزعة الإقطاعية والتسلطية التي يعتبرها مضرة بالثورة وكذا بجزائر الغد. فهي بذور لا يمكن القضاء عليها بسهولة لأنها عندما تسكن جسم المجتمع تنخره وتضعفه باستمرار وقد تقضي عليه إذا لم نتنبه لذلك ولم نتحرك بسرعة وبعنف إذا اقتضت الضرورة ذلك. ولا يتم هذا بواسطة علاج خفيف لكن بعمليات جراحية. فهنا يجب البتر والاستئصال في هذه الحالة.

بهذا الثمن فقط يمكن إنقاذ ما تبقى إنقاذه. خاصة الجزء السليم للثورة. وبالنسبة لعبان رمضان هذا الجزء السليم هو الشعب على وجه الخصوص والمقاتل في الجبل الذي بقي هو أيضا نزيها وصلبا. كان عبان يجد نفسه مع هؤلاء وليس مع المسوؤلين الذين "يعيشون حياة القصور في الخارج" ولا يفعلون شيئا سوى صقل أدواتهم لإرواء عطشهم للقوة والمصالح الشخصية. إنطلاقا من هذه القناعة سيرمي عبان بكل ثقله في الميزان لتعديل الوضع. حماسه هو الذي سيؤدي به إلى التهلكة. لم يكن يدري معنى المراعاة وأنه لن يستطيع وحده مواجهة كل هذه الانحرافات والانزلاقات ومعالجتها. كان يرى أن المرونة تعني الضعف فحين كان يصف وضعية

بالفوضوية والإقطاعية والخطيرة كان الكثير ممن يستمعون إليه يضعون عليها أسماء. أما خصومه فكانوا يتربصون لخطأ أو ضعف منه للانقضاض عليه من مخابئهم الأرضية وتحميله كل مشاكل الثورة.

لقد حملوه وحده عواقب كل شيء حتى تداعيات إضراب الثمانية أيام. وهناك من أقحمه مع بن مهيدي الذي كان، على كل حال، يعجز عن الرد. وهكذا جاء كل واحد بأطروحته : " كان الإضراب بمثابة فشل وكارثة وخطأ. لم يكن من الضروري شنه لأن الثورة تنظم في البوادي لا في المدن. إذا كان يراد القيام به ـ وهنا ندري من المستهدف بهذا الكلام ـ فهذا بدافع الفخر والعجرفة وإسناد السلطة لنفسه والصيت المفقودين". وقال الذين اكتشفوا لديهم فن النقد:

"لقد مكن هذا الإضراب القوة الاستعمارية من تحطيم جبهة التحرير الوطني كلية في الجزائر العاصمة. لقد تضرر الشعب كثيرا وتعب من الحرب". ويمكن ذكر تصريحات أخرى كثيرة. بإمكان الكثير فهم أن سوء النية هذه استخدمت لتبرير ما لا مبرر له. من وجهة نظر التاريخ فقد تقرر الإضراب بإجماع أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ الخمسة زيادة على أنه لم يثر أي نقد من أي كان فضلا على أن الشعب استجاب برمته كرجل واحد لنداء الإضراب في كل التراب الوطني على الأقل قبل أن تكسره القوات الاستعمارية التي أصيبت بعدوى مناهج "ماسو" العنيفة. لا يمكن إصدار أحكام انطلاقا من حدث واحد. لقد دخل إضراب 28 جانفي 1957 التاريخ كإحدى البطولات الرائعة لتعبئة وكفاح الشعب الجزائري برمته. فكم كانت ظالمة إذن الحجة التي قدمت والتي مفادها أن ثمن الإضراب كان باهظا. وإذا اتبعنا هذا المنطق هل يجب اعتبار أن ثورة نوفمبر 1954 كانت فاشلة لأن الشعب الجزائري دفع ثمنها مليون ونصف مليون شهيد؟

ومن البديهي أنه عندما يراد القضاء على خصم تعتبر كل الحجج صالحة. وأصبح من ثمة عبان وسط فيض من الانتقادات تتعالى من كل جهة. ضعف الإنسان معروف منذ الأزل فهو في كل الكتب الدينية.

وأراد عبان الذي يتميز مسعاه بالمنطق والصرامة، استدعاء أعلى هيئة للثورة. فالاتهامات اللاذعة التي كانت تستهدفه والتي لم يكن يتوقعهما جعلته يصمم على ذلك، وهنا بدأ يتراءى في الأفق ما سمي ب "قوة العقداء" وأصبح للعقداء الرئيسيين الأربعة قاعدة مصالح مشتركة. لم تعد لجنة التنسيق والتنفيذ المنبثقة عن مؤتمر الصومام مكان اتخاذ القرار بل أصبح عبارة عن واجهة جهاز قائم فقط ، مفتوح من الداخل حيث ذكرت مشاركة ابن طوبال لخضر في هذه الاجتماعات وكان مسؤول الولاية الثانية في ذلك الوقت.

كانت محاصرة ومراقبة جيدا من الخارج. وكانت الاجتماعات التي تعقدها هذه اللجنة بتونس في منزل قايد مولود ممثل الاتحاد العام للعمال الجزائريين ومضيف عبان خلال إقامته في العاصمة التونسية لمدة ثمانية أشهر تقريبا، تصطدم بالتوتر المتنامي بين عضويها القبائليين. لا يمكن للحل السلمي أو العنيف أن يأتي سوى من الخارج. كانت هذه هي القناعة المشتركة وتقريبا الوحيدة لكل منهما. ومن هنا جاء قرار عقد اجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائرية طالما كل واحد منهما يبحث عن تكريس مواقفه لأنها لا تلتقيان ولا يمكن تسويتها إلا بإقصاء واحد منهما.

وما جعل اتفاق الرجلين يستحيل هو أن اختلافهما لا يمت بصلة لأية قضية أساسية. من الصعب إيجاد قضية واحدة لذلك الخلاف. ما هو الخلاف حول مشكل ما لا يمكن حله بواسطة تقارب الآراء والتوافق بينهما؟ نحن هنا أمام اصطدام طابعين يغلب عليهما حماس التسلط. وإذا كان النزاع قد تمحور حول توسيع لجنة التنسيق والتنفيذ أم

لا فهذا لإخفاء المواقف الصلبة لكل منهما. لم يعد أحدا منهما يتحمل الآخر في هذا المستوى من المسؤوليات حيث يجب أن يبقى رئيسا واحدا : كريم أو عبان. وكان كل واحد منهما يرى نفسه مؤهلا لذلك مستندا إلى معايير متناقضة ومختلفة تماما.

الأول يستند إلى تاريخ نضاله. فهو من ضمن القادة التاريخيين الستة الذين فجروا ثورة التحرير الوطني ويرى انه يستحق أكثر من أي كان تولي قمة السلم إضافة إلى ذلك فهو يرى -باعتراف كل القادة الآخرين بما فيهم عبان- أن كفاحه على رأس منطقة القبائل مكن الثورة من الاستمرار والتعزيز. فبأية حجة يراد منازعته على هذه القيمة المزدوجة المثالية؟ أما الثاني أي عبان فهو يرى نفسه على مستوى آخر. فدون المطالبة صراحة بالمكانة ودور الزعامة- وهذا ما يعترف به مختلف الشهود- فهو لا يعترض على شجاعة كريم ولا على مسيرته التاريخية. لكنه يعتبر -وهذا أكثر قسوة- أن كريم لا يملك الصفات التي تسمح له بالطموح وتولى منصب مسؤول سام للثورة . بينما هو - دون التصريح بذلك- لأن الكثير كان يقاسمه الفكرة آنذاك، وصل القمة بفضل صفات التنظيم والإستراتيجية وبعد النظر التي كان يتمتع بها والتي كانت منعدمة لدى الآخرين. زيادة على أنه يدرك قدرته على الشجاعة البدنية ويظهر ذلك.

انفجر الخلاف بين الرجلين وظهر للعيان وهو خلاف طالما ظل على مستوى ضيق وحتى مغلق مثلما حدث في الجزائر العاصمة ضمن لجنة التنسيق والتنفيذ. ولم يكن توسع مجاله في تونس والقاهرة وهما عاصمتان ملائمتان للدسائس، ليحل المشكل. وتقدمت أطراف فاعلة كانت شبه مختفية إلى الساحة لتقوم بدورها، أولا بتصعيد الفتنة بين الفاعلين الرئيسيين. وبلغ حماسهما حدا جعل كل منهما لا يستمع لنصائح الحذر،

وبالرغم من أنها عبارة غير متداولة، تستعمل هذه الشتيمة بصفة عشوائية. لم يتمكن عبان من التخلص من بعض العبارات المتداولة حتى وإن أخذت على لسانه صبغة المزاح أكثر من الرغبة في التجريح. لكن الذي وجهت له هذه العبارة أصبح لا يحتمل هذا التصرف. وكانت النتيجة أن لا أحد منهما عقد هذه الندوة الصحفية. الكراهية بين الرجلين أخذت تنمو وأصبح الراغبون في الحكم وهم كثيرون يشعلون نار الفتنة بينهما.

وقبيل عقد اجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائرية قدم الأمين دباغين أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ الأربع المتبقيين إلى الرئيس عبد الناصر. وجرت المحادثات في ظروف حسنة. تمكن عبان للمرة الأولى من تقييم القادة المصريين (11) وقال عن ناصر :"إنه رجل عظيم" لكن كان يبدو له علي صبري "أكثر ذكاء" وهو أحد رفقاء الرئيس وأحد الضباط الأحرار الذين قضوا، مثله، على عهد فاروق في 1952 .

ونلاحظ مرة أخرى تأثر عبان بعنصر "الذكاء" فهو المعيار الذي يحكم من خلاله على الناس والصفة التي يحبذها أكثر من غيرها. ودائما بخصوص استقبالهم من طرف الزعيم المصري يقول عبان:" إذا حافظت الثورة الجزائرية على وحدتها ستقود كل هؤلاء كما تشاء". هل يجب اعتبار أن عبان يشكو من جنون العظمة إذ يوهم بأن هذه القيادة المصرية التي ترى الشعوب العربية قائدها مثل الإله بفعل تأثيره عليها ونفوذه الكبير، ليست بالعظمة والإعجاب الذي نتصوره ونؤمن به بفعل ربما دعاية غامرة؟.

وقد زاد هذا اللقاء من شكوكه حول جدوى التدخل في قيادة الثورة الجزائرية. فرغم سجن بن بلة بقيت الثورة موضوع محاولات توجيهية من طرف مصر عبر مصالح مخابراتها التي يقال أنها ربطت علاقات مع بوصوف. وأدرك عبان مخاطر هذه العلاقات الثلاثية التي تهدف كلها

إلى فرض قيادة ومحتوى سياسي على الثورة الجزائرية اختيرا من بين آخرين. ولم يكف عن محاربة تدخلات مصر لكن أيضا فيما بعد تدخلات تونس والمغرب.

كان هذا يعزز قناعته بضرورة وجود قيادة ملتحمة ومنسقة وصارمة للثورة الجزائرية. وقد حضر الحجج والبراهين لاجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائرية . وكان ضعفه الوحيد هو الاعتقاد دائما أن القضية قضية حجج و براهين. فحين كان هو يريد التفكير والإقناع كان الآخرون قد فصلوا في الأمر وقرروا الانتصار. يكفي الإطلاع على قائمة المشاركين في اجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائرية لفهم أن الأمر لن يكون سهلا بالنسبة له لتكرير نتائج مؤتمر الصومام . يبدو أن اجتماع القاهرة عبارة عن مؤتمر صومام معكوس. لنحكم من خلال نتائجه مكتفين الآن بمحتوى محضر الاجتماع (12).

أولا على صعيد المشاركة. كان عدد الحضور 22 من أصل 34 عضواً في المجلس الوطني للثورة الجزائرية. صحيح أن الكثير منهم استشهدوا في المعركة أو سجنوا في فرنسا. ويمكن بالتالي اعتبار المشاركة في اجتماع القاهرة قياسيا.

هاهي قائمة المشاركين: عبان، عباس، عمارة، ابن عودة، ابن خدة، ابن يحيى، بومدين، بوصوف، دحلب، دهيلس، ابن طوبال، فرانسيس، كريم، لعموري، مزهودي، أوعمران، تعالبي، توفيق المدني، يزيد، لامين، مهري وشريف محمود. لقد فاق العدد أعضاء مؤتمر الصومام الست . لكن ما يجب ملاحظته هو الحضور القوي لكل الذين يتربعون على السلطة العسكرية ولم يتغيب أحد من الذين يعتبرون من خصوم عبان بل كانوا يشكلون هيكل هذا اللقاء. وهذا ليس ككتلة منسجمة لكن بكل بساطة بسبب قوة كل واحد منهم. في الحقيقة السلطة الحقيقية تتمثل

في كل واحد منهم وإذا التقت مصالحهم الآنية يمثلون السلطة كلها. فمن الواضح إذن أن من حيث المشاركة أصبح عبان عاجزا حيث أن تشكيلة المجلس الوطني للثورة الجزائرية كما هو عليه في القاهرة ليس في صالح عبان لأنه لن يستطيع قلب الوضع ولا حتى التأثير عليه بشكل كبير.

وإذا كان بالرغم من كل شيء سجل عند افتتاح الأشغال ما قد يعتبره أي ملاحظا غير خبير، نجاحا، حيث تم تبني بالإجماع حصيلة نشاطات لجنة التنسيق والتنفيذ، فلا يجب أن يغلطنا هذا. لم يأت أغلب المشاركين من بعيد لدراسة حصيلة كان يمكن لأي مجلس إدارة إعدادها ولا لمناقشة برنامج لكن للتأكد من سلطة الثورة. المهم هو الرجال لا البرنامج، وهي مأساة الثورة الكبرى وحتى جزائر المستقبل.

وبخصوص قرارات المجلس الوطني للثورة الجزائرية فإنها توضح كل الوضوح التحول العميق والمدهش للوضع مقارنة بالنتائج المتخذة منذ لا يقل عن سنة في مؤتمر الصومام. فإذا دخل هذا الأخير في التاريخ كانتصار عبان الذي كانت أفكاره تعتبر جيدة وتم تبنيها كلها يمكن القول بأن اجتماع القاهرة كان لصالح بن بلة عبر أشخاص آخرين. فبالرغم من غيابه مرة أخرى في اجتماع تاريخي إلا أن ظله بقي يحوم على جلسات اجتماع العاصمة المصرية.

لم يكن اعتقاله في سجن "لاصانتي" يعتبر سببا كافيا أو عائقا لا يمكن تجاوزه لدخوله في لجنة التنسيق والتنفيذ الجديدة. أين المشكل. التصور لا ينقص لهزم المسافات وحتى تحطيم جدران السجن حيث قرر المجلس الوطني للثورة الجزائرية "تعيين آيت أحمد وابن بلة وبيطاط وبوضياف وخيضر أعضاء شرفيين في لجنة التنسيق والتنفيذ." وقضي الأمر. يعود بن بلة من الباب الواسع، باب القاهرة. نعلم أنه بقي فيما بعد على إطلاع

باستمرار على تطور الثورة وأنه تدخل من زنزانته مرارا للتأثير عليهما وعلى قيادتها حتى اليوم الذي أصبح فيه يتحكم في زمام أمورها.

واصل المجلس الوطني للثورة الجزائرية من القاهرة تكسرار مؤتمر الصومام بشكل عكسي. فلم يعد " الجانب السياسي يتغلب علـى الجانب العسكري" ولم يعد كذلك "فرق بين الداخل والخارج".

وكأن الأمور ليست واضحة بما فيه الكفاية لتعيين المستحوذين الجدد على السلطة فقد أقر المشاركون، بصورة لا تدع مجالا للشك، حق اعتراض بن بلة الذي أعتبر، كما نتذكره، بلهجة التوبيخ والاحتجاج أن قرارات الصومام "طاعنة في النقاط العقائدية الأساسية مثل الطابع الإسلامي لمؤسساتنا السياسية المستقبلية مثلا". (13)

ولم يكن بوسع سجين "لاصانتي" إلا أن يشعر بالارتياح والطمأنينة عندما علم أن "الجمهورية الجزائرية الديمقراطية والاجتماعية" التي هي "هدف الثورة الجزائرية" لن تتعارض مع المبادئ الأساسية للإسلام". (14)

وأخيرا فقد غيرت تشكيلة لجنة التنسيق والتنفيذ كليـة. فزيادة عن السجناء الخمسة المشهورين خاصة أشهرهم أصبحت لجنة التنسيق والتنفيذ المنبثقة عن اجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائرية في نهاية أوت 1957 تتشكل من : عبان، عباس، ابن طوبال، بوصوف ، كـريم، لامين، (دباغين) محمود (شريف)، مهري وأوعمران.

وبذلك تصبح الهيئة التنفيذية لجبهة التحرير الوطني تتشكل من تسعة أعضاء عوض خمسة، يقال أنهم انتخبوا بالإجماع. لكن كم كانت الحقيقة مختلفة عندما كتب في محضر هذا الاجتماع. وكم يكون الأمر مفيدا وبناء لو تمعنا في الجو الثقيل الذي ساد اجتماع القاهرة. يجب أولا الإشارة إلى أنه خلافا لما ذكر في المحضر يمكن القول بأن المجلس الوطني للثورة الجزائرية لم يجتمع من 20 إلى 28 أوت 1957 كما تم توضيحه.

إلا إذا كان محررو الوثيقة يعنون اجتماع المشاورات واللقاءات المنفردة والاتصالات السرية والضيقة التي جرت في العاصمة المصرية حسب وصول أعضاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية.

وحسب شاهد كان عضو في هذه الجمعية وحاضرا في القاهرة لم يجتمع المجلس الوطني للثورة الجزائرية في جلسة علنية إلا لمدة ثلاث ساعات تقريبا في وقت متأخر من ليلة 28 أوت 1957 بغاية المصادقة فقط على ما تقرر خلال المحادثات بين الفاعلين الرئيسيين في ذلك الوقت والمتمثلين على وجه الخصوص، حسب الشاهد نفسه، في كريم وبوصوف. فالاهتمام والعناية التي كانا يحاطان بها كانت كافية لبيان قوتهما والدور الذي كانا ينويان القيام به والذي لعباه فعلا وسيلعبانه أكثر فأكثر فيما بعد.

دائما في القاهرة تم كل شيء بين الرجلين في 18 أوت 1957، كما قاله لنا شاهد آخر. يعتقد أن كريم قال خلال مأدبة غداء أقيمت في ذلك اليوم لبوصوف الذي كان يود أن "يلتحق مساجين لاصانتي الأربع بلجنة التنسيق والتنفيذ"، "إني موافق" على توسيع هذا لهيئة التنفيذية لجبهة التحرير الوطني. نعلم وقلنا ذلك فيما سبق أن عبان كان يرفض رفضا باتا رفع عدد أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ. كان من الواضح بالنسبة له وللجميع أن التوسع سيكون على حساب اللجنة زيادة على أنه سيفقد قيادة الثورة الانسجام الذي أصبح ضروريا أكثر من أي وقت. وأثبتت الأحداث ذلك فعلا. كيف يمكن تفسير هزيمة من كان ، منذ أشهر قليلة فقط، مسؤول جبهة التحرير الوطني بلا منازع بل الذي كان يثير الخوف والإعجاب؟ لا داعي للعودة لإضراب الثمانية أيام الذي ، حمله الجميع ، بما فيهم كريم الذي كان موافقا على شنه، مسؤولية فشله. إننا

نعلم أن الآراء منقسمة لكن الكل يعرف أن هذا ليس على الإطلاق سبب ضعف عبان.

الكل متفق على أن ضرب سلطته، كان من وحي كريم وبوصوف على الخصوص اللذان عزما على تأكيد وجودهما انطلاقا من مصالح متناقضة لم تكن ظاهرة في ذلك الوقت.

من الممكن بل من الوارد أنهما كانا يتألمان من تجريح عبان لكرامتهما أو تحديه لهما باستمرار. إنها مسألة مطروحة للنقاش وستبقى كذلك ما دام لا أحد يستطيع كشف سر الضمائر، كل الضمائر الموجودة. لكن لا يمكن أبدا ترك رغبة وإرادة وطموح بل تعطش كل منهما جانبا وكل من كان مستترا على الأقل وراء أحد هما في الوصول إلى الحكم وقيادة الثورة حتى و لو اقتضى الأمر محو كل من يعترض أهدافهم. عبان هو فقط الذي كان في هذا الوضع. عبان وحده في وضع مأساوي. انطلاقا من هذا الواقع، تغيرت السلطة.

كل من سألناهم حول ما جرى في القاهرة في آخر أيام أوت 1957 يتفقون على أن عزل عبان كان مؤثرا ومأساويا في آن واحد. مؤثر لأن المعني بالأمر لم يفقد نزعته القتالية مثله مثل وحش الغابة المطارد. يشبه أحد الشهود عبان بلويس الرابع عشر "الملك الشمس" الذي يسطع نوره وتشتعل ناره إلى حد لا أحد يستطيع الاقتراب منه. بقي نفس الأشخاص معه –ابن خدة ودحلب ودهيلس– وكان يتردد بينهم. حتى وهو معزول كان بارعا. ربما هذا الرونق هو الذي كان يهيج الشعور الغامر لدى كل الذين كانوا يريدون تحطيمه أو هزمه بل كسره والقضاء على هذه المنزلة الرفيعة التي احتلها ومنعه إلى الأبد من النهوض ثانية. كان هو بنفسه يعلم أنه أصيب. لكن كيف كان يمكنه الرد وقد هجره الكثير ممن كان السبب في حضورهم جلسات القاهرة؟ علمنا أنه فكر

في رفض العضوية في لجنة التنسيق والتنفيذ لأنه شعر بأنه مستهدف من خلال إقصاء ابن خدة ودحلب . لكن أعضاء آخرون في الهيئة التنفيذية جعلوه يعدل عن هذا القرار لأنهم كانوا يخشون مواجهة لوحدهم سلطة العسكريين المتنامية وحدهم. حتى هؤلاء العسكريون فضلوا في الأخير إبقاء عبان تحت سيطرتهم لأنه يمكنه أن يكون أخطر خارج لجنة التنسيق والتنفيذ منه في داخلها. الصبر مصدر كل يقين.

كتب وقيل أيضا أن خطابه اللاذع ضد "الإقطاعيين" و"طغاة الشرق" و"هواة الاستبداد" استغل بذكاء على أنه "ثورة " ضد كل من هو عقيد أو عسكري. لا شيء يؤكد ذلك. ما كان عبان يندد به هو توجه الكثير من المسؤولين المحليين إلى الاستبداد والتسلط. فقد ثار ضد الفوضى والغيرة والمبالغة التي لاحظها في صفوف الثورة دون أن يحصر ذلك على العسكريين فقط. كما أبدى أحكاما قاسية ضد الكثير من المدنيين بدءً بالذي يمثلهم أكثر وهو ابن بلة شخصيا.

وفي الواقع كان الوضع آنذاك مناسبا لتفكك السلطة. فغياب سلطة وطنية في الوقت الذي اندلع فيه الكفاح هو السبب الأصلي الذي ما انفك يغذي الاتجاه إلى "النزعة الولائية" أي القيادة المحلية. وتدريجيا أصبح كل مسؤول يشعر ويتصرف وكأنه قائد الثورة كلها. كان كل واحد منهم يرى أنه أمين على شرعية الكفاح، كل الشرعية. عندما يكون المرض بهذا العمق لا تكفي قوة رجل واحد لتتغلب عليه. لم يستطع عبان مقاومة سلطة بل السلطات التي كانت تظهر في كل ولاية. كانت كل الولايات غيورة على سلطتها وعازمة على ممارستها بدون منازع وأكثر من ذلك دون أي لوم مهما كان مصدره. كانت هذه هي مجريات الأحداث الجديدة. ودفع عبان الثمن غاليا كونه شعر بها وكان أول من ندد بها. لم يدفع حياته ثمناً بعد. فهو إلى هنا يلاحظ بفزع ما جرى في القاهرة. لم يتردد

"بودا" في وصف ما حدث ب"الانقلاب". ولمعرفة المزيد سأل بوصوف الذي كان لا يزال في العاصمة المصرية. أبدى هذا الأخير شبه دهشة ممزوجة بشيء من المداهنة أمام فضول رفيقه فسأل بدوره من كان في ذلك الحين مساعده والذي سرعان ما أصبح قائد الولاية الخامسة قبل أن يصبح قائد جيش الحدود برمته.

أجاب بومدين على فضول بودا بعبارة ملتوية بقوله: "عبان يريد أن يلعب بنا" (15)... la cause est entendue . صيغة الجمع هذه "بنا" الغالية على قائد أركان جيش التحرير الوطني تخص ربما كل رؤساء الولايات في ذلك الوقت. لكنه كان بالتأكيد يتكلم عن نفسه وعن بوصوف. كان يعلم يقينا أن الفضل في ما كان يعتبر سقوط عبان، يعود بصفة كبيرة لرئيس منطقة المغرب القوي حتى ولو نسبت هزيمة عبان إلى كريم بلقاسم. لم يدرك هذا الأخير تماما الفخ الذي نصب له و لم يكن الذين يحيطون به معروفين بالتفطن والتبصر. وقال لنا احدهم أن خطأ كريم الذي يعتبر القائد الحقيقي للجيش هو أنه "كان محاطا بأشخاص لا يفكرون".

لا يمكن قيادة جيش لم يكمل بعد انسجامه ولا تكوينه ولا عقيدته بل كانت تحكمه قوات متنافرة تعتمد على قائد وعقيد لا يتمتعان بالوزن المطلوب. زيادة على هذا و مهما كان الدهاء المنسوب لكريم فإنه لا يستطيع وحده " إحباط" المكائد التي نصبت له من طرف ائتلاف استراتيجيين. ويتردد دائما وفي المقام الأول اسم بن بلة الذي يريد ويبحث عن شيء واحد وهو أن يكون الزعيم الوحيد للثورة بعزل كل شخص يريد اعتراض تحقيق هدفه. كان قادرا على التحالف مع أي كان ما دام هذا التحالف يقوده تحقيق هدفه الوحيد وهو السلطة وليس بإمكان مسؤول الولاية الثالثة السابق منعه من ذلك. فقد زعزع من كانوا أكثر قوة منه

وخصمه لن يستطيع الوقوف في وجهه. فالرهان الذي هو الآن وطني بل أكثر من ذلك بسبب تداعياته المغاربية والمصرية يفوق بكثير قدرات كريم. كان بإمكانه إكمال مسعاه بالاعتماد على أسس متينة تكمل وتدعم فيمه لكن عوض ذلك سلم نفسه كلية لمن راهنوا بعد على تصفيته. إنها مسألة وقت وأولوية. الأولوية الراهنة هي عبان الذي اعترض كالصخر طريق من أرادوا الاستيلاء على السلطة بأي ثمن وفعلوا ذلك مستعملين الذكاء والقوة. فوجهوا القوة لكريم والذكاء لعبان. وفهم هذا الأخير ذلك، كما قيل لنا. متى حاول التقرب من مسؤول الولاية الثالثة السابق بالضبط؟ لا يمكننا تحديد ذلك لكن تصريحات أحد الشهود الذي كانت له علاقات مع كل منهما سمحت بتحديد الفترة تقريبا خلال اجتماع القاهرة أو قبله لكن ليس بعده. ونستطيع من هذه التصريحات قياس مدى ألم وحزن عبان. فمن الصعب تصور عبان يقول لكريم "دعني أفعل، سأتكفل بكل الآخرين. دعني أفعل وسأقود الثورة كما يجب".

كانت اللحظة مأساوية تلك التي كان عبان يصطدم فيها باستمرار بكريم. كان قوله بالغا. فبقدر ما يكشف تذمر صاحبه يبين أن هذا الأخير لم يكن يدري كيفية تجاوز العراقيل الكبيرة التي تعترض عزمه الكبير في دحر العدو الاستعماري والقضاء عليه. وهنا نتساءل إذا كان عبان الذي عاش في حالة انغلاق طويلة منذ دخوله السرية إلى "خرجاته" المتتالية من الجزائر العاصمة مرورا بسنوات السجن الخمسة القاسية، قد انتهى به الأمر إلى بلوغ حالة نفسية تجعله يعتبر مكافحة فرنسا كفاحه الخاص. بل يكاد يرى نفسه صامدا وحده أمام النظام الاستعماري.

كانت علاقاته بكريم عبارة عن مزيج من الأبوية وشيء من القرابة الجهوية والتنافس. وهذا ما يفسر موقفه نحوه الذي لم يكن واضحا وبينما كان يعلم أنه قوي. لكن آخرين كانوا أيضا أقوياء حتى ولو كانوا أقل قوة

منه. لم يكن يشعر ب "الحرج" تجاه "الآخرين". الرهان واضح: إما هم وإما هو. كل واحد كشف نفسه. خاصة تجاه بن بلة الذي لم يكن يستلطفه لأنه كان السبب في دخوله سجن البليدة. مع كريم كان الوضع مختلفا. الرجل شجاع. كان يتمتع بتاريخ حافل كجندي سابق في الجبل تحدى القوات الاستعمارية قبل اندلاع الكفاح بكثير. فكان أقدم أغلب المسؤولين التاريخيين الكبار في الجبل. اليوم يستطيع الاعتماد على كل منطقة القبائل التي تكن له احتراما بدأ يعم أرجاء الوطن. الكل يتبعونه ويطيعونه. السكان وكذا مجاهدو الجبل الأشاوس من منطقته القديمة.

لم يكن عبان يملك كل هذه المؤهلات. فهو معروف خاصة لدى الإطارات والقادة وكذا أوساط الطلبة والمثقفين والنقابيين. وهي قوى تحاور العقول وقليلا جدا الأيادي التي تحمل البندقية. يمكن ربما أن نقول عنه أنه "بابا بدون قوات". في نهاية اجتماع القاهرة عاد البابا إلى درجة قس لا يعرف أين ولمن يخاطب. فكر في مغادرة قيادة الثورة. وفكر في الابتعاد عن الساحة لمشاهدة تطور الأشياء. نصحه أصدقاءه القلائل جدا ليتحلى بالروح الرياضية وأن "يترك العاصفة تمر". لم تكن له ميزة المراوغة هذه كان يشعر بأنه مستفز إلى درجة تجعله يريد أن يصرخ وحتى أن ينفجر انتقادا ولوما.

اعتبر إقصاء بن خدة ودحلب رفقاء المعهد القدامى وخاصة رفقاء لجنة التنسيق والتنفيذ الأولى ساسا مباشر بسلطته لأن في الحقيقة هذا هو المقصود وليس "المركزيان" القدامى. صحيح أن التهم التي لحقت بهؤلاء ستلازمهما كظلهما ولا أحد يريد تخليصهما منها. واستعملت مرارا وتكرارا حسب الظروف والطموحات التي كانت تبرز. كان كريم يلومهما خاصة على كونهما "دائما إلى جانب عبان". انطلاقا من هذا الانتقاد أقام من أصبح وزير الخارجية للحكومة المؤقتة للجمهورية

الجزائرية فيما بعد الموازين حيث كان يرى أن (16) البديل كان بسيطا: "الاتفاق مع عبان أو عدم القيام بأي شيء ضمن لجنة التنسيق والتنفيذ. لأن لا كريم ولا ابن مهيدي كانا يتخذان القرارات، بينما كان هو سريع ولا يخشى أخذها. كان رجل القرار لا يتردد وكان له الفضل في تحمل المسؤولية ونستطيع القول أنه كانت له مؤهلات القائد".

صحيح أن عضوي اللجنة المركزية القدامى لم يكونا المستهدفين الحقيقيين من "انقلاب" القاهرة حيث أن نفس المجلس الوطني للثورة الجزائرية يلجأ إليهما ثلاث سنوات من بعد ليطلب منهما قيادة الثورة ولو بالاسم. احتل ابن خدة أعلى منصب في ذلك الوقت كرئيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية خلفا لفرحات عباس ونصب سعد دحلب على رأس وزارة الشؤون الخارجية التي لا تقل أهمية حيث كان صوت الكفاح قبل أن يجد نفسه على طاولة المفاوضات لعقد السلم مع فرنسا ولأخيرا انتزاع استقلال الجزائر.

وكان عبان يدرك أكثر من غيره في القاهرة أن إقصاء رفيقيه السابقين في لجنة التنسيق والتنفيذ يعني إقصاءه هو ونهاية سيطرته على دواليب الثورة. وأخذت الأمور تتأزم بسرعة تذكرنا ب"القطار المجنون" للكاتب "زولا" لتنتهي بالموت : موت عبان. الآلية التي وضعت في القاهرة بدأت تنمو وتقوى لتصبح شبيهة بضربة القدر الرادعة. فهي تلتهم كل من يريد توقيفها. إنها قوة عمياء تتغذى من حشد المشاعر والأحقاد. كل شهود ذلك العهد كانوا مذعورين ولا زالوا يتكلمون عنها إلى حد الآن بنوع من الهلع.

إن تصريح الأستاذ عبد الرزاق شنتوف (17) العجيب يلخص كل ذلك. فقد قال البعض لعبان: " إما أن تتولى الحكم وإما سيقتلونك". بالفعل أصبح الجو جنائزيا خلال الأشهر الأربع التي تفصل بين اجتماع القاهرة وتصفية عبان. ربما كان هذا الأخير لا يزال يحتفظ ببعض المهلم

لكن لم تكن لديه أية صلاحيات وكان الكل متفطن لذلك. وبقي المعني بالأمر يقاوم لكن كان طريقه ملغما. لا يدري ما يفعله وأصبح يكثر من الغضب والتهديد. لقد روى لنا بودا حادثة وثعالبي علال شهادة يعبران جدًّا عن الوضع. عند عودتهما ربما من القاهرة التقى بوصوف وعبان في روما حيث كانا يتجولان في أحد شوارع المدينة رفقة بعض الشهود. كان عبان يريد على ما يبدو ضبط لباسه فطلب من رفيقه أن يحمل عنه حقيبته فقال له هذا الأخير"لست حمّالا". هذه الواقعة تعبر عن تفكير معين أكثر مما تعبر عن نزق ما. كون بوصوف الذي لم يكن بالأمس سوى مسؤول ولاية يرد بهذا الشكل على عبان ذلك يعني بكل بساطة أنه لا يخشى سلطته بل يعتبر نفسه مساويا له حيث أنه أصبح مثله عضو لجنة التنسيق والتنفيذ، من حيث التسمية على الأقل لأن المشكل لا يطرح بتاتا من حيث القوة. الأول يعتمد على مصالح متواجدة في كل مكان وقوية وفعالة إلى أقصى درجة والثاني فقد السر والهيبة التي كانت تشكل قوته.

بعد فقدان مكانته وهيبته، أصبح عبان يدرك أكثر فأكثر حجم هزيمته في المجلس الوطني للثورة الجزائرية بالقاهرة. ردت له كل الضربات التي وجهها من قبل وأكثر مما كان يتصور كما يحدث مرارا للأشخاص الذين يضعفون. أصبح كل شيء ضده ووصل الأمر إلى حد عزله. وقد شهد بهذا ثالبي علال الذي لامه بوصوف بعد عودته من القاهرة على زمالته لعبان رمضان بكل صراحة. وطلب منه الكف عن ذلك مضيفا كأن هذا التحذير لا يكفي :" على كل حال فإن مسؤولك الذي هو كريم سيستدعيك ليقول لك ذلك".

ولم يفرغ من دهشته لهذا التصرف حتى اصطدم بدهشة أكبر عندما أمره كريم شخصيا بعدم ملازمة عبان الذي كان إلى وقت قريب،

المسؤول الذي لا أحد يجرؤ على تحديه. لقد تقرر الآن حقا عزله لا غير وكأنه مصاب بالبرص. أراد ثعالبي علال فهم السبب. فهو لا يستطيع قطع علاقته بدون تفسير مع من كان يبجله إلى حد الآن. أطلع عبان على هذا الأمر بواسطة شخص يدعى سي أحمد (بومنجل؟) الذي كان متعاونا في جريدة "المجاهد" التي أصبحت لسان حال الثورة الوحيد.

ما زاد من تذمر عبان هو معرفة أنه تحت مراقبة مشددة. لم يكتف خصومه بتحطيم سلطته بل راحوا يهددون معارفه أيضا.

وبالرغم من أنه محاطا بمجموعة من الأقلام اللامعة مثل بومنجل وفانون ومالك بالنسبة للنسخة الفرنسية من المجاهد والأخوين شريط (عبد الله وعبد الرحمان) ومحمد الميلي بالنسبة للنسخة العربية من المجاهد أيضا كان يشعر بضيق في مهنة لا تناسبه كثيرا. ففي الوقت الذي أصبح فيه كريم مسؤول الدفاع كله وبوصوف مختصا في قطاع "الاتصالات والمخابرات" القوي، أعيد عبان إلى مقاعد الدراسة نوعا ما. الوضع لا يخلو من السخرية والشدة.

ولأنه كان دائما يفضل صحبة المثقفين فليبقى معهم. وبهذا تم قطع صلته أكثر بمن يحملون السلاح ويصنعون القرار.

وعوض أن يترك العاصفة تمر وأن يحتمي من الإعصار الذي حل به كما نصحه الأصدقاء القلائل الذين بقوا على اتصال معه أطلق عبان العنان لغضبه وهاجم الكل وكل شيء.

وصف لجنة التنسيق والتنفيذ بـ "وقف إطلاق النار" متهما بذلك كل أعضائها خاصة الثلاثي كريم-بوصوف-ابن طوبال، بإرادة التفاوض مع فرنسا دون ضمان من هذه الأخيرة بخصوص استقلال كامل وتام. ولم يسلم منه نظامي تونس والمغرب ولم يخف قلقه من الضغوط الدائمة التي كانا يمارسانها على قيادة جبهة التحرير الوطني. لم يكن يفهم لماذا

كان على جبهة التحرير الوطني التخلي عن شرط الاستقلال وشرط تمثيليتها ممثلاً شرعيا واحداً ووحيداً للشعب الجزائري. ولم يكن يقبل أبدا أن يتم ذلك بضغط من أية حكومة كانت. فإذا كان البعض يكتفي ب"شبه استقلال" فهذا شأنهم. لقد دفعت الجزائر حسب رأيه ثمنا باهظا لن يقبل باستقلال ناقص أو بتراب مبتور.

وانطلاقا من قناعة راسخة لم يكف عبان عن التصريح بأنه " ليست هذه الشروط هي التي تضايق الفرنسيين. طالما هم متأكدين من إمكانية النصر العسكري لن يقبلوا بأي تفاوض.لذا يجب تكثيف الكفاح وإرغامهم على التفاوض. لا يجب أبدا التحدث أو قبول بتنازلات قبل التفاوض. التنازلات تتبع التفاوض ولا تسبقه (18) ". هذه اللغة لا تروق بالطبع لأنظمة الحماية القديمة. ويبدو أن مقاربات البلدان المغاربية الثلاثة تجاه المستعمر المشترك ليست متطابقة. وهذا صحيح إذ أن لا المغاربة ولا التونسيين كانوا يشعرون بأنهم أحرار تماما في تحركاتهم ولا فوق أرضهم التي لم تزل تحت التأثير الكبير والتواجد العسكري القوي جدا للاستعمار القديم فيها.

وقد أكدت مختلف النزاعات التي ستشوب علاقاتهم مع فرنسا صحة تحليل عبان. لكن يمكن مضايقة أكثر الآخرين عندما نكون محقين فيما نقول. ولم تتقبل جارتا الجزائر خطاب قائد الثورة الذي يمنحهم فيه دروسا. كل هذا والجزائر ليست مستقلة بعد. فهم يتصورون بسهولة ما سيحدث عندما تحصل الجزائر على استقلالها، خاصة إذا كان قادتها أشخاص بلهجة فاصلة ومباشرة كلهجة عبان الذي اكتشفوه بنوع من التخوف.

وهذا يبين مدى تصاعد الإجماع ضده. وبما أن مسؤولياته تقلصت ولم تعد تشغل كل وقته فقد أطلق العنان لتفكيره. وصب لومه وانتقاده على كريم أكثر من ذي قبل لا بسبب تصاعد قوته فقط ولا لعلمه بأنه كان

وراء مصيبته لكن بسبب قناعته بأنه يشكل غطاء لقوى تستعمله إلى حين يأتي دوره.

وانتهت المحاولات النادرة والمحتشمة للتصالح معه. النـزاع أصبح الآن في الشارع وبات شرف كل منهما مخدوش إلى حد لا يقبل أي حل توافقي.

فعبان الذي لم يستطيع التحكم في نفسه أمام وضعية آخذة في التدهور ومفتوحة للمزايدات لم يفقد ذرابة اللسان المعروف بها. كان يردد في كل مكان أن "لو عرضت فرنسا على كريم منصب حارس الغابة لرفض حمل السلاح بل هو مستعد للتخلي عنه لو عرضت عليه الآن منصب قائدا (19)". ولم تكن مثل هذه التصريحات لتهدئ النزاع الذي كان يزيد من مرارة كل منهما ويعجب ممن كانوا يشعلون الفتيل ويستغلونه. وبلغ هذا التنافر حد الكراهية حيث كان كل واحد منهما يعمل كل ما في وسعه لتفادي الآخر ليس فقط خلال اللقاءات القليلة حول طبق الكسكسي، وهي مأدبة كانت تنظم بغية تقليص دائرة النزاع. ولم يعد عبان يدعى لحضور اجتماعات لجنة التنسيق والتنفيذ التي كانت تعقد في غيابه دون أن يزعج ذلك أحداً. صحيح أنه كانت ترتسم ضمن هذا الجهاز مؤشرات حكم سيحتكره فيما بعد ثلاثة من أعضائها كلهم مسؤولي ولاية سابقا.

لدغ عبان في الصميم فراح يضاعف التهديدات جراء إقصائه من هذه الاجتماعات. ويبدو أن جرحه كان عميقا وإلا لما ذهب إلى رؤية فرحات عباس ليقول له، كما جاء على لسان هذا الأخير: " أطلب منك أن تحل هذه المسألة وإلا أخذت رشاشاً وقتلت بعضهم (20) "! وهنا لا يجب أخذ ما يقوله عبان حرفيا لأنه وعكس ما قيل، فقد أكد لنا صديقه العقيد دهيلس أنه "لم يكن يستطيع قتل ذبابة". يمكنه أن يكون عنيفا لكن ليس إلى حد القتل. ونعتقد أن عقيد الولاية الرابعة (سابقا) محق فيما قال

حتى وإن كان ذلك يتعارض مع عدد من المؤشرات التي تؤكد أن عبان لم يكن يتحرك دون سلاحه. وأكدت لنا زوجته بنفسها وهي خير من يعرفه، أنها لم تر أبدا سلاحا في يده.

كان سلاحه النقد الذي كان يستعمله كالطوفان ويستخدمه في كل مكان. وكانت انتقاداته لاذعة وجارحة.

وكان يعتقد أكثر من أي واحد، أن بعض العسكريين كانوا يشكلون خطرا دائما على الثورة بل حتى على جزائر الغد التي كان يراها ويتمناها من كل أعماقه مهدا للحرية و الديمقراطية. نعلم انه لم يكن هو نفسه الرجل الذي يحترم آراء الآخرين. وغالبا ما يقبلها لأنها تناسب آراءه. إن تصرفاته توحي بحب الذات والتسلط . وإن لم يكن يحب الديكتاتوريين إلا أنه كان يعطي صورة الإنطباع من أنه من ذلك النوع ، كما قال لنا احد رفاقه.

لقد بات من الواضح بالنسبة إليه في الوقت الراهن أن خصومه هم الذين يتصرفون كذلك، وصرح بذلك بكل وضوح. فقد قال عبان، حسب أول رئيس للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية:

"أنا لا أتفق مع مستقبل كهذا. الجزائر ليست الشرق حيث يسود المستبدون ويتسلطون على الحكم بدون منازع. سننقذ حرياتنا رغم كل الصعاب. وبالتضحية بالنفس إذا اقتضى الأمر.(21)".

إن ذهاب بطلنا إلى تصور مثل هذا الحل الأقصى، يعني ألا شيء على ما يرام بينه وبين من كانوا في ذلك الوقت ينفردون بالسلطة الحقيقة للثورة. لقد باتت لجنة التنسيق والتنفيذ التي تشكلت في القاهرة خلال انعقاد الاجتماع الأول للمجلس الوطني للثورة الجزائرية واجهة للسلطة لا غير. حيث أصبحت السلطة الحقيقية بأيدي الثلاثي الذي رغم تناقضاته الداخلية الخطيرة، سيبقى مركز السلطة الوحيد إلى غاية الاستقلال.

فلا التوترات الداخلية ولا الضغوط الخارجية التي ستحاول النيل منه أو تقليص قبضته استطاعت ذلك. فالسلطة التي يتطلع إليها كل واحد منهم أكبر من انقساماتهم أو طموح الآخرين.

وأمام الأزمة التي كانت تنخر قيادة الثورة تعالت أصوات تدعو إلى التهدئة والمصالحة دون أن تؤمن بحدوث معجزة.

قال لنا فرحات عباس انه كان من بين هؤلاء عندما ذهب يطلب النصيحة من الشيخ بشير الإبراهيمي حول القطيعة بين عبان وكريم ونزاعهما. إن ما قاله مسؤول جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يحمل معاني كبيرة :

"عندما يتنازع شخصين من القبائل، يحدث أن يموت احدهما و هذا ما يجب تفاديه (22)".

تنبؤ مشئوم أم تبصر نابع من الحكمة الشعبية؟. نلاحظ أن هذا القول الذي أدلى به الشيخ الإبراهيمي بنوع من المعاناة والتحسر سيحدث مع الأسف في مأساة القتل.

من ميثاق الدم إلى قتل الأخ لأخيه

لم يتوقف عبان حيا كان أم ميتا، عن مطاردة الفكر والضمائر. لقد سيطر بدوره ومكانته وهو حي على الثورة الجزائرية بشكل كبير. وبقيت روحه وهو ميت تعترض طريق التاريخ وتنادي الضمائر. إنه يستحيل تجاهله. فلا يمكن تجاوزه ولا تفاديه. وعلى كل فإن هذه الوفاة التي خيم حولها صمت رهيب لم تعد سرا. لقد استطاع الرأي العام الجزائري بفضل بعض الأقلام الشجاعة معرفة هذه الوفاة التي أخفيت عنه وأريد طمسها من التاريخ الوطني. وتلتقي اليوم كل الكتابات حول هذه الوفاة بشكل لا يدعو للشك. لم يكذب اليوم أي مصدر مكتوب أطروحة الاغتيال (1). إذن فماذا عسانا نضيف؟ هذه الوفاة بشعة إلى درجة أن كل محاولة لتبريرها لأغراض غير غرض المعرفة الضرورية والحقيقية لتاريخنا تكون في حد ذاتها بشعة. وإذا كان لا يمكن الرجوع دائما إلى الأجانب لمعرفة تاريخنا فلا يجب أن ننسى، مثل ما أكده الكاتب الروماني "شيشيرون منذ 2000 عام أن "القاعدة الأولى التي تفرض نفسها في التاريخ هي عدم التجرؤ على القول الخطأ والثانية الجرأة على قول كل ما هو حقيقي".

في هذا الوقت الذي نكتب فيه، لا نملك سوى شهادتين مباشرتين فمن شاهدوا عبان رمضان حيًّا عند توجهه إلى تونس في 25 ديسمبر 1957 ووصوله إلى تيطوان بالمغرب مساء يوم 27 ديسمبر1957. وكإثبات مكتوب لا نملك سوى رسالتين نشرتا في كتاب محمد حربي القيم: وهو "أرشيف الثورة الجزائرية". الرسالة الأولى من ابن بلة الرئيس الأول للجمهورية الجزائرية والثانية من كريم بلقاسم. كما استفدنا من شهادات أخرى قدمت رغم أننا نعلم أنها مستقاة من مصادر أخرى.

ومهما كانت عناصر الملف الذي ينبغي تشكيله، هناك جزئية فقط سمحت مع ذلك بتكوين أكثر من رأي.

إنها تشكل قرينة قوية إن لم نقل دليلاً دامغا حول ما حدث حقيقة، كما أنها تساهم على الأقل وبصورة كبيرة في توضيح الحلقة الأكثر ألما وأسى للثورة الجزائرية. هل هذه العناصر كافية لينجز المؤرخ عمله؟ وإذا أردنا معرفة كيف تم التوصل إلى مثل هذه المأساة بل كيف حدثت النهاية المأسوية للبطل هل يمكن استخراج التهم التي أدت إلى الحكم النهائي منها؟ وما كان بالضبط هذا الحكم؟ باسم ماذا ومن أصدره؟ هل كان قائما على قواعد معترف بها وضرورات أخلاقية أم على مقتضيات الساعة؟ وما هي؟ كل هذه الأسئلة التي من الضروري الإجابة عنها إذا أردنا يوما رفع العائق الذي يثقل ماضي الجزائر القريب بشكل كبير ويسمم تاريخها. إننا نرى من الممكن توضيح مسألة أصبحت غامضة لأننا نخشى نحن الجزائريين في أغلب الأحيان مواجهة تاريخنا، بينما يلزمنا كل شيء بعدم بتره من أية حلقة مهما كانت سوداء أو غربلته لنمنح أنفسنا راحة البال التي بالطبع لا تدوم. لم يعد ممكنا إخفاء الحقيقة لأن كل شيء سيعرف في النهاية.

وعن المسألة التي تخصنا لا يمكن الاستمرار في تخليد روح الفقيد دون ذكر الظروف التي أدت إلى وفاته. وعندما اخرج عبان من طي النسيان الذي لازمه طويلا لم يحظ بالمعاملة التي تخصص لأبطال حرب الجزائر الآخرين. إن صورته ترفع في الاحتفالات الوطنية الكبرى، لكنه لا يحظى بأي تكريم في ذكرى وفاته. وهذا عكس ما يجري بالنسبة للآخرين. وهذا يدل على أن الحرج من ذكر اسمه لا يزال قائما. كم هو ضروري تشكيل لجنة تحكيم تتكون من أعضاء شرفيين للتحقيق في المحاكمة التي جرت بشأنه. لا بهدف رد الاعتبار له لأننا سنبحث بدون جدوى

عن الجنحة أو الجريمة التي من شانها إثبات موته ولا للتحامل على من حاكموه لكن لمنحه المكانة التي يستحقها بدون عقدة.

هذا المسعى ليس غريبا عن ممارستنا السياسية الغنية بشتى أنواع التواطؤ وعلى كل حال فهي أفضل بكثير من محاولة فردية لا تزال تصطدم بصعوبات سيكولوجية ومادية عديدة. كما أنها ستفسح مجالا أوسع مجرداً من الشكوك حول أشغال المختصصين العلمية التي لا تعوض. أما بالنسبة لنا فإننا نريد على غرار ذلك المحامي الباريسي الشهير الذي حاول بعد 19قرنا من بعد فتح محاكمة المسيح التي أدت إلى صلبه ، استعراض المسار الجهنمي الذي أدى إلى قتل عبان رمضان، أي قتل الإخوة لأخيهم.

لنبدأ بالمحكمة التي نصبت حيث يقال أنه كانت ثمة محاكمة.

كيف يمكن تجاهل البند الوحيد المكتوب والمعروف الذي منحته الثورة الجزائرية لنفسها؟ إننا نعلم أن مؤتمر الصومام وانطلاقا من روعه جراء حجم الأعمال البشعة التي كانت ترتكب هنا وهناك من طرف بعض مسؤولي الكفاح، أعد وقرر ما يلي:

"المحاكم: لن يحق من الآن فصادا لأي ضابط مهما كانت رتبته إصدار حكم بالإعدام. المحاكم على مستوى النواحي والمناطق ستكلف بمحاكمة المدنيين والعسكريين. يمنع الذبح منعا باتا في المستقبل. المحكوم عليهم بالموت سيعدمون رميا بالرصاص. يحق للمتهم اختيار الدفاع. التنكيل ممنوع منعا باتا مهما كانت الأسباب المقدمة (2)".

هذا النص هام جدا لأنه بمثابة قانون يعتبر عدم احترامه بحذافيره سلطة قائمة بذاتها وبالتالي غير شرعية. وكل قرار يخترق القواعد القائمة لن يكون له أي أساس من الصحة بل يؤدي إلى إدانة أصحابه. فتبعا لهذه الفقرة التي ذكرناها آنفا والتي تقيم وحدها القانون في الحالة

التي تهمنا كان يجب أن تتشكل المحكمة التي من المفروض أن تحاكم عبان بصورة طبيعية. لكن كيف ومن كان سيشكلها؟ إما المجلس الوطني للثورة الجزائرية وهو الهيئة العليا للثورة وإما لجنة التنسيق والتنفيذ المنبثة عنه على الأقل. لكننا نعلم أن المجلس الوطني للثورة الجزائرية لم يتدخل أبدا في القضية. بقيت الهيئة التنفيذية لجبهة التحرير الوطني. التي كانت في ذلك الوقت مشكلة من تسعة أعضاء بما فيهم عبان الذي تمت محاكمته ولا يكون قد تم ذلك إلا من طرف رفاقه الثمانية. لكن كريم يقول في رسالته أن "العقداء الخمسة للجنة التنسيق والتنفيذ (هم الذين) شكلوا محكمة الخلاص العمومي (3)". كم هي غريبة حرية التعامل مع هذه النصوص ؟ وكم هي غريبة أيضا طريقة إبعاد أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ الآخرين الذين كانوا يسمون عادة بالمدنيين (عباس ودباغين ومهري) مقارنة بالعسكريين.

كان هذا أول عيب خطير. لكن هناك عيوبا كثيرة أخرى ارتكبت فيما بعد دائما على مستوى الإجراء الذي يهمنا الآن. الاختراق الثاني يتعلق بغياب المتهم أيضا وبالأخص غياب الدفاع كما يلح عليه نص مؤتمر الصومام. لنترك جانبا مسألة معرفة أو إكتشاف الذين حاكموه. من الواضح جداً أن انعقاد هذه المحاكمة في هذه الظروف يجعل كل قرار يتخذ غير قانوني. لنتطرق الآن لمضمون القضية. ما هي التهم التي يمكن إيجادها في هذه الرسالة؟ تتمثل أساسًا في ثلاثة تهم. الأولى أنه "بادر بإنشاء مجموعة أصدقاء أوفياء وملتزمين لفرض سلطته التي كانت قوية في ذلك الوقت على كل القوى الثورية" (4). بل أن كريم يقول صراحة أن عبان شرع في "عمل تقسيمي". ونعرف ما يجب فهمه من اتهام كهذا. ما هو صحيح أن كل الناس يعترفون اليوم، مثلما كان الحال في الماضي، أن المتهم كان قليل الأصدقاء. يمكننا القول أن دهيلس وابن خدة ودحلب

كانوا من بين أصدقائه بل كل أصدقائه لكن هذا قليل. بل يجب معرفتهم معرفة جيدة لقياس مدى شعورهم الحقيقي. باستثناء دهيلس الذي يؤكد ذلك ويصرح به علانية لا نظن أن المركزيين الآخرين كانا من الذين يمكن وصفهم بالمخلصين. يجب تقدير الأمر بدقة أكبر. فيما يخص عقيد الولاية الرابعة السابق لا يبدو أنه تحمل، بعد هذا المنصب، مسؤوليات هامة في جهاز جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني. فقد انتهت سلطته الحقيقية عندما خلفه العقيد بوقرة المدعو سي أمحمد. فهو ليس كالعديد من الذين بقوا متمسكين بولايتهم السابقة. لم يتمكن من التأثير على مجرى الأمور بعد أن انقطع عن جنوده مهما كانت رغبته في ذلك.

إن مرارة الكلام الذي تحتويه تصريحات كريم سببها التفاهم الذي كان يسود بين عبان وابن خدة ودحلب خاصة خلال الأشهر الست تقريبا التي قضتها لجنة التنسيق والتنفيذ في الجزائر العاصمة. وهنا علمنا من تصريحات المعنيين بالأمر أن ما كان يبدو لقائد الولاية الثالثة نوعاً من " التفاهم" بين أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ الثلاثة لم يكن في الواقع سوى تطابق الآراء بينهم. كان المشكل بسيطا بالنسبة لأحدهم: "كان علينا إما البقاء مع عبان الذي يملك روح القرار أو اختيار عدم القيام بأي شيء". واختار المركزيون العمل مع صاحب الطبع الهجومي على البقاء في حالة جمود وتردد دون القدرة والرغبة في تحمل عواقب القرار".

إذا كان الاتهام يحمل شيئا من الصحة، فإننا لا نفهم كيف أن شخصية قوية كتلك التي كان يتمتع بها ابن مهيدي كان يتفاهم أيضا مع عبان مما تسبب في عزل كريم أكثر. صديق وفي؟ بن مهيدي لم يكن كذلك بكل تأكيد. يمكن أن يكون ثمة فرق واضح في الحساسية بين كريم وأعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ الآخرين ومن الممكن أن يكون قد ترك

لديه جرحا عميقا. نجد أثر ذلك في العديد من مرافعاته أو بوحه ببعض الأسرار كما يبينه كتاب فرحات عباس "تشريح حرب".

اللوم الثاني الموجه لعبان هو "عمله التمييزي". ما معنى ذلك؟ هل كان ضيق الرؤية أم كان يمارس التفريق بل التمييز القائم على الانتماء الجهوي أو الاجتماعي؟ لنترك النقطة الأولى لأنه من الخطأ الكبير وصفه بضيق الرؤية. كيف لا نذكر هنا قول بلعيد عبد السلام الذي يرى أن "ما يعجب في عبان هو المواجهة الفكرية القائمة على الحجج" (15)؟ وبفارق صغير نجد نفس الكلام عند الكثير من الشهود حتى الذين لا يشاطرونه الرأي ولم يكونوا من محبيه". أما ما اعتبر تمييزا فإننا نجد من حسن الحظ نفس الكلمة تستعمل في معنى يعكس تماما ما يقترحه كريم . لماذا لا يذكر الشهود البسطاء؟ ويؤكد كلاش محمد الذي عرف عبان في المغرب أن هذا الأخير "لم تكن له أية نزعة تمييزية وأنه استطاع نيل محبة ناس الأوراس مثل ابن مهيدي وآخرين كثيرين في كل مناطق البلاد" (6). ومن جهته قال بن زيتوني من البليدة الذي أستقبل عبان عند خروجه من الجزائر العاصمة والتقى به فيما بعد في تيطوان، أن عبان (7) "كان يشبه رئيس دولة عندما يتكلم. كان كبيرا، لا يعرف التمييز الجهوي".

يمكن ذكر شهادات أخرى: لا واحدة منها تصب في اتجاه الاتهام الذي وجه إلى عبان.

أما الاتهام الثالث فكان الأخطر، يصعب التحقق منه. هنا يوضح كريم الأمور بدقة أكبر. يقول أن محمود الشريف كشف لأعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ متأسفا أن عبان كان على اتصال سري مع القائد حاج علي وأن هذا الأخير الذي كان منشقا معنويا وافق على تحريك فيالقه العسكرية في اتجاه تونس لـ"تطهير" لجنة التنسيق والتنفيذ وتحقيق ديكتاتورية كاملة لعبان رمضان (8)".

ما قيمة هذا الاتهام الذي إذا اتضحت صحته يكون بالغ الخطورة؟ لنرى أولا من هو هذا القائد وماذا فعل؟. حين وجهت إليه هذه التهمة لم يكن يمارس أية قيادة. ولا يبدو انه كان يضطلع من قبل بمسؤولية كبيرة لا سيما العملية منها. كان مكلفا بالمؤنة في الحدود الشرقية الجزائرية.

لذا، كما قال لنا احد الشهود: يجب دراسة وضعيته في السياق المحلي في تلك الفترة.كان باستطاعته وهو من أبناء الأوراس، أن يطمح إلى مراقبة هذه المنطقة التي كانت في ذلك الوقت رهانا أساسيا ليس فقط بين الإطارات من أبناء المنطقة بل أيضا على مستوى رفيع جدا إذا تذكرنا الجهود التي بذلها محساس لمعارضة.... سلطة لجنة التنسيق والتنفيذ في العاصمة. يبدو، مع أننا لم نتأكد من ذلك، أن محمود الشريف نجح في تسجيل نقطتين حاسمتين: فقد استطاع أن يصبح مسؤولا على كل ولاية الأوراس بما فيها النمامشة، مسقط رأسه، ثم عضو لجنة التنسيق والتنفيذ التي تشكلت في القاهرة في أوت 1957 وكل ذلك بفضل كريم بلقاسم الذي كان ظله، كما يقال. لكن لفترة قصيرة فقط إلى حد انتزاع ترقيته المزدوجة. هل كانت ثمة منافسة بين حاج علي ومحمود الشريف حول مراقبة ولاية بهذه الأهمية؟ لا يمكننا تأكيد ذلك بالبراهين مع أن شاهداً أكد ذلك، وأوضح لنا أن تسوية هذه المنافسة انتهت بمعاقبة الخاسر. وهنا تكونت علاقاته مع عبان. فعندما التقى به هذا الأخير في القاهرة جاء به إلى تونس ظانا أنه تلقى عقابه ولم يعد مهددا ولا يشكل أي خطر.

يبدو أن عودته إلى تونس لم تعجبه وفهمت على أن لها علاقة بمبادرة عبان.

بلغ القلق والانفعالات والشك في تونس حدا جعل "التآمر" بمثابة عدوى سيكولوجية. ويبدو أن إطارات جبهة التحرير الوطني كانوا، ولمجرد أمر بسيط، يصنفون على أنهم ينتمون لمجموعة أو لأخرى. ولم يكن بالتأكيد يعتبر من اللائق مصاحبة عبان الذي تم عزله. ومهما كان فقد أرسل

القائد المسكين إلى المغرب إلى غير رجعة. وكان هذا يشكل لمن يحسن فك رموز العادات التي كانت متبعة في تلك الفترة، أكثر من إنذار بل كان مصير كل واحد ينوي مساءلة قوة السلطة الجديدة العظمى. ربما يجب التدقيق أكثر في الأمور والتساؤل إذا كان حقا باستطاعة قائد لا يتمتع بأية هيبة ولا يمارس أية سلطة على أي فريق مسلح "تطهير" لجنة التنسيق والتنفيذ. فلم يكن بوسع أي شخص تهديد أعضاء هذا الجهاز الذي انطلاقا من معرفته الجيدة بالتقاليد السارية، فإن أخذ الاحتياط من الحكمة وهو أن يدعم نفسه بحراس أشداء ينتقيهم من بين جنود الولايات التي لم تزل موالية له.

هل نحن بحاجة للإضافة أيضا أنه دون اللجوء إلى التآمر، لا يمكن تصور قائد يتحرك وحده. فالتحدث عن مؤامرة يعني تواطيء أفراد آخرين كما حصل فيما بعد عندما ثارت مجموعة من ضباط جيش التحرير الوطني ضد كريم أكثر من ثورتهم على الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، كما أكده لنا شاهد رفيع المستوى. لكن هنا سنبحث بدون جدوى عن شريك للقائد حاج علي بالنسبة "للنوايا" التي نسبت إليه والتي تكون وراء محاكمة عبان.

وكان اتهام عبان، الحقيقي أو المزعوم، بإرادة التحرك نحو تونس لـــ"تطهير" لجنة التنسيق والتنفيذ بالاستعانة بقائد تأكد لنا أنه لم يكن صديقا له ولم تكن له أية قوة، كافيا لجعل "العقداء الخمسة أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ يقيمون محكمة الخلاص العمومي".

وبدأت من هنا التأويلات المتضاربة. تقتضي الضرورة تقديمها كلها ومن باب النزاهة نشير إلى أن الشهود الذين أدلوا لنا بها لا أحد منهم كان حاضرا في هذه المحاكمة. والغريب في الأمر أن كريم لم يدقق في هذه النقطة كثيرا حيث يقول في رسالته فقط:

"هذه المحكمة القائمة بذاتها حكمت على عبان بالسجن. كان من شأن هذا الحكم المعتدل السماح بربح الوقت وإجبار عبان على التفكير في خلاصه (9)".

وأقل ما يمكن قوله أن هذا الحكم لا يتميز بالوضوح ولا بالصفة القانونية. فهو يفتح الباب للكثير من التساؤلات ولكل الشكوك. هناك شيء أكيد هو أن "المحكوم عليه" كما يجب تسميته لم يكن حاضرا ولم تعط له الكلمة ولم يحظ بدفاع والأخطر من ذلك لم يبلغ بالحكم الصادر ضده. قد لا تعتبر عيوب الإجراء هذه هامة لو لم تكن عقوبة السجن هذه في الحقيقية عقوبة إعدام لا غير. الكل يتبادل اليوم التهم: "لست أنا إنه هو والآخرون. أنا كنت اعتقد أن ... وأن الآخرين هم الذين قرروا عمل غير ذلك. لم أكن أنا موافقا على ذلك. لو كنت لأصوت على حكم الإعدام لصوت عليه. فقد أبديت تحفظا." هذا هو الكلام الذي يتردد حول موت عبان رمضان البشع. كل شيء يغمره ضباب متعمد.

هذا لا يمنع من وجود حقائق لا تستطيع "الضمائر الحية" مقاومتها. هذا الشيء الدامغ هو أن لا أحد من "القضاة" رأى من الضرورة إخطار "المحكوم عليه" أو التحذير بقوة من كل ما قد يتعرض لحياته. وهناك أيضا هذا المحضر الذي أكد لنا شاهدان أنهما قرآه ومفاده: هو أن مصير عبان رمضان كان منتهيا. واحد من الشاهدين كان مدير مكتب أحد العقداء الخمسة. ونعتقد أن مكانته كانت تسمح له بأن يكون على اطلاع. لكن من العدل أن نذكر أن هناك شاهداً ثالثاً قال أنه لا يصدق وجود هذا المحضر. فهو يرى أن الأشخاص المعنيون لهم من الدهاء والحيطة ما يجعلهم يمتنعون من إمضاء وثيقة بهذه الخطورة ويمكن أن تورطهم. كما أنه من العدل القول أن شخصين على الأقل أشارا من تلقاء أنفسهما أن "ابن طوبال (أحد العقداء الخمسة) عبّر عن تحفظه وسجله مع انه كان يعلم أن عبان سيعدم". كما أشار نفس الشاهد إلى محاولة عبان- لا نعلم

أن كان هذا قبل أو بعد محاكمته "تعزيز موقفه بمسؤول الولاية الثانية سابقا و أن هذا الأخير لم يقبل".

أصبح عبان وحيدا أكثر من أي وقت مضى. يقول احد العقداء الذي استقبلنا:

"كان الجميع يرغب في اختفائه بعضهم بالفعل، والبعض الآخر بالسكوت" وأخذت الأمور تتسارع وتأخذ منحنى خطيرا. كان عزل المحكوم عليه الإشارة التي كان يترقبها كل من كان يحلم بالوصول إلى الصفوف الأولى فور القضاء على العملاق. ربما كان التأكيد المذعن للعقيد يحمل الكثير من الحقيقة.

فلا أحد ولا شيء كان يستطيع إنقاذ عبان.

من الصحيح جدا أن يكون بعض الفاعلين الذين اشتركوا في تحطيمه قد ابتعدوا عن موضوع التحضير للجريمة، كون الندم القاتل قد انتابهم وبدت تتراءى أمامهم النهاية شبه الأكيدة للمرامي الإجرامية. لكن هل هذا يكفي لتبرئتهم من مسؤولية يحكم عليها التاريخ بكل قسوة؟ الشيء الصعب ليس أن نترقى لكن أن نفعل ذلك دون أن ندنس صورتنا. أين نبل وحكمة وكرم وحلم قادة الثورة الأوائل الذين لم يكونوا يجرؤون على قتل خائن ليعطونه فرصة التوبة؟ لقد أثر فينا أحد رفقاء زيغود يوسف عندما قال لنا أن رئيسه منعه من التعرض لأحد الأشخاص الذين كان معروفا بولائه لفرنسا، وقال له أنه يجب "تحذيره" فقط. وكان لهذا التصرف تأثيرا أكبر من ذلك الذي كان يثيره قتله لأنه أصبح بعد مدة قصيرة مقاتلا في صفوف جيش التحرير الوطني. أن عبان الذي وهب حياته، من الثانوية إلى "آخر دقيقة من عمره" وحشد قوته، وعقله، وحماسه، وأحلامه لمواجهة المحتل لم يحظ بالعناية الواجبة بحكم مركزه

- فهو عضو أعلى سلطة للثورة- ولم يحاط بأي اعتبار أو رحمة أو حتى شفقة في حالة ما إذا كانت أقواله أكثر ضراوة من أعماله.

لقد نسج ضده ائتلاف الصمت. وحتى تكتمل المأساة، جرت الدراما في جو غامض بل مغلق.

السيناريو الذي تم وضعه للقضاء عليه بات معروفا لدى الجميع ولم ينفيه أحد. لقد نصب فخ لعبان. قيل له أن حضوره إلى المغرب ضروري -وهو شيء غريب لمن عزل عن الجميع- لحل مع محمد الخامس- لا غير- نزاع بين قوات المملكة وقوات جيش التحرير الوطني. عبان العظيم- الذي لا يمكنه التخلي عن واجبه- قبل مع انه كان يعلم أنه محاط بعداء بل بكراهية يمكن أن تقضي على حياته في كل لحظة.

كان عبان في ذلك اليوم، 25 ديسمبر 1957 ، قلقا أكثر من العادة. هل كان ذلك راجع لإحساس مسبق بوقوع مأساة ستؤدي بحياته أم كان توتر أعصاب حاد. تردد في تلبية الطلب الذي كان يثير شكوكه هو الذي لم يكن أبدا يعرف الجمود. أين روح القرار التي كان يعرف بها؟ قرر في الأخير التوجه إلى مطار تونس الدولي حيث كان ينتظره كريم بلقاسم ومحمود الشريف. أوصله قايد مولود إلى المطار في سيارته الخاصة، وهي خدمة عادية عندما نعلم أن عبان كان يسكن عنده منذ ثمانية أشهر تقريبا. دار الحديث حول غموض المهمة والأخطار الممكنة. وكان من الواضح أنه لم تكن له فكرة واضحة حول ما كان ينتظره.

كان قايد مولود يشعر بقلقه وبأن شيئا غامضا يثير اضطرابه. كان من غير الممكن التركيز أو أخذ قرار واضح و جذري. كان منساقا وراء الحدث أكثر من التركيز على أفكار منسقة و دقيقة. أقتنع بدون مقاومة بالعودة - هو الذي كان دائما يتمتع بروح الهيمنة. وفور عودته إلى منزل مسؤول الإتحاد العام للعمال الجزائريين انفجر غيظا. كان الضغط شديدا

على أعصابه و كان يردد قائلا:" لا أريد أن يقال عني أني جبان. من يجرأ على المساس بعبان؟ لا أريد أن أحول عن واجبي". نجد هنا مأساة هذا الإنسان. كان يرى نفسه عظيما لكن بعيدا عن جنون العظمة. هل كان يشعر أنه مكلف بواجب لا رجعة فيه أو مهمة لا تمييز فيها؟ هذا ليس مستحيلا.

وبعد أن هدأت أعصابه عاد إلى المطار دون أن يفارقه الإحساس الذي كان يعذبه. رفض أن يرافقه قايد إلى القاعة الشرفية حيث لم يزل في انتظاره عضوا لجنة التنسيق والتنفيذ اللذان سيرافقانه إلى المغرب.

لم يرد أن يراه عضوا لجنة التنسيق والتنفيذ فهمس في أذن قايد بهذه الكلمات التي تحمل أكثر من معنى:" سأخذ مسدسا من بوقادوم (11) في مدريد وإذا لم تتلقى في 27 أو 28 (ديسمبر 1957) برقية أقول لك فيها "إني بخير" أبلغ الدكتور الأمين دباغين".

خطى بعض الخطوات ثم التفت واخرج من جيبه صورة أعطاها لقايد. كانت صورة زوجته وحسان ابنه الذي لم يبلغ السنة من عمره. فهذا الطفل الذي ولد خلال معركة الجزائر لم يستمتع عبان بلعبه وصراخه ولا بمشاهدته وهو يفتح عينيه ما عادا بضعة أسابيع فقط. أخذ يدقق في الصورة مرة أخرى. طويلاً وبنظرة كلها عطف و حنان لم يعهدها احد منه. وبصوت متقطع قال:" سيلحقان عن قريب إلى تونس أرجو أن تستقبلهما وترعاهما".

ذهب عبان إلى الموت بدافع الواجب.

كيف يمكن أن يفارقه هذا التنبؤ بالنهاية الوشيكة، والمسافرون الثلاث لم يستطيعوا حتى التحدث إلى بعضهم البعض؟ كانت نظراتهم تلتقي من حين لآخر لا غير؟ وصلوا تيطوان في 27 ديسمبر 1957. على أكثر تقدير في وقت الغروب لأن أحد إطارات جبهة التحرير الوطني كان يوجد بالصدفة في المطار وقد نال عقابا شديدا على ذلك، لا زال يتذكر الزينة

والأنوار التي كانت تضيء الشوارع بمناسبة حلول رأس السنة الجديدة في ذلك الوقت. لقد رأى عبان رمضان للمرة الأخيرة. البقية معروفة وحزينة جدا لا داعي لذكرها ثانية. خاصة و أننا لا نملك أي عنصراً جديدا إذا فرضنا وجوده. كما أننا نرى من غير اللائق وصف هذا العمل المشين.

عبان الذي مات مخنوقا ظل يسكن الضمائر ويتابع من قاموا بهذه الفعلة أو سمحوا بذلك كالكابوس المزعج. كيف يمكنهم إيجاد راحة الضمير؟ وبغض النظر عن مرتكبي المأساة هل يمكن للضمير الجماعي لشعبنا أن يكف يوما عن التفكير في هذه المأساة الشنيعة؟ هل كان لا بد من بلوغ هذه القسوة لإعطاء تاريخنا البعد المأسوي الموجود في تاريخ الكثير من الأمم؟ وهكذا وعلى غرار الأساطير القديمة فإن موت عبان الذي كان ومازال وسيبقى دوما شنيعا سيشهد مرة أخرى عن عظمته وتواجده الكبير في تاريخنا. هل من الضرورة قول من قتله؟ الأمر دخل نطاق الأسطورة .

كريم يقسم "بالله وأمام الناس" بأن "بوصوف وراء موت عبان" (12) وحسب معلوماتنا ولم يفند بوصوف الذي مات بسكتة قلبية في أحد المخادع الهاتفية بباريس ذلك عشر سنوات بعد موت كريم العجيبة حيث وجد مخنوقا بدوره بحزامه في فندق بفرانكفورت في 1970. ومع ذلك فقد قال، ثلاثة شهور قبل وفاته لأحد رفاقه القدامى الذي أفادنا بذلك أن "الكل كان موافق على تصفية عبان حتى وإن تراجع الكثيرون بعد ذلك" بل ذهب إلى حد القول بأنه تم الاتصال بالولايات من اجل ذلك".

وقال ابن طوبال من جهته لقائد سابق في جيش التحرير الوطني للولاية الرابعة الذي أفادنا بذلك" الأن وقد تمت تصفية عبان، سيظل دمه عائقا أمام طريقنا للحكم الذي سيتولاه آخرون".

توجد شهادات أخرى. خاصة منها اثنتان مكتوبتان تبينان أن أصحابها - بن بلة وفرحات عباس- كانا على علم بما جرى حقيقة. لنبدأ بمن يبدو

لنا أكثر وضوحا. عندما يكون شخص صنع التاريخ أكثر من نصف قرن مثلما هو الحال بالنسبة لأول رئيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ويكون هذا الشخص في آخر حياة غنية وكثيفة بالأحداث فإن الشجاعة والحاجة إلى الكلام تحل محل الحيطة والحذر وحتى المخاوف. والتكلم هو بصفة أو بأخرى فتح المجال للحقيقة. لنستمع إليه:

"في 19 فيفري (1958) جاء كريم لرؤيتي. قال لي :لقد مات عبان. وأتحمل مسؤولية موته. أصرح بذمتي وضمير حي أنه كان خطرا على حركتنا. لست نادما على شيء".

ذهب رئيس الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري (UDMA) إلى أبعد من ذلك. قد لا نحبه و نلومه على التصريح علانية بأشياء كان الكثير يخفونها. يمكن أيضا القول بأن موقفه جاء متأخرا إذا افترضنا أنه هو أيضا لم يعبر عن غضبه ولم يذهب بعيدا لإدانة جريمة لا تغتفر خاصة وأنها صدرت عن أخوة في الكفاح ضد أحدهم لم يكن جبانا ولا خائنا أو متآمرا.

مبدئيا ليس لنا ما يجعلنا نشك فيما أكد أنه قاله في ذلك الوقت لعدد من المسؤولين العسكريين في لجنة التنسيق والتنفيذ بدء بكريم نفسه. رأيه جدير بأن يعرف بخصوص عبان، لأنه يشبه كل الشهادات حول القيمة العالية لمن تمت تصفيته بدون تردد. لنستمع إليه ثانية:

"لا أصدق أن عبان كان قادرا على الخيانة. على أي شيء تلومونه؟ لقد كان خلال اجتماعاتنا كان موضوعيا، لبقا وأخويا. متى أظهر رغبة في السيطرة على انتفاضتنا، وفرض ديكتاتوريته؟.

"إلى أين نحن ذاهبون؟ المسألة تتجاوز اليوم شخص عبان. نحن بحضور قيادة جبهة التحرير الوطني التي تتشكل من تسعة أعضاء عينوا من طرف المجلس الوطني للثورة الجزائرية. خمسة منهم يجتمعون

ويقررون التخلص من أحدهم. هل كان لهم الحق في تقرير ذلك؟ لقد أحدثوا بتصرفهم هذا أحدثوا سابقة خطيرة. إنها العودة إلى العصور الوسطى لا غير. إذا استمررتم في هذا التصرف سوف لن تنشئوا جزائر حرة لكن عدة جزائر بعدد العقداء (14) ".

الخلاصة التي انتهى إليها بعد هذه الملاحظة الحازمة كانت الوحيدة في مستوى الحدث المؤلم حيث قال:" أنا شخصيا، أقدم استقالتي".

قد يشكك الكثيرون في هذه الشجاعة المفرطة، أو يعتبر هذا اقل ما كان يجب أن يقوم به ذلك الذي التحق بجبهة التحرير الوطني بفضل عبان رمضان. لقد اعترف بذلك وقاله صراحة وهذا لا يخلو من البهرجة عندما يصدر عن شخصية- لا ننسى ذلك- كان يسمعها ويتبعها ملايين الجزائريين لا يمكن تجاهلهم بحجة أن أراءهم لم تتناسب مع أراء التيار الوطني الأكثر راديكالية.

وحتى نكون منصفين أكثر وملمين أحسن بالموضوع، يجب أن نضيف أن الاستقالة التي كانت غايتها التنديد بالجريمة المرتكبة لم تتم. واعتبر هذا أسلم بالنسبة للثورة الوطنية التي كان يجب أن تواصل مسيرتها. حتى إذا استشرنا روح الشهيد. فإن عبان كان سيقبل، مرغما، ألا تعترض روحه أو روح أي كان الكفاح البطولي لشعب بأكمله.

كان رد فعل ابن بلة مختلفا تماما لوفاة عبان رمضان. لنحكم على الوثائق انطلاقا من الرسالة، التي كتبها سجين "لاصانتي" في 26 أفريل 1958 لكريم وابن طوبال وبوصوف والتي توجد في "أرشيف الثورة الجزائرية" وهي رسالة أصلية (15). فماذا يقول فيها؟ لنذكر من هذه الرسالة الطويلة المقاطع التي تبدو حسب رأينا، ذات علاقة مباشرة وشبه شفافة بالمسألة الشائكة التي تهمنا:

" لا يسعنا إذن إلا أن نشجعكم على منهج التطهير هذا. فمن واجبنا جميعا إذا كنا نريد إنقاذ الثورة وجزائر الغد أن نكون صارمين في موضوع التطهير هذا. لذا يجب أن نكون عادلين وأن نتطرق إلى صلب الموضوع وإلا اكتفينا بمعالجة الأمور العاجلة وتركنا المرض يواصل فعله الفتاك.

فيما يخصنا، نعتبر أنه تم انجاز خطوة هامة حيث أن الواجب يفرض عليكم بما أنكم طلقاء ألا تتوقفوا عند هذا الحد إذا كنتم منطقيين مع أنفسكم وإذا كان هدفكم القيام بعمل فيه النجاة. لا يسعنا إلا أن ندعمكم في محاربة جراثيم التعفن التي تسللت إلينا.

(...) وبخصوص الرجال، فإننا نفرق بكل وضوح بين من كانوا قاعدة الثورة وإنتاجها وبين الذين رمتهم الظروف بين أحضانها بطريقة أو بأخرى. فالخلط بين هاتين الفئتين مثلما حدث بمناسبة 20 أوت 1956 (هنا بن بلة يعني مؤتمر الصومام) يعد حكما خاطئا له نتائج وخيمة".

"التطهير"، "التنظيف" "الخلاص" كلها كلمات قوية ومعبرة بذاتها. هكذا ودون ذكر اسم عبان رمضان يتضح أن سجين "لا صنتي" الشهير لم يكن مستاء ولم يدين هذا التصرف إزاء عبان المحزن. فهو لم يذهب إلى حد تهنئة أصحاب الجريمة. لكن كأنه فعل ذلك حقا حيث انه "يشجع" ما تم ارتكابه و"يدعمه". كان معروفا بأنه خصم معلن لعبان لكن ليس إلى حد قبول موته على يد أخوانه، أيادي آثمة ووحشية. هناك أعمالاً لا يبررها شيء. خاصة عندما تنتج عن حماس أعمى وطموح لاذع. لا يمكن تبرير ما لا مبرر له لا باسم ذلك التطهير أو تلك الشرعية الثورية التي لا يعد أحدا ممثلها الوحيد ولا باسم الشعب الذي غالبا ما ترتكب الأشياء باسمه والذي نتكلم باسمه لأننا نمنعه من التعبير عن نفسه.

تصفية عبان ليست فقط مأساة إنسانية تثير العقل وتؤلم قلب كل إنسان يعتبر أن الحياة والموت شأن الله وحده. هو فقط الذي يمنحهما. فكيف يمكن لدعاة احترام الإسلام التصرف بحرية مع كل الآيات التي تكرر أن الله وحده هو الذي يهب الحياة أو يأخذها. من المؤلم أن في موت عبان انساق رجال لا تنقصهم الشجاعة ولا روح الوطنية وراء الغيرة والكراهية والاحتقار لحد التآمر للقضاء على من هو ، ربما أحسنهم.

لم يجد أحد من هؤلاء راحة البال والضمير بعد هذا الاغتيال وهذا ما نلمسه كل مرة تتذكر فيها ليلة تيطوان المشؤومة هذه.

قلنا مرارا وتكرارا أن كل الفاعلين المباشرين أو غير المباشرين لهذه الجريمة يتبادلون بالتهم. لكن ما الفائدة طالما أن هذا الفعل المشين الذي لن يسلم يتعافى منه التاريخ قد ارتكب؟.

المفزع والمريب أن هناك مؤلف لا يمكن التشكيك في مصادر معلوماته يروي أن في الوقت الذي كان عبان يحتضر تحت وطأة الحبل الذي كان يلتف حول عنقه ببرودة شيطانية كان رفاقه يتناولون وجباتهم.

وكون أن أحدهم كان ممسكا بسلاحه داخل جيبه، كما قيل، لأحسن اعتراف. ويمكن التساؤل كيف أن مسؤولين لم يخافوا الموت أبدا وقاتلوا في الجبال وأبهروا في ذلك الوقت مقاتليهم والشعب كله بشجاعتهم وجأشهم بدؤوا يخشون بدورهم عن حياتهم؟ كيف لم يفكر أحد منهم مسلحا كان أم لا، بوازع العطف والشفقة، في منع الجريمة التي كانت ترتكب على بعد بضعة أمتار منه؟ الحقيقة، كما أكد لنا أحد العقداء، أنهم كانوا " يتمنون جميعا موت عبان. كانت كل الاعترافات وشبه الاعترافات والتقديرات والاتهامات والاتهامات المضادة تكاد تكون لعبة قذرة قام بها من شاركوا فعلا في الجريمة أو من غضوا الطرف عنها.

وإذا كان صحيحا أيضا، كما أكد لنا أحد الشهود، أن المخابرات المصرية ليست بريئة من الفخ الذي نصب لعبان وأودى بحياته لا يسع تاريخ بلادنا إلاّ أن يكون قاسياً على من تآمروا على قتل من كان يعتبر أن "الثورة الجزائرية ليست تابعة للقاهرة ولا لندن ولا موسكو ولا واشنطن".

هل كان يمكن أن يغفر لمن كان يكافح بكل قوته ليكون مصير الكفاح التحرري بيد أبناء الجزائر لا غير، حتى لا تتمكن أبداً أية قوة خارجية التحكم في مصيرها، خاصة تلك التي تدعي الأخوة ونواياها ليست بريئة؟.

فور دفن جثمانه بالقرب من تيطوان في مكان داسته الجرافة ليقام فوقه حي، يبعث عبان من جديد، ويطارد شبحه من أعماق المتوسط المظلمة (16) الذين كانوا يظنون أنهم تخلصوا منه إلى الأبد. لقد أعلن عن موته بعد خمسة أشهر. ونشر الخبر في العدد 24 لجريدة "المجاهد" الصادرة بتاريخ 29 ماي 1958. ونشرت صورة الشهيد على طول الصفحة الأولى يحيط بها شريط أسود تحت عنوان بارز "استشهاد عبان رمضان في ساحة الشرف". نفاق فادح أريد تبريره بضرورة تفادي البلبلة ضمن صفوف المقاتلين وعدم إلحاق الضرر بمعنويات الشعب. وكان الشعب بحاجة لهذه المعنويات لأن لا احد كان سيتقبل تصفية أحد أحسن أبناء الجزائر، ببرودة تامة؟

واتضح أن الافتتاحية التي حررت على شكل نعي انتزعت من بومنجل. ومن الأعيب القدر، حرر التأبين على شكل قرار اتهام يذكر فيه قائمة الاتهامات التي وجهها الذين حاكموا عبان .في لحظة دقيقة كهذه التي لا يرى فيها كاتب التأبين سوى المرحوم. لا يسع القلم والكلمة سوى الكتابة عن الطهر والتبجيل. لنرى بعض جمل هذا النص:

"كان عبان يواصل مهامه اليومية بالوعي والدقة اللذان كان غالبا ما يلاحظونها جنودنا. وكان وهو يتصل بشكل دؤوب بالجيش والمحافظين السياسيين يجوب المناطق عرضا وطولا وسط حب وإعجاب كل إخوانه. كانت كتيبة من الجنود مكلفة خصيصا بحمايته ولا شيء كان يدل على وقوع الحادث المفاجئ الذي انتزعه من حمية الجزائر المقاتلة (..). لقد فقدت جبهة التحرير الوطني أحد أحسن المنظمين وفقدت الجزائر فيه أحد أبنائها البواسل. إننا نبكي أخا في الكفاح سنقتدي بذكراه".

وقبل البكاء الحقيقي سرعان ما خابت آمال الذين سارعوا في قتله وظنوا أن سبل القوة والسلطة فتحت أمامهم، لأن الفتنة بدأت تزعزع القواعد الخارجية للثورة. وأصبح الفراغ الذي خلفه عبان دوامة. مضاعفة عدد الرجال لا يعطي عددا كبيرا. صحيح أنه كانت له أخطاؤه وأزماته ونزواته وكلماته القاسية لكنه كم كان يملأ الثورة الجزائرية بعمله ونظرته، كان يبدو وكأنه أكبر من كل الذين كانوا يكونونها. وجاء وقت المزايدات والإقصاء والائتلافات التي تتشكل ثم تتفك حول رهان الحكم. ولم يكن يخلو هذا التركيب الغريب للشخصيات المختلفة من التهديدات. لم يكن أحد يتمتع بالشخصية الكاملة التي تسمح له بالتفوق. وكما قال أحد الشهود، سرعان ما تمزق "ميثاق الدم" الذي عقد للقضاء على عبان.

وهكذا بدأت تنبؤات بن طوبال تتجسد. عقيد آخر مذعور أو له مصلحة في التمزق الذي يحدث في أوساط مسؤوليه استخلص العبر من هذه المأساة بل رسم خطته. وبدأ جيش قوي ومنظم ومنضبط ومسيّس ينظم في السر لكن تحت سيطرة فكره الهادئ ويده الصارمة. وهذا لمحاربة العدو كما يجب ولكن أيضا لمواجهة المستقبل. مستقبل بدأ يلوح في الأفق بشكل أكيد ومشرق كإشراقة الشمس يوميا.

أما الآخرين -الذين لا زالت روح عبان تطاردهم- ظلوا يسيطرون على السلطة لكنهم لا يجسدونها لا في نظر الرأي العام الجزائري ولا في نظر الرأي العام العالمي.

ومن أعاجيب القدر التي جعلت الأمور تنقلب ضدهم، أصبح كل الذين انتقد عبان إقحامهم بقوة تقريبا في صفوف الثورة وأبعدوا في وقت ما عن المسؤوليات، يحتلون الصدارة على الساحة. وهكذا أصبح فرحات عباس أول رئيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية التي شكلت في 19 سبتمبر 1958 سنة بعد وفاة عبان بينما أحتل ابن خدة - الذي طرد من لجنة التنسيق والتنفيذ في أوت 1957 لولائه لزميل الدراسة القديم الذي أريد ضربه بهذه الطريقة- نفس المنصب السامي ابتداء من أوت 1961. أما سعد دحلب الذي استهدف لضرب عبان أيضا فسيكون له مصير مذهل وشرف قيادة مفاوضات أدت إلى استقلال الجزائر وهو الهدف الأسمى للثورة والشعب الجزائري منذ قرابة قرن ونصف القرن.

هل هو انتقام عبان بعد موته؟ انتقام من كان وسيظل جامعاً لكل القوى الوطنية دون تمييز جهوي أو إقصائي ؟ وهذا هو الأرجح لأن الوقت أصبح وقت ندب وبكاء وندم لا يطاق لدى الذين قتلوه دون سبب.

اختفى الجميع بعد الاستقلال. أين ذهبت كل تلك القوة؟ واحد منهم فقط قام بمحاولة لكن اللعبة باتت مفضوحة لان لا أحد يؤمن بها والمؤلم أن لا أحد شارك فيها. انتقلت السلطة إلى أطراف أخرى وكان "دم" عبان سبباً في ذلك إن لم نقل السبب الأول والأخير. لم يبق سوى وخز الضمائر والبكاء لأن القلوب جفت من كل تلك الكراهية، والاستهانة بالحياة. وأكدت لنا عدة جهات أنه كلما ذكر أحداً العقداء أو سمع أحدا يذكر اسم عبان بكى بكاء حقيقيا. أما بخصوص كريم فقد أكد لنا أحد أقاربه أنه كان يتحسّر ندماً وكان دائما يردد باللغة القبائلية "ندمت أشدّ الندم".

لقد «ألقي به» في مكان لا نعلمه إلى اليوم، وعلى كلّ فقد آن أوانه. كان يؤول إلى المصير الذي أودى بحياته كما كان متوقعا وكما أنذر. حتى بوصوف كان من بين من كانوا يعتقدون، كما أكده لنا أحد الأشخاص الذين التقى بهم ثلاثة شهور قبل انهياره في باريس، أن مصيره كان محتوما. فقد فاق ألمه وتذمره كأب كل وصف، بعد موت أبنه إثر مرض سرطان الدم. لم يكف عن التفكير في موت عبان، الموت الغاشم والقاسي.

ربما كان موت عبان ضروريا لتحرير الجزائر. أما الآن وموته مسجل إلى الأبد في تاريخنا يجب أن يشكل لنا وللأجيال المتتالية مصدر إلهام لا ينتهي للتسامح والكرامة والحرية إلى الأبد وهي مصادر الحياة الوحيدة لمجتمع سياسي. بذلك فقط يمكن لعبان أن يطمئن في قبره. ويمكن للجزائر بذلك أيضا أن تعبر له عن اعترافها له إلى الأبد.

الصلاة على روح بطل

لا أرى خاتمة أخرى لهذا العمل إلا الموت؟ لكن بما أنه يجب أن أختم رحلة قادتني إلى عرض حياة بطل كهذا، أكثر من الحديث عن موته سأنجزها على شكل دعاء. الدعاء الذي لا يتمثل في إحاطة موت عبان رمضان بصمت لا يقل إجحافا عن هذا الموت نفسه. هل يجب محو ذكراه حتى بعد موته وجعل انجازه في طي النسيان؟ هذا الصمت الذي لا يزال يحيط باسمه وعمله وتضحيته الكبرى هو موت آخر له.

أن تكون الثورة قد استرجعت صورته لتفتح بها، إلى جانب صور أبطال آخرين، الاستعراضات الرسمية في المناسبات الكبرى هذا يشرف الجزائر التي لا تنسى من ماتوا من أجل أن تعيش. كم هو تكريم مستحق لكن كم هو ناقص أيضا. لا يكفي أن نسترجع صورة بطل بل يجب استرجاع ذكراه كلها.

والبدء على الأقل الذي يجري بالنسبة للآخرين، يجب التذكير به في كل مناسبة يحتفل بذكرى موته. لا شيء أكثر غموضا، وألما، ونكرانا للجميل، بالنسبة لأمتنا من أن تتجاهل يوم 27 ديسمبر 1957 وهو التاريخ الذي أتم فيه عبان واجبه حتى الرمق الأخير. فمهما كانت معاناته إثر الانهيار والعزلة والتمزق وحتى الإهانة لم يتردد في تلبية نداء المصير ظانا أن بإمكانه بل من واجبه خدمة الثورة. ونعلم ما حدث له: الجريمة تمت لكن بقي أن عبان رمضان برهن على شجاعة ووعي لا يقارن لأن الجو الثقيل والمحفوف بالأخطار الذي كان يخيم آنذاك، أشعره بأن ثمة "خطة مدبرة". لكنه فضل تلبية ما كان يعتبره واجبا وهو تسوية خلاف مزعوم بين جيش التحرير الوطني والسلطات المغربية معرضا نفسه للخطر. لم يتردد قط. لم يكن يريد أن يتهم ب "الجبن" مع أنه

كان يمكنه توخي الحذر أو عدم تلبية النداء الذي جاء متأخرا وغريبا إلى حد انه شعر بالخديعة. لا داعي للرجوع إلى ما حدث. لقد قيل الكثير حول ذلك وربما لا يزال أكثر من ذلك.

لم يعد هناك أي مبرر للصمت، حتى ولو فرضنا أنه كان يوجد في تلك الفترة، ما يبرر موته الذي زيّف بعد خمسة أشهر في افتتاحية "المجاهد" التي نقرأ منها الحيرة بل الغضب الذي يصعب احتواءه أمام ما كان وسيبقى اغتيالا. لقد لقي عبان رمضان حتفه منذ قرابة ثلاثين سنة بالحبل الذي خنقه. إلى متى سيدوم هذا الصمت في الوقت الذي ندعو فيه إلى كتابة تاريخنا؟ لم لا تكتب الصحافة الجزائرية خلال ثلاثين سنة، سطرًا واحدا يخلد ذكراه. حتى عندما تقرر إعادة دفن رفاة المجاهدين الذين توفوا في الخارج . ولم تنس جريدة "المجاهد" الصادرة في 4 جويلية 1985 بالفعل ذكراه وخصصت صفحة كاملة -مدعّمة بالصور- حول "تكريم الأمة لأبطالها". لكن لا شيء بعد ذلك بينما لا يكاد يمر أسبوع دون أن تذكر أجهزة الإعلام، بشهدائنا وهذا حقهم الكامل.

ومهما كان موت عبان أليما فيمكنه اليوم كذلك أن يخدم البلد عن طريق تخليد ذكراه حتى لا يعترض أبدا قتل الإخوة تاريخنا.

يمكن أن يفعل الكثير. ليس أكثر ولا أقل مما أعطى الآخرون وذلك على سبيل اعتراف الأمة العادل والدائم بأبطالها. إننا نشاهد هنا وهناك إقامة نصب تذكارية ومعالم ولوحات تخلد وتذكّر الأحياء بأمواتهم. وهكذا وهذا أقل واجب، أقيمت أو شيّدت نصب تذكارية للعقداء سي أمحمد ولطفي وعميروش والحواس وزيغوت وربما الآخرين تخليداً لذكراهم في الأماكن التي دفعوا فيها حياتهم ثمنًا لتحيا أمتهم.

أصبحت هذه الأماكن "معاقل" لتاريخنا، يقصدها الناس سنويا للترحم على الشهداء. هناك قرى ومدن، ناهيك عن الشوارع الرئيسية لمدننا

الكبرى تحمل أسماء هؤلاء الأبطال وأبطال آخرين ليسوا بهذه الدرجة من الشهرة. لا شيء تم أو سيتم بالنسبة لعبان. لنراهن أن السبب ليس عدم معرفة المكان -الذي هو غير محدد بالفعل- الذي دفن فيه. فالميادين الشرفية التي لا تزال بصماته عليها كثيرة ولا يستحيل بالتالي - في يوم ما- تكريمه كما يجب. إن قريته "عزوزة" أو الجزائر العاصمة التي كانت بالنسبة له ميدان المواجهات والإنتصار (مظاهرات ديسمبر 1961 كانت عبارة عن انفجار غضب، وآلام الشعب جراء إضراب الثمانية أيام) ضد النظام الاستعماري لن تتنكر أبدا لمن يعتبر أحد المنظمين وأحد المجيئين الأكفاء للقوى الوطنية الجزائرية.

وأخيراً فإذا كنا لا نريد أن يبقى موت عبان رمضان موضوع حرج للكثيرين ولا نريد أن تعذب ضمائر من لم يفعلوا شيئاً لمنعه، ومن يثيرهم موته اليوم وغدا ودائما -مبدئيا وعن قناعة- وحتى لا يسكن شبحه العقول ويعترض تاريخنا وإذا أردنا في الأخير مصالحة الجزائر مع نفسها فقد حان الوقت لنقول للشعب بهدوء وروية وتبصر لكن أيضا، ولم لا، بفخر أن الذي اغتيل على يد إخوانه مات لأنه تجرأ على التصدي وحده، للطموح الجامح والتسلط الصاعد والمهدد بالخطر. كان يؤمن بأنه بدون حرية الجزائريين لم ولن تكن الجزائر حرة. ليكن موته ذكرى لنا إلى الأبد.

الملحقـــات

نسخة من شهادة ميلاد عبان رمضان مستخرجة من بلدية " فور ناسيونال"

TIZI-OUZOU

COMMUNE DE FORT-NATIONAL

EXTRAIT DES REGISTRES DE L'ÉTAT CIVIL

de la Commune de Fort-National

N° 220
Naissance de Abane Ramdane
10 Juin 1920

Le Dix Juin mil neuf cent vingt, deux heures du soir au douar Ouzellaguen village Azouza

Commune de Fort-National :

NAISSANCE de Ramdane du sexe masculin

fils de Abane Mhamed ben Ferhat cultivateur

et de Meradi Fatima bent Ahmed son épouse,

sans profession domiciliés au dit douar.

Pour extrait conforme :

Fort-National, le [illegible] mil neuf cent trente [illegible]

Le Maire,

COUT :

Timbre ... 5,40
Droit d'expédition ... 1,25
6,65

MAIRIE DE FORT-NATIONAL (ALGER)

ALGERIE 5 FRANCS

COMMUNE DE FORT-NATIONAL
Droit d'expédition
1 Fr. 25

مدرسة عزوزة: كشف نقاط التلميذ عبان رمضان بن محند، المولود في 10 جوان 1920

École d'Indigènes d'Azouza — [illegible] national

Relevé des notes et places obtenues par l'élève Abane Ramdane ben Mohand né le 10 Juin 1920

[illegible] 1^re Année. Notes sur 20 et places sur 17 (Année scolaire 1931 - 1932)

[illegible]	1^re h	2^e h	3^e h	
[illegible] français	10 - 7^e	12 - 2^e	11 - 3^e	11
[illegible]graphe	9 - 4^e	11 - 3^e	10 - 4^e	10
[illegible]métique	16 - 1^er	17 - 2^e	16 - 2^e	16,33
[illegible] métrique	17 - 2^e	19 - 1^er	14 - 2^e	16,33
[illegible]ences	11 - 4^e	12 - 3^e	15 - 1^er	12,66
[illegible]toire	11 - 8^e	13 - 2^e	12 - 4^e	12
[illegible]graphie	12 - 6^e	10 - 10^e	11 - 5^e	11
[illegible]ssin	7 - 12^e	8 - 11^e	10 - 6^e	8,33
Moyenne générale				12,20

C.M. 2^e année — Notes sur 20 et places sur 21 — Année scolaire 1932 - 1933

Matière			
Langue française	10 - 3^e	12 - 2^e	11
Orthographe	11 - 4^e	12 - 6^e	11,50
Arithmétique	17 - 2^e	16 - 2^e	16,50
Système métrique	16 - 1^er	17 - 1^er	16,50
Sciences	12 - 4^e	13 - 2^e	12,50
Histoire	13 - 2^e	14 - 2^e	13,50
Géographie	12 - 3^e	14 - 2^e	13
Dessin	8 - 9^e	9 - 6^e	8,50
Moyenne générale	—		12,87

Conduite : 18
Travail : 17
Aptitude : 14

L'élève a obtenu le C.E.P.E. le 29/5/33 [illegible]

Azouza le 19 Juin 1933
Le Directeur :
[illegible]

ملاحظات الأساتذة:

1. تلميذ ذكي كامل الشخصية إرادة حسنة. أنا راض دائما عن عمله.
2. تلميذ ذكي، لكن لا يركز، عمل جيد، نتائج غير متساوية لكنها مرضية عموما.

Appréciation des maîtres.

Appréciation des maîtres.

Élève intelligent et caractère entier. Bonne volonté.
J'ai toujours été satisfait de son travail et [illegible]

Élève intelligent mais étourdi. Bon travail.
Résultats inégaux, assez satisfaisant.

رسالة موجّهة من لجنة التنسيق والتنفيذ إلى الإخوة في تونس، مؤرّخة في 21 نوفمبر 1956

Le 21 novembre 1956

Le C.C.E aux frères
de Tunis.

Nous avons reçu les notes du Commandant Omar.

La Wilaya N°2 est arrivée pour vous envoyer 50 millions pour achat d'armes.

Pourquoi ne demandez-vous pas de l'argent aux frères du Caire ?

Réponse à notre dernier courrier.

Ben Tobbal est ainsi que Si Brahim et Benaouda sont détachés provisoirement à Tunis.

Activez l'acheminement du matériel.

Nous venons de recevoir la lettre du 16.11.56 écrite en arabe par Si Brahim.

À l'avenir faire écrire en français pour nous éviter de confier nos secrets à un traducteur.

Pour le comité de Tunis. Encore une fois il est composé de Mahsas, Si Brahim, Benaouda et Gaïd. Ce comité dépendra d'Alger et non d'ailleurs.

Le docteur Lamine chef de la délégation du FLN au Caire sera avisé.

Dans le cas où un ou plusieurs frères refusent de reconnaître l'autorité du CCE nous aviser et nous prendrons la décision qui s'imposera.

Fraternellement
Pour le CCE
Ramdane

جبهة التحرير الوطني

رسالة موجّهة إلى أمين عام حزب الدستور التونسي

ومؤرّخة في 25 ديسمبر (السنة غير واضحة)

FRONT DE LIBERATION
NATIONALE

C.C.E.

ALGERIE, le 25 Décembre [illegible]

FRONT DE LIBERATION
NATIONALE

C.C.E.

ALGERIE, le 25 Décembre [illegible]

Le C.C.E.
à
Monsieur Ahmed TLILI
Secrétaire Général du Néo-Destour
TUNIS

Le Dr LAMINE Mohammed, Chef de la Délégation du FRONT DE LIBERATION NATIONALE à l'extérieur de l'ALGERIE nous a rendu compte que le frère Ahmed MAHSAS, membre suppléant du C.N.R.A. sème dans les milieux Tunisiens une certaine confusion qui, si elle n'est pas dissipée peut vous induire en erreur.

A cet effet, nous tenons à vous informer que le C.C.E. (Comité de Coordination et d'Exécution) élu par le Congrès National du 20 Août 1956 a désigné le Dr LAMINE Mohammed, Chef de la Délégation du FRONT DE LIBERATION NATIONALE et le Colonel OUAMRANE comme son Adjoint, chargé tout particulièrement de la branche logistique.

En attendant l'arrivée de ce dernier qui est en route vers TUNIS, les Commandants BEN AOUDA Ben Mostefa dit "MOURAD" et Brahim MEZHOUDI sont habilités à parler au nom du C.C.E.

En conséquence, nous vous prions de vouloir bien faciliter la tâche des frères LAMINE, OUAMRANE, MEZHOUDI et BEN AOUDA. Nous vous prions en outre, de bien vouloir porter les faits ci-dessus à la connaissance de votre Gouvernement.

En vous remerciant, nous vous prions de croire à nos sentiments fraternels et de solidarité nord-africaine ./.

BEN M'HIDI	KRIM	SAID	BENKHEDDA	ABANE
Mohammed Larbi	Belkacem		Benyoucef	Ramdane.

جبهة التحرير الوطني

من أجل إضراب عام لمدة ثمانية أيام

ابتداء من يوم 28 جانفي 1957 على الساعة الصفر

أيها الشعب الجزائري

إن الإعلان عن إضراب الثمانية أيام بمناسبة مناقشة منظمة الأمم المتحدة القضية الجزائرية زرع القلق لدى السلطات الفرنسية. الجنرال ماسو هدد بتعريض محلات المضربين إلى النهب، كما هددت الإدارة الفرنسية بتسريح الموظفين وهذا أحسن دليل على جو القلق الذي يسود الصفوف الاستعمارية.

وهذا سبب آخر يجعل الشعب الجزائري يعمل على إنجاح هذا الإضراب نجاحا كاملا.

ستبقى تهديدات الجنرال ماسو بدون جدوى. ويدرك تجارنا التضحيات التي يتطلبها تحررنا. لن يخضعوا للتخويف. أفضل أبنائنا يموتون كل يوم. أملاك شعبنا مهدمة يوميا من طرف العساكر الفرنسية. فليقم الجنرال ماسو النهب في الجزائر العاصمة وسيكون ذلك تعبيرا جديدا على النظام الاستعماري والتهدئة (pacification) . هذا لن ينقص من عزيمة الجزائريين في انتزاع الاستقلال.

أيها الشعب الجزائري

أنظار العالم تتجه إليك. لقد أكدت وجودك للرأي العالمي بفضل شجاعتك ورباطة جأشك. وستبرهن مرة أخرى عن إرادتك القوية في القضاء على الاستعمار.

سيغلق التجار محلاتهم وسيقابلون تهديدات الجنرال ماسو بـالازدراء الذي تستحقه. سيهجر العمال الورشات والمصـانع ويتـرك الموظفـون مكاتبهم. العمال بجميع فئاتهم سيتوقفون عن العمل.

سيعبر كل الجزائريين لمدة ثمانية أيام وبصوت واحد وفي توافق تـام في الأفكار والمشاعر مع مندوبينا في الأمم المتحدة ومجاهدينا ومسـبلينا وفيدائينا عن إرادتهم في العيش أحرارا ومستقلين.

ثمانية أيام سيبرهن فيها الشعب الجزائري الموحد والمـنظم، للعـالم عن وحدته وراء جبهة التحرير الوطني.

من اجل تصفية النظام الاستعماري

من اجل تحرير الوطن الجزائري

من اجل إقامة جمهورية جزائرية ديمقراطية و اجتماعية

إلى الأمام من اجل إضراب عام لمدة ثمانية أيام ابتـداء مـن 28 جـانفي 1957 على الساعة الصفر.

تحيا الجزائر حرة مستقلة.

سيغلق التجار محلاتهم وسيقابلون تهديدات الجنرال ماسو بـالازدراء الذي تستحقه. سيهجر العمال الورشات والمصانع ويترك الموظفون مكاتبهم. العمال بجميع فئاتهم سيتوقفون عن العمل.

سيعبر كل الجزائريين لمدة ثمانية أيام وبصوت واحد وفي توافق تام في الأفكار والمشاعر مع مندوبينا في الأمم المتحدة ومجاهدينا ومسبلينا وفيدائيينا عن إرادتهم في العيش أحرارا ومستقلين.

ثمانية أيام سيبرهن فيها الشعب الجزائري الموحد والمنظم، للعالم عن وحدته وراء جبهة التحرير الوطني.

من اجل تصفية النظام الاستعماري

من اجل تحرير الوطن الجزائري

من اجل إقامة جمهورية جزائرية ديمقراطية و اجتماعية

إلى الأمام من اجل إضراب عام لمدة ثمانية أيام ابتداء من 28 جانفي 1957 على الساعة الصفر.

تحيا الجزائر حرة مستقلة.

جبهة التحرير الوطني

تعليمات

مدخل

بمناسبة مناقشة الأمم المتحدة للقضية الجزائرية من الضروري أن يعبّر الشعب الجزائري الموحد تعبيرا كاملا عن إرادته في الحرية والاستقلال.

يجب أن يترجم هذا التعبير أساسا بإضراب عام لمدة ثمانية أيام على كل التراب الوطني مع مشاركة فعالة لكل الفئات الاجتماعية بدون استثناء.

يتمثل الهدف المنشود في :

1. البرهنة بصفة حاسمة أكثر عن الالتفاف الكامل لكل الشعب الجزائري حول ممثله الوحيد : جبهة التحرير الوطني.
2. إعطاء، من خلال هذا التعبير، سلطة قوية لمندوبينا في الأمم المتحدة لإقناع الدبلوماسيين القلائل لبعض الدول الأجنبية التي لا تزال مترددة أو التي تتوهم بشأن السياسة "الليبرالية لفرنسا".
3. إقحام فئات اجتماعية جديدة في الكفاح الفعلي بتحويل كره الاستعمار الذي لا زال عند بعض العناصر في مستوى المشاعر إلى أعمال ملموسة وعنيفة.

   سيرفع هذا المناخ قدراتنا الثورية ويشجعها
4. ستكون هذه مقدمة أولى وحقيقية للخبرة الضرورية من أجل الانتفاضة العارمة.

كيف يحضر الإضراب العام هذا ابتداء من الآن؟

1. على الصعيد السيكولوجي

أ. إصدار منشور من طرف كل ولاية فور تلقي هذه التعليمات التي تعلن عن الإضراب العام دون ذكر التاريخ بالتحديد لكن بإدراجه ضمن إطار النقاش الجزائري في الأمم المتحدة.

ب. إصدار منشور ثانٍ من طرف كل ولاية مع ذكر تاريخ شن الإضراب والشعارات.

في حالة ما إذا استحال على قادة الولايات نشر تاريخ شن الإضراب بسبب ضيق الوقت يجب شن إضراب ثمانية أيام عندما تعطي مدينة الجزائر الإشارة (ستشير الصحافة والإذاعة إلى الحدث بالتأكيد).

ج. القيام بعمل سيكولوجي موازٍ لدى العمال والتجار والطلبة ورجال الدين

د. عمل مماثل لدى النساء.

هـ. نفس العملية في تونس و المغرب و في العالم.

2. على الصعيد العملي

أ. فور تلقي هذه المعلومات يجب تشكيل في كل ولاية لجنة الإضراب تتكون من ثلاثة أو أربعة مسؤولين (من بينهم طالب سابق لتحرير المناشير)

ب. تشكيل لجان فرعية للإضراب في كل منطقة وناحية.

ج. إيلاء أهمية خاصة لتنظيم الإضراب في المدن التالية: الجزائر، وهران، قسنطينة، عنابة، البليدة، المدية، مليانة، أورليونفيل (الأصنام- الشلف) تيزي وزو، بجاية، سطيف، برج بو عريريج، جيجل،فيليب فيل (سكيكدة)، باتنة، بسكرة، قالمة، تبسة، سوق

كيف يحضر الإضراب العام هذا ابتداء من الآن؟

1. **على الصعيد السيكولوجي**

أ. إصدار منشور من طرف كل ولاية فور تلقي هذه التعليمات التي تعلن عن الإضراب العام دون ذكر التاريخ بالتحديد لكن بإدراجه ضمن إطار النقاش الجزائري في الأمم المتحدة.

ب. إصدار منشور ثان من طرف كل ولاية مع ذكر تاريخ شن الإضراب والشعارات.

في حالة ما إذا استحال على قادة الولايات نشر تاريخ شن الإضراب بسبب ضيق الوقت يجب شن إضراب ثمانية أيام عندما تعطي مدينة الجزائر الإشارة (ستشير الصحافة والإذاعة إلى الحدث بالتأكيد).

ج. القيام بعمل سيكولوجي مواز لدى العمال والتجار والطلبة ورجال الدين

د. عمل مماثل لدى النساء.

هـ. نفس العملية في تونس و المغرب و في العالم.

2. **على الصعيد العملي**

أ. فور تلقي هذه المعلومات يجب تشكيل في كل ولاية لجنة الإضراب تتكون من ثلاثة أو أربعه مسؤولين (من بينهم طالب سابق لتحرير المناشير)

ب. تشكيل لجان فرعية للإضراب في كل منطقة وناحية.

ج. إيلاء أهمية خاصة لتنظيم الإضراب في المدن التالية: الجزائر، وهران، قسنطينة، عنابة، البليدة، المدية، مليانة، أورليونفيل (الأصنام- الشلف) تيزي وزو، بجاية، سطيف، برج بو عريريج، جيجل،فيليب فيل (سكيكدة)، باتنة، بسكرة، قالمة، تبسة، سوق

أهراس مستغانم، سيدي بلعباس، تلمسان، سعيدة، غليزان ومعسكر.

د. تشكيل في المدن، لجان في كل حي. تشكيل لجان إضراب للعمال في أهم المهن مثلا: حمالي الموانئ والنقل (الحافلات والشاحنات) عمال السكك الحديدية والإذاعة والبريد والمواصلات البلدية والتنظيف والمسالخ الخ...

ه. سيتخلى المسؤولون عن الإضراب مؤقتا عن مسؤولياتهم حتى يتمكنوا من التكفل فقط بتحضير الإضراب.

و. تحويل المدن المذكورة آنفا إلى مدن ميتة، تنظيم فرق الكوموندوس في الأحياء الأوروبية.

ز. تنظيم كمائن على الطرق و مهاجمة كل مركبة مدنية أو عسكرية تمر.

ح. دعوة السكان إلى التزود لمدة ثمانية أيام بالمواد الغذائية خاصة للأطفال والمرضى.

ط. يسمح لمسؤولي لجان الإضراب باقتطاع أموال من صناديق جبهة التحرير الوطني لمساعدة العائلات المعوزة التي لا تستطيع التموين لمدة ثمانية أيام.

ي. القيام بأعمال التخريب وأعمال الكوموندوس عبر كل التراب الوطني.

3. تنظيم الإضراب في تونس والمغرب وفرنسا

أ) في تونس والمغرب

إطلاع وفودنا في هذه الدول على تحضير الإضراب العام لمدة ثمانية أيام . إرسال نسخ إليهم على الفور من هذه التعليمات لتستلهم منها لإعداد خطة عمل خاصة. وفضلا عن المبادرات التي ستتخذها على حسب الإمكانيات المحلية الكبرى إليكم بعض الاقتراحات: دعاية، صحافة، إذاعة، مناشير تجمعات الخ ...

إصدار فوري و بأعداد كبيرة لكتيبات مطبوعة أو مسحوبة على آلة الرونيو تتضمن أرضية جبهة التحرير الوطني.

طلب من إذاعتي تونس والرباط تخصيص حصة يومية وقصيرة للإضراب العام في الجزائر. يمكن للمحطات الإذاعية هذه المساهمة في تعريف الشعب بالأرضية السياسية لجبهة التحرير الوطني ببث فقرة من الوثيقة كل يوم.

تحفيز حركة تضامن شعبية واسعة بمختلف الأشكال ينشطها الجزائريون.

تنظم بالاتفاق مع المنظمات المغربية والتونسية تجمعات واجتماعات وجمع أموال و إرسال برقيات لمنظمة الأمم المتحدة وشن إضراب يومي محدود (عشر دقائق مثلا).

ب) في فرنسا

العمل مثل ما يجري في الجزائر على شن إضراب عام لمدة ثمانية أيام على مستوى العمال والتجار ومحاولة إقناع اللبراليين خلال هذا الأسبوع بتنظيم تجمعات تضامنية لصالح الجزائر وتوقف رمزي عن العمل.

نشر على شكل مناشير قرار اللجنة التنفيذية للكنفدرالية الدولية للنقابات الحرة (CISL) بتقديم شكوى لدى المنظمة العالمية للشغل ضد فرنسا والتدخل لدى وفود الأمم المتحدة للتفاوض مع جبهة التحرير الوطني.

يجب على الإتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين بباريس التقيد بالمثل المذكور أعلاه للحصول لدى الوفد العالمي للطلبة على قرار مماثل لقرار الكنفدرالية الدولية للنقابات الحرة (CISL).

يحضر الإتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين تجمعات في كل فرنسا بمناسبة انعقاد الأسبوع الجزائري بمشاركة الطلبة المناهضين للاستعمار وتجمعات طلاب إفريقيا السمراء وتونس والمغرب الخ ..

إصدار فوري و بأعداد كبيرة لكتيبات مطبوعة أو مسحوبة على آلة الرونيو تتضمن أرضية جبهة التحرير الوطني.

طلب من إذاعتي تونس والرباط تخصيص حصة يومية وقصيرة للإضراب العام في الجزائر. يمكن للمحطات الإذاعية هذه المساهمة في تعريف الشعب بالأرضية السياسية لجبهة التحرير الوطني ببث فقرة من الوثيقة كل يوم.

تحفيز حركة تضامن شعبية واسعة بمختلف الأشكال ينشطها الجزائريون.

تنظم بالاتفاق مع المنظمات المغربية والتونسية تجمعات واجتماعات وجمع أموال و إرسال برقيات لمنظمة الأمم المتحدة وشن إضراب يومي محدود (عشر دقائق مثلا).

ب) في فرنسا

العمل مثل ما يجري في الجزائر على شن إضراب عام لمدة ثمانية أيام على مستوى العمال والتجار ومحاولة إقناع اللبراليين خلال هذا الأسبوع بتنظيم تجمعات تضامنية لصالح الجزائر وتوقف رمزي عن العمل.

نشر على شكل مناشير قرار اللجنة التنفيذية للكنفدرالية الدولية للنقابات الحرة (CISL) بتقديم شكوى لدى المنظمة العالمية للشغل ضد فرنسا والتدخل لدى وفود الأمم المتحدة للتفاوض مع جبهة التحرير الوطني.

يجب على الإتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين بباريس التقيد بالمثل المذكور أعلاه للحصول لدى الوفد العالمي للطلبة على قرار مماثل لقرار الكنفدرالية الدولية للنقابات الحرة (CISL).

يحضر الإتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين تجمعات في كل فرنسا بمناسبة انعقاد الأسبوع الجزائري بمشاركة الطلبة المناهضين للاستعمار وتجمعات طلاب إفريقيا السمراء وتونس والمغرب الخ ..

ج) في البلدان الأفرو أسيوية

ينظم رؤساء وفود جبهة التحرير الوطني في هذه البلدان تجمعات ويوجهون نداءات عبر الإذاعة كما ينشرون كتيبات حول الأرضية السياسية لجبهة التحرير الوطني ومناشير تندد بجريمة الإبادة التي تقوم بها فرنسا في الجزائر.

Le 24-IV-57

Chers Frères,

Quelles sont les tâches nouvelles qui se posent devant nous? dans la situation actuelle.

Pour les déterminer d'une façon juste, il faut d'abord souligner les points suivants:

Primo: Bien se convaincre de cette évidence:

LA REVOLUTION ALGERIENNE POURSUIT SANS FAIBLESSE SON ESSOR VERS LA VICTOIRE CERTAINE.

A l'occasion de la grande bataille de l'O.N.U, la grève générale de huit jours qui a atteint pleinement son but de plébisciter le F.LN., le colonialisme français a déclenché une riposte brutale et généralisée inconnue jusque là. La répression fur particulièrement féroce: ratissages répétés, arrestations monstres, rafles de jeunes, sévices, tortures systématiques.

La barbarie et les excès des paras de Massu furent tels qu'ils provoquèrent la révolte des consciences des rappelés: malgré les Oradour-sur-Glane, les nazis furent tout de même " plus corrects "lorsqu'ils pourchassèrent les résistants français.

Les bulletins de victoire claironnés par Mollet-Lacoste sombrent dans le ridicule d'une propagande mensongère.

Loin d'être gagné par la terreur et la lassitude le peuple algérien, uni derrière le F.L.N, continue la lutte acharnée pour l'indépendance de la patrie martyre.

" Les coups brisent le verre
mais trempent l'acier " constate le poète.

La lutte armée se développe sur l'ensemble du territoire national, tant par le nombre d'actions de guerre, que par l'intensité des combats.

Dignes des moudjahidine et des moudjahidate, les jeunes fidaiyine accomplissent dans les villes des exploits de purs héros. L'armature militaire et policière de l'ennemi colonialiste est sans cesse mise en d"faut. Non seulement les transports publics sont gardés en permanence, maintenant la garde est doublée sur chaque voiture ou tram.

Le 24-IV-57

Chers Frères,

Quelles sont les tâches nouvelles qui se posent devant nous? dans la situation actuelle.

Pour les déterminer d'une façon juste, il faut d'abord souligner les points suivants:

Primo: Bien se convaincre de cette évidence:

LA REVOLUTION ALGERIENNE POURSUIT SANS FAIBLESSE SON ESSOR VERS LA VICTOIRE CERTAINE.

A l'occasion de la grande bataille de l'O.N.U, la grève générale de huit jours qui a atteint pleinement son but de plébisciter le F.LN., le colonialisme français a déclenché une riposte brutale et généralisée inconnue jusque là. La répression fur particulièrement féroce: ratissages répétés, arrestations monstres, rafles de jeunes, sévices, tortures systématiques.

La barbarie et les excés des paras de Massu furent tels qu'ils provoquèrent la révolte des consciences des rappelés: malgré les Oradour-sur-Glane, les nazis furent tout de même " plus corrects "lorsqu'ils pourchassèrent les résistants français.

Les bulletins de victoire claironnés par Mollet-Lacoste sombrent dans le ridicule d'une propagande mensongère.

Loin d'être gagné par la terreur et la lassitude le peuple algérien, uni derrière le F.L.N, continue la lutte acharnée pour l'indépendance de la patrie martyre.

" Les coups brisent le verre
mais trempent l'acier " constate le poète.

La lutte armée se développe sur l'ensemble du territoire national, tant par le nombre d'actions de guerre, que par l'intensité des combats.

Dignes des moudjahidine et des moudjahidate, les jeunes fidaiyine accomplissent dans les villes des exploits de purs héros. L'armature militaire et policière de l'ennemi colonialiste est sans cesse mise en d"faut. Non seulement les transports publics sont gardés en permanence, maintenant la garde est doublée sur chaque voiture ou tram.

L'insécurité est générale: la traditionnelle "mouna" a été fêtée à domicile constatent les journaux d'Alger qui affichaient récemment encore un optimisme officiel de commande.

Secundo: <u>l'unité nationale anticolonialiste, patriotique et révolutionnaire s'est renforcée</u>.

Grâce à la politique souple et lucide du F.L.N. d'une part, et grâce aux fautes grossières de la politique dite de "pacification" d'autre part, la Révolution Algérienne a cimenté le bloc inentamé de l'union nationale pour l'indépendance, groupant toutes les familles spirituelles et toutes les couches sociales de la nation indomptable.

Les serviteurs du colonialisme les plus "loyaux" et les plus traditionnels se détachent de la planche pourrie du reniement de la nationalité algérienne.

Au moment où le service psychologique de l'armée colonialiste prétend enregistrer des ralliements, factices comme tout le monde le sait, voilà que les I50 officiers algériens de carrière adressent une pétition au Président de la République française, pour proclamer la révolte de leur conscience devant la guerre faite à leur pays.

L'arrestation d'une vingtaine de ces pétitionnaires, mercenaires de l'armée colonialiste en France, et en Allemagne, venant s'ajouter aux arrestations d'anciens beni-oui-oui, élus, bach-aghas et marabouts des confréries, montre le déclin final du colonialisme pourrissant.

Tercio: <u>La défaite du colonialisme est inéluctable</u>.

Le gouvernement, le parlement, les partis politiques, les milieux financiers et économiques français, les états-majors de l'armée colonialiste sont maintenant unanimes à considérer comme impossible une solution militaire de la guerre d'Algérie, pouvant préserver l'avenir et assurer la participation à l'exploitation du Sahara

Les difficultés de toutes sortes s'accumulent et s'enchevêtrent : crise monétaire et pénurie de dollards, cherté de la vie, grèves pour l'augmentation des salaires, emprunts, nouveaux impôts, relations difficiles avec le Maroc et la Tunisie, etc.. réaction populaire contre la torture et la poursuite de la "sale guerre" d'Algérie, condamnation de la France dans la presse mondiale, intervention des pays afro-asiatiques auprès du Secrétaire Général de l'O.N.U, plainte de la C.I.S.L devant le L'O.I.T. contre le gouvernement français pour violation du droit syndical, intervention pour le respect de la résolution de l'.ONU par la recherche d'une solution en accord avec la charte des Nations-Unies.

En résumé, chaque Algérien et chaque Algérienne est main-

tenant convaincu de cette vérité évidente:

La Révolution Algérienne a détruit le mythe de "l'Algérie, "départements pou partie intégrante de la France" .

Le maintien du statu quo colonial, administration directe

tenant convaincu de cette vérité évidente:

La Révolution Algérienne a détruit le mythe de "l'Algérie, "départements pou partie intégrante de la France" .

Le maintien du statu quo colonial, administration directe
par un pays étranger ne sera plus qu'un mauvais souvenir qui fera place à un Etat Algérien libre avec son Parlement et son drapeau national.

Mais chaque Algérien et chaque Algérienne doit comprendre que jusqu'à la dernière minute, il faut développer le potentiel de la lutte armée, partout et sous toutes les formes, porter des coups à l'ennemi colonialiste partout où il est vulnérable, ne jamais démobiliser les énergies psycho-politiques du peuple algérien jusqu'à la conquête tangible de l'indépendance.

NOS TACHES POLITIQUES

La Révolution algérienne est invincible !

Quand chaque frère est convaincu de cette vérité historique, se démontrant chaque jour davantage après plus de deux ans et demi de courage sublime, il affronte avec sang-froid toutes les difficultés de la lutte sacrée pour l'indépendance de la patrie.

L'exemple de nos martyrs exalte notre idéal.

I - Porter une attention primordiale aux problèmes de l'organisation.

Le premier souci, la préoccupation capitale du moment, c'est de maintenir intacte l'organisation du F.L.N, guide éprouvé et aimé du peuple algérien.

a) reconstituer avec patience, sang-froid et persévérance la structure pyramidale en remplaçants les maillons détruits.

b) porter une attention particulière aux directions à tous les échelons. Désigner des organismes suppléants dans des réseaux parallèles indépendants.

c) développer la vigilance et la sécurité:

1° en veillant d'une façon intransigeante au cloisonnement, au compartimentage et aux méthodes de liaison.

2° en systématisant l'emploi des pseudonymes, en prohibant les carnets d'adresses, en transmettant autant que possible, certaines communications importantes par la voie directe et verbale

3° en déjouant les pièges et traquenards de la police qui essaie d'infilter ses informateurs (contrôler les militants libérés après la torture par la confrontation des rapports mutuels sur chacun).

4° En évitant de confier trop de tâches à certains frères. Ne connaissant pas ce qui se passe à côté de lui, même s'il flanche sous la torture, il ne peut pas nuire, car il ne sait rien.

d) renouveller les centres d'éditions détruits:

1°se procurer des machines à écrire avec ronéo et papier.

2° recenser les dactylos et ronéoteurs pouvant taper les stencils et les tirer par leurs propres moyens- (bureaux où ils travaillent).

e) faire la critique des fautes individuelles ou collectives afin d'améliorer le travail.

f) recruter, sans cesse, parmi la jeunesse les femmes, les patriotes. Les éduquer par l'étude, la Plate-forme, (N° spécial du MOUDJHID, Novembre I956), les familiariser avec la structure clandestine et les méthodes d'action illégale; <u>lutter contre le bavardage.</u>

g) réorganiser l'appareil de trésorerie, multiplier les collecteurs et assurer le contrôle.

2 - <u>Développer la lutte révolutionnaire du peuple algérien.</u>

La Révolution algérienne est une guerre patriotique engagée pour la libération nationale <u>par tout un peuple,</u> le peuple algérien unanime.

La lutte contre l'ennemi colonialiste revêt des formes multiples diverses, simples ou complexes.

Il faut donner libre cours à l'initiative populaire: <u>Un seul objectif: participer à la destruction du colonialisme.</u>

Il n'est pas question d'énumérer par le détail ce qu'il faut faire pour aider à l'indépendance de l'Algérie.

Cela s'étend entre l'action ~~à~~la plus élementaire comme le boycottage du tabac et la lutte anti-alcoölique, où la santé et la morale rejoignent la lutte contre la fiscalité ~~algérienne~~ colonialiste, jusqu'à la recherche de refuge pour les fidayine, et l'organisation de la solidarité aux enfants des martyrs et des emprisonnés ou internés.

Nous nous contenterons de mentionner les tâches nouvelles les plus urgentes:

a) La lutte contre la torture.

La généralisation de la torture socialo-nazie a provoqué une profonde indignation dans l'opinion publique en France et dans le monde entier.

Le gouvernement Mollet-Lacoste est obligé de mentir pour essayer de se laver de l'infamie d'inhumanité, dont l'armée colonialiste française s'est couverte dans la guerre menée au peuple algérien.

Pour mesurer l'importance mondiale de ce puissant mouvement de la conscience universelle, il suffit de constater les remous qui secouent le gouvernement colonialo-démocrate, les ministres responsables et les milieux ultra-colonialistes.

Il faut donc constituer l'acte d'accusation pour faire le procés mondial de la torture franco-colonialiste.

Guy-Mollet qui veut se faire passer pour un " honnête homme " a eut le toupet d'affirmer que les tortures caractérisées sont l'exception et qu'ils peuvent se compter sur les doigts d'une seule main.

Canaillerie socialiste ! A l'O.N.U, Pineau-Soustelle ont démenti purement et simplement les tortures innommables (innommables) infligées aux dizaines de milliers d'Algériens en mettant au défi LEURS accusateurs d'en " fournier la preuve " !.

Aujourd'hui, les témoins de ces sévices, des Français rappelés, osent parler.

Nous devons de notre côté rassembler les témoignages des victimes ou de leurs familles.

Dans la période actuelle, il faut considérer comme une tâche urgente, et de premier ordre, l'élaboration de plaintes pour sévices, à déposer devant le procureur de la République. Des copies de ces plaintes doivent être adressées à la fameuse " Commission Mollet-Lacoste " ainsi qu'aux partis, parlementaires, journaux français.

Il faut inviter les familles des personnes arrêtées et "disparues " après leur soi-disant "libération", à adresser des plaintes auprès du Procureur.

Il faut par exemple constituer le dossier du Centre de torture du stade municipal d'Alger où les personnes arrêtées dans des rafles sont gardées dans les cabines de baigneurs et torturées. Certaines sont décédées à la suite de sévices telles que la peau arrachée par des tenailles ou libérées avec des infirmités après trente ou quarante jours de "contrôle".

Des copies de ces plaintes devront être nombreuses afin, non seulement d'alerter l'opinion publique libérale de France, mais de servir pour le "Livre noir" à la radio de Rabat et Tunis, radios Algérie-Libre, enfin pour l'opinion universelle et l'O.N.U.

Bien entendu, ces plaintes doivent être détaillées et signées, afin que leur authenticité ne soit pas contestée.

b) <u>La lutte contre les impôts de guerre.</u>

Tout le monde sait que le gouvernement français ne sait comment échapper à la crise financière et monétaire (manque de devises). Les impôts nouveaux, surtout imposés par le gouffre de la guerre coloniale d'Algérie, sont très impopulaires même en France.

La grève des impôts est pratiquement généralisée dans les campagnes. Le moment est venu de la mettre en pratique dans les grandes villes, en concentrant tous nos efforts pour assurer sa réussite à Alger-banlieue.

Après les destructions des magasins, le pillage des marchandises pendant la grève de huit jours et les sanctions de fermeture de trois mois infligées aux commerçants, il est possible de déclencher avec succès la grève de l'impôt colonialiste.

Des commerçants ont été ruinés à la suite de vols et déprédations, à la suite de la fermeture forcée et sont obligés de manger leurs dernières ressources pour les réparations indispensables. Ils sont donc dans l'impossiblité de payer des impôts arriérés où à venir.

<u>Les commerçants frappés par la répression colonialiste ne doivent plus alimenter le trésor de guerre de l'ennemi.</u>

VOILA UN PETIT PLAN DE TRAVAIL QUI SUFFIT POUR LE MOMENT. IL FAUT L'ETUDIER AVEC SOIN.

الهوامش

الفصل 1

1) نحيل القارئ إلى : فرحات عبـــاس، "تشــريح حـــرب" دار النشــر "Garnier Frères" باريس، 1980 ص 228،محمد حربـــي، "جبهـــة التحرير، سراب وحقيقة" طبع "Jeune Afrique" باريس 1980 ص 200 إلى 205. محمد لبجـاوي، "حقـــائق حـــول الثـــورة الجزائريـــة" Gallimard باريس 1972 ص 151 إلى 162، بلقاسم كريم، "رســالة إلى بعض مناضلي جبهة التحرير الوطني. الرجوع إلى محمد حربي "أرشيف الثورة الجزائرية" طبـــع "Jeune Afrique" بـــاريس 1981 ص 177 إلى 179، إيف كوريار "حرب الجزائر" ("ســاعة العقــداء") Fayard باريس، 1970 ص 180 إلى 192.

الفصل 2

1) أورده "أندري نوشي" " ميلاد الوطنية الجزائرية" منشورات "Minuit" باريس، 1962 ص 49.
2) نفس المرجع ص 49.
3) نسب قدمها، "ش.ر أجيرون" في "تاريخ الجزائر" المطبوعات الجامعية الفرنسية (P.U.F) باريس 1969. ص 85.
4) مرجع سبق ذكره، ص 114.
5) المرجع السابق، ص 85.

- جاء ترتيبه الرابع في الرياضيات في من مجموع 28 تلميـذاً خـــلال الفصل الأول وفي المرتبة الأولى في الفصلين الأخيـرين، واحتــل المرتبة الثالثة ثم الثانية ثم الثانية في مادة اللغة العربية ممـا منحـــه المرتبة الثالثة في الترتيب العام في نهاية السنة وسمح له بالحصـــول على لوحة الشرف.

الفصل 3

1) شارل ديغول، "مذكرات حرب" ("النداء") دار النشر "Plon" باريس 1954، ص 85.

2) نفس المرجع ص 94.

3) أنظر أندري نوشي، "ميلاد الوطنية الجزائرية" كتاب سبق ذكره. ص 85. أنظر أيضا شارل اندري جوليان "مسيرة شمال إفريقيا" Julliard باريس 1972 ص 118.

4) أنظر شارل أندري جوليان. مرجع سبق ذكره. ص 263.

الفصل 5

1) حسين أيت أحمد، "مذكرات مقاتل" دار النشر Sylvie Messinger باريس 1983. ص 193.

2) محمد لبجاوي "معركة الجزائر العاصمة أم معركة الجزائر" Gallimard باريس 1972 ص 70.

3) علي باشا رشيد عضو قديم في حزب الشعب الجزائري والمنظمة الخاصة لمنطقة بجاية. مارس مهام رئيس دائرة عندما كان عبان رمضان رئيس ولاية لحركة انتصار الحريات الديمقراطية في سطيف. اعتقل في أفريل 1950 بصفته عضواً في المنظمة الخاصة وفيما بعد اعتقل أيضا خلال حرب التحرير الوطني في الجبل في منطقة المدية. أصبح بعد الاستقلال أول رئيس لدائرة المدية واليا لولاية بشار.

الفصل 6

1) توفي في 14 جانفي 1952. أعلنت وفاته في الصفحة الأولى لجريدة "l'Algérie Libre" (الجزائر الحرة) العدد 41 بتاريخ 19 جانفي 1952.

الفصل 7

1) إيف كوريار **"Le fils de la Toussaint"** (أبناء نوفمبر)، Fayard، باريس، 1968. ص 68 و69.
2) محمد حربي "جبهة التحرير الوطني سراب وحقيقة". مرجع سبق ذكره. ص 86.
3) نفس المرجع ص 188.
4) نفس المرجع ص 97-98.
5) نشرية سحبت في مطبعة "SEDIC (Sarl)" 18 شارع كرواسون، باريس الثانية.
6) أنظر الكتيب الذي أصدرته حركة انتصار الحريات الديمقراطية نحو 1953 تقريبا مطبعة " SEDIC" باريس الثانية ص 7 و8
7) أنظر الكتيب الذي أصدرته حركة انتصار الحريات الديمقراطية نحو 1953 مطبعة " SEDIC" باريس الثانية ص 12، 13 و15.
8) أنظر الكتيب المذكور أعلاه، ص 85 إلى 91.
9) أنظر "أرشيف الثورة الجزائرية". كتاب مذكور.ص 52.
10) نفس المرجع ص 57.
11) نفس المرجع ص 66.
12) نفس المرجع ص 71.
13) نفس المرجع ص 72.

الفصل 8

1) جريدة، **"La Défense"** (الدفاع) العدد 95 الصادر في 28 فيفري 1936.
2) جريدة "الشعب" بتاريخ 5 /6 نوفمبر 1984

الفصل 9

1) **"Historia Magazine"** العدد 198 ص 153.

الفصل 10

1) "Historia Magazine" العدد 195 ص 53.

2) حربي يذكر عدد 350 بينما كوريار يعطي عدد 370.

3) حسب ابن طوبال الذي يذكره حربي

4) أنظر محضر مؤتمر الصمومام في "أرشيف الثورة الجزائرية". مرجع سابق. ص 161، 162، و167. ملاحظة. لا توجد معلومات عن المنطقة 1 للأوراس.

5) ياسف سعدي، "معركة الجزائر" المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر العاصمة 1984،ص 89.

6) مقتطفات من تصريحات الرئيس ماو تسي تونغ بكين 1965، ص 105.

7) نفس المرجع، الصفحة 99

8) إيف كوريار "Le Fils de La Toussaint" (أبناء نوفمبر) مرجع سابق. ص 233 و 234.

9) مقتطفات من تصريحات الرئيس ماو تسي تونغ، مرجع سابق. الصفحة 99.

10) أنظر "L'Année Politique" (السنة السياسية) 1954، باريس 1955، ص 275 و276.

11) نفس المرجع السابق، ص 277.

12) نفس المرجع السابق، ص 531.

13) ذكره فرحات عباس في "تشريح حرب". مرجع مذكور.ص 41.

الفصل 11

1) إيف لاكوست، أندري نوشي وأندري برونان "الجزائر ماضيا وحاضرا" "Editions Sociales" باريس 1960، مصطفى لشرف الجزائر: أمة ومجتمع" دار Maspéro باريس 1969، شارل روبير أجيرون "سياسات استعمارية في المغرب الكبير"، "P.U.F" باريس 1972.

2) مصطفى لشرف . مرجع سابق.ص 221 -272

3) دائرة معارف لاروس LAROUSSE
4) كتيب حركة انتصار الحريات الديمقراطية حول الجزائر .مرجع سابق. ص 18 و25.
5) لاكوست، نوشيو برونون. مرجع سابق. ص 272-273
6) نفس المرجع ص 283.
7) نفس المرجع ص 309.
8) أجيرون. مرجع سابق. ص 227.
9) محضر مؤتمر الصومام.
10) فرانسوا ميتيران في "l'Echo d'Alger" (صدى الجزائر) في 8 ديسمبر 1954
11) لاكوست، نوشي و برونان. مرجع سابق. ص 283
12) مولود قاسم، وثيقة نشرتها جريدة المجاهد في 7 و8 جوان 1985، ص 12
13) مصطفى لشرف . مرجع سابق. ص 167
14) نفس المرجع ص181 و 182.
- لاكوست ،نوشي وبرونان. مرجع سابق. ص247 و 248.
15) أشرنا إليه بأنفسنا.
16) "الجزائر ماضياً وحاضراً". مرجع سابق. ص 142.
17) نفس المرجع ص 184.
18) م.جندر "مدخل إلى تاريخ الجزائر" الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر العاصمة 1968، ص 66.
19) "الجزائر ماضيا وحاضراً". مرجع سابق.ص297
20) ش، ر، أجيرون "سياسات استعمارية في المغرب الكبير" مرجع سابق. ص 39.
21) "الجزائر ماضيا وحاضراً". مرجع سابق.ص 254.
22) "سياسات استعمارية في المغرب" مرجع سابق. ص 43
23) "تونس" سلسلة "Que sais-je ?" (ماذا أعرف) PUF باريس، 1971. ص21

24) جان لوي مياج "المغرب "سلسلة "Que sais-je?" (ماذا أعرف) PUF باريس 1971،ص37-38.

25) "تونس". مرجع سابق. ص21.

الفصل 12

1) فرحات عباس "تشريح حرب". مرجع سابق. ص153

2) ملفات وثائقية رقم 24 وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر العاصمة جانفي 1976. ص 6.

الفصل 13

1) "Historia Magazine" العدد 202. ص266

2) أنظر إيف كوريار "حرب الجزائر" الجزء الثاني ص60-61

3) أنظر المنشور المذكور في "أرشيف الثورة الجزائرية، مرجع سابق، ص 105

4) الأحاديث التي أجراها المؤلف يومي 29 سبتمبر والفاتح أكتوبر 1985

5) الحديث الذي أجريناه معه في مكتبه بالجزائر العاصمة في 23 سبتمبر 1985.

6) معركة الجزائر". مرجع سابق. ص132 و 133.

7) أنظر التوجيهات التي أعطيت للمناضلين في "أرشيف الثورة الجزائرية" ص105.

الفصل 14

1) "تشريح حرب". مرجع سابق.ص107

2) محمد حربي "أرشيف الثورة الجزائرية"، مرجع سابق. ص105

3) فرحات عباس "تشريح حرب". مرجع سابق. ص82

4) ذكره عمار مارون، "فرحات عباس أو سبل السيادة" دار نشر "Dénoël"، باريس 1961، ص 164-165

5) فرحات عباس "تشريح حرب". مرجع سابق.ص153

6) نفس المرجع ص179
7) نفس المرجع ص226
8) حديث أجراه المؤلف يوم 31 مارس 1985 من الثالثة زوالاً إلى السادسة مساء.
9) حديث مع المؤلف في 23-12-1984 و3-06-1985 في منزله بالجزائر العاصمة.
10) لقد استقبلنا الرئيس الثاني للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ما يقل عن ست مرات في 20 و 27 مارس 1985 و13 أفريل 1985 و21 سبتمبر 1985 والفاتح أكتوبر 1985 و12 أكتوبر 1985.
11) نتطلع على التقييم النزيه الذي قام به علي مراد في كتابه، "الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر من 1925 إلى 1940" دار النشر **Mouton** باريس 1967.
12) محمد حربي "جبهة التحرير الوطني سراب و حقيقة" .مرجع سابق. ص136
13) حديث أجراه المؤلف يوم الأحد 05-05-1985
14) حديث أجراه المؤلف في حضور الرئيس ابن خدة في 14-05 1985 ببئر خادم.
15) محمد حربي "أرشيف الثورة الجزائرية". مرجع سابق. ص 110.

الفصل 15

1) فرحات عباس ، كتاب تم سبق ذكره لعمار نارون ص31.
2) حديث أجراه المؤلف في 28-05-1985.
3) حديث أجراه المؤلف مع بوعلام بورويبة يوم السبت 18- 05- 1985.
4) جريدة المجاهد العدد 8 بتاريخ 5 أوت 1957 ص97.

الفصل 16

1) "أنظر الجزائر العاصمة أو معركة الجزائر". مرجع سابق.ص32.
2) حديث أجراه المؤلف مع الرئيس ابن خدة يوم السبت 13-04-1985.
3) حديث أجراه المؤلف مع رباح لخضر يوم السبت 16-02-1985.

4) "قسّما" تصبح أخيرا النشيد الوطني بمقتضى القانون رقم 86-06 المؤرخ في 4 مارس 1986 أنظر الجريدة الرسمية رقم 10 بتاريخ 5-3-1986 .

الفصل 17

5) أكد لنا علال ثعالبي في 27-03-1985 أن زيغوت يوسف كان الأول من فكر في ذلك .

6) محمد حربي في "جبهة التحرير الوطني سراب وحقيقة". مرجع سابق. ص173 .

7) الرواية الوحيدة المعروفة إلى يومنا هذا هي أن بن بولعيد يكون قد انفجر بالراديو الملغم الذي ألقته الوحدة الـ11 للجيش الفرنسي. هناك عقيد في جيش التحرير الوطني يشك في صحة هذه الرواية. فهو يرى أنه قد تكون للمصالح السرية المصرية صلة بموت مسؤول الأوراس. تكشف هذه الرواية لأول مرة وهذا يجعل توخي الحذر بشأنها لأنها لم تثبت.

8) حديث أجراه المؤلف مع سعد دحلب يومي الأربعاء 24 أفريل 1985 والأحد 5 ماي 1985 .

9) إيف كوريار "حرب الجزائر" الجزء الثاني. مرجع سابق.ص371 "**Historia Magazine**" العدد 218 ص772 .

10) محمد حربي "أرشيف الثورة الجزائرية". مرجع سابق. ص 160

11) أنظر رد ابن بلة على قادة جبهة التحرير الوطني في الجزائر، في كتاب محمد حربي "أرشيف الثورة الجزائرية". مرجع سابق. ص171 .

12) شهادة مستقاة يوم الأحد 3 فيفري 1985

13) محمد حربي"الحرب بدأت في الجزائر" دار النشر "**Complexe**" بروكسل 1984 ص 146 .

14) حديث مع لخضر بن طوبال في جريدة "Algérie Actualité" (الجزائر الأحداث) العدد 1036 بتاريخ 22 إلى 28 أوت 1985

15) الرجوع إلى خلفة معمري "الأمم المتحدة أمام القضية الجزائرية" المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر العاصمة 1968 . ص189

الفصل 18

1) عبان رمضان "فصل جديد للثورة الجزائرية تفتتح" في جريدة "المجاهد" العدد 3 سبتمبر 1956 (؟)

2) عدت يخص جيش التحرير الوطني إلى من المحاضر المنشورة في العدد 4 لجريدة "المجاهد" وإلى كتاب محمد حربي "أرشيف الثورة الجزائرية". مرجع سابق.

3) العقيد حسان (خطيب يوسف) حديث أجراه المؤلف في 2 فيفري 1985.

4) سمحت لنا المقارنة مع وثائق أخرى بتوضيح أن هذه الأسماء تتصل بهوية بن خدة بن يوسف وعيسات إيدير ولبجاوبي محمد ودحلب سعد وتمام عبد المالك ولوانشي صالح. لم يمكن التعرف على ممثلين اثنين للإتحاد العام للعمال الجزائريين كعضوين مستخلفين.

5) محمد حربي "أرشيف الثورة الجزائرية". مرجع سابق، ص168.

6) محمد حربي "جبهة التحرير الوطني سراب وحقيقة". مرجع سابق. ص174.

7) أنظر إلى مجلة "Maghreb - Machrek" "مغرب-مشرق" العدد 60 نوفمبر - ديسمبر 1973 ص6.

الفصل 19

1) أنظر "L'Année Politique" "السنة السياسية" 1956 PUF ص 504.

2) نفس المرجع ص179 و 210.

3) في 1957 "أصبح عدد الجيش الفرنسي 600000 جندي منهم 175000 شرطي ودركي و95000 احتياطي يضاف إليهم ثلث هذا العدد من الطيران ونصف، من الأسطول الحربي" جريدة المجاهد العدد 9 بتاريخ أوت 1957.

4) مقابلة تمت في أول أكتوبر 1985.

5) "المجاهد" العدد 18 بتاريخ 15 فيفري 1958.

6) مقابلة تمت في أول أكتوبر 1985.

7) الرجوع إلى "**Historia Magazine**" العدد 218 ص 784-785 .

8) مقابلة مع العقيد دهيلس 2 أفريل 1985.

9) الرجوع إلى "**Historia Magazine**" العدد 198 ص153 و156

10) هم أيت أحمد وابن بلة وبوضياف وخيضر ولشرف.

11) "**L'Année Politique**" 1955، PUF باريس ص223 .

12) محمد حربي "أرشيف الثورة الجزائرية". مرجع سابق.ص168 .

13) لقاء مع مع مختار بوشاقة في 29 سبتمبر 1985 .

14) لقاء مع مولود قايد في 9 ماي 1985 .

15) من المؤكد أنه لم يتم في تاريخ 22 جانفي 1957 تجميد محساس بعد أو كان قد تم ذلك. ولكن عبان لم يكن على علم به بعد.

الفصل 20

1) لقاء 3 فيفري 1985.

2) محمد حربي "جبهة التحرير الوطني سراب وحقيقة". مرجع سابق. ص197 .

3) الرجوع إلى الكتاب المعنون "الأمم المتحدة أمام المسألة الجزائرية" مرجع سابق.

4) مقابلة أجراها المؤلف في 5 ماي 1985.

5) مقابلة أجراها المؤلف في 5 ماي 1985.
6) مقابلة أجراها المؤلف في 12 أكتوبر 1985.

الفصل 21

1) حديث أجراه المؤلف يوم الأحد 5 ماي 1985.
2) حديث أجراه المؤلف يوم الاثنين 11 مارس 1985.
3) حديث أجراه المؤلف في 12 ماي 1985.
4) فرحات عباس "تشريح حرب". مرجع سابق.ص 211.
5) لقاء خصّ به بلعيد عبد السلام المؤلف، يوم الثلاثاء 12 نوفمبر 1985.
6) حديث مع المؤلف في 28 ماي 1985.
7) فرحات عباس "تشريح حرب". مرجع سابق.ص211.
8) لقاء مع أحمد بودا في 31 مارس 1985 ومع علال ثعالبي في 5 ماي 1985.
9) لقاء مع المؤلف يوم الأحد 5 ماي 1985.
10)لقاء مع الأستاذ مبروك بلحسين في 12 ماي 1985.
11)لقاء مع الأستاذ مبروك بلحسين في 12 ماي 1985.
12)محمد حربي "أرشيف الثورة الجزائرية" ص 168.
13)أنظر رسالة ابن بلة "في "أرشيف الثورة الجزائرية" ص 168.
14)أنظر محضر اجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائرية في "أرشيف الثورة الجزائرية" ص176.
15)عبارة استعملت باللغة العربية من طرف بومدين ورددها بودا كما هي. لقاء 3 مارس 1985.
16)لقاء مع سعد دحلب يوم الأربعاء 24 أفريل 1985 و يوم الأحد 5 ماي 1985.
17)لقاء مع المؤلف يوم الاثنين 23 سبتمبر 1985.
18)لقاء مع الأستاذ مبروك بلحسين في 12 ماي 1985.
19)تصريحات أخذت خلال اللقاء مع قايد مولود في 7 ماي 1985.
20)فرحات عباس "تشريح حرب". مرجع سابق. ص225.

21)نفس المرجع ص211.

22)نفس المرجع ص212.

الفصل 22

1) حول اغتيال عبان رمضان يمكن الرجوع إلى ايف كوريار الذي كان الأول من كشفه في " حرب الجزائر" الجزء الثالث ص180-192، محمد لبجاوي "حقائق حول الثورة الجزائرية" ص 203 إلى 205، فرحات عباس "تشريح حرب" ص 227 إلى 230، محمد حربي "جبهة التحرير الوطني سراب و حقيقة" ص 203 إلى 205.

2) أنظر محضر مؤتمر الصومام.

3) أنظر محمد حربي "أرشيف الثورة الجزائرية". مرجع سابق.ص 179.

4) نفس المرجع ص 178.

5) لقاء مع امؤلف يوم الثلاثاء 12 نوفمبر 1985.

6) لقاء مع المؤلف في 16 فيفري 1985.

7) لقاء مع المؤلف في 1985.

8) محمد حربي "أرشيف الثورة الجزائرية". مرجع سابق. ص 178-179.

9) أنظر محمد حربي "أرشيف الثورة الجزائرية. مرجع سابق. ص 179

10)لقاء مع المؤلف في 7 ماي 1985

11)ممثل جبهة التحرير الوطني في اسبانيا وصديق عبان، لكننا علمنا من أقاربه أن هذا الأخير لم يحمل السلاح أبدا.

12)أنظر رسالته المذكورة آنفا.

13)فرحات عباس "تشريح حرب".مرجع سابق. ص 228.

14)نفس المرجع ص 229.

15)أنظر المرجع السابق، مرجع سابق.183 إلى 188.

16)قدمت لنا روايتان ولا نعلم مصير جثة عبان.

ردود الفعل والتعليقات على الكتاب

أقل ما يمكن أت يقال بخصوص فضل معمري في انجاز هذا الكتاب هو جمعه لكل هذه المعلومات بشكل منسق زيادة على انه لم يهمل في تحرياته البيئة التي نشأ فيها عبان رمضان و مساره الدراسي.

نجد فائدة في الإطلاع على التحاليل الخاصة ببعض مراحل تاريخ الجزائر حتى و إن كنا نود التعبير بشأن البعض منها،عن بعض التحفظات. كما نحي البراعة الأدبية لهذا الكتاب الذي أنجز بدقة كبيرة ويجد القارئ متعة في التمعن فيه. كما انه لا يفوتنا أن نشير إلى إرادة المؤلف في إدماج مرحلة وإن كانت مأسوية في تاريخ الجزائر الواسع وهي مرحلة تحتمل الجدل إلا أنها جديرة بأن يشار إليها.

ر.ت صحيفة المجاهد

1988/10/30

كتاب خالفة معمري مكثف، يحمل كمية من الوثائق ويروي وقائع كثيرة معبرة عن بطولات و أعمال صغيرة أي كل ما يصنع ثورة. إنه يقدم توضيحات جديدة ليس فقط حول حياة وموت بطل، لكن أيضا حول مرحلة هامة من تاريخ الجزائر. إنه كتاب جدير بأن ينشر على نطاق واسع. تخليدا لذكرى بطل شهيد أريد له أن يكون منسياً.

"Révolution Africaine" (الثورة الإفريقية)

1988/12/16

- عمل قيم يقدم خدمات كثيرة للأجيال القادمة حتى وإن لم يعجب بعض. المستحوذين على كتابة التاريخ
- عمل خالفة معمري يأتي بالجديد حيث انه يروي لأول مرة حياة شخصية...حقيقة القضية.
- يبقى عبان رمضان شخصية صعبة في هرم الوطنية. فقد كان دوره الذي وصفه خالفة معمري بكل دقة وبلمسات شخصية، بارزا طبع

بدايــة الكفــاح ... وقــد ســمحت صــرامته... لخصــوم عبــان من القضاء على من كان يضايقهم... غير بذلك وجه الحرب ونشعر بذلك إلى يومنا هذا في تصرف الجزائر العاصمة.

ج.ب.بيرونسال هوغوز
جريدة (لو موند)(Le Monde)
1988/12/ 2

- أتممت قراءة كتابكم الشجاع والمفيد حول حياة وعمل وموت الفقيــد عبان رمضان. وقد دفعني التأثر البالغ الذي شعرت به، عند قــراءة الكتاب إلى الكتابة لكم.
- سيكون تاريخ الجزائر بدون تأكيد ممنونا لكم، على مساهمتكم القيمة وعلى الحقائق المرّة في أغلب الأحيان (الحريــة، التســامح الــخ) التي تخللت كتابكم.

محمد حاج صدوق
(أستاذ للغة العربية السابق
الذي درّس عبّان رمضان في متوسطة البليدة)

أرجو أن تسمحوا لمواطن جزائري من الدرجة الثانية أن يزعجكم. لقد انتهيت من قراءة كتــابكم حــول عبــان رمضــان و أود أن أشــكركم على كتابته. لقد انتظرت سنوات طويلة هذا العمل حول حياته. فشكرا

لويس كيرغوت

أنا مواطن مناضل القضية الجزائرية، عضو المنظمة المدنية لجبهــة التحرير الوطني. أسمحوا لي أن أتوجه إليكم لأنــه كــان لــي الشــرف والسعادة أن أقرأ ببالغ التــأثر كتــابكم حــول بطــل حــرب الجزائــر وهو المرحوم عبان رمضان الذي سيظل كل جزائري شهم يكن له كل الإعجاب.

عبد القادر دوب
البليدة 1990/05/6

الصـــور

ـوم عبــان
ـرب وتشعر

هوغوز
(Le Monde
19

ـوت الفقيــد
عند قــراءة

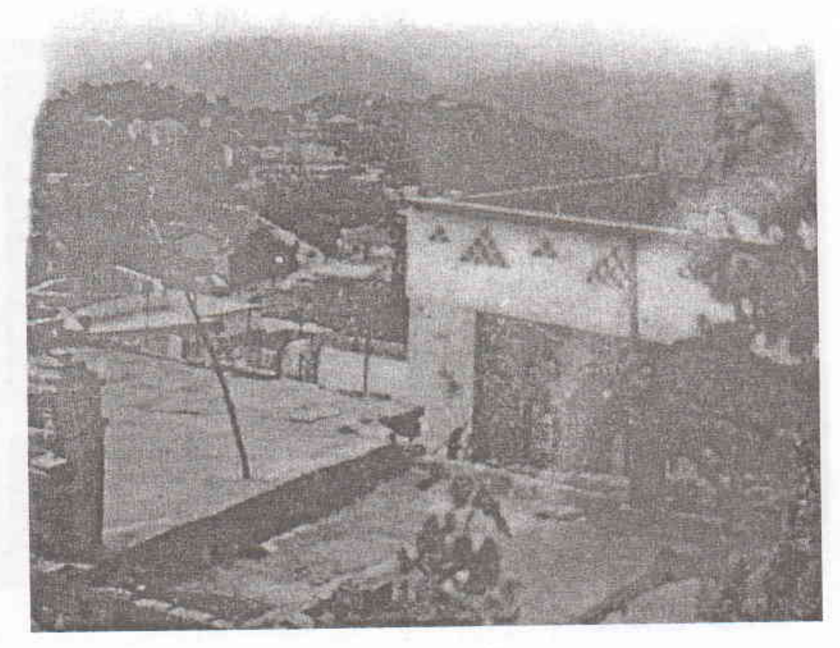
اهمتكم القيمة
ــامح الــخ)

ة البليدة)

يزعجكم. لقد
ان أشــكركم
ه. فشكرا
لويس كيرغوت

المدنية لجبهــة
ــي الشــرف
ـرب الجزائــر
كل الإعجاب.

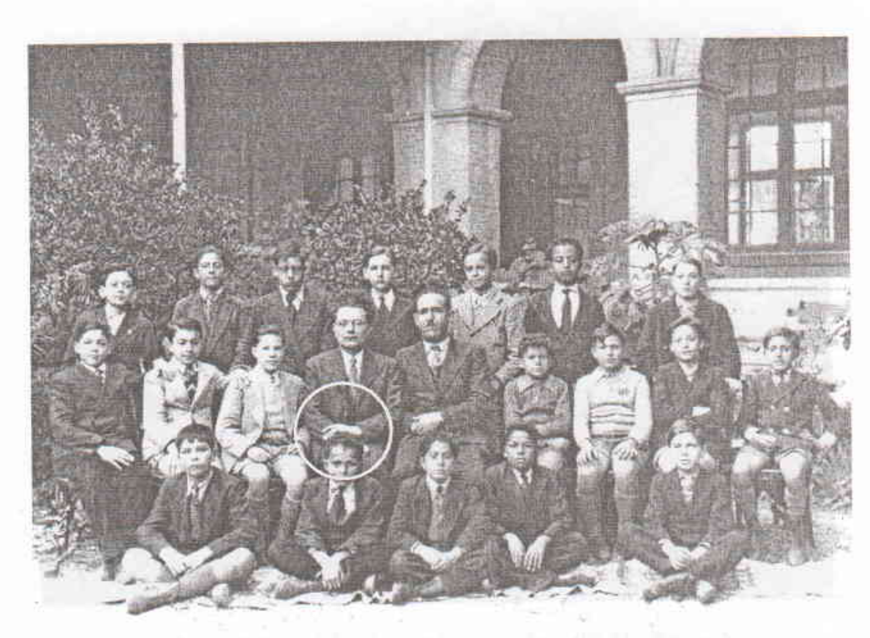
در دوب
1990/05/6



قرية عزوزة، مسقط رأس عبان رمضان (القبائل الكبرى)



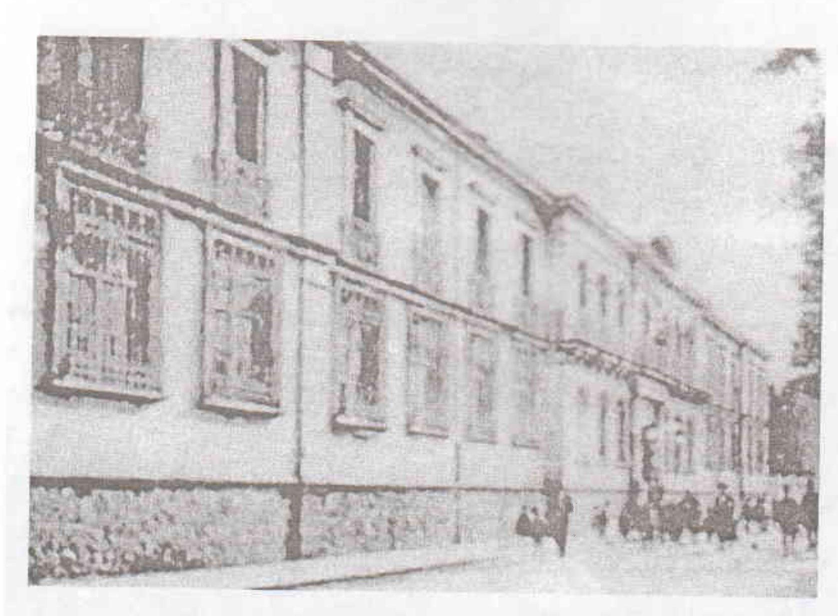
غرفة عبان التي كان يسكنها في الطابق الأول من السكن العائلي الذي ولد فيه.



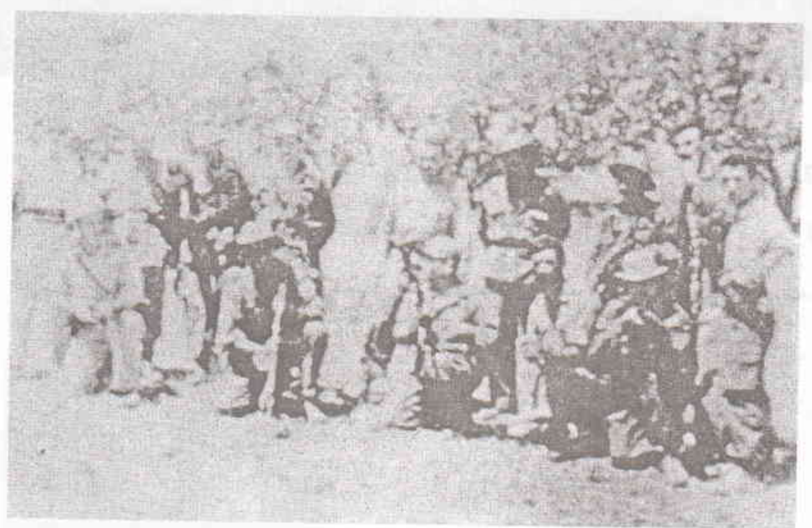
قسما الهندسة المدنية (ب): الانجليزية والعربية
بمتوسطة دوفيريي (Duveyrier) بالبليدة في ربيع 1935

- 10 معربين (6 فرنسيين وأربعة جزائريين)
- عبان رمضان الثاني ضمن الجالسين على الأرض ابتداء من اليسار، وإلى يساره يوجد صديقه بوعلي دحمان وبولحراش عبد القادر من الجلفة.
- ونتعرف بوضوح على أستاذ اللغة العربية حاج صدوق الجالس في الصف الثاني وله شارب خلافا لأستاذ اللغة الإنجليزية الذي يحمل نظارات.

ملاحظة: تحصلتُ على الصورة من حاج صدوق الذي أشكره كثيرا على ذلك.



متوسطة "Dueyrier" (دوفيريي) بالبليدة التي أصبحت ثانوية ابن رشـد. زاول فيها عبان رمضان دراسته الثانوية من 1931 إلى 1942 وتحصل علـى شـهادة البكالوريا في الرياضيات. كما درس فيها سعد دحلب وابن يوسـف ابـن خـدة والدكتور لامين دباغين الذي أصبح فيما بعد طبيباً.



مؤتمر الصومام، أوت- سبتمبر 1956.
بن طوبال، عبان، ابن مهيدي. عميروش وأوعمران.



، وإلى يساره

ـدوق الجـالس
ن نظارات.



الرئيس الحبيب بورقيبة، رئيس الجمهورية التونسية عند استقباله في صـيف 1957 بعض أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ المنبثقة عن المجلس الوطني للثورة الجزائرية في جويلية 1957 بالقاهرة. من اليسار إلى اليمين : لخضر بـن طوبـال، عمـار أوعمران، رمضان عبان، محمود الشريف وكريم بلقاسم.



صورة التقطت في تونس في أفريل-ماي 1957 بعد خروج لجنة التنسيق والتنفيذ من الجزائر العاصمة. من اليسار إلى اليمين: عبان، دحلب، كريم وابن خدة. الخامس لم يكن عضو لجنة التنسيق والتنفيذ وهو أحمد بودا.



في مؤتمر الصومام: من اليسار إلـــى اليمـــين: العقيد ابن عودة وعبان.



تباله في صـــيف 1957
وطني للثورة الجزائرية
بــن طوبـــال، عمـــار



مطار تونس، خريف 1957 عبان متبوعاً بادريس براهيم من الاتحاد العام للعمال الجزائريين.



أفريل 1985، حيدرة ـ الجزائر العاصمة. من اليمين إلى اليسار: العقيد سليمان دهيليس (صادق) السيدة دهيليس عزة السيدة معمري لويزة والمؤلف خالفة معمري.

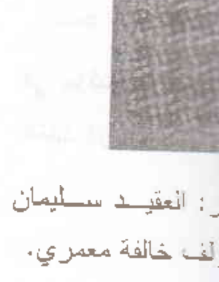


السيدة عبان رمضان المولودة (عزة بوزكري) مع ابنها حسان عبان.

وهي مناضلة من الرعيل الأول، ولعبت دوراً خفيًا لكنه هام إلى جانب زوجها طوال وجوده على رأس الجزائر العاصمة.

التقطت الصورة في جانفي 1958 في الطريق إلى تونس.





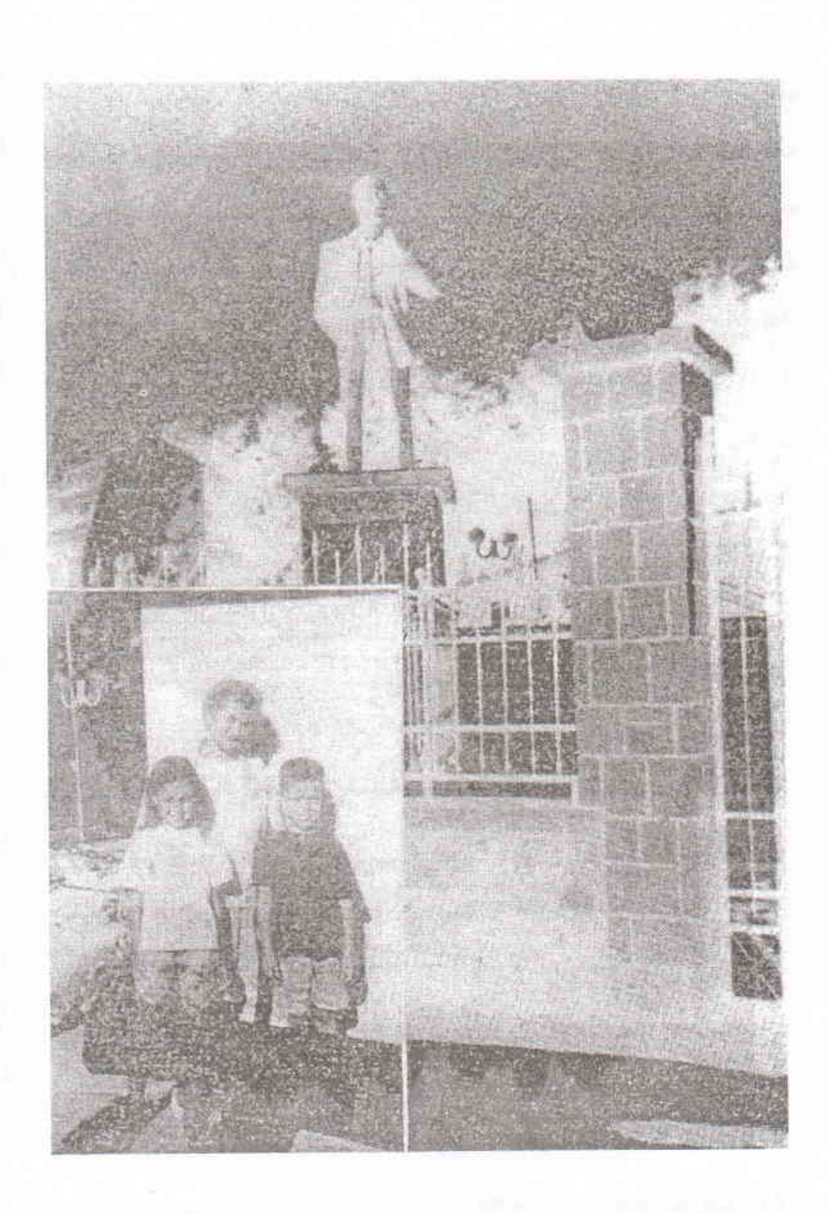
ر: العقيد سليمان

لف خالفة معمري.



أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ الأربعة الناجون في القاهرة في جويلية 1957.

من اليسار إلى اليمين: ابن خدة، دحلب، عبان وكريم.



معلم تذكاري أقيم تكريماً وتخليداً لعبان رمضان في مسقط رأسه بقرية عزوزة، دائرة الأربعاء ناث ايراثن (تيزي وزو).
أمام النصب التذكاري زوجته عزة وحفيداه فرح و رضا.

ويلية 1957.

الفهـــرس



إنجاز وتصميم منشورات ثالة، الأبيار- الجزائر
هاتف: 43 02 92 /58 36 92
فاكس: 11 42 92 021
e.mail : thalaed @ hotmail.com

" ... إن مثل هذا العمل يهدف إلى التعريف بأبطال حربنا التحريرية وبالأخص عبان رمضان و كيفية صد المحاولات الماكرة والخبيثة التي ترمي إلى إسقاط اسمه من ذاكرة شعبنا الجماعية والحط من مكانته ودوره.

أتساءل دوما، وبكثير من الألم، عن تلك النزعة التي تسيطر علينا، نحن الجزائريين، على المستوى الرسمي على الأقل، في تفضيل المنهزم على المنتصر...

من غير أن أعود بعيدا في التاريخ لإبراز كيف تجاهلت الجزائر الرسمية بكثير من المكر رجالا صنفوا من بين عباقرة العالم فإن الغضب والسخط يغمراني عندما أتذكر أن عبان رمضان الذي يزيد همة و شأنا كلما زاد تعرفنا عليه قد همش مطولا في الساحة السياسية الجزائرية. صحيح أن القادة الأولين لبلدنا، في خلطهم بين صغر "الأنا" الشخصية و"الذات" الجماعية لشعب صنعه التاريخ، قد ظنوا أنهم انتقموا منه. كانوا يجهلون حينئذ أن الجزائر بأكملها هي التي ضربت في كيانها وضميرها طالما انه من المستحيل تحريف التاريخ باستمرار. والشعب الذي لا يطالب باستفسارات ولا يصدر أحكاما سيدفع حتما الثمن إن عاجلا أو آجلا. من الذي يتجرأ اليوم على الإنكار أننا كلنا كجزائريين أضحينا اليوم أمام "محاسبة" التاريخ لأننا تركنا منذ الاستقلال، أشياء فظيعة تحدث باسمنا جميعا إما لجني مصلحة ما وإما بجبن فقط؟ فحذار ثم حذار من تخذير الضمائر".

المؤلف

ر.د.م.ك : 978-9961-905-62-3